سلسلة النصوص المحققة



مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
مركز دراسات المخطوطات الإسلامية

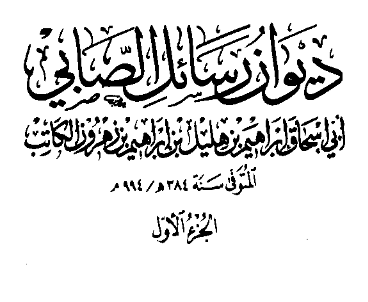
ديوان رسائل الصابي

أبي إسحاق إبراهيم بن هليل بن إبراهيم بن زهرون الكاتب (٣٨٤هـ/٩٩٤م)



الجزء الأول

جمع وتحقيق ودراسة
إحسان ذنون الثامري


ديوان رسائل الصابي
أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الكاتب
المتوفى سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م
الجزء الأول

سلسلة النصوص المحققة

ديوان رسائل الصابي

أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الكاتب

المتوفى سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م

الجزء الأول

جمع وتحقيق ودراسة

إحسان ذنون الثامري



مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
مركز دراسات المخطوطات الإسلامية

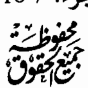


مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي
مركز دراسات المخطوطات الإسلامية

22A Old Court Place
London W8 4PL, UK
Tel: + 44 (0) 203 130 1530
Fax: + 44 (0) 207 937 2540
Email: info@al-furqan.com
Url: www.al-furqan.com

الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ /٢٠١٧ م

ردمك: رقم المجموعة: 978-1-78814-719-4
رقم الجزء: 978-1-78814-718-7





محتوى الجزء الأول

رسائل في التهاني

رسائل في التعازي



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، الهادي إلى الصراط المستقيم، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين،

أمّا بعد،

يسرّني اليوم، باسم مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، أن أقدّم للباحثين المهتمين بالتراث الإسلامي عموما والتاريخ الإسلامي خصوصا، كتابا مهما بعنوان: «**ديوان رسائل الصابي**»، وهو عبارة عن ٤١٩ رسالة تعود للعصر العباسي الثاني وعلى وجه الخصوص عهد سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية وتحكمهم بالدولة، وقد كتبها واحد من ألمع كتّاب القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ألا وهو أبو إسحاق إبراهيم الصَّابيّ (ت٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، وقام بجمعها وتحقيقها ودراستها الدكتور الشاب إحسان ذنون عبد اللطيف الثامري.

وسيجد القارئ في هذه الرسائل مادةً حضارية ذات أهميةٍ بالغة يُمكن أن تُوظّف في كتابة التّاريخ، وفهْم بعض جَوانبه خلال حُقبة البُوَيْهيين؛ فهي كنزٌ وَفيرُ الفائدة، يوفّر للباحثين كمّاً هائلاً من المادّة التاريخية الجديدة التي تنشر لأول مرة. ففي هذه الرسائل مادّةٌ أوليّة غنيّة، تَرْفد البَحْث التّاريخي، وتوطّد بعض أرْكانه.

كما تكمن أهمية هذه الرسائل في كونها أوعيةٌ حافظةٌ لكثيرٍ من المادّة الأوليّة التي تُساعد على دراسة تاريخ الدَّوْلة الإسلامية في عَهْد التسلّط البُوَيْهي (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٦-١٠٥٥م)؛ والصّراع الناشب بينهم وبين مؤسّسة الخلافة والقُوى المحيطة، والتنافس الداخلي البُوَيْهي؛ ففيها ما يُفصح عن مُراسلاتٍ سياسية، وتنظيماتٍ اقتصادية، وإجراءاتٍ إدارية. وفيها وثائق وعُهود وكُتب تكليفٍ وتقليدٍ للوظائف الكُبرى.

ورَسائل الصّابي – في معظمها – رَسائل ديوانية (رَسْميّة) صادرةٌ إما عن الخلفاء العباسيين، وإما عن الأمراء البُوَيْهيين الذين تمكّنوا من اجتزاء كثيرٍ من بُلدان المشرق الإسلامي، واقتطاعها من سُلطة الخلافة، واستطاعوا سَلْب الصَّلاحيات الدُّنيوية للخليفة العبّاسي، والتحكّم بمقدّرات الدَّوْلة. وهذه الرَّسائل تُظهر نظرتهم لفكرة الدَّوْلة، وفَلْسفتهم الإدارية، وإجراءاتهم الاقتصادية والإدارية والسياسية والعسكرية والعمرانية، وعلاقاتهم بالخلفاء والناس وببعضهم البعض، وكثيراً من تاريخهم الاجتماعي والثقافي.

والرَّسائل الإخوانية بما فيها من أغراض التهنئة والتعزية والشكر والعتاب والشفاعات والاستعطاف تشكّلُ انعكاساً لمنظومةٍ من العلاقات الاجتماعية، بغضّ النظر عن مدى صِدْق عواطفها ومشاعرها.

ولا يخفى على الباحثين أنّ هذه الرَّسائل ليست وثائق متعلقة بعصر اتسم بسيطرة البويهيين فحسب، بل هي مصدرٌ أصيلٌ يوثّق لكثيرٍ من مَفاصل التّاريخ والحضارة، وعلى كافّة صُعُد الحياة اليَوْمية للمجتمع آنذاك. كما أنّ هذه الرَّسائل بأسلوبها الأدبي واللُّغوي والبَلاغي تشكّل أحد المقاييس المهمّة لدراسة تطوّر الكتابة الفنية في تاريخ الأدب العربي، وللمساهمة في فَهْم تاريخ المصطلح التاريخي والفنّي. وغنيّ عن القول إن لكلّ رسالةٍ من هذه الرَّسائل – رَسْميّة كانت أم شخصية – أهميةً خاصّة من حيث الحدَث والحيثية والموقف.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجزي الدكتور إحسان ذنون عبد اللطيف الثامري خيرًا على ما بذله من جهد كبير في جمع الرسائل المتفرقة وتحقيقها ودراستها لتصبح على شكل هذا الكتاب القيم.

والله أسأل أن يجعل عملنا كله خالصًا لوجهه، وأن يرزقنا التوفيق في المقاصد كلها إلى طاعته ومرضاته.

والحمد لله رب العالمين،



أبو إسحاق الصّابي

«أوحدُ العراق في البلاغة، ومَن به تُثنى الخناصرُ في الكتابة»

الثعالبي، يتيمة الدهر.

* * *

«ذاك رجلٌ له في كلِّ طِرازٍ نَسْج، وفي كلِّ فضاءٍ رَهْج، وفي كلِّ فلاةٍ رَكْب، وفي كلِّ غَمامةٍ سَكْب؛ الكتابةُ تدّعيه بأكثر مما يدّعيها، والبلاغةُ تتحلّى به بأكثر مما يتحلّى هو بها»

أبو الفتح ابن العميد في (أخلاق الوزيرين) لأبي حَيّان التَّوْحيدي.

* * *

«من فُرسان البلاغة الذين لا تكبو مَراكبهم، ولا تنبو مَضاربهم»

الروذراوري، ذيل تجارب الأمم.

* * *

«أوحدُ الدُّنيا في إنشاء الرَّسائل، والاشتمال على جهات الفَضائل»

ياقوت الحموي، معجم الأدباء.

* * *

«كيف أضعُ من الصّابي وعلمُ الكتابة قد رفعه، وهو إمامُ هذا الفنّ والواحدُ فيه؟!»

ابن الأثير، المثل السائر.

* * *

أعلمتَ مَنْ حَمَلوا على الأعوادِ ... أرأيتَ كيف خَبا ضياءُ النّادي
جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى ... من وَقْعِه مُتتابع الإزبادِ
ما كنتُ أعلمُ قبل دَفْنِك في الثرى ... أنّ الثرى يعلو على الأطوادِ
بُعْداً ليومك في الزّمانِ فإنه ... أقْذى العُيونَ وفتَّ في الأعضادِ

الشريف الرضي، ديوانه.



مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو إسحاق الصّابي كاتبٌ من أبرز كُتّاب العصر العَبّاسي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وواحدٌ من بُلغاء الدَّهْر. كان الصّاحبُ بن عَبّاد كثيراً ما يردّد: كُتّاب الدُّنيا وبُلغاء العَصْر أربعة: الأستاذ ابن العَميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصّابي، ولو شئتَ لذكرتُ الرابع، يعني نفسه.

لكن حظّه العاثر لم يوفّر له فرصةً ليرتقي إلى ما ارتقى إليه غيرُه ممن هم أقلّ كفاءةً وبلاغة، وظلّ كاتباً في الظلّ يُنشيء أفخم الرَّسائل والوثائق، لكنه لم ينل ما يستحقّه من مكانةٍ واهتمام. بل إنّ بُؤسه وقلّة سَعْدِه ساقاه إلى أنْ يكون تحت أرْجُل الفِيَلة لتصرَعه لولا تدخّلُ بعض الفُضلاء، إذ شفعوا إلى سَيِّده عَضُد الدَّوْلة البُوَيْهي ليعفوَ عنه ويكتفي باعتقاله ومُصادرته.

وكان عَضُد الدَّوْلة ينقمُ عليه بعضَ ما كَتَب عن الخليفة العبّاسي الطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـ/ ٩٧٤-٩٩١م)، وابن عمّه المنافس الأمير عِزّ الدَّوْلة بَخْتِيار البُوَيْهي (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، وخاصّة ذلك الكتاب الذي كَتَبه عن الخليفة بشأن بَخْتِيار، لما تقرّر الصُّلحُ بينه وبين ابن عمّه عَضُد الدَّوْلة، فقد تقدّم عِزّ الدَّوْلة إلى الصّابي بإنشاء نُسخة يَمين، فأنشأها واسْتوفى فيها الشروط حقّ الاسْتيفاء، فلم يجد عَضُد الدَّوْلة مجالاً لنَكْثها وألْزمته الضَّرورةُ الحلْف بها[1]، وهو: «وقد جدّد له أميرُ المؤمنين مع هذه المساعي السَّوابق، والمعالي السَّوامق، التي تلزمُ كلَّ دانٍ وقاص، وعامٍّ وخاص، أنْ

---

(١) القفطي، إخبار العلماء، ص٥٤.

يعرفَ له حقّ ما أكرم به منها، ويتزحزح عن رُتبة المماثلة فيها»[١].

قال حفيدُه: هذا الكتاب الذي نقمه عَضُد الدَّوْلة على إبراهيم جَدّي وحبسه لأجله أربع سنين وشهوراً[٢]. لقد أثّر هذا الكتاب في عَضُد الدَّوْلة أشدّ تأثير، وأنكره أيّما إنكار، ولم يشكّ في انحياز الصّابي عنه، والتّعريض به؛ فأسرَّ غيظَه في نفسه، وأضمر الانتقام.

ولما دَخل العراق ومَلَك الدَّوْلة، رغبت نفسُه في الاقتصاص من الصّابي؛ فأحْضَره وقال له: قد علمت ما كنتَ تُعاملني به من قَبيح المكاتبة، وقد أحْفَظني ذلك ودَعاني إلى قَتْلك. ثم صادَرَه وسَجَنه، وولّى ديوانَ الإنشاء مكانَه أبا منصور بن المَرْزُبان أحد الكُتّاب البُلغاء[٣].

ولعلّ من أسباب اعتقاله التنافس الشديد بين الغريمَيْن عَضُد الدَّوْلة وعِزّ الدَّوْلة على الألقاب الشرفية التي تصدر عن دار الخلافة، والتي اعتقد عَضُد الدَّوْلة أن للصّابي دوراً في إطلاقها. من ذلك الكتاب الذي كتبه عن الخليفة الطائع لله: «وقد رأى أمير المؤمنين الإيفاء بك على الأكفاء ووسمك بإمارة الأمراء، ...... وكانت هذه الرتبة أفخم وأعظم من كلّ ما تقدّم»[٤]. وكذلك ما كتبه عن الخليفة الطائع لله وقد لَقّب عِزّ الدَّوْلة بشاهَنْشاه، فقد اعتبر ذلك مَيْلاً إلى جانب عِزّ الدَّوْلة وعدم مساواة، «فنقم عليه عَضُد الدَّوْلة»[٥].

---

(١) نصُّه الكامل في ج٢، ص١٠٤ من هذا الكتاب، وعنوانه: وكتب عن الطّائع لله إلى أصحاب الأطراف بتكرمة عِزّ الدَّوْلة.

(٢) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص١٢١.

(٣) انظر: الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩١؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص١٩١.

(٤) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص١٢١.

(٥) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٨٥. وانظر الرسالة التي كتبها الصّابي في هذا الشأن، ج١، ص٢٩٩. وعن رسوم المخاطبات الرسمية الصادرة عن دار الخلافة، انظر: الصابي في كتابيه: تحفة الأمراء، ص١٧٢؛ رسوم دار الخلافة، ص١١٣.

احتفظ ياقوت الحموي برواية حفيد أبي إسحاق عن جَدّه بشأن تلك الأحداث، قال: «كنتُ جالساً بحضرة أبي القاسم المطَهَّر بن عبد الله وزير عَضُد الدَّوْلة في يوم القَبْض عليّ، إذ وَرَدت النَّوْبةُ، ففُضَّت بين يَدَيْه، وبدأ منها بقراءة كتاب عَضُد الدَّوْلة. فلما انتهى إلى فصلٍ منه وَجَم وُجوماً بان في وَجْهه، فقال لي أبو العلاء صاعد بن ثابت[١]: أظنّ في هذا الكتاب ما ضاق صَدْراً به. وقمتُ من مَجْلسه لأنصرفَ، فتَبِعني بعضُ حُجّابه وعَدَل بي إلى بيتٍ من داره، ووكّل بي، وراسَلَني يقول: لعلّك قد عرفتَ منّي الانزعاج عند الوقوف على الكتاب الوارد من الحضرة اليوم، وكان ذلك لما تضمّن من القبض عليك، وأخْذ مئة ألف دِرْهم منك، وينبغي أنْ تكتبَ خطَّك بهذا المال، ولا تراجع فيه»[٢].

وذكر أبو شجاع الروذراوري سبباً آخر لاعتقاله، هو ما وُجد في بعض قلاع أبي تَغْلِب الحمْداني بعد هزيمته وهزيمة عِزّ الدَّوْلة. فقد وُجد الكثير من الكتب والحسبانات عن عز الدولة إلى أبي تغلب بخط أبي إسحاق الصّابي، فحُملت إلى عَضُد الدَّوْلة. فلمّا وقف عليها حرّكت ما في نفسه، فكتب من هناك بالقبض عليه[٣].

كتب الصّابي من السِّجن[٤] إلى بعض أصحابه: نحن في الصُّحبة كالنَّسْرَيْن، لكنّي واقعٌ وأنت طائر، وعلى الطائر أنْ يغشى أخاه ويُراجع[٥]؛ فشفع فيه بعض الفُضلاء، وشَرَحوا لعَضُد الدَّوْلة مَوْهبته وبلاغته، فاقتنع بعد أنْ سَمع منهم: «مِثْلُ

---

(١) أحد المقربين من معز الدولة وعضد الدولة، وتولى لهما بعض الأعمال الإدارية. أخبارُه مبثوثة في كتابي القاضي التنوخي: الفرج بعد الشدة، ونشوار المحاضرة، وكذلك في كتاب تجارب الأمم لمسكويه، والهفوات النادرة للصابي.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص١٩٤.

(٣) ذيل تجارب الأمم، ص٣٢. ولعلّ تلك الكتب هي التي أشار إليها الصابي في إحدى رسائله، ج١، ص١٤٦.

(٤) حُبس الصابي في دار الوزير المطَهَّر بن عبد الله. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٦، ص٣٦٣.

(٥) الحصري: زهر الآداب، ج٣، ص٨٩١؛ جمع الجواهر، ص٢٥٢.

مَوْلانا لا ينقمُ على مِثله ما كان منه، فإنـه كـان في خِدْمـة قـومٍ لا يُمكنـه إلّا المبالغـة في نُصْحهم، ولو أمَرَه مَوْلانا بمثل ذلك – إذا استخدمه – في أبيـه، مـا أمْكنـه المخالفـة».

لكنّه اشترط لإطـلاقِ سَراحـه أنْ يصـنّفَ كتابـاً يمجّـد فيـه الـدَّيْلَم ويـذكرَ تـاريخهم ومآثرهم، وأخبارَ الأسرة البُوَيْهيّة؛ فأذعن الصّابي للأمر، وبـدأ في العَمَـل، واشـتقّ لـه عنواناً من لَقَب سَيِّده (تاج المِلّة)، فأسْماه (التّاجي) أو (العَضُدي) – وكان لقـب (تـاج الملة) قد اختاره الصّابي بعد أنْ كان عضد الدولة يرغب بلقب (تاج الدولة) فلم يحصل على موافقة الخلافة به[1] – وفي أثناء عَمَله في هذا الكتـاب، دَخـل عليـه بعضُـهم ورأى انهماكه في الكتابة، فسأله عن ذلك، فأجابه – كما تقول الرّواية – قائلاً: أباطيـل أنمّقهـا وأكاذيب ألفّقها. فنُقلت هذه الجملـةُ إلى عَضُـد الدَّوْلـة الممـتلىء غيظـاً وحنقـاً عليـه؛ فاسْتشاط غضباً، وأمر به أنْ يُلقى تحت أرْجُل الفِيَلة[2].

لكنّ الله عزّ وجلّ لم يكن قد شاء أنْ ينتهي أجلُه؛ فاسْـتجاب عَضُـد الدَّوْلـة لمـن شَفع لَدَيْه فيه من رجاله، وفي مقدّمتهم صاحبُ ثقته نَصْـر بن هارون[3]، ووزيرُه مُطَهَّر بن عبد الله، وكاتبُـه الأثـير عبـد العزيـز بـن يوسـف[4]؛ فعفـى عنـه واكتفـى بحَبْسـه

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤١٥-٤١٦.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩١؛ الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٣١؛ ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٨، ص٦٧؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص١٨٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٢؛ ابن الساعي، الدر الثمين، ج١، ص١٧١، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١٧، ص٤٨٦؛ العباسي، معاهد التنصيص، ج٢، ص٦١؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٤٣٧؛ كرنكو، الصابي، دائرة المعارف الإسلامية.

(٣) عنه، انظر: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٦١؛ القفطي، إخبار العلماء، ص٧٩. وأخباره مبثوثة في الكامل لابن الأثير.

(٤) عن عبد العزيز بن يوسف، انظر: مقدمة محقق (رسائل الشيرازي) المنشورة في دار صادر، بيروت، ٢٠١٠.

ومُصادرته؛ فظلّ في السِّجْن ما يُقارب أربع سنين (٣٦٧-٣٧١هـ/ ٩٧٨-٩٨٢م)[1].

يورد الثعالبي أحد أسباب إطلاق عَضُد الدَّوْلة للصّابي، وهو قراءته للمراسلة الشعرية التي كان يتبادلها مع أبي الفرج الببّغا، لما بها من مروءةٍ واستعطافٍ وتذلّل[2].

كان الصّابي ذا مَوْهبةٍ أدبيةٍ ولُغويةٍ عالية، وله قدرةٌ على التأنّق في فنّ الكتابة، جعلته في مَصافّ أهم البُلغاء في تاريخ الثقافة العربية، كما كانَ ذا موهبةٍ إداريّةٍ كبيرة، جعلته قادراً على تدبير شؤون الملك والتعامل مع الجند وحفظ الأموال وتسيير البلاد، فقد كان مؤهّلاً بخبرة وإدراكٍ سياسيين، وحكمةٍ ظهرت في رَسائله وأقواله، ومما أُثر عنه من أقواله الحكيمة: «الملكُ باصطفاءِ رجاله أحقُّ منه باصطفاءِ أمواله؛ لأن كلَّ دِرْهمٍ يسدّ مكان أخيه، وما كلّ رجلٍ يسدّ مكان أخيه»[3].

يُضاف إلى ذلك علمُه بالحساب والهندسة والفَلَك[4]. قال القِفْطي: لما عَزَم شَرَفُ الدَّوْلة ابن عَضُد الدَّوْلة على رَصْد الكواكب ببغداد سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، واعتمد في ذلك على أبي سَهْل ويجن بن رستم الكُوهي[5]، كان في جُملة مَن حضره من العلماء بهذا الشأن إبراهيم بن هِلّيل، وكتب بخطّه في المحضر الذي كُتب بصورة الرَّصْد وإدراك مَوْضع الشمس من نزولها في الأبراج. وقد احتفظ القفطي بنصّ محضر الرَّصْد، وفيه اسم أبي إسحاق الصّابي[6].

---

(١) الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٣١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٨٥.

(٢) يتيمة الدهر، ج١، ص٣١٠.

(٣) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج١، ص٢٩٧. وانظر أيضاً: الفِقَر التي حفظها ابن حمدون في تذكرته، ج١، ص٣٠٣ والتي أثبتُّها في ملاحق هذا الكتاب، ملحق رقم (١).

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٧٦.

(٥) عنه، انظر: القفطي، إخبار العلماء، ص٢٣٠.

(٦) القفطي، إخبار العلماء، ص٥٤، وانظر: ص٢٣٠، ص٢٣١؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٧٦.

وأردف القفطي: «وله عدّةُ رَسائل في أجوبة مُخاطبات لأهل العلم بهذا النوع».
كما كانت له مُراسلاتٌ علميّة مع سنان بن ثابت بن قُرّة الفلكي والطبيب[١]، وأبي سَهْل الكُوهي الرياضيّ المهندس[٢]، وغيرهما.

وفي رَسائله ما يدلّ على علمه بالفلك والنجوم والمواقيت والسّاعات الشمسية والمائية (المزولة، الرخامة، الفنجان) والاصطرلاب[٣]. وكذلك بالهندسة ومصطلحاتها، وكان معلّق القلب بالمسائل الهندسية كما قال عن نفسه[٤]، وهي شيءٌ تتطلّع نفسه جداً إلى معرفته واستفادته، كما قال في رسالةٍ أخرى[٥].

مكّنته ثقافتُه الواسعة ومَواهبُه المتعدّدة تلك من حِيازة ثقة الخلفاء والأمراء والوزراء، فتولّى ديوان الرَّسائل للخليفتين المطيع لله والطائع لله، بالإضافة إلى الأمراء البُوَيْهيين[٦]؛ فكتب عنهم، وعبّر على لسانهم ما أدّى الغرض؛ فراق لهم، وأُعجبوا بكتابته. قال في إحدى رسائله: «..... ذلك ما أهّلني له، ورفعني إليه مَوْلانا الملك من تقلّد ديوان الرَّسائل بحضرته، وملازمة مجلسه»[٧]. وخلال محاولته تبيين أعمال الكُتّاب وأهمية صناعة الكتابة وتميز أهلها، شرح ما كان يقوم به هو نفسه، فكأنه كان

---

(١) القفطي، إخبار العلماء، ص١٣٣. كتب رسالةً بعنوان قسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة، وأرسلها إلى أبي إسحاق الصابي.

(٢) القفطي، إخبار العلماء، ص٥٤. بعضها محفوظٌ في (مجموع فيه كتب ورسائل واستخراجات) لأبي سَهْل الكُوهي، وسيجدها القارىء منشورةً في هذا الكتاب.

(٣) انظر على سبيل المثال الصفحات: ج١، ص٥٠٨، ص٥٠٩، ص٥١١، ص٥١٦، ج٢، ص٨٧، ص٤٨٦.

(٤) في رسالته المنشورة في ج٢، ص٦٨٠ من هذا الديوان.

(٥) ج٢، ص٦٧٨، ص٦٨١.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٧٠. وانظر: ديوان رسائل الصابي، ج١، ص٤٠٧، ج٢، ص٨٧.

(٧) ج١، ص٤٠٧.

يتحدث عن نفسه حين كان يخدم البلاطين العَبّاسي والبُوَيْهي، إما في «جباية خـراج، أو سد ثغر، أو عِمارة بلاد، أو إصلاح فَساد، أو تحريضٍ على جهاد، أو احتجاجٍ عـلى فئـة، أو مجادلةٍ لملّة، أو دعاءٍ إلى ألفة، أو نَهْيٍ عن فُرقة، أو تهنئةٍ بعَطِيّة، أو تعزيةٍ عن رَزيّـة، أو ما شاكل ذلك من جَلائل الخطوب، ومَعاظم الشؤون التي يحتـاجونَ فيهـا أنْ يكونـوا ذوي أدواتٍ كثيرة، ومعرفةٍ مفنَّنة»[١]. وكان الوزير أبو محمد المهلَّبي – وزيرُ مُعِزّ الدَّوْلة – «لا يرى الدّنيا إلّا به، ويَصْطنعه لنفسه، ويُنيبه عنه في أمور الوزارة»[٢].

يُذكر أنّ الصّابي كان قد خَدَم سابقاً الأمير مُعِزّ الدَّوْلة البُوَيْهي وذلك سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م بعد وفاة أبي إسحاق بن ثَوابة صاحب ديوان الرَّسائل[٣]، ثم خَدَم ابنه عِزّ الدَّوْلة بَخْتِيار بن مُعِزّ الدَّوْلة – ابن عمّ عَضُد الدَّوْلة وخَصْمه اللّدود– وحَظي بمكانةٍ كبيرةٍ عندهما، حتّى أنّه طَلَب منه أنْ يُسْلِم ليقلّده الوزارة، فأبى، مفضّلاً البقاء على دينه[٤].

وفي ديوان رَسائله هذا ما يدلّ على بقائه على دينه، وتَواصُله مـع أبنـاء طائفتـه في حَرّان[٥]، الذين أطلق علـيهم (أهـل الإيـمان). وعـبّر عـن ضـعف الطائفـة في إحـدى رَسائله معزّياً بعض أبناء طائفته بقوله: «قد جعلنا الله – معشر أهـل الإيـمان بـه – عـلى ثقةٍ.....». وأضاف: «.... لأننا أهل شريعةٍ قد ضاقت حلقتها، وخمدت جمرتها»[٦].

ورُغْم بقائه على دينه، إلّا أنه كان على علاقـةٍ حَسـنة بمَـن حولـه مـن المسـلمين، يُحسن عِشرتهم، ويتعامل معهم كواحدٍ منهم، يصومُ رمضان معهم مُسايَرةً لهم، ويحفظ

---

(١) رسائله، ج٢، ص٦٦٢.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٨٩؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص١٨٨.

(٣) الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص١٧٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٣١.

(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٨٨؛ في تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٣٠١: أن الذي طلب منه أن يسلم مُعِزّ الدَّوْلة وليس عِزّ الدَّوْلة.

(٥) ج١، ص٤٨٢، ص٦٣٤، ج٢، ص٦٠٢، ص٦٨٢.

(٦) ج١، ص٦٢٥، ص٦٢٦.

القرآن الكريم حفظاً يدور على طرف لسانه، ويقتبس منه الآيات، وبُرهان ذلك في رَسائله يحلّي فيها كتابته[١]. قال القَلْقَشَنْدي عند الحديث عن تَضْمين الكلام بعض آي القرآن: «وأكثر مَشْي الصّابي في كتابته على هذا الأسلوب»[٢]، وقال هو نفسه في إحدى رَسائله: «وهو أولى ما أذكرته واحتججت بأحكامه»[٣]، وقال في رسالةٍ أخرى: «وأنبأنا في الباهر من حكمه، والمعجز من كلمه»[٤].

وظلّ – طوالَ عُمُره – على علاقةٍ حَميمةٍ مع بعض أعلام عَصْره من الأمراء والوزراء والأدباء، في مقدّمتهم الصّاحب بن عَبّاد وزير البُوَيْهِيين، الذي رَبَطته به علاقةُ ودٍّ واحترامٍ حَرِص عليها الصّاحب حتى إبّان نكبة الصّابي[٥]، فقد كان الصّاحب يحبّه ويقدّر موهبته ويتعاهده على بُعْد الدار، ويتمنّى قُدومه إليه. قال حفيدُه هِلِّيل بن المحسِّن عن الصّاحب: كان يحمل إلى جدّي خمسمائة دينار، فأذكرُ وقد راسَلَه بعد وفاة عَضُد الدَّوْلة بالاستدعاء إلى حضرته بالرَّيّ، وبذل له النّفقة الواسعة والمعونة الشاسعة عند شُخوصه، والإرغاب والإكثار عند حُضوره، فاعتذر بصُعوبة تَرْك مَوْضعه ومُفارقة مَوْطنه. وكتب له أبياتاً غايةً في الرّقة والعُذوبة والاعتراف بالفَضْل، منها:

فلو انّ لي ذاك الجناحَ لَطار بي حتى أقبِّلَ ظهرَ كفِّ الصّاحبِ[٦]

وكان على علاقةٍ بالأمير سيف الدَّوْلة الحمْداني[٧] (٣٠٣-٣٥٦هـ / ٩١٥-٩٦٧م)، وأبي محمد جعفر بن وَرْقاء الشَّيْباني من رُؤساء عرب الشام وقُوّادها المختصّين

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٨٨؛ ابن الساعي، الدر الثمين، ج١، ص١٧٢.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٢٣٤.
(٣) ج٢، ص٥٣٩.
(٤) ج٢، ص٩١.
(٥) انظر رسائله في ج١، ص٤٠٧، ج٢، ص٥١١، ص٥٢١، ص٥٢٥، ص٥٧٠.
(٦) ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص١٩٩، ج٢، ص٢٨٣.
(٧) العتبي، اليميني، ص٢١٨ – ٢١٩؛ الثعالبي، يتيمة الدهر، ج١، ص٤٥.

بسيف الدَّوْلة، فقد «كانت بينهما مودّةٌ وتَزاوُر»[١].

كما ارتبط أيضاً بأبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الكاتب المقرّب من عَضُد الدَّوْلة البُوَيْهي[٢]. وكان على علاقةٍ مع أبي سَعْد العَميدي (ت٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م) الكاتب في ديوان التَّرْتيب الفاطمي، وبينهما مُراسلاتٌ تُوحي بصَداقةٍ أكيدة[٣]. وكذلك بالكاتب أبي سعد بهرام بن أردشير المجوسي[٤]. وارتبط بصداقةٍ مع بعض القُضاة لعلّ أبرزهم القاضي أبو بكر مُحمّد بن عبد الرحمن بن قُرَيْعة[٥]، والقاضي أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف الذي زاره في محبسه[٦].

وارتبط بعلاقة صداقةٍ مع كثيرٍ من الأدباء، منهم أبو الفَرَج عبد الواحد بن نَصْر المخْزومي المعروف بالبَبَّغا (ت٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م) الشاعر المعروف، ودارت بينهما «طُرَف المكاتبات ومُلَح المجاوبات»[٧]. وقد زاره في محبسه حينما اعتقل، فأثّرت تلك الزيارة كثيراً في نفس الصّابي، حيث رآها لفتةً جميلةً من صاحبه[٨]. واحتفظ بعلاقةٍ وطيدة بأبي حَيّان التَّوْحيدي (ت٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)[٩]، وأبي بكر الخَوارِزْمي

---

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج١، ص١٢٥.

(٢) رسائل الشيرازي، ص II من المقدمة؛ وانظر ديوان رسائل الصابي هذا، ج٢، ص٥٣١، ص٥٣٤؛ العسكري، ديوان المعاني، ج٢، ص٨٤٧.

(٣) انظر: رسائل العميدي، ص٤٢٦.

(٤) انظر ديوان رسائل الصابي، ج٢، ص٥٦٨.

(٥) ديوان رسائل الصّابي، ج٢، ص٥٩ الهامش، ص٦٦٩؛ ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٦، ص٣٠٨، ج٩، ص٣٥٥.

(٦) ديوان رسائل الصابي، ج٢، ص٥٤٧.

(٧) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج١، ص٢٩٣، ص٣٠٩.

(٨) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج١، ص٣٠٩.

(٩) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص٢١٧؛ الصداقة والصديق، ص٣٦، ص١٧١؛ المقابسات، ص١٥١، ص١٥٣، ص١٧٩، ص٢٦١، ص٢٦٣.

(ت٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)[١]. وفي رَسائله التي ننشرها هنا ما يدلّ على علاقةٍ جيّدة ربطته بالأديبين الموصليين الأخوين: مُحمّد وسعيد ابني هاشم الخالديين (توفي الأول نحو سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، والآخر ٣٧١هـ/ ٩٨١م)[٢]، وعلاقةٍ بالشاعر الموصلي السَّريّ الرَّفّاء (ت٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)[٣].

كما كان بينه وبين الشريف الرضيّ - أحد أبرز الوجوه الاجتماعية والأدبية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي - «مودّةٌ ومراسلات ومواصلات ومكاتبات ومتاحفات»[٤]. وبعد موته، رثاه بأبياتٍ مؤثرة رغم انتقاد بعضهم على رثاء شريفٍ موسويٍّ لصابي[٥]. ومنها الأبيات التي وَضَعناها في مستهلّ هذه المقدّمة[٦]. وصار يُعاني - كما بَثَّ لأحد أصدقائه - ألم الفراق واللَّوْعة، ويُبرّر ما لَحِقه من قَلَقٍ وارْتماض على أبي إسحاق، ويصف صداقتهما المتَّسمة بالوُدّ والصّدق والإخاء، «فإنه كما لم يغيّر لي وُدّه في حياته، رَماني بالخطب الجليل من وفاته»[٧].

وقال وقد اجتاز بقبره:

أيعلمُ قبرٌ بالجُنَيْنةِ أنّنا ... أقَمْنا به نَنْعى النَّدى والمعاليا
عَطَفْنا فحَيّينا مَساعيه إنها ... عظامُ المساعي لا العظامُ البَواليا[٨]

---

(١) انظر: ج٢، ص٦٩١ من هذا الكتاب؛ التوحيدي، المقابسات، ص١٥٣.
(٢) ج٢، ص٥٧٦.
(٣) ج٢، ص٥٧٦.
(٤) ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص١٨٣. وانظر مراسلاتهما النثرية والشعرية في كتاب (رسائل الصّابي والشريف الرَّضيّ) الذي نشره محمد يوسف نجم، عن دائرة المطبوعات والنشر في الكويت، سنة ١٩٦١.
(٥) انظر: القفطي، إخبار العلماء، ص٥٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٧١.
(٦) ديوانه، ج١، ص٢٩٤؛ رسائل الصابي والشريف الرضي، ص٤٥.
(٧) في رسالته المحفوظة في كتاب (رسائل الصابي والشريف الرضي)، ص١٠٣.
(٨) رسائل الصابي والشريف الرضي، ص٥٦.

وظلّ على وَفائه لذكرى صاحبه مُدّةً طويلة، فاجتاز بقبره سنةَ ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، أي بعد ما يقارب من عشر سنين، وقال قصيدةً، منها:

لـولا يَـذُمُّ الرَّكْـبُ عنـدك مَـوْقفي ... حَيَّيْـتُ قَـبْرَك يـا أبـا إسـحاقِ
إنْ تمـضِ فالمجـدُ المرجَّـبُ خالـدٌ ... أو تَفْـنَ فـالكلمُ العِظـامُ بَـواقي[1]

لقد بلغ الصّابي منزلةً من الكفاءة في الكتابة والبلاغة أنْ أضْحى أمَلَ الصّاحب بن عَبّاد وهو مَن هو في فَنّ الكتابة، فيُذكر عنه أنه قال: ما بقي من أوْطاري وأغراضي إلّا أنْ أملكَ العراق، وأتصدّرَ ببغداد، وأستكتبَ أبا إسحاق الصّابي ويكتبَ عنّي[2].

وكان الصّابي يعرف قَدْر نفسِه، ويعلم قيمةَ ما يُحسنه، وما يقدّمه من مَواهبه وعُصارة فِكْره في خِدْمة مَن خَدَمهم، فعبّر عن ذلك بقوله:

وقـد عَلِـم السُّـلطانُ أنّي أمِينُـه ... وكاتِبـهُ الكـافِي السَّـديدُ الموفّـقُ
أوازرُه فـيـما عـرَى وأمـدُّه ... برأيٍ يُريه الشمسَ واللَّيْـلُ أغسـقُ
يُجـدِّدُ بي نَهْـجَ العُـلا وهْـو دارسٌ ... ويفتحُ بي بابَ الهدى وهـو مُغْلَـقُ
فَيُمنـايَ يُمنـاه ولَفْظـي لَفْظُـه ... وعيني لَهُ عـينٌ بهـا الـدَّهرَ يَرْمُـقُ
ولي فِقَـرٌ تُضْـحِي المُلُـوكَ فقـيرةً ... إليها لـدَى أحـداثِها حـينَ تطـرقُ
أردّ بهـا رأسَ الجَمـوحِ فينثنـي ... وأجعلُهـا سَـوْطَ الحَـرونِ فيُعْنِـقُ
فـإنْ حاولَـتْ لُطفـاً فـماءٌ مُـرَوَّقٌ ... وإنْ حاولَـتْ عُنفـاً فَنـارٌ تـألَّقُ
يُسـلّم لي قُـسٌّ وسَـحْبانُ وائـلٍ ... ويَـرْضَى جريـرٌ مَـذْهبي والفَـرَزْدقُ
فيُغضـي لنثري خاطبٌ وهـو مصْـقَعٌ ... ويعنو لنظمي شـاعرٌ وهـو مُفْلَـقُ
مَعالٍ لَـو الأعْشـى رآهـنَّ لم يَقُـلْ ... وبـاتَ عـلى النـارِ النـدي والمحلـقُ[3]

(١) رسائل الصابي والشريف الرضي، ص٦١.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص٢٨٥.

(٣) العباسي، معاهد التنصيص، ج٢، ص٧٢.

وبسبب المحن الكثيرة التي حاقت به من حبسٍ واعتقالٍ وإقامةٍ جبريّة ومصادرةٍ وعقابٍ وغضبٍ واغتصابٍ لبعض أملاكه وخوفٍ من القتل وموت أكبر أولاده[1] مرّ الصّابي بحالةٍ شديدةٍ من الحزن والاكتئاب النفسي وهو في سنٍّ مبكرة، فأوصى وهو في الثانية والأربعين من عمره وصيّة مَن شَعَر بدنوّ أجله، وأعطاها لولده. وفيها قدّم أبو إسحاق صورةً واضحةً للظروف المادية والنفسية التي تجمّعت في شخصه، من ضعفٍ وفتورٍ وشيبٍ وإحباطٍ ويأسٍ وتخيُّلٍ لوالده الراحل وإحساسٍ بالوحشة في عالم الأحياء[2].

توفّي أبو إسحاق يوم ١٣ شوال سنة ٣٨٤هـ/ ٢٠ تشرين الثاني ٩٩٤م، بعد أنْ تهتّك حالُه، وانخفض أمرُه، وقد قارَب التسعين من عُمُره[3]، ودُفن في الجُنَيْنَة المجاورة لمقبرة الشُّونيزي بأرض كَرْخايا[4] ببغداد[5].

***

(١) انظر الصفحات: ج١، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٩٨، ٦١٩، ٦٣٣، ج٢، ٣٥٦، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٥، ٥٢٧، ٥٣٠، ٥٣٨، ٥٤١، ٥٤٧، ٥٥٦، ٥٦٥، ٥٧٩، ٥٨٢، ٥٩٤، ٥٩٦، ٦٠٢، ٦٠٧، ٦١٣، ٦٢١.

(٢) ج٢، ص٦٨٢، وأنوّه إلى أن بعض الأحداث المذكورة هنا ربما وقعت بعد هذه الوصية.

(٣) كما ذكر الثعالبي في يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٨٧؛ وابن الأثير في الكامل، ج٧، ص٤٦٦. لكن محمد يوسف نجم محقق (رسائل الصابي والشريف الرضي) يُخطّىء هذا القول، ويذكر بدله «إحدى وسبعين سنة». ص٤٥.

(٤) عن كرخايا، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٦.

(٥) رسائل الصابي والشريف الرضي، ص٤٥، ص٥٦؛ القفطي، إخبار العلماء، ص٥٥؛ الفارقي، تاريخ الفارقي، ص٦٩. وهذه المقبرة من المقابر القديمة في جانب الكرخ من بغداد، وهما مقبرتان: الشونيزي الصغير، والشونيزي الكبير. وهي مقبرة كبيرة، وقد دُفن فيها كثيرٌ من المشاهير. انظر ما كتبه عنها ابن الساعي، المقابر المشهورة، ص١٣، ص١٥.

أصلُ الصّابي يعود إلى حَرّان؛ لذلك كان يصفُ نفسَه بالصّابي الحرّاني[١]. ووصف عمّه في إحدى رسائله بالحرّاني أيضاً[٢]. وقال عنه القِفْطي: «أصل سَلَفه من حَرّان، ونشأ إبراهيم ببغداد وتأدّب بها»[٣].

والصّابئةُ - قومه - إحدى فرقتَيْن دينيتَيْن حَمَلتا الاسمَ نفسَه، لكنّهما مُتمايزتان في الأصْل والعَقيدة والعِبادات. والحقّ أنّ نُصوصَ الكُتّاب والمؤرّخين مضطربةٌ أشدّ الاضطراب في موضوع الصّابئة، وفيها أنّ كلَّ مَن عَبَد النُّجوم والكواكب فهو صابئ.

ولم أجد - بعد القراءة والاطّلاع والتّدقيق - مَن جَزَم بحقيقة هذه الفرقة الدِّينية، التي تعود جذورُها إلى آلاف السنين، بل هي من أقدم الدّيانات المعروفة اليوم.

وهذا الاختلافُ جَعَل الفقهاءَ المسلمين غير قادرين على تَحْديد صِفَتهم بالنّسْبة للإسلام، وعدم مَعْرفتهم ما إذا كانوا كتابيّين مُوحّدين أم مشركين، وهل يدخلون في أهل الذمّة أم لا؛ وبالتالي عدم استطاعتهم الاتفاق على الجزم بإجراء الأحكام عليهم، وجَواز مُعاملتهم مُعاملة أهل الذمّة وأخذ الجزية.

ولعلّ الصّابئة أنفسَهم - على مدى التّاريخ - يتحمّلون بعض اللَّوْم في ذلك، حيث إنهم لم يستطيعوا تعريف دِيانتهم، وعَرْضها بصورةٍ واضحة أمام المسلمين، مما أدّى إلى خلافٍ واسع حولهم بين الفقهاء وغيرهم، فمنهم مَن قال: هم قومٌ بين النَّصارى والمجوس، ومنهم مَن أَلْحَقهم بأهل الكتاب.

وأرى أنّ ذلك الخلاف وعدم وُضوح عقيدتهم، وتكتّمهم في أحوالهم ودينهم هو ما جَعَلهم ينغلقون على أنفسهم، ويتكوّرون في مجتمعٍ خاصٍّ بهم، مُبتعدين - إلى حدٍّ ما - عن الحياة العامة. وظلّوا يُمارسون طقوسهم وعبادتهم وحِرَفهم - وأهمّها الصِّياغة - بصورةٍ شبه مُنعزلة سنين طويلة.

---

(١) انظر خاتمة الرسالة التي كتبها بخطِّ يده، ص(م٨٦) من هذه المقدمة.

(٢) ج٢، ص٤٧٥.

(٣) إخبار العلماء، ص٥٤.

ومع هذا، يُمكننا القول: إنّ تلك الفرقتَيْن اللّتين حَمَلتا الاسمَ نفسَه هما:

١. صابئة البَطائح (نسبةً إلى بَطائح جنوبيّ العراق) أو الصّابئة المَنْدائية[١]، وهي فرقةٌ عِرْفانية، تشير دلائل كثيرة إلى أنها قد نشأت في جنوب العراق قبل ظُهور النَّصرانية بكثير، إذ إنّ ظُهورَهم يعود إلى زَمَن السُّومريين (الألف الثالث قبل الميلاد)، وبينهم عاش نبي الله إبراهيم عليه السّلام[٢].

ويُفهم من كلام المؤرّخ الفارسي كَرْديزي (ت٤٤٢ أو ٤٤٣هـ/ ١٠٥٠ أو ١٠٥١م) أنّ هذه الدِّيانة كانت سائدةً في العراق وإيران قبل ظهور الزّرْدشتية[٣]، في الألف الأول قبل الميلاد[٤]، وذلك على يدي رجلٍ يُقال له بوداسف (أو بوذاسف)، حيث كان يؤمن بأنّ «مَعالي الشرف الكامل، والصّلاح الشامل، ومعدن الحياة، في هذا السّقف المرفوع، وأنّ الكواكب هي المدبّرات والواردات والصّادرات، وهي التي بمُرورها في أفلاكها وقَطْعها مسافاتٍ واتّصالها بنقطة، وانفصالها عن نقطة يتمّ ما يكون في العالم من الآثار، من امتداد الأعمار وقِصَرها، وتَرْك البسائط، وانبساط المركبات، وتَتْميم الصّور، وظهور المياه وغَيْضها، وفي النُّجوم السَّيّارة وفي أفلاكها التَّدْبير الأكبر»[٥]. وأكمل المسعودي (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) في كتابه الآخر: كان الفرس قبل الزّرْدشتية على «رأي الحنفاء وهم الصّابئون، وهو المذهب الذي أتى به بوذاسب إلى طَهْمورَث. وهذه كلمةٌ سريانية عُرِّبت، وإنما هي (حنيفوا)، وقيل جيء بحرف بين الباء والفاء[٦]، وأنه ليس للسّريانيين فاء، وذكر أنّ الصّابئين نُسبوا إلى صابي بن

---

(١) لفظة صابئية معناها: الوحدانية والعرفان بالله. كِنْزارَبّا (مصطلحات - اليمين).

(٢) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص١٦٥، وانظر: ص١٧٠.

(٣) كرديزي، زين الأخبار، ص٢٢.

(٤) مهرين، فلسفة الشرق، ص١٩٥.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٦) أي حرفاً مشابهاً في النطق لحرف P في الإنجليزية.

متوشلخ بن إدريس، وكان على الحنيفية الأولى، وقيل إلى صابي بن ماري، وكان في عصر إبراهيم الخليل»[١].

ويزعمون - كما قال المطهَّر المقدسي (ت نحو ٣٥٥هـ/ ٩٦٥م) والخَوارِزْمي (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) - أنّ نبيّهم بوذاسف[٢] الخارج في بلاد الهند، وبعضهم يقول: هِرْمِس[٣]. وبوذا سف كان في أيام الملك الفارسي (الأسطوري) طَهْمورَث، وهو الذي أتى بالكتابة الفارسية[٤].

وهم أقربُ إلى دين النَّصارى منهم إلى اليهود. لذلك، عدّهم ابن الفقيه (ت٣٦٥هـ/ ٩٧٦م) من النَّصارى[٥]، وقال عنهم الخَوارِزْمي: «فرقة من النَّصارى»[٦].

واختلط دينُهم بالنَّصرانية[٧]، إلّا أنهم يختلفون عنهم في كثيرٍ من العقائد وأصول الدِّيانة. وهم أقرب إلى التّوحيد، ويؤمنون بنبوّة يحيى عليه السّلام. لذا، عدّهم بعض الفُقهاء المسلمين موحّدين من أهل الكتاب، كأبي حنيفة والشافعي[٨].

وعلى الرُّغْم من هذا، نرى محمد بن إسحاق النديم (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) لا يستطيع الجزم بعقيدتهم، فهي عنده تتراوح بين: الثنوية أي: الأصلين الماديين للكون

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٧٩.

(٢) هل يقصد بوذا ؟ بحاجة إلى بحث معمّق.

(٣) وهو إدريس. ابن حزم، الفصل، ج١، ص٣٧؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص٤٥.

(٤) المقدسي، البدء والتاريخ، ج٣، ص١٣٩؛ الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٥٥. وعن الملك طَهْمورَث انظر: الثعالبي (منسوب إليه خطأ)، تاريخ غرر السير، ص٧ وما بعدها.

(٥) البلدان، ص١٣٠.

(٦) مفاتيح العلوم، ص٥٥.

(٧) يُلاحظ أن شعارهم المقدّس يشبه إلى حدٍّ بعيد صليب النَّصارى. انظر صورته في ص(م٨٥).

(٨) في ذلك، انظر: الشافعي، الأم، ج٥، ص٤٣٥، ٥٨٣؛ الغزالي، الوسيط، ج٥، ص١٢٨، ج٦، ص٣٣٢؛ الكاساني، بدائع الصنائع، ج٥، ص٤٦، ج٧، ص١١١؛ ابن رشد، بداية المجتهد، ج٢، ص٢١٤؛ ابن قدامة، المغني، ج٧، ص١٣٠.

(الذكر والأنثى)، وتعظيم النجوم، وعبادة الأصنام، «ولهم أقاويل شنيعة تجري مجرى الخرافة»[١].

وحاول ابن البهلول - وهو من المثقّفين المهتمّين بأمرهم، وكان كاتباً في دار الخلافة العباسية في بغداد في أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي - أنْ يصلَ إلى كُنْه مُعتقدهم، قال: «اسْتكشفتُ أمرَهم، واستقصيتُ مسألتهم؛ فوَجَدتهم ينتحلون دينَ شيث بن آدم، عليه السّلام. ويقولون إنه نبيّهم، ويعترفون بيحيى بن زكريا. ولهم كتابةٌ وحُروفٌ نَبَطية[٢] قديمة على هجاء أبجد. ولهم كتابٌ يسمّونه الزبور الأول، وهو مائةٌ مائةٌ وعشرون سورة كباراً وصغاراً، وبه يصلّون، وقبلتهم بيت المقدس. ولهم كتبُ أحكام، بعضُها منسوبٌ إلى يحيى بن زكريّا، وبعضها إلى شيث بن آدم. ويقرّبون قَرابين من خبزٍ وماء وشراب وماء الزّبيب، ويعظّمون يوم الأحد، ويصومون في السنة ثمانين يوماً»[٣]. وأقرّ بأنّ هؤلاء هم المذكورون في القرآن، وذمّتُهم صحيحة، وليس بينهم وبين الحرّانيين مناسبةٌ ولا مقاربةٌ في شيءٍ من الشرائع، بل يُباينونهم في كلّ حال[٤].

وقال عنهم المسعودي: «وهذا النوع من الصّابئة مُباينون للحَرّانيين في نِحْلَتهم»[٥]، وقال عنهم البيروني (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م): إنّ اسم الصّابئة يقعُ على أصحاب هذا الاسم بالحقيقة لا غيرهم. وهم بقايا الأسْرى الذين أتى بهم بختنصّر (نَبُوخذ نصّر) من بيت المقدس إلى بابل، فإنّ بعضَهم آثر البقاءَ في بابل بعد عَوْدة

(١) الفهرست، ج٢، ص٤١١.

(٢) النَّبَط أو النَّبيط: جيلٌ يقطنون سَواد العراق، في البطائح. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٤١١ (نبط).

(٣) ابن البهلول، كتاب الدلائل، ص٢٥٨.

(٤) ابن البهلول، كتاب الدلائل، ص٢٥٧. وسنأتي على ذكر صابئة حَرّان بعد قليل

(٥) مروج الذهب، ج١، ص٢٣٠.

الأسرى إلى بيت المقدس، لأنهم اعتادوا أرضَ بابل واستَثْقَلوا العَوْد إلى مَوْطنهم، «ولم يكونوا من دينهم بمكانٍ مُعتَمد» - كما يقول البيروني - فسمعوا أقاويل المجوس وصبأوا إلى بعضها؛ فامتزجت مذاهبُهم من المجوسية واليهودية، كحال المنقولين من بابل إلى الشام، أعني المعروفين بالسّامرة[1]. وهم مُخالفون لصابئة حَرّان، «عائبين مذاهبَهم، لا يوافقونهم إلّا في أشياء قليلة، حتى أنّهم يَتَوجّهون في الصّلاة إلى جهة القطب الشماليّ، والحرانيّة إلى الجنوب»[2].

على أنّ البيروني يبدو أنه غير قادر على الجزم بماهيّة هذه الفرقة، فنراه متردّداً في الحكْم عليها، فيقول في كتابٍ آخر: «الصّابئون في كتاب الله مُقترنو الذكر بالطّوائف الذين قدّمنا ذكرهم[3]، فأما الكائنون بسَواد العراق، فما حصلتُ من أسبابها على شيءٍ البتّة»[4]. لذلك، يحاول أنْ يكون مَوْضوعياً، ويصفُهم بتجرُّد فقال: «ونحن لا نعلمُ منهم إلّا أنهم أناسٌ يُوحّدون الله، ويُنزّهونه عن القَبائح، ويصفونه بالسَّلْب لا الإيجاب، كقَوْلهم: لا يُحَدّ، ولا يُرى، ولا يَظلم، ولا يَجور، ويُسمّونه بالأسماء الحسنى مَجازاً، إذ ليس عندهم صفة بالحقيقة»[5].

وعلى الرُّغْم من عدم استطاعة ابن قيّم الجوزية (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) التوصّل إلى ماهيّة هذه الدِّيانة، إلا أنه حاول أنْ يفسّر ما جاء عنهم في القرآن الكريم، وقدّم

---

(١) الآثار الباقية، ص٣١٨.

(٢) البيروني، الآثار الباقية، ص٢٠٦.

(٣) يقصد الذين ذكرهم الله عز وجل في سور: البقرة، المائدة، الحج. انظرها في ص (م٤٢) من هذه المقدمة.

(٤) القانون، المسعودي، ج١، ص٢٦٧.

(٥) الآثار الباقية، ص٢٠٥، وفيه بعض عباداتهم وطقوسهم، سأضعها بنصّها في الملحق الخاص بالصّابئة آخر الكتاب (ملحق رقم ٣).

بعض المعلومات المأخوذة ممّن سبقه، ووَضَعها في سِياقٍ حَسِبه مُتناسقاً، لكنها جاءت مضطربةً، كقوله: كانوا قوم إبراهيم الخليل، وهم أهلُ دَعْوته، وكانوا بحَرّان، فهي دار الصّابئة، ومنهم مؤمن ومنهم كافر[١]. وهي معلوماتٌ متناقضة.

ولابن خَلْدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) محاولاتٌ جادّة لتوضيح أصول الصّابئة وماهيّة معتقداتهم وتاريخهم، معتمداً على بعض المصادر الإسلامية الأولى، ومنها كتاباتُ الطبري والمسعودي[٢]، لكن نتيجة بحثه لم تكن واضحة المعالم.

يتركّز وُجودُ الصّابئة في جنوب العراق والأَحْواز، أي ما كان يشكّل مملكة ميسان، في رأس الخليج العربي[٣]. قال عنهم المسعودي: «ديارهم بين واسط والبصرة من أرض العراق، نحو البَطائح»[٤]، وقال عنهم النديم: «هؤلاء القوم كثيرون بنواحي البَطائح، وهم صابئة البَطائح»[٥]. وكذلك قال البيروني: «الكائنون بسَواد العراق حوالي قُرى واسِط»[٦]، وقال أيضاً: «ويوجد أكثر هذه الطبقة بسَواد العراق»[٧]. كما كان لهم وجودٌ في الجامِدة وما حولها من أعمال واسِط[٨] جنوبيّ العراق في القرون الهجرية الأولى؛ فمَعْروف الكَرْخي الزاهد المعروف، والذي عاش في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، كان من أسرةٍ صابئة في واسِط. قال الذهبي: «كان أبوه من

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ج٢، ص٢٤٩.

(٢) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص١٦١ وما بعدها، وانظر: ص٩ أيضاً.

(٣) كان شعب مملكة ميسان يكتبون بخطٍّ يشبه الخطّ الذي يكتب به الصّابئة. الحديثي، الحدود الشرقية للوطن العربي عبر التاريخ، موسوعة الحدود الشرقية للوطن العربي – دراسة تاريخية، ص١٩.

(٤) مروج الذهب، ج١، ص٢٣٠.

(٥) الفهرست، ج٢، ص٤١١.

(٦) القانون المسعودي، ج١، ص٢٦٧.

(٧) الآثار الباقية، ص٣١٨.

(٨) ابن البهلول، كتاب الدلائل، ص٢٥٧.

أعمال واسِط، من الصّابئة»[١]. وقال البكري: «وديار هؤلاء الصّابئة في ناحية واسِط والبصرة من أرض العراق»[٢].

ونلتقطُ من الخَوارِزْمي إشارةً في غاية الأهمية، وهي تسميتهم بالكلْدانيين[٣]، وهم سُكّان جنوب العراق القدماء. ويؤيّده ما قاله النديم: «هؤلاء القوم على مذهب النَّبَط القديم»[٤].

ويبدو أنّ شؤون هذه الطائفة كانت منظَّمةً، تُدار من قبل هيئةٍ دينية عليا تحت رعاية رئيسٍ يُعرف بالحَسْج[٥]، وهو كالجاثليق لطائفة النّصارى في الدَّوْلة الإسلامية[٦]، الإسلامية[٦]، ورأس الجالوت لليهود[٧].

وقد ألّف أبو إسحاق الصّابي مقالةً في أنسابهم ونِحْلَتهم، وذَكَر أخبارهم أيضاً داهر مؤرّخ السّريانيين، والبابا الصّابي الحَرّاني[٨]. كما وَضَع أحد المتحدّرين من هذه الطائفة كتاباً في تاريخ البَطائح، قال عنه ابن الفوطي (ت٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م): «رأيتُ للبَطائح تاريخاً حَسَناً، صَنّفه القاضي المنْدائي»[٩]. والقاضي هذا هو أبو العباس أحمد بن بن بَخْتِيار بن عليّ بن محمد المانْدائي الواسِطي. كان نَحْوياً ولُغوياً وأديباً، اشتغل بالقضاء والفقه والحديث والتاريخ والأدب والكتابة، وهو من نَواحي البطيحة. وُلد

---

(١) تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٢١٠.

(٢) المسالك والممالك، ج١، ص٢٧٥.

(٣) مفاتيح العلوم، ص٥٥.

(٤) الفهرست، ج٢، ص٤١١.

(٥) الفهرست، ج٢، ص٤١١.

(٦) عن الجاثليق، انظر: فييه، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ص٤٣ وما بعدها.

(٧) عن رأس الجالوت، انظر: المسيري، موسوعة اليهود واليهودية، مادة رأس الجالوت.

(٨) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص١٠.

(٩) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٣، ص٣٦٦.

بواسِط، ومات ببغداد سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م[1].

وقد أطلق عليهم العربُ اسم (المغْتَسِلة) لأنهم يسكنون على ضفاف الأنهار لتسهيل التطهّر في الماء الجاري، كما هي سنّتهم، ويغسلون جميع ما يأكلونه[2].

وهؤلاء هم أُصول الصّابئة المنْدائية الذين لا تزال بقاياهُم ماثلةً إلى اليوم في بعض أنحاء جنوب العراق والأحْواز[3].

وللصّابئة المنْدائيين كتابٌ مقدَّس اسمه (كِنْزارَبّا)، تُرجم للعربية لأوّل مرّة في

---

(١) انظر ترجمته عند: ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص٣٠٨؛ الصفدي، الوافي، ج٦، ص١٦٣؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج١، ص٢٩٧.

(٢) النديم، الفهرست، ج٢، ص٤١١.

(٣) عن الصّابئة المنْدائيين، انظر: عبادة، منْدائي أو الصابئون الأقدمون، بغداد، ١٩٢٧م؛ الحسني، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، صيدا، ١٩٥٥م؛ مراني، مفاهيم صابئية منْدائية، بغداد، ١٩٨١م؛ سباهي، أصول الصّابئة (المنْدائيون) ومعتقداتهم الدينية، دمشق، ١٩٩٦م، مقدمة محقق كتاب (رسوم دار الخلافة) للصابي؛ فولتز، الروحانية في أرض النبلاء، ص٢٠٠؛ كارّا ده فو، الصابئة، دائرة المعارف الإسلامية. وكانت المسْتشرقةُ البريطانية ليدي دراوور (١٨٧٩-١٩٧٢م) وهي باحثةٌ عاشت في العراق مع زوجها مستشار وزارة العدل العراقية ١٩٢٢-١٩٤٦م قد اهتمّت بدراسة الأقلّيات الدينية في العراق، وتخصّصت بدراسة الصّابئة المنْدائيين، فكانت من أوائل الغربيين المهتمّين بدين الصّابئة، بالإضافة إلى نولدْكه وليدز بارسكي، وأظهَرت عنايةً خاصّة بالفلكلور التقليدي لهذه الطائفة وتراثهم الشعبي والتنجيم والسحر، وكذلك بالمرأة في مجتمعهم، وجمعت كثيراً من تراثهم المكتوب، وترجمت منه، ثم أصدرت كتابها (الصّابئة المنْدائيون في العراق وإيران) سنة ١٩٣٧م، والذي تُرجم فيما بعد للعربية، ويُعدّ من أهم ما كُتب عن الصابئة، فقد استقت كثيراً من معلوماتها من رجال الدين، بالإضافة إلى ما قرأته في كتبهم، كما سَجّلت ملاحظاتها ومشاهداتها عند حياتهم اليومية.

التّاريخ سنة ٢٠٠٠م، وصَدَر في بغداد[١].

٢. فرقةٌ دينيةٌ تقوم على تَقْديس الكواكب والنُّجوم، تنتشر في حَرّان شمال الشام، وتُسمّى (الحَرْنانية) نسبةً إلى حَرّان على غير قياس[٢].

قال الإصطخري (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): حَرّان: مدينة الصّابئين، وبها سَدَنتُهم السّبعة عشر، وبها تَلٌّ عليه مصلّى يعظّمه الصّابئون[٣].

وبدايةُ تَسْميتهم بالصّابئة تعود إلى أيام الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م)، حيث اجتاز بديار مُضر سنةَ ٢١٨هـ/ ٨٣٣م يريدُ غزوَ بلاد الرُّوم[٤]، فتلقّاه الناسُ يَدْعون له، وفيهم جماعةٌ من الحَرْنانيين، وكانوا مُختلفين عن باقي الناس، وشعورُهم طويلةٌ بوَفْرات، فأنكر المأمون زيّهم، وقال لهم: مَن أنتم؟ من الذمّة؟ فقالوا: نحن الحَرْنانية. فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا. قال: فيهودٌ أنتم؟ قالوا: لا. قال:

---

(١) ترجمته لجنةٌ مختصّة من أبناء هذه الطائفة، من اللغة المنْدائية إلى العربية مباشرة، وأعدّ صياغته الأدبية الشاعر العراقي المنْدائي الكبير عبد الرزاق عبد الواحد. وقد حظيت هذه الترجمة بموافقة رئاسة الطائفة ومباركتها، بعد أن مرّت بعدّة لجان للمراجعة والتدقيق، كما هو مُبيَّن في صفحة المقدّمة منه. ولهذا الشاعر بحثٌ مركّز عن ديانة الصّابئة، نَشَره في العدد الرابع من مجلة (صروح) السورية، وشَرَح فيه أُصولها وتاريخها والجواهر الأساسية لعقائدها.

(٢) المشهور (حَرّاني)، والأصح (حَرْناني). انظر: البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، ص٨٦؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٢ ص٢٣٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٤٠-١٤١؛ الزبيدي، تاج العروس، ج٩، ص١٧٣.

(٣) الإصطخري، مسالك الممالك، ص٧٦. ونقل عنه كلٌّ من: ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص٢٢٦؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٢؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٦٦٤، وغيرهم. ولعلّ مصدر الرواية أبو زيد البَلْخي (ت٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) الذي عوّل عليه الإصطخري كثيراً.

(٤) انظر خبر خروجه لغزو الروم عند: ابن طيفور، كتاب بغداد، ص٢٣٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٥٧٦.

فمجوسٌ أنتم؟ قالوا: لا. قال لهم: أفَلَكُم كتابٌ أم نبيّ؟ فمَجْمَجوا في القول. فقال لهم: فأنتم إذاً الزَّنادقة، عَبَدة الأوثان، وأنتم حلالٌ دماؤكم، لا ذمّة لكم! فاختاروا الآن أحدَ أمرَيْن: إمّا أنْ تَنْتحلوا دين الإسلام، أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلّا قتلتكم عن آخركم! فإنّي قد أنْظَرْتكم إلى أنْ أرجعَ من سَفْرتي هذه.

ورَحَل المأمون يريدُ الرُّوم، فغيّروا زيّهم، وحَلَقوا شُعورَهم، وتركوا لِبْسَ الأقبية، وتنصّر كثيرٌ منهم، وأسْلَم آخرون، وبقي منهم شِرْذمةٌ على حالهم. وجعلوا يحتالون ويضطربون، حتّى انتدب لهم شيخٌ من أهل حَرّان فقيه، فقال لهم: قد وجدتُ لكم شيئاً تَنْجون به وتَسْلمون من القتل؛ فحَمَلوا إليه مالاً عظيماً. فقال لهم: إذا رجع المأمون، فقولوا له: نحن الصّابئون! فهذا اسمُ دينٍ قد ذَكَره الله في القرآن[1]، فانْتَحِلوه فأنتم تَنْجون به[2].

وقُضي أنْ تُوفّي المأمون في سَفْرته تلك، لكنهم انْتَحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت. ثم عاد مَن تنصّر منهم إلى دينه القديم، أمّا مَن أسْلَم فبقي على الإسلام مُتستّراً،

---

(١) ذكرهم الله تعالى اسمُه في القرآن العزيز ثلاث مرّات: في قوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة، الآية ٦٢، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة المائدة، الآية ٦٩، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة الحج، الآية ١٧. صدق الله العظيم.

(٢) هذه رواية أبي يوسف إيشَع القَطيعي النَّصْراني في كتابه (الكشف عن مذاهب الحَرْنانيين) المفقود، وقد نقلها النديم في كتابه (الفهرست)، ج٢، ص٣٦٢. وهذا المؤرّخ لم يذكره غير النّديم، وقد احتفظ ببعض نصوصه عنهم، سأضعها برمّتها في الملحق الخاص بهم آخر الكتاب (ملحق رقم ٣).

خَوْفاً من عقاب الردّة. وظلّوا يتزوّجون بنساءٍ صابئيات، وعند الولادة يجعلون الذكرَ مُسلماً، ويُبقون الأنثى على دين الصّابئة[١].

ويُصرّح البيروني أنّ هؤلاء قد انتحلوا اسم الصّابئة من صابئة البَطائح، فيصفهم بقوله: «المتلقِّبون بلَقبهم من بقايا اليونانيين الكائنين بحَرّان»[٢]. لكنه يذكر أنهم اتّخذوا اسم (الصّابئة) سنةَ ثمانٍ وعشرين ومائتين، ليُعَدّوا في جُملة مَن يُؤخذ منهم وتُرعى لهم الذمّة[٣]. وهذا التّاريخ فيه نظر، لأنهم اتّخذوا اسم (الصّابئة) أيّام المأمون وهو المتوفّى سنةَ ٢١٨هـ/ ٨٣٣م وليس ٢٢٨هـ/ ٨٤٢م. فلعلّ ذلك تَصحيفٌ من بعض النُّسّاخ.

هؤلاء الحرّانيّة ليسوا هم الصّابئة بالحقيقة، «بل هم المسمّون في الكتب بالحنفاء والوثنية، فإنّ الصّابئة هم الذين تخلّفوا ببابل من جملة الأسْباط الناهضة في أيام كورش وأيام أرطحشست إلى بيت المقدس، ومالوا إلى شرائع المجوس فصَبأوا إلى دين بختنصّر (نَبُوخذ نصّر) فذهبوا مذهباً ممتزجاً من المجوسية واليهودية كالسّامرة بالشام»[٤].

قال الخَوارِزْمي: سُمّي هؤلاء صابئة في أيام الخليفة المأمون. وأما الصّابئون على الحقيقة ففرقةٌ من النَّصارى[٥]. وقال ابن البهلول: «الحنفاء الحَرّانيين المتَسَمّين بالصّابئين........ بحَرّان»[٦].

(١) النديم، الفهرست، ج٢، ص٣٥٧ وما بعدها، وقد ساق بعض معتقداتهم؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص٩ وقد جعلهم من الرُّوحانيين. وفي سبيل بيان عقيدتهم، افترض مناظرةً بينهم وبين الحنفاء استغرقت ٣٥ صفحة من الكتاب.

(٢) البيروني، القانون المسعودي، ج١، ص٢٦٧.

(٣) الآثار الباقية، ص٣٠٨.

(٤) البيروني، الآثار الباقية، ص٢٠٦.

(٥) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٥٥.

(٦) ابن البهلول، كتاب الدلائل، ص٢٤٧.

هذه الفرقة من الصّابئة عَبَدةُ نجومٍ وكواكب، ويُؤمنون بتأثيراتها على حياة البشر[١]، «ويُنسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه، ويقولون بحياتها ونُطقها وسَمْعها وبَصَرها، ويعظّمون الأنوار. ومن آثارهم القبّة التي فوق المحراب عند المقصورة في جامع دمشق، وكان مُصلّاهم أيام كان اليونانيون والرّوم على دينهم، ثم صارت في أيدي اليهود، فعملوها كنيستهم، ثم تغلّب عليها النَّصارى فصيّروها بَيْعةً إلى أنْ جاء الإسلام وأهله فاتّخذوها مسجداً. وكانت لهم هياكل وأصنام بأسماء الشمس معلومة الأشكال»[٢]. وقد بقي منها إلى عصر المسعودي[٣] بيتٌ بمدينة حَرّان في باب الرَّقّة يُعرف بمغليتيا، وهو هيكل آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السلام، كما قال. كما أنه رأى على باب مجمع الصابئة بمدينة حَرّان مكتوباً على مدقّة الباب قولاً لأفلاطون بالسِّرْيانية، ترجمه أحد أبناء الطائفة (وهو مالك بن عقبون): «مَنْ عرف ذاته تألّه»[٤].

ويذكر الصّابئة أنهم أخذوا دينهم عن شيث وإدريس. ولهم كتابٌ يسمّونه صُحف شيث، فيه محاسن أخلاقٍ كالصدق والشجاعة والتعصب للغريب واجتناب الرّذائل. هذا قول ابن الوَرْدي المتوفّى سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، وكان قد رأى بعض كتبهم، فقال: رأيتُ صحيفتين من صُحف الصّابئة، ولكنها عن إدريس، الأولى منهما: صحيفة الصّلاة، والثانية: صحيفة الناموس. وأورد بعض نصوصهما[٥].

ويبدو أنهم بقايا اليونانيين الوثنيين الذين كانوا يتوطّنون في تلك المنطقة. قال

---

(١) انظر: البيروني في كتابيه: الآثار الباقية، ص٣١٨؛ تحقيق ما للهند من مقولة، ص٨٦.

(٢) البيروني، الآثار الباقية، ص٢٠٥؛ وانظر: الإصطخري، مسالك الممالك، ص٦٠.

(٣) أي في سنة ٣٢٢هـ كما قال. وتوافق ٩٣٣م.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٢٦٢-٢٦٤. وأورد بعض معتقداتهم وطقوسهم، سأضعها في الملاحق زيادة في الفائدة (ملحق رقم ٣).

(٥) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٦٩. وسأضع نصوص هاتين الصحيفتين في الملحق رقم (٣) إتماماً للفائدة.

عنهم البيروني: «من بقايا اليونانيين الكائنين بحَرّان»[1]. يؤكّد ذلك أسماءُ أجداد ثابت بن قُرّة الحَرّاني، فهو ثابت بن قُرّة بن مروان بن ثابت بن كرايا بن إبراهيم بن كرايا بن مارينوس بن سالايونوس[2]. أو أنهم - كما فسّر البعض - بقايا مَن سُبي من القدس إلى حَرّان.

ولم يكن اسمُهم الصّابئة، وإنما تسمّوا بذلك في عَهْد الخليفة المأمون، كما تقدّم.

وَصَفهم البيروني بأنهم «من الصِّيانة لشرائعهم بحيث لا يكاد يخالفونهم (أي: لا يخالفون صابئة البطائح)، يقفون عليها. والذي تقرّر من أمرهم من جهد الحاكين عنهم، أنهم يستعملون الأهلّة، ويسمّونها بأسماء شهور السّريانيين»[3].

وقد وَضَع بعضُ آل قُرّة الحَرْنانيين كتباً ورَسائل في شرح مُعتقداتهم لعرضها للناس وبيانها، وتوثيقها، لكنها للأسف ضاعت مع ما ضاع من تراثنا، فقد وَضَع ثابت بن قُرّة (ت٢٨٨هـ/ ٩٠١م) رسالةً بالعربية في اعتقاد الصّابئين، ووَضَع بالسِّرْيانية رسالةً أخرى في اعتقاد الصّابئين[4]، ولعلّ واحدةً منهما ترجمةٌ عن الأخرى. كما وَضَع سنان بن ثابت (ت٣١١هـ/ ٩٤٢م) رسالةً في شرح مذهب الصّابئين[5]، ونقل إلى اللّسان العربي نَواميس هرمس، والسور، والصّلوات التي يصلّي بها الصّابئون[6].

وكان أبو العباس أحمد بن الطيِّب السَّرَخْسيّ (ت٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) وهو أحد العلماء الحكماء المتعدّدي المواهب والعلوم والتَّصْنيف، وأحد نُدماء الخليفة المعتضد بالله

---

(١) القانون المسعودي، ج١، ص٢٦٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٧٠.

(٣) القانون المسعودي، ج١، ص٢٦٧.

(٤) القفطي، إخبار العلماء، ص٨٤؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٧٤ (وعنده: رسالة في مذهب الصابئين ودياناتهم)، ص٢٧٦.

(٥) القفطي، إخبار العلماء، ص١٣٣؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٨٠.

(٦) القفطي، إخبار العلماء، ص١٣٣.

العبّاسي قد وَضَع رسالةً في وَصْف مذاهب الصّابئين(١).

ويَدين الباحثون في تاريخ الصّابئة، والمهتمّون بدراسة عقائدهم لابن البهلول الذي أفرد البابين: الأربعين، والحادي والأربعين من كتابه لشرح نِحْلتهم(٢)؛ فقد حفظ كثيراً من طقوس الفرقتين، وأسْهب إلى حدٍّ كبير في ذكر أعيادهم وما يقومون به في تلك الأعياد والأيام المهمّة على مدى الشهور، وما يحلّ عندهم ويحرم. كما رَسَم بعضَ حُروفهم(٣).

ومَدارُ أعيادهم على الكواكب؛ فهم يُقيمونها عند نزول الكواكب الخمسة، وهي: زُحَل والمشتَري والمِرّيخ والزُّهَرة وعُطارِد(٤).

ومن أبياتٍ لأبي إسحاق بَعث بها إلى أبي القاسم المطَهَّر بن عبد الله وزير عَضُد الدَّوْلة نلمحُ إيمانَ الصّابئة بتأثير الكواكب والنُّجوم على حياة البشر، يقول:

نـل المنى في يَوْمك الأجودِ	مُسْتنجحاً بالطّالع الأسعدِ
وارقَ كمَرْقى زُحَل صاعداً	إلى المعالي أشرفَ المصعدِ
وفِضْ كفَيْض المشتَري بالنّدى	إذا اعتلى في بُرْجه الأبعدِ
وزدْ على المِرّيخ سَطْواً بمن	عاداك من ذي نَخْوةٍ أصْيدِ
واطلعْ كما تطلعُ شمسُ الضُّحَى	كاسفةً للحِنْدس الأسودِ
وخذْ من الزُّهَرة أفعالَها	في عيشك المقتبل الأرغدِ
وضاهِ بالأقلام في جَريها	عُطارِد الكاتِبَ ذا السُّؤددِ
وباهِ بالمنظر بدرَ الدّجى	وافْضله في بَهْجته وازددِ

(١) القفطي، إخبار العلماء، ص٥٦؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٧٠.

(٢) سأضعهما برمّتها كملحق في آخر الكتاب (ملحق رقم ٣) زيادةً في الفائدة.

(٣) ابن البهلول، كتاب الدلائل، ص٢٤٧-٢٦٠؛ وانظر: القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، ج١، ص١٦٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٦٧.

واسلمْ على الدَّهْر ولا تخشَ من مَكْروهه الرَّائِح والمغتدي
ذا مهجةٍ آمِنَةٍ للرّدى ما أمِنَتْه مُهْجةُ الفَرْقدِ[١]

ويعضد ذلك الرِّسالةُ التي وَضَعها سنان بن ثابت (رسالة في قسمة أيّام الجمعة على الكواكب السّبعة)، وقد كتبها إلى أبي إسحاق الصّابي[٢]. وعلى الرُّغْم من عدم بقائها إلى عصرنا، إلّا أنّ عنوانها يؤكّد اعتقاد الصّابئة بالكواكب والنُّجوم.

ويُروى أنّ ثابت بن قُرّة الحرّاني الصّابي، المولود سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م بحَرّان – وكان طَبيباً وفَيْلسوفاً ومُنجّماً وصَيْرفياً – انتقل إلى بغداد في عَهْد الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م)، وكان نابغاً في علوم الأوائل؛ فوَصَل إلى المعتضد، ودخل في جُملة مُنجّميه، وبَلَغ من المعتضد أجلّ المراتب وأعْلى المنازل، حتى كان يجلس بحَضْرته في كلّ وقتٍ ويُحادثه ويُضاحكه. وهو الذي أدخل رئاسة الصّابئة إلى أرض العراق، فثبتت أحْوالُهم وعَلَتْ مَراتبُهم[٣]، وهو أصلُ ما تَجدّد للصّابئة من الرّئاسة في مدينة السَّلام، وبحضرة الخلفاء. نقل ابنُ أبي أُصَيْبعة عن ثابت بن سنان بن ثابت بن قُرّة أنّ الأمير الموفَّق – أخا الخليفة المعتمد على الله – لما غضب على ابنه أبي العبّاس – الخليفة المعتضد بالله فيما بعد – حَبَسه في دار إسماعيل بن بلبل، فطَلَب إسماعيل من ثابت بن قُرّة أنْ يدخلَ على الأمير أبي العباس ويُؤنسه؛ فكان يدخل إليه ثلاث مرّاتٍ في اليوم يُحادثه ويُسلّيه، ويُعرّفه أحوالَ الفلاسفة والهندسة والنُّجوم وغير ذلك؛ فآنس الأمير من ثابت أنْساً كثيراً، وشغف به. فلما آلَت إليه الخلافة (الخليفة المعتضد بالله)

---

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر، ج٢، ص٣٣٥؛ المنتحل، ص٢٨٦. وانظر الرسالة التي كتبها إلى المطَهَّر بن عبد الله أيضاً: «في اليوم الأجود»، وقد أهدى إليه خاتماً. ديوان رسائله هذا، ج١، ص٥٠٧.

(٢) القفطي، إخبار العلماء، ص١٣٣؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٨٠.

(٣) القفطي، إخبار العلماء، ص٨١.

قرّبه وأقْطَعه ضِياعاً جليلة. وكان يُجلسُه بين يَدَيْه كثيراً بحضرة الخاصّ والعام، والوزيرُ واقف. ووَصَلت منزلتُه في نَفْس الخليفة أنْ كان يَمْشي - كما نقل ابنُ أبي أُصَيْبعة عن أبي إسحاق الصّابي - مع المعتضد في بستان دار الخلافة للرّياضة، فاتّكأ المعتضد على يده وهما يتماشيان، ثم نَتَر المعتضد يده من يد ثابت بشدّة، ففزع ثابت، فقال له الخليفة: سَهَوْتُ ووَضَعْتُ يدي على يدك واستندتُ عليها، وليس هكذا يجب أنْ يكون، فإنّ العلماء يَعْلون ولا يُعْلون[1].

ثم تبدّل حالُهم وساء في عَهْد الخليفة القاهر بالله (٣٢٠-٣٢٢هـ/ ٩٣٢-٩٣٤م) الذي اسْتَفْتى الفُقهاء في أمْرهم؛ فأفْتاه أبو سعيد الحسن بن أحمد الإصْطَخْري بقَتْلهم «لأنه تبيّن له أنهم يُخالفون اليهود والنَّصارى، وأنهم يَعبدون الكواكب، فعزم الخليفة على ذلك، حتى جمعوا من بينهم مالاً كثيراً؛ فكفَّ عنهم»[2].

لكنّ ذلك لم يدُم طويلاً، حيث صَدَر منشورٌ من دار الخلافة في عَهْد الخليفة الطائع لله (٣٦٣-٣٨١هـ-٩٧٤-٩٩١م) بشأن صابئة حَرّان والرَّقّة ودِيار مُضَر، والذي أمَر فيه بصِيانتهم وحِراستهم، والذبّ عن حَريمهم، ودَفْع الظُّلْم والضَّيْم عنهم، وتَوْفية ما يُوجبه العَهْد والذمّة لهم. وقد كَتَب ذلك المنشورَ أبو إسحاق الصّابي نفسُه، وحُفظ في رَسائله الباقية التي ننشرها اليوم[3].

وقد غَلَب تعريفُ هذه الفرقة على كلّ الصّابئة على مرّ التّاريخ.

* * *

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٧٠-٢٧١.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج٨، ص٢٠٦؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص٢٣١.

(٣) انظر: ج٢، ص٢٤٤، من هذا الكتاب.

ولعلّ في نصّ الطّبيب أبي الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي الحكيم المعروف بابن بطلان (ت٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)، والذي حفظه القِفْطي، ما يؤكّد ما ذهبنا إليه من التفريق بين الطائفتين، حيث يقول: «إنّ أبا حنيفة وصاحبيه أبا يوسف، ومُحمّد بن الحسن الشيباني اختلفوا في نكاح الصّابئة وأكل ذبائحهم، فحرّمها أبو حنيفة، وأحلّها صاحباه، فقال أصحابهم: إنه ليس بخلاف على الحقيقة، وإنما هو خلافٌ في الفتوى؛ لأن أبا حنيفة سُئل عن الصّابئين الحَرّانيين وهم معروفون بعبادة الكواكب، فأجراهم مجرى عبدة الأوثان في تحريم المناكحة والذباحة. وصاحباه سُئلا عن الصّابئين السكّان بالبطيحة، وهم فرقةٌ من النَّصارى يؤمنون بالمسيح عليه السلام، فأجابا بجواز ذبائحهم ومناكحتهم. ولو سُئل أبو حنيفة عن هؤلاء لأفتى بفتوى صاحبيه، ولو سُئل صاحباه عن الفرقة الأولى لأفتيا بمثل قوله»[١].

وعن هذا التَّفْريق عبّر النديم بقوله: «إنهم غيرهم جملةً وتفصيلاً»[٢].

* * *

ومن الطّبيعي أنْ تكون بغداد - وهي حاضرة دولة الخلافة - مركزاً سياسياً وحضارياً للعالم الإسلامي، بكل مكوّناته السُّكانية وفَعالياتها السياسية والثقافية والاجتماعية، ونشاطاتها الاقتصادية، بما فيها الأقليّات الدينية والمذهبية والجِهوية، ومنهم هؤلاء الصّابئة، الذين نبغ منهم أطبّاء ورياضيون ومهندسون وفلكيون وفيزيائيون وصَيارفة ورجال إدارة مبرَّزون ومترجمون متقنون وأدباء مبدعون.

(١) القفطي إخبار العلماء، ص٢٠٤-٢٠٥؛ وانظر: السرخسي، المبسوط، ج٤، ص٣٨٥.
(٢) الفهرست، ج٢، ص٤١١.

كانت أسرةُ أبي إسحاق الصّابي، أجدادُه وأولادهُ وأحفادُه، أو ما يُعرف بآل الصّابي (مع تَسْهيل الهَمْز في الصّابىء، كما هي هَمْزة المتنبىء = المتنبي) أو بني زَهْرون تقطن سُوَيْقة العَبّاسة في الجانب الشرقي من بغداد[1]. وهي أسرةٌ أنجبت كثيراً من الأدباء والعُلماء والأطبّاء والنّابهين وذوي المواهب ممن نَبغوا في علوم الأوائل، وتبوّأوا مكانةً عاليةً في التّاريخ الثقافي العربي. «هذا بيت بني زَهْرون الصّابئين، ومحلّهم في الطّب والعلم بصنعته المحلّ العظيم، ولهم من القيام على أنفسهم والمراعاة للطّب وتوفيته حقّه، وهم خلقٌ كثير»[2].

وأوّل مَن أسْلم منهم هِلّيل بنُ المحسِّن[3] حفيدُ أبي إسحاق، أسْلَم بحُدود سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م، ورَوى قصّةَ إسلامِه ابنُ الجوزي وسِبْطُه[4].

---

(١) القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، ج٢، ص٦٢٢. وعن سُوَيْقة العَبّاسة، انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، ج١، ص٤١١؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٢٨٧.

(٢) القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، ج٢، ص٦٢٢.

(٣) كتب عنه لويس شيخو اليَسوعي مقالاً في مجلة المشرق البيروتية بعنوان (هلال الصابي وتآليفه)، السنة السادسة، ١٩٠٣م، ص٤٦٦-٤٧٥، وفيه مادة مفيدة عنه وعن جدّه أبي إسحاق وعن الصابئة.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١٨، ص٥١٣.

هلال أم هِلِّيل

دَرَج مَن يكتب عن آل الصّابي – وأنا منهم أيضاً – أنْ يجعل اسمَ (هِلِّيل) – منهم – هِلالاً؛ هِلِّيل بن إبراهيم والد أبي إسحاق صاحبِ هذه الرَّسائل، وحفيدِه أبي الحسين ابن المحسِّن. وقد كنتُ أُبدل – بكلّ اطمئنان – (هِلِّيل) إلى (هلال) أينما يَرِد في الأصول المخطوطة، على اعتبار أنّ ذلك هو الرَّسْم القديم لاسم العَلَم (هلال). لكنّ كثرةَ وُرود (هِلِّيل) استرعى انتباهي، وجَعَلني أنظرُ به مَليّاً، ورحتُ أبحث عن وجود رَسْمٍ قديم لـ(هلال)، فلم أجد أنّ القُدماء كانوا يكتبون (هلال) (هِلِّيل)، وإنما كانوا يَرْسمونه (هلال) كما هو. وهذا ما جَعَلني أُعيد النظر والتفكير، وأعودُ للأصول الخطيّة لتُراث الصّابِئيْن: الجدّ والحفيد؛ فوجدتُه (هِلِّيل) بكلّ وضوح، وبكسرةٍ مُجوَّدة تحت اللّام. وهذا يُبعد أنْ يكون الاسم (هُلَيْل) بالضّم تَصْغيراً لـ(هلال). ومن ذلك بعض المواضع في النُّسخ الخطيّة لهذه الرَّسائل، ومنها: صفحةُ العنوان في قطعة لَيْدن (Leiden)، والرّسالةُ الأولى في كلٍّ من: قطعة راغب باشا، وقطعة لَيْدن، وقطعة القاهرة، وكذلك في صفحة الخاتمة في قطع: رئيس الكتّاب، راغب باشا، وعاشر أفندي، وأوّل فصل التعازي من قطعة جستربتي (Chesterbeatty)[1].

كما أنّ عنوان إحدى رَسائله في قطع مكتبات: فيض الله، وراغب باشا، وعاشر أفندي: «وكتب أبو إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل بن إبراهيم بن زَهْرون الصّابي الكاتب إلى عِزّ الدَّوْلة بن مُعزّ الدَّوْلة في صِفة مُتَصيَّد»[2].

---

(١) سيأتي بيان هذه النسخ ووصفها وذكر أماكن وجودها وأرقامها. وبعد هذه المقدمة، سأضع نماذج مصوّرة لهذه النسخ، متوخّياً وضع الصفحات التي تحمل اسم (هِلِّيل)، فانظرها هناك.

(٢) انظر: ج٢، ص٦٤٤ من هذا الكتاب.

كما أنّ هذه الصّيغة للاسم وَردت في كثيرٍ من المواضع في الأصول الخطية، حرصتُ على التنويه إليها في مواضعها[١].

ويؤيّد هذا الرّأيَ ما كَتَبه أبو إسحاق بخطِّه[٢]، وذلك في المجموع الذي صنَّفه في علم النُّجوم، وأسْماه (مجموع نَفيس في علم النُّجوم) ويتألّف من ثلاث رَسائل لجدِّه ثابت بن قُرّة (ت٢٨٨هـ/ ٩٠١م)، والذي تحتفظ به مكتبة كوبرلي بإسطنبول، وقد كتبه على الرِّقّ، سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨١م، حيث كتب بخطِّه بعد الرِّسالة الأولى منه: «نسختُ جميعَ ذلك من دُستور أبي الحسن ثابت بن قُرّة رضي الله عنه الذي بخطِّه. وكتب إبراهيم بن هِلِّل[٣] بن إبراهيم بن زهرون في ذي الحجة سنة سبعين وثلثمِاية. قابلتُ به هذا الدُّستور، وصحّ ولله الشكر»[٤]. وكتب في نهاية الرِّسالة الثالثة: «تم والحمد لله رب العالمين. وكتب إبراهيم بن هِلِّل بن إبراهيم بن زَهْرون الصّابي الحَرّاني الكاتب في ذي الحجة سنة سبعين وثلثماِية. نسختُه من دستور جدّنا أبي الحسين ثابت بن قُرّة، رحمه الله الذي بخطِّه»[٥].

وذُكر (هِلِّيل) أيضاً في النّسخة الخطيّة من كتاب (غرر البلاغة) لأبي الحسين الصّابي (ت٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) المحفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٩٤١١ أدب)، فعلى صفحة العنوان منها: «الجزء الثاني من غرر البلاغة تأليف هِلِّيل بن

(١) انظر على سبيل المثال: ج١، ص٦٢٤، ج٢، ص٢٨١.

(٢) انظر نماذج من خطّ يده في المرفقات الملحقة بهذه المقدمة، في: ص (م٨٦)، ص (م٨٧)، وكذلك ص (م٨٨)، ص(م٨٩).

(٣) هِلِّل = هِلِّيل.

(٤) انظر صورتها في ص (م٨٩).

(٥) انظر صورتها في ص (م٨٦).

المحسن بن إبراهيم بن هِلَّل الصّابي، رضي الله عنه»[1].

كما وجدتُ أنّ الاسم وَرَد بهذه الصِّيغة (هِلِّيل) عند القاضي التَّنوخي (ت٣٨٤هـ/ ١٠٩١م)، حيث قال: «أنشدني... أبو إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل الصّابي الكاتب»[2]، ووجدْتُه أيضاً في نسخةٍ خطية قديمة من ديوان مِهْيار الدَّيْلَمي (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)، تعود إلى أوائل القرن السابع الهجري، حيث وَرَد فيها أنّ مِهْيار كتب قصيدة مودّةٍ وعتاب إلى «أبي الحسين هِلِّيل بن المحسِّن بن إبراهيم الصابي الكاتب». وعلّق محقّق الديوان أحمد نسيم على كلمة (هِلِّيل): «كذا بالأصل»[3]. وكذلك عند أبي شجاع الرُّوذراوري (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) في ذيله على (تجارب الأمم)[4]، وعند ابن حَمْدون (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) الذي قال: «أهدى أبو الخطاب الصّابي إلى أبي إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل سِكّينا»[5]، وعند القِفْطي (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) أيضاً والذي قال: «ورأيتُ في كتاب هِلِّيل بن المحسِّن الكاتب...»[6]، وفي مواضع كثيرة من الأصول الخطية لكتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب) لابن العَديم (ت٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م)[7]، وكذلك عند المرّاكشي

(١) انظر صورتها في ص (م٩٠).

(٢) نشوار المحاضرة، ج٨، ص٢٣٢. وكان محقق الكتاب حصيفاً بإبقائه.

(٣) ديوان مهيار الديلمي، ج١، ص٩.

(٤) ذيل تجارب الأمم، ص٣١، ص٦٩، وقَلَبها المحقق إلى (هلال).

(٥) التذكرة الحمدونية، ج٥، ص٢٤، وانظر: ج٢، ص٤٦٦ (هامش ١) أيضاً.

(٦) إنباه الرواة، ج٤، ص٦٣. وقد قَلَبها المحقق وقال عنها: تحريف.

(٧) مخطوطة مكتبة أحمد الثالث بإسطنبول (٢٩٢٥). انظر نموذجاً منها في ص(م٩١) من هذه المقدمة.

(ت٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م)[١].

دَعاني هذا إلى الرّجوع إلى التراث (الكلاسيكي) لأهل الكتاب، وما كُتب عنهم، فوَجدتُ أنّ (هِلِّيل) اسمٌ لجدِّ النبيّ إدريس[٢] عليه السلام[٣]، وهو من أجداد الصّابئة كما يقولون، فإنّهم ينتسبون إلى صاب ابن النبيّ إدريس[٤]. وقال البيروني: وينتسبون إلى إلى أغاذيمون وهرمس وواليس ومابا وسوار، ويتديّنون بنُبوّتهم ونُبوّة أمثالهم من الحكماء[٥]. ووجدتُ أنّ (هِلِّيل) من أسمائهم. وفي بعض الأصول الخطية لهذه الرَّسائل رسالةٌ من أبي إسحاق إلى يحيى وهِلِّيل ابني قُرّة[٦].

كما وَجَدْتُ أنه اسمٌ حَمَله بعضُ حاخامات بني إسرائيل منذ ما قبل ولادة السيّد المسيح، ويَرِدُ في بعض أسْفار العَهْدين القديم والجديد، وفي التَّلْمود، ومنهم هِلِّيل، أشهر مَن حَمَل هذا الاسم، وهو الحاخام الذي كان معلّماً في مدرسة التَّوراة في طيبريوس، والذي اختاره اليهود بعد خَراب القدس بطريرك (أباً)[٧]. وعَبْدون بن هِلِّيل الفِرْعَتوني أحد قُضاة بني إسرائيل في أرض افرايم[٨]، وهو الذي قام بتدبير أمور الحكم في بني إسرائيل بعد إيلون، وحكم ثماني سنين[٩]. وقد كتب ابن خلدون هذا

---

(١) السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة، ج٢، ص٥٦٢.

(٢) وهو هرمس. ابن حزم، الفصل، ج١، ص٣٧؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص٤٥.

(٣) مصعب الزبيري، نسب قريش، ص٤.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٧٠؛ وانظر: ابن حزم، الفصل، ج١، ص٨٤، ص٩٣.

(٥) البيروني، الآثار الباقية، ص٣١٨.

(٦) انظر صورها في: ص (م٩٢)، ص (م٩٣)، ص(م٩٤) من هذه المقدمة.

(٧) تادرس ملطي، قاموس آباء الكنيسة وقدّيسيها مع بعض شخصيات كنسية، (هِلِّيل).

(٨) سفر القضاة ؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٥٠٨.

(٩) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص٢١٧.

الاسم بخطِّه في مشجَّر نسب حكام بني إسرائيل[١]. بل إنّ الحاخام المؤسّسَ للمشناة من التَّلْمود، وهي الشريعة الشفوية اليهودية، والتي كانت تتناقلها الألْسُن[٢]، كان يُدعى هِلِّيل، وقد مات أواخر العَقْد الأول لولادة السَّيِّد المسيح، وكان من أهمّ مُفسّري التراث الدِّيني اليهودي[٣].

كما أنّ هذا الاسم يَرِدُ عند الطبري في تفسيره بعض المواضع الخاصّة بثمود من سورة الأعراف[٤].

وهِلِّيل يعني: سَبَّح، كما في دائرة المعارف الكتابية المسيحية[٥].

بعد هذا كلِّه، وصلتُ إلى قناعةٍ تامّة بأنّ الاسم هو هِلِّيل، وليس هلال؛ فأعدتُ الأمورَ إلى نِصابها، وضبطتُ الاسمَ بما ارتضيتُه بعد بحثٍ تاريخي مَوْضوعي.

---

(١) انظر صورته في ص(م٩٥) من هذه المقدمة.

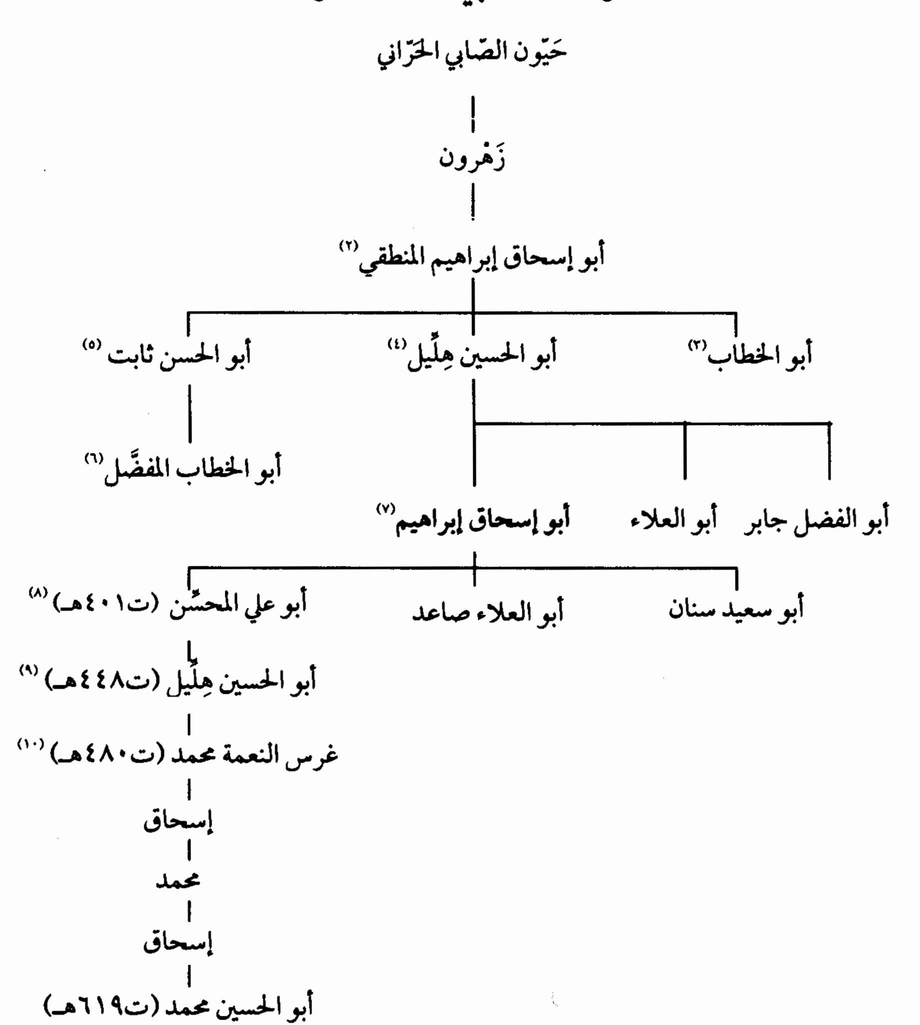
(٢) وضع لها شرحاً أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي (ت٦٥٨هـ/ ١٢٠٤م) في كتابٍ أسماه (مشناة توراة). وهو عربي من قرطبة، ارتحل إلى فاس، ثم إلى مصر ، وكان من علماء اليهود. وأخذ الكتاب – كما صاحبه – مكانةً مهمة ومتميزة بين أوساط اليهود في العالم. عنه، انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٥٣٧. وقد نشر المستشرق البريطاني إدوارد بوكوك بعض فصوله بالعربية في أكسفورد سنة ١٦٥٥م، مع ترجمةٍ لها باللاتينية. فوك، تاريخ الاستشراق، ص٦٣؛ بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٤٠. ثم ظهر الكتاب كاملاً في العصر الحديث.

(٣) ظفر الإسلام خان، التلمود وتاريخه، ص٣٥؛ المسيري، موسوعة اليهود، ج١٣، ص٣٦٨، ص٣٩٢ (مادة مشناة).

(٤) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٢، ص٥٢٧.

(٥) قاموس الكتاب المقدس، حرف الهاء.

مشجّر آل الصّابي أو آل زَهْرون[1]



(١) أصل هذا المشجّر من: كرنكو، الصّابي، دائرة المعارف الإسلامية، وعليه إضافاتٌ منّا. (٢) كان طبيباً، توفي ببغداد سنة ٣٠٩هـ. (٣) كان صاحب بلاغة أيضاً. انظر إحدى رسائله في جمع الجواهر للحصري، ص٢٩٣. (٤) كان طبيباً. (٥) كان طبيباً. ولد بالرقة ومات ببغداد سنة ٣٦٥هـ أو ٣٦٩هـ. (٦) للصّابي رسالة مؤثرة يعزي عمه بوفاة ابنه هذا. (٧) صاحب هذه الرسائل. (٨) يلقب بصاحب الشامة. (٩) صاحب: (كتاب التاريخ)، و(أخبار بغداد)، و(رسوم دار الخلافة)، و(تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء)، و(غرر البلاغة)، وهو أول مَن أسلم منهم. (١٠) صاحب: (عيون التواريخ)، و(الهفوات النادرة)، و(الربيع).

وكان العصرُ الذي عاش فيه الصّابي قد شَهِد ضَعْفاً شديداً في مؤسّسة الخلافة الإسلامية، ما أدّى إلى انفصالِ أجزاءٍ كبيرة عنها، وتسلّطِ الأمراء والقادة العسكريين على مقدّرات الدَّوْلة وثرواتها، فما إنْ وَصَل الصّابي إلى مرحلة الشباب حتّى كان البُوَيْهيون قد دَخلوا بغداد وسيطروا عليها، وأضحوا أصحابَ السُّلطة الحقيقية فيها.

والبُوَيْهيون أسرةٌ من الدَّيْلم، كانوا يقطنون مع أبناء عُمومتهم الجِيل في الأقاليم الواقعة جنوبيّ بحر قَزْوين (الخزر): قُومِس، طَبَرِسْتان، جُرْجان، جِيلان، والتي تُسمّى بلاد الدَّيْلَم[1].

تختلف المصادرُ في أصول الدَّيْلَم العِرْقية، هل هم قوميةٌ مستقلّة أم من العرب أم من الفرس؟ لكنّ لغتهم إحدى لهجات اللغة الفارسية.

كما تختلف المصادر اختلافاً كبيراً في أصولهم الاجتماعية، هل هم من نَسْل الملك الساساني بَهْرام جُور بن يزدجرد، أم من أصولٍ وَضيعةٍ فقيرة. والرأي الثاني أرْجح على ما يبدو من الواقع التاريخي[2].

---

(١) عن موطنهم، انظر: مجهول، حدود العالم، ص١٥٣؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص٢٠٤؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ج٢، ص٣٧٥؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٥٣؛ الصابي، المنتزع من كتاب التاجي، ص٢٥؛ الرافعي، التدوين، ج١، ص٢٢ وما بعدها؛ القزويني، آثار البلاد، ص٣٣٠، ص٤٣٤؛ لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص٢٠٦.

(٢) عن أصل البُوَيْهيين عرقياً واجتماعياً، انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١٧، ص٥٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٥؛ جوزجاني، طبقات ناصري، ج١، ص٢١٨؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٨، ص٣٢٤، ص٣٤٤ وفيه إحالات كثيرة على المصادر؛ ميرخوند، روضة الصفا، ج٤، ص٦١٢؛ البناكتي، روضة أولي الألباب، ص٢٣١؛ سترشتين، بنو بُوَيْه، دائرة المعارف الإسلامية؛ الكُرْوي، البُوَيْهيون، ص٨٢. وترد في هذا الشأن الرواية التي مرّت قبل قليل، والتي مؤدّاها أن عَضُد الدَّوْلة البُوَيْهي كلّف أبا إسحاق الصابي أن يضع كتاباً يمجّد فيه بني بُوَيْه ويُظهر مآثر أسرته ويربطها بأصول ملوك الفرس القدماء ونسبهم العريق. ولما ابتدأ بعمله، دخل عليه ذات يوم مَنْ سأله ماذا يعمل، فأجابه ساخراً من نفسه: أباطيل أنمّقها، وأكاذيب ألفّقها.

وكان البُوَيْهيون قد أثبتوا قوّتهم ووسّعوا نفوذهم في شرق الدَّوْلة الإسلامية، واتّخذوا من شيراز قاعدةً لهم، واستَوْلوا على كثيرٍ من بُلدان المشرق الإسلامي مثل: أرّجان والأحْواز (الأهواز) وكَرْمان وأصْبَهان والرَّيّ، وكذلك جُرْجان وطَبَرِسْتان؛ فاصْطدموا بالقوّة الصّاعدة الأخرى، السّامانيين، فدَخل الطّرفان في صراعٍ سياسي وعسكري لتَوْسيع النفوذ وإثبات الغَلَبة(١).

كما أنهم كانوا قد دَخلوا في صراعٍ داخلي فيما بينهم للسَّبب ذاته، تراوَحت فيه النتائج بين نَصْرٍ وهزيمة وقَتْلٍ وخَسارة مُلْكٍ وأملاك(٢).

واتّقد طموحُهم السّياسي؛ فدخلوا في صراعٍ مع الخلافة ذات الحقّ الشرعي في حُكم الدَّوْلة الإسلامية، وانتهى ذلك الصّراع بدخولهم بغداد عاصمة الدَّوْلة سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، والسَّيطرة عليها وعلى مَفاصل الدَّوْلة، وتملّكهم لزمام الأمور فيها، فاستأثروا بالسُّلطة الزّمنية (الدّنيوية) للخليفة، ولم يتركوا له سوى بعض الحقوق الدِّينية. وظلّوا يتوارثون السُّلْطة والدَّوْلة إلى أنْ هُزم آخر أمرائهم وهو أبو نَصْر الملك الرّحيم على يد طُغْرل بك السَّلْجوقي الذي استنجد به الخليفة القائم بأمر الله العبّاسي، وذلك سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م.

وقد لاحَقْتُ أخبار الأسرة البُوَيْهية، ورأيتُ أنْ أضبطَ أسماءَ أمرائهم؛ فأعددتُ المشجَّر الآتي:

---

(١) عن ذلك الصراع السياسي والعسكري، انظر: العُتْبي، اليميني، ص٥١-٥٥، ص٧٠ وما بعدها، ص٣١٢؛ الكرديزي، زين الأخبار، ص١٤٢؛ الكُرْوي، البُوَيْهيون، ص١٣٣؛ المحيميد، العلاقات السياسية بين الدَّوْلة السامانية والقوى السياسية، ص٢٠٦.

(٢) انظر: العُتْبي، اليميني، ص٤٩-٥٦، ص٨٣؛ ص٣١٤-٣١٥؛ وفي رسائل أبي إسحاق الصابي، وكاتبهم الآخر عبد العزيز بن يوسف الشيرازي ما يوضح كثيراً من حيثيات ذلك الصراع البُوَيْهي – البُوَيْهي. رسائل الشيرازي، ص٥، ص١٧، ص٢٠، ص٤٣ على سبيل المثال. وانظر كذلك: النويري، نهاية الأرب، ج٢٦، ص١٦٣ وما بعدها.

مشجّر الأسرة البُوَيْهية



الخلفاء العباسيون
في حقبة التسلّط البُوَيْهي

	الخليفة	حكم من	إلى
١	المستكفي	٣٣٣هـ/ ٩٤٤م	٣٣٤هـ/ ٩٤٦م
٢	المطيع	٣٣٤هـ/ ٩٤٦م	٣٦٣هـ/ ٩٧٤م
٣	الطائع	٣٦٣هـ/ ٩٧٤م	٣٨١هـ/ ٩٩١م
٤	القادر	٣٨١هـ/ ٩٩١م	٤٢٢هـ/ ١٠٣١م
٥	القائم	٤٢٢هـ/ ١٠٣١م	٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م

وفيات الأمراء البُوَيْهيين المذكورين
في ديوان رَسائل الصّابي

	الأمير	الوفاة
١	رُكْن الدَّوْلة	٣٦٦هـ/ ٩٧٦م
٢	عَضُد الدَّوْلة	٣٧٢هـ/ ٩٨٣م
٣	مؤيِّد الدَّوْلة	٣٧٣هـ/ ٩٨٤م
٤	فَخْر الدَّوْلة	٣٨٧هـ/ ٩٩٧م
٥	مُعِزّ الدَّوْلة	٣٥٦هـ/ ٩٦٧م
٦	عِزّ الدَّوْلة	٣٦٧هـ/ ٩٧٧م
٧	صَمْصام الدَّوْلة	٣٨٨هـ/ ٩٩٨م
٨	شرف الدَّوْلة	٣٧٩هـ/ ٩٨٩م
٩	بهاء الدَّوْلة	٤٠٣هـ/ ١٠١٢م

وكان الصّابي - خلال خدمته الطّويلة في ديوان الإنشاء - قد كتب عدداً كبيراً من الرَّسائل، جُمعت في كتابٍ كان نحو ألف وَرَقة. قال النديم: له ديوان رَسائل إلى وقتنا هذا (توفي النديم سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، نحو ألف ورقة[١]. وقد جُمعت رَسائلُه في حياته[٢]، إذ ظهرت أهميتها، فقد اهتم الكُتّاب بها وتلقّفوها حال إنشائها، ويتضح هذا من طلب الكاتب أبي سعد المجوسي لها، وتصريح الصّابي بأنه سيكلّف ورّاقاً بنسخها، وأنه أضاف إلى مجموع رَسائله ثلاث كراريس، وأنّ بعض رَسائله قد أعارها سابقاً[٣]. وربّما يكون أبو بكر الورّاق الذي أثنى عليه في إحدى رَسائله[٤] هو مَن نَسَخ رَسائله وضمّها إلى بعضها تحت إشرافه، وبمراجعته.

وبالإضافة إلى ديوان رَسائله، فإنّ للصّابي كتاب التّاجي جمع فيه مفاخر عَضُد الدَّوْلة، ومفاخر الدَّيْلَم وأنسابهم وذكر أصولهم وأسلافهم. قال عنه أبو حَيّان التَّوْحيدي (ت٤١٤هـ/ ١٠٢٣م): «ويزيد - يقصد الصّابي - على كلّ مَن تقدّم - ممن ذَكَرهم من الكتّاب البُلغاء - بالكتاب التّاجي؛ فإنه أبان عن أمورٍ وكَنّى في مواضع، .... ودلّ على التفلسف، وعلى الاطّلاع على حقائق السياسة. ولو لم يكن له غيره لكان به أعْرق الناس في الخطابة، وأعْرق الكُتّاب في الكتابة»[٥]. أسماه النديم (دولة بني بُوَيْه وأخبار الدَّيْلَم وابتداء أمرهم)[٦]. فُقد - للأسف - مع ما فُقد من تراثنا، ولم يصلنا منه إلّا قطعة صغيرة وُجدت مصادفةً في صنعاء اليمن[٧]. قال عنه الثعالبي: «مَن أراد

---

(١) الفهرست، ج١، ص٤١٦.

(٢) انظر رسالتيه في ج٢، ص٥٧٠، ص٥٧٢.

(٣) ج٢، ص٥٧٠، ص٥٧٢.

(٤) ج٢، ص٥٧٢.

(٥) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٦٨.

(٦) الفهرست، ج١، ص٤١٦.

(٧) دَرَسها وحقّقها محمد حسين الزبيدي، ونشرتها وزارة الإعلام العراقية في بغداد، سنة ١٩٧٧م باسم (المنتزع من كتاب التاجي). وفي (اليميني) للعُتبي، و(يتيمة الدهر) للثعالبي، و(روضة الصفا) لميرخوند مقتطفاتٌ ونصوصٌ منه.

أن ينظر في أخبار عَضُد الدَّوْلة ويقف على محاسن آثاره فلْيتأمّل الكتاب التّاجي من تأليف أبي إسحاق الصابي لتجتمعَ له مع الإحاطة بها بلاغةُ مَن قد تسهل لـه حزونها، ولانَتْه متونها، وأطاعته عيونها»[١]. وأثنى عليه العتبي. ومما قاله عنه: «موشّى بحبر ألفاظه الساحرة، ومغشّ بحلل معانيه الزاهرة؛ فحلّ عقد البيان بما قيّده، وبيّض وجه البلاغة بما سوّده»[٢]. وقال عنه الروذراوري الذي وصفه بـ«بديع الترصيف، حسن التصنيف»: كان كلما عمل منه جزءاً حمله إلى عَضُد الدَّوْلة حتى يقرأه ويصلحه ويزيد فيه وينقص منه. فلما تكامل ما أراده حُرّر وحُمل كاملاً إلى خزانته. وقال إنّ اسمه (التاجي في الدَّوْلة الدَّيْلَمية)[٣].

ويمكننا التقاط بعض الإشارات من رَسائله ما يدل على رضا سَيّده عن منهجه في تأليف الكتاب[٤]، وأنّ مسوّدة الكتاب بعد أنْ اكتمل العمل به لم تكن لديه في وقت من من الأوقات، وهو في معتقله[٥]، بما يشي أنها كانت عند عَضُد الدَّوْلة.

ويبدو أنّ كتاب (أخبار أصبهان) الذي أرسل إلى أحدهم يستعيره كان من أجل الاطّلاع على بعض الأمور الخاصة بتأليفه كتابه (التاجي)، قال: «فإنني مأمورٌ بشيءٍ أعمله وأؤلّفه»[٦].

كما أنّ له كتاباً آخر في **أخبار أهله وولد أبيه**، يبدو أنه هو ما ذكره ابنُ خَلْدون بقوله: «وقد ألّف أبو إسحاق الصّابي الكاتب مَقالةً في أنسابهم ونِحْلتهم»[٧]. وكتاباً

---

(١) يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٥٨.

(٢) اليميني، ص١٦. وأخذ منه مادةً عن الصراع الدائر بين الأمراء البويهيين. ص٥٠.

(٣) ذيل تجارب الأمم، ص٣٣.

(٤) ج١، ص٥٠٥.

(٥) ج٢، ص٤٧٢.

(٦) ج٢، ص٥٧٤.

(٧) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص١٠. وفي مكتبة جامعة ليدن بهولندا مخطوط يحمل الرقم Or.2345 بعنوان (تاريخ آل الصابي) منسوبٌ للصابي؛ فاسترعى اهتمامي وحرصت على الاطلاع عليه، لكنني وجدته لا يمتّ للصابي ولا للصابئة بصلة، وإنما هو أجوبةٌ لابن تيمية على عدة سؤالات شرعية.

فيه **مُراسلاته مع الشريف الرّضي** الشعرية والنثرية[١]، وكتاب **أخبار أبي محمد بن يزيد المهلَّبي**[٢]. وله كتاب **بدائع ما نجم من مختلفي كُتّاب العجم**، ذكره هو نفسه في روايةٍ نقلها الحمْدوني[٣]. كما وضع (**كتاباً في علم النُّجوم**) منه نسخة في إستانبول بعنوان: (**مجموع نفيس في علم النُّجوم**)[٤]، وكتاب في (**المثلّثات**)، قال القفطي إنه رآه بخطّه، وأردف: وله عدة رَسائل في أجوبة مخاطباتٍ لأهل العلم بهذا النوع[٥].

وإلى جانب هذا التراث، ترك الصّابي **ديوان شعر** صغير. قال النديم: وله من الكتب ...... وديوان شعره، وهو قليل[٦]. لكن شعره شعر كُتّاب، فهو أعلى كعباً في النثر؛ لذلك اشتهر بالترسّل النثري، ولم يشتهر بالشعر، قال عن نفسه في قصيدةٍ وجّهها إلى صَمْصام الدَّوْلة:

---

(١) نشره محمد يوسف نجم في الكويت سنة ١٩٦١م. قال عنه محقق كتاب (تلخيص البيان في مجازات القرآن) للشريف الرضي، ص٧٢: «ولكن كتاب الصابي هذا لا يزال سِرّاً في ضمير الغيب». فتأمل!

(٢) عند ياقوت: (اختيار شعر المهلبي).

(٣) التذكرة الحمدونية، ج٩، ص٣٥٥. وهناك كتاب يحمل العنوان نفسه لمحمد بن محمد بن سهل الشِّلْحي (ت٤٢٣هـ). الصفدي، الوافي، ج١، ص١٠٨.

(٤) صورة منه بحوزة المحقق، ونماذج منه في: ص م٨٦، ص م٨٧، ص م٨٨، ص م٨٩ من هذه المقدمة.

(٥) القفطي، إخبار العلماء، ص٥٤.

(٦) الفهرست، ج١، ص٤١٦. وعلى الرغم من أن النديم وياقوت ذكرا ديوانه، إلّا أنه لم يصل إلينا، وإنما وصلتنا أبياتٌ متفرّقة في بطون المصادر. وذكر فؤاد سزكين أن للشريف الرضي (مختار شعر أبي إسحاق الصّابي). تاريخ التراث العربي، مج٢، ج٤، ص١٨٢. وقد جمع محمد غريب محمود عبد الباقي ما وصل إلينا من أبيات، ودرسها، وتقدّم بها لنيل درجة الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الإسكندرية سنة ٢٠٠٨، وكان عنوان الأطروحة: (شعر أبي إسحاق الصابي – دراسة فنية تحليلية مع جمع وتحقيق).

ودونكهـــا اجتهـــاداً مـــن مُقـــلٍّ لـــه بـــالنثر لا الـــنظم اشـــتهارُ[١]

وقد وضع رسالةً في الفرق بين الكاتب والشاعر، أوضح فيها أغراض كلٍّ منهما، وعلّل سبب نجاح كلٍّ منهما في صنعته وعدم نجاحه في صنعة الآخر[٢].

وبشعره ونثره يكتب رَسائل إلى أصدقائه ومَن يثق برأيهم يطلب نقداً صريحاً يقوّم أدبه[٣].

إنّ أبا إسحاق الصابي – كما يقول صاحبُ (الفهرست) – مترسِّلٌ بليغٌ شاعرٌ عالمٌ بالهندسة، والغالبُ عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر[٤].

* * *

إنّ أهمية الرَّسائل بشقّيها: الدِّيواني والإخواني (الرَّسْمي والشخصي) تكمنُ في حفظها مادّةً موثّقة من العَصْر الذي كُتبت فيه؛ فهي مصدرٌ أصيلٌ يوثّق لكثيرٍ من مَفاصل التّاريخ والحضارة، وعلى كافّة صُعُد الحياة اليَوْمية للمجتمع. وحينما تكون الرَّسائل صادرةً عن إدارةٍ رَسْميّة فإنها تزداد أهمية، فما بالك برَسائل صادرةٍ عن جهةٍ رَسْميّة كانت تحكم دَوْلَة الخلافة، وكاتبها من أهم كُتّاب تلك الإدارة !

ورَسائل الصّابي – في معظمها – رَسائل ديوانية (رَسْميّة) صادرةٌ عن بلاط البُوَيْهيين الذين تمكّنوا من اجتزاء كثيرٍ من بُلدان المشرق الإسلامي، واقتطاعها من

---

(١) ج١، ص٥١٢.

(٢) ج٢، ص٦٥٨.

(٣) ج٢، ص٥٦١، ص٥٧٠.

(٤) النديم، الفهرست، ج١، ص٤١٦؛ ياقوت، معجم الأدباء، ج١، ص٢٢٦. وذكر البغدادي في (هدية العارفين)، ج١، ص٧ أن له كتاب (أخبار النحاة). ويبدو أن هذا خلط منه، حيث إن هذا الكتاب ليس له وإنما لحفيده هِلَّيل بن المحسِّن، كما قال أسعد ذبيان في مقدمته لكتاب هِلَّيل (غرر البلاغة)، ص٣٤.

سُلطة الخلافة، واستطاعوا سَلْب الصَّلاحيات الدُّنيوية للخليفة العبّاسي، والتحكّم بمقدّرات الدَّوْلة. وهذه الرَّسائل تُظهر نظرتهم لفكرة الدَّوْلة، وفَلْسفتهم الإدارية، وإجراءاتهم الاقتصادية والإدارية والسياسية والعسكرية والعمرانية، وعلاقاتهم بالخلفاء والناس وببعضهم البعض، وكثيراً من تاريخهم الاجتماعي والثقافي.

إنّ رَسائل الصّابي - وهو كما قال عنه القفطي[1]: «كاتبُ الإنشاء ويعلم الوَقائع» أي الخفايا والأسرار - أوعيةٌ حافظةٌ لكثيرٍ من المادّة الأوليّة التي تُساعد على دراسة تاريخ الدَّوْلة الإسلامية (خاصّة العراق والمشرق الإسلامي) في عَهْد التسلّط البُوَيْهي (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٦-١٠٥٥م)؛ والصّراع الناشب بينهم وبين مؤسّسة الخلافة والقُوى المحيطة، والتنافس الداخلي البُوَيْهي؛ ففيها ما يُفصح عن مُراسلاتٍ سياسية، وتنظيماتٍ اقتصادية، وإجراءاتٍ إدارية. وفيها كثيرٌ من النصوص الفريدة، وفيها وثائق عُهودٍ وصُلْحٍ وكُتب تكليفٍ وتقليدٍ للوظائف الكُبرى. كما أنّ بها مادةً حضارية ذات أهميةٍ بالغة ستوفّر مادةً جديدةً يُمكن أن تُوظّف في كتابة التّاريخ، وفهْم بعض جَوانبه خلال حُقبة البُوَيْهيين؛ فهي - بحقّ - كنزٌ وَفيرُ الفائدة، يوفّر للباحثين كمّاً هائلاً من المادّة التاريخية.

والرَّسائل الإخوانية بما فيها من أغراض التهنئة والتعزية والشكر والعتاب والشفاعات والاستعطاف والمداعبة تشكّلُ انعكاساً لمنظومةٍ من العلاقات الاجتماعية، بغضّ النظر عن مدى صِدْق عواطفها ومشاعرها.

ومَن يقرأ رَسائل أبي إسحاق الصّابي يُدرك قيمتَها الفنية، فيجده يعنى عنايةً شديدةً باختيار ألفاظه وصَقْل عباراته وتَنْقيح سَجْعاته، ويراه يُسوّد ويبيّض وينمّق، إلى أنْ تخرجَ الرّسالةُ مرصّعةً بكلٍّ ما يمكن من حُلي ووَشْي، ويُخضع كتابتَه في ذلك كلِّه لفنّ التَّصْوير والتَّجْنيس وألوان البَديع، وإنْ كان لم يُغرق في استخدام هذه الألوان إغراقَ أُستاذه ابن العَميد، وزميله الصّاحب بن عَبّاد.

---

(١) إخبار العلماء، ص٧٧.

وهو يعنى بتَقْصير السَّجْع، فإنْ أطال في ذلك نَغَّم العبارتين تنغيماً يجعلك تظنّ أنهما قَصيرتان؛ فالألفاظُ عنده تَتعادلُ وتَتوازن، ويوفّر لهما ضُروباً من النَّغَم. كما أنه يعنى بالمقابلة الدّقيقة بين أوّل العبارتين، حتى تتشابه السَّجْعتان في أطرافهما، ليتمّ له ما يريد من موسيقى؛ فتخرجَ في صورةٍ بديعة من الزّخرفة الكتابية[١].

ولا يخفى على الباحثين أنّ هذه الرَّسائل بأسلوبها الأدبي واللُّغوي والبَلاغي تشكّل أحد المقاييس المهمّة لدراسة تطوّر الكتابة الفنية في تاريخ الأدب العربي، وللمساهمة في فَهْم تاريخ المصطلح التاريخي والفنّي[٢].

ولأهميّة رَسائل أبي إسحاق الصّابي التاريخية والأدبية والبلاغية تَداولها الكُتّابُ والأدباء، فاقتبسوا منها وأفادوا بطرق شتّى؛ فكانت نسخةٌ من ديوان رَسائله عند القاضي أبي عليّ التَّنوخي - المتوفَّى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، وهي السنة التي توفّي فيها الصّابي - ونَقَل منها بعضَ النّصوص، قال: «قرأتُ كتاباً كَتَبه أبو إسحاق الصّابي الكاتب في جُمادى الأولى سنة خمسٍ وستين وثلاثمائة عن ابن بقيّة - وهو إذ ذاك وزير - إلى أبي المظفَّر حَمْدان بن ناصر الدَّوْلة وهو بحُلْوان متقلّداً لها ولطريق خُراسان»[٣].

واعتمدها أبو هلال العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) ليتمثّل بها عند حديثه عن البلاغة الكتابيّة الجيّدة[٤]. والمستغرب أنّ التَّوْحيدي - وهو الذي لا يرضى عن شيءٍ بسهولة - جعلها مَضرب المثل في البلاغة، فقال عن رجلٍ: «وكان هذا الرجلُ

---

(١) انظر: ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص٢١٧، وما بعدها.

(٢) انظر بعض الآراء بكتابة أبي إسحاق الصّابي عند: مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج٢، ص٣٦٠ وما بعدها؛ ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج٥، ص٤٤٣ وما بعدها.

(٣) نشوار المحاضرة، ج٣، ص١٦٩.

(٤) ديوان المعاني، ج٢، ص٨٤٥.

ممّن يُدَوَّن كلامُه كما يُدوَّن كلامُ ابن هِلِّيل الصّابي»[١]. وسُئل عن الصّاحب بن عَبّاد، فأجاب: كيف بلاغته من بلاغة ابن العَميد؟ وأين طريقته من طريقة عبد العزيز بن يوسف والصّابي[٢]؟ وزاد في ذلك، حيث يقول: «فأما أبو إسحاق فإنه أحبّ الناس للطريقة المستقيمة، وأمْضاهم على المحجّة الوُسْطى.... وأبو إسحاق مَعانيه فلسفيّة، وطِباعُه عراقيّة، وعادتُه محمودة، لا يثب ولا يرسب، ولا يكلُّ ولا يَكْهم ولا يلتفت وهو متوجّه، ولا يتوجّه وهو ملتفت. هذا ونَظْمُه منثورُه، ومنثورُه منظومُه؛ إنما هو ذَهَبٌ إبْرِيزٌ كيفما سُبِك فهو واحد، وإنما يختلف بما يُصاغ منه ويشكِّل عليه؛ هذا مع الظَّرْف الناصع والتّواضع الحَسَن، واللّهجة اللّطيفة، والخُلُق الدَّمِث، والمعرفةِ بالزمان، والخِبرةِ بأصناف الناس؛ وله فنونٌ من الكلام ما سَبَقه إليها أحد، وما ماثلَه فيها إنسان»[٣].

وكانت هذه الرَّسائل بين يدي القاضي التنوخي (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) الذي قال: «قرأتُ كتاباً كتبه أبو إسحاق الصّابي الكاتب وكَتَب عن الوزير محُمّد بن بَقيّة إلى أبي المظَفَّر حَمْدان ابن ناصر الدَّوْلة وهو بحُلْوان متقلّداً لها ولطريق خُراسان وقد أنزل عياله في دار أبي العلاء صاعد بن ثابت ببغداد يسأله تفريغها»[٤].

كما كان الصّابي مصدراً لكثيرٍ من الروايات الشفوية التي أفاد منها في تدوين كتابه (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)[٥].

وكان ديوان رَسائل الصّابي من مَصادر أبي منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ/

---

(١) أخلاق الوزيرين، ص١١٧.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٦١.

(٣) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص٦٧-٦٨.

(٤) نشوار المحاضرة، ج٣، ص١٦٩.

(٥) نشوار المحاضرة، ج١، ص٢٣.

١٠٣٨م) حينما وَضَع كتابه الموسوعيّ (يتيمة الدهر)، فأخذ منه - على سبيل المثال - بعض المادّة كتلك المتعلّقة بأبي محمد البوصرآبادي. قال: «وجدتُ ذكره في رَسائل أبي إسحاق الصّابي، وعرفتُ.......»[1].

وكان الهمذاني (ت٥٢١هـ/ ١١٢٧م) مطّلعاً على رَسائل الصّابي، وقد صرّح بذلك حينما قال: «وكتب أبو تغلب كتاباً إلى المطيع لله يخبره بالحال، وكتب الصّابي الجواب عنه، وهو مذكورٌ في رَسائله»[2].

واتّخذ منها ضياء الدين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) مِعْياراً للمُوازنة والمقارنة، ومادةً للدَّرْس والنَّقْد؛ فساق عدداً من نُصوصها، معلّقاً على ما بها من فنون صناعة الكتابة، معترفاً بمنزلة الصّابي الكبيرة بين كُتّاب عصره، على الرُّغْم من بعض المآخذ التي أخذها عليه، كمُرادفته في السَّجْع في المعنى الواحد[3].

بل إنّ شُهرةَ رَسائل أبي إسحاق الصّابي تخطّت حُدودَ العراق والمشرق، وطارت إلى الآفاق، فعُرفت في بلاد الشام، حيث نقل منها الشيزري (ت بعد ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)[4]، وذهبت إلى مصر فأخذ منها الوطواط (ت٧١٨هـ/ ١٣١٨م)[5]، وسارت إلى بلاد المغرب فكانت نسخةٌ منها عند الحصري القيرواني (ت٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)[6]، ثم حطّت في الأندلس؛ حيث اهتم بها المواعيني

---

(١) انظر: تتمة يتيمة الدهر، ص٥٤.

(٢) تكملة تاريخ الطبري، ص٢١١.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ج١، ص٢٨٢، ص٣٣١. وانظر تعليق القلقشندي على بعض آراء ابن الأثير في كتابة الصابي. صبح الأعشى، ج٢، ص٣٥٢.

(٤) انظر ما أخذه في ج١، ص٤٧٩ على سبيل المثال.

(٥) انظر ما أخذه في ج٢، ص٦٤٤، ص٦٥١ على سبيل المثال.

(٦) انظر ما أخذه في ج٢، ص٦٦٩ على سبيل المثال.

(ت٥٦٤هـ/ ١١٦٨م)[١]، والبلوي (ت٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م)[٢]، وترجم له ابن بسام (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) منوّهاً به وبرَسائله[٣]. وجعل منها أبو القاسم الكَلاعي الإشبيلي (من القرن الخامس / السادس الهجري) نموذجاً لشرْح بعض الظواهر البَيانيّة في فنون النثر العربي[٤].

كما كانت نسخةٌ من رَسائله بين يدي صلاح الدين الصَّفدي (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) وأخذ عنه بعض المادة التاريخية[٥]، وكذلك كانت نسخةٌ منها بين يدي أبي العبّاس القَلْقَشَنْدي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) الذي درس تاريخ الكتابة العربية، فكانت رَسائل الصّابي إحدى مَصادره المهمّة. قال: «وقد كانت مُلوكُ بني بُوَيْه وبني سَلْجوق[٦] مع غَلَبتهم على أمر الخلفاء ببغداد واستيلائهم يقتصرون في تصرّفهم على متعلّقات الملك في الجهاد والتصرّف في الأموال، ويَكِلون أمرَ الولايات إلى الخليفة، يُباشرها بنفسه، وتُكتب عنه العهود والتقاليد، على ما تشهد به نُسَخُها الموجودة من إنشاء الصّابي»[٧]. واستشهد كثيراً بأقواله وتعبيراته، وجَعَله في مرتبةٍ من البلاغة أعلى من القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) كاتب صلاح الدِّين الأيوبي، فقال: «وأبلغ من ذلك كلّه أبو إسحاق الصّابي صاحبُ الرَّسائل المشهورة»[٨].

وتمثّل ابن عراق (ت بعد ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م) ببعض رَسائل الصّابي، وجعل منها

---

(١) انظر ما أخذه في ج٢، ص٥٢١ على سبيل المثال.
(٢) انظر ما أخذه في ج١، ص٦٠٥ على سبيل المثال.
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٨، ص٥٧٦.
(٤) الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص١٠٥.
(٥) الوافي، ج١، ص٣٣.
(٦) لم يشهد الصابي عهد بني سَلْجوق، فقد فارق الدنيا قبل دخولهم بغداد بستّة عقود تقريباً.
(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٧٢.
(٨) صبح الأعشى، ج١، ص٧٠.

شواهد على آرائه في الكنايات، وقدّم لأحد النصوص بقوله: «استحسنه أهل الصنعة، وتحفّظوا عنه هذا الفصل لاشتماله على عدّة كناياتٍ لطيفة»[١].

* * *

وكان الأمير شكيب أرْسلان (ت١٩٤٦م) أوّل مَن تنبّه إلى أهمية رَسائل الصّابي، فقد وَجَد نُسْخةً من هذه الرَّسائل في إسطنبول، قال: «أظفرني الجدُّ وأنا في دار الخلافة بهذه النُّسْخة النفيسة في إحدى المكاتب مشتملةً على أحسن ما دُوِّن من فُصول هذا الكاتب»[٢]، ويقصد إحدى النُّسخ المحفوظة في إسطنبول، إما النُّسْخة التي تحتفظ بها مكتبة فيض الله، أو تلك المحفوظة في مكتبة راغب باشا، أو نُسخة رئيس الكتّاب. وكلّها تحملُ عنوان (المختار من رَسائل الصّابي)[٣]، فنهض ونشر قسماً من المخطوطة كجزءٍ أول، على أمل نشر الباقي في جزءٍ ثان فيما يبدو، لكنه لم يفعل.

وصَدَر ذلك الجزء الأول عن المطبعة العثمانية في بعبدا / لبنان سنة ١٨٩٨م، بعد أنْ «نقّحه وعلّق عليه» كما هو مثبتٌ على غلاف نشرته[٤]؛ فله بذلك الفضلُ والرِّيادة والاهتمام بهذه الرَّسائل المهمّة.

كما أنه أجاد – وهو أميرُ البيان – بتَنْقيح هذه الرَّسائل والتَّعْليق عليها وشَرْح غَوامضها والتَّعْريف بأعْلامها، ولخّص ترجمة أبي منصور الثعالبي لأبي إسحاق الصّابي وصدّر بها رَسائله.

إنّ ما نشره شكيب أرْسلان اثنتان وأربعون رسالة من أصل خمسٍ وتسعين رسالة من ذلك (المختار)، أي أقل من نصفها. لكنّ هذا القليل الذي نَشَره ظلّ مدةً طويلة

(١) الجواهر المفتخرة (مخطوط)، ورقة ٩١ب.
(٢) المختار من رسائل الصابي، ج١، ص٣.
(٣) سنأتي على ذكرها بعد قليل.
(٤) انظر صورته في ص (م١١٧).

مثار اهتمام الدّارسين، واعتماد المؤرّخين في فَهْم العلاقة بين الإدارة البُوَيْهية والخلافة العباسية، ويعود ذلك لأسبابٍ ثلاثة:

١. أهمية المادّة التاريخية التي تحويها.

٢. أهمية مَن صَدَرت عنه تلك الرَّسائل.

٣. أهمية مُنشىء الرَّسائل.

وهذا ما شدّ اهتمامي بالصّابي ورَسائله؛ فما فتئتُ أبحث وأنقّب عنها سنين عدداً؛ فهَداني طولُ البحث إلى معرفة أماكن عشر قطعٍ منها، فبذلتُ في سبيل الحصول عليها جهوداً كبيرة، فما حصلتُ عليها إلّا بشِقّ الأنفس[1]. وهي قطعٌ متقاطعة، متباينة التشابه والاختلاف، هذا بيانُها:

١. قطعةٌ محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ضمن مجموعٍ يحمل رقم ٣/ ٣٣١٤، تتألّف من ٢٦ ورقة، وتشغل الأوراق ٢٠٣-٢٢٩ من المجموع، في كلِّ من صَفْحَيْها ٢٣ سطراً، في كلّ سطرٍ ١٠-١٣ كلمة. تبدأ - بعد البَسْملة - بنسخة رسالة... وتنتهي بـ «تم الجزء الحادي عشر من رسايل أبي إسحق إبراهيم بن هلال الصّابي بعون الله وحسن توفيقه والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا مُحمّد. وقع الفراغ من نسخه وقت صلاة العصر من يوم السبت السادس والعشرين من شهر الله المبارك رمضان سنة سبع وخمسين وخمس ماية على يدي كاتبه أبو (كذا) المكارم بن محمد السمرقندي». وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ب)[2].

٢. قطعةٌ محفوظة في مكتبة جستربتي بإيرلندا برقم ٤٦٢٠، تتألّف من ١٩٩

---

(١) لقد عانيتُ في سبيل الحصول على هذه القطع سنين طويلة، وما تركتُ وسيلةَ اتّصالٍ إلّا طرقتُها من البريد إلى الهاتف إلى البريد الإلكتروني إلى إرسال أشخاص إلى الذهاب شخصياً إلى غير ذلك. ثمّ شاء الله، وكتب النجاح؛ فحصلتُ عليها بعد جهدٍ جهيد، ومحاولاتٍ حثيثة، ووقتٍ طويل، وبذلٍ كثير؛ فله الحمدُ والمِنّةُ من قبلُ ومن بعد.

(٢) نموذجٌ منها في ص (م٩٦).

ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ١٨ سطراً، في كلّ سطرٍ ٨-١٢ كلمة تقريباً. وعلى الرُّغْم من وجود صفحة عنوان عليها: «هذه رَسائل الأستاذ أبي إسحق الصّابي تغمده الله برحمته»، إلا أن هذه القطعة مبتورة الأول، فتبدأ الصفحة التالية للعنوان برقم (٢٣) وفي أعلاها: «الثاني من إنشا ترسل الثعالبي»، ثم يبدأ الكلام - وهو مبتور الأول - بـ «خلوص شكري ويسير يكثره وضوح عذري». كما أنها مبتورة الآخر، حيث ينقطع النص بقوله: «عن مقابلة ما يُعامل به في أسابه بمثله فإنه لا يزال».

وجدتُ على هامش بعض الرَّسائل تعليقاتٍ بخطٍّ مختلف، مذيّل باسم حسن العطّار، وأرجّح أنْ يكون شيخ الأزهر المتوفَّى سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م.

وهي نسخةٌ يبدو من وَرَقها وخطّها أنها قديمة، بل من أقدم النسخ التي وَصَلتنا، وربما تعود للقرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ج)[1].

٣. قطعةٌ محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإيراني في طهران برقم ٤٨٤٩ (مجلس شوراي)، تتألّف من ١٧٢ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ٢٠-٢٦ سطراً، في كلّ سطر ٦-١٠ كلمات. لكنها - للأسف - منقطعة الأوّل والآخر. وقد رقّم أحدهم - المتملِّك أو المفهرس - كلّ صفحةٍ من صفحات المخطوط على حدة؛ فجاء في ٣٤٥ صفحة، لكنه ترقيمٌ مضطربٌ أشدّ الاضطراب بسبب الخطأ في ترتيب الأوراق وتجليدها. وعلى بعض أوراق هذه القطعة ختمان مختلفان لمتملِّك واحد هو محمد بن صادق الحسيني الطَّباطَبائي. وأرّخ أحد الختمين بجُمادى الأولى ١٣٨٧هـ، وهو ما يوافق ١٩٦٧م.

وهي نسخةٌ فريدة بخط النسخ، يبدو أنها كُتبت في القرن السادس أو السابع الهجريين / الثاني عشر أو الثالث عشر الميلاديين. وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ط)[2].

---

(١) نموذجٌ منها في ص (م٩٧)، ص (م٩٨).

(٢) نموذجٌ منها في ص(م٩٩)، ص(م١٠٠).

٤. قطعةٌ محفوظة في مكتبة جامعة لَيْدن في مملكة هولندا / المجموعة الشرقية برقم Or.766، تتألّف من ٢٢٩ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ١٣ سطراً، في كلّ سطرٍ ٩-١١ كلمة. وفيها صفحة عنوان، عليها «الجزء الثالث من رسايل أبي إسحق إبرهيم بن هِلّل بن إبرهيم بن زَهْرون الحرّاني الصّابي الكاتب. فيه ما كتبه في المعاتبات وما كتبه في الشفاعات وبعض ما نفذ إلى المتصرّفين والنواحي». كما أنّ لهذه القطعة خاتمة، كَتَب فيها ناسخُها الذي لم يصرّح باسمه ولا بتاريخ النَّسْخ: «تم الجزء الثالث بتوفيق الله وعونه. يتلوه في الرابع بقية ما نفذ إلى العمال والمتصرّفين والنواحي».

وعلى صفحة العنوان تملّكاتٌ، هذه نُصوصها:

أ. «الحمد لله في نوبة الفقر عمر شيخ .... الحسني القادري لطفا سنة».

ب. «الحمد لله ثم في نوبة الفقير إليه... عماد الدين الشافعي لطف به سنة ٩٤٩[١] آخر...».

ج. «مَنٌّ من الله تعالى على عبده الفقير إسمعيل الشهير بغدائي في صفر عام ١٠٠٩[٢]».

د. «ثم دخل في ملك العبد المحتاج إليه سبحانه وِيسي[٣] الراجي غفرانه حين كونه قاضياً بمدينة أُسكوب[٤] بالشراء الشرعي في سنة ١٠١٣[٥]».

---

(١) الموافقة لسنة ١٥٤٢م.

(٢) الموافقة لسنة ١٦٠٠م.

(٣) أُويس بن مُحمّد، المشهور باسم وِيسي أفندي (٩٦٨-١٠٣٧هـ/ ١٥٦١-١٦٢٨م) وهو شخصية مهمة في التاريخ الثقافي التركي، فهو شاعر وكاتب وجَمّاع لنوادر الكتب، درس في المدارس العثمانية، وولي القضاء في بعض البلدان. انظر: مقدمة إبراهيم شبوح لكتاب العبر لابن خلدون، ج١، ص٣٦.

(٤) هي مدينة سكوبية عاصمة جمهورية مقدونيا الآن، وكانت من مدن الدولة العثمانية. عنها، انظر: موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ص٦٧.

(٥) الموافقة لسنة ١٦٠٤م.

هـ مع وجود ملاحظة لعلّها بخط عمر القادري سابق الذكر ونصّها: «أظن أنه بخطّ العلّامة الأتْقاني[١] صاحب غاية البيان في شرح الهداية[٢]».

وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ل)[٣].

٥. قطعةٌ محفوظة في مكتبة فيض الله (إسطنبول) برقم ١٦٠٣، تتألّف من ٢٧٣ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ٢٥ سطراً، في كلّ سطرٍ ٥-٩ كلمات. وهي بعنوان (المختار من رَسائل الصابي). في صفحة العنوان منها: «رسايل الصّابي إنشاءه (كذا) الكاتب أبو إسحق إبراهام (كذا) بن هلال وهو من مهرة عصره في الإنشا وأعجوبة دهره في الإملا. وكتب الفقير السيد فيض الله المفتي في السلطنة العلية العثمانية عفي عنه». وهي بدون مقدّمة. وفي نهايتها: «تم المختار من رسايل أبي إسحق والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين». وفي بدايتها ونهايتها ختم المفتي الذي يوقف فيه هذا الكتاب، ونصه: «وقف شيخ الإسلام فيض الله أفندي غفر الله له ولوالديه بشرط أن لا يخرج من المدرسة التي أنشأها بالقسطنطينية سنة ١١١٢». وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ف)[٤].

٦. قطعةٌ محفوظة في مكتبة راغب باشا (إسطنبول) برقم ١٥٠٥، تتألّف من ١٧٧ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ٢٧ سطراً، في كلّ سطرٍ ٧-١٠ كلمات. وهي بدون

---

(١) قوام الدين لطف الله أمير كاتب ابن أمير عمر ابن أمير غازي الأتْقاني (أتْقان إحدى قصبات فاراب) الفارابي العميدي الفقيه الحنفي. تفقّه ببغداد، وعمل بدمشق، ثم استقر بمصر، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م. ترجم له الصفدي في أعيان العصر، ج١، ص٦٢٢، وحفظ سيرته الذاتية التي كتبها هو نفسه. وانظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص١٠١.

(٢) غاية البيان ونادرة الأقران في شرح كتاب (الهداية في شرح البداية) لأبي الحسن برهان الدين علي بن أبي بكر الفَرْغاني المرغيناني (ت٥٩٣هـ/ ١١٩٦م).

(٣) نموذجٌ منها في ص (م١٠١)، ص (م١٠٢).

(٤) نموذجٌ منها في ص (م١٠٣)، ص (م١٠٤).

صفحة عنوان، كُتبت سنة ١١٥٩هـ/ ١٧٦٤م. جاء في نهايتها: «تم المختار من رسايل أبي إسحق بن إبراهيم (كذا) بن هِلِّيل بن إبراهيم بن زَهرون الصّابي الكاتب، ولله الحمد وجزيل المنة على نعمه وآلائه ومنعه وعطائه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبته وعترته الأخيار الطيبين الطاهرين ورحم الله عُبَيْده الكاتب الشريف الحسيني المقرىء عبد الله ابن الحاج مسعود المغربي وكتبه مع الفائزين ولطف الله بشيخه وأستاذه الحسن بن الحسن الضيائي المصري عمدة كتبة مصر بيقين، وغفر الله له ولوالديه ولمشايخه في العلم الخطّي وفي علم الدين، وحفظ الله تعالى مستكتبه حضرة وزير مصر الآن وعزيزها الراغب محمد باشا رئيس كتاب العصر أجمعين، اللّهم كن له حيث يكون ودبّره في كل حركةٍ وسكون، واجمع له ولمن أحبه بين خيري الدنيا والآخرة يا حافظ يا أمين. آمين، ووافق الفراغ من كتابته يوم الأربعاء المبارك الثالث والعشرون من ذي القعدة الحرام عام ألف وماية وتسع وخمسين، والحمد لله رب العالمين. وكانت مقابلته من أوله إلى آخره على يد كاتبه ثم على يد شيخه وأستاذه العارف بالله تعالى أبي المعارف الشيخ محمد السُّلطاني الشافعي غفر الله له يوم الأحد الأخير من ذي القعدة وتمت في يوم الإثنين العشرين من ذي الحجة الحرام ختام عام تسعة وخمسين ومائة وألف من هجرة من له العز والشرف، والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين تم تم تم».

وعلى هذه القطعة ختم مالكها راغب باشا، وفيه: «حسبي الله وحده، من الكتب التي وقفها الفقير إلى آلاء ربه ذي المواهب محمد المدعو بين الصدور بالراغب، وكفى عبده». وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ر)[1].

٧. قطعةٌ من كتب رئيس الكُتّاب، محفوظةٌ في مكتبة عاشر أفندي (إسطنبول) برقم ٩٠١، تتألّف من ١٦٧ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ٢٥ سطراً، في كلِّ سطرٍ ١٢-

---

(١) نموذجٌ منها في ص (م١٠٥)، ص (م١٠٦).

١٥ كلمة. وهي نسخةٌ من (المختار من رَسائل الصابي)، مكتملة البداية والنهاية، مكتوبة بخط نسخ جيد. كتبها ناسخٌ يُدعى عبد الغني بن صلاح الدين سنة ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٣م. في صفحة العنوان: «كتاب مختار رسايل أبي إسحاق الصابي». وفي الورقة الأخيرة: «تم المختار من رسايل أبي إسحق إبراهيم بن إبراهيم بن هلّيل بن إبراهيم الكاتب ولله الحمد وجزيل المنة على نعمه وآلائه ومنحه وعطائه وصلى الله علي سيد الأمّة مُحمّد النبي وآله وعترته الأطهار الطاهرين أجمعين.

وقد تم مقابلة (كذا) بحول من له الحول وبيده التفضل والطول على يد مالكه ومستكتبه أحوج الورى إلى عفو ربه المعين عبد الغني بن صلاح الدين في يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي القعدة سنة ١٠٨٣ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

وعلى صفحة العنوان ثلاثةُ تملّكاتٍ غير مؤرّخة، هي على التوالي:

أ. «الله حسبي، من كتب أبي بكر بن رستم بن أحمد الشرواني».

ب. «هو الله المالك الأحمد عند عبده مصطفى بن محمد».

ج. «بالله ثقة عبده أحمد بن محمد بن مصلح الدين الإستنبولي».

وبعد ذلك ختم مصطفى رئيس الكتّاب بوَقْف الكتاب، مؤرّخ بسنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م.

وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ك)[1].

٨. قطعةٌ محفوظة في مكتبة عاشر أفندي (إسطنبول) برقم ٣١٧، تتألّف من ١١٥ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ١٨ سطراً، في كلّ سطرٍ ١١-١٥ كلمة. مبتورة الأول، لكنّ خاتمتها محفوظة. أوّلها: «نفسي وبذلي دونهما مالي». وهذا قسمٌ من رسالته إلى الصّاحب بن عَبّاد المنشورة هنا في هذا الكتاب[2]. وآخرها: «تم المختار من رسايل أبي إسحق

---

(١) نموذجٌ منها في ص (م١٠٧)، ص (م١٠٨)، ص(م١٠٩).

(٢) ج٢، ص٥٢٣.

إبراهيم بن هِلِّيل بن إبراهيم بن زَهرون الصّابي الكاتب ولله الحمد وجزيل المنة على نعمه وآلائه ومنعه وعطائه وصلى الله على سيد الأمة محمد النبي وآله وعترته الأخيار الطاهرين».

وهذه الخاتمة، إضافة إلى خبر عن الصّابي ملحق في آخر القطعة، تؤكد أنها وقطعة راغب باشا من أصلٍ واحد. وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ع)[1].

٩. قطعةٌ من مجموعة مِنْجانا الخاصة[2]، المحفوظة في المكتبة التابعة لكليّات سيلي أوك Selly Oak، المضمومة إلى جامعة بَرْمِنْجهام بشمال المملكة المتحدة. وهي قطعةٌ مبتورة الأول والآخر، تحمل رقم ١٠٨٣ وتتألّف من ١٤٦ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ١٩ سطراً، في كلّ سطرٍ ٨-١١ كلمة تقريباً. تبدأ بـ «ومن كلّ شيء... البيت الذي أحق به»، وتنتهي بـ «الأمير عِزّ الدَّوْلة ومولانا أيده الله تاليه ومن نصب نفسه مع جلالة مركزه ونبل مقره». في أعلى الصفحة الأولى منها كتب أحدُهم: «من رَسائل ابن العميد». وهو وَهْمٌ منه. وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (س)[3].

١٠. قطعةٌ محفوظة في دار الكتب القومية في القاهرة برقم (١٥٢٧ أدب)، تتألّف من ٢٠٤ ورقة، في كلٍّ من صَفْحَيْها ١٧ سطراً، في كلّ سطرٍ ٧ كلمات. وهذه النسخة القاهرية ذات بَسْملةٍ وخاتمة، آخرها: «وقد تم نسخ كتاب رَسائل أبي إسحاق الصابي والحمد لله على كل حال، على يد الفقير الحقير إلى ربه القدير مصطفى بن محمد الشلشلموني، خادم مسجد سيدنا ومولانا الإمام الحسين رضي الله عنه ونفعنا

---

(١) نموذجٌ منها في ص (م١١٠)، ص (م١١١).

(٢) هي مجموعةٌ نادرة من المخطوطات الإسلامية أخذها إلى بريطانيا في عشرينيات القرن العشرين قسٌّ كلداني عراقي يُدعى هُرْمِز مِنْجانا، وُلد سنة ١٨٧٨م في إحدى قرى زاخو بشمال العراق، وهاجر إلى بريطانيا سنة ١٩١٣م، وتسمّى ألفونس مِنْجانا. توفي ببرمنجهام سنة ١٩٣٧م.

(٣) نموذجٌ منها في ص (م١١٢).

به، آمين يا رب العالمين». وفي هامشها: «بلغ مقابلته على أصله المنقول منه». وهي دون تاريخ. وقد رمزتُ لهذه القطعة بالحرف (ق)[1].

ولم أكتفِ بذلك، فبالإضافة إلى هذه القطع العشر، والَيْتُ تتبُّعَ رَسائل أبي إسحاق الصّابي في المصادر المخطوطة والمطبوعة أفتّش فيها، إلى أنْ ظفرتُ بعددٍ من رَسائله، منها ما جاء في مُراسلاته مع الفَيْلسوف الرّياضي والمهندس أبي سَهْل ويجن بن رستم الكُوهي (ت٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م)[2]، ومنها ما جاء في (ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب) للمَواعيني الإشبيلي (ت٥٦٤هـ/ ١١٦٩م)[3]، ومنها ما جاء في (العَطاء الجزيل في كشف غطاء التَّرسيل) للبَلَوي (ت ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م)[4]، وهي مَظانّ مخطوطة. ومنها ما جاء في مصادر مطبوعة أهمها: مُراسلاته مع الشريف الرضيّ، و(يتيمة الدهر) للثعالبي (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م)، و(زهر الآداب وثمر الألباب) للحصْري القَيْرواني (ت٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)، و(إحكام صنعة الكلام) للكَلاعي (القرن الخامس - السادس للهجرة / الحادي عشر - الثاني عشر للميلاد)، و(التذكرة الحمْدونية) لابن حمْدون (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)، و(جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام) للشَّيْزَري (ت بعد ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، و(المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لابن الأثير (ت٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م)، و(مَباهج الفِكَر ومناهج العِبَر) للوطواط (ت ٧١٨ هـ/ ١٣١٨م)، وكتابا: (صبح الأعشى في صناعة الإنشا)، و(مآثر الإنافة في معالم الخلافة) للقَلْقَشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

* * *

(١) نموذجٌ منها في ص (م١١٣).

(٢) نموذجٌ منها في ص (م١١٤).

(٣) نموذجٌ منها في ص (م١١٥).

(٤) نموذجٌ منها في ص (م١١٦).

وبعد الجمع والفحص والنظر، تحصّل لديّ ٤١٩ رسالة، يُمكن تمييزها وفق محاور رئيسة أربعة :

١. ما صَدَر عن الخلفاء العبّاسيين.
٢. ما صَدَر عن الأمراء البُوَيْهيين.
٣. ما صَدَر عن الوزراء وبعض رجال الإدارة.
٤. ما صَدَر عنه نفسه.

وهي - جميعها - في المحورَيْن المعروفَيْن للرَّسائل: الرَّسْمي والشخصي أو ما يُعرف بالدّيواني والإخواني.

وغنيّ عن القول إن لكلّ رسالةٍ من هذه الرَّسائل - رَسْميّة كانت أم شخصية - أهميةً خاصّة من حيث الحدَث والحيثية والموقف؛ فارتأيتُ أنْ أعيدَ نَسَقها وتَصْنيفها وفق نظامٍ جديد، وتَبْويبها أبواباً خاصّة بكلّ غرضٍ من الأغراض التي طَرَقها الصّابي، في مقدّمتها الرَّسائل الدِّيوانية (وتُسمّى أيضاً السُّلْطانية) الصّادرة عن ديوان الخلافة، ثمّ الإدارة البُوَيْهية :

١. رَسائل سياسية ١٢٢ رسالة.
٢. رَسائل إدارية ١٢٥ رسالة.
٣. رَسائل في الشفاعات ٣٠ رسالة.
٤. رَسائل في التهاني ٢٤ رسالة.
٥. رَسائل في التعازي ٥٠ رسالة.
٦. رَسائل شخصية ٥٥ رسالة.
٧. رَسائل متفرقة ١٣ رسالة.

وأسْميتُ هذا المجموع من الرَّسائل :

(ديوان رَسائل الصّابي)

على ما ذكره ابن حمدون[1].

وربطتُ هذه الرَّسائل بأحداث التاريخ، مُحيلاً إلى المصادر التاريخية الأولية. ثم خدمتُ هذا النصّ المهمّ والكبير بما يسهّل الإفادة منه للباحثين والمؤرّخين والمهتمّين، وذلك بضَبْط النصّ والتحقّق منه، والتعليق عليه، والتعريف بما يحتاج منه للإيضاح والتّعليق من مُصطلحاتٍ وألفاظٍ وأعلام، ثمّ وَضْع الكشّافات الفنيّة المتمّمة لكلّ عملٍ تُراثي.

وإتماماً للفائدة ألحقتُ الكتاب بثلاثة ملاحق، وضعتُ في أولها نصوصاً نثرية لأبي إسحاق تفيد في دراسة أسلوبه وفكره. وفي الثاني أسماء وزراء البُوَيْهيين المذكورين في الكتاب وكُتّابهم ممن يجرون مجرى الوزراء، وأمام كلّ واحدٍ منهم تاريخ وفاته، ليرجع إليه القارىء حين الحاجة. أما الثالث فوضعتُ فيه نصوصاً تاريخية من المصادر الأولى عن مُعتقدات الصّابئة وعباداتهم وطُقوسهم وهياكلهم وأعيادهم تكمل معرفة القارىء عن هذه الطّائفة التي عرّفتُ بها في هذه المقدمة.

وقسمتُ الكتاب إلى جزئين، جعلتُ في الأول منهما: الرَّسائل السياسية، ورَسائل التهاني، ورَسائل التعازي. وبدأتُ الثاني بالرَّسائل الإدارية، ثم وضعتُ رَسائل الشفاعات والرَّسائل الشخصية والرَّسائل المتفرقة.

وإني إذ أنشرُ هذه الرَّسائل اليوم لَأقدّمها للمؤرّخين والباحثين وطَلَبة العلم والمهتمّين، لينهلوا منها مادّةً أوليّة غنيّة، تَرْفد البَحْث التّاريخي، وتوطّد بعض أرْكانه، وأرجو أنْ يجدوا فيها ما يُفيدهم.

وأنوّه إلى أنّ هذه الرَّسائل هي إحدى المجموعات من الرَّسائل التي أُقدّمها

(١) التذكرة الحمدونية، ج٣، ص٣٥٣.

للمكتبة العربية في إطار المشروع الذي أضطلعُ به، وهو نَشْرُ رَسائل كُتّاب القرون الأولى[1].

إنّ الكلمات تتسابق لتعبّر عن شكرٍ لا حدود له، وامتنانٍ لا مثيل له لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لما قدّمته وتقدّمه من رعايةٍ واهتمامٍ بحفظ التراث العربي والإسلامي، ودعمها السّخي للباحثين والمحقّقين، طيلة سنوات عملها الدؤوب. والحقّ أنّ لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي فضلاً على كلّ مَن يعمل في مجال الثقافة العربية والإسلامية، بما أخرجته من نصوصٍ مهمّة أغنت الحركة الثقافية، ويحقّ لنا جميعاً أنْ نفخر بنجاحاتها ال باهرة، وإنجازاتها الكبيرة.

أخيراً، الأملُ القبولُ والرّضا إنْ وُجد الصَّواب، والصَّفْحُ والتّجاوُز إنْ وُجد الزَّلَل، والحمدُ لله واهبِ العقل، العالمِ بمَصادر الأمور وسَرائر الصّدور.

إحسان ذنون عبد اللطيف الثامري

---

(١) كنت قد نشرتُ سابقاً في إطار هذا المشروع:

* **الدرر والغرر**، وهي رسائل أبي الحسين الأهوازي (توفي بعد ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، دار ابن حزم، بيروت / دار الرازي، عمان، ٢٠٠٦.

* **منية الراضي برسائل القاضي**، وهي رسائل منصور بن محمد الأزدي الهروي (ت٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٩.

* **رسائل الشيرازي**، وهي رسائل عبد العزيز بن يوسف (ت٣٨٨هـ/ ٩٩٨م)، دار صادر، بيروت، ٢٠١٠.

* **رسائل العَميدي** (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م)، منشورات كُرسيّ الدكتور عبد العزيز المانع بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية ٢٠١٣.

* **المختار من رسائل الصاحب ابن عباد** (ت٣٨٥هـ/ ٩٩٥)، منشورات جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان، ٢٠١٤.



نماذج من الأصول الخطيّة





شعار الصّابئة المِنْدائيين

(شَبيه بصليب النَّصارى)

مأخوذ من كتاب كِنْزارَبّا



خط أبي إسحاق الصّابي في نهاية الرسالة الثالثة من المصنّف الذي وضعه بعنوان

(مجموع نفيس في علم النجوم)

وتتضح فيه كلمة (هِلِّل)



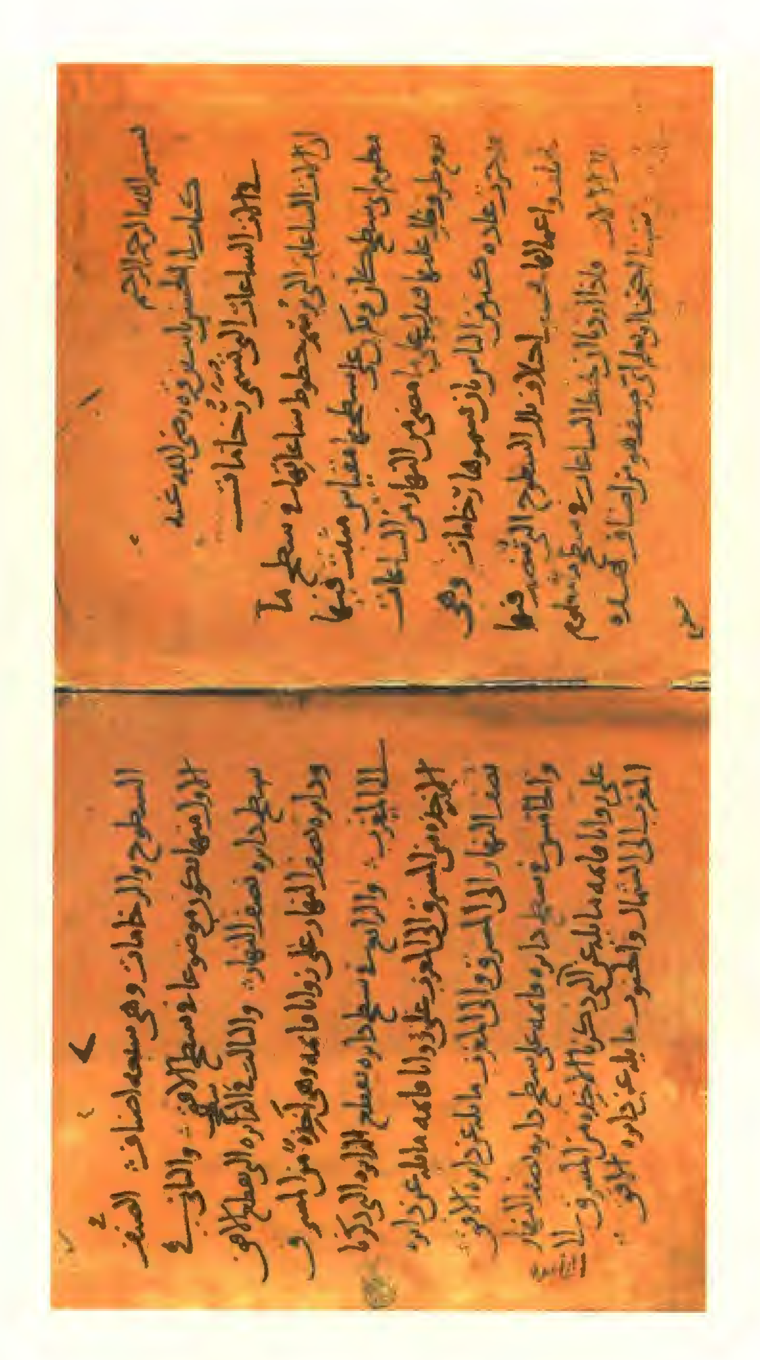
هذا المجموع نفيس في علم النجوم
بخط ابي اسحق الصابي

في آلات الساعات التي تسمى رخامات

٩٤٨

خط أبي إسحاق الصّابي على الورقة الأولى من

(مجموع نفيس في علم النجوم)



نموذج من خط أبي إسحاق الصّابي

افتتاحية (مجموع نفيس في علم النجوم)

خطّ أبي إسحاق الصّابي في نهاية الرسالة الأولى من المصنَّف الذي وضعه بعنوان

(مجموع نفيس في علم النجوم)

وتتضح فيه كلمة (هِلِّل) في السطر ما قبل الأخير



صفحة العنوان من كتاب (غرر البلاغة) لأبي الحسين هِلَّيل بن المحسِّن الصابي، الجزء الثاني، ويتّضح اسم (هِلَّيل) في السطر الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم وبه توفيقي

اخبرنا ابو القاسم عبد الله بن الحسين بن عبد الله وعتيق بن عبد العزيز
الاندلسي قراءة على الاول وكتابة من الثاني قالا اخبرنا الحافظ ابو
طاهر احمد بن محمد الاصبهاني قال عبد الله اجازة ان لم يكن سماعا قال
سمعت محمد بن حمزة بن احمد التنوخي يقول سمعت عبد الباقي بن علي المعري
يقول كان ابو نصر المنازي احد وزراء نصر الدولة بن مروان بديار بكر
فارسله الى مصر رسولا فوصل الى المعرة ودخل الى ابي العلا
مسلما فتناشدوا وانبسط احدهما الى الاخر وذكر ابو العلا ما يقاسي
من الناس وكلامهم فيه فقال له ابو نصر ماذا يريدون منك
وقد تركت لهم الدنيا والاخرة فقال والاخرة ايضا والاخرة ايضا
واطرق ولم يكلمه الى ان قام ٥ وهذا عبد الباقي هو ابو المناقب
عبد الباقي بن علي من اهل معرة النعمان وكان من امام بمصر ويلقب جريطة
النابات وشعره شعر بارد مستهلهل النسج والذي ذكره عن المنازي
وجدته في تاريخ غرس النعمة ابي الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن ابرهيم
بن هلال الصابي وقراته فيه قال وحدثني الوزير فخر الدولة ابو نصر
بن جهير قال حدثني المنازي الشاعر قال اجتمعت بابي العلا المعري
معرة النعمان فقلت له ما هذا الذي يروى عنك ويحكى فقال

٣٩٦

نموذج من الصورة الخطية لكتاب (بغية الطلب في تاريخ حلب) لابن العديم

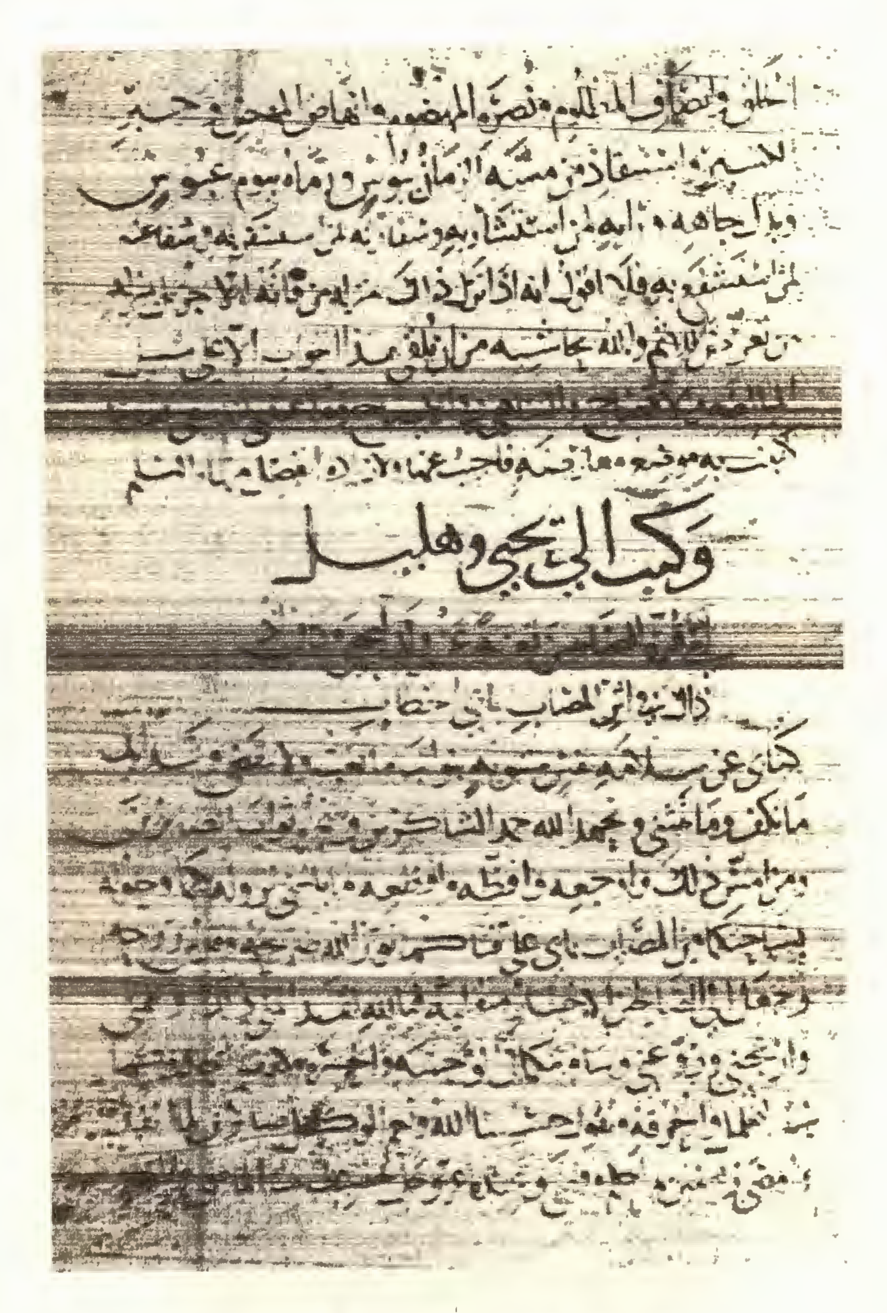
(انظر السطر رقم ١٤)

رسالة من أبي إسحاق إلى يحيى وهِلِّيل ابني قُرّة

(من قطعة فيض الله)

رسالة من أبي إسحاق إلى يحيى وهِلِّيل ابني قُرّة

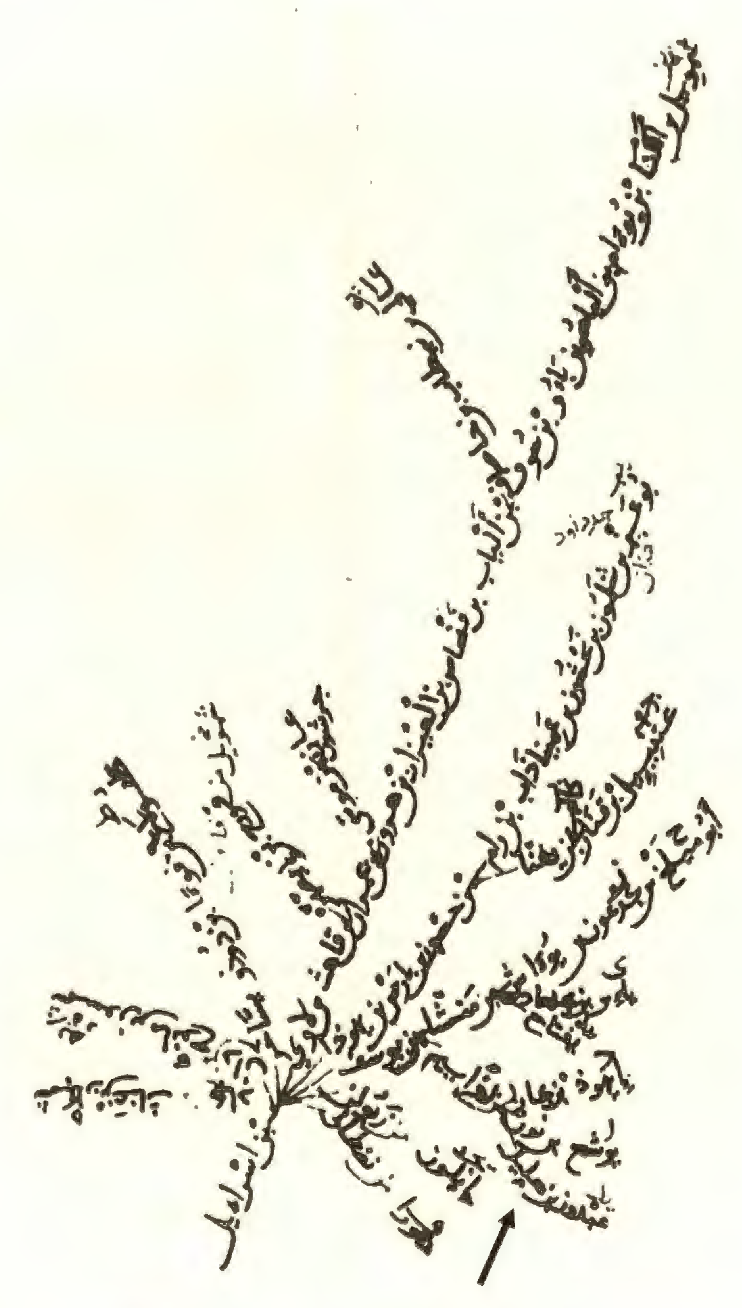
(من قطعة راغب باشا)



وكتب الى يحيى وهليل

رسالة من أبي إسحاق إلى يحيى وهِلّيل ابني قرّة

(من قطعة عاشر أفندي)



مشجّر نسب حكام بني إسرائيل إلى شمويل بن الكنا بن يوءام

كتاب العبر لابن خلدون، ج٣، ص٢٢٢

نموذج من قطعة باريس

الثاني من انشا ترسل الثعالبي

[illegible]

كتاب احمد الطيب [illegible] السياسة [illegible] الا ربع الوزراء واصلح

احمد الموافق للكتاب بحظه واقول مع ذلك

لن تدوموا كالجديدا فاستقبل طالع السعدا

وساير الدهر في عنان ركضا ومن عيشك الرغيدا

وكن على الاليا غيثا وللاعادي ردى مبيدا

وكلما المنبر علا احدا اقل بعده جدودا

وابط في العذر عن اهدى سلك اتاه الوهيدا

واجبر بودي لذا امصادي منجا عندك الودودا

من تماسات الموالي في زمن المجد له العبيدا

وكن ضمينا الآن ثم اني اهدي لك الوار العندا

واقم فاني اردت معنى لا يعجز السيد الشديدا

وكتب

حظ سيدي اطال الله بقاه من الحال التي حمدها الله لسيدنا

الوزير الناصح اطال الله بقاه وان كانت كالظل الممدود

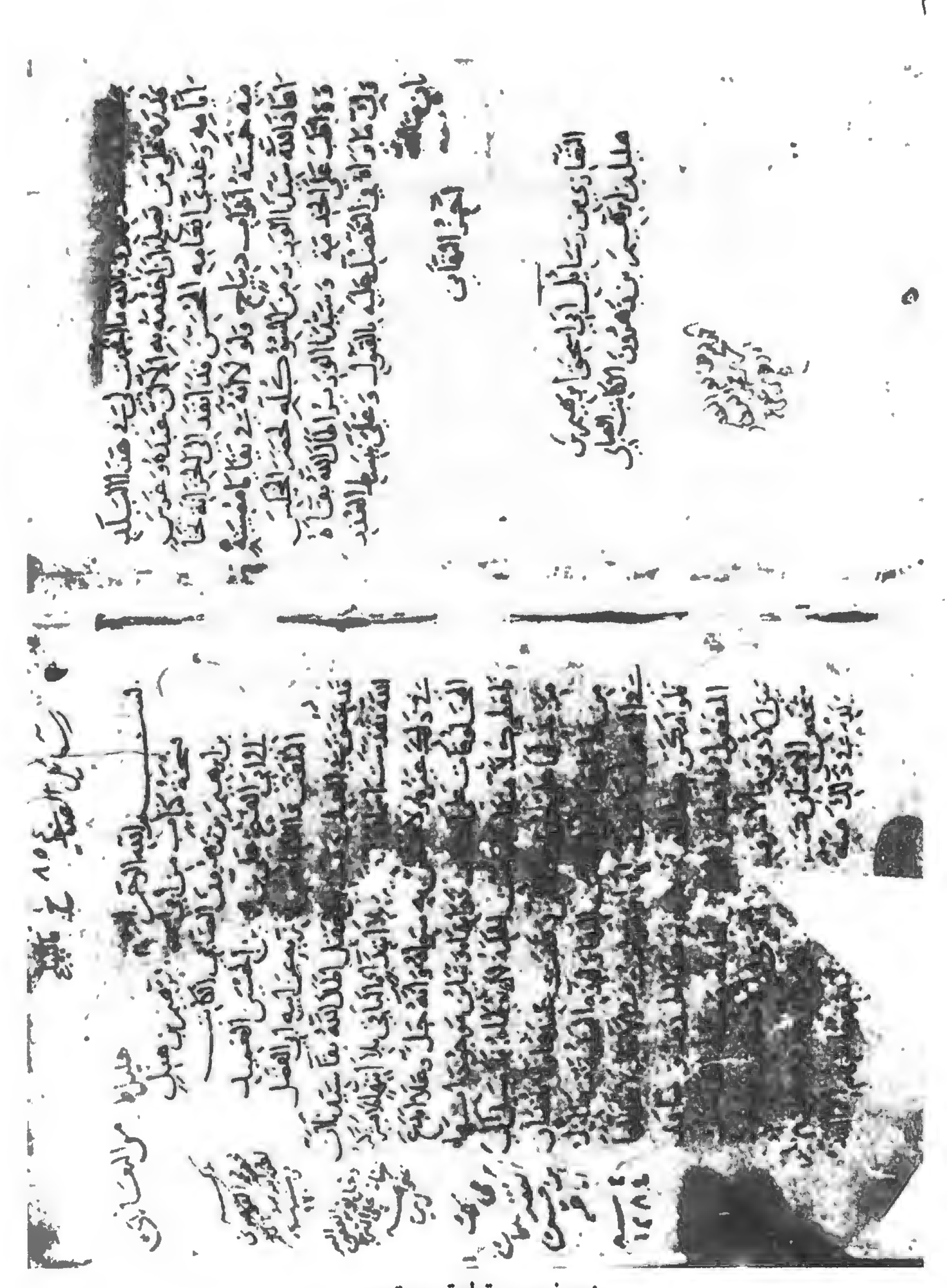
علينا والشيء العام لنا ان يحسب وفور قدره وعلو

خطره وانحطاط النائل عن منزلته وكذلك وجب

ان تكون التهنية له والقول القاصر حقه لاجتهاد

نموذج من قطعة جستربتي

(مع ملاحظة وجود عبارة في أعلى الصفحة «الثاني من إنشاء ترسّل الثعالبي» وهي خاطئة)



نموذج من قطعة جستربتي

تتّضح في نهاية الصفحة اليمنى وبداية الصفحة اليسرى منها كلمة (هِلّيل)

الصفحة الأولى من قطعة طهران

نموذج من قطعة طهران

م١٠١

الجزء الثالث

من رسايل ابى اسحق ابرهيم

بن هلال بن ابرهيم بن زهرون

الحراني الصابي الكاتب

فيه ما كتبه في المعاتبات وما كتبه في

الشفاعات وبعض ما نفذ الى المتصرفين في النواحي

نموذج من قطعة ليدن

(صفحة العنوان)

بلحقك استزادتك اظننت أن قلبك عمّره الله بسترتك لا يبرأ
من تلك الفضايل مشوبة منتقصة وتلك النعمة مشوبة منتقصة
فان رايت يا سيدي أن تكمل فضايلك ببري وتصلني ولا تقطعني
ولا تكدر صفو ما بينك وبيني وترد رقعتي هذه اليّ فاني ارفع
ما مكّنه الله من الحال ومهده من الافضال عن أن يظهر
لخاص او عام الى ان يجمعنا عن اغراض او استصلحتك عن فساد وعلت
ان سا الله   فاجابه ابو اسحق وقد كان قلبه
طاب من سؤ مودته وقلة انصافه
وصلت رقعتك اطال الله بقاك وفهمتها ووجدتها مفتتحة
من تفضلك بما يوجب الشكر ويستعبد الحر ويشاكل قديم
الاحوال التي تشهد جميعا بتأكدها وتمكن اسبابها وارغب خاصة
الى الله في اعاذتها مما يشوبها وصيانتها عما يقدح فيها
فوطنت نفسي على أن أسلّم لك يا مولاي في جوابها اكثر من

نموذج من قطعة لَيْدن



نسخة كتاب انشأه ابو اسحق ابراهيم بن هلال
الصابي عند فتح بغداد وانهزام الاتراك عنها في جمادى
الاولى سنة اربع وستين وثلثمئة بشرح الحال
ووصف [illegible] الى الامير ركن الدولة [illegible]
فان لله قضايا نافذة وأقدارًا ماضية فيهن النعم
السوابغ والنقم الدوامغ فاما النعم فيوتيها عباده
اجمعين بادية ثم يحبو بها الشاكرين منهم عائدة فاما
النقم فلا تقع سلفا وابتداء لكن قصاصا وجزاء
بعد امهال وانظار وتحذير وانذار فاذا حلت بالقوم
الظالمين فقد [illegible] ما صنع لآخرين معتبر
فلا يخلو اهل الطاعة من الثبات والاستبصار
واهل العصبية من الارتداع والازدجار ومن هناك
شهدت العقول الراجحة وشهدت المناهج الواضحة
على ان اولى ما ضرب الناطق فمه وافتتح به كلمه
حمد الله اذ هو الجالب لرحمته ورضاه والذائد
لسخطه وسطاه والذريعة الموصلة الى الجنة
والذخيرة النافعة في [illegible] والموئل المانع من [illegible]
اليه والمعقل [illegible] لمن توكل عليه والحمد لله رب العالمين

نموذج من قطعة فيض الله

(المستهل)

نموذج من قطعة فيض الله

(الخاتمة)

بسم الله الرحمن الرحيم
نسخة كتاب انشاء ابو اسحق ابراهيم بن هلال الصابى
عند فتح بغداد وانهزام الاتراك منها فى جمادى الاولى
سنة اربع وستين وثلثمائة يشرح الحال ووصف الخلاف
الى الامير ركن الدولة اما بعد فان لله قضايا نافذة
واقدارا ماضية فيهن النعم السوابغ والنقم الدوامغ فاما
النعم فيوتيها عباده اجمعين بادئا ثم يخص بها الشاكرين منهم
عائدا واما النقم فلا تقع سلفا وابتداء لكن قصاصا وجزاء
بعد امهال وانظار وتحذير وانذار فاذا حاقت بالقوم الظالمين
فقد طوى فى اثنائها صنع لاخرين معتبرين فلا يخلو اهل
الطاعة من الثبات والاستبصار واهل المعصية من الارتداع
والازدجار ومن هناك شهدت العقول الراجحة ودلت
المناهج الواضحة على ان اولى ما فغر به الناطق فمه وافتتح
كلمه حمد الله الذى هو الجالب لرحمته ورضاه والدافع
لسخطه وسطاه والذريعة الموصلة الى الخيرات والذخائر
النافعة فى الملمات والمويل الناجع من نجا اليه والمعقل العاصم
من عول عليه والحمد لله رب العالمين الملك الحق المبين الواحد
الفريد العلى المجيد الذى لا يوصف الا بسلب الصفات
ولا ينعت الا برفع النعوت الازلى بلا ابتداء الابدى بلا

نموذج من قطعة راغب باشا

(المستهل)

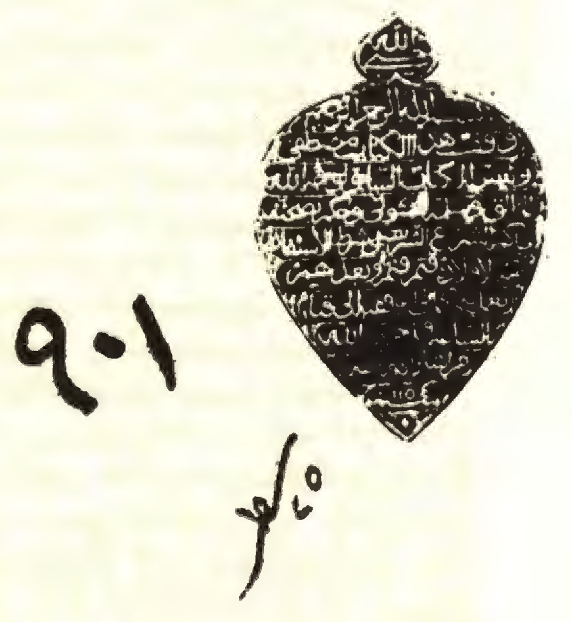
نموذج من قطعة راغب باشا

(الخاتمة)

كتاب مختار

رسائل أبي إسحاق

الصابي



نموذج من قطعة رئيس الكتّاب

(صفحة العنوان)

نموذج من قطعة رئيس الكتّاب

والمدح والهجا فليس يجرون مع اوليك في مضمار ولا يتقاربونهم في
الاقدار وهذا قول كافٍ فيما اردناه ان شا الله

الصابي

تم المختار من رسايل ابي اسحق ابرهيم بن هلال
بن ابرهيم الكاتب ولله الحمد وجزيل المنة على نعم
والآيه ونعميه وعطايه وصلى الله على سيد الامة محمد
النبي واله وعترته الاخيار الطاهرين اجمعين

وقد تم مقابلة بحول من له الحول وبمنة الفضل والطول على يد
مالكه وكاتبه احوج الورى الى عفو ربه المعيد عبد الغني بن صالح [illegible]
في يوم الاربعا اربعة بقين من ذي القعدة [illegible] وصلى الله على
سيدنا محمد [illegible] وسلم

نموذج من قطعة رئيس الكتّاب

(الخاتمة)

نموذج من قطعة عاشر أفندي

(المستهل)

الا انه يفضي بان يصدر مثلها عن السلطان والبعد والتصرف فيها على ضرب
ما تصرف عليه احوال الزمان وعوارض الحدثان فلذلك صار وجود
المضطلعين بجودة الشعر اعز وعددهم اقل فاما ارتفاع طبقتهم على تلك
الطبقة فان المترسلين انما يترسلون في جباية خراج او سد ثغر
او عمارة بلاد او اصلاح فساد او تحريض على جهاد او احتجاج على
فئة او مجادلة لملة او دعاء الى الفة او نهي عن فرقة او تهنئة بعطية
او تعزية عن رزية او ما شاكل ذلك من جلائل الخطوب ومعاظم
الشؤون التي يحتاجون فيها الى ان يكونوا ذوي اداب غزيرة ومعرفة
مفتنة وقد يتمم لهم الكتابة بشرفها ويبوئهم منزلة رياستها
واخطارهم عالية بحسب ما يفيضون فيه ويذهبون اليه والشعراء
انما اغراضهم التي يرمون نحوها وغاياتهم التي يجرون اليها وصف الديار
والاثار والحنين الى الاهواء والاوطار والتشبيب بالنساء والطلب
والاجتداء والمدح والهجاء فليس يجرون مع اولئك في مضمار ولا يقاربونهم
في الاقدار وهذا قول كاف بما اردناه ان شاء الله

تم المختار من رسائل ابي اسحق ابرهيم بن هلال بن
ابرهيم بن زهرون الصابي الكاتب
ولله الحمد جزيل المنة على نعمه والائه ومننه
وعطاياه وصلى الله على سيد الامة محمد النبي
واله وعترته الاخيار الطاهرين

نموذج من قطعة عاشر أفندي

(الخاتمة)

من رسائل ابن العميد

ومن كل شي باشبه البيت الذي هو احق به ممن قبل فيه
ان عنت شديد الخوف واصطنعت تلك النهار ما لا تصنع
وارتك ذلك سعليه بشيت البريه ان يخطر قدمه ومطلت
عنها دينه وغسلت ادرانها طرازته واماطت ادناس
نزاهته وبقيت نفيت من مهجة بلا زناهن شغل ان يعود
رسالته وان يدوم حفظها ملكه والله يحرسه دانيا مقتربا
ونازحا مغتربا وحالا نائيا ومرتحلا ظاعنا وييسر له
الى مركز عزه ومقر ملكه الذي ينبغي ان يكون مقامه فيه
وان ثبات شعاعه الى اطراف منه بقدرته واما خضوع الخاضع
له ونزوعه عن الامر الذي اورده وما يبديه وبذله في اقتدار
حشاشته النفس وتمثيل الحال ما به فبالتذلل لمولانا يعز
العزيز وبالعز عليه يذل الذليل ولا مصحف منه البصيت
وخلعت التبري فتكسوه المرتجعة شعارا من
الطاعة بتلافاه من السقطة وينقذه من الورطة
ومولانا الملك السيد ادام الله دولته وبسط قدرته
اعلم بالمخايل واهدى الى الدخايل والبس بمدلول على قبول
الانابة من النادم المغرور ولا على ابانها من الداس المصرو له ايده
الله عادة جارية بالعفو عن الهفوة الاولى التي لم تسبقها قرينة
ولا تقدمتها نظيرة فان جعلها على سنته الماضية وبعد قدرته

نموذج من قطعة سيلي أوك

(مع ملاحظة وجود عنوان في أعلى الصفحة «من رَسائل ابن العميد» وهو خاطىء)

بسم الله الرحمن الرحيم

١٥٦

نسخة كتاب من ابي اسحاق ابرهيم بن هليل
بن ابرهيم بن هارون الصابي كاتب [illegible]
القسم علي بن محمد بن الحسن [illegible] الملقب ذ
الكفايتين يعزيه عن ابنه ابي الفضل
قد سبق في علم [illegible] في العقول [illegible]
سيدنا [illegible] تقدست اسماؤه انه القديم بلا
ابتداء الباقي بلا انتهاء لا يشركه في ذلك
غيره ولا يختص به سواه وانه جل وعلا بين مخلوقا
[illegible] خلاف ذلك [illegible] موجود [illegible]
[illegible] وجبت حكمة لا [illegible]
[illegible] حدوده [illegible] وقفت عنده ولا

نموذج من قطعة القاهرة

تتّضح في السطر الأول منها كلمة (هِلِّيل)

نموذج من مُراسلاته مع أبي سَهْل الكُوهي

نموذج من

(ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب) للمَواعيني



نموذج من

(العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل) للبَلَوي

المختار

من رسائل ابي اسحق ابرهيم بن هلال بن زهرون
الصابي

الجزء الاول

نقحه وعلّق حواشيه

جناب الامير شكيب ارسلان اللبناني
احد اعضاء الجمعية الاسيوية الفرنسوية

قال بعضهم

اصبحت مشتاقاً حليف صبابةٍ	برسائل الصابي ابى اسحاقِ
صوب البلاغة والحلاوة والحجى	ذوب البراعة سلوة العشاقِ
طوراً كما رقّ النسيم وتارةً	يحكى لنا الاطواق في الاعناقِ
لا يبلغ البلغاء شأو مبرّزٍ	كُتِبت بدائعهُ على الاحداقِ

طبع في المطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٨٩٨

صورة الغلاف من نشرة شكيب أرسلان





أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الكاتب

الجزء الأول



رسائل سياسية



كَتَب عن مُعِزّ الدَّوْلة أبي الحسين أحمد بن بُوَيْه عند ظَفَره برُوزبهان بن نداد خرّشيذ العاصي عليه بالأهْواز[١]

أما بعد، فإنّ أحقّ النِّعَم بأنْ يلقي ضيفُها العصا، وتستقرّ به النوى، ويستوطن عاكفاً، ويطمئنّ محالفاً : نعمةٌ قُرنت بالشكر، وجُنّبت الكفر، وتُلقّيت بالارتباط والاستدامة، وتُنُولت بالتأنيس والاستمالة، وصادفت كفؤاً مطيقاً لحملها، ووالياً حقيقاً

(١) فيض الله، راغب باشا. (ف: بازبهان بن وند خرشيذ، ر: وندا بدل ونداد) والتصحيح من: التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٧، ص٢٢٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢١٤. وأورد بعض أسطرها الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٩.

في سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م خرج رُوزبهان بن ونداد خرشيذ الدَّيْلَمي على مُعِزّ الدَّوْلة، وهو من كبار صَنائعه وقادته (الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص١١٧)، وعصى عليه. وخرج أخوه بلكا في شيراز، وأخوه أسفار في الأحواز (الأهواز). وكان رُوزبهان يقاتل عمران بن شاهين المتغلِّب على البطيحة والمتحصِّن فيها، فعاد إلى واسط، وسار إلى الأحواز، وبها الوزير الحسن بن مُحمّد المهلَّبي، فاستأمن رجالُه إلى رُوزبهان، ومال إليه الدَّيْلَم بأسرهم؛ واختل ميزان القوة على مُعز الدَّوْلة الذي تجهز لمحاربته، وسار عن بغداد، وخرج الخليفة المطيع لله منحدراً إلى مُعز الدَّوْلة؛ لأن ناصر الدَّوْلة الحمداني لما بلغه خروج الخليفة قصد بغداد للاستيلاء عليها، مما أوقع مُعز الدَّوْلة في موقف محرج للغاية، فقد وقع بين عدوين شرسين، فأعاد مُعز الدَّوْلة الحاجب سُبُكْتِكين فيمن يثق فيه من عسكره إلى بغداد، فشغب الدَّيْلَم الذين فيها، فوعدهم بالأرزاق، وسكنوا على مضض. ثم اشتعلت الحرب، وانتصر مُعز الدَّوْلة وأخذ رُوزبهان أسيراً، وسجنه ببغداد. ثم بلغه أن الدَّيْلَم عازمون على إخراجِهِ، فغرّقه. أما أخوه بلكا فأرسل له ابن العميد بجيشٍ كبير انتصر عليه. انظر تفصيلات أكثر عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص١٩٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢١٤ وما بعدها.

بمثلها، وناهضاً مستقلاً بأعبائها، وناشراً مُثنياً بآلائها؛ فثبَّت الله عنده أطنابها، ومكّن لديه أسبابها، وأضفى عليه مَلابسها، وساق إليه نَفائسها، وعقد له بها لواءَ الظَّفَر أين يمّم، ومدّ عليه رِواقَ النَّصْر حيث خيّم، والله سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[١]، وإنْ أخلقها بأنْ يأبى زَوْرها المقام، وينبو عن الدّوام، وينعب غُرابه بالزيال، وتُحْدَى رَكائبه بالانتقال، نعمةٌ وقعت عند مسيءٍ لجوارها، جاهلٍ بمقدارها، عَييٍّ بحراستها، مليٍّ بإضاعتها، فاتّخذها أكبر أعوانه على كيد مُوليها، وأحصن جُنّته على حَرْب مُسديها، غافلاً عن عادة الله الجارية بنَزْعها عمّن سَلَك موحش سَبيله، واتّبع مضلّ دليله، وتعويضه منها بشعار العار والشَّنار، وجِلْباب المذلّة والصَّغار؛ فلا يلبث أنْ يصبح متردّياً برداء بَغْيه، متقنّعاً قناع خِزْيه، مأخوذاً من مَأمنه وحِرْزه، مستنزلاً عن نَخْوته وعزّه، مائلاً عرشه بعد السُّموِّ، مخفوضاً عماده بعد العُلوّ، مهتوكاً حِجابُه وذراه، مستباحاً حريمُه وحماه، مستمرّاً ما كان استحلاه، مستوبئاً ما كان استمرأه، كابياً ليديه وفمه[٢]، مفضياً إلى عواقب حسرته وندمه، عاثراً لا يستقلّ، سقيماً لا يبلّ، كسيراً لا ينجبر، مضيماً لا ينتصر، قد حقّت عليه كلمة الله إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٣]، وإذ يقول عزّ وجلّ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٤]؛ فالحمدُ لله الذي نَصَب لنا مَعالم الهداية، وجنّبنا

---

(١) سورة الشورى، من الآية ٢٣.

(٢) تقول العرب إذا دعوا على الرَّجل: لليدين والفم، أي: على يديك وعلى فمك، للشماتة. ابن دريد، جمهرة اللغة، ج٣، ص١٣١٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٨٢.

(٤) سورة الكهف، من الآية ٤٩. وفي فيض الله: وربك لا يظلم أحدا.

مجاهل الغِواية، وجعلنا من العارفين بنِعَمه، الشّاكرين لمننه، المستحقّين لمزيده، المعضودين بتأييده، وعَصَمنا من مَراكب أهل البغي المذلّة لأقدامهم، الجالبة لحمامهم، المذلة لإبائهم، الصَّارعة لجنوبهم، الصّائرة بهم إلى العذاب الأليم، والحال الذميم، وسُكنى الجحيم، وشرب الحميم.

والحمدُ لله الذي أعلقنا من طاعة أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - بالعُروة الوثقى، والعِصْمة الكبرى، والسّبب المتين، والحبل الأمين، والكهف المنيع، والمحلّ الرفيع. وقرن مشايعتنا بمشايعته، ومُبايعتنا بمُبايعته، حتى صار وليُّنا وليَّه، وعدوُّنا عدوَّه، وحربُنا حربَه، وحزبُنا حزبَه، والقريبُ منا قريباً منه، والبعيدُ عنا بعيداً عنه؛ فما يلوذ بجانبنا لائذ، ولا يعوذ بعقوتنا عائذ، إلّا كانت عليه يدٌ من الله كانفةٌ واقية، وعينٌ كالئةٌ راعية، وكانت السَّلامة له مضمونة، والعاقبة عليه مأمونة، ولا ينجم بمنابذتنا ناجم، ولا يعزم على مباينتنا عازم، إلّا قطع الله دابرَه، وجبَّ غاربَه، وكوّر شمسَه، وأزهق نفسَه، وطمس نورَه، وأظلم دَيْجورَه. وكانت دعائمه مخفوضةً، ومَرائره منقوضةً، والهلكةُ عليه مكتوبةً، واللّعنةُ به معصوبةً، تَكْرِمة من الله بها علينا، وأحسن فيها إلينا، وحملنا أَوْق[1] شكرها، وطوّقنا طوق فخرها، وآثرنا بفضلها على كلّ حاسدٍ لَعين، وعدوٍّ مُبين.

وإنّ الله بحكمته الباهرة، وقوّته القاهرة، ومشيئته النّافذة، وعزيمته الماضية، خلق الخلائق من طينةٍ واحدةٍ ابتدعها، على صورٍ شتّى اخترعها، غير حاذٍ على مثال، ولا راجعٍ إلى استدلال، ولا محتاجٍ إلى معين، ولا معتضدٍ بقرين، ولا آخذٍ بتعريف معرِّف، ولا مؤتمٍّ بتوقيف موقِّف، واختصّ منها الإنسانَ بالعقل الذي هداه بعد الضلالة،

---

(١) الأَوْق: الثقل. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص١٢ (أوق).

وفقّهه بعد الجهالة، وأهّله به لحمل تكاليفه، والتصرّف مع تَصاريفه، والائتمار لأوامره، والازدجار لزَواجره، والاستحقاق لثوابه أو عقابه، ورحمته أو عذابه، وهو مطَّلعٌ من كُلِّ نَفْسٍ ذرأها، ونَسمةٍ برأها[١]، على طاعة مُطيعها، وإضاعة مُضيعها، ونُسْك ناسكها، وفَتْك فاتكها، غير ممتنعٍ مع علمه بخوائن العيون، وخفايا الصّدور، من إسداء النِّعْمة، إلى الشّاكر والكافر، وإقرارها عند البَرّ والفاجر، ابتداءً بالمِنّة، وإتماماً للموهبة، وإيجاباً للحجّة، وتأكيداً للتوثقة، وليجزي كلاًّ منهم عن بيّنةٍ بما كسب، وبصيرةٍ بها احتقبَ، وإذا فعل ذلك علّام الغيوب، ومستبطن القلوب الذي لا تحتجب عليه الضمائر، ولا تنطوي دونه السّرائر، فلا تَثريب علينا في إيداع الحسنة عند مَن نظنّ به شكرها، ونقدِّرُ فيه حفظها، وليس لنا ما لله من علم البواطن الدّفينة، والدّخائل الكمينة التي لم يُوازه في إدراكها مُوازٍ، ولم يُساوه في الإحاطة بها مساوٍ، فإنْ أصبنا بالصَّنيعة طريق المصنع، وأودعناها عند خير مستودع، فقد أصْمى سَهْمُنا، وأنجح سَعْينا، وصدقت مخيلتنا، وسلمت ذخيرتنا. وإنْ خاب حَدْسُنا، وكذَبنا حسُّنا، وأخطأتْ فِراستنا، وضلّت دلالتُنا، فالله يظفرنا بمن شذّ عنّا وبغى، ويمكّننا من ناصية مَن اعتدى وطغى، ويجعل كلمتنا عليه العليا، ويدنا فوقه الطّولى، ويعوّضنا من تقديرنا فيه المعكوس، وتأميلنا المنكوس، أنْ يحلَّ به نقمةً من نِقَمِه، وقارعةً من قَوارِعه، يضحى بها عبرةً لنظرائه، وعظةً لقُرنائه؛ فيُصلحهم الله لنا بفَساده، ويجمعهم بشتاته وانفراده، ويبصّرهم بعَماه، ويُنجيهم بردَاه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[٢].

وكان الغامطُ لإنعامنا، الجاحدُ لإحسانِنا، المتردّي من ذروة طاعتنا، الهاوي في هُوَّة

(١) ذرأ وبرأ: كلاهما بمعنى واحد. لسان العرب، ج١، ص٣١ (برأ)، ص٧٩(ذرأ).

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٨.

معصيتنا، الخالعُ رِبْقة ذمّتنا، النّازعُ جُنّة مشايعتنا، رُوزبهان بن ونداد خرّشيذ تصنّع عندنا في قديم أمره بالوَلاية، وتنفّق بالكفاية، وأظهر لنا غروراً من سَعْيه في الخدمة وكَدْحه، وسَراباً لامعاً من وفائه ونُصحه، وهو يدبّ الضَّرّاء[1]، ويسرّ حسواً في ارتغاء[2]، ويوكي[3] على الغش عِيابه، ويحنو على النكث ضُلوعه وحِجابه، ولا يبدي لنا بادية وفاق إلّا عن خافية نفاق، ولا يُطلع طالعة وِداد إلّا عن خبيئة عِناد، ولا يبرز في شيمةٍ من شيم التقرُّب منا والتوصّل إلى قلوبنا إلّا كانت غطاءً على حيلةٍ يعملها، أو غيلةٍ يرصد لها، وغشاءً على فرصةٍ ينتهزها، وغرةٍ يهتبلها، ونحن نحملُ أمرَه على ظاهره، ونظنُّ غائبه مثل حاضره، وباطنه مثل عالنه، بل كلّما زدناه إحساناً وامتناناً، زدنا إليه سُكوناً ورُكوناً، وكلّما ارتقينا به إلى منزلةٍ ورتبةٍ، ارتقينا فيه إلى مثلها من أنسةٍ وثقةٍ، حتى استبطنّا من الحضيض الأوْهد إلى السَّناء الأمْجد، وجذبنا بضَبْعه من المسقط المنحطّ إلى المرفع المشتطّ، وانتهينا في الإنافة بقدره، والإشادة بذكره، والتفخيم لأمره، والتقديم لقدمه، إلى الغاية التي لا تسمح بها نفسُ باذِل، ولا تسمو إليها همّةُ آمل.

فلمّا عزّ بعد الذلّة، وكَثُر بعد القلّة، وبَعُد صِيتُه بعد الخمول، وطلع سَعْدُه بعد الأفول، وجمَّت عنده الأموال، ووطئت عقبَه الرِّجال، وتضرَّمت بجَسده جوانحُ الأكفاء، وتقطّعت بمنافسته أنفاسُ النظراء، نَزَت به بطْنهُ، وأدركته شقوتُه، ونزغ له شيطانُه، وامتدّت في الغَيّ أشطانهُ؛ فنصب أشراكه وحَبائله، وأعمل مكايده ومخاتله،

---

(١) يقال للرجل إذا ختل صاحبَه: يدبّ له الضَّرّاء، ويمشي الخمر، ويسر حسواً في ارتغاء. الجوهري، الصحاح، ج٢، ص٦٥٠، ج٦، ص٢٤٠٩؛ الثعالبي، سحر البلاغة، ص٧٩.

(٢) مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره. الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص٤١٧.

(٣) يوكي: يشد، والعياب جمع عَيْبة: وعاء من أدم. لسان العرب، ج١، ص٦٣٤ (عيب).

وجعل المدخل إلى أربه، والمسلك إلى غرضه أنْ تصدَّى لمقارعة عمران[١]، وضمن ذلك أوْكد ضمان، وزعم أنه لمجاورته إيّاه في أعماله، ومقاربته له في أوْطانه، قد اطّلع على ما لم يطّلع عليه غيره من عَوراته، واهتدى إلى ما لم يهتدِ إليه سواهُ من غِرّاته، وموَّه بأباطيله، وتمادى في أضاليله، وقرب في مواعيده، وزخرف من أقاويله، فأجبناه إلى ما طلب،

(١) عمران بن شاهين أمير البطائح. وكان قد زاد قوة وجرأة؛ فأنفذ مُعز الدَّوْلة إلى قتاله رُوزبهان، وهو من أعيان عسكره، فنازله وقاتله، فطاوله عمران، وتحصن منه في مضايق البطيحة، فضجر رُوزبهان، وأقدم عليه طالباً للمناجزة، فاستظهر عليه عمران، وهزمه وأصحابه، وقتل منهم، وغنم جميع ما معهم من السلاح، فقوي بها، وتضاعفت قوته، فطمع أصحابه في السلطان، فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه إتاوةً وأموالاً، فإن أعطاهم، وإلا ضربوه واستخفوا به وشتموه. وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها، ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلّا عن طريق البرّ، فشكا النّاس ذلك إلى مُعِزّ الدَّوْلة، فكتب إلى الوزير المهلبي بالمسير إلى واسط لهذا السبب، وكان بالبصرة، فأصعد إليها، وأمده مُعِزّ الدَّوْلة بالقوّاد والأجناد والسلاح، وأطلق يده في الإنفاق، فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران، وسدَّ المذاهب عليه، فانتهى إلى المضايق لا يعرفها إلا عمران وأصحابه، وأحب رُوزبهان أن يصيب المهلبي ما أصابه من الهزيمة، ولا يستبد بالظفر والفتح، وأشار على المهلبي بالهجوم على عمران، فلم يقبل منه، فكتب إلى مُعِزّ الدَّوْلة بعجز المهلبي ويقول: إنه يطاول لينفق الأموال ويفعل ما يريد؛ فكتب مُعِزّ الدَّوْلة بالعتب والاستبطاء، فترك المهلبي الحزم، وما كان يريد أن يفعله، ودخل بجميع عسكره، وهجم على مكان عمران، وكان قد جعل الكمناء في تلك المضايق، وتأخر رُوزبهان ليسلم عند الهزيمة. فلما تقدم المهلبي خرج عليه وعلى أصحابه الكمناء، ووضعوا فيهم السلاح، فقتلوا، وغرَّقوا، وأسروا، وانصرف رُوزبهان سالماً هو وأصحابه، وألقى المهلبي نفسه في الماء فنجا سباحةً، وأسر عمران القواد والأكابر، فاضطر مُعِزّ الدَّوْلة إلى مصالحته، وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته، فأطلق عمران من في أسره من أصحاب مُعِزّ الدَّوْلة، وقلده مُعِزّ الدَّوْلة البطائح، فقَوِي واستفحل أمره. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٩٣.

وآثرناه بما خطب، ونُطْنا به الأمر الذي شرع فيه، ورغب إلينا في تولّيه، وضَمَمْنا إليه العدد الوافر من قُوّادنا، والجمّ الغفير من أوليائنا، وأطلقنا يده في إنفاق أموالنا، وتناوُل ذخائرنا، قبولاً لما أظهر من الحرص، وتأميلاً لاستئصال ذلك اللصّ[1].

ونحن لا نعلمُ أنّ الطّالبَ شرٌّ من المطلوب، والقاصدَ أضرُّ من المقصود، وأنهما في سُوءِ النيّة سِيّان، وفي خُبث الطَّوية أخَوان؛ فما زال ينازلهُ منازلةَ المطاول، ويزاولهُ مزاولةَ المماطل، لتتراخى به الأيّام، ويتّسقَ له النظام، ويصلَ من مراده إلى الإتمام والإبرام، وهو يختدع من قِبَله من الرِّجال، ويعدهم بكلّ باطلٍ ومُحال، ويحملهم من طاعتهِ والعصيان لنا، وممايلتهِ والازوِرار عنّا على كلّ خطةٍ شنعاء، وداهيةٍ دهياء، إلى أن استمال سفهاءهم اغتراراً واجتراراً، واستولى بهم على مَن سواهم اقتساراً واضطراراً.

وكان أبو مُحمّد الحسن بن فَنّاخُسْرو ممّن حَصَل تحت أمره، واعتقلته أشراك مَكْره، وكتب إلى أخيه أسْفار بن ونداد خرّشيذ المقيم – كان – في أعمال ضَمانِه بالأهْواز بإخراج كوركير والفَتْح اللّشْكَري[2] من القلعة بجُنْدَيْسابور التي كانا مُعتقَلَيْن فيها، وهما ممّن كان الشيطان استقلّ حزمه، واستزلّ قدمه، وعرّض دمه، وأطال ندمه، فعَصَيْنا فيهما بَواعث الانتقام والسّطو، وأطَعْنا عَواطف الاغتفار والعفو، ونَفِسنا بهما عن إفاظة النفوس، واقْتصرنا في عقوبتهما على إطالة الحبوس، وأقررناهما من هذه القلعة، بحيث أُمَّنا وسُكِّنا، واطمأننا ووثقنا، ففعل أسفار ما أمره به، وامتثل ما رسمه له. ثم انكفأ رُوزبهان عن البطائح بالعساكر ناكصاً عن محاصرة ذلك الفاجر، وقدّم إلينا كتباً ينقض بعضُها بعضاً، ويخالف آخرُ منها أولاً، بناها على ذَمّ فعل أخيه، والبراءة منه

---

(١) يقصد عمران بن شاهين، وكان قد بدأ حياته لصّاً وقاطع طريق.

(٢) كلاهما من قواد روزبهان. مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٢٠١.

فيه، وتصرّف تصرُّف المذكِّر لنا بحُرماته، المستحفظ لموالاته، وادّعى ممّن تنكُّرنا له، وتغيُّرنا عن العناية به، وإصغائنا إلى إفساد المفسدين عليه، وإيحاش الموحشين منه، دعاوَى اتّخذها سُلّماً إلى المركب الصَّعْب الذي ارتكبه، وعذراً في المنهج الوَعْر الذي انتهجه؛ فأجبناه جواباً أتْبعناه بأمثالٍ له، لم نألُ في جميعها جُهداً شديداً، ولفظاً سديداً، في تَسْكين نَفْرته، والإهابة به إلى مصلحته، والتَّوْثقة له بكلّ ما أخذ الله على أنبيائه الصدِّيقين، وملائكته المقرّبين من عَهْدٍ مُحصَد، وعَقْدٍ مُحصَف، ويمينٍ غموس، لا مخلص للخلّ بها، ولا فسحة للمتأوّل فيها ألّا نؤاخذه بجريرةٍ، ولا نعاقبه على كبيرةٍ اقترفها ولا صغيرة، ولا نُنقضه من رُتبةٍ بَلَغها، ولا نُبعِده عن قُربةٍ وَصَل إليها، ولا نُلْحق به ضَيْماً، ولا نُطلق عليه هَضْماً، ولا ننصر ضدّاً له، ولا نمكّن خصماً منه، ولا نفسد العارفة عنده التي أنفقنا في إسدائها الأموال، وخالفنا في إتمامها العُزّال، ولا نشمِّت به أعداءً طالما أشاروا فعصوا، وتنصّحوا فأقصوا، وأننا نفضي له عن كلّ مالٍ أنفقه واستهلكه، وذخرٍ أجحف به وانتهكه، ونستأنف به المزيد في الإحسان والضيعة، والمنزلة الرفيعة، ثم تكون حالُه في نفوسنا إذا حَضَرنا بعد النَّبْوة، ووطيء بساطنا بعد الهَفْوة حالَ مَن لا يعترضنا أبداً فيه عارضُ الشّك، ولا نُصغي إلى طعن طاعنٍ عليه بصدقٍ ولا إفْك، وحذّرناه عَواقب الكفر النازعة للنِّعم، وخوّفناه مَصارع البغي الجالبة للنِّقم، وتَلَوْنا عليه آيات القرآن المبصِّرة، وضربناه بقَوارعه المنذرة، ودَعَوْناه إلى التنزّه عن مِيسَم العاصين، وشعار المخالفين، وسُوء قالة القائلين، وأحاديث المتحدّثين، فأبى له ضعفُ العقل والنَّحيزة[1]، ولُؤم الطَّبع والغَريزة، إلّا إصراراً على طَيْشه

---

(١) النَّحيزة: الطبيعة. ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٤١٥ (نحز).

وسَفَهه، واستمراراً في طَيْخه[١] وعَمَهه، حتى كان الوَعْظُ أغراه، والإرشادُ أغواه.

فلمّا حَصَل بواسِط، هَتَك حجابَ نِفاقه، وأظهر مكنونَ شِقاقِه، وجاهَر بالخلاف، وظاهرَ[٢] وكاشَف بالانحراف، ورَحَل إلى سوق الأهْواز عاملاً على الاستيلاء عليها، ودَفْعِ أبي مُحمّد المهلَّبي – أدام الله عزَّه – عنها. وتوافَى إليها معه أسفارُ أخوه ومَن معه، فكتبنا إلى أبي مُحمّد الحسن بن مُحمّد بمُقارعته إن استصوبها ووثق ممّن معه بالاستقلال بها، والانحياز إلى البصرة إنْ خاف منها نكولاً عن اللقاء، أو عدولاً عن الوفاء. فأخذ في الحزم في تقديم ما كان قبله من الأموال والأنفال، والمِيَر والأزواد، ووجوه أهل البلاد إلى البصرة، ونَصَب أبا العَبّاس ليلى بن موسى زعيماً لمن كان بالأهْواز من الشِّحْنة والرِّجال، ووقف معه وقوف الإبلاء والإعذار، فلمّا أحسّا منهم بالإسفاف إلى الدّنيئة والإيضاع في الفتنة، وكانوا كالغنم السّارحة التي لا راعي لها، والإبل السّائمة التي لا سائق معها، انجذبا إلى البصرة، ومَن تابعهما من أهل البصيرة والنُّصْرة، وأفرجا له عند الأهْواز بعد أنْ كان أبو مُحمّد أصْفَرها من كلّ خير، وأقْفَرَها من كلّ مَيْر.

ودخلها الخائن دخولَ الكافر الغادر، وتنابحت إليه كلابُ الغارة الشعواء، وتعادت إليه ذئابُ الصَّيْلَم الصّماء، طمعاً منهم في الوصول إلى ما عنده، وإقامة سوقٍ يستنفدون بها حاصلَه ووُجْدَه[٣]، وهو يزداد تمادياً في غيّه، وتناهياً في بَغيه، وقبولاً من شيطانه المارد، وعِصياناً لنصيحة الرّاشد.

---

(١) الطَّيْخ: الجهل، الفتنة. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٣٩ (طيخ).

(٢) كذا، وأرجّح أن كلمة ساقطة هنا.

(٣) الوجْد: بالضم والفتح والكسر: السّعة واليَسار. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٤٥ (وجد).

وانحاز إليه بالأهْواز مُحمّد بن أحمد الخوميني[١] عاملُنا - كان - عليها بعد مكاتبةٍ منه لهذا الخائن خان معه فيها، وعن مواطأةٍ بينهما تنجّز العقوبة بها، فقبله وأقبل عليه، واستوزره وفوّض إليه، وكأن الله قد قضى عليهما بهذا الاجتماع في المعصية أنْ يجتمعا في انصرام المدّة. وعسكر ومَن معه بظاهر سوق الأهْواز على سَمْت الطريق التي عليها نسير إليه، وتُجاه الجهة التي منها نرد عليه. فلمّا تحقّقت عندنا هذه الأخبار، وأسفرت أوضح الإسفار، حاكمنا هذا اللَّعين إلى الله العادل حكمه، السّابق في الأشياء علمه، العارف بإحساننا إليه وإفضالنا عليه، ورفعنا خَسيسته، وتشريفنا دنيئته، وأنّه قابَلَنا مقابلةَ العَبيد الأُبّاق، وجازانا مجازاة الفُجّار الفُسّاق، حين ضفت عليه ملابسُنا، وكرمته مجالسُنا، وكملت لديه فواضلُنا، وتظاهرت عليه نوافلُنا، وقَوّتْ يده أيادينا، وتحاشدت إليه مَوالينا، وتوجّهنا نحوه فيمَن كان بحضرتنا من العساكر، وأصناف الغِلْمان الأكابر والأصاغر، مستنصرين عليه بكفاية الله التي هي أعزّ نصير، ومستظهرين عليه بمعونته التي هي أنجد ظَهير، ووَرَدْنا أوائل أعمال الأهْواز، فوَجَدْنا خواصَّ كلِّ كورةٍ من كُوَرها وعِراقها[٢]، ووُجوهَ كلِّ ناحيةٍ من نواحيها ورعاياها على ما ينبغي أنْ يكونوا عليه من الشغف بمَوْردنا، والتجرُّد في نُصرتنا، والدّعاء لنا، والمباينة لعدوّنا. فلمّا أيْقن بإقبالنا إليه، وأوْجس من إطلالنا عليه، صار إلى عَسْكَر مُكْرَم معرِّجاً عن المواجهة، معرِّداً عن المناجزة، مُظهراً لأصحابه أنّ طريقنا كان عليها، وأنه سابقنا إليها. وأتممنا إلى

(١) في الأصلين: الجوميني، والأصح ما أثبتناه. نسبتُه إلى خُومِين إحدى قرى الرَّيّ. السمعاني، الأنساب، ج٢، ص٤١٨. وكنيته أبو عبد الله، كان من ضمن المرشّحين لوزارة مُعِزّ الدَّوْلة بعد وفاة وزيره أبي جعفر الصيمري. ياقوت، معجم الأدباء، ج٣، ص٦٢. وانظر خبراً عنه عند التنوخي الذي وصفه بعامل سوق الأهواز. نشوار المحاضرة، ج١، ص٢٤٨.

(٢) العِراق: كل أرض متصلة بالبحر. لسان العرب، ج١٠، ص٢٤٣ (عرق).

سوق الأهْواز ووضعنا العطاءَ في الأولياء، فتشوّف إلينا مَن كان استغرّه منهم بأُخذة[١]، وتلهَّفْ مَن كان استجرَّه بخُدْعة، وخفّت ذات يده في الإطلاق، وانقطعت عن عسكره مادة الإنفاق، وعلم أنّ الأمر له مُرْهِق، والبلاء به مُحْدِق؛ فثنى إلينا عنقاً قد أعنقت إليها الحتوف، وأبرقت نحوها السيوف.

وقد كان أبو مُحمّد الحسن بن مُحمّد وأبو العَبّاس ليلى بن موسى عادا إلى الأهْواز ممتثلَيْنِ بالتعجُّل إلينا، واللّحاق بنا، أمراً صدر إليهما منّا، ووكيداً وَرَد عليهما من كُتبنا، وبثثنا رُسلنا إلى أوليائنا الحاصلين مع هذا الخائن الذين كلٌّ منهم أحد الرَّجلين: إمّا مُسْفٍ إلى تناول حُطامه، عازمٍ على خذلانه وإسلامه، أو مغلوبٍ على رأيه، محامٍ عن حَوْبائه، طالبٍ لنفسه فرصة الانسلال وخلسة الانتقال؛ فاستجابوا إلى الواجب، وأذعنوا بالحقّ اللّازب، وأقاموا ضُروباً من العُذر عندنا، ولاذوا بالفرار والغفران منّا.

واستأمن إلينا أبو مُحمّد الحسن بن فَنّاخُسْرو مستقيلاً من عَثْرته، مُسْتصفحاً عن جَريرته؛ فتلقّيناه بالإحسان، وغمرناه بالامتنان. وثلم الله به جانب العدوّ، وأيقن بحلول المكروه والسُّوء، واقتضى الرأي أنْ رَدَدْنا أبا مُحمّد الحسن بن مُحمّد إلى الباسيان[٢]، لنبعده عن مباشرة الحرب، ونصونه عن مشاهدة الطَّعْن والضَّرْب، بعد أنْ أتت المفاوضة بيننا وبينه على ما استدعيناهُ من أجله، وأنْ عدلنا إلى قنطرة أرْبَق[٣] حتى

---

(١) الأُخذة: التي تأخذ العين حتى يُظن أن الأمر كما يُرى، وهو ليس كذلك. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٣٤٨ (سحر).

(٢) إحدى مدن الأحْواز (الأهْواز)، قريبة من الدَّوْرق، يشقّها نهر فتصير نصفين. ابن حوقل، صورة الأرض، ج٢، ص٢٥١، ص٢٥٨.

(٣) في ف بدون نقط. وهي من نواحي رامهرمز في الأحْواز. السمعاني، الأنساب، ج١، ص١٠٥؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٣٧.

ملكنا وعسكرنا من ورائها جلوساً بالمراصد له، وضَرْباً بالأسداد عليه، وأخذ بمُخَنَّقه، وتضييقاً لطُرقه، وكرَّ هو إلى سوق الأهْواز راجعاً، وأقبل منها إلينا مُسارعاً، دالفاً دُلوفَ الجاهل بربّه، الذّاهل عن رشده، المركوس، في غَيِّه، المسبوق إلى حتفه، قد أعجبته نفسٌ محبَطَةُ العمل، وغرّته أمنيةٌ خائبة الأمل، أوردته قحة الأديم، ورقّة الدِّين مَوارد هلكةٍ لا صدر عنها، واقتحمت به قحم خطةٍ لا انفراج لها، والله في ذلك كلِّه ناصرُنا وخاذلُه، ومظفرُنا وقاتلُه، ومُعلينا ومُسقطُه، ومُديلُنا وموِرطُه، إذ كان سبحانه العالم بأنّ الجنودَ المطيفة به جنودُنا، والبنودَ الخافقة على رأسه بنودُنا، وأنّ لنا الثوبَ الذي سحبه، والطِّرفَ الذي ركبه، والدِّرعَ التي ادّرعها، واللّامة[1] التي استلأمها، والعَضْبَ الذي انتضاه، والسَّهْمَ الذي أمضاه.

وعَبَرنا القنطرةَ إليه في خَواصّ غِلْمانا الأتراك، ونُخَبٍ من الدَّيْلَم والجِيل الفُتّاك، وذوي صُدورٍ منه ومن أصحابه الخونة حامية، وقلوبٍ عليهم ملتظية، وأيدٍ في جهادهم متّفقة، وأقدامٍ إلى لقائهم مستبقة. فلم تزل الخيلُ تطرقهم، والكرُّ يرهقهم، والجراحُ تثخنهم، والقتلُ يمحقهم، والحربُ تذيقهم حرّ حديدها، وجِلاد صناديدها، وترميهم بكُماتها وأبطالها، وتعركهم عَرْكَ الرّحى بثقالها، سحابةَ يوم الإثنين انسلاخ شهر رمضان الذي ختم الله به شهر الصيام، وعظم بركتهُ على الإسلام.

فلمّا تراءى النّاس هلالَ شَوّال، وكادت تغشاهم غَواشي الظلام، أنزل الله نَصْرَه على أوليائه، وشفع لهم وَعْده بوفائه؛ فانهزم الخائن هزيمةً قوّض الله بها عروشه، وفضّ جيوشه، وضلّل وَساوسه، وأبطل هَواجسه، واستلحمت رجالَه السيوف، وحرقتهم

(١) اللّامة : السلاح، وقيل إنها الدرع خاصة. ابن سيده، المخصص، ج٢، ص٤٨.

نار الحتوف، واقتسمتهم المكاره شعاعاً أيدي سبأ[١]، بين قتيلٍ مرمَّل، وأسيرٍ مكبَّل، وهاربٍ مَفْلول، ومستأمنٍ ذليل.

وكان كوركير والفَتْح اللّشكَري ممّن جرى عليهما حُكْم الأمان، واعتلقا حبل الذِّمام؛ فدخلا في الجملة دخولَ التّائب المنيب، والراشد المصيب، وتَغَمّدْنا سالف وطارف جَرائرهما، وصَفَحْنا عن قديم وحديث جَرائمهما، وأنْزلناهما منازل نظائرهما الشّامل لهم فَضْلُنا، الممتد عليهم ظلُّنا، واتّبع سَرَعانُ خيلنا عدوّ الله الهارب منّا، فلحقوه وأدركوه، وأحاطوا به وملكوه، وبدر إليه من الغِلْمان مَن ضربه ضرباتٍ أثرت فيه آثاراً لم تجحف، وبلغت منه مبالغ لم توغل، وتباكّوا[٢] عليه تباكَّ المتنافسين في الأثر، المتشاحّين[٣] على الظَّفَر، إلى أنْ أكبّ عليه أبو الفَوارس شيرزيل بن كندرامين[٤]، فاستخلصه واستحياه، واستنقذه واستبقاه، وأتانا به أسيراً عقيراً، خاضعاً ضارعاً، بغير عَهْدٍ يحجز عنه ولا عَقْدٍ يمنع منه، ولا أمانٍ يعلق بحجّته، ولا ضمان يطالب بوثيقته.

ووُجد أحمد بن مُحمّد[٥] الخُومِيني[٦] صريعاً مجندلاً، طريحاً معفَّراً، قد أثختنه ضربةٌ في رأسه لم يلبث بعدها إلّا قليلاً حتى قضى نحبَه، ولقي بأسْوَدِ صحيفته ربَّه. وأجلى

---

(١) من أمثال العرب، يُضرب في الفرقة والتمزّق. الميداني، مجمع الأمثال، ج١، ص٢٧٥؛ الزمخشري، المستقصى، ج٢، ص٨٨.

(٢) تباكّ القوم: ازدحموا. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٤٠٢ (بكك).

(٣) تشاحّوا في الأمر وعليه: شحّ بعضهم على بعض وتبادروا إليه حذر فَوْته. لسان العرب، ج٢، ص٤٩٥ (شحح).

(٤) ف: كسندرا.

(٥) كذا في الأصلين، وقد مرّ: مُحمّد بن أحمد، فهل هو خطأ من الناسخ، أم أن هذا ابن ذاك؟! لكن الاحتمال الأول هو الأرجح.

(٦) ف: الجوميني، ر: الحوميني. وقد تقدّم التعليق عليه.

هذا الفَتْح العظيم خطره، الجسيم قدره، عن سُكون الدَّهْماء، وشمول النَّعْماء، وعزّ الأولياء، وكَبْت الأعداء، وشفاء الصدر، وإدراك الوتر، وأخذ الثأر المنيم[1]، والظَّفَر بشيطان الفتنة الرّجيم، وتلك عاقبة من ظلم وكفر، وخان وغدر، وبغى واستكبر، وعتى وتجبّر، والله تعالى يقول فيه وفي أمثاله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[2]. فالحمدُ لله ربِّ العالمين الذي لا يَضيع أجرَ المحسنين، ولا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين، ذي الحجج البَوالغ، والنِّعَم السَّوابغ، والنِّقَم الدَّوامغ، جبّار الأرض والسّموات، وعالم الجليّات والخفيّات، الذي لا ينجو منه الهارب، ولا يُعجزه الطّالب، ولا يضيمه ضائم، ولا يروم مغالبته رائم. وإيّاه نسأل أنْ يصلّي على مُحمّدٍ عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلَّم، صلاةً زاكيةً ناميةً دائمةً راتبةً منجزةً عدته، رافعةً درجته، قاضيةً حقّه، مؤدّيةً فرضه. وأنْ يديمَ لمَوْلانا أمير المؤمنين أحسن ما خوّله وأولاه، ومنحه وأعطاه من نُصرة رايته، وإعلاء كلمته، وإظهار مَن ظاهره، وتأييد مَن ضافره، وأنْ يجعلنا ممّن إذا أُنعم عليه شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا زِيد لم يغمط، وإذا نقص لم يقنط، وألّا يخلينا من الكفاية، وجميل الوَلاية، فيما غاب وحضر، واستسرّ وجهر، وبطن وعَلَن، واحتجز وبرز، إنه وليّ ذلك، والقادر عليه، والمرجوّ له، وحَسْبنا الله ونِعْم الوكيل.

---

(١) الثأر المنيم: الثأر الذي فيه وفاء طلبته. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٥٩٧ (نوم).

(٢) سورة النحل، الآية ١١٢.

وكَتَب عن الوزير
أبي مُحمّد الحسين بنِ مُحمّد المهلَّبي
إلى أبي المِسْكِ كافورِ الإخشيديِّ
جواباً عن كتابِه[١]

كتابي يا سَيِّدي وأخي[٢] -أطال الله بقاءه، وأدام تأييده- ونعمةُ الله على مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه، وأدام تأييدَهُ وعَلاءه- وعلينا فيه سابغةٌ، ومَوْهِبتُهُ له -أيّده الله- ولنا فيه متظاهَرةٌ، وأمورُ المملكةِ -ثبَّتها الله- مطَّرِدَةٌ، وأسبابُ الدَّوْلة -حَرَسها الله- منتظِمَةٌ، وسيّدُنا الأمير مُعِزّ الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- على أفضلِ ما عوَّدَهُ الله الكريمُ من[٣] نفاذِ أمرٍ ونَهْيٍ، وتمامِ عزٍّ وتَمْكين، وأحوالي في نَفْسي صالحةٌ، وفيما أدبِّرهُ وأقومُ به مستقيمةٌ، ولله الحَمْد كثيراً، والشّكرُ دائماً.

ووَصَل كتابُكَ -أدام الله عزَّك- من يدِ أبي الطيِّبِ العَبّاس بن أحمدَ الهاشِميِّ - أعزَّهُ الله- وفهِمتهُ، وحَمِدْتُ الله على ما افتتَحْتَهُ به من ذِكْرِ السَّلامة وشُمولِها، والاسْتقامةِ وعُمومِها، ورَغِبتُ إليه في إدامةِ ذلك والزيادةِ فيه، وإجرائهِ على ما يجمَعُ لكَ خيرَهُ أُولاهُ وأُخراه، وفاتحَتَهُ وعُقباه، ويُوزِعُكَ شُكرَ ما خوَّلَك وأعطاك، ويُلهِمُك

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة، وبعضها في طهران تحت عنوان (وله فصل من كتاب).

كافور خادم من الرقيق الأسود، اشتراه أبو بكر مُحمّد بن طغج الإخشيد حاكم مصر، وتقدم عنده بسبب مَواهبه ونشاطه، إلى أن صار من كبار قُوّاده. ولما مات صار أتابك ولده الصبي وغلب عليه. الصفدي، الوافي، ج٢٤، ص٢٣١.

(٢) من: ج.

(٣) ساقطة في ج.

نشْرَ ما منَحك وأوْلاك، حتى تكونَ مُقابِلاً للنّعمةِ عندَك بما يُقرُّها لدْيك، ومُجازِياً لها بما يَحرُسُها عليك، والله يفعَلُ ذلك بجودِهِ وَمجدِه.

فأمّا عِتابُكَ -أيّدك الله- إيّايَ على الأحوالِ التي أومَأْتَ إليها، واعتذارُك إليَّ من تأخُّرِ أبي الحسن عليِّ بنِ حشْمُوَيْه[1] -أعزَّهُ الله- كان قِبلَكَ بالأسبابِ التي ذكَرتَها، فلولا أنّك -أدام الله عزَّك- سلكْتَ في الخِطابِ طريقاً في اجترارِ الأُلْفةِ، ومَذهباً في توكيدِ المَودّة، يقتَضيانِ رفْعَ المناقشة[2] واسْتِعمالَ المُسامَحة، لكان لي مقالٌ كثيرٌ في دَفْعِ الحجَّة عني، ومجالٌ طويلٌ في توجيهِها لي، لكنِّي رأيتُ أنّ أوْلى ما قابَلْتُ به مشكورَ اسْتئنافِك، ومحمودَ مُعتَمَدِك، قبولُ العُذْرِ والتَّجافي عن العَتْبِ، والمساعدةَ على كُلِّ ما صَفَّى الحال وهذَّبَها، ونَفى الأقذاءَ والشوائبَ عنها، والله شاهِدي على ما أتوخَّاهُ من الصَّلاح، وأُوثِرُهُ من الانتظام، وأنّني ما آلُو جُهداً في اعتقادِهِمَا، ولا أتسمّحُ فيما يُخالِفُهما، وهو -عزّ وجلّ- وَليُّ التوفيقِ والتَّسديد، والإجراءِ على أفضلِ المألوفِ والمعْهود، وحَسْبي ونِعْم الوكيل.

وأمّا الكتابُ إلى مَوْلانا أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه وأدام تمكينَهُ ونَعماءه- فقد تنجَّزْتُ لأبي الطيِّبِ -أعزّهُ الله- الإذنَ حتى وَصَل وأوصَلَهُ، وأدَّى ما تحَمَّلَهُ معه، وما تركْتُ في ذلك ما ألتزِمُه من تشييعِ الذّكرِ، وتجميلِ الأمرِ، حتى وقَعَ الجميعُ موقِعَهُ، وجَرى على محبَّتِكَ فيه، ولله الحَمْدُ والمِنَّة.

وقد أجَبْتُ -أيّدك الله- عن الرِّسالة وسائرِ فُصولِ المكاتَبة بما أبو الطيِّب -أعزَّهُ الله- يُؤَدِّيه، لتَدَبَّرَهُ وتَرى رأيكَ فيه، وألفَيْتُ من سَدادِه وحَصافتِه، وحُسنِ وَساطتِه

(١) ج، ق: جشمويه.

(٢) ل: المنافسة.

وسِفارته ما أغناني عن إطالةِ الكتابِ، ودَعاني إلى التعويلِ عليه في المناب، ووَثِقْتُ بأنّكَ -أدام الله عزَّك- تأتي في ذلك ما يُتَمِّمُ ابتداءك بالإصْلاح، ويُكمِّلُ شُروعَكَ في الصَّواب، ولا سِيَّما وقد وَجَدْتَ مِنّي مُؤْثِراً لهما، ومُساعِداً عليهما، ولله الإذنُ والمشيئةُ والملاطَفاتُ المحمولةُ، فقد تَوصَّلتُ إلى محبَّتِكَ -أيّدك الله- فيها، وتلطَّفتُ في أنْ شمَل القَبولُ جميعَها، والله يصِلُ ما بيننا بأحسنِه، ويُخلِصُهُ فيه وله بطَوْلِهِ.

وكُتُبكَ -أيّدك الله- واقعةٌ الموقِعَ اللَّطيفَ منّي، ونازِلةٌ المنزِلَ الجليلَ لدَيَّ. فإنْ رأيتَ -أدام الله تأييدك - أنْ تُواصِلَني بها مضمَّنَةً أخبارَك وأُمورَك، وأوطارَكَ وشُؤونَك، وما يُجدِّدُه الله من النِّعْمة عندَك، ويُظاهِرُهُ من مَواهبه لديكَ، فعلتَ إنْ شاء الله.

نُسْخة تَذْكِرةٍ عن عِزّ الدَّوْلة
نفَذَتْ من واسِط مع القاضي أبي بكرٍ [١]

ليقصِدَ القاضي - أيّده الله- مدينةَ السَّلام، ليُوصِلَ إلى كلِّ واحدٍ من سَيِّدَيْنا: أبي إسحاق وأبي طاهرٍ [٢] كِتابَنا إليه، ويذكُرَ له عنّا عظيمَ ما وَرَد علينا من خَبرِ طاغية الرُّوم في تورُّدِهِ ديارَ الإسلام، وانتهاكِه حُرُماتِ الله، وقَتْلِهِ مَن قَتل، وسَبْيِهِ مَن سَبى، وفِعْلِهِ ما فَعَل، وتأثيرِه ما أثَّر، وأنّ ذلك قد أهمَّنا وأزعجَنا، وأقلَقَنا وبَلَغ منّا، واستَسْهلْنا معه رُكوبَ كُلِّ مَركَب، ودُخولَ كلِّ مدخَلٍ في الانتصارِ، وأخْذِ الثأر

---

(١) ليدن.

في محرم سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م أغار الرُّوم على شمال الشام، فقتلوا وغنموا وسبوا وأحرقوا وخرّبوا، فهرع بعض وجوه تلك النواحي إلى بغداد مستنجدين مستنفرين. وكان عِزّ الدَّوْلة - وهو المتغلّب على شؤون الخلافة - يتصيّد في نواحي الكوفة، فخرج إليه بعض وجوه بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وترك جهاد الرُّوم، فوعدهم بالتجهّز لصدّ الرُّوم، وأرسل إلى سُبُكْتِكين في بغداد يأمره بالتجهّز للغزو واستنفار العامّة، وطلب من أبي تغلب الحمداني صاحب الموصل إعداد المؤن والعلوفات. وقد انتصر عليهم وأسر الدُّمُسْتُق سنة ٣٦٢هـ. انظر تفصيلات ذلك عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٤٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٠٢، ص٣١٠.

ولعل القاضي أبا بكر هو ابن قريعة المتوفّى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م، وقد ترجم له الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السَّلام، ج٣، ص٥٥٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٣٢٦. ووضع أبو الفرج مُحمّد بن مُحمّد الشِّلْجي كتاباً في أخباره. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٣٥٨؛ الصفدي، الوافي، ج١، ص١٠٨.

(٢) سيعرّف بهما بعد قليل.

والشخوصَ بأنفُسِنا للجهاد، وتَلافيَ ما وَقَع من الفَساد.

وتُعرِّفَ أخانا أبا نصرٍ الحاجِبَ [١] ما نفَذْتَ لهُ، وتَعرِضَ عليه التَّذاكير، وتقرِّرَ في نفسِهِ -أحياها الله- صحَّةَ عزيمتِنا على الغزوِ مع مَوْلانا أمير المؤمنين، وأنّا نُريدُ منهُ -أيّده الله- الكونَ معنا، والعَمل على مُصاحَبتِنا، إذ كان أكبرَ عُدَدِنا، وأحدَ أعضادِنا وأحقَّ مَن ساهَمَنا وشارَكَنا، ولأنّ هذا أمرٌ حظُّ الدِّينِ فيه أكبرُ من حَظِّ الدّنيا، وفائدَةُ الآخرةِ فيه أوفرُ من فائدةِ الأُولى.

وتَصيرَ من حضرتهِ إلى حَضْرة سَيِّدي أبي إسحاق وأبي طاهر: إبراهيم ومُحمّد، ابنَيْ مُعِزّ الدَّوْلة، فتُعرِّفَهما رأينا في هذا الأمرِ، وأننا عامِلونَ عليه، مجرِّدونَ النيَّةَ فيه.

وتجتمعَ بعد ذلك مع قاضِي القُضاة أبي مُحمّد [٢] على قَصْدِ حَضْرة مَوْلانا أمير المؤمنين، حتى تُورِدَ عليه ما شافَهْناكَ به من السَّلام والتحيَّة، وتجديدِ العَهْدِ بالخدمةِ، وتَعرِضَ التَّذْكِرة وتحصِّل جَوابَها، وتَكتُبَ إلينا بِشَرْحِه، وتَنفُذَ لسبيلِكَ إلى مَقْصِدِكَ من الموصل، وتُواصِلَ كُتُبَكَ من منازلِ الطريقِ ومن المقصِدِ، بكُلِّ ما نُراعيهِ ونتَرقَّبُ أثرَكَ فيه إنْ شاء الله.

---

(١) أي: سُبُكْتِكين.

(٢) أبو مُحمّد عُبيد الله بن أحمد بن معروف (ت٣٨١هـ/ ٩٩١م). له ترجمة عند الخطيب البغـدادي، تاريخ مدينة السَّلام، ج١٢، ص٩٣.

وكَتَب عن المطيع لله إلى رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ بخَبر أسْرِ الدُّمُسْتُق سنةَ اثنتين وستّين وثلاثمائة[١]

أما بعد، فالحمدُ لله ذي المِنّة والطَّوْل، والقُدْرة والحَوْل، والغَلَبة والصَّوْل، المُنفرد بكبريائه، المُنعم على أوليائه، المُنتقم من أعدائه، رافع الحقّ ومُعليه، وقامع الباطل ومُرديه، ومُعِزّ الدِّين ومُديله، ومُذلّ الكفر ومُذيله، المُنزل رحمته على مَن جاهد في طاعته، المُحلّ سَطْوته بمَن جاهَر بمَعْصيته، المُتكفّل بتأييد حزبه حتى يظفر، وخذلان حربه حتى يُدحَر، الذي لا يفوته الهارب، ولا ينجو منه الموارِب، ولا يُعييه المُعضل، ولا يُعجزه المُشكل، ولا تبهظه الأشغال، ولا تؤوده الأثقال، الواحد الذي لا شريك له، الفرد الذي لا قرينَ معه، الغنيّ المُفتقَر إليه، القويّ المُعتمَد عليه، بالغ أمره بلا مُؤازر، ومُمضي حكمه بلا مُظاهر، ذلكم الله ربكم فادعوه ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٢].

والحمدُ لله الذي اختار لنا الإسلام ديناً، وآثره وأظهره على الدِّين كلِّه ونَصَره، وشَرَعه شَرْعاً لا يُنسخ، وعَقَده عَقْداً لا يُفسخ، وجَعَله حقّاً لا يُدحض، وأمَرَّه إمراراً لا يُنقض، وقضى له بعزّ المرافقين، وذلّ المنافقين، وظهور المعاضدين، وثبور المعاندين.

---

(١) فيض الله، راغب باشا.

تتعلّق هذه الرسالة بالأحداث المذكورة في الرسالة السابقة. انظر تفصيلات هذا الخبر -بالإضافة إلى المصادر المذكورة هناك - عند: الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٢١١ وقد ذكر أن أبا تغلب الحمداني كتب كتاباً إلى المطيع لله يخبره بالحال، وأن الصابي كتب رسالةً جواباً عنه، وأنها في ديوان رسائله.

(٢) سورة غافر، من الآية ١٤.

واصطفى مُحمّداً صلّى الله عليه وسلَّم من أكرم المناسب، واجتباه من أشرف المحاتد والمناصب، واستخلصه من أسرة هاشم، وفضّله على جميع بني آدم، وأيّده بالملائكة المقرّبين، وبعثه رسولاً إلى العالمين، فأدّى أمانة ربّه مخلصاً، وصَدَع برسالته مبلغاً مخلصاً، واستنقذ هذه الأمّة من الغِواية، وعرّفها طرق الهِداية، وسلك بها سواء المحجّة، ودعاها إلى الحقّ بأوضح حجّة، وعَدَل بها عن عبادة الأوثان إلى طاعة الرحمن، وعن دين الشيطان إلى أرشد الأديان؛ فأصبح النّاس على التعاطف والائتلاف عاكفين، وعن التهارج والاختلاف عازفين، إخواناً في ذات الله متوازرين، وأقراناً في السَّعْي لرضاه متضافرين، يرمون أعداءهم عن يدٍ وساعد، ويرصدون لهم إرصادَ رجلٍ واحد، نعمةً من الله أسبغها عليهم، وموهبةً أزلّها إليهم، إذ يقول جلّ جلاله، وعظُمت كبرياؤه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[1].

والحمدُ لله الذي برأ أمير المؤمنين من شَجَر النبوّة الطيّب، وذرأه من عنصرها الخالص المهذّب، وحباه بفضيلةِ الإمامة، ورَدّاه رداء الكرامة، وبوّأه منازل أسلافه الطّيبين، وحاز لهم مَواريثهم أجمعين، وأهّلهُ لعظيم ما استرعاه، وأعانه على الاستقلال بما استكفاه، وافترض طاعته على عِباده وخلقه، وأنهضه فيهم بتأدية واجبه وحقّه، واختصّه بأمدٍ في الخلافة أطاله، ومدىً فات به نُظراءه وأشكاله، وحبّب إليه جَوادّ العدل المنجية، وجنّبه عَوادل الجور المردية؛ فالدَّهْماء بسياسته ساكنة، والرّعيّة برعايته آمنة، والفتوحُ في أيّامه متّصلة متقاطرة، والغَنائم على المسلمين ببركته دارّة متواترة. وقد كنفه الله منذ منحه فضيلة هذه الآلاء، وحمله أوْق هذه الأعباء، منك كلأك الله ومن

(١) سورة آل عمران، من الآية ١٠٣.

ذويك وولدك وولد أخيك برُكْنٍ لدَوْلته لا يتزعزع ولا يتضعضع، وعَضُدٍ لا يفتُّ فيه ولا يُطار بنواحيه، وعزٍّ لا يُضام ولا يُرام، ومُؤيِّدٍ لا يعجز ولا يَكِلُّ، وعُمْدةٍ لا يضعف ولا يفشل؛ فراياتُ أمير المؤمنين أين توجّهتم بها منصورة، وجيوشه أنّى صَرفتُمُوها ظافرةٌ مَوْفُورة، وعوائدُ الله عليه بكم وعلى أيديكم جارية، وفوائدهُ إليه ببركتِكُم ويُمْنكم متوافية.

وأنت - حفظ الله النِّعْمة فيك - شيخُ تلك الأرومة وعظيمُها، وعميدُ تلك الجزيرة وزعيمُها، قد أنبت خَطِّيها وشيجُك، وقوَّم أغصانَها تخريجُك، وتشعّبت شُعبها من أصولك، واحتذَتْ فروعها على تمثيلك، وناب عِزّ الدَّوْلة أبو منصور مَوْلى أمير المؤمنين - أمتع الله به - عنك، حَرَس الله فيك النِّعْمة وعن شيخه مُعِزّ الدَّوْلة أبي الحسين - تولّاه الله بأوْسع الرحمة - أتمّ نيابةً وأوقاها، وخَدَم أمير المؤمنين في مهمّةٍ أوْفى خدمةٍ وأشفاها، لا يذخره نُصحاً، ولا يألوهُ جهداً في ضَبْط الثغور وسَدِّها، ورَمّ الأمور وشدّها، وتَرْتيب الأحراس بمَراكزها، وتَسْريب البعوث في مَقاصدها، ومجاهدة الكفار ومقارعتها، ومناضلة الأعداء ومدافعتها، وإصلاح البلاد وعِمارتها، ورعاية الرّعيّة وسياستها، يسافر رأيُه وهو دانٍ لم يبرح، ويسير تدبيرهُ وهو ثاوٍ لم ينزح، يتناول المعالي بثاقب حزمه، ويفترع الهضاب ببعيد همّه، ويصيب الأغراض بصائب سَهْمه، ويطبق المفاصل بصَواب عَزْمه. والله يمتّع أمير المؤمنين بك وبه، ويدافع له عنك وعنه، فقد أرقدتما طَرْفه بتيقّظكما، وأرغدتما عَيْشه بتحفّظكما، ووَصَلتما أيّام دعته بدأبكما، وأطلتما زمان راحته بنصبكما، ولا يخليه فيكما وفي أهليكما من نعمةٍ يعدّها الأولى من نِعَمه عليه، ومنحةٍ يعتدّها[1] العظمى من مِنَحه لديه، بلُطفه وعطفه، وجُوده ومجده.

---

(١) في النسختين: يعتد بها.

وقد عرفتُ – أحسن الله الوَلاية فيك – ما كان من عظيم الرُّوم لما تطاولَ بواسِط مقامُ عِزّ الدَّوْلة أبي منصور مَوْلى أمير المؤمنين – رعاه الله – وتيقّنه بعد المسافة على أبي تَغْلِب فَضْل الله بن ناصر الدَّوْلة عامل أمير المؤمنين في الاستصراخ والاستنجاد، وطول الشقة في الاستنصار والاستمداد، وانتهازه هذه الفرصة واهتباله هذه الغرّة، ومسيره في العدد الجمّ من الكفّار، وتناهيه في الاحتشاد والاستكثار، وتوغّله في دار الإسلام إلى نَصِيبِين، وإيقاعه ونكايته بمَن بها من المسلمين والمعاهَدين. ووَرَدت في أثر ذلك كُتبُ أبي تَغْلِب إلى أمير المؤمنين وإلى عِزّ الدَّوْلة مَوْلاه – حفظه الله وتولّاه – بشكوى ما نزل به وحلّ بساحته، والتماس مَدَدٍ يزيد في عدّته ومُنّته؛ فأهمّ أمير المؤمنين ما وَرَد منه طويلاً، وأقلقه شديداً، وبعثه على استقدام عِزّ الدَّوْلة - كلأه الله - والجيوش التي برَسْمه نصره الله؛ فثنى عِنانه إليها مُسرعاً مبادراً، ولبّى دَعْوته مجيباً مثابراً، وعاد إلى مكانه من الخدمة ومقرّه من الحَضْرة، وامتثل أمرَ أمير المؤمنين في إنجاد أبي تَغْلِب بجَمْعٍ كثيفٍ من الرِّجال، الذين يصلحون للقاء الرُّوم، وبالأبطال المختارة من طوائف الأعراب والأكراد، فتوافت هذه الجموع إليه، وتكاثرت لديه.

واتّفق المجرَّدون من الحَضْرة على استنفاد الوُسْع والنُّصْرة، وتوكّلوا جميعاً على ربّ العالمين، واستنجحوا بشعار أمير المؤمنين، وأثروا في الطغاة الكَفَرة، والبغاة الفَجَرة، أثراً بعد أثر، وظفروا بهم ظَفَراً بعد ظَفَر، إلى أنْ خَتَم الله بوُرود الكتب مقتصّاً فيها حال غزاة بعض أصحابنا بنواحي مُوش وطَرُون[1]، وأنهم وَرَدوا منها بلاداً قد اغترّ أهلُها بوُعورة مَسالكها، وخُشونة مَناهجها، وظنّوا أنّ الأمد في بلوغها بعيد، والوصول إليها شاقّ شديد، فأدال الله منهم، وجعل الدّائرة عليهم؛ فمُلكوا قسراً وقهراً، وبولغ فيهم

(١) مُوش: بلدة بناحية خلاط بأرمينية، وطَرون: موضع بأرمينية أيضاً. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٣، ج٥، ص٢٢٣.

قتلاً وأسراً، وامتلأت أيدي المسلمين من السَّبي والرِّجال، والدواب والبغال، والأموال والأثقال، والغَنائم والأنفال، وانصرفوا غانمين سالمين، والحمدُ لله حمد الشّاكرين.

وإنّ عسكراً لأعداء الله خرج مع عُدّة من عظمائهم المعروفين بالزَّراوِرَة(١) إلى حِصْنٍ للمسلمين ببَدْليس وسَميرام قد كان شُحن بمَن يحميه، ورُتِّب فيه من الرِّجال مَن يكفيه. فلمّا نازلوه، واستحكم طَمَعهم فيما حاولوه، نَهَد(٢) لهم جميع أولئك الرِّجال، واستعانوا بالله ذي الجلال؛ فرزقهم النَّصْر عليهم، وقتلوا عدداً يفوت الإحصاء منهم، ولله الطَّوْل ومنه العون.

وتَواترت بعد ذلك على أبي تَغْلِب والمنفَذين إليه أخبارُ عسكرٍ ببطن هِنْزِيط(٣) ونَواحيه، ومعبر الفرات وما يليه، وذكر كثرةُ عَدده وعُدده، وعِظم حَشِده ومَدده، فأنفذ أخاه هبة الله بن ناصر الدَّوْلة في معظم الرِّجال الذين أمدّه بهم عِزّ الدَّوْلة – رعاه الله – إذ كانوا أقوى تلك الطّوائف المجتمعة لديه، وأولاها بعائدة النَّصْر والظَّفَر عليه، وفيمَن انضوى إليهم من قبائل الأعراب وصَناديدها، وفُتّاك الأكراد وصَعاليكها، وساروا بصُدورٍ منشرحة، وآمالٍ منفسحة، ووَردوا ظاهرَ آمد يوم الثلاثاء لثلاث ليالٍ بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وستّين وثلثمائة، فعرفوا صحّة خبر الدُّمُسْتُق – لعنه

(١) الزراورة: البطارقة، وهم كبراء الرُّوم. قال ابن حوقل: «وهم كثرة لا يحصون كالقوّاد اللّاحقين بالأمراء. صورة الأرض، ج١، ص١٩٦. وانظر: الزبيدي، تاج العروس (زرر)؛ مقال (السراسرة أو الزراورة) بغداد سلسلة، مجلة المقتبس، العدد ٦٦، لسنة ١٩١١.

(٢) نَهَد القوم لعدوّهم: صمدوا له وشرعوا في قتاله. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٣٠ (نهد).

(٣) هِنْزِيط: من الثغور الرُّومية. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٤١٨. وله ذكرٌ في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني.

الله – وحصوله على أفواه الدّروب في خمسين ألف رجلٍ، منهم عشرون ألفاً من المدبّجة، وذوي المراتب المقدّمة، وتلوَّم أصحابنا بها يريحون، والكفرة على مسافة يومٍ منهم مقيمون، مرّةً تقدّم بهم الآجال، ومرّة تحجم بهم الأوجال. ثم تدانى الفريقان، والتقت حلْقتا البِطان[1] في يوم الجُمُعة الذي ختم الله به شهر الصيام، وحتَّم فيه بالظهور للإسلام، فثبت الطغاة اغتراراً بوفور عددهم، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالمخنَّق، وصدقوهم القتال في المعترك الضيّق.

فلمّا استعرت الملحمة، وعَلَت الغَمْغمة، ودارت رحى الحرب، واستحرَّ الطعنُ والضَّرْب، واشتجرت سُمْر الرّماح، وتصافحت بيضُ الصِّفاح، تداعى الأولياءُ بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفارُ بالوَيْل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدّين في الهزيمة، واعتدُّوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، واستلحمتهم السُّيوف، واحتكمت فيهم الحتوف، وأخذ المسلمون منهم الثأر، وعجّل الله بأرواحهم إلى النّار.

وأُسر بعد قتل ألوفٍ منهم في المعركة الدُّمُسْتُق رئيسُ عساكرهم وقائدها، ومدبّرُ حروبهم ومرتبها، وما أخذ المسلمون قبله دُمُسْتُقاً، وذلك من غرائب النِّعَم التي بانت وتوالت في أيّام أمير المؤمنين طَلْقاً ونَسْقاً. وحصل معه المعروف بابن البلَنطُس[2] وهو طَريدُه في الرئاسة، ورَسيلُه في السياسة، وجماعةٌ من البَطارقة والزَّراورة، والأَراخِنة[3]

---

(١) تقول العرب: التقت حلْقتا البِطان. البِطان حزام يُجعل تحت بطن البعير، وفيه حلقتان. فإذا التقتا فقد بلغ الشدّ غايته. مثل يُضرب في الحادثة إذا بلغت النِّهاية. الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص١٨٦.

(٢) الضبط من: ر.

(٣) أرْخُن أو أرْخون: كلمة يونانية تعني حاكم، قائد، رئيس. قاموس المصطلحات الكنسية (أرخن).

والطَّراخنة[1]، قد أذلّهم الله بوَثاق الأسْر، وأذاقهم وَبال الكفْر، وأفاءَ على أوليائه الصّالحين من الخيل والسّواد والأسلحة والأسلاب، ما ازدادت به قوتهم، واشتدّت معه شوكتهم، وانبسط أهل الثغور في جَمْع غَلّاتهم مستبشرين، وانتشروا في مَسالكهم ومعايشهم آمنين مطمئنين.

ونفذ كتابُ أمير المؤمنين إلى أبي تَغْلِب بن ناصر الدَّوْلة، وكتاب عِزّ الدَّوْلة أبي منصور - تولّاهُ الله - إليه وإلى مَن كان أنجده بهم بالإحْماد على ما عملوه سالفاً، والإرشاد إلى ما يعملونه آنفاً، وأنْ يتناهوا في التوثّق من عدوّ الله الدُّمُسْتُق ومن قَرينه ابن البلَنطُس، والوجوه المأخوذين معهما، المأسورين بأسرهما، وإنْفاذ رؤوس مَن قُتل من الأكابر، دون مَن يفوت الإحصاء من الأصاغر؛ ففعلوا ذلك.

ووَرَد مدينةَ السَّلام من هذه الرؤوس العددُ الكثير الذي امتلأت به العيونُ قُرّةً، والصّدورُ شفاءً ومَسرّة، فالحمدُ لله الذي أنجز وعده، وأعزَّ جنده، وجعل راياتِ أمير المؤمنين منصورةً، وعُداته مقهورة، وهو المسؤول إتمام ما أسدى من عارفةٍ ومِنّةٍ، وإسباغ ما أولى من موهبةٍ ونعمة.

أعْلَمك أمير المؤمنين ذلك لتأخذَ - حفظك الله - بحظِّك الوافر منه، وتضرب بسَهْمك الفائز فيه، إذ كان نتيجة تدبير عِزّ الدَّوْلة - أمتع الله ببقائه - الذي فَضْلُه منسوبٌ إليك، وجمالُ أثره عائدٌ عليك، ولتتقدّم بإشاعتِه وإذاعتِه، والتحدّث به وإفاضته، والكتاب بشرحه إلى الأعمال التي تَليك، والأطراف المتّصلة بنَواحيك، فيشترك الخاصّ والعامّ في الجذَل به، ويستوي القاصي والدّاني في الابتهاج له، إنْ شاء الله.

(١) الطَّراخنة: الأشراف. دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٨، ص٣٠.

وكَتَب في هذا المعنى
عن عِزّ الدَّوْلة أبي منصور ابن مُعِزّ الدَّوْلة
إلى رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - ومَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءهُ وأدامَ علاءه - على أفضل ما أولاه الله من نَفاذ الأمر وعلوّه، وعزّ السُّلْطان وسُموّه، ونَصْر الأولياء وظُهورهم، ونَكال الأعداء وثُبورهم، وأنا متعلّقٌ بالعُرْوة الوثقى من طاعته، متمسكٌ بالعِصْمة الكبرى من مُشايعته، مكنوفٌ بظَليل ظلّه، وجميل رأيه، محفوفٌ بغامر طوله، وجزيل حِبائه. والحمدُ لله حمداً يقضي الحقّ ويؤدّيه، ويستديم الصُّنعَ ويَمْتريه.

وقد عوَّد الله مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه، وكَبَت أعداءه في سائر أغراضه ومَراميه، وأنحائه ومَغازيه - إحراز الغاية من مُراده، وتطبيق المَفْصِل[٢] من اعتماده، وتذليل صعاب الخطوب إذا عزَّت وأعضلت[٣]، وتنوير دَياجيها إذا اعتكرت وأشكلت، ورَدّ صدور الطّغاة المدلّين بالنجدة والبأس، وعكس رُؤُوس البغاة المتمادين في الإباء والشِّماس، حتى يستبيحَ نُفوسهم وذَراريهم، ويقوّض عُروشهم ومَبانيهم، ويتملّك مَعاقلهم ودِيارهم، ويفتتح مَعاصمهم وأعصارهم[٤]، وذلك بظلّ الله الممدود

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب.

تتعلّق هذه الرسالة بالأحداث التي مرت في الرسالتين اللتين سبقتاها.

(٢) يقال للبليغ من الرِّجال: طبّق المَفْصِل. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٦٨٩ (قلب).

(٣) عضّل الأمر، وأعضل: صَعُب. ابن دريد، الاشتقاق، ص١٧٨.

(٤) العَصَر والعُصْر والعُصْرة: الملجأ والنجاة. وعَصَر بالشيء واعتصر به: لجأ إليه. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٥٨٠ (عصر).

عليه، وإحسانه المتّصل إليه، ونِعَمه المطيفة به، ومِنَحه المسبّبة له، وبما عرفه - جلّ وعزّ - من طائر مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة الأيمن السَّنيح، وسَعْيه الأَرْشدِ الرَّبيح[١]، وطالِعه السَّعيد الحميد، وتدبيره المنتظم السَّديد، واجتهادي في الخدمة التي أنا فيها سالكٌ سَنَنه وسَبيله، وقافٍ أثره ودليله، وبانٍ على أصوله وعقوده، وحاذٍ على أمثلته وحدوده، والله يهنيء كلاً من أمير المؤمنين وسَيّدنا الأمير رُكْن الدَّوْلة جليل ما منح وأولى، ويبارك له في جزيل ما وهب وأعطى، ويصل أيّام بقائهما، ويديم مُدّة علائهما، ولا يعدمهما دُرور أخلاف العوائد عليهما، وتتابع مواد الفوائد إليهما، ولا يخليني فيما أنوب عن مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة فيه، وأحمله من صَنائعه وأياديه، من توفيقٍ يقرّب منه، ومعونةٍ تحظى عنده، ونهوضٍ بفريضة شكره، واستقلالٍ بتأدية حقّه، بمشيئته وإذنه وقُدْرته ومَنّه.

وقد عرف مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - الحال التي كانت في انتهاز عظيم الرُّوم الفرصة أيّام مُقامي بواسِط، وبُعدي عن الحَضْرة، واهتباله من أبي تَغْلِب فَضْل الله بن ناصر الدَّوْلة الغرّة مع طول الشقّة بيننا، إذ استدعى النُّصْرة، وإطلاله عليه بالجموع الزّائدة العدد، الوافرة المدد، التي حفزه أمرها عن انتظار الأنجاد، ولم يكن له قِبَلٌ بها مع التوحّد والانفراد، وأنّ ذلك اللَّعين دوَّخ ما في يده من أعمالنا متولّجاً، وأمعن فيها متوغّلاً مُتَلَجْلِجاً، حتى انتهى إلى نَصِيبِين، ونكأ فيمَن بها من المسلمين والمعاهَدين، وانصرف وهو للعَوْد إليها معتقد، وبالكرّة عليها متوعّد.

ولما وَرَدت كُتبُ أبي تَغْلِب - أيّده الله - بشكوى هذه الحال إلى مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه، وأعزّ نصره - وإليَّ، والتماس النجدة منه - أدام الله سُلْطانه - ومنّي، أمرني - أعلى الله أمره - بتقديم الانكفاء، وتعجيل الانثناء؛ فبادرتُ فيمَن

---

(١) ر: الزنيح (مجودة).

برَسْمي من جيوشه الموفورة، وعساكره المنصورة، وأجبتُ أبا تَغْلِب عن الاستصراخ بما يشدّ منه ويشجّعه، وأعلمته أنّ الإصراخ يتلوه ويتبعه. ثم أنهضتُ إليه من أصناف الرِّجال المختارين، والأبطال المنتخبين، مَن يصلح لمقارعة الطّاغية، ويغني في لقاء تلك الفئة الباغية، وأضفتُ إليهم من فُتّاك الأعراب وفُرسانهم، وصَعاليك الأكراد وشُجعانهم مَن قويت بهم مُنّتُه، وتضاعفت معهم عدّتُه، فاستأنف حينئذٍ أمره استئناف المفرِخ[1] رَوْعه، المنشرح صدره، القويّ قلبه، الثابت لبّه. وسار إلى ديار بكْر فيمَن برَسْمه من بني أبيه، وطوائف أولياء أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - التي تليه، ومَن أنفذته من المدد الذي توافى إليه، وتكاثف لديه، وسهّل الله للجماعة من نجاح المطالب، وبلوغ المآرب، والاعتلاء والظهور، وشفاء النُّفوس والصدور، ما تتابعت به الأنباء، وعظمت معه النَّعْماء، وأرانا الله فيه حسن العواقب والتوفيق، والرأي الزَّنيق[2]، والتدبير المنتظم، والترتيب الملتئم.

ولم يزل ذلك يستمر بهم إلى أنْ كانت الوقعة العظمى بينهم وبين دُمُسْتُق الرُّوم المشتمل على أمورهم، والقائد لجيوشهم، والنائب عن عظيمهم في مهمّاته، والقائم مقامه في ملمّاته، وأجْلت بعد تنازل الأبطال، وتعارك الرِّجال، واضطرام الحرب، واشتجار الطَّعن والضَّرْب، عن ظَفَر الأولياء البَرَرة، وهزيمة الأعداء الفَجَرة، وعلوّ راية المسلمين، وتنكّس راية الكافرين، وحصول هذا الدُّمُسْتُق وطَريدٍ له في الرتبة يُعرف بابن البلَنطُس وجماعةٍ من متقدّميهم وكُبرائهم، وأماثلهم وعُظمائهم قد اشتمل عليهم الأسْر، وأحاطت بهم رِبْقة القَسْر، وأمكن الله أصحابَنا من نَواصيهم، وأنالهم أقصى الأماني فيهم، واستمرارهم بعد ذلك فيما أحلّوه بالباقين من قتلٍ عظيمٍ ذَريع،

---

(١) أفرخ الأمر: استبان بعد الاشتباه، وأفرخ روعه: سكن جأشه. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٣ (فرخ)؛ وانظر: الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص٨١.

(٢) الزنيق: الرصين المحكم. الثعالبي، فقه اللغة، ص١٦.

وعذابٍ أليمٍ وَجيع، وفيما حازوه من السَّبي والكُراع، والأمتعة والأسلاب.

وأسرعت إلينا كُتُب أبي تَغْلِب – أيّده الله – مبشّراً بهذا الفَتْح العظيمُ قدرُه، الجليلُ خطرُه، ومثنياً على أصحابنا أحسن الثناء، وواصفاً ما كان لهم من مواقف الغَناء، وواعداً بإنْفاذ ألف رأسٍ من رؤوس الأكابر، دون مَن يفوت الإحصاء من رؤوس الأصاغر، فلمذهبي – أيّد الله مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة – في ترك العجلة إلى مكاتبته بما يجري هذا المجرى إلّا إذا وَرَدت به كُتُب أصحابنا، ووفدت فيه رُسل ثقاتنا، توقفتُ انتظاراً، وتأنّيتُ استظهاراً، إلى أنْ كتبوا بمثل الحكاية التي تقدّم ذكْرها.

وأنفذ أبو تَغْلِب – أيّده الله – الرؤوس التي سبق وعدُه بها، فشُهرت بمدينة السَّلام، وأعزّ الله بذلك الإسلام، وكثر الدّعاء لمَوْلانا أمير المؤمنين ولسَيِّدنا الأمير رُكْن الدَّوْلة بأنْ يثيبهما الله أجزل ثوابه، ويجازيهما أفضل جزائه، ويتوخّاهما بالصَّوْن، ويمدّهما بالعَوْن، ويتولّاهما في عزائمهما بالصَّلاح، وفي مَساعيهما بالنّجاح، وفي أوليائهما بالعز والنَّصْر، وفي أعدائهما بالذلّ والقَهْر، والله يسمع دعاءهم، ويجيب نداءهم، ويهنّىء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة هذه البشرى، والنِّعْمة الكبرى، ويوفقه للشكر عليهما الدّاعي إلى اتّصال أمثالهما، ويجعلهُ في حِرْزه الحريز، ويمدّه بنَصْره العزيز، ويؤيّده في الأمور أجمل التأييد، ويمكّن له فيها أتمّ التّمكين، بجُوده ومَجْده، وحَوْله وطَوْله.

وقد أمر مَوْلانا أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – بمكاتبة سَيِّدنا الأمير رُكْن الدَّوْلة – أدام الله نعماءه – باقتصاصٍ لهذا الفَتْح طويل، وشرحٍ له وتفصيل؛ فكُتب عنه – أيّده الله – بما كتابي هذا ينفذُ بنفوذه، ويصل بإذن الله بوصوله. فإنْ رأى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – أنْ يأمر – لا زال أمرُه عالياً، وسُلْطانُه سامياً – بتعريفي وُصول ما صدر من ذلك إلى حضرته، وما يبلغه في إبهاجه ومسرّته، فَعَل إنْ شاء الله.

نُسْخة كتابٍ إلى المطيع لله
عن عِزّ الدَّوْلة أبي منصور
عند دخوله الموصل وانهزام أبي تَغْلِب بن حَمْدان عنها
في سنة ثلاثٍ وستّين وثلاثمائة[1]

لعبدالله الفَضْل الإمامِ المطيع لله أمير المؤمنين
من عَبدِه وصَنيعتِه عِزّ الدَّوْلة ابن مُعِزّ الدَّوْلة
مَوْلى أمير المؤمنين

سلامٌ على أمير المؤمنين ورحمةُ الله، فإنّي أحمدُ إلى أمير المؤمنين اللهَ الذي لا إلهَ إلّا هو، وأسألُهُ أنْ يصلّيَ على مُحمّدٍ عَبْدِه ورسولِه صلّى الله عليه وسلَّم. أمّا بعد،

أطال الله بقاء مَوْلانا أمير المؤمنين، وأدامَ له العزَّ والتأييد، والتوفيقَ والتَّسديد، والعُلوَّ والقُدْرة، والظُّهورَ والنَّصْرة، فالحمدُ لله العليِّ العظيمِ، الأزليِّ القديمِ، المتفرِّدِ بالكبرياءِ والملكوتِ، المتوحّدِ بالعظمةِ والجبروتِ، الذي لا تحدّه الصفاتُ، ولا تحوزُه

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب (وعنده مُعزّ الدَّوْلة بدلاً من عِزّ الدَّوْلة)، سيلي أوك. وأورد نصّها القلقشندي في كتابيه: صبح الأعشى، ج٦، ص٤٧٤؛ مآثر الإنافة، ج٣، ص٢٨٤، والتاريخ منه.

تعود هذه الرسالة إلى سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م، خلال الصراع الدائر بين الأمراء الحمدانيين. وكان سبب ذلك استنجاد حمدان بن ناصر الدَّوْلة وأخيه إبراهيم بعز الدَّوْلة بَخْتِيار بن مُعِزّ الدَّوْلة ضد أخيهما أبي تغلب، فقد وعداه بالطّاعة والولاء، إن هو نصرهما، فسار إلى الموصل لنصرتهما. انظر تفصيلات تلك الأحداث عند: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣١٣.

الجهـاتُ، ولا تحصـرُه قـرارةُ مكـانٍ، ولا يغـيّرهُ مـرورُ زمـانٍ، ولا تتمثّلـهُ[١] العيـونُ بنواظرها، ولا تتخيّله[٢] القلوبُ بخواطرها، فاطرِ السمواتِ وما تُظلُّ، وخالقِ الأرضِ وما تُقلُّ، الذي دلَّ بلطيفِ صَنْعتِه على جليل حكمتـه، وبـيَّنَ تجـلّيَ بُرهانـه عـن خَفـيِّ وُجدانِه، واستغنى بالقُدْرة عن الأعوانِ، واستعلى بالعزّةِ عن الأقْرانِ، البعيـدِ عـن كـلِّ مُعادِلٍ ومضارعٍ، الممتنعِ على كلِّ مُطاولٍ ومُقـارعٍ، الـدّائمِ الـذي لا يـزولُ ولا يحـولُ، العادلِ الذي لا يَظْلمُ ولا يجورُ، الكريمِ الذي لا يضـنُّ ولا يَبْخـلُ، الحلـيمِ[٣] الـذي لا يَعْجلُ ولا يَجْهل، ذلكم الله ربّكم فادعوه مخلصين له الدِّين[٤]، منزل الرحمة على كلِّ وليٍّ توكّل عليه، وفَوّض[٥] إليه، وائتمر لأوامره، وازدجر بزواجره، ومُحلِّ النقمة بكل عـدوٍّ صدَّ عن سَبيله وسَـنَنِه، وصـدفَ عـن فرائضِـهِ وسُـنَنِه، وحـادّه[٦] في مَكْسـبِ[٧] يـدِهِ، ومسعاةِ قَدمِه، وخائنةِ عينِه، وخافيةِ صدرِهِ، وهو راتعٌ رتعـةَ الـنَّعَمِ السّـائمةِ في أكـلاء النِّعَم السّابغة[٨]، جاهلٌ جَهْلَها بشكر[٩] آلائِها، ذاهلٌ ذُهُولَها عن طرقِ اسـتيفائِها، فـلا يلبثُ أنْ يَنْزِعَ سرابيلَها صاغراً، ويتعـرَّى منهـا حـاسراً، ويَجعـلَ اللهُ كيـدَهُ في تضـليل،

(١) س: تمثله.
(٢) س: تحيله.
(٣) ف، س: العليم.
(٤) تأثر بأسلوب القرآن الكريم.
(٥) س: وفضل فوض.
(٦) حادّه: عَصاه وشاقّه وأغضبه. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص١٤١ (حدد).
(٧) س: تكسّب.
(٨) س: السابقة.
(٩) س: شكر.

ويُـــوْرِدَهُ شرَّ المـــوردِ[١] الوَبيـــلِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢]، و﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[٣].

والحمدُ لله الذي اصطفى للنبوّةِ أحقَّ عِبـاده بحمـلِ أعبائهـا، وارتـداءِ ردائهـا[٤]، مُحمّداً – صلّى الله عليه وسـلَّم – وعظّـم خطـرهُ وكرمـهُ، فصـدَعَ بالرِّسـالة، وبـالَغَ في الدّلالةِ، ودعا إلى الهِداية، ونجا من الغِواية، ونَقَل النّاس من[٥] طاعةِ الشيطانِ الـرَّجيم، إلى طاعةِ الـرَّحمنِ الـرَّحيمِ، وأعْلقهـم بحَبْـل[٦] خـالِقِهم ورازِقِهـم، وعِصْـمةِ مُحْيِيهم ومُميـتِهِمْ، بعـد انتحـالِ الأكاذيـبِ والأباطيـلِ، واستشـعار المحـالاتِ والأضـاليلِ، والتهوّر[٧] في الاعتقاداتِ الذائدةِ عن النَّعيم[٨]، السّابقة إلى العـذابِ الألـيم؛ فصـلَّى الله عليه من ناطِقٍ بالحقّ، ومُنقذٍ للخَلْقِ، وناصِحٍ للربِّ، ومُؤَدٍّ للفَرْضِ، صلاةً زاكيةً ناميةً، رائحةً غادِيةً، تزيْدُ عـلى اخـتلافِ اللَّيْـل والنَّهـارِ وتعاقُـبِ الأعْـوامِ والأدْوار، وسـلّم كثيراً[٩].

---

(١) ف: الموارد.

(٢) سورة يونس، من الآية ٨١.

(٣) سورة يوسف، من الآية ٥٢.

(٤) ف: فارتدى بردائها.

(٥) س، ر: عن.

(٦) س، ر: بحبائل.

(٧) س، ر: التهول. والتهوّر هو الوقوع في الشيء بقلّة مبالاة وغير رويّـة. وفي نصّـي القلقشـندي: التهـوك. والتهـور والتهـوك بمعنـى واحـد. ابـن منظـور، لسـان العـرب، ج١٠، ص٥٠٨ (هوك).

(٨) بعدها في ف: المقيم.

(٩) التسليم من ب فقط.

والحَمْدُ لله الذي انتجبَ أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – من ذلك السِّنْخِ[١] الشّريفِ، والعُنْصرِ[٢] المُنيفِ، والعِتْرة[٣] الثّابتِ[٤] أصْلُها، الممتدِّ ظِلُّها، الطَّيّب جَناها، الممنوع حِماها، وحازَ له مواريثَ آبائه الطّاهرين – صلواتُ الله عليهم أجْمعين – واخْتصَّهُ من بينهم بتطاوُل[٥] أمْد الخِلافَةِ، واستحصافِ حَبْلَها[٦] في يدِه، ووفّقَهُ لإصابة الغَرضِ منْ كلِّ مَرْمىً يرميه، ومقْصدٍ يَنْتحيه، وهو – جلَّ ثناؤُهُ – الحقيقُ بإتمام ذلك عليه، والزيادةِ فيه لديه.

وأحمدُهُ سبحانَهُ حمداً أبتدئهُ ثم أعيد، وأكرّره وأستزيد، على أنْ أهّل رُكْن الدَّوْلة أبا علي، وعَضُد الدَّوْلة أبا شُجاع وَليّي[٧] أمير المؤمنين، وأهّلني للأثرةِ عنده – أيّده الله – التي بَذَذْنا[٨] بها الأكفاءَ، وفتنا فيها القُرَناء، وتقطّعتْ دُونها أنفاسُ المنافِسين، وتَضرَّمتْ عليها أحْشاءُ الحاسِدين، وأنْ أولاني في كلِّ مغزىً في خدمةِ أمير المؤمنين أغْزوهُ، ومنحىً أنْحوهُ، وثأيٍ[٩] أرأبه، وشعثٍ ألمّه، وعدوٍّ أرغمه، وزائغٍ أقومُه، أفضل

---

(١) ف، ر: العنصر. والسِّنْخ: الأصل من كل شيء. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٦ (سنخ).

(٢) في الأصول الخطية: والقصر.

(٣) س: القنو، ر: العتوة، ثم صححها ناسخها: العقوة.

(٤) في الأصول الخطية: والثابت.

(٥) س: بتطال.

(٦) س: جعلها.

(٧) ر، س: مولى.

(٨) ف: رزذنا، ر: ندذنا، س: مددنا. ولعل الأصح ما أثبتناه.

(٩) الثأي: الإفساد كلّه، أو الجراحات والقتل ونحوه من الإفساد. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص١٠٦ (ثأي).

ما أولاهُ عِباده السّليمةُ غيوبُهم، النّقيّةُ جيوبُهم، المأمونةُ ضمائرَهم، المشحوذةُ بصائرُهم، من تمكين يدٍ، وتَثْبيتِ قدمٍ، ونُصرةِ رايةٍ، وإعلاءِ كلمةٍ، وتقريب[1] بُغيةٍ، وإنالة مُنيةٍ، وكذاك[2] يكون مَن إلى ولاءِ أمير المؤمنين اعتِزَاؤُه، وبشعارِه اعتزازه، وعن زنادِه قَدْحُه، وفي طاعته كَدْحُه، والله وليٌّ بإدامةِ ما خوَّلنيهِ من هذه المنقبة، وسوّغنيه من هذه الموهبة، وأنْ يَتوحَّدَ أمير المؤمنين في جميع خَدَمهِ الذّابّين[3] عن حَوْزتِه، المهيبينَ إلى دَعْوته؛ بيُمن الطّائر، وسَعادة الطّالع، ونَجاحِ المطلب، وإدراكِ المأرب[4]. وفي أعْدائه الغامِطينَ لنعمتِه، النّاقضينَ مواثيقَ بَيْعتِه، بإضراعِ الخدِّ[5]، وإتعاس الجدِّ[6]، وإخفاقِ الأملِ، وإحْباط العَمَل، بقُدْرته.

ولم يزلْ مَوْلانا أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – يُنْكرُ قَديماً من فَضْل الله بن ناصر الدَّوْلة أحْوالاً حقيقاً مِثْلُها بالإنْكارِ، مُسْتحقّاً مَن ارتكبَها للإعْراض. وأنا أذهبُ من حفظِ غيبِهِ، وإجمالِ مَحْضرِهِ، وتمحّل حُجَجِهِ وتَلْفيقِها، وتَأْليفِ معاذيرِهِ وتنميقِها، مَذْهبي الذي أعمُّ به كُلَّ مَن جَرَى مجراه من ناشىءٍ في دَوْلته، ومُغتذٍ بنعمته، ومنتسبٍ إلى ولايته، ومشتهرٍ[7] بصنيعتِه.

وأقدّرُ أنْ أسْتَصْلحهُ لأمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – وأصْلحه لِنَفْسه، بالتَّوقيف على مَسالكِ الرَّشاد، ومَناهج السَّداد، وهو يُريني أنْ قد قَبِلَ وارْعَوى، وأبْصَرَ

(١) س: تصويب.

(٢) ف: كذلك.

(٣) س: الذائبين.

(٤) ر، س: الأرب.

(٥) أي: بتذلله.

(٦) ف، س: أنفاس. والجد: الحظ.

(٧) س: اشتهر.

واهتدى، حتى رغبتُ إلى أمير المؤمنين – أدام الله عِزّه – فيما شفَّعني مُتَفضِّلاً فيه، من تَقْليده أعمال أبيه، والقَنَاعة منْه في الضّمان بميسورِ بَذْله، وإيثارِه به على مَن هو فَوْقَهُ من كُبراء إخوته وأهْلِهِ.

فلمّا بَلَغ هذه الحال ألطّ[1] بالمالِ، وخاس[2] بالعَهْد، وطرّق[3] لفَسْخ العَقْد، وأجْرى إلى أُمورٍ كَرِهْتُها، ونفِد الصَّبْرُ منّي عليها، وخِفْتُ أنْ أستمرَّ على الإغضاءِ عنها، والمسامحةِ فيها، فيطّلِعُ اللهُ منّي على إضاعةِ الاحتياطِ في أمرٍ قلّدني أميرُ المؤمنين – أطال الله بقاءه – زمامَهُ، وضمّنني دَرْكه، وإرخاء لبب رجلٍ فَيِّل[4] في الاعتمادِ عليه رأيي، وعوّل في أخذِه بما يَلْزمهُ على نَظَري واستيفائي؛ فتناولتُهُ بأطْراف العَذل ملوِّحاً، ثم بأثباجه[5] مُفْصِحاً مُصرِّحاً[6].

ورسمتُ لعبدِ أمير المؤمنين النّاصِح[7] أبي طاهر[8] أنْ يجد[9] به وبوُسطائه وسُفَرائه في حالٍ، ويَدخلُ عليه من طَريق المَشُورة والرِّفْق في أُخرى، ويَنتقِلُ معه بين الخشُونةِ التي يَقفو فيها أثري، واللّينِ الذي لا يجوزُ أنْ يُحسّه منّي، تقديراً لانثنائه، وزَوال التوائه، فَفَعلَ ذلك على رَسْمِهِ، في التّأتّي لكُلِّ فاسدٍ حتى يُصْلَحَ، ولكلِّ آبٍ

---

(١) لطَّ الشيء: سَترَهُ وأخفاه ومَنَعهُ. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٣٨٩ (لطط).

(٢) خاس بعهده: غدر وخان. ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٧٥ (خيس).

(٣) ساقطة في س.

(٤) ف، س وكذلك في نصّي القلقشندي، قبل. فَيَّل رأيه: ضعّفه، فهو فيل الرأي والفراسة. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٥٣٥ (فيل).

(٥) ثَبَجُ كل شيء: معظمه ووسطه وأعلاه. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٢١٩ (ثبج).

(٦) ف: ومصرحاً.

(٧) س: الناصر.

(٨) هو الوزير مُحمّد بن بَقيّة.

(٩) س: يحد.

حتى يَسْمَحَ. ولم يَدعِ التّناهي في وَعْظِه، والتّمادي في نُصْحِه، وتَعْريفه سُوءَ عاقبةِ اللِّجاج، ومغبّةِ الإحراج، وهو يزيدُ طمعاً في الأموالِ وشَرَهاً، وعمىً في الرأي وعَمَهاً، إلى أنْ كاد أمرُنا معه يخرجُ عن حدِّ الانتظارِ إلى حدِّ الرِّضا بالأضرار، فاستأنفتُ ادّراعَ الحزم، وامتِطاءَ العزْم، ونهضتُ إلى أعْمال الموصِلِ، وعندي أنّه يُغنيني عن الإتمام ويتلقّاني بالإعتاب، وينقاد إلى المرادِ، وتجنّبِ طرق العناد[١]، فحين عرف خبر[٢] مَسيري، وجدّي فيه وتَشْميري، بَرَز بُروزَ المخالفِ المكاشِف، وتَجرَّد تجرُّد المواقع المواقف[٣]، وهو مع ذلك إذا ازْدَدْتُ منه قُرْباً، ازْداد عنّي رعباً، وإذا دَلَفتُ إليه ذراعاً، نكِصَ عنّي باعاً.

وتوافَت إلى حَضْرتي وُجوهُ القبائل من عُقَيل وشَيْبان وغيرهما، في الجمع الكَثيف من صَعاليكهما، والعَدَدِ الكثير من صَناديدهما، داخلين في الطّاعة، مُتَصرّفينَ في عَوارض الخدمة. فلمّا شارفتُ الحديثة[٤]، انْتقضَتْ عزائمُ صَبْره، وتقوَّضتْ دعائمُ أمْرِه، وبطلتْ أمانيُّه ووَساوسُه، واضمحلّتْ خَواطرُه وهَواجِسُه[٥]، واضْطربَ عليه من ثقاته وغِلْمانه مَن كان بهم يَعْتَضِدُ[٦]، وعليهم يَعْتمِدُ، وبدأوا بخذلانه، والأخذِ لنفوسِهم ومفارقتِه، والطَّلب بحظوظِهم[٧].

(١) س: طرف العماد.

(٢) ساقطة في س.

(٣) س: المخالف.

(٤) بليدة في الجانب الشرقي من دجلة، قرب الزاب الأعلى. وهي حَديثة الموصل، لا حَديثة الأنبار. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٠.

(٥) س: مواجهته، وسقطت الواو في ف.

(٦) ف: يعتقد.

(٧) ف: لحظوظهم.

وحَصَل بحضرتي منهم إلى هذه الغاية زهاءَ خمسمائة[١] رجلٍ ذوي خيلٍ مختارة، وأسْلحةٍ شاكيةٍ[٢]، فصادَفُوا عندي ما أمّلوا من فائضِ الإحسانِ، وغامرِ الامتنانِ، وذكروا عمّن وراءهم من نظرائهم التَّنَزِّي[٣] إلى الانجذاب، والحرصِ على الاستئمان، وأنّهم يَرِدونَ ولا يتأخّرون، ويبادِرُونَ ولا يتلوّمون. ولمّا رأى ذلك لم يملكْ نَفْسهُ أنْ مضى هارباً على طريق سِنْجار[٤]، منكشفاً عن هذه الدِّيار، قانعاً من تلك الآمالِ الخائبة، والظُّنونِ الكاذبةِ، بسَلامة حُشاشةٍ، هي رهينةُ غَيِّها، وصريعةُ بَغْيها.

وكان انهزامُهُ بعد أنْ فَعَل الفِعْل السَّخيفَ، وكادَنا الكيد الضَّعيفَ بأنْ غَرَّق[٥] سفن الموصِل وعُروبها[٦]، وأحرق جِسْرَها، واستذَمَّ إلى أهلِها، وتَزَوَّد منهم اللَّعنَ المطيفَ به أين يمَّم، الكائنَ معه حيثُ خيَّمَ. ودخلتُها يومي هذا - أيّد الله أمير المؤمنين

---

(١) س: خمس ومايه.

(٢) ف: شاكة.

(٣) س: انشترى. والتنزي: سرعة المشي. الزبيدي، تاج العروس (ومز).

(٤) ف: سنجاد.

(٥) س: غرم.

(٦) العربة: طاحونةٌ تُنصب في سفينة. الخوارزمي (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)، مفاتيح العلوم، ص٩٥. أي هي الطواحين التي تعمل بقوة دفع المياه الجارية. قال ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م): «كان بالموصل في وسط دجلة مطاحن تُعرف بالعروب يقلّ نظيرها في كثيرٍ من الأرض؛ لأنها قائمة في وسط ماء شديد الجرية، موثقة بالسلاسل الحديد. في كل عربة منها أربعة أحجار، ويطحن كل حجرين في اليوم والليلة خمسين وِقْراً. وهذه العروب من الخشب والحديد. وكانت ببَلَد - المدينة التي على سبعة فراسخ منها - عروبٌ كثيرة، دارت أعمالاً وجهازاً إلى العراق، فلم يُبقِ منها شؤمُ بن حَمْدان ولا من أهلها باقية. وبمدينة الحديثة منها أعداد تعمل في وسط دجلة. وقد ملك بنو حَمْدان متاعها. ولم تُبقِ بركةُ بني حَمْدان بالموصل إلّا ستة أو سبعة منها». صورة الأرض، ج١، ص٢١٩. وقال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) في أحداث سنة ٤١٩هـ: «اشتد البرد فجمدت حافات دجلة، ووقفت العروب بعُكْبَرا عن الدوران لجمود ما حولها». المنتظم، ج١٥، ص١٩١.

- دُخولَ الغانم[١] الظّافر، المُستعلي الظّاهر، فسكّنتُ نفوسَ سكّانِها، وشرحتُ[٢] صُدورَ قُطّانِها، وأعلمتُهُم ما أمرني به أمير المؤمنين - أدام الله عِزّه، وأعلى أمره - من تَأْنيسِ[٣] وَحْشتهم، ونَظْم أُلْفتهم، وضمِّ نَشْرِهِم، ولَمِّ شَعثهم، وإجمالِ السِّيرةِ فيهم في ضُـروبِ مُعاملاتهـم وعُلَقهم، وصُنوفِ متصرِّفاتِهم ومعايشهم؛ فكَثُـر منهم الثّناءُ والدّعاء، واللهُ سامعٌ ما رَفَعُوا، ومجيبٌ ما سَألوا.

وأجْلَتْ حالُ هذا الجاهلِ - أيّد الله أمير المؤمنين - عن أقْبح هزيمةٍ، وأذلِّ هضيمةٍ، وأسوأ رأي، وأنْكر اختيار؛ لأنّه لَمْ يلقَ لقاءَ الباخعِ بالطّاعة، المعْتذر من سالفِ التَّفريطِ والإضاعةِ، ولا لقاء المصدّقِ لدعواه في الاستقلال بالمقارعة، المحقِّق لزَعْمه في الثَّباتِ للمدافعةِ. ولا كان في هذين الأمْرين بالبَرِّ التَّقيّ، ولا الفاجر الغَويّ[٤]، بل جَمَع بين نقيصةِ شقاقهِ وغَدْره، وفضيحة جُبْنِه[٥] وخَوَره، متنكِّباً للصَّلاح، عادِلاً عن الصَّواب، قد ذَهَب عنه الرَّشاد، وضُربتْ بيني وبينه[٦] الأسداد، وأنْزلَه اللهُ منزلةَ مِثْله ممّن أساءَ حِفْظَ الوديعة، وجِوارَ الصَّنيعة[٧]، واستوجبَ نَزْعَها منه، وتحويلَها عنه.

وتأمّلتُ - أيّد الله مَوْلانا أمـير المؤمنـين - أمـرَهُ بالتّجريـب، وتَصَفَّحتهُ على التَّقليب، فإذا هو الرَّجل الـذي أطاعَ أبـوه فيـه هـوى أمِّـه[٨]، وعصـى دَواعي

---

(١) س: القايم.

(٢) ف: انشرحت.

(٣) س: تأسيس.

(٤) ف: القوي.

(٥) س: جتلبه.

(٦) ف: بينه وبينه، س: بينه وهنه.

(٧) س: الضيعة.

(٨) المقصود هنا أن ناصر الدَّوْلة الحمْداني والد أبي تغلب كان واقعاً تحت تـأثير إحـدى زوجاتـه وهـي فاطمة بنت أحمد الكردية والدة أبي تغلب وأبي البركات وأختها جميلة، حيث كانت مالكة أمـر

رَأْيه وحَزْمه، وقدمه من وَلدِهِ على مَن هو آنسُ رُشْداً، وأكْبرُ سِنّاً، وأثبتُ جَأْشاً، وأجْرأ جَناناً، وأشجعُ قَلْباً، وأوْسعُ صَدْراً، وأجْدرُ بمخائلِ النَّجابة، وشَمائلِ اللَّبابة. فلمّا اجتمعتْ له أسبابُ القُدْرة والثروة، وأمْكنَتْهُ مناهزُ[1] الغرّة والفُرصة، وَثَب عليه وثبةَ السَّرْحانِ[2] في ثُلّةِ الضَّأنِ، وجزاهُ جزاءَ أمِّ عامرٍ لمجيرها[3]؛ إذ فَرَتْه بأنيابها وأظافرها[4]، واجتمعَ هو[5] وأخوهُ من الأمِّ، المرتضعِ معه لبانَ الإثم، المكنّى أبا البركاتِ، وليس بأبٍ لها ولا حَري بشيءٍ منها، على أنْ نشزا عنه وعقّاه، وقَبَضا عليه وأوْثَقاهُ، وأقرّاهُ من قَلْعتها بحيث يُقرّ العتاة، وتُعاقَبُ الجناة، ثم أتْبَعا ذاك باستحلالِ دمِه، وإفاضةِ مُهْجتِه، غَيرَ راعينَ فيه حقّ الأُبوّةِ، ولا حانين عليه حُنوّ البُنوّة، ولا متذمّمين من الإقدامِ على مثلِه ممّن تقدّمتْ عند سُلْطانهِ قدمُهُ، وتوكّدتْ أواصرُه[6] وعصمُهُ، ولا راحمينَ له من ضعفِ شيخوختِه، ووَهَلِ كَبْرتِهِ، ولا مُصْغين[7] إلى وصيّة الله إيّاهما به، التي نصّها في مُحكم[8] كتابه، وكرّرها في آيه وبيّناته، إذ

ناصر الدَّوْلة، ومتنفذة في دولته. ولم يكن أبو تغلب أكبر إخوته سِنّاً ولا أرشدهم، لكنه كان أجرأهم، فاتفق مع والدته وبعض إخوته على عزل أبيه والجلوس على عرشه، واعتقله في قلعة كَواشي. فاقتتل الإخوان. تفصيلات ذلك عند ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٨٢.

(١) س: مناهزة.

(٢) الذئب. الزبيدي، تاج العروس (سرحل).

(٣) أم عامر هي الضبع. وهذا مثلٌ مأخوذ من قول الشاعر:

ومَن يصنع المعروف في غير أهله ... يلاق الذي لاقى مجير أم عامرِ

في إشارة إلى غدرها لمجيرها. انظر: الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص١٤٤.

(٤) ف: أظافيرها.

(٥) من ف فقط.

(٦) س: أوامره.

(٧) س: صغير.

(٨) س: حكم.

يقول: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] وإذ يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[2] فبأيِّ وجهٍ يَلْقى اللهَ قاتلُ والدٍ حَدِبٍ[3]، قد أُمر ألّا ينهرُه، وبأيِّ لسانٍ يَنطقُ يومَ يُسأل عمّا استجازهُ فيه وفَعَله، تالله لو أنّ بمكانِهِ عدوّاً لهما قد قارَضَهما الدّخول، وقارعهما من النُّفوس لقبح بهما أنْ يلوما ذلك اللّومِ عند الظَّفرِ به، وأنْ يركبا تلك الخطّةَ الشَّنعاء في الأخْذِ بناصيتِه.

ولم يرضَ فَضْلُ الله بما[4] أتاهُ؛ حتى اسْتوفَى حدود قَطْع الرَّحِم بأنْ تتبّع أكابرَ إخوتِهِ السّالكينَ خلافَ سَبيله، المتبرّئينَ إلى الله من عظيم ما اكتسبَ، ووَخيم ما احتقَبَ، لما غضبوا[5] لأبيهم، وامتعضوا من المستحلِّ فيه وفيهم، فقَبَض على مُحمّد بن ناصر الدَّوْلة حيلةً وغيلة، وغدراً ومكيدة. ونابذَ حَمْدان بن ناصر الدَّوْلة مُنابذةً خارَ اللهُ له فيها بأنْ أصاره من فِناء أمير المؤمنين – أيّده الله – إلى الجانبِ العزيز، والحِرْز الحريز، وأنْ أجرى[6] الله – عزّ وجلّ – على يده[7] الحرب الواقعة بينه وبينَ المعروفِ بكنيته أبي البركات التي لقّاهُ اللهُ فيها نَحْسَهُ، وأتلف نَفْسَهُ، وصَرَعهُ بعقوقِه وبغيه، وقنّعهُ بعارِه

(١) سورة لقمان، من الآية ١٤.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان ٢٣-٢٤.

(٣) حَدِب: حنا وشفق. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٣٠١ (حدب).

(٤) ف: فيما.

(٥) س عضبتوا.

(٦) س: يجري.

(٧) (الله...... يده) ساقط في س.

وخِزْيه[١]، وهو مع ذاك[٢] لا يتَّعظُ ولا يتّزع، ولا يقلعُ ولا يزدجرُ، إصراراً على الجرائر التي[٣] اللهُ عنها حسيبهُ، وبها طليبهُ، والدّنيا والآخرة مُرصدتان[٤] له بالجزاء المحقوقِ عليه، والعقابِ المسوق إليه.

وأعظمُ من هذا - أيّد الله أمير المؤمنين - خطْباً، وأوْعرُ مَسْلكاً ولَحْباً[٥]، أنّ من شرائطِ العَهْدِ الذي كان عُهِدَ إليه، والعَقْدِ الذي عُقِدَ له، والضّمانِ المخفَّف مَبْلغَهُ عنه، المأخوذِ عَنْوةً[٦] منه، أنْ يتناهى في ضَبْطِ الثّغورِ، وجهادِ الرُّوم، وحفْظ الأطرافِ، ورمّ الأكناف، فما وفى بشيءٍ من ذلك، بل عَدَل عنه إلى الاستِئْثارِ[٧] بالأموالِ واقتطاعِها، وإحْرازها في مكامِنها وقِلاعِها، والضَّنّ بها دُونَ الإخراج في وجوهِها، والوَضْع لها في حقوقها، وأنْ تَراخى في أمْرِ عظيمِ الرُّوم مُهْمِلاً، واطّرح الفِكْرَ فيه مُغْفِلاً، حتى هَجَم في الدِّيار، وأثر الآثار، وقلى القلوب، وأبْكى العيون، وصَدع الأكبادَ، وأحرّ الصُّدُور، فما كان عنده فيه[٨] ما يكون عند المسلم القارىء لكتاب الله، إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ

---

(١) س: ضربة.

(٢) ف: ذلك.

(٣) بعدها في س: نهى.

(٤) س: صدقات.

(٥) اللَّحْب: الطريق الواضح. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٧٣٧ (لحب).

(٦) ف، ر: عفوه.

(٧) ف: الامتساذ.

(٨) ساقطة في س.

مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1]، بل صَدَف عن ذِكْرِ الله لاهياً، وعَدل عن كتابِهِ ساهياً، واستفسخه ذلك البيعُ والعقدُ، وتَنجَّزه الوَعيد والوَعْد، ولاطَفَ طاغيةَ الرُّوم وهاداه، وأمارَه[2] وأعطاه، وصانَعه بمال المسلمين الذي يَلْزمهُ إنْ سلم دينُه، وصحّ يقينُه أنْ ينفقه في مُرابطيهم[3]، ويذبّ عن حَريمهم، لا أنْ يعكسه عن جهته، ويلفته عن وجهته، بالنّقل[4] إلى عدوِّهم، وإدخالِ الوهنِ بذلك عليهم.

وقاد إليه من الخيل العِتاقِ ما هو عَونٌ للكفّار على الإيمانِ، ونجدةٌ للطّاغية على السُّلْطان، وكان فيما أتحفهُ به: الخمرُ التي حَظر اللهُ عليه أنْ يشربَها ويَسْقيَها، وتعبّدهُ بأنْ يَجْتنِبَها ويَحْتويَها، وصُلْبان ذهبٍ صاغها له، وتقرَّبَ بها إليه تقرّباً قد بَاعَدَهُ اللهُ فيه عن الإصابة والأصالة، وأدْناه من[5] الجهالةِ والضَّلالةِ، حتى كأنه عاملٌ من عُمّالِهِ، أو بِطْرِيقٌ من بَطارقتِهِ. فأمّا فشلُهُ عن مكافحتِهِ، ولَهَجُهُ بملاطفتِه، فضدُّ الذي أمره اللهُ به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[6]. وأمّا ما نَقَل من الخَيْل عن ديار المسلمين إلى دِيار أعْدائهم، فنَقِيضُ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ

(١) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٢) س: أمراه.

(٣) س: مرابطهم.

(٤) ر: بالنقل.

(٥) ف: إلى.

(٦) سورة التوبة، الآية ١٢٣.

﴿ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]. وأمّا إهداؤه الخمرَ والصُّلْبان فخلافُ قوله تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

كلُّ ذلك عناداً[3] لربِّ العالمينَ، وطَمْساً لمعالم[4] الدِّين، وضنّاً بما يُحامي عليه من ذلك الحُطام المجْموع من الحرام، المثمر من الآثام، وقد فَعَل الآن بي، وبالعَساكر التي معي ومَن يضمُّ من أولياءِ أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – الذين هم إخوته وصَحْبَهُ إنْ كان مُؤْمناً، وأنْصارَهُ وحِزْبَهُ إنْ كان مُوقناً، من تَوْعير[5] المسالِك، وتَغْريق العُروبِ، وتَضْييق الأقْواتِ، واسْتِهْلاكِ الأزْوادِ؛ ليُوصِلَ إلينا الضُّرَّ، ويُلْحق بنا الجَهْدَ، فِعْلَ العدوِّ المبينِ، المُخالفِ في الدِّين، فهل يَجْتَمِعُ في أحدٍ من المساوىءِ – أيّد الله أمير المؤمنين – ما اجْتَمَعَ في هذا النّادِّ العاند، والشّاذِّ الشّارد؟! وهل يُطْمعُ من مِثْله في حقٍّ يَقْضيهِ، أو قرضٍ يؤدّيه، أو عهْدٍ يرعاه، أو ذِمامٍ يَحْفظهُ، وهو لله عاصٍ، ولإمامِهِ مخالف، ولوالدِهِ قاتِل، ولرحمه قاطع؟ كلّا والله، بل هو الحقيقُ بأنْ تُثنى إليه الأعنّة، وتُشرعَ نحوه الأسِنَّة، وتُنصبَ له الأرصادُ، وتُشْحذ له[6] السُّيوف الحِدادُ، ليَقْطع اللهُ بها دابرَهُ، ويجبّ غاربَهُ، ويصرعه مصرع الأثيم المليم، المستحقّ للعذاب الأليم، أو يفيء إلى الحقّ إفاءة الدّاخل فيه بعد خروجه، العائِدِ إليه بعد مُروقه، التّائب المنيب،

(١) سورة الأنفال، من الآية ٦٠.

(٢) سورة المائدة، من الآية ٩٠.

(٣) في الأصول الخطية: عناد.

(٤) ر، س: لإعلام.

(٥) س: تعبير.

(٦) ساقطة في ر.

النازع[١] المُسْتقيل، فيكونَ حُكْمُهُ شبيهاً بحكم الرّاجع عن الردّة، المحمولِ على ظاهرِ الشَّريعةِ، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢]، فالحمدُ لله الذي هَدانا لمراشِدِنا، ووقف[٣] بنا على السُّبُل المنْجِية لَنا، والمَقاصِدِ المفْضيةِ إلى رضاه، البعيدة من سَطاه.

والحمدُ لله الذي أعزَّ مَوْلانا[٤] أمير المؤمنين بالنَّصْر، وأعْطاه لواءَ القَهْرِ، وجعلَ أولياءَهُ العالينَ الظّاهرين، وأعداءَهُ السّافلينَ الهابطين. وهنّأهُ اللهُ هذا الفتح، ولا أخلاه من أشْكالٍ له تَقْفُوهُ وتتبعُه، وأمثالٍ تَتْلوهُ وتَشْفَعُهُ، واصلاً فيها إلى ما وَصَل فيه إليه من حيازتِه، مُهنّأً لم يُسْفك فيه دمٌ، ولم يُنْتهكْ فيه[٥] محرمٌ، ولم يُنلْ فيه جهد[٦]، ولم يُمْسَسْ فيه فيه نصبٌ[٧].

أنهيتُ إلى أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – ذلك ليضيفَ صُنْعَ الله فيه إلى السّالِفِ من عَوارفِهِ[٨] عنده وأياديه، وليجدّد من شُكْرِهِ جَلَّ وعلا – ما يكون داعياً إلى الإدامة والمزيد، مُقْتضياً للعَوْن والتَّأييد، إنْ شاء الله تعالى.

وكَتَب يوم الجُمُعة لتسع ليالٍ خَلونَ من شهر ربيع الآخر، سنة ثلاثٍ وستّين وثلاثمائة.

---

(١) س: المنافع.

(٢) سورة البقرة، من الآية ٢١٣.

(٣) س: ووفق.

(٤) من س.

(٥) من ف.

(٦) س: جهداً.

(٧) س: نصباً.

(٨) ف: سوابقه.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى أبي تَغْلِب[1]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة - من مدينة السَّلام، والسَّلامة لمَوْلانا أمير المؤمنين شاملةٌ، والنِّعْمة لديه متكاملة، وأنا سالمٌ في ظلّه، مُثنٍ بفَضْله وطَوله، والحمد لله ربِّ العالمين، حمد الشاكرين المخلصين.

وقد كتبتُ إلى سَيِّدي كُتباً متتابعة، أقربها عهداً ما نفذ مع فلان، وهو مشتملٌ على الجواب عمّا كاتَبَني به، وكاتب أبا الحسين بن عرس[2] به، وجميعه مبنيٌّ على بلوغ المحبّة، المحبّة، واتِّباع الإرادة، واستسهالي ما التمس، واستقلالي ما اقترح وقد وثقتُ لأبي الحسين بذلك. ولما استقررتُ - أيّد الله سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة - بمدينة السَّلام، عرضتُ عسكره هذا، فوجدتُه - والحمد لله ربِّ العالمين - مجتمع الشمل، منتظم الأمر، متّفق الكلمة على الجهاد والنُّصْرة، والذّبّ عن الحوْزة.

وكان لجماعة الرِّجال من الدَّيْلَم والأتراك وغيرهم خَوْضٌ انتهى إلى أنْ أخذ بعضهم على بعض العهود المشدّدة، والمواثيق المؤكّدة في المرابطة والمصابرة، والمدافعة والمقارعة. وقد تجدّدت آلاتُهم، وكَثُرت أسلحتُهم، وصحّت عزائمُهم، وخَلُصت ضمائرُهم. وجرت - أطال الله بقاء سَيِّدي - بين مَوْلانا أمير المؤمنين وبيني مفاوضاتٌ ظهر منه - أيّده الله فيها - ارتماضٌ وامتعاض، وتقسم واهتمام لمحاولة الجيش المخالف ما يحاوله من الأقدام عليه، والمسير إليه.

---

(١) طهران.

تتعلّق هذه الرسالة بأحداث الرسالة السابقة.

(٢) لعلّه المذكور ج٢، ص ٤٨٠، ص٦٦٣.

وذكر سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة ذكر الواثق بنيّته، السّاكن إلى طويّته، المعتدّ به في جلّ أنصاره، ووجوه أوليائه، وألزمه ما هو لازمٌ له من التصرّف على إحكام الطّاعة له والمودّة لي، والكون في حماية البَيْضة معي، وكاتبه بما هو واصلٌ مع مهج الخادم. وندبتُ أبا سَهْل عيسى بن الفَضْل الدَّواتي للنفوذ بكتابي هذا، وتأدية ما سَمِعه منّي، ووَعاه عنّي إلى سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة، وكلّفتُ أبا عبد الله[1] بن عرس العَوْد معه، وسَيِّدي عُدّة الدَّوْلة أعرف من أنْ يُعرَّف، وأحزم من أنْ يُبصَّر. وما بالصورة التي نحن عليها خَفاءٌ عنه، ولا يذهب عليه أنّ الطّالب لي طالبٌ له، وأنّ الإفضاء من جهتي إنّما يكون إليه. وهذا أمرٌ تجتمع للسّاعي فيه طاعةُ الله تعالى، ونُصْرة الخلافة، وحراسة النِّعْمة، وحفظ المهجة، وقَضاء الحقّ، وجميل الذكر. ونحن فيما يخصّنا منه سِيّان، وليس بيننا فرقٌ إلّا أنني أوّلٌ في القصد، وهو ثان. والأحوط لنا، والأمنع لجانبنا أنْ نجتمع ونَعْصَوْصَب، وتترافد أيدينا، وتتآلف نيّاتنا في الذّبّ والدفع، والاحتماء والمنع. ومعلومٌ أنا بتفضُّل الله تعالى مع الاجتماع لا نُغلب، ومع الاتّفاق لا نُقهر، ولم يبقَ وقتٌ للانتظار، ولا موضعٌ للاصطبار؛ إذ الرحل سائر مبادر، ومتى لم يكن سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة السّابق له، والوارد قبله كانت في ذلك علينا جميعاً من المخاطرة ما لا خفاء به.

فإنْ رأى سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة أنْ يقدّم المسير من غير تثبّط ولا تأخّر، ويتأمّل ما يورده أصحابنا - أعزّهم الله - من الرّسائل، ويوصلونه من الكُتُب، ويعمل فيه الأولى، بدينه ومروءته، والأعود على نِعْمته ونِعْمتي، والأشبه بما بينه وبيني، والأجمع لنا في طاعة أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، وأعزّ نصره، فَعَل إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) كذا، وتقدم: أبو الحسين !

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى الملك عَضُد الدَّوْلة جواباً عن كتابه بفَتْح جبال القُفْص والبَلُوص[1]

كتبتُ – أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة – لليلةٍ بقيت من شهر رمضان

---

(١) فيض الله، راغب باشا.

القُفْص والبَلُوص أمّتان في بلاد كَرْمان، وجبال القُفْص جبال منيعة جنوبيّها البحر، وشماليّها حدود جيرفت وروذبار، وشرقيّها صحراء ممتدة بين القُفْص ومكران، وغربيّها البَلُوص وحدود مَنُوجان. أما البَلُوص فهم في سفح جبال القُفْص. انظر ما كتبه عنهم: الاصطخري، المسالك والممالك، ص١٦٣؛ مجهول صاحبُ كتاب (حدود العالم)، ص٤٧، ص٦٩، ص١٤٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٤٧٠، ص٤٨٤؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٤٩١، ج٤، ص٣٨٠.

في الصراع الدائر بين القوى السياسية، استولى عَضُد الدَّوْلة على كَرْمان سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م، وانتزعها من صاحبها اليسع من آل إلياس حكامها. وجعلها إقطاعاً لابنه أبي الفوارس، وعيّن عليها كوركير بن جستان. لكن القُفْص والبَلُوص جمعوا أنفسهم على حَرْب عَضُد الدَّوْلة الذي مدّ كوركير بأحد أهم قادته وهو عابد بن علي؛ فاشتد القتال، وأسفر عن نصر كبير للبويهيين، فبالغوا في القتل والأسر والسلب، وتعقبوهم يملكون عليهم بلادهم، واستقر الأمر لهم. لكن القُفْص والبَلُوص سرعان ما عادوا للتمرد؛ فسار إليهم عَضُد الدَّوْلة بنفسه؛ فأوغلوا في الهرب، والاحتماء في مضائق الجبال، فلحقهم جيش البويهيين بقيادة عابد بن علي. انظر تفصيلات ذلك عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص٤٤٨، ج٦، ص٢٨٩، ص٣٣٩، ص٣٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٧٥، ص٢٩٨. وقال أبو شجاع الروذراوري: ومن غريب مكائد عَضُد الدَّوْلة ما كاد به طائفة القُفْص والبَلُوص حين أوغل في كَرْمان حيث أدرك أنه لا يستطيع الوصول إلى تلك المضائق الوعرة، فأعمل الحيلة وراسلهم

– أعاد الله إليه أمثاله، وتقبّل فيه أعماله، وأصلح في الدّنيا والآخرة أحواله، وبلّغه منهما آماله – والأمورُ جاريةٌ على ما يؤثرُه – أيّده الله – في السَّداد والانتظام، والاستقامة والالتئام، والحمدُ لله حمداً لا تنقضي غايته ومداه، حتى يقضي حقّه ويبلغ رضاه.

ووَصَل كتابُ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة – أدام الله عِزّه – بما سَهّله الله بـه، وعلى يده، ويسّره بيُمْنه وبركته، من فَتْح جبال القُفْص والبَلُوص، وما بلغه – أدام الله علوه – من أهلها المعادين – كانوا – للمِلّة، العادلين عن سَبيل الله، حتى استنزلهم عن معقلٍ بعد معقل، واستباحهم في موئلٍ بعد موئل، وقَتل حُماتهم، وأفنى كُماتهم، وأباد خَضْراءهم وغَضْراءهم[1]، وعفّى معالمهم وآثارهم، وألجأهم إلى الإذعان، وطلب الأمان، وتسليم الرّهائن، والإفراج عن الذّخائر، والاستقامة على سواء الدِّين، والدّخول في عِصْمة المسلمين. وفهمتُهُ، وحمدتُ الله على ما منح الأمير عَضُد الدَّوْلة، حمدَ المتحقّق بما أفاء الله عليه، المغتبِط بما أزلّه إليه، المشارك له فيما يخصّه، المساهم له فيما يمسّه، ووجدتُ الأثر فيه كبيراً بمؤثّره، والتدبير جليلاً كمدبِّره. وتلك عادة الأمير – أيّده الله – في الصَّمْد للفاسد حتى يَصْلُح، وللمعتاص حتى يسمح، وعادة الله عنده في

بطلب الإتاوة، فرفضوا لعدم الأموال عندهم، فطلب من كل بيت منهم كلباً، فهان عليهم هذا الطلب وقبلوا به، فأنفذ لهم مَن عدّ بيوتهم وأخذ كلاباً بعددها. ومن شأن الكلب أن يلوذ بصاحبه، ويعود لمكانه؛ فأمر بأن تُشد في أعناقها حلق النفط الأبيض وتجتمع عند مضيق الجبل، ثم تُضرب النار في النفط ويُخلى سبيلها ويتبعها العسكر، ففعلوا ذلك وأسرعت الكلاب، كل كلب لاذ بصاحبه، فاحترق بعضهم وهرب البعض الآخر، وتبعهم العسكر واضعين السيف في رقابهم. ذيل تجارب الأمم، ص٧٥. وأسكن عَضُد الدَّوْلة مكانهم الأكَرَة والزرّاعين، فعمروا الأرض بالعمل.

(١) الغضراء: الأرض الطيبة. ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٢٣ (غضر).

المعونة الضّامنة للنجاح، الكافلة بالفلاح، فما ترد عليّ من جهته بشرى إلّا كنتُ متوقّعاً لتاليةٍ لها أخرى، ولا أستقلّ منها بشكر ماضٍ سالف إلّا ارْتَهنني بترقّب حادثٍ مستأنف، والله أسأل أنْ يُهنّئه نعمته، ويملأه موهبته، ويبلغه في الدِّين والدّنيا آماله، ويجمّل فيهما أحواله، ويجعل رايتَه منصورةً على أعدائه، صغروا أم كبروا، وكلمتَه العليا عليهم قلّوا أم كثروا، ويمكّنه من نَواصيهم سالَموا أم حارَبوا، ويقودهم إلى التّسليم له رضَوْا أم كَرِهوا، ولا أعدمه فيما اختصّه به من حِباءٍ وكرامةٍ، وظاهره عنده من إعلاءٍ وإنافة مزيداً تتصّل مادّتُه إليه، وتحلّ عائدتُه عليه بحَوْله وطَوْله، والأمير عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - وليُّ مُواصلتي بما يبهجني من أخباره، ويغبطني من آثاره، ويسرّني من عافيته، ويؤنسني من سَلامته، وأمتثله من أمره ونهيه، وأقف عنده من حدّه ورَسْمه، إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى الملك عَضُد الدَّوْلة
عن الوزير مُحمّد بن بَقيّة
في هذا المعنى(١)

وَصَل كتابُ مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - مبشّراً بما وَليه الله به من الفَتْح العظيم، والمنح الجسيم، في الإيقاع بطوائف القُفْص والبَلُوص، ومقتصّاً حالهم كانت في المقام على المعهود من كُفرهم وضلالهم، وعَيْثهم وفَسادهم، واستحلالهم ما حرّم الله من أموال أهل المِلّة والذمّة ودمائهم، وما كان بلغه - أيّده الله - في إطفاء نائرتهم، وإخماد جمرتهم، واستزلالهم عن معاقلهم، والإيغال في طلبهم، والنكاية فيهم، والإثخان لهم، حتى كفّوا ونزعوا، واتّعظوا واتّزعوا.

وافتتح - أيّده الله - من بلادهم مَنُوجان(٢)، وألجأ مَن أمهلته المنية منهم إلى

---

(١) فيض الله، راغب باشا. (العنوان فيهما : وإليه في هذا المعنى عن الوزير ابن بقية).

تتعلّق هذه الرسالة بأحداث الرسالة السابقة. وعن الوزير ابن بَقيّة قال ابن الأثير في أحداث سنة ٣٦٢هـ: وفيها عُزل الوزير أبو الفضل العَبّاس بن الحسين من وزارة عز الدَّوْلة بختار، واستُوزر مُحمّد بن بَقيّة، فعجب النّاس لذلك، لأنّه كان وضيعاً في نفسه، وأهل أوانا (قريته). وكان أبوه أحد الزراعين، لكنه كان قريباً من بَخْتِيار، وكان يتولى له المطبخ ويقدم إليه الطّعام ومنديل الخوان على كتفه، إلى أن استوزر. الكامل، ج٧، ص٣١١. ثم خدم عضد الدَّوْلة، وضمن منه مدينة واسط وأعمالها. فلما صار إليها خلع طاعة الدَّوْلة، وكاتَبَ عمران بن شاهين وطلب مساعدته؛ فأجابه إلى ما التمس. ج٧، ص٣٢٩. أخباره منتشرة في تجارب الأمم لمسكويه؛ وترجم له الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٢٢٠؛ الصفدي في كتابيه: نكت الهميان، ص٢٥٨، والوافي، ج١، ص٩٨.

(٢) من نواحي كرمان. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٥.

الأمان، فوجدوه عنده مبذولاً لمن اعتصم به، ممهّداً لمن جنح إليه، وأنهم تمسّكوا بذِمامه تمسُّكاً لم يزالوا فيه آمنين، ولعُقباه حامدين، إلى أنْ نزت بهم البِطْنة، وأدركتهم الشِّقْوة، واشتاقوا إلى العادة السيّئة، والطُّعْمة الخبيثة؛ فعادوا إلى العَيْث في البلاد، والسَّعْي في الفَساد، ونقضوا ما كانوا أمرُّوه لأنفسهم، ونكثوا فعاد النكث عليهم، وعوّلوا على التعلّق بما كان باقياً في أيديهم من جبالهم المنيعة، ومَعاصمهم الحصينة، وأنه - أيّده الله - قرّر رأيه على التوقّل فيها، وأمضى عزمه في التوغّل إليها؛ فجرّد - أدام الله عِزّه - إليهم من قُوّاده المنصورين، وأوليائه الميامين، مَن حَلّ منهم بالعقوة، ثم ناهضَهَم إلى الذروة، حتى افتُتحت تلك القلاع، وافترُعت أي افتراع، واقتسمت أهلَها بادرةُ سَطْوٍ طوّحت بجانبهم، وعائدةُ عفوٍ أبقت على مُستأمنهم، وأفضلوا إلى أنْ أعطوا بأيديهم، وسلّموا رهائنهم، واستأنفوا السُّبُل الرضيّة، وسلكوا مسالك الرّعيّة، واستقاموا على سواء الدِّين، واستشعروا شعارَ المسلمين، ووطّأ الله تلك البلاد بعد استصعابها وإبائها، وأرشد تلك الأمّة بعد كفرها وضلالها. وفهمتُه[1]، ووجدتُ هذا الفَتْح - أيّد الله مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة - أعظم الفتوح موقعاً، وأجلّها في الإسلام أثراً، لما فيه من صَلاح الجُمهور، وشفاء الصُّدور، وحَقْن الدّماء، وسُكون الدَّهْماء، وعِزّ السُّلْطان وأهل وَلايته، وذلّ الأعداء النّادّين عن طاعته، فما أبلُغ من الوَصْف لفضله، والذكر لنفعه، والإشادة له، والشكر للنعمة فيه، مبلغاً إلّا رأيتُه عن الاستحقاق مقصراً، وللزيادة في الإطناب مقتضياً، إذ كنتُ أعرف من الأمر مثل ما يعرفُهُ أهلُ حَضْرة مَوْلانا – أطال الله بقاءه – في البلوى كانت بهؤلاء القوم، وما هم مَعْروفون به من الشدّة والقوّة، والغلظة والقسوة، والاستحلال لما حرمه الله وحظره، والارتكاب لما

(١) تكملة لقوله: وصل كتاب مولانا.

نهى عنه وأكبره، فلم تكن صَعْبتهم لتذلّ، وصَعْدتهم لتعتدل، إلّا على يده، ويُمْن دَوْلته وبركة أيّامه، وسَعادة جَدّه؛ إذ كان الله - عزّ وجلّ - قد عوّده في جميع مَراميه ومُراماته، وسائر أغراضه[١] ومُعتمداته، تيسير المتعذّر، وتسهيل المتوعّر، وفَتْح الفتوح المستغلَقة، وكشف الغمم المستبهَمة، بما يتكامل له - أيّده الله - وفيه من الحظ المسببة أسبابُه، والجدّ الممرّة مرائرُه، والبأس الذي لا يُقام له، والحزم الذي لا يُبلغ مداه، والرأي الثّاقب الذي لا تخفى مكائده، وتظهر عَوائده، والتّدبير النّافذ الذي تنجح مباديه، وتبهج تواليه، ومَن وَهَب الله له ما وَهَب لمَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة من شرف الأعراق، وكرم الأخلاق[٢]، وعلوّ الهمّة، وجميل السّيرة، وأدوات الخير، وآلات الفَضْل، كان - تعالى ذكرُه - حقيقاً بأنْ يُعليه ويُظهره، ويبلغه كلّ أملٍ وأمنية، وينيله[٣] كلّ إيثارٍ ومشيئة، ويوطئه رقاب أعدائه، ويتولّاه بالإعزاز في نفسه وأوليائه، ويمهّد له في الأرض بحسب استحقاقه، وينتهي به في سعة أقطار مُلكه، وامتداد مدّته وسُلْطانه إلى أقصى غايات استحبابه.

ولولا أنّ فتوحَه الجليلة قد تواترت، وآثاره الجميلة قد تناصرت، حتى صارت كالأمر المعروف والشيء المألوف. وكان - أدام الله عِزّه - بسامي قدره وعالي خطره، يجلّ عنها وإنْ جلّت، ويوفي عليها وإنْ أوْفت، ويستحقّ من الثناء الطيّب، والذكر الحسن ما يقصر عنه كلّ بليغ وإن احتفل، وينقطع دونه كلّ خطيب وإن اسْحَنْفَر[٤]

---

(١) (وسائر أغراضه) ساقط في ف.

(٢) ف: الأعراق، مكررة.

(٣) ف: يوليه.

(٤) اسْحَنْفَر الخطيب في خطبته: مضى واتّسع في كلامه. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٣٥٢ (سحفر).

- لتوسّعتُ في القول ولم أقتصر، وتصرّفتُ في الوصف ولم أقتصد، لكنني أعلم من نَفْسي أنني أقف من تقريظه عند أدنى الواجب مع الإسهاب والبلاغ، وأقع فيه موقع المفرّط مع الاستنفاد والاستفراغ، وأعدل عن هذا المركب الذي لا أستطيعه، إلى الدّعاء الذي أثق بأنّ الله مجيبه وسميعه، وأنا أسألُ الله أنْ يعرّف مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة بركة ما أفاء عليه، ويُهنّئه النِّعْمة فيه، وييسّر له الفتوح شرقاً وغرباً، ويمكّنه من نَواصي أعدائه سِلْماً وحَرْباً، ويجعله في أحواله كلّها سعيداً محظوظاً، وبعين عنايته ملحوظاً محفوظاً، ولا يخليه من مزيدٍ تتوافى مادّته إليه، وإحسانٍ لله يتكامل ويتظاهر لديه، ويصل ما منحه بنظائر تتلوه وتتبعه، وأمثالٍ تقفوه وتشفعه، بمَنّه وقُدْرته.

وقد شكرتُ تشريفَ مَوْلانا - أطال الله بقاءه - إيّاي فيما أهّلني له من المطالعة بما تجدّد، والبشرى بما تمهّد، وأضفتُ ذلك إلى سَوالف من إنعامه[1]، وسَوابق من إكرامه، وقد بَهَظتني بتضاعفها، وبَهَرتني بترادفها، لكنّ شكري - أيّد الله مَوْلانا - إنّما هو بحسب القُدْرة، وحيث تبلغ الطّاقة، وهو جهد أمثالي، وغاية أشكالي، من عَبيده الذين عمّهم بطوله، وغمرهم بفضله، ولي في كتبه - أدام الله عِزّه - المتضمّنة أمره ونهيه - أعلاهما الله - جمالٌ وفخر، وصِيتٌ وذكر، ومَوْلانا - أطال الله بقاءه - وليّ ما يراه في الأمور باعتمادي بها، وإمدادي بمادة الخدمة فيها، إنْ شاء الله.

(١) ف: الغمامة.

وكَتَب عن نفسه
إلى عَضُد الدَّوْلة
يُهنّئه بهذا الفَتْح وبمَوْلودٍ رُزِقَه[١]

وقفتُ على ما وَرَدت به الكتبُ المبشّرة، والأنباءُ المبهجة من تَوافي نِعَم الله عند مَوْلانا الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – فيما فتحه من جبال القُفْص والبَلُوص حائزاً لها، ومشتملاً عليها، ومبيحاً حماها، وفارعاً ذراها، وبالغاً من عُتاة قُطّانها، وطُغاة سكّانها، ما أعيى القرون الخالية خطبه، وأعجز القُروم الأبية صعبه.

وفيما وهبه له – أيّده الله – من الأمير القادم، والسّعد الطّالع، الذي زاده الله في عدد مَواليننا الأمراء السّادة، وأجْراهم على أحسن ما أسلف من سنّةٍ وعادة، فنزلت لديَّ الفائدتان أفضل منازلهما عند مثلي من العبيد الذين يعرف الله منهم صادق الولاء، ويشهد لهم بخالص الصفاء والوفاء. وكنتُ فيهما إذا عدّ المتحققون بهما أولاً في السّرور والابتهاج، وسابقاً في الجذَل والاغتباط، وبادرتُ إلى ما التزمه نذراً، وافترضه حقاً، من الصدقة الدّاعية إلى المزيد والدوام، الجالبة للكمال والتمام.

فأمّا الفَتْح المسبَّبَةُ أسبابُه، الميمونُ طائرهُ، فمعلومٌ أنّ الله ذخره وحفظه عليه، وأملى لأعداءِ الله إملاءً قدَّر به أنْ يكون هو – أيّده الله – آخذاً الثأر منهم، ومحلّ النكال بهم، لمضيّ الخلف بعد السلف، والآخر بعد الأول، على احتمالٍ لنكاياتهم، وكظمٍ لجناياتهم، واصطلاحٍ على الصَّبْر لهم، واتفاقٍ على الإغضاء عنهم. هذا وهم لا يؤتون من ضعف مُنّة، ولا نقصان قدرة، ولا قصر مدّة، ولا انحطاط رتبة.

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب. (العنوان في الأصول: وكتب إليه عن نفسه يهنئه......).
المقصود بهذا الفتح الانتصار على القُفْص والبَلُوص.

وأمّا أمر المولود العالي جدُّه، السّامي محلُّه، فالتّاجُ بهيٌّ بجَبينه، والرِّكابُ تزهي بقَدَمِه، والأمرُ والنهي يرشّحانه، والحلُّ والعقدُ يرجّبانه، والخاصّة والعامّة تعتده سماءَ جُودٍ يحيون بحياها، ودوحة عزٍّ يأوون إلى ذُراها، وقد جعله الله عُدّة الآباء من خَدَم هذه الدَّوْلة لأطفالهم، وذخيرة الأسلاف من أوليائها لأعقابهم، بالشمائل النّاطقة بفضله وطَوْله، والمخايل المؤذنة برفده ونيله، والحمدُ لله الذي تابع لمَوْلانا المنائح طَلْقاً، وواصَلَها له نَسْقاً، وإيّاه نسأل أنْ يمتّعه بفذّها وتوأمها، ويتوخّاه باطِّرادها والتئامها، ويوفر حظه من الخيرات كلّها، ويجزل قسمه من البركات أجمعها، ويمدّ على ساحته ظلّ عزِّه الذي لا يُضام، ويرعى جنباتها بعين حفظه التي لا تنام، وينيله من فوائد الدّنيا، وعوائد الدّار الأخرى، ما ألتمسُه له داعياً مبتهلاً، وأطلبُه مشتطّاً مقترحاً، فإنّ غايتي في ذلك لا تُجارى، ونهايتي لا تُدانى، بمَنّه وطَوْله، وجُوده ومجده، وحَسْبنا الله ونِعْم الوكيل.

وكَتَب عن نفسه أيضاً
إلى الملك عَضُد الدَّوْلة
يُهنّئه بفَتْح جبال القُفْص والبَلُوص
ويشكره على مالٍ أنفذه إليه من فارس وَصَله
في سنة ستّين وثلاثمائة[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة - من واسِط يوم الإثنين لليلتَيْن بقيتا من شهر ربيع الآخر[٢]، والأمورُ التي يراعيها مستقيمة منتظمة، والنِّعْمة في ذلك تامة عامة، وأنا لابسٌ من جميل رأيه وشريف اصطناعه شعاراً ضامناً للصيانة، كافلاً بالوقاية، حائلاً بين النوائب وبيني، دافعاً لأحداثها عني، آسياً لما سلف من كُلومها، جابراً لما سبق من ثلومها، واعداً[٣] بأخلاف ما أَخَذْت، وأضعاف ما سَلَبْت، والحمدُ لله كما هو أهله.

وشخصتُ إلى هذا الموضع - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة - متوجّهاً إلى أعمال الأهْواز للخدمة فيما رُسم لي، والتسكّع في بَقيّة بقيت من مغارم محنتي، ولله في أثناء ذلك مَواهب متظاهرة منشورة، وآلاءٌ محمودة مشكورة، أفخمها شأناً، وأرفعها مكاناً: قربُ الشُّقّة بيني وبين حضرته الجليلة التي هي مقرُّ عزّي ومراد أملي، وأنْ أخطوَ إليها بقدمي، ولم أستطع الإتمام بمقدمي، وتلك سعادةٌ أغتنمها من الأيّام، وأسرقها من الزّمان، وقد استنجحت بها تلقّاني من الخبر السّارِّ المبهج، والنبأ

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب.

(٢) ف: الأول خر (كذا).

(٣) ف: واجداً.

المؤنس المغبط، فيما ولى الله مَوْلانا الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة به من الظَّفَر بطوائف القُفْص والبَلوص، والاستباحة لهم، والإتيان عليهم، والإدالة من مضارّهم، والاقتصاص من سالف معارّهم، والاشتمال عليهم بالبأس الشديد، والنَّصْر العزيز، والقَتْل الذريع، والأسْر[1] العنيف، بعد تقديم الإعذار والإنذار، واستعمال الإبقاء والإنظار، أخذاً منه - أدام الله عِزّه - عليهم بالحجّة، وخروجاً فيما أحلّه به من الشبهة.
ووقعت منّي هذه النِّعْمة أجلّ موقعها من الخدم المخلصين، والعبيد المتخصّصين لما فيها من تمكين الدَّوْلة وتأييدها، وتثبيتها وتوطيدها، والدلالة على أنّ إقبالها يزيد جدةً وعنفواناً على الأيّام المهرمة، وغضارةً وريعاناً على العصور المخلقة، وأنّ الله قد حَتَم لها بخذلان مَن عاداها وحاربها، وتحيين مَن ناوأها وناصَبها، وجعل ذلك شرعاً[2] لا ينسخه، وعقداً لا يفسخه، وعهداً لا ينقضه، وذِماماً لا يخفره، فما ينجمُ[3] لها ناجمٌ يريدها، ولا يرصدُ لها مُرصدٌ[4] يكيدها، إلّا جزاه الله جزاءه، ورَداه رداءه، وقدر له من مهابط إفكه مصرعاً، وخطّ له من مساقط هَلْكِه مضجعاً، ووَصَل وباله في الدّار الأولى بنكالِه في الدّار الأخرى؛ عاماً بذلك لمن جلّ منهم ودقّ، وشاملاً لمن قرب منهم وشطّ، حتى استووا في الإدبار وإنْ اختلفوا في الأقطار[5]، واجتمعوا في البوار وإن افترقوا في الأقدار[6]، فالحمدُ لله على غامر إنعامه، ووافر أقسامه، وسَنيّ عطائه، وهَنيّ حِبائه، حمداً

---

(١) ف: الأمر.

(٢) ف: شوعاً.

(٣) ف: نجم.

(٤) ف: مترصد.

(٥) ر: الأوطار.

(٦) ر: الأقطار.

يكون لمواهبه قضاءاً وجزاءً، ولمنائحه كفاءً وأداء، وإيّاه أسأل أنْ يجعل مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة منصور الحزب والغاية، ميمون الرأي والعزيمة، مَعْقُوداً له لواء العزّ والقَهْر، مضروباً عليه رِواق الظَّفَر والنَّصْر، وأنْ لا يخليه من ثغرٍ يسدُّه، ومُلكٍ يربُّه، وأثرٍ جميل يؤثره، وفَتْحٍ مبين يفتحه، لتكون حضرتُه بعين الله الرّاعي لها ملحوظة، وأطرافُها وأكنافُها بالأولياء والصَّنائع محفوظة، مستوفياً شرائط اليُمْن في مُلكه، والتحيّز في قدره، والانفراد في نُبله، والاشتطاط في محلّه، بجُوده ومجده، ووالله - أيّد الله مَوْلانا الأمير - ما يتقدّمني أحدٌ في السّرور بما يؤتيه الله إيّاه من نعمةٍ زائدة، ومملكةٍ مستأنفة، وإني لأفخر بآثاره النبيهة، ومواقفه الحميدة، فخر النّاهض المبلي مع حاضريها، والرّائح الغادي مع خَدَمه فيها، اعتلاقاً بحبله، واختصاصاً بجانبه، واعتزاءً إلى كنفه، وانقطاعاً إلى فنائه، بلغني الله الأماني فيه وله، والآمال منه وبه.

ووَصَل كتابُ مَوْلانا الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - جواباً. وفهمتُه، وما اقترن به ثواباً، وقبضتُه، ووَقَع منّي موقع الماء من ذي الغُلّة، والشفاء من أخي العلّة، وأعظمتُ قدر ما اختصّني به - أيّده الله - من عناية، وأبانه من رعاية[1]، وجعلتُ ذلك جُنّةً بيني وبين الزّمان، وأثرةً لي على الأضراب والأقران، وشكرتُ إنعامه مجتهداً محتفلاً، وادّرعته مفتخراً متجمّلاً.

وتَضاعف اغتباطي بقوّة الحرمة به، ووثاقة العِصْمة لديه، وجرى ذلك عندي مجرى الغَرْس الذي استقرّ أصلُه، واستطالَ فرعُه، وثبتَ عِرْقُه، وقَويَتْ شُعبُه، وأراني[2]

---

(١) ر: عنايته، رعايته، على التوالي.

(٢) ف: وأرى.

نَفْسي بصورة مَن استحكم في الجملة سببُه، وصار[1] إليها منتسبُه، وحَصَل فيها رهنُه، وتوفّر منها حظُّه، واقتضاني أنْ انبسط مُكاتباً مُواصلاً، وقضى[2] لي أنْ أُبسط مأموراً مهنّئاً، وإلى الله رغبتي في إطالة بقاءِ مَوْلانا عماداً لملكه، وجمالاً لدهره، وملاذاً لوليّه، ونَكالاً لعدوّه، وألّا يزيل عنّي ظلّه، ولا يسلُبني طوله، ولا يفجعُني بالموهوب من رأيه، الذي هو عوضٌ عن كلّ مسلوب، وذريعتي إلى كلّ مطلوب، بقُدْرته. ومَوْلانا الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - وليُّ ما يراه ويأمر به، لا زال صائب الرأي، نافذ الأمر من تشريفي بالمكاتَبة، وتَصْريفي في عَوارِضِ الخدمة، إنْ شاء الله.

---

(١) في الأصلين: صارت.

(٢) في الأصلين: واقتضى.

وكَتَب عن الوزير أبي الفَضْل العَبّاس بن الحسين الشِّيرازي إلى الأمير عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع[١]

كتابي – أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة – والأمورُ التي أَخْدمُ فيها جاريةٌ على السَّداد، مستمرّةٌ على الاطّراد، والنِّعمُ في كلِّ ذلك خَليقةٌ بالتَّمام، مُؤْذنةٌ بالدّوام.

والحمدُ لله حقَّ حَمْدِهِ، وهو المسؤول إطالةَ بقاءِ مَوالينا الأمراء، وحراسة ما خوّلهم من العزّ والعَلاء، وأنْ لا يخليهم[٢] من عُلوِّ الشأن، وسُموِّ السُّلْطان، وظُهورِ[٣]

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك. وأورد القلقشندي نص هذا الكتاب في صبح الأعشى، ج٧، ص٨٧.

هذه الرسالة جواب كتابٍ وصل من عَضُد الدَّوْلة يخبرهُ بالانتصار على جيش السّامانيين؛ ففي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م جهز الأمير منصور بن نوح السّاماني جيشاً إلى الرَّيّ. وكان سبب ذلك أن أبا علي بن إلياس أمير كَرْمان حينما انهزمَ أمام عَضُد الدَّوْلة لجأ إلى السّامانيين في خُراسان. وكان وَشْمَگير الزياري لاجئاً عندهم إثر هزيمته أمام البُوَيْهيين وفقدانه طَبَرِسْتان وجُرْجان ملك أجداده، فحسّنا للأمير السّاماني غزو أملاك البُوَيْهيين، استمد رُكْن الدَّوْلة ابنه عَضُد الدَّوْلة وابن اخيه عِزّ الدَّوْلة. انظر تفصيلات ذلك الصراع عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٢٧٢؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص١١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٨٠، ص٢٥٩.

قال ابن الأثير: في سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م مات الوزير الحسن بن مُحمّد المهلَّبي؛ فنظر في شؤون الإدارة والوزارة بعده أبو الفضل العَبّاس بن الحسين الشيرازي، وأبو الفرج مُحمّد بن العَبّاس بن فَسانْجِس، ولم يُلقَّب أيٌّ منهما بالوزارة. الكامل، ج٧، ص٢٤٤.

(٢) (موالينا...... يخليهم) ساقط في س.

(٣) السمو والظهور معكوستان في ر.

الوليِّ، وثُبُورِ العدوِّ.

ووَصَل كتابُ مَوْلانا الأمير – أطال الله بقاءه – الصّادرُ من معسكره[١] المنصور بدارزين[٢] بتاريخ يوم الجُمُعة[٣] لعَشْر ليالٍ بقينَ من ذي الحجّة، مُخْبراً بشمول السَّلامة، مُبشّراً بعموم الاسْتقامة، موجباً شُكْرَ ما منحَ اللهُ من فَضْله وأعطى، مُقْتضِياً نَشَر ما أسبغ من طَوْلِه وأضفى، مشروحاً فيه الحال فيما كان يجري من الخلاف بين مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، وبين وُلاةِ خُراسان، وجهادِه إيّاهم في حياطةِ الدِّين، وحماية حَريم المسلمين، والدّعاء إلى رضا ربِّ العالمين، وطاعة مَوْلانا أمير المؤمنين، وتذمّمه[٤] مع ذلك من دماءٍ كانت باتّصال الحُروبِ تُسفك[٥]، وحُرماتٍ باستمرارِ الوقائع تُهتك[٦]، وثغورٍ تُهملُ[٧] بعد أنْ كانت مَلْحوظةً، وحقوقٍ تُضاعُ بعد أنْ كانت محفوظةً، وأنّه لما جَدَّتِ[٨] العزيمةُ على قَصْدِ جُرْجان، ومنازعةِ ظَهير الدَّوْلة أبي منصور بن وَشْمَكير[٩] مَوْلى أمير المؤمنين على تلك الأعمالِ، ودَفْعِهِ عمّا ولّاهُ أمير المؤمنين بوسيلةِ

---

(١) س: عسكره.

(٢) ف: بدارين؛ صبح الأعشى: بكارزين. ودارزين من مدن إقليم كَرْمان. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٤٦١.

(٣) (بتاريخ يوم الجمعة) ساقط في ف، وترك ناسخ ر فراغاً لاسم اليوم. أما القلقشندي فقال: بتاريخ كذا.

(٤) ساقطة في س.

(٥) س: تنسفك.

(٦) ر، س، صبح الأعشى: تنتهك.

(٧) ر: تهمك (مجودة).

(٨) ف، ر، صبح الأعشى: جددت.

(٩) بهستون (أو بيستون) من أمراء جُرْجان الزِّياريين، توفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م. عنه وعن الزِّياريين، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٩، ص٣٥٦؛ فون زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص٣١٩.

بوسيلةِ مَوالينا الأمراءِ - أدام الله تمكينُهم - منها ومنازعتِهِ ومجاذبتِهِ فيها، نهض مَوْلانا الأمير الجليلُ عَضُد الدَّوْلة إلى كَرْمان على اتِّفاقٍ كان بين مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة وبينه في التَّوجهِ إلى حُدود خُراسان، فحينَ عَرَف القَوْم الجدَّ في رَدِّهم[1]، والتَّجريد في صَدِّهم، وأنّه لا مَطْمعَ لهم في جنبه إلى طاعةِ أمير المؤمنين انتشابُها[2]، وبذِمام سادتنا الأُمراءِ اعتصامُها، اتّعظوا واتّزعوا، وعَرجُوا ورجَعُوا، سالكينَ أقْصَدَ مَسالكهم، منتهجينَ[3] أرْشَد مناهجهم، مُعتمدين أعْود الأُمور[4] على المسلمين عموماً وعليهم خصوصاً، باجتماعِ الشَّمْل، واتِّصالِ الحبْل، وأمْن السِّرْبِ، وعذوبةِ الشُّرْبِ، وسُكون الدَّهْماء، وشُمولِ النَّعْماء، فَخطبُوا الصُّلْحَ والوَصْلة، وجَنَحوا إلى طَلَب[5] السِّلْمِ والأُلْفةِ، وأنّ مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة آثَرَ الأحْسَنَ، واخْتار الأجْمَلَ، فأجابَ إلى المرغوبِ فيه إليه، وتوسَّطَ ما بين مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، وبينَ تلك الجنبة فيه، وتكفَّلَ بتقريرِه وتمهيدِه، وتحقَّقَ بتوطيدِهِ وتشييدِهِ، وأخْرَجَ أبا الحسن عابد بن عليّ[6] إلى خُراسان حتى أحْكَمَ ذلك وأبرمهُ، وأمْضاهُ

---

(١) س: رؤيتهم.

(٢) نشب الشيء في الشيء: علق فيه. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٧٥٧ (نشب).

(٣) ف: منهجين.

(٤) س: الأمم.

(٥) س: طل.

(٦) من رجال عَضُد الدَّوْلة، وكان قد تقلّد له البريد والخبر. رسائل الشيرازي، ص٦٢، ص٩٧. وانظر عنه: الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٤، ص٢٦٣ (ضبطه المحقق: عائد)؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٤٠، ص٣٥٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٩٨. وهو الذي انتصر على القفص والبلوص وملك بلادهم مكران كما في الرسالة التي تقدّمت في ج١، ص٥٢.

وتَمَّمَهُ، بتجمُّعٍ[١] من الشّيوخِ والصُّلحاءِ، ومشهدٍ من القُضاة والفُقهاءِ، وأنّ صاحبَ خُراسان[٢] عادَ على يدِ مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة إلى طاعةِ مَوْلانا أمير المؤمنين ومشايعتِهِ، والإمْساك[٣] بعلائق ولائه وعِصْمتِهِ، وصارَ وَليّاً بعد العداوة، وصَديقاً بعد الوَحْشة، ومصافياً بعد العناد[٤]، ومخالطاً بعد الانفرادِ. وفهمتُه، وتأمّلتُ - أيّد الله مَوْلانا - ما في ذلك من ضُروبِ النِّعَم المتشعّبة، وصُنُوفُ المِنح المتفرِّعة، العائدة على الملك بالجمالِ، وعلى الرّعيّة بصلاح الحال، الدّاعية إلى الائتلافِ والاتّفاقِ، المزيلةِ للخلافِ[٥] والشِّقاقِ، فوَجدتُ النّفعَ بها عظيماً، والحظّ فيها جسيماً، وحَمِدتُ الله حقَّ حَمْدِهِ عليها، وشَكرْتُهُ أنْ أجْراها على يد أوْلى النّاس بها، وأحقهم بالمكارم[٦] أجْمعها، وأن قرَّب اللهُ بيُمنه[٧] ما كان بعيداً مُعْضلاً، ويسّر ببركتِهِ ما كان مُمْتنعاً مُشْكلاً، فأصْلح ذات البَيْن بعد فسادِها، وأخْمد الفِتَن بعد تَلهُّبِها واتّقادِها، ووافق بين نيّات[٨] القُلوبِ، وطابَقَ بين نخائل[٩] الصُّدور، وتحنّت الضّلوع بنَجيح سَعْيِهِ على التّآلفِ، وانضمّت الجوانحُ بمَيْمونِ رأْيِهِ على التَّعاطفِ، وحَصَل له في ذلك من جزيلِ الأجْرِ، وجَميلِ الذِّكْر، وجليلِ الفخرِ، وأريج النَّشْرِ، ما لا تزالُ الرُّواةُ تَدْرسهُ، والتَّواريخُ تَحْرسُهُ،

---

(١) ر: بجمع، صبح الأعشى: بمجمع.

(٢) أي: الأمير السّاماني.

(٣) ر: الامتساك.

(٤) (وصديقاً.... العناد) من صبح الأعشى.

(٥) ف: للاختلاف.

(٦) ف: بالكلام.

(٧) من صبح الأعشى.

(٨) س: طيات.

(٩) ف: دخايل.

والقرونُ تتوارثهُ، والأزمانُ تتداولهُ، والخاصّة تتحلّى بفضلِهِ، والعامّة تأْوي إلى ظلِّـهِ؛ فالحمد لله كثيراً، والشكرُ دائماً على هذه الآلاءِ المتواترةِ، والعطايا المتناصرةِ، والمفاخر السَّاميةِ، والمآثرِ العاليةِ، وإيّاه أسْأل أنْ يُعرّفَ مَوْلانا الأمير الجليلَ عَضُدَ الدَّوْلة الخيرةَ فيما ارتآه[١] وأمضاهُ، والبركة في أولاهُ وأُخراهُ[٢]، وأنْ يهنّئه نِعَمه عنده، ويُظاهر مَواهبه لديه[٣]، ويسهّل عليه أسباب الصَّلاحِ[٤]، ويفتح أمامَهُ أبْوابَ النَّجاحِ، ويعكس إلى طاعته[٥] الرّقابَ الآبية، ويذلّل لموافقته[٦] النُّفوس النّابية، ولا يعدمه ومَوالينا الأمراء أجمعين المنزلة التي يُرى معها مُلوكُ[٧] الأرض قاطبة التعلق بحَبْلهم أمناً[٨]، والإمساك بذِمامِهم حِصْناً[٩]، والانتماءِ إلى مخالطهم عزّاً، والاعتزاء إلى مواصلتهم حِرزاً، إنّهُ عزّ وجلّ على ذلك قديرٌ، وبإجابة هذا الدّعاء جديرٌ.

وقد اجتهدتُ - أيّد الله مَوْلانا - في القيامِ بحقّ هذه النِّعْمة التي يَلْزمني تأديةُ فَرْضِها، الذي يجبُ عليّ من الإشادةِ بها، والإبانةِ والإشاعةِ والإذاعةِ، حتى اشتهرتْ في أعمالِه التي أنا فيها، واسْتوى خاصُّها وعامُّها في الوُقوف عليها، وانْشرحتْ صدورُ

---

(١) س: أتاه.

(٢) ف، صبح الأعشى: فيما أولاه وأجراه.

(٣) من: ف، صبح الأعشى.

(٤) ف: الفلاح.

(٥) س: طماعته.

(٦) ساقطة في س.

(٧) ف: سلوك.

(٨) ف: أميناً.

(٩) ف: حصيناً.

الأولياءِ مَعها، وكَبَتَ[١] اللهُ الأعداءَ بها، واعتددت[٢] بالنِّعْمة في المطالعةِ بها، والمكاتَبة فيها، وأضَفْتُها إلى ما سَبَق من أخواتِها وأمْثالِها، وسَلَف[٣] من أتْرابها وأشْكالها. فإنْ رأى مَوْلانا الأمير الجليلُ عَضُد الدَّوْلة، أنْ يأمرَ بإجرائي على أكرم عاداتِه فيها، واعتمادي بعَوارض أمْرِه ونَهْيِه كلّها، فإنّ وفورَ حَظِّي من الإخلاص؛ يَقْتضي لي وفورَ الحظِّ[٤] من الاستخلاصِ، فَعَل إنْ شاء الله[٥].

---

(١) س، ر: كتب.

(٢) س: واعتدت.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) ف: حظي.

(٥) (فعل إنْ شاء الله) ساقط في س.

نُسْخة كتابٍ إلى الأمير رُكْن الدَّوْلة عند فَتْح بغداد وانهزام المماليك عنها بشرح الحال ووَصْف الخِلاف في جُمادى الأولى سنة أربعٍ وستّين وثلاثمائة (١)

أما بعد، فإنّ لله قضايا نافذةً، وأقداراً ماضيةً، فيهنّ النِّعَم السَّوابغ، والنِّقَمُ

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب. (والعنوان فيها: نسخة كتاب أنشأه أبو إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل الصّابي عند فتح بغداد........). والمقصود بالمماليك هنا: الأتراك.

في سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م اشتعلت فتنةٌ بين الأتراك والدَّيْلَم في الأحواز (الأهواز)، وكان سببها أن عز الدَّوْلة بَخْتِيار بن مُعِزّ الدَّوْلة قلَّت لديه الأموال، وكثر إدلال جنده عليه، فأخذ يفكر في حيلة يجتبي بها مالاً، فخرج إلى الأحواز (الأهواز)، ونزل على بَخْتِكين آزادروَيْه متوليها، فاتفق أثناء مقامِهِ بها أن بعض غلمان الدَّيْلَم تنازعوا مع بعض غلمان الأتراك؛ من أجل بناء معلف للدواب، فجرى من ذلك فتنة أدت إلى قتل كثيرين من قواد الفريقين، وعندها أشار الدَّيْلَم على بَخْتِيار باعتقال رؤساء الأتراك لتصفو له البلاد، فاعتقل بَخْتِكين آزادروَيْه في جماعة، وأطلق الدَّيْلَم في الأتراك وأباح دماءهم واستولى على إقطاع سُبُكْتِكين التركي صاحب الجيش ببغداد. فلما وصل الخبر إليه حصر دار بَخْتِيار وأحرقها، واعتقل أخويه ووالدته، وأوقع بالدَّيْلَم. وانتصر أهل السنة لسُبُكْتِكين وثاروا بالشيعة، وأحرق الكرخ.

ولما بلغ ذلك بَخْتِيار، وكان قد جاء مشايخ الأتراك من البصرة، فعاتبوه على مبادأته لهم بالعدوان، وقال له العقلاء من قومه الدَّيْلَم: لا بد لنا في الحروب من الأتراك لأجل الرمي بالنشاب، فاضطرب رأيه، وأطلق آزادروَيْه، وجعله قائداً للجيش مكان سُبُكْتِكين، وأفرج عن الباقين، وسار إلى إخوته بواسِط، وكان سُبُكْتِكين قد أطلقهم، وكتب إلى عمه ركن الدَّوْلة وإلى ابن عمه عَضُد الدَّوْلة وإلى أبي تغلب بن حمدان وعمران بن شاهين يسألهم النجدة على

سُبُكْتِكين، فجهز ركن الدَّوْلة عسكراً مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وكتب إلى ولده عَضُد الدَّوْلة يأمره بالمسير لنصرة ابن عمه، فوعد وتخلف متربصاً ببَخْتِيار طمعاً في ملك العراق، وأرسل أبو تغلب أخاه الحسين بن ناصر الدَّوْلة إلى تَكْريت في جيش، وانتظر انحدار الأتراك عن بغداد، فلما انحدروا دخل المدينة، فكف الفساد. وكان الأتراك قد أخرجوا الخليفة الطّائع لله وأباه المطيع لله الذي كان قد تنازل عن الخلافة تحت ضغط سُبُكْتِكين، فلما وصلوا إلى دير العاقُول توفي المطيع لله، ومرض سُبُكْتِكين وتوفي، وسر بذلك عز الدَّوْلة بَخْتِيار، فقدّم الأتراك عليهم ألفتِكين من موالي مُعِزّ الدَّوْلة أبي بَخْتِيار، فناشبه القتال واستمر خمسين يوماً والغلبة فيها للأتراك، واشتد الحصار على بَخْتِيار، فوالى إنْفاذ الرسل إلى ابن عمه عَضُد الدَّوْلة يستصرخه.

ولما رأى عَضُد الدَّوْلة أن الأمر بلغ ببَخْتِيار ما كان يرجوه، سار نحو العراق نجدة له في الظاهر، وطموحاً إلى ملكه في الباطن، واجتمع بابن العميد وزير أبيه ركن الدَّوْلة القادم بعساكر الري، وقصدوا واسِط، فلما سمع ألفتِكين بخبر وصولهم عاد إلى بغداد، وتهيأ للقتال، فزحف عَضُد الدَّوْلة إلى دار السلام من الجانب الشرقي، وأمر بَخْتِيار ابن عمه أن يسير في الجانب الغربي. وكتب بَخْتِيار إلى ضبة بن مُحمّد الأسدي من أهل عين التمر، أن يغير على أطراف المدينة. وكان ابنُ حمدان من ناحية الموصل يمنع عنها الميرة، فضاق بأهلها الخناق، وثارت العامّة، وكبس الجند المنازل لطلب الأقوات، وصمدَ عَضُد الدَّوْلة إلى ألفتِكين، فالتقى الجمعان بين ديالى والمدائن، فانهزم أصحاب ألفتِكين، وقتل منهم خلق كثير، وغرق منهم أثناء الهزيمة من الزحام على نهر ديالى، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٦٤هـ. وساروا إلى تَكْريت، ودخل عَضُد الدَّوْلة بغداد. وكان الخليفة الطّائع لله قد خرج مع المماليك كُرهاً فردَّه عَضُد الدَّوْلة، وأقره على عرش الخلافة.

ولما تم له الأمر أثار فتنة بين بَخْتِيار وجنده، ووعده بالنصرة عليهم، وأشار عليه بالغلظة لهم، وأن يعرفهم أنه لا يريد الإمارة، وأنه متى أعلن ذلك رضي الجند، وتوسط عَضُد الدَّوْلة بينهم على ما يريد بَخْتِيار، فوقع بَخْتِيار في الشرك، وأظهر الاستعفاء، فقبض عَضُد الدَّوْلة عليه وعلى إخوته، وأعلن عجزه عن الإمارة، وقد التجأ إلى هذه الحيلة خوفاً من أبيه ركن الدَّوْلة، فلما بلغ الخبر أباه أنكر ذلك إنكاراً شديداً، وأرسل يأمر عَضُد الدَّوْلة بالخروج حالاً من بغداد وإعادة بَخْتِيار إلى ملكه، وكان المرْزُبان بن بَخْتِيار والي البصرة، ومُحمّد بن بَقيّة، وعمران بن

شاهين وغيرهم قد خرجوا على عَضُد الدَّوْلة نصرةً لبَخْتِيار، وسرح إليهم عَضُد الدَّوْلة جيشاً فخرجوا إليهم في النهر، فانهزم أصحاب عَضُد الدَّوْلة، وكتب ركن الدَّوْلة إليهم يحرضهم على الثبات في مقاومة ولده ويعرفهم أنه على المسير إلى العراق لإخراجه، ولما عرفت النواحي إنكار ركن الدَّوْلة على ولده، انتفضت عليه من كل جهة، فرأى إنْفاذ الوزير ابن العميد إلى والده يشرح له واقع الحال وما فرق من الأموال، ويبين له ضعف بَخْتِيار عن حمل الإمارة، وما يخشى في إعادته من خروج الدَّوْلة من يدهم، وعرض على والده أن يضمن منه أعمال العراق، ويحمل إليه كل سنة ثلاثين مليون درهم، ويبعث بَخْتِيار وأخوته إليه فيوليهم ما شاء من بلاد فارس، وإن شاء يحضر والده إلى بغداد ويلي أمور الخلافة وينفذ بَخْتِيار إلى الريّ ويعود عَضُد الدَّوْلة إلى فارس، وقال لابن العميد، فإذا أجاب إلى ذلك وإلا فقل له أيها السيد الوالد أنت مُطاعُ الأمر، ولكن لا سَبيل إلى إطلاق هؤلاء بعد المكاشفة بالعداوة، وإذا خرجوا قاتلونا بما استطاعت أيديهم، وانتشر النظام واتسع الخرق، فإنْ قبلت ما عرضت فأنا العبد الطّائع، وإن أبيت إلا انصرافي، فإنني قاتل بَخْتِيار وأخويه، وخارج عن العراق تاركها لمن غلب، فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة، وأشار بإنْفاذ رسول سواه، وأنه يسير بعد ذلك مشيراً على ركن الدَّوْلة بالقبول، فأنفذ عَضُد الدَّوْلة رسولاً، فلما ذكر بعض الرسالة لركن الدَّوْلة وثب عليه ليقتله، فهرب من بين يديه، ثم رده بعد سكون غضبه، وقال له: قل لفلان – يعني عَضُد الدَّوْلة، وسماه بغير اسمه وشتمه –: خرجتَ إلى نصرة ابن أخي، فطمعتَ في ملكه، أما عرفتَ أني نصرتُ الحسن بن الفيرزان وهو غريبٌ عني مراراً، أخاطر فيها بملكي ونفسي، فإذا ظفرتُ رددتُ عليه بلاده، ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد، ونصرت إبراهيم بن المرْزُبان، وأعدته إلى أذَرْبَيْجان، وأنفذتُ وزيري وعساكري في نجدته، ولم أقبل منه درهماً واحداً، كل ذلك حباً بالمروءة ومحافظةً على الفتوة. تريد أن تمنّ عليّ بدرهمين أنفقتهما أنت عليَّ وعلى أولاد أخي، ثم تطمع في ممالكهم، وتهددني بقتلهم! فقفل الرسول ووصل ابن العميد، فحجبه وتهدده بالهلاك، وأرسل يقول له: لأتركنك وذلك الفاعل – يعني عَضُد الدَّوْلة – تجتهدان جهدكما، ثم لا أخرج إليكما إلا في ثلاثمائة جمازة وعليها الرِّجال، ثم اثبتوا إن شئتم، فوالله لا أقاتلكما إلا بأقرب النّاس إليكما، وكان يقول إنني أرى كل ليلة أخي مُعِزّ الدَّوْلة في المنام يعض على أنامله ويقول: يا أخي، أهكذا ضمنتَ لي أن تخلفني في ولدي، فسعى النّاس لابن العميد

الدَّوامغ. فأمّا النِّعَم فيؤتيها عِبادَه أجمعين بادية، ثم يجزي بها[1] الشّاكرين منهم عائدةً. وأمّا النِّقَمُ فلا تقع سَلفاً وابتداء، لكنْ قَصاصاً وجزاء، بعد إمهالٍ وإنظار، وتحذيرٍ وإنذار. فإذا حلّت بالقوم الظّالمين، فقد طُوي في أثنائها صنعٌ لآخرين مُعتبرين، فلا يخلو أهلُ الطّاعة من الثّبات والاستبصار، وأهلُ المعصية من الارتداع والازدجار. ومن هناك شهدت العقول الرّاجحة، ودلّت المناهج الواضحة على أنّ أولى ما فَغَر به النّاطق فَمَه، وافتتح به كَلِمَه : حَمْدُ الله الذي هو الجالبُ لرحمته ورضاه، والذّائدُ لسَخَطه وسَطاه، والذريعةُ الموصلة إلى الخيرات، والذخيرةُ النّافعة في الملمّات، والموئلُ المانع مَن لجأ إليه، والمعقلُ العاصم مَن عوّل عليه.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، الملك الحقّ المبين، الوحيد الفريد، العليّ المجيد، الذي لا يُوصف إلّا بسَلْب الصّفات، ولا يُنعت إلّا برفع النعوت؛ الأزلي بلا ابتداء، الأبديّ بلا انتهاء، القديم لا منذ أمدٍ محدود، الدّائم لا إلى أجلٍ معلومٍ معدود، الفاعل لا من مادةٍ استمدّها، الصّانع لا بآلةٍ استعملها، الذي لا تُدركه الأعين بألحاظها، ولا تحدّه الألْسن بألفاظها، ولا تُخلقه العُصور بمُرورها، ولا تُهرمه الدُّهور بكُرورها، ولا تُضارعه

وقالوا لركن الدَّوْلة: إنه إنما تحمل هذه الرسالة من ابنك تخلصاً منه، فأحضره بين يديه، وأنفذه إلى ولده بشرح الحال، فلما رأى عَضُد الدَّوْلة إصرار أبيه أجاب إلى الرجوع إلى فارس، وأخرج بَخْتِيار من محبسه، وشرط عليه أن يكون بصفة نائب عنه في العراق، وأن يجعل على الجيش أخاه أبا إسحاق، وسار عن بغداد في شوال من تلك السنة.

وهذه الرّسالة توثق انتصار عَضُد الدَّوْلة على الأتراك في ديالى. وكان قد سعى حتى ردّ الخليفة إلى بغداد. تفصيلات هذه الأحداث عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٧٣؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٢١٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٢٢ وما بعدها.

(١) ر: يحتذيها، ك: يجتذبها.

الأجسام بأقطارها، ولا تُجانسه الصُّور بأعراضها، ولا تجاريه أقدام النظراء والأشكال، ولا تزاحمه مناكبُ القُرناءِ والأمثال؛ بل هو الصَّمد الذي لا كفؤ له، والفذّ الذي لا توأم معه، والحيّ الذي لا تخترمه المنون، والقيّوم الذي لا تشغله الشؤون، والقدير الذي لا تؤوده المعضلات، والخبير الذي لا تُعييه المشكلات[1]. خَلَق فأحسن، وأسّس فأتقن، ونَطَق ففَصَل، وحَكَم فعَدَل، وبرأ البَرايا صُنوفاً وضُروباً، وقسّمها فِرقاً وشعوباً، واختصّ منها النّاس بالألباب والأفهام، وفضّلهم على الجمادات والأنعام، وأعدّ لمحسنهم جنّةً وثواباً، ولمسيئهم ناراً وعقاباً، وبعث إليهم رُسُلاً منهم يهدونهم إلى الصِّراط المستقيم، والفوز العظيم، ويعدلون بهم عن المسْلَكِ الذَّميم، والموردِ الوَخيم؛ فكان آخرهم في الدّنيا عصراً، وأولهم يوم الدِّين[2] ذكراً، وأرجحهم عند الله ميزاناً، وأوضحهم حجّةً وبرهاناً، وأبعدهم في الفَضْل غاية، وأبهرهم معجزةً وآية، مُحمّد صلّى

(١) الفقرة من (والحمد لله ربِّ العالمين) إلى هنا، أوردها ابن الأثير، وعلّق عليها قائلاً: «إن هذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذي افتتحه بها، ولكنها تصلح أن توضع في صدر مصنف من مصنفات أصول الدين ككتاب الشامل للجويني، أو كتاب الاقتصاد للغزالي، وما جرى مجراهما، وأما أن توضع في أول كتاب فتح، فلا». فهي سجعات من باب التكرار بالمعنى الواحد، والتطويل على غير طائل، وانتقد ما وَرَد من مثلها في أول هذا الفصل في تحميد وهو قوله: «الذي لا تدركه الأعين بألحاظها، ولا تحده الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمهُ الدهور بكرورها» فقال: لا فرق بين مرور العصور وكرور الدهور، وبين محو الأثر وعفاء الرسم. المثل السائر، ج٣، ص١٠٩. كما أوردها القلقشندي، وعلّق قائلاً: «عاب ضياء الدين بن الأثير على أبي إسحاق الصابي - على جلالة قدره في الكتابة، واعترافه له بالتقدم في الصناعة - هذه التحميدة التي كتبها في كتابٍ كتبه بفتح بغداد وهزيمة الترك». صبح الأعشى، ج٦، ص٢٦٥.

(٢) ف: وأرفعهم يوم القيامة.

الله عليه وسلَّم تسليماً، الذي اتّخذه الله صَفياً وحَبيباً، وأرسله إلى عِباده بشيراً ونذيراً على حين ذهابٍ منهم مع الشيطان، وصُدوفٍ عن الرحمن، وتقطيعٍ للأرحام، وسَفْكٍ للدِّماء الحرام، واقترافٍ للجرائم، واستحلالٍ للمآثم. أنوفُهم في المعاصي حَميّة، ونُفوسُهم في غير ذات الله أبيّة، يدّعون معه الشركاء، ويضيفون إليه الأكفاء، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يُبصر، ولا يغني عنهم شيئاً، فلم يزل صلّى الله عليه وسلّم يقذف في أسماعهم فَضائل الإيمان، ويقرأ على قلوبهم قَوارع القرآن، ويدعوهم إلى عِبادة الله باللُّطف[1] لما[2] كان وحيداً، وبالعنف لما وجد أنصاراً وجنوداً، لا يرى للكفر أثراً إلّا طَمَسه ومحاه، ولا رَسْماً إلّا أزاله وعفّاه، ولا حجةً مموّهةً إلّا كشفها ودَحَضها، ولا دِعامةً مرفوعةً إلّا حَطّها وقوّضها، حتى ضَرَب الحقّ بِجِرانه[3]، وصَدَع ببيانه، وسَطَع بمصباحه، ونَصَع بأوضاحه، واستنبط الله هذه الأمّة من حضيض النّار، وعلّاها إلى ذروة الصُّلَحاء الأبرار، واتّصل حَبْلُها بعد البَتات، والتأم شَمْلُها بعد الشَّتات، واجتمعت بعد الفُرْقة، وتَوادعت بعد الفتنة. وفي ذلك يقول له ربّه، تباركت أسماؤه وجلّت كبرياؤه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4]؛ فصلّى الله عليه وعلى آله الأخيار الطيبين، الأبرار الطّاهرين، صلاةً زاكيةً نامية، رائحةً غادية، منجزةً عدتَه، رافعةً

---

(١) ف: بالطف.

(٢) ف، ر: ما.

(٣) جِران البعير: مقدّم عنقه، فإذا أراد أن يبرك مَدّ جِرانه على الأرض. والمقصود أن الحق استقام وقرّ في قراره. وأول مَن قاله السيدة عائشة أم المؤمنين. ابن قتيبة، غريب الحديث، ج٢، ص٤٧٩.

(٤) سورة الأنفال، من الآية ٦٣.

درجته، قاضيةً حقّه، مؤديةً فرضه. والحمدُ لله تاليةً بعد ماضية، ولاحقةً بعد سابقة، على أنْ أحلّ مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، وسَيّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة – أطال الله بقاءهما – بالمحلّ الذي قَصَرت عنه الهممُ العالية، ووَقَفت دونه الأقدامُ السّاعية، وأغضت على فضيلته العيون الرّامقة، وأقرّت بمزيّته الأفواه النّاطقة، وجعل أشياعَهما العالين المنصورين، وأعداءَهما السّافلين المدحورين، فما تمتدُّ عنقٌ من لائذٍ بهما إلى شرف مرتبةٍ يعتليها، وغارب مرقبةٍ يمتطيها، إلّا نال ذلك في ظلّهما، وبلغه بطولهما، وأحرزه بمتابعتهما، وحازه بطاعتهما، ولا تمتدّ أخرى من عانِدٍ عنهما إلى مأثرةٍ يترشّح لادّعائها، ومفخرةٍ يتوشّح بردائها، إلّا عاد تقديرهُ معكوساً، وتدبيرهُ منكوساً، وظنُّه خائباً، وحُسبانُه كاذباً، فهما – أدام الله عِزّهما – السَّيِّدان اللّذان مَن تذلّل لهما عزّ، ومَن تعزّز عليهما ذلّ، ومَن دخل في ذمّتهما سَلِم ونجا، ومَن خرج عنهما هَلَك وهوى، موهبةً من الله لهما، ولنا فيهما وهو بكرمه يربُّها ويحفظها، ويكلأها ويلحظها. والحمدُ لله تعزيزاً بثالثةٍ تبلغ الحقّ وتقضيه، وتمتري المزيد وتقتضيه، على نِعَمه المطيفة بي، وعَوارفه الخاصّة لي، وآلائه الضّافية عليّ، وأياديه الرّاهنة لديّ، إذ أنشأني من دَوْحة مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – النَّجيبة، وبرأني من أعوادها الصَّليبة، ووقف بي على سِيَرها الحميدة، وسَلَك بي طرائقها الرشيدة، في حماية البَيْضة، وحياطة الحَوْزة، وذبّ العُداة، وقَمْع الطُّغاة، وكَبْح الجامح، وبَعْث الجانح، وتقويم الزّائغ، وتَسْديد الرّائغ[1]، والتأدّب بالآداب اللّائقة بأولي الألباب، التي من أشهرها عن مَوْلانا – أدام الله عِزّه – وعنّا، وأخلقها[2] به وبنا على أثره، رَبُّ الأيادي إذا أوليناها، والعَوارف إذا

(١) راغ: حاد أو مال سرّاً. ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٤٣٠ (روغ).

(٢) ر: أليقها.

أسْديناها، تصدّياً لأن يُقرّها الله عندنا بإقرارنا إيّاها، عند مَن تجري له على أيدينا. فمَن ارتبطها بالشكر، واستدامها بالنَّشر، وصاحبَها بالمعروف والحسنى، وجاوَرها بالعفاف والتقوى، وطّأت له أكنافها، وأدرَّت عليه أخلافها، وأسكنته في ذُراها، وصانته في حِماها. ومَن نفّرها بالإنكار والجحْد، وأوحشها بالكُفران والغَمْط، سَلَبه الله جمال سِرْبالها، وعرّاه من بُرد ظلالها، وأفضى به إلى ندمٍ لا ينفعه منه أنْ يقرعَ سنّه ولو هَتِمها[1]، ولا يُغنيه أنْ يعضّ إبهامه ولو كلمها، وبالله نستعيذ من مصارع البَغْي، ومواقع[2] الخزي، وإيّاه نسأل أنْ يتولّانا بهدايته ، ويتوخّانا بكفايته، ويوفّقنا في مجاري ألْفاظنا، وهَواجِس أفكارنا، لكلّ ما قربنا إليه، وأحظانا لديه، وأوْجب لنا عَفْوه، وحجب عنّا سَطْوه، بمَنّه وقُدْرته، وجُوده ورأفته.

وقد عَرَف مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - حال اللَّعين سُبُكْتِكين فيما كان مَوْلاه الأمير السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة - نَضّر الله وَجْهه - أزلّه إليه من النِّعَم الجِسام، وأهّله له من الرُّتب العظام، وأنّه - أدام الله تأييدَه - وسَيّدُنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - وأنّا بعدهما أمَرْنا ذلك له وزدناه عليه، وأشركناه في دَوْلةٍ كان هو الرّاتع في أكلائها، ونحن المعَنّون بكلائتها، وقدّمناه على نُظرائه، وآثرناه على قُرنائه، فأوطأنا عقبه طوائفُ من الرِّجال، وذلّلنا له آباءَهم، وعطفنا عليه ازورارَهم والتواءَهم، حتى صار واحدَ هذه العساكر في اتّساع الحال، وجُموم الأموال، وعُلوّ الشّان، وسُموّ السُّلْطان، وأنه لم يزل رابضاً لوثبةٍ يثبها، ومُرصداً لغرّةٍ يهتبلها، ومُتحلّياً بمُوالاةٍ ومُوافقةٍ قد لبسها على مُداجاةٍ ومُنافقة، ومُتجلبباً

---

(١) الهتَم: انكسار الأسنان. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٦٠٠ (هتم).

(٢) ر: مواقف.

جلبابَ شاكرٍ طائع قد أفاضه على جثمان كافرٍ خالع، ومُفسداً لنيّات غِلْمانِنا، وساعياً لإيحاشهم منّا، ومُضْرياً لهم على الاشتطاط في المطالبات المجْحفة، والتماس المحالات المسْرفة، وارتكاب الهفوات المنكرات، وإحداث الأحداث المحظورات، ومقرّراً في نُفوسهم إنّا لهم كارهون، وعلى الإيقاع بهم عازمون، إلى أنْ كَمَن ذلك في ضمائرهم، وقَدَح في بصائرهم، ونفَّرهم بعد السُّكون، وأخافهم بعد الرُّكون؛ فصاروا علينا إلْباً، ومعه حزباً، يستخدمهم بأموالنا، ويعدُّهم للعَيْث في ديارنا وفنائنا، ويُراعي بهم فرصة النكاية في الدَّوْلة التي إليها ينتسب ويعتزي، والقَدْح في النِّعْمة التي منها يرتضع ويغتذي، واستحقّ جميعهم ما كانوا يحذرون، واستوجبوا ما كانوا يستشعرون. ونحن على هذه الهِنات منه صابرون، ولما يثيره من غَيْظٍ وامتعاضٍ كاظمون؛ لزوماً لمذهبنا في طاعة المحافظة، وعصيان الحفيظة، إلّا عند الضّرورة الدّاعية، والمعذرة الواضحة، حيثُ يكون الحلم شبيهاً بالضَّيْم، وحرياً[1] بالوَهْن. فلمّا أزِف شُخوصُنا إلى الأهْواز لاستدرار ما تأخّر من أموالها، واستقراء ما اختلّ من أعمالها، والنّظر في أشياء من مَصالحها، وتوفّر عِماراتها، أقررناه في الحَضْرة[2]، ورفهناه عن ضَحاء[3] السفرة، وائتمنّاه على ما غبنا عنه من خدمة السّرير، وتدبير الأمور، ونحن لا نظنهُ أنّه[4] بلغ حيث بلغ في استيطاء المركب المردي، واستمراء المطعم الموبي، ولا يتجاوز حُدود الدّالّة المحتملة، والصّغائر المغتفَرة، ولم ندع أنْ استظهرنا بتجديد عَهْدٍ بيننا وبينه أحكمناه، وعَقْدٍ

---

(١) ر: جَرْياً، ف: بلا نقط.

(٢) ف: أقررناكن السفر في الحضرة، ر: أقررناكن في الحضرة.

(٣) الضَّحاء: ارتفاع النهار واشتداد وقع الشمس، قال تعالى: ﴿لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، سورة طه، من الآية ١١٩،أي: لا يؤذيك حرّ الشمس.

(٤) ساقطة في ف.

وَكَّدناه، فما هو إلّا أنْ خلا ذرعه، وامتدّ باعه، حتى نَزَت به نوازي البِطْنة، وهدرت على يده شقاشق الفتنة، واستنفر من الغِلْمان مَن كان حاضراً معه، واستجرّ وكاتَب مَن كان غائباً عنه، واستجاش بطوائف من العوامّ بَسَطهم وأهْرَجهم، وأباحهم وأمرجهم؛ ففاضت على يده وأيديهم نفوسُ المسلمين، وانتُهكت محارمُ المستورين، وسُفكت الدّماء، وعظم البلاء[1]. وأتتنا الأخبار بقبيح ما ارتكب، وعظيم ما احتقب، وأنه أكبّ على نهب المنازل والمحال، وتناول الأمتعة والأموال، فاشتمل على الخزائن، واستثار من ودائعنا كلّ كامن، وأقلقني هذا وأمضّني، وأزعجني وأرمضني.

وكتبتُ إلى الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة والأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءهما - الكُتب التي سبقت بالإنهاء له، والاستصراخ فيه، والاستنجاد في استدراكه وتلافيه، إذ كان الأمر الذي ندبّره منسوباً إليهما، وكنّا فيه تالين لهما[2]، وكانت الفروقُ مرتفعة بيننا أهل البيت في النِّعَم إذا تمّت، والملمّات إذا لمّت.

فعوَّل الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - في دَفْع ما ناب وحَدَث، وكَشْف ما أظلّ وكَرَث، على الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع - أطال الله بقاءه - لما عرف الله من كرم ضَرائبه، ويُمْن نقائبه، وكمال أدواته، وتمام آلاته، وسَداد آرائه، ونجاح أنحائه، وأنّه الطَّود الرفيع، والكهف المنيع، والسَّيِّد الدّافع للعظيمة، والقَرْم الآبي للهضيمة، ومَن لم تُردّ[3] له قطّ راية، ولا فاتته من مطالبه غاية، ولا قاربَه مُبارٍ، ولا قارَنه مُجارٍ. تنزاح الظُّلَم بغرَّته، وتنفرج الكُرب بنَجْدته، وتنصاع الحوادث عن كلّ

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ف: تردد.

محلّةٍ يحلُّها، وجنبةٍ يحميها ويكفلها؛ فوردت كتبُه – أيّده الله – بأنه[١] مبادرٌ لا يتوقّف، ومسارعٌ لا يتلبّث، في جيوشه العميمة الموفورة، وعساكره العزيزة المنصورة.

وسرتُ من الأهْواز إلى واسِط، وبثثنا كُتبنا إلى أهل طاعة مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – ومُوالاته، والمتحقّقين به وبأيّامه؛ فانثالوا مغذّين نَحْوي، وتوافوا معدّين إليّ. وعرف اللَّعين سُبُكْتِكين ذلك، فانحدر عن بغداد فيمَن جمع من قَضِّهِ وقَضيضه[٢]، وألّف من حَشْده وعَديده، قد استلأموا بأسلحتنا، وركبوا خيلنا، وتظاهرت عليهم كُسانا وآلاتنا، وخفقت على رؤوسهم بنودنا وراياتنا، وليس منه ولا منهم إلّا مَن نملك رِقّه ووَلاءه، وكلّ مالٍ وَصَل إليه، وخيرٍ تظاهر عليه.

وظنّ الخائن أنْ يتمّ له شيءٌ من مأمول أباطيله، ومرجوّ أضاليله، قبل وُرود الأمير الجليل عَضُد الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – إذ كان عالماً أنْ لا قِبَل له بلقائه، ولا تثبت قدمُه بإزائه. فلمّا صار بدَيْر العاقُول[٣] عقلته فيها جرائرُه، ونُقضت فيها مَرائرُه، فقصر الحَيْن من خَطْوِه، وجثم الحتْف على صَدْره، وحجزت المنيّة بينه وبين الأمنية، واعترض صادق المقدور فيه دون كاذب التقدير منه، واعتلّ أربعة أيّام علّةً أتت على نفسه، ووسّدته في رَمْسِه، وأصارته إلى سيء[٤] أعماله، والعقوبة المعدّة لأمثاله.

وكان ذلك من الآثار الدّالة على حُسْن صَنيع الله لمَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة ولنا، وقَضائه بثبات دولتنا، وتطاوُل أيّامنا، وأنه – عزّ وجلّ – لا ينصر عدوّاً يبغينا

---

(١) ف: إنه.

(٢) أي: بأجمعهم. انظر: ابن سيده، المخصص، ج٤، ص٣٨٣.

(٣) بليدة بين النعمانية والمدائن، بينها وبين بغداد خمسة عشر فَرْسَخاً على شاطىء دجلة. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٠.

(٤) ف: شين.

بالسوء ولا يمهله، ولا يُسْلم وليّاً يحفظنا بالغيب ولا يخذله، إتماماً للنِّعَم التي أُلبسناها، والمِنَح التي سُوّغناها، وتنبيهاً لنا على شكرها، والاستدامة لها، وتحذيراً للناس من تطرُّفها، والطَّمع فيها، إذ كانوا جميعاً لا يقدرون على أنْ يرتجعوا ما أعطى ووَهَب، ولا أنْ يُقرّوا ما انتزع وسَلَب، ولم نشكُكْ في أنّ مَن بعده من تلك الطّوائف يتأمّل ويعتبر، ويتّعظ ويزدجر، وأنّهم يفيئون إلى التفيؤ بظلّنا، ويعودون إلى أماكنهم من جملتنا، فما راعنا إلّا انتصاب ألفتِكين الشّرابي مَوْلى مُعِزّ الدَّوْلة بمَوْضعه، ومَنابه في شبّ النّار عنه، عن وصيةٍ وصّاه بها، ودلّاه بالغرور فيها.

ورأى الغِلْمان أنهم قد قدّموا إلينا ذنوباً ربّما أخذناهم بها، وجزيناهم عنها؛ فأحجموا عن الطّاعة التي تؤمن وتنجي، واستمرّوا على المعصية التي توبق وتردي، على يقينٍ من سوء مغبّتها. ويمّمت الجماعة إلينا؛ فكانت الحرب بيننا وبينها في ظاهر الغربي من واسِط ثمانيةً وأربعين يوماً، لا يمضي يومٌ منها إلّا عن نكايةٍ تُقذي عيونهم، وغَصّةٍ تُشجي حُلوقهم، وقتلٍ ماحقٍ لهم، ونكالٍ نازلٍ بهم، إلى أنْ تناهى فَشَلهم، واستحكم وَهَلهم، وأتاهم خبرُ مَوْلانا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - بتجاوز الأهْواز مغذّاً إليهم، ومنصبّاً عليهم.

ولما رأوا أنّ مُنّتهم[1] ضَعُفت عنّي، علموا أنْ لا قوام لهم به - أيّده الله - وبي، وأيقنوا أنّ البلاءَ سريعٌ إليهم، وأنّ الدّائرة تكون عليهم؛ فانهزموا عن واسِط ناكصين على الأقدام، راجعين إلى مدينة السَّلام، مقدّرين للتحصّن بمشاربها وأنهارها، والاعتصام بأوباشها وأوغادها.

وأقرّ الله عيني بمَوْرد سَيِّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - أيّده الله - الذي حلّ مني

(١) المُنّة: القوة. ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٤١٥ (منن).

محلّ الغيث عند اللَّزْبة[١]، والغوث عند الكُرْبة. فلمّا جَمَع الله شملَنا، ووَصَل حبلَنا، اتّفق رأيه ورأي المتّبع له على أنْ سار - أيّده الله - من واسِط في الجانب الشرقي، وسرتُ في الغربي قاصدين بغداد على تدانٍ في المسايرة، وتحاذٍ في المساوقة. وأتانا عند انتهائنا إلى المدائن خبر أولئك الكافرين للنِّعَم، المستنزلين للنِّقَم، المارقين عن عِصْمة الدِّين وذمّته، المستخفّين بحقّه وحُرْمته، في بُروزهم إلى النهر المعروف بدَيالى[٢]، وعَقْدهم جُسوراً عليه، ما ظننتهم يجسرون على عُبورها، ولا يقدمون على تجاوزها، وأنهم جعلوا سَوادهم من ورائه، وعملوا على المسير جريدةً للقاءِ سَيِّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - تنجُّزاً للحَيْن المكتوب عليهم، والخذلانِ المجلوب إليهم، فتوجّه - أيّده الله - نحوهم[٣] غداةَ يوم السَّبْت لأربع عشرة ليلة خَلَت من جُمادى الأولى معبّأ الجيش، رابط الجأش، أصيل الرأي والحزم، ملتئم التدبير والعزم، ورتّب أخي أبا الفَتْح عليّ بن مُحمّد - أدام الله عِزّه - ومَن برَسْمه من الجيش في مَيْمنته التي يقارنها اليُمْن والنجاح، وعبدَه وسَيِّدي عُمْدة الدَّوْلة أبا إسحاق بن مُعِزّ الدَّوْلة[٤] - أدام الله عِزّه - و[٥]خادمه النّاصح أبا طاهر[٦] - أيّده الله - ومَن برَسْمها من الرِّجال في مَيْسرته التي يُصاحبها اليُسْر والفَلاح، وصار هو - أطال الله بقاءه - وقُوّادُه وخاصّتُه وحاشيتُه ورجالُه قلباً قالباً لما قابله، عاكساً لما واجهه، ولقيه أعداءُ الله وقد اطّرحوا الوفاء، وأقلّوا الحياء، واتّخذوا القحة شعاراً، وكاشفوا بها جهاراً، واعتمدوا معارضته - أدام الله

---

(١) الشدة والقحط. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٧٣٨ (لزب).

(٢) في ر مكسورة الدال، مهملة الضبط في ف. لكن ياقوت ضبطها بالفتح.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) (أبا إسحاق بن مُعِزّ الدَّوْلة) ساقط في ف.

(٥) سقطت الواو في ف.

(٦) هو الوزير مُحمّد بن بَقيّة.

تمكينَه – في فضاءٍ من الأرض ظنّوا أنْ سيُدركون فيه المأمول، وينالون بالجولان في أرجائه السؤل، ولم يعلموا أنّه مع اتساع خَرْقه، وانفساح طَرْقه، ضيقٌ عن عساكره المنصورة، غاصٌّ بجيوشه الموفورة؛ فنشبت الحرب بين الميسرة وبينهم منذ الضحى إلى العصر، وأكبّوا بأجمعهم عليها، وصمدوا بجدِّهم إليها؛ لأنها دَلَفت[1] نحوهم مفارقةً نظام مَصافّها، مطيعةً دواعي أحقادها، واقتضى ذلك أنْ أنجدها سَيِّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – بطائفةٍ من رجاله شدّت منها، وزادت في استظهارها، وخيّبت طمع الطّامعين فيها.

ثم إنّه – أدام الله عِزّه – جلّى الغُمّة، وكَشَف الكُربة، وحقّق الحملة، ونَصَر الدَّوْلة، وزَحَف إليهم زَحْفاً ملأ قلوبهم رَجْفاً، وأحشاءَهم رُعْباً؛ فأجفلوا إجفال النَّعام، وأقشعوا إقشاع الغَمام، فأوغل الأولياءُ المنصورون في طَلَبهم يستلحمون ويقتلون[2]، ويفرون ويقدّون، حتى ألجأوهم إلى عبور تلك الجسور. وصادفوا عليها بَقيّة وافرةً منهم، وخلقاً كثيراً من سَفِلة العَوامّ المضافرين لهم[3]، فقُتلوا وغُرّقوا ومُلِك عليهم ما وراء ديالى، وأُحرق ونُهب جميعُ سَوادهم وسُفنِهم وآلاتِهم.

وحجز اللَّيْل عن استقصاء الطَّلَب، والاتّباع لمن هَرَب؛ فنزل سَيِّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – الموضع الذي كانوا نزولاً فيه، وطوى القوم بغداد طَيّاً. ولم يلبثوا فيها إلّا فُواقاً[4]، آخذين على سَمْت الموصل على اختلافٍ من أهوائهم،

---

(١) دلف دلوفاً: مشى وقارب الخطو. والدليف فوق الدبيب، أي كما تدلف الكتيبة نحو الكتيبة في الحرب. ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص١٠٦ (دلف).

(٢) ف: يستحملون ويقلون، ر: ويقبلون. ولعل الأرجح ما أثبتناه.

(٣) ف: عليهم.

(٤) الفُواق: ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تُحلب ثم تترك سويعةً يرضعها الفصيل لتدرّ، ثم تُحلب ثانيةً. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٣١٦ (فوق).

وانتكاثٍ من آرائهم، قد ادَّرعوا بالعار والشَّنار، واشتملوا على المذلّة والصَّغار، وأنجز الله فيهم وَعْده، ونصر عليهم جُنْده، وأذاقهم وَبال المغبّة فيما اجترموا، وسوء العاقبة فيما اكتسبوا.

ودخل سَيِّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - بغداد، وتجاوزناها وعسكرنا من الجانبين في أعلاها، وعَطَفنا على سُفهاء الرّعيّة بأحلامنا، وعممناهم بعَفْونا، وصَفَحنا عن الدُّعّار [١] شفيعاً للأبرار، وإشفاقاً من دخول البريء مع السقيم، واختلاط البَرّ بالأثيم؛ لأنهم لما وجدناهم قد خالفوا موعظة الله إذ يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [٢]، لم نخالف نحن أدبه في قوله: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [٣].

وكتبتُ كتابي هذا – أدام الله تأييد مَوْلانا الأمير السَّيِّد – عن تمام الفَتْح، وكمال المنح، وسُكون الدَّهْماء، وشمول النَّعْماء، وشفاء الصدر، وإدراك الوِتر، وأخذ الثأر المنيم [٤]، والظَّفر بشيطان الفتنة الرّجيم، وتلك عاقبة مَن ظَلم وكَفر، وخان [٥] وغَدر، وطغى واستكبر، وبغى وتجبّر، والله يقولُ فيهم وفي أمثالهم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا

---

(١) ف، ر: الذعار. ترد أحياناً في بعض القطع الذعار، والأصح بالدال المهملة، والعامّة تقول: هم بالذعار، وإنما هو بالدال. وهم قطّاع الطرق. وحدناها وفقاً لما جاء عند ابن الجوزي، كشف المشكل، ج١، ص٤٤٤. والمعاجم العربية انظر على سبيل المثال: لسان العرب، ج١٥، ص٢٧ (عتا)؛ تاج العروس، ج١١، ص٣٠١ (دغر)؛ دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٤، ص١٨٨؛ ج١١، ص٧٣.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٢٥.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١٦٤.

(٤) الثأر المنيم: الثأر الذي فيه وفاء طلبته. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٥٩٧ (نوم).

(٥) ساقطة في ف.

قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[١]، فالحمدُ لله العزيز القهّار، المتعالي الجبّار، القاضي للحقّ بالإدالة، وللباطل بالإذالة[٢]، المتكفّل بإظهار أوليائه، وكَبْت أعدائه، الذي جعل مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - محفوظاً فيما حضره وغاب عنه، محوطاً فيما شهده وبعُدَ منه، محتوماً له بنُصْرة الرّاية، وعُلوّ الكلمة، وعزّ الجانب، وذلّ المجانِب، فهنأه الله هذا الصُّنْع العظيم قدرُه، الجليل خطرُه، العامّة بركته، الشّاملة عائدته، ولا أخلاه من إجراء مثله للمسلمين على يده وأيدي أولاده – أيّدهم الله ببقائه – وعبيده وأنصاره وجنوده، وضاعَف له المواهب مضاعفةً يوفي مستقبلها عن الماضي، ويقصّر سابقها عن التّالي، بمَنّه وطَوْله، وقوّته وحَوْله.

ولو تعاطيتُ - أطال الله بقاء مَوْلانا - شكر إنعام سَيِّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - أدام الله عُلوّه - والاعتداد بمِنَنه لتعاطيتُ معجزاً، وطلبتُ معوزاً؛ لأنّه ذلّل الصّعْب بعد إبائه، وهوَّن الخطب بعد إعيائه، ونظم الأمر بعد اختلاله، وشدّ الأزر بعد انحلاله، وبذل النّفس النفيسة التي لو أمكن عوضٌ من غيرها لتعذّر منها مع شرفها، فكيف لا يفعل ذلك مَن خصّه الله بكرم ضَرائبه، ويُمْن نَقائبه، وسَداد آرائه، ورَشاد أنحائه، وانفراده عن المساجلين، وامتناعه على المطاوِلين، فما تحلّ قدمُه في موضعٍ إلّا كان على النوائب مُحرّماً، ومن المحاذر مُحصّناً، وللفضل الباهر معدناً، وللخير الظاهر موطناً، فأحسن الله جزاءَه عن مُلْكٍ صانَه ووَقاه، وحريمٍ حاطَه وحماه، وأخٍ لهيفٍ

---

(١) سورة النحل، الآية ١١٢.

(٢) ر: بالإزالة. والإذالة: الإهانة. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٢٦١ (ذيل).

أنجده، وحرٍّ صريحٍ استعبده، ومَدَّ علينا أجمعين خصوصاً، وعلى عِباده المؤمنين عموماً ظلَّ مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، الذي لا نزال بخيرٍ ما كان رِواقُه ممدوداً، وسُرادِقُه مَضروباً، ووَهَب لنا المزيد في بقائه وعلائه، وأعاذنا من سوءٍ يلمّ بساحته وفنائه، إنه على ذلك قدير، وبه جدير.

وأقولُ في شكر أخي أبي الفَتْح عليّ بن مُحمّد[1] - أدام الله عِزّه - إنه لو حَسُن أنْ ألغيه، وأمتنع من الإفاضة فيه، مع بلائه الجليل، وفعله الجميل، واجتهاده الشديد، وتدبيره السَّديد، لألغيته؛ لأنّه إنّما ذبَّ عن دَوْلةٍ هي له، وقضى في نُصرتها واجباً لمَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - عليه، لكني لا أستجيز تَرْك الصّدق عن تجرُّده وغَنائه، ونُصحه ووفائه، وبلوغه أقصى مبالغ المحامي، وانتهائه إلى أبعد غايات المرامي، وأخذه من هذا الفَتْح بأوفر السّهْم، واستحقاقه من الإحماد عليه أجزل القسم.

فإنْ رأى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - أنْ يعرف ذلك له، ويعتقده فيه، وينعم بالأمر بمُكاتبتي بموقع صُنع الله في النِّعْمة التي به بدأت، وعليه سَبَغَتْ، والنائبة التي عنده انحرفت، وبيده انصرفت، ويعتمدني في شكر سَيِّدنا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - أدام الله تأييدَه - بمعونةٍ[2] تتمّم تقصيري عن حدّه، وتتلافى وقوفي دون فرضه، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) (علي بن مُحمّد) ساقط في ف. ولعلّه الوزير ابن العميد.

(٢) ساقطة في ف.

نُسْخة كتابٍ عن الطّائع لله إلى وُلاةِ الأطرافِ وسائرِ النّواحي عندَ عَوْده إلى داره وزَوال الوَحْشةِ بينه وبين الأمراء وقد بُنيت المخاطبةُ فيه على ما تُسقطُ اللائمة عن الفريقين ويوجبُها على الأتراك العُصاة خاصّة وذلك في رجب سنة أربعٍ وستّين وثلاثمائة[1]

أما بعد، فالحمدُ لله ناظمِ الشملِ بعد شَتاتِه، وواصلِ الحبْلِ بعد بَتاتِه، وجابرِ الوَهْنِ إذا انثلم[2]، وكاشفِ الخَطْبِ إذا أُظلِمَ، القاضي للمسلمين بما يضمُّ نشرَهم، ويشدُّ أزرَهمْ، ويحفظُ الألفةَ عليهم، وإنْ شابتْ ذلك في الأحيانِ شوائبُ من الحدَثان، فلن يَتجاوزَ بهم الحدّ الذي يوقظُ غافلَهم، وينبّه ذاهلهم. ثم إنّهم عائدونَ إلى أفضلِ ما أولاهم وعوَّدَهم، ووثّقَ لهم ووعدَهم، من ائتمان[3] سِرْبهم[4]، وإعذاب شِرْبهم، وإعزازِ

(١) فيض الله، راغب باشا، سيلي أوك. (العنوان فيها: نسخة كتاب أنشأهُ أبو إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل بن إبراهيم بن زَهْرون الصّابي على الطّائع.....). بنيت في س: تثبت، ف: بينت. (هِلِّيل في س: خليل).

تتعلّق هذه الرسالة بأحداث الرسالة السابقة. وقد تمثّل القلقشندي بهذه الرسالة على براعة الاستهلال بالتحميد في بعض المكاتبات، ذاكراً الكلمات الأولى منها فقط. صبح الأعشى، ج١٦، ص٢٦٦.

(٢) س، ر: ثلم.

(٣) ف: أمان، ر: أثمان.

(٤) السِّرْب: النَّفْس، وكذلك أهل الرَّجل وماله. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤٦٣ (سرب).

جانبهم، وإذلالِ مُجانبِهم، وإظهارِ دينهم على الدِّينِ كلِّهِ ولو كَرِهَ المشركون[١]. وإذا شاءَ - جلَّ ذكرُهُ - أنْ يمتحنَ عبادَه بتلك الشوائب، ويبلوَهم ببعضِ النوائب، أجراها على أيدي الأشقياء الذين تَبَّت أيديهم، وضلّتْ مَساعيهم، وكشفَها بأيدي الأتقياء الذين نقيت جُيوبُهم، وسلمت عُيوبُهم؛ لتكون الفتنةُ التي جرّها أولئك نقمةً عليهم، يصلونَ بحرِّها وشرِّها، ويَلْقَون في مغبتِّها ما أعدَّ اللهُ للنّاكثين الخالِعين، وتمحيصاً عن هؤلاء ينتفعون بتهذيبه وتأديبِهِ، وتُجلى[٢] لهم عَواقبُه عن ثوابِ الصّابرين المحتسبين، فلا يخلو - جلَّ ثناؤه - من حكومةِ عدلٍ ينزلها مع الإنعامِ والانتقام، ومن استحقاقِ[٣] شكرٍ على مَنافعَ يُظهرُها أو يُسِرُّها للأنام، وصَلّى اللهُ على أتمِّ بريَّتِه خيراً وفضلاً، وأطيبِهم فرعاً وأصلاً، وأكرمِهم عوداً ونِجاراً[٤]، وأعلاهم مَنْصباً وفَخاراً[٥]، مُحمّد رسوله المصطفى، وأمينه المُرتضى، وعلى آلِه الطيِّبين الأخيار، الفاضلين الأبرار، الذين أذهبَ عنهم الرجسَ وطهَّرهم من الأدناس، وجَعَل مودّتَهُم فرضاً على النّاس، وسلّم تسليماً بادئاً عائداً، غادِياً رائحاً، لا يقفُ عند غايةٍ إلّا تجاوزَها وتعدّاها، وأوفى عليها وتخطّاها[٦]، إلى أنْ يكون لربِّ العالمين مُرضياً، وللمادة من رَحمتِهِ مُقتضِياً.

والحمدُ لله الذي آثرَ أمير المؤمنين بالخلافةِ، واختصَّهُ بالإمامةِ، واستخرجَهُ من سرِّ العنصرِ الكريم، واستخلَصَهُ من معدنِ الشّرفِ الصميم، وحازَ له مَواريثَ آبائه

---

(١) من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾، سورة التوبة، الآية ٣٣.

(٢) ر: تنجلي.

(٣) س: استحاق.

(٤) ف: نجراً.

(٥) ف: فخراً.

(٦) ف: تخاطاها.

الرّاشدينَ صلواتُ[١] الله عليهم أجمعين، الذّائدينَ عن حَوْزتِه، اللّحنين بحُجَّتِه، العامرينَ لبلادِه، الرّاعينَ لعبادِه، الآمرينَ بما أمر، النّاهينَ عمّا خطر، ونَصبهم علماً يهتدي به المهتدون، ومقتفى يقتدي به المُقتدون، ودليلاً مَن اتّبعه فازَ وغَنِم، ومَن عَدَل عنه ضَلَّ ونَدِم، وإليه - جلَّ ثناؤه - رغبتُهُ في توفيقهِ للوفاءِ بعقودِه، والوقوفِ على حدودِهِ، والانتهاءِ في لمِّ الشّعث، ورأب الثأي[٢]، وسدّ الخلل، وتعديلِ الميل إلى حيثُ يُدْنيهُ من رضاه، ويقرّبُه من زُلْفاه، ويسعدُه في دينه ودُنياه، وأولاه وأخراه.

والحمدُ لله الذي أيّد أمير المؤمنين بالأولياء الميامين، الذّابينَ[٣] عن الدِّين: رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ، وعَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع - أدام الله بهما الإمتاعَ، وعنهما الدفاعَ - ومَن يتلوهما من أُسرتِهما المطيعةِ[٤] لربِّها، النّاصحةِ لإمامِها، المؤديةِ للمُفْترضِ عليها[٥]، النّاهضة بالحقّ اللّازم لها، التي لم تَزَل عن الدَّوْلة مُحاماتُها، وعن الحوْزة مُراماتُها، وللطّاعةِ سَعْيُها، وعلى المشايعةِ نشؤها، فما يعاديهم معادٍ إلّا كان عدواً لله ولأمير المؤمنين، مستحقّاً للعنته ولَعْنةِ اللّاعنينَ، ولا يُواليهم مُوالٍ إلّا كان في ذِمام أمير المؤمنين داخِلاً، وتحتَ عصمتِه حاصِلاً، وللأثرة[٦] عنده حائزاً.

واللهُ يبارك لأمير المؤمنين فيهم، ويحفظُ عليه الذَّخيرةَ مِنْهم، ويمتِّعُه بضُروب نِعَمه، وصُنوفِ آلائه، التي من أحْسنِها مَوْقعاً، وأبْينها أثراً، إطاقة هؤلاء الكُفاة الوُلاة،

---

(١) ف: رضوان.

(٢) الثأي والثأى: الإفساد كله، والخرم والفتق. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص١٠٦ (ثأي).

(٣) كتبها ناسخ س بالزاي.

(٤) س: المطيقة.

(٥) ساقطة في ف.

(٦) ف: للأصرة.

وحملهم الأعباء عنه، واستقلالهم دونَهُ بالملمّ إذا أعْضلَ، والصَّعب إذا أشْكل، بقُدْرته.

وقد عرفتُ حالَ الطّائفة من غِلْمانهم الأتْراكِ النّاشزةِ عليهم ببغداد، وأنّ العادة منهم كانت زائلةً عن السَّداد، ومنكَّبةً عن[1] الصّوابِ والرّشاد، وأنّ تلك الحال أدَّتْهُم إلى التّمادي في غاراتٍ شنّوها، وفتنٍ شبُّوها، وهفوات ارتكبُوها، وآثامٍ احتقبوها[2]، حتى كشفَ اللهُ على يد عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع - رعاه الله - تلك الغيايات[3]، وأنْقذَ به من تلك النكايات، وحَرسَ عليه فخر الأثرِ فيها، وأحرز له حُسْنَ المُقام في تلافيها، بزندِهِ الواري، وجَدِّه العالي، وطائرِه الأيْمن، وطالِعه الأسْعد، ومناقبه التي تُوجبُ أمير المؤمنين تقديم القدم ببَعْضِها، فكيف بمَن اشتمل على جميعها، ولم يَفْتهُ منه شيءٌ منها، فأحْسنَ اللهُ جزاءَهُ من مُجْتهدٍ مُصْلح، وساع في الخير مُنْجح، فلقد نَعَش الأمرَ بعد إشفائه، وتدارَكَه في آخرِ ذَمائه[4]، وأقرَّهُ على حقيقةِ نصابه، وأعلاه[5] بعد تولّيه وذهابِه، وذهابِه، واستحقَّ على أمير المؤمنين خصوصاً، وعلى أهل المِلّة والذِّمة عموماً أنْ يَعْرفوا حقَّه، ويَنْشروا فَضْلَه، ويغتبطوا بالموهبة فيه وعِنْدَه.

وكان من أعظم ما أقْدم عليه أُولئك[6] العبيدُ المضرّون بالمِلّة، الصّادّون عن سَبيل الله أن اتَّبعُوا المطيعَ لله - صلوات الله عليه - عند ابتداءِ الفِتْنة، وقد برزَ عن قَصْرِه،

---

(١) ف: على.

(٢) س، ر: احقبوها، وأصل الاحتقاب: شدّ شيءٍ في مؤخر الرحل أو القتب. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٣٢٥ (حقب). ومنه يقال: احتقب فلان الإثم أي جمعه وشدّه خلفه.

(٣) ر: الغايات.

(٤) الذَّماء: بقية النفس، وقيل: قوة القلب. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٣٨٩ (ذمي).

(٥) ف: أعاده.

(٦) ف: هؤلاء.

هارباً إلى مقرِّ نصْرِه، ومُجْتمعِ أوليائـه وعبيـدِه، وأعوانِـه وجُنـودِه، فـردُّوه وقَسَـروه، وحَبَسوه وحَصَروه. وعَلموا منْه - رحمـة الله عليـه - الإبـاء لهـم، والإنْكـار لفِعْلهـم، والازورار عنهم، والبراءة منهم، فنالوه بالهضيمةِ، واستحلّوا فيه العظيمة، جـاهلينَ مـا افترضَ اللهُ له على كلِّ مُسْلمٍ مُؤْمنٍ، ومُسْتبصرٍ في دِينه مُوقنٍ، ولا سِيَّما مـع علـوِّ سنِّهِ، وتأثل أمره، وما عرّفَ الله من بركةِ إمامته، وأبان من يُمْـن ولايتـه، وإنّـه كَنـفَ الأمّـة ثلاثين سنةٍ، يَكْلؤُهُم فيها وهـم وادِعـون، ويسـتيقظ وهـم هـاجعون، ويـدأبُ وهـم قارّون، ويتحفظُ وهم غارّون، ولا يَألو جهـداً في تَسْـكين دَهْمـائهم، وجَمْـع أهـوائهم، واجتلابَ الحُظوظِ لهم، ودَفْعِ الخُطوبِ عنهم، فلو لم تكنْ هذه حالُـه في وجـوبِ حـقِّ الأئمةِ، وانعقادِ أمْرِ المِلّة به، وأنّها السّائسُ الرّاعي، والخليفةُ الوالي، بل كـان رجـلاً مـن أفناء المؤمنين، قد أوْجَبَ الدِّينُ إعزازَهُ، وحَظر ابتزازَه، واقْتضت الكبرةُ أنْ يُبرّ ويُصان، والشّـيبةُ أنْ تُـوقّرَ وتُصـان[1]، لكـان الـذي ارتكبـوه منـه خلافـاً علـى الله ذي الجـلال والإكرام، وعلى رسوله عليه الصّلاة والسَّلام، وداعياً إلى أنْ تبرأ[2] منهم الذّمـةُ، وتحـلَّ بهم النّقمةُ، ويُجاهدوا جهادَ مَن خَلَع الطّاعة، وفارقَ الجماعةَ، وارتكب الشُّنعة، وابتدع البدعة.

ولما رأى هؤلاء العبيد الأُبّاق، الفُجّار الفُسّاق أنّهم قد أوحشوه واستوحشوا منه، وقبضوهُ وانقبضوا عنه، وأنّهم شِرْذِمةٌ قد توافتْ جيوشُ الإسلامِ إليها، وأطلّتْ عليها،

---

(١) حينما انحدر الجند الأتراك إلى واسِط أخذوا معهم الخليفة الطّائع لله، وكذلك الخليفـة المطيـع لله وهو مخلوع. فلما وصلوا إلى دير العاقُول، توفي بها المطيع لله، وذلك كان ٣٦٣هـ. ابـن الأثـير، الكامل، ج٧، ص٣٢٣.

(٢) ر، س: تتبرأ.

وآذنتها[١] بنوازل الحتوف، وقوارع المخوف، فاتّفقتْ على فضِّ جُموعِها، والغضب لله في سوء صَنيعها، وأنها بهذه الحال بعُرض التشتيت والتشريد، على شفا التَّطريح والتَّطريد، وأنّه – رحمة الله عليه – لا يستقلّ بالنّهضة إنْ طالبوه بها، ولا بالهزيمة إنْ عرّضوه لها، أكرهوه على أنْ خَلَع نفسَهُ، واضطرّوا أمير المؤمنين إلى الانتصابِ بموضعِهِ. وكانَ كلُّ واحدٍ منهما[٢] نازلاً تحت إرادتهم، وذاهباً مع مشيئتهم، وخائفاً أنْ يجرَّ عليه[٣] الالتواءَ إن التوى ما لا يُستدركُ ولا يُتلافى.

وعَمِلَ أمير المؤمنين على بَذْلِ الحُشاشةِ في دَفْع العظيم، والذَّبِّ عن الحريم، واستنقاذ الوالد الكريم، وأنْ يسلُكَ مع هؤلاء الطُّغاة البُغاة مَسْلكَ المستميلِ لهم، المظهِرِ لمعتقدِهِ فيهم، المراعي لفرصة التَّميُّزِ عنهم، والتّحيُّزِ دُونهم، والنُّزوعِ إلى أولياءِ دَوْلتِه، وأغذياء نعمتِه، فعانى منهم شدَّةً متعبةً، من إحراقِ المنازلِ والمحالِ، ونهب الذَّخائرَ والأمْوال، وإباحةِ كلِّ محظورٍ حرام، وإهراجِ الرّعاعِ العوامِّ، وسَفْكِ الدِّماءِ التي أمر اللهُ بحَقْنِها، وجَعَل الخُلودَ في جهنَّم لمن أراقَها، وهو في خِلال ذلك يثنيهم[٤] بالرِّفقِ، ويصدَّهم عن الخُرْق، ويردُّهم[٥] في أفعالِهم إلى الرّضا اجتراراً لهم إلى الطّاعة، وفي بعض الكراهيةِ تطريقاً إلى الكفِّ والمراجعةِ، حتى انْتهى إلى أنْ ساعدهم على ما سألوهُ إيّاه من خُروجِه، وإخْراج المطيع لله – رحمةُ الله عليه – معه، لمحاربةِ مَواليهم ومُلّاكِ نَواصِيهم، ومَن يليهم من أوْلياء أمير المؤمنين، وخيار أفاضل المسلمين،

---

(١) ف: نازلتها.

(٢) ف: منهم.

(٣) ف: إليه.

(٤) س: تنيهم.

(٥) س: يديهم.

الذين[1] لا تصحُّ الإمامةُ لمن اتّخذوهُ حَرْباً، وصارُوا دُونَهُ حزباً، لكنّها إنّما تخلصُ من الأسبابِ المعلّةِ لها، والعَوارض القادحة فيها، بدُخولِهِم في البَيْعة، وانقياد مَن ورائهم من الكافة، فصارت تلك الحركةُ التي جشَّمَها المطيعُ لله – صلوات الله عليه – داعيةً إلى العلّة التي نالتْهُ[2]، وترامت به إلى انقضاء نحبه، والانتقال إلى جوار رَبّه؛ لأنّ قوّتَهُ قصُرتْ عن حَمْلِها، وقُدْرته عجزتْ عن ثِقْلها، فانْضَاف الوِزْرُ الحادث به إلى أوْزارِهم، وزادَ في سيّئ أفعالهم، ونيّةُ أمير المؤمنين مع ذلك في إعْلان ما يعلنُ في مُوافقتِهم، وإبطانِ ما يبطنُ من مفارقتِهم، نيةٌ شهد الله بصفائها، واطّلع على نقائها، وسمع مِنه دُعاءً لا يزالُ يرفعُه في أعْقاب الصَّلوات، وأوْقات المناجاة، بأنْ يَتْعسَ جُدودَهُم، ويَضْرِعَ خُدودَهُم، ويَحْسمَ عن الدِّينِ والدّنيا معرّتَهُم، ويكفَّ عاديتَهُم ومضرّتَهُم.

وحقيقٌ على الله أنْ يفعلَ ذلك بهم، وقد خالفوا[3] فرائضَهُ، وعطَّلُوا سُننه، وبدَّلُوا

---

(١) ف: الذي.

(٢) ر: نازلته. وكان الخليفة المطيع لله قد أُصيب بالفالج وتعذرت عليه الحركة، وثقل لسانه، وكان يستر ذلك، ولكن انكشف ذلك لسُبُكْتِكين الحاجب في ذي القعدة من عام ٣٦٣هـ؛ فأصرّ عليه لخلع نفسه عن الخلافة وتسليمها لولده الذي لُقّب بالطّائع لله. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣١٨. قال ابن العمراني: استشعر عِزّ الدَّوْلة بَخْتِيار من حاجبه سُبُكْتِكين المعزي ومن جماعة الأتراك وبَعُد عن بغداد، فقصد الحاجب سبكتكين وجماعة العسكر دار الخليفة وطلبوا منه أن يخرج إليهم وحسّنوا له قلع الديلم فلم يجبهم إلى ذلك نظراً في عواقب الأمور، فانصرفوا وقصدوا ابنه ووليّ عهده ولده الأمير أبا بكر عبد الكريم بن المطيع وخاطبوه في ذلك فأجابهم وخرج معهم وأظهروا خلاف الديلم. ودخل الأمير أبو بكر عبد الكريم على أبيه المطيع لله وسأله خلع نفسه، فرأى الجد منه وخاف على نفسه من القتل، فخلع نفسه وسلّم الأمر إلى ولده. الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٧٨.

(٣) س: خالفوه.

أوامِرَه، ونقضوا[١] أحكامَه؛ وحَصَلوا بين إمامٍ يلقى الله بالظّلامةِ منهم، وانتصابِ إمامٍ بَعْدهُ يَعْصبُ اللّعنة بهم، وسُخْطِ مَوالٍ تربّوا في عَرَصات دُورِهم، وارتَضعُوا درَّة نَعمائهم، فجاوزَهُم بالمحاربة، وأبْدوا لهم صَفْحة المجاذبة، وجَهلوا[٢] الحقّ الذي يلزمُهُم أنْ يعرفوهُ لهم، ويحفظوهُ فيهم. ولما نزلتْ بهم النَّوازلُ، وهبلتهم الهوائلُ، وأظلّهم البوارُ، واستمرَّ بهم العِثار، وغشيتهم جيوشُ أمير المؤمنين المنوطةُ بحامي البَيْضة، وراعي[٣] الحوْزة، عَضُد الدَّوْلة[٤] – رعاه الله – فتفرّقهم فِرقاً، وأطارهم شُقَقاً، وقسّمهم شُعاعاً، وأيدي سَبأ[٥]، وأنْجزَ فيهم مواعيدَ الله، وأذاقهم سُوءَ عاقبة[٦] ظُنونهم الكاذبة، وقتلَ منهم مَن أذنَ اللهُ في تعجيله، وهَزمَ مَن أملأَ اللهُ له إلى غاية تأجيله. حالوا بين أمير المؤمنين وبين اختيارِه في الانْقِطاع عنهم، والإقامة بَعْدهم، فسارَ إلى تَكْريت مَسيراً ظاهرُه ظاهر انحيازٍ وحذر، وباطنه باطن غنيمةٍ وظَفَر، أنْ أجابَ اللهُ دعاءه، وحقَّقَ رجاءَهُ، وجعلَ الفئة التي إليها انصبابُه وعليها اعتمادُه، وإنْ كان نازحاً عنها، هي الظّاهرةُ على الفئة التي لها اجتنابُه، وعنها انحرافُه، وإنْ كان حاصلاً فيها. ولم يَزلْ يعمل الحِيلة في المفارقةِ لهم[٧]، والخلاص منهم إلى أنْ يسَّرَ اللهُ ذلك[٨] له، وأعانه

(١) (أوامره ونقضوا) ساقط في ف.

(٢) ف: جهدوا.

(٣) ف: حامي، مرة أخرى.

(٤) ف: وعضد الدَّوْلة.

(٥) من أمثال العرب، يُضرب في الفرقة والتمزّق. الميداني، مجمع الأمثال، ج١، ص٢٧٥؛ الزمخشري، المستقصى، ج٢، ص٨٨.

(٦) س: عاقبته.

(٧) ساقطة في ف.

(٨) س: لي ذلك منهم.

عليهم بما أوْقعهُ بين أُولئكَ المفلولينَ من اختلافِ الأهْواءِ، واختلالِ الآراءِ، وانتكاثِ العزيمةِ، والتياث الصَّريمةِ، فتمزّقُوا في البلادِ كما تُمزِّقُ الرِّيحُ رِجْلَ الجراد[١]، ولاذَ الأكْثرُ منهم بمَواليهم، وألجأتْهُم الفاقةُ إليهم، على غيرِ عهدٍ ولا أمانٍ، ولا عقدٍ ولا ضمانٍ، بل على حُكْمِهم فيهم، فإنْ نَفَذ بالعُقوبةِ فبالحقّ الواجب نفاذُه، أو عَدَل إلى الإقالةِ فبالحِلْمِ[٢] الرّاجح عدولُه.

وذلّل اللهُ حينئذٍ لأميرِ المؤمنين صَعْبتَهُم، وحطّم صُعْدَتَهُم، وأقْدَرَهُ على أنْ يبادئهم بالمباينةِ التي كان يُخْفيها، ويَسْتعملَ معهم التقيّة بما يُنافيها، فانثنى إلى مدينة السَّلام سالماً في نَفْسِهِ وخاصَّتِه، مَحْروساً في أسْبابِه وحاشيته، مجموعاً بينه وبين ناصحه وصفيّه، وأمينه ووَليّه عَضُد الدَّوْلة - أحْسنَ[٣] اللهُ به الإمتاع، وحرسَ عليه الموهبةَ فيه - ومَن معه من مَواليه وعَبيدِه، وأنْصارِهِ[٤] وجنودِه، وقد أُعْفيتْ ظُهورُ ركابِهم، وآبتْ البركةُ بإيابِهم، وأصبح بهم الأمْنُ شاملاً[٥]، والعَدْلُ فائضاً، والخللُ مَسْدوداً، والخرْقُ مَرْتوقاً.

وكتابُ أمير المؤمنين هذا[٦]، وأعداءُ الدَّوْلة، وزُعماءُ الفتْنة بين قَتيلٍ مرمَّل، وأسيرٍ مكبَّلٍ، وهاربٍ مفلولٍ، ومستأمنٍ مقبولٍ، قد نَزَعوا سَرابيل[٧] الاستكبار، وادّرعوا

(١) مثلٌ يُضرب للتشتت. الثعالبي، سحر البلاغة، ص١٦٨.

(٢) ف، س: فبالحكم.

(٣) ف: احرس.

(٤) ر: نصاره.

(٥) س: شامل.

(٦) ساقطة في ف.

(٧) س: سراسبيل.

جلابيبَ الصَّغار، وأيقنوا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[1]، و﴿ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2]؛ فالحمدُ لله ناصر أولياء المؤمنين ومُديلهم، وخاذل أعدائه ومُزيلهم، ومُحلِّ القارعة بكلِّ مَن كان عنه مُنْحرِفاً، وعلى نَفْسِه مُسْرفاً، وعن سَبيله صادِفاً، ولأمره[3] مُخالفاً.

وأميرُ المؤمنين يَسْألهُ مُجْتهِداً، ويَرْغَبُ إليه مبتهلاً، أنْ يُوزعَهُ شُكْرَ ما أنْعَم به عليه، ويُعينَه على الاستقلالِ بما وكله إليه، ويَجْعلَ الملمَّة التي أَلَمَّتْ به وبالمسلمين. ثم تجلَّتْ عنه وعنهم أجْمعينَ، آخرَ النَّوائبِ ومُنتهاها، وتاريخها وانقضاها، ويتولّاهُ في نَفْسِه وفيهم بمستأنَفِ نعمةٍ تجبر ثَلْمَها، وتأسوا كَلْمَها، وتُعفي أثْرَها، وتُنسي ذِكْرَها، ويُوفر قَسْطَكَ وأقساطَ الصّالحينَ[4] مَعك من هذا[5] الدّعاء الذي يعمّ به أمير المؤمنين الأمّة، ويستنزلُ بالإخلاص فيه الرَّحْمة، إنّه على على ذلك قديرٌ، وبه جديرٌ.

وقد كانت الشّبهةُ دخلتْ على كثيرٍ من الرّعايا الدّيّانين، لحصولِ أمير المؤمنين - كان - مع تلك الطّائفة الباغية، التي يبرأ منها بقولِه وفعلِه، ويَلْعنُها في سرِّه وجَهْره، وظهور ما ظهر منهم من المناكير التي يستعيذ بالله من الرِّضا بها، والميل إلى مَن قارَفها وارتكبها، من الأحوال التي لا حاجة بنا إلى شرحها، مع قُربِ العَهْدِ بها. ولمّا انكشفَ اللّبسُ، ووضَحَ الحقّ، انقادَت الخاصّة والعامّة إلى طاعته، وأعطت صَفْقة أيْمانها

(١) سورة يوسف، من الآية ٥٢.

(٢) سورة يونس، من الآية ٨١.

(٣) س، ر: وعن أمره.

(٤) ف: المسلمين.

(٥) ف: بهذا.

بمُبايعته، وبرد[١] اليقين منها في صحّة دَعْوته، وثبوتِ حجّته، ودخل النّاس أفواجاً في التَّسْليمِ[٢] له، والصّلاة خلفه، ولم يَبْقَ شاكٌّ إلّا استيقنَ، ولا معتاصٌ إلّا أذْعن، ولا مخالفٌ إلّا أطاعَ، ولا متوقفٌ إلّا[٣] انقاد.

وأميرُ المؤمنين يأمرك بأخذِ البَيْعة على نَفْسِك، وعلى جُمْلة الأولياء[٤] قِبَلك، بصدورٍ منكم منشرحة، وآمالٍ مُنْفسحة، وقُلوبٍ موافقةً، وآراءٍ متطابقة؛ وأنْ تُشهرَها وتُظْهرَها؛ ليتلاحقَ في مَعْرفتِها الوجوه والأتباع، ويَسْتويَ في العِلْم بها الخواصُّ والعوامُّ؛ فتكون الجماعةُ على ثقةٍ من كَفالةِ أمير المؤمنين لها، وذبِّه عنها، ونَظْمِهِ أمورها، وسَدِّه ثغورها، ومحاماتِهِ علَيْها، ومراماتِهِ دونها.

فافْعَلْ ذلك بالغاً أقْصى مبالغَ الرّاشد المصيب، والعارفِ اللَّبيب، وانْهِ إلى أمير المؤمنين ما تأتيه فيه، فإنّه يَتطلّعه ويراعيه، إنْ شاء الله.

---

(١) ف: يفرد.

(٢) ف: السَّلام.

(٣) س: إلى.

(٤) ر: أولياء.

وكَتَب عن عَضُد الدَّوْلة لما وَرَد الخليفة الطّائع لله البَرَدان[1]

أنعم بالإذن لنا في تلقّيه على الماء، فامتثلناه وتقبّلناه، وتلقّانا من عَوائد كرمه،

(١) تتعلّق هذه الرسالة بأحداث الرسالة السابقة، وقد أوردها الهمذاني بعد أن قدم لها بقوله:

لما بلغ الأتراك استيلاء أبي تغلب الحمداني على دورهم، وأخذه ما وجد فيها من انقاض وغيرها أصعدوا معهم الطّائع. فلما قاربوها أصعد أبو تَغْلِب عنها، فأصعدوا وراءه الأنبار وانحدروا وقد بعد ودخلوا بغداد، وانحدر الطّائع إلى داره، وجدد ألفتكين التوثقة على حمدان بن ناصر الدَّوْلة ثم أطلقه وخلع عليه، وأنفذ رُكْن الدَّوْلة جيش الري مع أبي الفتح بن العَميد وساروا الى عَضُد الدَّوْلة وأمر بالنفوذ لمعارضة عِزّ الدَّوْلة، فالتقوا بأرّجان وساروا وكان أكثر خوفهم أن يتلقاهم الأتراك بباذبين (من قرى واسط)، وهم تعبون فكفوا ذلك بإصعاد الأتراك. ولما وصل عَضُد الدَّوْلة اجتمع به بَخْتِيار وأصعدوا عن واسط وسار عَضُد الدَّوْلة في شرقي دجلة وعِزّ الدَّوْلة في غربيها، فأحضر الطّائع الأشراف والقضاة وأخذ على الأتراك الأيمان بالطاعة والمناصحة في الثبات والمكافحة، وركب الى باب الشماسية واستقر الناس لقتال عَضُد الدَّوْلة واجتمع من العامّة إليه الجم الغفير، وكان عِزّ الدَّوْلة مع إيثاره لنصرة ابن عمه يخاف من مجيئه ومشاهدة نعمته. ولما قاربوا بغداد انحدر المطيع وألفتكين وعبروا ديالي وعسكروا ما بينه وبين المدائن والتقوا بعَضُد الدَّوْلة فكانت للأتراك أولاً، ثم انهزموا فغرق منهم خلق كثير واستأمن آخرون ودخل بغداد في النصف من جمادى الأولى ونزلوا عند باب الشماسية، ثم رحلوا عند إسفار الصبح وقد أخذوا عيالاتهم وأسبابهم وتبعهم الخلق الكثير من أهل بغداد، وأنفذ عَضُد الدَّوْلة ونادى ببغداد بالتسكين لأهلها والعفو عن جنابها، ونزل بباب الشماسية عند دخوله. فلما وصل خبرهم من تكريت بتشتتهم، نزل عَضُد الدَّوْلة في دار سُبُكْتِكين، ونزل عِزّ الدَّوْلة داره وهي دار المتّقي لله، وراسل عَضُد الدَّوْلة الطّائع لله بأبي محمد بن معروف القاضي حتى استعاده ودخل الى بغداد في حديدي (من أنواع المراكب النهرية) جلس على سطحه وخرج عَضُد الدَّوْلة في طيّاره فتلقاه قريباً من قطيعة أم جعفر وصعد الحديدي وقبّل البساط ويد الطّائع لله، وطُرح له كرسي بين يديه فجلس عليه وكان عَضُد

ونفحات شِيَمه، والمخائل الواعدة بجميل آرائه، وعَواطف إنهائه، ورعاية ما كنفنا يُمنه. وشايعنا عزّه، إلى أنْ وَصَلْنا إلى حضرته البهيّة - شرّفها الله تعالى - بالحديدية التي استقبلت منه بسَليل النبوّة، وقَعيد الخلافة، وسَيّد الأنام، والمستنزل بوجهه دُرَر الغمام، فتكفأت علينا ظلالُ نوره وبِشْره، وغمرنا تفضّله وفضله. وقرب علينا سنن خدمته، وأنالنا شرف القعود بين يده، على كرسيٍّ أمر بنصبه لنا عن يَمنيه، وأمام دَسْته، وأوسعنا من جميل لُقياه، وكريم نَجْواه، ما يسم بالعز إغفال النِّعَم، ويضمن الشَّرف في النّفس والعقب، ويكفل من الفوز في الدِّين والدّنيا بغايات الأمل، وكانت لنا في الوصول إليه، والقعود بين يديه، في مواقع ألحاظه، وموارد ألفاظه، مراتب لم يعطها أحد فيما سَلَف، ولم تَجِدُ الأيّام بمثلها لمن تقدّم. وسِرْنا في خدمته على الهيئة التي ألقى شرفها علينا، وحصل جمالها مدى الدّهْر لدينا، إلى أنْ سار إلى سدّة دار الخلافة والسُّعود تشايعه، والميامن تُواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الإسلام يبتسم إليه، فعزم علينا بالانقلاب معه على ضُروبٍ من التشريف، لامورد بعدها في جلال، ولا موقف وراءها لمذهب في جمال؛ واجتلت الأعين من محاسن ذلك المنظر، وتهادت الألسن من مناقب ذلك المشهد، ما بهر بصر الناظر، وعاد شمل الإسلام مجموعاً، ورواق العزّ ممدوداً، وصَلاح الدَّهْماء مأمولاً.

الدَّوْلة عليه، وأحدقت الطيارات والزبازب بالحديدي، وانحدروا كذلك إلى دار الخلافة وكان عَضُد الدَّوْلة تقدم بعمارتها وتطريتها وإنْفاذ الفرش والآلات إليها، وحمل إلى الطّائع مالاً وثياباً وطيباً وخطب له يوم الجمعة عاشر رجب بعد أن قطعت الخطبة له من عاشر جمادى الأولى ولم يخطب إلى هذه الغاية لأحد. تكملة تاريخ الطبري، ص٢١٩. والبردان من قرى بغداد. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص١٧٩.

وكَتَب[١]

من عبد الله عبد الكريم الطّائع لله أمير المؤمنين

إلى سائر مَن جرى عليه حكم الطّاعة ودخل في الجماعة

من أهل بيت أمير المؤمنين وقُوّاده وغِلْمانه ومَواليه وجُنده وشاكريّته وكُتّابه وقُضاته

وخَواصّ بِطانته وعَوام رعيّته

سلامٌ عليكم، فإنّ أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، ويسأله أنْ يصلّي على مُحمّدٍ عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلَّم.

أما بعد، وليكم الله بهدايته، وأيّدكم بمعونته، وجعلكم من حزبه الغالبين، وأوليائه المخلصين، فإنّ أفضل ما أعمل أمير المؤمنين فيه فكره ورؤيته، وصرف إليه[٢] خاطره وسمته: قولٌ وفعلٌ اشترك المسلمون على اختلاف مَقارّهم و........[٣]، وبُعْد ما بين مَراتبهم و......[٤] في استعذاب ثمرهما، واستغرار قربهما، والانتفاع .....[٥] وبفضائهما، والاغتباط بمستقبلهما وعُقباهما. فإذا وفّقه الله من ذلك لما يأسو

(١) طهران.

تتعلّق هذه الرسالة بأحداث الرسالة السابقة. فحينما عاد الخليفة الطّائع لله إلى بغداد، هُيّئت له دار الخلافة، «وأمر بإنشاء الكتب عنه إلى النواحي باستقامة أحوال السّلطان وتعفّي آثار الفتنة، وتألّف الشمل، وكُتبت وفُرّقت في الممالك كلّها». مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٩٠.

(٢) في الأصل: إليها.

(٣) كلمة ضَبَّبها الحبر.

(٤) كلمة غير مقروءة.

(٥) كلمة غير مقروءة.

جُروحكم، ويدمل كُلومكم، ويحفظ أُصول شريعتكم، وفُروع معايشكم، ويتابع بركاته وصالحاته لأهل مِلّتكم وذِمّتكم، وجرى ذلك مَجرى الغَيْث إذا عمّ وطبق، وقرن الشّمْس إذا ذرّ وأشرق في شمولها البريّة بأسرها، نابهها وجاهلها، ونابتها وهامدها، أوجب أمير المؤمنين على نفسه الحديث بنعمة الله فيه، وتنبيه مَن لا يؤمن أنْ يلحقه السّهو واللّهو منكم عن شكر واهبه ومُوليه، ومَسألته - جلّ وعزّ - لأمير المؤمنين حُسْن التَّسديد لأن تكون مَساعيه التي يسعاها، ونتائج ..... [1] التي يرعاها عائدةً على مَن ولّاه الله أمره بسَعة الكلأ والمرعى، وصَلاح الأقرب والأقصى، لا سِيَّما والشكر الذي يريده أمير المؤمنين من نفسه ومنكم قيد هذه النِّعَم وشكالها، ومحبسها وعقالها، وحاميها الذي به ثَباتها، ويؤمن انتقالها، فقد علمتم أنها شبيهة بالوحش الذي لا يقيم مع الإيحاش، ولا يريم مع الإيناس، وأنّ طول مَكْثها، وتمادي لُبْثها إنّما يكونان في عرضات المستيقظين لها، المتحفّظين فيها، كما أنّ .... [2] ورحيلها إنّما يكونان عن أفنية المرتدّين عنها، المستوطئين لوثارتها، الذين عَشيت أبصارهم، وصَدئت بَصائرهم، دون مراشد الأمور المرتبطة لمستوفزها، الذائدة لما يرهقها ويخفرها. وأمير المؤمنين يسأل الله مبتهلاً، ويرغب إليه مجتهداً أنْ يهنئه ما أودعه من عَوارفه، ويمليه ما أفاض عليه من مَنائحه، ويجعل جميعها في الأسباب الشّاملة له وللمسلمين، العائدة بنظام الدّنيا والدِّين، ويحصّن ذلك عنده وعندكم من كلّ قادحٍ يقدح، وفادحٍ يفدح، وألّا يخليه مع حياطة الحوْزة، وحماية البَيْضة من مزيدٍ يتّصل منه المدد و...... [3] لا إلى أمد، وحَسْب

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) كلمة غير مقروءة.

(٣) كلمة ضَبَّبها الحبر.

أمير المؤمنين الله، عليه يتوكّل، وبه توفيقه، وإليه مَوئله، وهو وَليُّه، وهو ....[(١)] بينكم - رحمكم الله - العلم الذي ....[(٢)] اليقين الذي لا تتناكرونه بما كانت عليه الخلافة عليه من وثاقة بُنيانها وأركانها، وكَثرة أنصارها وأعوانها، وعِمارة بيت مالها بالتَّليد والحاصل، والحمل المتواصل، والأطراف المضبوطة، والثغور المسدودة، والأمر النافذ في شرق البلاد وغربها، والطّاعة الفاشية في أسود الأمّة وأحمرها. وأنّ الفَساد دَبّ وسعى، وشبّ ونما، واستحوذت على سَرير الملك أيدٍ أسرعت في استنفاد الأموال، واستهلاك الذخيرة والاستظهار، وقَصُر باعها عن ضَبْط ما بَعُد أولاً، ثم عن حِفْظ ما قَرُب ثانياً. واستمرّت على التّراضي بانخفاض الهِمَم، والاصطلاح على اتّضاع الشَّيَم، والقَصْد لأن تعذب لها موارد اللّذات، وتتسهّل عليها حاجات الأوقات، فلا يأمرون إلّا بمُنْكر، ولا ينهون إلّا عن مَعْروف، ولا يكدحون إلّا لتطييب الطُّعوم، وتَنْعيم الجسوم، واتّباع الشّهوات، خاصّةً محظورها، والمستكرَه عند الله منها. ولم تزل تلك الحال بينهم تتنزّل من غايةٍ إلى غاية، وتنتقّل عن قَرْنٍ إلى قَرْن، على تدريجٍ يكون به الأول محموداً إذا قيس بثانيه، ومشكوراً إذا قُرن بتاليه، حتى أفضينا إلى ما شاهدتم من تعفّي آثار السَّداد، وطَمْس معالم الصَّواب، وحتى صار الغاوي من الناس مجاهراً بغوايته، ومستمرّاً على عمايته، ومستأنساً بنُظرائه، ومتأسّياً بقُرنائه، وصار الرّشيد محصوراً عن مناهج رُشْده، ومقتصراً على صَلاح سِرّه، منفرداً في ذلك بنفسه، آيساً من الاقتدار على غيره؛ فعمرت سُبل الباطل بكثرة طُرّاقها، وأوحشت مناهل الخير بنزارة وُرّادها، وصار الإمام من أئمّة تلك الأزمنة التي هذه سجايا أهلها، معصيّةً آراؤه

---

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) ثلاث كلمات ضَبَّبها الحبر.

وأوامره، مخالَفةً نواهيه وزواجره، مغالطاً نفسه، ومكذّباً حسّه، وغاضّاً طرفه، وسادّاً سمعه، ومغدقاً قناعه، وقابضاً ذراعه، لا تتجاوز به القُدرة أنْ يسكّن الدَّهْماء، ويحتمل العراء، ويغتنم سَلامة مُهجته، ويحتفظ بظاهر هَيْبته، ويعضّ الشكيمة على ما ينكره، ويرد ....[١] عمّا يؤثره، انتظاراً لنيّة الأيّام، وكرّات الزّمان، ونهوض الطّاقة، و........[٢] الاستطاعة، إلى أنْ مضى مَن مضى من الخلفاء صلوات الله عليهم، وقد كَتَبَ الله لهم ....[٣] وأنْ ....[٤] والعاملين وإنْ لم يقدروا.

وأفضى الله بالأمر إلى أمير المؤمنين في أشدّ الأحيان تكدُّراً، وأقبحها تنكُّراً، وأضمّها فتنةً، وأبداها عَوْرةً، والسَّرير محفوفٌ بطوائف اشتملت عليه، لا تتراعى الذِّمم، ولا تتحافظ العُهود، ولا تتناهى عن نُكْر، ولا تأتمر لعُرْف. أمراؤهم عَجَزةٌ قَعَدة، وكُتّابهم خَوَنةٌ مَرَدة، وخَدَمهم ناكصون عن أعدائهم[٥]، مستأكلون لمدبّريهم، قد خلعوا رِبْقة الطّاعة، ونزعوا سَرابيل المراقبة. إنْ قَتلوا لم يُقادوا، وإنْ تَسلّطوا لم يُذادوا، أو أُمروا لم يأتمروا، أو زُجروا لم يزدجروا، ورعيّتهم رعاعٌ سَفِل، سَوامٌ هَمَل، قد تحزّبوا أحزاباً، وتعصّبوا عُصَباً، يغزو دنيئهم الأشرف، ويستجير قويّهم الأضعف. الأعراض بينهم مَهْتوكة، والدِّماء مَسْفوكة، والأموال مُجتاحة، والدّيار مُستباحة، والحرّ بالعَراء منبوذ، والوَغْد مكرمٌ مصفود[٦]، والسّياسة مكبوبةٌ على أمر رأسها، معكوسةٌ عن جهة

---

(١) كلمتان غير مقروءتين.

(٢) كلمة ضَبَّبها الحبر.

(٣) كلمة ضَبَّبها الحبر.

(٤) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: حققوا.

(٥) في الأصل: اعتدائهم.

(٦) الصَّفَد والصَّفْد: العطاء. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٢٥٦ (صفد).

صَوابها، وليس من جميع ذلك إلّا ما قد رآه قريبكم نظراً، وعلمه بعيدكم خبراً، وشملت فيه البلوى، وتتابعت منه الشكوى، فكم فشا فيكم من قتلٍ ذريع، وضرٍّ وَجيع، وهَرَبٍ وجَلاء، وضَنْكٍ وبلاء، نار مضرمة، وفتنة محتدمة. وأمير المؤمنين يقاسي من ذلك قذاة عينه، ويعالج غصّة صدره، ويتولّج مضائق الفكر والرويّة، ويتوغّل إلى مكامن الحزم والحيطة، .... [١] الأسباب حسم هذه الأدواء بكل ما تحمله، وأداء ما عليه مطلبه من رفقٍ وشدّة، ولطفٍ وغلظة، فكان الذي أثمر له الاجتهاد، ودلّه عليه الارتياد .... [٢] من صَلاح هذه الطّوائف الناشئة على اعتياد المعاصي، والاستئناس بالدّواهي، والثقة بأنّ أوَدَها لا يتقوّم، ورَيْفها لا يتسدّد، وخلائقها لا تنصرف عمّا .... [٣] العادة .... [٤] عليه بسياجها، واستمرّت به على اعوجاجها ، إذ كانت العادةُ طبيعةً ثانية، وسَجيّةً لازمة، كذلك .... [٥] العلماء، وأمير المؤمنين يرى أنّ الطبيعة الثانية المكتسبة في العبادات أصعب نقلاً من الأولى المركّبة في الذات، وذلك أنّ الأولى تتغيّر عن جِبِلّتها في حال اللِّين من عَريكتها، والغَضاضة من عودها، وإمكان التغيير والنقل فيها. والثانية مستحكم على مرور الزّمان، ومع المواظبة والإدمان، فمتى حاول المحاول عَكْسَها عن وَجْهها، وقَلْبَها إلى خلافِ جِهَتِها صادَف منها عوداً عاسياً، وإباءً عاصياً، وطينةً جامدةً لا تتخلّق بغير ما جمدت عليه، واستحجرت فيه.

ورأى أمير المؤمنين أنّ الكيّ والإنضاج أنجع ما يُستعمل فيها من العلاج، وأنّه

---

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) كلمة ضَبَّبها الحبر.

(٣) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: صريت.

(٤) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: المسببة.

(٥) خمس كلمات ضَبَّبها الحبر.

غير ممكن إلّا بيدٍ باطشة، وقوّةٍ غالبة، وعزيمةٍ ماضية، وصَريمةٍ نافذة، فلم يكن له معدلٌ عن عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة أبي شجاع بن رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ مولى أمير المؤمنين – أدام الله عزه – سيف أمير المؤمنين القاصل، وسنانه العامل، وسهمه الصّائب، وشهابه الثّاقب، المتوحّد بفضائله، المتفرّد بمناقبه، النّازح عن مُضارعة المناوئين، النائي عن قياس المنافسين، الذي لا يُنكر الغلوُّ في تقريظه، والإفراطُ في إطرائه، لإرمائه على الغايات، وإيفائه على النهايات، عقلاً رصيناً، وحِلْماً رزيناً، وقدراً سنيّاً، وأنفاً حميّاً، وتطبيقاً لمفصل الرأي، حيث يُجهل صوابه، وتُشوى أغراضه، ويُمْن نقيبته في كلّ معضلٍ يحاول، ومشكلٍ يزاول، اللّبيب في تدبيره، المصيب في تقديره، الناشئ على نزاهة المركب، ونجابة المنصب، والطّاعة لأمير المؤمنين التي يضرب فيها بأوفر سهم، وينزع إلى أكرم عرق.

وقد أوجده الله هذه المنائح الخطيرة، والمهادح الشهيرة، ثروةً من الذخائر والأموال، وكثرةً من الرِّجال الأبطال، استظهاراً بكلّ ما أقام من دين الله أوداً، وهاض من عدوّه جَناحاً، لم يحتجن ذلك إلّا بالطّاعة، ولا يفرقه إلّا في نظم ألفة الجماعة؛ ففزع أمير المؤمنين إليه في الفتنة الأولى أيّام مُفارقته داره بمدينة السَّلام، وشخوصه عنها مع مَن كان غالباً على الأمر من الأتراك، وهو إذ ذاك مستحكمٌ للوحشة، متجشّمٌ للغربة، صابرٌ على مَضَض فرقة الأهل والولد، ومُهاجرة المنزل والوطن، فكان هو الذي خفض جأشه من استيجاشه حتى عاد واستقرّ، وسكن واطمأن. ولولا ثقته به لما وثق بغيره، ولا كان راكناً إلى الرّجوع بعد تلك الحروب التي حمي وَطيسها، واعتبطت نفوسها، واستعرت نارها، واستطار شرارها، وامتلأت الصدور بها حفائظ لا تُنسى، وطوائل لا

تُسلى. ولم يَزل أمير المؤمنين مـدّة مُقامـه - كـان - بحضـرته، واشـتماله عـلى خدمتـه، مستريحاً قلبه، محمولاً كلّه، مطاعاً أمره، عزيزاً جانبه. فلما قدر أنه قد فزع لأمير المؤمنين من مهمه، واستخلف من يحذو أمثاله، وشخص إلى فارس خُولفت رُسومه، وتُعـدّيت حُدوده، وجُهل حقُّ أمير المؤمنين وحقُّه، وخُلعت طاعتُه، وأمير المؤمنين في خلال ذلك يجتهد بمَن كان يرجو أنْ يصحو من سَكْرته، ويفيق من غَمْرته[1].

(١) تنقطع الرسالة هنا. ويوجد تعليق بهامشها: «لم يوجد تمام هـذا الكتـاب». وبـذلك فقـدنا مـادة تاريخية مهمة.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب ابنِ ناصرِ الدَّوْلة
في سنة أربع وستّين وثلاثمائة
في أمر سُبُكْتِكين المعزِّي(١)

كتابي، يا سَيِّدي ومَوْلايَ عُدّة الدَّوْلة -أطال الله بقاءك- من المعسكَرِ بأعلى واسِط، يومَ الأربعاء لثلاثٍ خَلَوْنَ من المحرَّم، عن سَلامة أحْمَدُ الله عليها، وأسألُهُ أنْ يجمَعَنا فيها، كما جمَعَنا في النِّعَم كُلِّها، وأنْ يوفِّرَ حظَّكَ من كلِّ خيرٍ يُنزِلُهُ، وصَلاحٍ يُسهِّلُه.

وقد أجبتُكَ يا سَيِّدي عن كتابِكَ الوارِدِ بتاريخِ يوم الثلاثاء لاثنتَيْ عشْرةَ ليلةً بقِيَتْ من ذي الحجَّةِ، المنبْىءِ عن جَوابِ ما صَدَر من جُنْدَيْسابور، وبما أرجو وُصولَهُ. ووَرَد في هذا اليوم أبو الحسن عليُّ بنُ طاهرٍ برسالتِك، والتَّذْكِرة التي اشتَملَتْ على لفظِكَ، فآنَسني وُرودُه، وأبهَجَني وُفودُه، وكرَّرتُ النَّظرَ فيها أدَّاهُ اغتباطاً به واستِرواحاً إليه، وشكَرْتُ بِرَّك وفِعلَكَ اللّائقَينِ بكَرمِ أعراقِكَ وشَرَفِ أخلاقِكَ، ووَجَدْتُكَ قد زِدتَ فيهما على ما يَبلُغُه الأخُ وابنُ العمِّ، والمناسِبونَ باللَّحم والدَّم، فالله يُطيلُ بقاءك، ويَصِلُ إخاءك، ويُحسِنُ عَوني على إداءِ مُفتَرَضِكَ والقيامِ بحقِّك، ومُجازاةِ اليدِ البيضاءِ التي أوليتَنيها، والمِنَّةِ الغرّاءِ التي طوَّقْتَنيها بقُدْرته.

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. وأورد قسماً منها الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٩؛ الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص١٠٩. (في أمر سبكتكين المعزي) إضافة من الكلاعي. تجدر الإشارة إلى أن محقق يتيمة الدهر ضبط (المعزي) (الغزني) ظناً منه أنه والد السلطان محمود الغزنوي.

وأمّا إنكارُكَ تَرْكي أنْ أشرَحَ لكَ الحال التي حدَثَتْ، فقد كانت كتُبي الأُولى نفَذَتْ على عَجَلةٍ لم أتمكّنْ معها من تفصيلِ الجُملةِ، واعتمَدْتُ إرْجاءَ ذلك، لتنتهيَ القصَّةُ إلى إسفارٍ عن شيءٍ أُحصِّله، أو تقِفَ عند حَدٍّ أُعَرِّفُه، فلمّا تمادَى هذا الغُلامُ الباغي والعبدُ العاصِي فيما يستحِقُّ به لعنةَ الله ولعنةَ اللّاعنين، من الخالقِ والمخلوقين، تابَعْتُ كُتباً أُخَرَ كافيةً، وأنفَذْتُ أبا النَّجْمِ للمشافهَةِ الشّافية، وطالَعْتُكَ بكلِّ ما حدَثَ وتجدَّدَ لوقتِهِ وأوانه، وكيف أُؤخِّرُ عنكَ شيئاً، أو أطوي دُونَكَ أمراً، وأنتَ العُدَّةُ النفيسَةُ والعُقدَةُ الوثيقَةُ، والشريكُ المناصفُ، والخليطُ المقارِضُ؟ ومَن يستحقُّ عندي أنْ أبتدِئَ به دونَ كلِّ أحدٍ في الشكوى للنوائب، والبُشرى للمَواهب؟

وأمّا ما أنفَذْتَهُ من نُسَخِ الكُتبِ التي يُصدِرُها ذلك الخائنُ إليك، والرَّسائل التي وَرَدتْ منه عليك، فقد وقَفْتُ عليه، وطال عَجَبي منهُ، ووَجَدْتُه جامعاً لكلِّ لفظٍ وَضيعٍ سَخيف، ومعنىً ركيكٍ ضَعيف، ولئنْ كان أرادَ به مَساءتَنا فلقد أورَدَ به مَسَرَّةً علينا، لأنّ الله إذا اطَّلعَ على لفظِه وقِحَتِهِ فيه وبَهْتِهِ، زادَهُ من بَغْضَائهِ ومَقْتِه، ورَفَع عنه الحِلْمَ والإمْهالَ، وعاجَلَهُ بالاجتثاثِ والاستئصالِ، وكَفاهُ عاراً باقياً خِزْيُه، خالداً شَنارُه، وأنْ يَغُضَّ من مَواليهِ الذين في دُورِهم دَرَج، ومنها خَرَج، وأنْ يُتبعَهم هُجْراً من القولِ لا يَليقُ بهم، بل به دونَهم، وهو بحمدِ الله أرَقُّ دِيناً وأمانةً، وأخفَضُ قَدْراً ومَكانةً، وأتمُّ ذُلاً ومَهانةً، وأظهرُ عَجْزاً وزَمانةً من أنْ تستقِلَّ به قَدمٌ في مطاوَلتِنا، وتطمئِنَّ له ضُلوعٌ على مُنابذَتِنا، أو تُصاحِبَهُ قُدرَةٌ على الثَّباتِ لنا أو تبقَى عليه حالٌ غَلَّها منّا، والله والناسُ جميعاً يعلمونَ أنّه في نُشوزِهِ عَنّا وطَلِبتِنا إيّاه كالضّالّةِ المنشودة، وعندما نرجوهُ من الظفَرِ به كالظُّلامةِ المردودة، وأنّه لا ضَرَر علينا فيما يَلوي به فكيَّه، ويُسطِّرُهُ بيدَيْه، مُدَّةَ جولتِهِ الجائلة، ونفسِهِ المضمَحِلَّة الزّائلة.

وأمّا ما ظَنَنْتَهُ من أنّ الذي جَرى منّي كانت لي سُنَّةٌ في إثارتِهِ سابقَةٌ، وعزيمَةٌ على إمضائِهِ سالفَةٌ، وبالله جُهدُ القَسِم ما كان ذلك ولا بَعضُه، ولا هَمَمْتُ به ولا أرَدْتُه، ولقد كنتُ أتجرَّعُ الغُصَصَ من سُوءِ أدبِ هذا الغُلامِ إغضاء على بصيرة، وعَفواً عن قُدرة، وهَرباً من أنْ أُنسَبَ إلى قطعِ عِصْمتِه، واطِّراحِ حُرمتِهِ، وإنْ كان ما حافظَ ولا راعَى، ولا تركَ ولا أبقَى، ولكنّه أساءَ فاستَوحشَ، وبَدَأ ثم أغْرقَ، ووَجَد من النَّفْرةِ الحادثِةِ بين فريقَي الدَّيْلَم والأتراكِ فُرصةً طالما حاولَ انتِهازَهَا، واشرَأبَّ إلى إمكانِها، فَركِبَ المركَبَ الذي لا بدَّ أنْ يَنصرِعَ راكِبُه، ويتجدَّلَ[1] فارِسُه، وعلى الله أتوكَّلُ واعتمدُ، وبهِ أستعينُ وأعتضدُ، وهو حَسْبي وَكفى.

وأمّا مسيرُ أخي أبي عبدالله إلى تَكْريت، فلو لم يكُنْ أثَرٌ سِواهُ في مُؤازَرتي لكان جَليلاً كبيراً، وعظيماً خطيراً، وقد وافَقَ حُصولُه بها غايةَ إيثاري، وسَكَنَتْ كُلَّ السُّكون إليه نَفْسي، وأمَرْتُ بمكاتَبةِ الأصحابِ هناك بأنْ يَـخدِموهُ ويُعَظِّموه ويتَصوَّروهُ بصورةِ المالِكِ لأحوالي، والمُدبِّر لأعمالي، ولا يُـخالفوا أمرَهُ وَلا يتَجاوزوا حَدَّهُ. وكاتَبْتُهُ بما هو بإذنِ الله واصِلٌ إليه ووارِدٌ عليه.

وأمّا الكُلَفُ التي تجشَّمتَها في جمعِ رجالِك، وإخلاءِ عَملِكَ، والبذلِ لأموالِك، والمقاربةِ لأعدائك، من أجلِ هذا الخَطْبِ الذي قد وَفَّرْتَ عليه نفْسَك، وشَحَنْتَ بالفِكر فيه صَدْرَك، فما كان ذلك ذاهباً عليَّ فيُشارَ إليه، ولا خافياً عنّي فأُنبَّهَ عليه، والمِنَّةُ فيه مُضافةٌ إلى نُظائرِها، ومحفوظَةٌ مع أخواتِها. وإذا فكَّرتَ -أيّدك الله- في أنّكَ فيما تأتيهِ حافِظٌ بلاداً أنتَ والِيها ورابٌّ حالاً أنت حاويها، سَقَطَ بيننا بادىءُ هذا القولِ وعائدُه، وصادِرُه ووراِدُه.

(١) الجَدْل: الصَّرْع. جَدَله: صَرَعه. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص١٠٤ (جدل).

وأمّا ما سَألتَ عنه من حقيقةِ ما جَرى وبنيّةِ تدبيري، فإنّ مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- مذْ عرَفَ ما جَرى، متميزٌ غَيْظاً، ومُستشيطٌ غَضباً، وقد أنفَذ فتاهُ وأخانا أبا الحسن[1] -أدام الله تأييدَه- في جيشٍ ضخمٍ، وعدَدٍ جَمّ، وأمرَهُ بالإغذاذِ إلى آخِرِ حُدودِ الجبَل، وإيذاني بخبَرِ لأسيرَ ويسيرَ في وقتٍ واحد، وفَصَل عن الرَّيِّ منذ أيّام، ولا شَكَّ في قُربه.

ووَرَد كتابُ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة بتقديمهِ جيشاً إلى أرَّجان، وأنّه سائرٌ على أثَرِه، ومَا تُساعِدُني نَفْسي على انتظارِ ما يَبعُدُ مع إقبالِ الأمير أبي الحسن في العَددِ المُغْني الكافي، ووُرودِك في عسكرِكَ الموفورِ المنصور.

والذي بنَيْتُ عليه تدبيري أنْ أستعينَ بالله أوّلاً، وأسألهُ الإدالةَ والإعلاءَ مجتهداً، وأنْ أنتظِرَ خَبرَ الأمير أبي الحسن -أدام الله عِزّه- في الانتِهاءِ إلى مَقصِدِه، وخبرَكَ -أيّدك الله- في الوُصولِ إلى تَكْريت لأُصعِدَ عن واسِط مُجِدًّا، وأسألُكَ الانحدارَ عنها منفصِلاً، ويُمضيَ الله حُكمَهُ في اللَّعين الحاصِل بيننا، المفارِق لطاعَتِنا، ومَن معه من أمثالِه، المضيِّعينَ للحقوق، والمتقلِّدينَ للبَغْيِ والعقوقِ. وأنتَ -أدام الله عزَّك- وَليُّ ما تَراهُ في العمَلِ على ذلك بحسَبِه، والتقدُّم بنَظْمِ الطريق بيننا بالمكاتبة التي تَقرُّ بها عُيونُنا، وتَسكُنُ إليها قلوبُنا، ويكونُ بها كُلٌّ مِنّا كالمُعايِنِ لصاحبِهِ على البُعْدِ، إلى أنْ يهَبَ الله لنا عِيانَ الاجتماعِ والقُربِ، والثقةُ منّي بشُكرِ برِّكَ ما بَلَّ ريقي مقولي، وحَمْلِ مِنَنِك ما أطاقَها كاهِلي، وصَرفِ الاهتمامِ إلى تمامِ هذا التدبير برَواجِ المسير إنْ شاء الله.

---

(١) أبو الحسن علي بن رُكْن الدَّوْلة الذي لُقّب فيما بعد بفَخْر الدَّوْلة.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب الحمْداني[١]

كتابُنا يا أخانا وعُدّتنا - أطال الله بقاءك - من المعسكر بأعلى الجانب الغربي من واسِط عن سَلامةٍ، نحمدُ الله عليها، وعلى نِعَمه كلّها، ونستزيده بالشكر من أحسنها وأجملها. وقد كتبنا إليك كُتباً تابعناها وشرحنا أحوالنا فيها، والسّبب الذي دعانا إلى العبور إلى الجانب الغربي الذي عبرنا إليه، والتدبير الذي بنينا أمرَنا عليه، وأنّ سُبُكْتِكين الحائن مُجدٌّ في المصير إلينا، والإقدام علينا، ونَصَب الحرب معنا، والمناجزة لنا ......[٢] على المبادرة تخوّفاً، والإعداد إلى حضرتنا، ولا شكّ في وُصول تلك الكُتب التي كُنّا نكتبها، واللهُ بتفضُّله يسمعُ نداءنا، ويجيبُ دعاءنا، ويصنعُ لنا من حيث لا ندري، ويتكفّل بنَصْرنا من حيث لا نعلم، فله الحَمْد كثيراً والشّكر دائماً.

ولما انتهى ذلك اللّعين إلى دير العاقُول[٣]، وبينها وبين معسكرنا ثلاثون فَرْسَخاً وصارت مقدّمتُه بجَبُّل[٤]، وهي منه على خمسة عشر فَرْسَخاً، وَقَف بمكانه وقوفاً نَسَبْناه إلى الفِكْرِ في العبور إلى الجانب الغربيّ الذي عبرنا إليه، ليستوي معي على أرضٍ يمكنه فيها المقارعة، وتتّجه له المناجزة. وكان ذلك لعلّةٍ هجمت عليه، وحالَت بين المسير وبينه، ثم أفضت به إلى تَلَف نفسه، وحُلول رَمْسه، والانقلاب إلى ما أعدّه الله له من

---

(١) چستربتي. (العنوان فيها: وعن عِزّ الدَّوْلة).

(٢) فراغ بمقدار ثلاث كلمات.

(٣) بليدة بين النعمانية والمدائن، بينها وبين بغداد خمسة عشر فَرْسَخاً على شاطىء دجلة. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٠.

(٤) بليدة بين النعمانية وواسِط، في الجانب الشرقي. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص١٠٣.

العذاب الأليم، وسكنى الجحيم.

وكانت وفاتُه ليلةَ الأربعاء[١]، ووُصول الخبر إلينا أمس عشياً عن يقينٍ لا شكّ فيه، وتحقّقٍ لا ريب معه؛ فالحمد لله الذي قضى خطاه، ولقّاه رَداه، وصَرَعه ببغيه، وقَبَضه بخزيه، والله نسألُ أنْ يوفّقنا لشكر هذه النِّعَم العِظام، والمواهب الجِسام، والآيات التي يظهرها في كلّ عاندٍ عنّا، وغامطٍ لِنعَمنا، وجاحدٍ لصَنيعنا، وحاطب على دولتنا، بقُدْرته.

وأفضى الرأي - أدام الله عزّك - أنْ توقَّفْنا بمَوْضعنا هذا، وأنْ كاتَبْنا الأولياء الذين كان هذا اللَّعين أغواهم وأضلّهم، واستجرَّهم واستزلّهم، بما نرجو به إيابهم إلينا، ومثولهم لدينا، ونؤمل معه أنْ ينتهوا ويتيقّظوا، ويزدجروا ويتّعظوا، ونحن نُكاتبك بما تنتهي حالهم إليه من قبولٍ يخفّف عنّا الفكر في أمرهم، أو توقّفٍ يقتضينا نتجز عادةَ الله فيهم، إذ كُنّا أصدرنا هذا الكتاب قبل إسْفار ذلك لنا، حرصاً على وقوفك عليه، وسُروركَ به. وجعلنا صدرَه من جهة أبي علي مُحمّد بن الحسن القُمّي عنايةً به، وسُكوناً إليه، وتقريباً له من قلبك بأنْ تردَ هذه البشرى من جهته، فرأيك في التقدّم بإجابتنا عمّا نكتب على أثره ممّا نحتاجُ إلى علمِهِ من جهتك، ونتطلّعه من أخبارك وأحْوالك، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) سنة ٣٦٣هـ. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٢٣.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى أبي تَغْلِب الحمْداني[1]

كتابُنا يومَ السبتِ لليلةٍ خَلَتْ من شَعْبان، أسألُ الله لنا جميعاً وفُورَ الحظِّ من برَكتِهِ، واتّصالَ المَدَدِ من سَعادَتِه، والتوفيقَ فيه للأعمالِ التي تُرضيه، ومَوْلانا أمير المؤمنين مُعافىً في مُهجَتِه، محروساً في حَوْزَتِهِ، متعَرِّفٌ من الله عادةً ما يَزالُ -جلّ اسمُه- يُجري عليها خُلفاءهُ في أرضِه، وأُمَناءهُ في أداءِ فَرْضِه، إدالةً للوَليّ وإذالةً للعَدوِّ، ونُصْرةً على المحادِّينَ وإظهاراً على المعانِدين. وأنا مُـحدِّثٌ بنعمةِ رَبّي في ذلك وفيما بَوَّأنيهُ من زُلَفِ الطّاعة، وأشعَرنيهُ من عزِّ المشايعَةِ، وتَولّاني به من المَصالِح الجليلِ قَدْرُها، اللّطيفِ صُنْعُه فيها، وله الحَمْد ربِّ العالمين، حمدَ الشّاكِرينَ المجتهدين.

---

(١) طهران، ليدن. (العنوان فيها: وعنه إلى أبي تغلب).

في سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م وصل عَضُد الدَّوْلة بغداد واستولى على مقاليد الأمور، وقبض على ابن عمه عِزّ الدَّوْلة بَخْتِيار، ثم أطلقه. وكان سبب ذلك أن بَخْتِيار لما تابع كتبه إلى عَضُد الدَّوْلة يستنجده، ويستعين به على الأتراك، سار إليه في عساكر فارس، واجتمع به أبو الفتح بن العميد، وزير أبيه ركن الدولة، في عساكر الري بالأهواز، وساروا إلى واسط. فلما سمع الفتكين بخبر وصولهم رجع إلى بغداد، وعزم على أن يجعلها وراء ظهره، ويقاتل على ديالى. ووصل عضد الدولة، فاجتمع به بَخْتِيار، وسار عضد الدولة إلى بغداد في الجانب الشرقي، وأمر بَخْتِيار أن يسير في الجانب الغربي. ولما بلغ الخبر إلى أبي تغلب بقرب ألفتكين منه عاد عن بغداد إلى الموصل، لأن أصحابه شغبوا عليه، فلم يمكنه المقام، ووصل ألفتكين إلى بغداد، فأصبح محصوراً من جميع جهاته، وذلك أن بَخْتِيار كتب إلى ضبة بن مُحمّد الأسدي، وهو من أعيان عين التمر، فأمره بالإغارة على أطراف بغداد، وبقطع الميرة عنها، وكتب بمثل ذلك إلى بني شيبان. تفصيلات أكثر عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٢٧.

ووَصَل كتابُ سَيِّدي المؤرَّخُ جَواباً عن بعض كُتبي. وفَهِمتُه، وأبْهجَني ما دَلَّ عليه من سَلامتِه -أطالَ الله إمتاعَهُ- بها وأعاذَهُ وأعاذني فيه من مُفارقتِها، ووجَدْتُهُ -أيّده الله- في المَبارِّ التي نَطَق بها، والمُشاركة التي أعرَبَ عنها، مُتصَرِّفاً تَصرُّفَ المُوجِبِ للمِنَّةِ من سائرِ جهاتِها، السّابِقِ من الفضيلةِ إلى أبعَدِ غاياتِها، حِفظَهُ الله عليَّ، ولا أعدَمَنيه، ووقاهُ الأسواء ووَقانيها فيه.

فأمّا تطَلُّعُه -أيّده الله- إلى معرفةِ أخبارِي ومَصادِرِ ومواردِ أموري، وإيثارِي أنْ أشرَحَ منها ما أوْجَزْتُ، وأُفَصِّلَ ما أجْمَلْتُ، فَوالله ما تركْتُ أنِ اتَّبعْتُ ذلك الكتابَ بما الْتمَسَهُ من التفصِيل، حتى خرَجْتُ إلى طَرَفٍ من التَّطويلِ، وهل يجوزُ أنْ أُحوِجَهُ فيه إلى مطالبةٍ ونَفْسي له به مُطالبَة، والهَوى والرأيُ منّي قائدانِ إليه، باعِثانِ عليه، على قِلَّةِ اجتماعِهما واتِّفاقِهما، وكثرةِ اختلافِهما وافتراقِهما ؟

وقد تضَمَّنتِ الكُتُب النّافِذَةُ من جهةِ أبي الحسين، وعلى يدِ أبي صالحٍ مُفْلِح، وقبلَ ذلك وبعدَهُ ذِكْرَ ما وضَحَتْ عليه الدَّلائلُ، وأنذَرَتْ به المخائلُ، من سُوءِ نيَّةِ مَن يعِزُّ عليَّ أنْ يَمنعَني بالعُقوقِ، عن مُراعاةِ ما يَلزَمُ من الحُقوقِ، وأنْ أُومِىءَ إليه كما يُومَىءُ إلى الخارِج عن الجُملةِ الجامعةِ لنا، والدَّوْلة المؤلِّفَةِ لشَمِلِنا، وطاعةِ السُّلْطان التي هي أحكمُ وثائقِنا وآكَدُ عَلائقِنا، وعَلى الله نتوَّكلُ ونُعَوِّلُ، وبه نعُوذُ ونَلوذُ، وإيّاه نَسألُ أنْ يجعَلَنا ممّن عَصَم وهَدَى، وأظهَر وأعلَن، وحاطَ وحَمَى، وصانَ ووَقَى.

والآنَ -أيّد الله سَيِّدي- فتلكَ الأماراتُ المُنكَراتُ تتَضاعَفُ على مُرورِ الأوقات، وما أخلو من غَوائلَ تجري، وعَقارِبَ تَسرِي، وجَواسِيسَ أظفَرُ بها، وكُتُبٍ إلى الأولياءِ يُـحْضِروني إيّاها، فقد كادَ يبرَحُ الخَفاءُ وينكشِفُ الغِطاء. ولله عندي وعندَهُ عادَةٌ قد ذَمَّ منها ما أحمَدْتُ، وكَرِهَ ما استوفَقْتُ، وعسَى أنْ يَـجلُوَ عن طَرْفِه قَذاهُ فيُبصِر، وعن قلبِهِ غِشاهُ فيَستبصِر، وأنْ يَكفِيَنيهُ محموداً لا مَلُوماً، وراجعاً لا مَردوداً.

ووَالله -أعزَّ الله سَيِّدي- ما يختَلُّ ثَلْمٌ من لحْمتي وبهِ انسدادُه، ولا يَضعُفُ جانِبٌ من نِعمتي وعنه اشتدادُه، إذ كان -لا أعدَمَنيهُ الله- عِوَضي الذي عليه المُعَوَّلُ، وعُدَّتي التي إليها المَوئِلُ. وقد سَألتُهُ ما أنا أُعِيدُه من تجريدِ العُدّةِ القويَّةِ من رجالي الذين قِبَلَهُ للاجتماعِ مع مَن ببغدادَ من رِجالِهِ الذين قِبَلي، وإيناسَ سَيِّدي أبي طاهِرٍ ابنَ مُعِزِّ الدَّوْلة بأحدِ إخْوَتِنا ليتَوازَروا، ويتَظافَروا نائبَينِ عنّي وعنه، وكافيَيْنِ لي ولهُ، فإنّ مَوْلانا أمير المؤمنين مُنحدِرٌ عن دارِه في جُمهورِ العسكرِ المرسُومِ بخدمتِه، وسَيخِفُّ للعَددِ مَن في مدينةِ السَّلام وسَوادِها خِفَّةً تتضاعَفُ معَها الحاجَةُ إلى وُرودِ هذه النجدة، وسَيِّدي وَليُّ ما يَراهُ في ذلك، ذابّاً عن حَرِيمِهِ وناظِراً لنفسِهِ، ومُحامِياً عن صديقٍ هو أصفَى مَن صادَق، وآمَنُ مَن جاوَر، وأوفَى مَن عاهَدَ، أقولُ ذلك دالاًّ على فَرْطِ إخلاصِي، لا مُزَكِّياً عنده لنفْسي إنْ شاء الله.

وأمّا ما حَثَّهُ -أعزَّهُ الله- على معرفَةِ حَقِّ الرَّحِمِ، والتّمسُّكِ بـمُوجِباتِ العِصَمِ والذِّمَمِ، فمِثلُهُ -أيّده الله- مَن أشار بذلك، وحَثَّ عليه، وأرشَد وهَدى إليه، وحياتِهِ، قَسَماً أُعرِّضُها لحَنْثٍ ولا أُقسِمُ بها على شَكٍّ، لقَد اجتهَدْتُ وإلى الآنَ في أنْ لا تتشَعَّثَ الحال، ولا يتفرّقَ الاتصالُ، ومَن ذا الذي يُؤثِرُ أنْ يرميَ فيُصيبَه سَهمُه، وأنْ يَسْطُوَ فيُوهَنَ عظمُه، بمُجاذَبةِ مَن إذا غَلبَهُ غُلِبَ، وإذا سَلبَهُ سُلِبَ، وَأيّةُ يُمنى تُـحِبُّ أنْ تَقتصَّ من يُسراها، أو يُسرى من يُمناها؟ وهذا المُتلَمِّسُ يقولُ:

ومـا كنـتُ إلّا مثـلَ قـاطِعِ كَفِّـهِ ... بكَـفٍّ لـه أُخـرَى فأصـبَح أجْـذَما
فلمّا اسـتقادَ الكـفُّ بـالكفِّ لم يَـجِدْ ... لـهُ دَركـاً مـن أنْ يبينـا فأحْجَمـا[1]

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١٠٤.

ولأنْ أقولَ ذلك قبلَ وُقوعِ الفُرقةِ وقد سُولْتُ، أحَبُّ إليَّ من أنْ أقولَ بعد وُقوعِها وقد أُحرِجْت:

شَفَيْتُ النّفس من حَمَلِ بنِ بدرٍ وسَيْفي من حُذيفةَ قد شَفاني

فإنْ أكُ قد بَرَدْتُ بهم غليلي فلم أقطَعْ بهم إلّا بَناني[1]

فإنْ وهَبَ الله عَوْدَ الأُلفةِ فلهُ الحَمْد كثيراً والمِنّةُ، وإنْ تكُنِ الأُخرى فالبادي أظلَمُ من الدّافِع، والشحيحُ أعذَرُ من الظّالِم. ولو كنتُ مَسؤُولاً في عَرَضٍ نفيسٍ من الأعراضِ، أو عِوَضٍ جَليلٍ من الأعواضِ، أو إيثارٍ برُتبةٍ فَرعتُها، أو إفراجٍ عن محلَّةٍ حَلَلْتُها، لَبذَلْتُ ذلك له كُلَّهُ، لا قاصِراً بنفْسي عَنهُ، ولا واضِعاً لها دونَهُ، لكنْ نازلاً عنه لمن عُودُه عُودِي، وعِرقُهُ عِرقي، ومَنزِعُهُ مَنزِعي، ومنجَمُهُ مَنجَمي.

فأمّا المقارعَةُ عن المُهجَةِ، والممانَعةُ عن الحوْزة، فما رأيتُ أحداً تركَهُما مع الضَّعْفِ والقِلَّة، فأترُكُهما مع ما حَباني الله -عزّ وجلّ- به من القوَّةِ والكَثْرَة؟ وقد جَعَلْتُ هذه النيَّةَ السليمةَ وتلكَ العادَةَ من الله -عَزَّ وعَلا- الجارية، دِرعيَ الحصينَة، وجُنَّتيَ المتينَة، وحسبيَ الله وحدَهُ لا إلهَ غَيرُه، ما شاء كان، وهو المستعان.

وهذا شَرحٌ قد اتَّبعْتُ فيه إرادَةَ سَيِّدي منّي وإيجابي إيّاه على نَفْسي، وأبو الحسن حاضِرٌ مجَالِسي ومُطَّلِعٌ على أسراري، وخادمٌ لنا جميعاً في استصفاءِ الحَواشي والأطرافِ التي ربَّما شَغَلَتْنا عنها المتونُ، ليكونَ كُلٌّ منّا على معرفةٍ بأخبارِ أخِيهِ، ووُقوفٍ على ما يُهِمُّه ويُعينُهُ إنْ شاء الله.

وأمّا بنو شَيبان أبو الحسين الفَضْل[2]، الواردُ بما أخَذَهُ سَيِّدي في رهائنِهم

---

(١) لقيس بن زهير العَبْسي. الأصْبَهاني، الزهرة، ج٢، ص٧٠١.

(٢) كذا.

واستعمَلَهُ من الحِيطةِ في أمرِهم، واعتدَدْتُ بذلك وشَكرتُه، وسَكَنْتُ إليه وحَصَّلته، وأنا أرجِعُ لهم مع الإذعانِ وأتجافَى مع الإقلاعِ، وأستَخْدِمُهم بوساطتِهِ، وأصفَحُ عنهم على يَدِه، وأُثبِتُ كثيراً من صَعاليكِهم، وآذَنُ في عَوْدِهم إلى أوْطانِهم إنْ آثَروا ذلك وسَلَّموا عليه رهَائنَهُم الوثيقةَ، ولَزِموا معَنا الطَّرائقَ المستقيمة. ولسَيِّدي عُلوُّ الرأيِ في ذلك، وفي التقدُّم بمُوافقتِهم عليه والامتنانِ عليهم به إنْ شاء الله.

وعُرِضَ الفصلُ المتَضمِّنُ خَبرَ الحِصْنِ المُفتَتح من حُصونِ السَّناسِنة[١]، وعَوْدِه إلى أيدي المسلمين، فسُرِرْتُ بذلك، وابتهَجْتُ له وأضَفْتُه إلى آثارِه الحميدةِ ونتائجِ تدبيراتِه السَّديدة، وأمَرْتُ بالخَلْعِ على الغُلامِ الواردِ به، والضَّرب بالدَّبادب والبوقاتِ بين يدَيْه، وجَرَى ذلك أحسَنَ مَجاريه وعلى أفضَلِ الرَّسْمِ فيه والعادةِ، وشاعَ به الثَّناءُ الطيِّبُ والدّعاء الصّالحُ، والله يُواصِلُ له الفتوحَ والمنائحَ، ويُسبغُ عليه النِّعَم والمواهِبَ، ويَكفيهِ المُلِمّاتِ والنوائبَ، ويَقيه الأسواءَ والمحاذِر، بجُودِه ومَجدِه، وحَولِه وطَولِه.

وأنا لجوابِ هذا الكتابِ وما تقدَّمَهُ مُتَوكِّف[٢]، ولما يتفَضَّلُ به سَيِّدي من تجريدِ الرِّجال مُتَشوِّف، وهو - أطال الله بقاءه، ولا سَلَبَني إيّاه - يَرى في هذا المهِمِّ رأيَهُ، وفي إيناسي بذكْرِ أخبارِه وأحوالِه، وإطْلاعي على بَواطِنِ أُمورِهِ وشُؤونِهِ، والانبساطِ إليَّ في عارِضِ مُهِمّاتِهِ وأوطارِهِ إنْ شاء الله.

---

(١) قومٌ من الأرمن لهم حصون منيعة تجاور خِلاط في أرمينية. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٧٧٧.
(٢) التوكُّف: التوقُّع والانتظار. ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٣٦٤ (وكف).

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى أبي تَغْلِب[١]

كتابي يا سَيِّدي ومَوْلاي وكبيري وجَليلي وعُدَّتي – أطال الله بقاءك – من المعَسْكر[٢] بأعْلى واسِط في جانِبها الغَرْبيِّ، عن سَلامة ونعمةٍ، والحمدُ لله كثيراً، وله الشُّكْرُ دائماً.

ولسْتُ أشُكُّ في وقوفِكَ على ما أمْضاهُ اللهُ في سُبُكْتِكين الخائن الحائن، فإنّهُ – جلّ وعزّ – عاجلَهُ بالانتقام، ومَنَعهُ العادة في الإمْلاءِ والإنْظار. وكان من الآياتِ الطَّريفَةِ العجيبةِ، الدّالةِ على إحسانِ الله إلينا، وقضائه بالظُّهور لنا، و[٣] استئصال كلِّ معانِدٍ عنّا، وغامطٍ لِنِعْمتِنا، ومُجْلبٍ علينا، وحاطبٍ على دَوْلتِنا. وهذا حَلَبٌ لك شَطْرُهُ، بل كلُّهُ، للأحْوال المستحكَمة بيننا، والمشاركة التي تَجْمعُنا جَوامِعُها، وتلزمنا قَرائنُها، فللّه الحَمْد كثيراً، والشُّكْر دائماً، وهو المسْؤول إسْباغ ما أنْعمَ به، وتَوْفيقاً للشُّكْرِ المسْتديمِ له.

وكان أولئكَ الغِلْمان اجتمعوا بَعْدهُ على ألفتِكين، وقدَّروا أنْ يقومَ لهم مقامَهُ، ويسدّ مسدَّه. وقد كنّا نَخصُّهُ بالإحْسانِ العظيمِ، ونعتمدُهُ بالأنس الشَّديد؛ وإنْ سلكَ سَبيل صاحبِهِ في كُفْرِ النِّعْمة، وتشييعهِ في تعجيل النِّقمةِ، وكيفَ جَرَتِ الحال، فالفروقُ بعيدةٌ، والطَّريقُ إلى أنْ يحلَّ ذلك المحلَّ طويلٌ، واللهُ نصيرُنا وظهيرُنا، وعليه تَوكُّلُنا وتَعْويلُنا، وهو حَسْبُنا ونِعْم الوكيل.

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي، سيلي أوك (وهي فيها بدون عنوان).

(٢) هذا ما في ك، وفي ما دونها: العسكر.

(٣) إضافة لازمة.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب الحمْداني[١]

كتابُنا، ووَصَلت كُتبُ سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة جواباً بما سكَنْتُ إليه من خَبَره، وشكرتُه من بِرِّه، واستَدمتُه من مَوْهبة الله فيه وله.

ووَرَد بوُصولِها من مدينةِ السَّلام خَبرُ رَسولِهِ -أيّده الله- الوافِدِ، وكُتُب أبي الحسن، بأنهما مُنحدرانِ إليَّ، ولاحقانِ بمُستقَرّي، وأنا أُراعِي ما يُورِدانِه سمعاً، وأُحيطُ به وَعياً، وأُجِيبُ عنه جَواباً مُستوفى إنْ شاء الله.

ووقَفْتُ على الفصْلِ الذي أفرَدَهُ سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة باهتمامِه بهذه الحركَةِ التي تحرَّكْتُها، وتوقُّعه - كان - منِّي أنْ أُقدِّمَ إليه خبرَها، وأوذِنَهُ بوقوعِ العَزْم عليها، حَسب ما توجِبُهُ المُشاركة في استحكامِها، والمَوَدّة في تَمامِها، وتضاعُفِ اعتدادِي بذلك، لأنّه صَدَر عن عهدٍ كَريم، ووُدٍّ سليم، وصَفْوةٍ بعيدةٍ عنها التكدُّر، مأمونٌ عليها التَّغيُّر، والله يحفَظُ عليَّ منهُ العُدَّةَ الخطيرةَ، والذخيرةَ النفيسة، ويُنهِضُني بلوازِم حَقِّه ودَواعي فَرْضِه.

وأوَّل ما أقولُه - أيّد الله سَيِّدي - إنّ أبا الحسين مُطَّلِعٌ على أسراري كُلِّها، خائضٌ معي ومعَ الوزير فيها بأسرِها، مُوَفٍّ في ذلك حقَّ صاحبِهِ -أيّده الله- والحالُ بيني وبينه، وقد كتَبْتُ بجُملةِ هذه النَّهضَةِ -أحمَدُ الله عقباها، وخارَ في أُولاها وأُخراها- وكانت مُفتتَحةً بزيارةِ المشاهِد، وظنِّي أنني بعد قضاءِ النذرِ من ذلك عائد.

فورَدَتْ أخبارٌ من ذلك -جنسَ ما كنّا نُكاتَبُ فيه- أوْجَبَتْ أنْ أخرُجَ إلى واسِط

---

(١) ليدن.

لتوسُّطِ الأعمالِ، والقُرْبِ من مُشارفَةِ أحوالِ عُمْدة الدَّوْلة وإعزازِ الدَّوْلة[1] -أدام الله عِزّهما- وإمدادَهُما، ولا أكونُ على ما أسألُ الله الإغناء عنه، فقد عَلِمَ - جلّ وعزّ - أنّي مع استظهاري بكلِّ ما يَستظهِرُ به المعدُّ المُجِدُّ، أتقاعَسُ عن مُدافعةِ مَن يَثلُمُني أنْ أثلُمَهُ، ويُؤلِمَني أنْ أُؤلِمَهُ، وهذا خطبٌ موجِبٌ أنْ يكون سَيِّدي مستعِدًّا فيه الإسراعَ إليَّ بما الْتمسْتُهُ منهُ أيَّ وقتٍ أردتُه، فاستدعَيْتُهُ، وهو وليُّ ما يَراهُ في ذلكَ، فإنّه لازِمٌ له بالسّابقِ من عَهْدِهِ ووَعْدِه، والوَشيج فيما بيني وبينه إنْ شاء الله.

ووَرَد عليَّ كتابُ ألفتِكين المعزّي من دمشقَ بأنّ الحروبَ التي اتّصَلَتْ بينه وبين جَوْهر[2] - وقد كان لقيَهُ في جَمْرةِ المغارِبة - أفضَتْ بهم إلى الكراهِيَةِ لهُ، والنكوصِ عنه، والإجْفالِ من بين يَديه، بعد أنْ رأوا من جلادِ اللَّمَّةِ التي كانت معه من غِلْمان عُدّة الدَّوْلة المرسُومينَ بي ما لم يعهَدوا مثلَهُ، ولا كان لهم قِبَلٌ به، وبعد أنْ أيْقَنوا أنّهم معها كالبُغاثِ بإزاءِ الجوارِح، والنَّقَدِ[3] بإزاءِ اللُّيوثِ القَساوِر، وكانوا يُعَوِّلونَ على كَثْرةِ عَددٍ لا طائلَ فيه، ولا خيرَ عند أهلِيه. فلمّـا استحَرَّ بهم القتلُ، واتّصَلَ عليهم المَحْقُ، أجفَلوا إجْفالَ النَّعامِ، وأقلَعوا إقلاعَ الجَهامِ، بقلوبٍ مَنخُوبة، وأحوالٍ منكوبة، وبعيدٌ ما تَعودُ تلك الرِّقابُ وقد انعكَسَت، وتتجَدَّدُ الأطماعُ منها وقد يئِسَتْ. وهذه مَوهبةٌ أنا وسَيِّدي المخصوصانِ بها، والمستَبِدّان بفضيلتِها، لأنَّ تلك الطوائِفَ الفاسِقَةَ الفاجرة إذا لم تَثبُتْ لشِرْذمةٍ من غِلْمانِنا، فقد عُلِمَ أنها غيرُ محدِّثةٍ نفسَها بنا، لأنَّ مَن عَجز عن

(١) عمدة الدَّوْلة هو أخوه الأمير أبو إسحاق إبراهيم ابن مُعِز الدَّوْلة. أما إعزاز الدَّوْلة فهو ابنه المرْزُبان بن بَخْتِيار.

(٢) جوهر الصقلي، القائد الفاطمي.

(٣) النَّقَد: جنسٌ من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه، تكون بالبحرين، وقيل: غنم صغار حجازية. تقول العرب: هو أذلّ من النَّقَد. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٤٢٦ (نقد).

نَحْتِ العُودِ من أعوادِ أثْلَتِنا، كان عن أصلِهَا أعجَز، ومَن أعْوزَهُ الانتصافُ من مِقْنَبٍ من مقانِبِ أوليائنا، كان ذلك في مجتمعِ زُمَرِها وجَمَراتِها أعوَز، فالحمدُ لله على ذلك.

وقد أجَبْتُ أبا منصور عمّا شَرَحَهُ من أمرِهِ، وأوْضَحَهُ من الأثرِ الذي تَمَّ له وتمسَّكَ به من شعارِ المشايعَةِ، واحتَذاهُ من مثالِ الطّاعة بما أوْجَبَهُ ابتداؤهُ، ولعلّهُ أنْ ينتهيَ إلى ما هو أحصَفُ إبراماً، وأشَدُّ استحكاماً، فتكونُ المصلحَةُ في ذاك على كِلَيْنا عائدةً، ولجَنَباتِنا شاملةً إنْ شاء الله.

وأنا إلى الجوابِ عن هذا الكتابِ متطلِّعٌ، فإنْ رأى أنْ يتقدَّمَ بتعجيلهِ مُضَمَّناً أخبارَهُ وأحوالَهُ وسَلامتَهُ وعَافيتَهُ وما أزدادُ ثقةً به وبصيرةً فيه، من كونِه معي في الاستعداد، وإنجازِ وَعْدِه إيّاي في الإمداد، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب الحمْداني [(١)]

كتابي، ومَوْلانا أمير المؤمنين على أفضلِ ما أوْلاهُ الله به وعوَّدَه، وأكمَلِ ما منَحَهُ وخوَّلَه، من تمامِ العلاء، وسُبوغِ النَّعْماء، وعزِّ الأوْلياءِ، وذُلِّ الأعداء. وأحوالي جارِيةٌ على ما يُحبُّه سَيِّدي من شمولِ السَّلامة، وعُمومِ الاستقامة، والحمدُ لله حمداً يَستديمُ النِّعْمة، ويرتبِطُ المَوْهبة.

ووَصَل كتابا سَيِّدي وفَهِمتُهما، واستَبْشرْتُ بما دَلّا عليه من كفاية الله تبارَكَ وتعالى إيّاه وحراستِهِ لهُ، وسألتُه - جلّ وعزّ - أنْ يُتمِّمَ ما أعطاهُ، ويزيدَ فيما أوْلاه، ويجعَلَهُ محُوطاً فيه من طَوارقِ الغِيَر، وحَوادثِ القَدرِ، بمَنِّه.

ووَقَفْتُ على ما أورَده سَيِّدي من الجوابِ الطَّويل في أمرِ بني شَيْبان، والاعتذارِ من تأخُّرِ الإيقاعِ بهم، والعُدولِ عنه إلى كَنْفِهم وضَبْطِهم. ووالله، ما أظنُّ به -أيّده الله- تَثاقُلاً عن إرادَتي، ولا اقتصاداً في مُساعدَتي، ولا وقوفاً دونَ الغاية من كُلِّ ما عادَ عليه شُكري، وحصَل له اعتدادي وحُسنُ المَوقعِ منِّي، لكنَّ هذه قصَّةٌ نهَضَتْ لها نَفْسي، ووَفَّرْتُ عليها اجتهادِي، وطَلَباً لا تنحسِمُ عن أعمالِنا المضرَّة، وتَزولُ المعَرَّة؛ فكانتِ الثمرةُ بعد تَطاوُلِ المدّة أنْ قَنَعْتُ من سَيِّدي بالضَّمانِ عنهُم، وساعَدْتُهُ على إيثارِهِ في الإبقاءِ عليهِم، ووَقَفْتُ دُونَ ما توجِبُ السياسَةُ بُلوغَهُ ولا حَسُنَ فيها التقصيرُ عنهُ، وثنيْتُ عِنَاني ثَنْيَ الواثق به -أيّده الله- فيما ضَمِنَهُ المستبعِد لأن يجريَ فيها ما أُنكِرُه.

وأرى الآنَ هذا السيْرَ الذي حَصَلْنا عليه في طريقِ الاضمحلال، وما أظنُّهُ يَرضى

---

(١) ليدن. والعنوان فيها: (وعنه إليه).

لي ولا لنفْسِهِ بذلك، وهؤلاء قومٌ ما تنقطِعُ صَعاليكُهم عن الأعمال، ولا يَمضي يومٌ إلّا عن حدَثٍ يَحدُثُ فيها، وصَريخٍ يَرِدُ منها، وأقرَبُ ذاك ما فعَلَهُ بنو شَيْبانَ وبنو المُحَلِّم وغيرُهم من أترابِهم ممّا لا صبْرَ معه ولا قرارَ عليه، وسَيِّدي يَعلَمُ أنهم كانوا تحت أمانٍ منه، فقد نقَضُوهُ وفَسَخُوهُ، وأحلَّهُ الله من دمائِهم وأموالِهم بما استَحلُّوهُ واستجازُوه، وأنّ ممّا يَعودُ بالهُجْنَةِ عَليَّ وعَليهِ، وعلى الحال بيني وبينه أنْ يكون أحياؤُهم في تلك الأعمالِ مَصُونة، وغارتُهم على هذه مشنُونة.

وأنا أسألُه أنْ يتأمَّلَ ما أفضَيْنا إليه، وحَصَلْنا عليه تأمُّلَ المتحَرِّزِ من استمرارِه، المتنبِّهِ على ما عليه فيه، ويلتزمَ ما يَلزَمُهُ من أخذِ رَهائنِهم ليَستظهِرَ بهم، والجُناةِ منهم ليُنفِذَ الحكمَ فيهم ويمْنَعَهم –بالجملةِ– من عُبورِ الزّاني والإيقاعِ بهم الذي قد أوجَدوهُ السَّبيل إليه، وهو الرأيُ الفَحْلُ الذي لا أراهُ لأسِيرَ إنْ سار، أو أُنفِذَ عسكراً إنْ أنفَذ مثلَهُ، وليطلُبَ الثأرَ فيهم، ويَشفيَ الصّدورَ والقلوبَ منهم، فإنّه متى أهمَلَ هذا الأمرَ عادَ إهمالُهُ بالقَدْحِ في جميلِ ما بيني وبينَه، والتطريقِ للطعنِ على السّالفِ المتأكِّدِ من ضَمانِه، إذ كنتُ لم أكتُبْ هذا الكتابَ إلّا عن جُرحٍ شديد، وامتِعاضٍ مُؤلم، وارتماضٍ مُقلق، وأحوالٍ لا يَحسُنُ به أنْ يكون مُفارِقاً لي فيها، وبمَعزِلٍ عن الاهتمامِ معي بها.

وسَيِّدي وَليُّ ما يَراهُ في ذلك وإمضاءِ صَريمةٍ من عَزيمةٍ في إحدَى الحالتَيْن، والنظرِ لهذه البلادِ التي هي له، وصِيانتُها واجبةٌ عليه بالمُشاركة الجامعةِ لنا، والتوثِقةِ الواقعةِ بيننا إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب الحمْداني[١]

كتابي عن شُمولٍ من السَّلامة، وعمومٍ من الاستقامة، وأحمدُ الله حقَّ حمده، وأستمدُّهُ من إحسانِهِ في ذلك وطَوْلِه. وقد كتبتُ إلى سَيِّدي بما هو واصلٌ بإذن الله إليه كتابي هذا بما دعَتْني دَواعي الأنَسةِ إلى الانبساطِ فيه، والمطالبةِ به، من أصنافِ الجوارحِ والضَّواري الموجودةِ بحضْرتهِ، وفي الأطرافِ المتصِلةِ بها. وهذا بابٌ من أبوابِ الوطَرِ يملِكُني الشَّغَفُ به، واللّهجُ بالاستكثارِ منهُ، وأُعطيهِ من عنايتي أكثرَ ممّا يُعطِيهِ غيري، وأُريدُ من أهلِ ودِّي السِّعايةَ فيه لي. ولم يكن المحمولُ من البُزاةِ في هذا الوقتِ مَرضيّاً، ولا مقارِباً للرِّضا، وليس الغَرَضُ كَثرةَ العدَد بل جَوْدَةَ العَين.

وقد فوَّضْتُ إلى أبي مُحمّد قريبِ أبي عليٍّ خِدْمتَنا جميعاً في ذلك، واستصحَبَ تَذْكِرةً في معناهُ هو يَعرِضُها ويَستمِدُّ المُعاونةَ على المذكورينَ فيها من إخوتِنا -أيّدهم الله- ومن الأسبابِ -أعزَّهمُ الله- حتى لا يتأخَّرَ شيءٌ ممّا عند الجماعَةِ بإذنِ الله.

وممّا ذُكِرَ لي حصُولُهُ لسَيِّدي، ومن أجلِهِ كتَبْتُ هذا الكتابَ، مُستنزِلاً عنهُ، وسائلاً إيثاري به، فهذه مُستفرَهَةٌ حَمَلَها إليَّ فلان، فإنْ رأى أنْ يتقدَّمَ بخِدْرِها إليَّ محروسةً مَصُونةً، معجَّلةً غيرَ مُؤخَّرة، ويَتْبَعَ جهاتِ ما ثبَتَ في تَذْكِرة عبدالله بن ....[٢]، وإسْعافي به وتمكينهِ من جميعِ الموجودِ، وتَنَجُّزِ الكُتبِ وإنْفاذ الرُّسُلِ إلى الأطرافِ في الْتماسِ المجلوبِ، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ليدن. (العنوان فيها: وعنه إليه).

(٢) فراغ بمقدار كلمة.

وكَتَبَ عن نفْسِه[1]

كتابي، وكان عَوْدي إلى مدينةِ السَّلام يومَ الأحَدِ الماضي بكتابِ الوزير الوارِدِ عليَّ مُبشِّراً بالنِّعْمة المتَجدِّدةِ له ولنا مَعْشَرَ أوليائهِ وخَدَمِهِ فيها، وشاهَدْتُ من الحال ما كان اغتباطي به بحسَبِ ما عرَفْتَ -أيّدك الله- من صُورتي قبلَها، وأنا أحمَدُ الله على ما كشَفَهُ من الغُمَّةِ، وأنزَلَهُ من الرحمةِ، وأسألُهُ التمامَ والدوامَ بقُدْرته.

ووَرَدْتْ منهُ -أيّده الله- على منزِلةٍ مُتَضاعِفَةٍ، ورُتبةٍ مُستقِرَّة، وعنايةٍ زائدةٍ، وتفويضٍ تامٍّ إليَّ، وتعويلٍ في المُلمِّ عليَّ، وقد رسَمَ ليَ النظَرَ في خدمتِهِ بأسْرِها، وجمَعَ لي متفرِّقَها، والله تعالى يُحسِنُ المَعُونةَ على ما قَضَى حَقَّ الصَّنيعة.

وأنتَ يا مَوْلاي المهنّأ بما تجدَّدَ للوزير؛ لأنك ما زِلتَ غاليَ المقالةِ في مُوالاتـهِ، عـالي المنزلةِ في طاعتِهِ، وقد عرَّفتُكَ ما وَجَـدْتُكَ عليـه في تلـك الأيّـام مـن التـألّمِ والاغـتمام، والحُزْنِ والاهتمام، وازدادَتْ بصيرَتُه في وُدِّكَ، وإيجابِهِ لحقِّـك، ومُحافَظتِـهِ عـلى عَهْـدِك، وأخرَجَ إليَّ كتابَكَ في عُرْضِ الكُتبِ الواردةِ، فأجَبْتُ بما تقِفُ عليه، وخِـدمتي في ذلـك مُشتركة، لأنــَّني عبدُ الأمير وخَادِمُه، والمتمسّكُ بعلائقِ العِصمةِ عنده، ووَثائقِ الحُرمةِ به، لا يُزِيلُني الإغفالُ عن حُسنِ الظنِّ، ولا يجِدُ عندي الإحسـانُ مُسـتزاداً في الشّـكرِ، والله تعالى يُعينُني على وُجودِ ما أُطالِبُهُ من فعلِهِ الكريم، وعَهْدِ تفضُّلِهِ القديم، ويُوفِّقَني لما حَرَس رأيَهُ واقتضَى إنعامَهُ بمَنِّهِ وطَولِهِ.

وقد عَلِمتُ أنّ تأخُّرَ كتابِكَ عنِّي لتوهّمِكَ غَيْبتي عن مدينةِ السَّلام، وأنّك لم تُغفِلُ ما سألتُكَ إيصالَهُ، ولم تُقصِّرْ فيما جَشَّمتُكَ إيّاه، وأنا على الظنِّ الجميلِ مقيمٌ، ولأثَرِكَ المشكورِ متوقِّعٌ إنْ شاء الله.

---

(١) ليدن.

وكتب[1]

كتابي، والسَّلامة لأميرِ المؤمنين وللأميرِ ولي في ظِلِّهما وكنَفِهما شامِلةٌ، والأمورُ على الإرادةِ والمحبَّة جاريَةٌ مطَّرِدَةٌ، والنِّعْمة في ذلك سابغةٌ ضافيةٌ، ولله الحَمْد كثيراً، والشكرُ دائماً.

وكان هذا الانكفاءُ إليها على الأصلِ الـذي قَدَّمتُـه إليـكَ، في انصـرافِ النيَّـةِ إلى الغَزوِ، الذي هو أعوَدُ في الدّنيا والآخـرةِ، وأحَـظُّ في العاجلـةِ والآجِلَـةِ، وقـد توالَـتِ الـدَّواعي إليـه، وتوافَـتِ البَواعـثُ عليـه، التـي أوَّلهـا كُتبُـكَ السّـالفَةُ بالاستمدادِ والاستنجاد، والاستصراخِ والاستنصارِ، وذلك أنّ الأمير آثَرَ هذا الوَجْـهَ عـلى الوَجْـهِ الذي بإزائه بعد أنْ أغـرَقَ في النّكايـة، وحـازَ أكثـر البُغيـة، وشـارَفَ تحصيـلَ البَقيّـة، واستجابَ إلى ما كان منهُ مُمتنِعاً، وأسمَحَ فيما كان له أبيّاً، واعتقَدَ أنْ يجعَلَ مدينةَ السَّلام منزِلاً يَطوِيه، ولا يُطيلُ التعريسَ فيه، والله يوفِّقُه ويُسَدِّدُه، ويَكْنُفُـهُ ويَعضُـدُه، ويَهديـه ويُرشِدُه، ويُجريه في الإنهاضِ والمعُونة، والنَّصْر والكفاية، على ما لم يَـزْل يُوليـه ويُعـوِّدُهُ بقُدْرته.

ولم يكُنْ -أيّده الله- ولا كنتُ، على شكٍّ من أنّكَ مُوافٍ غيرُ متأخّرٍ، ومبادِرٌ غيرُ مُتلوِّمٍ، إلى أنْ وَصَل كتابُك في هذا الوقتِ مَبنيّاً على الاعتذارِ بالشغلِ الذي ذكَرْتَ أنّك تَوفَّرتَ عليه، والاقتصارِ على انحدارِ أبي مُحمّد، مَشْروطاً عليه وعلينا في أمرِه تَرْكُ المواقَفةِ على أمرِ المالِ، فَعجِبْتُ من ذلك كُلَّ العجَب، واستَطْرفتُه كُلَّ الاستطرافِ !

---

(١) ليدن.

لخروجِهِ عن طريقِ الصَّواب، وعُدولِهِ عن مذهب الصَّلاح، ومخالفَتِهِ سائرَ ما كانت الكُتُبُ سَبقَتْ به، والمراسَلاتُ تكرَّرَتْ فيه.

وإذا كان أبو مُحمّد لا يَنوبُ في أمرِ المالِ الذي هو أقلُّ ما بيننا، فكيف تكونُ الحال فيما سِواهُ ونحنُ نَصُونُه، مع شوقِنا إليه، ومَعرفتِنا بحقِّه، وإيثارِنا قُربَهُ عن أنْ نتَجشَّمَ العَناءَ الفارِغَ الذي لا يَتعلَّقُ بعائدةٍ ولا يتَّصِلُ بفائدة؟ ولا بدَّ من صِدْقِكَ -أيّدك الله- حسَبَ ما يقتضيهِ اعتقادِي للجَنَبَةِ -أدام الله عِزّها- وإيثاري ما صانَها وحَماها، وحَرَسَها ووَقاها. ومَوْلانا الأمير ناهِضٌ بهذهِ العساكِر المتوافِرة، والوُفودِ المتقاطِرة، ومتى يَنضافُ إلى الأولياءِ من أبناءِ البلادِ المُطَوِّعة، والطّوائفِ المُنجَذِبة، والأخلاطِ المجتَمِعةِ. ومتى لم يكنْ ذلك على اتفاقٍ يُرجَعُ إليه، وأصلٍ يُعمَلُ عليه، كان فيه ما أنتَ أعرَفُ من أنْ تُعرَّفَهُ، وأعلَمُ من أنْ تُعْلَمَهُ، ولا سِيَّما ومنكَ كان ابتداءُ هذا الأمرِ والدّعاء إليه والحضُّ عليه، وليس جميلاً ولا مستقيماً أنْ يتَثاقلَ عن الحضور، العائدُ بانتظام الأمور.

وقد كاتَبكَ مَوْلانا الأمير بما تقِفُ عليه، ولم يَستدعِكَ إلّا عن غايةِ الثِّقةِ بكَ، والاستنامَةِ إليكَ، والمحبَّةِ لكَ، لأن تُجرِيَ هذه الحركَةَ -خارَ الله فيها- على ما تتقَدَّمُ الموافَقةُ عليه، ويستقِرُّ الرأي فيه. وأنتَ -أيّدك الله- غيرُ مُطَالَبٍ في نفسِكَ بشيءٍ تَستثقِلُه، ولا مَعْدولٌ بِكَ عن الإيثارِ الذي تستحِقُّه، ولا مَمنوعٌ من العَوْدِ متى شئتَهُ وأردتَهُ.

وليس يقومُ غَيرُكَ مَقامَكَ في هذا البابِ، لعِلمِكَ بأُصولِهِ وفُروعِه، وأنَّكَ الواسِطةُ له من أوَّلِهِ إلى آخرِه، فتعمَلُ -أيّدك الله- على التعجُّلِ والبِدارِ، وتقديمِ الانحدارِ،

ليكونَ لقاؤُكَ للأمير بمدينةِ السَّلام من غيرِ تأخيرٍ ولا مُراجعَة، ولا تعليلٍ ولا مُدافعَة، فإنّ العَزْمَ مُرهِقٌ غيرُ مُنظِرٍ، ومُعجِلٌ غيرُ مُهمِلٍ[١]. وإذا فعَلْتَ هذا، فقد وَفَّقَكَ الله تعالى للصّوابِ الذي لم تَزلْ تعتمِدُه، وإنْ أَخَّرتَهُ -والعِياذُ بالله- فقد بَلَيْنا العُذرَ، والأمير سائرٌ لا محالةَ، ومُدَبِّرٌ فيما يُجريه الله فيه على أحسَنِ العادة إنْ شاء الله.

(١) كذا العبارة في الأصل، وأحسن منها لو قال: مرهِقٌ غيرُ مُهمِل، معجِلٌ غيرُ منظر، إذ المناسبة بين الإرهاق وعدم الإهمال، والإعجال وعدم الإنظار واضحة.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى جماعةٍ من القُوّاد والأصحاب والنّواحي
في إظهار مَنْزلة سُبُكْتِكين[1]

كتابُنا، وإنعامُ الله علينا وإحسانُه مُستمرّان على أفضل الشّاكلة، وجاريان على أجمل العادة. ونحن نقابلها بالشّكر الممتري للزّيادة، والنّشر المستدعي للمادّة. وهو - عزّ وجلّ - وليٌّ فيهما بالإتمام والإدامة، وحقيقٌ بالإمتاع والإطالة.

ومذهبُنا مشهورٌ لا خَفاء به، ومأثورٌ يُستغنى عن ذكره، في تنزيل أوليائنا مَنازلَهم التي أثمرتها آثارُهم، وترتيبهم مَراتبهم التي نتجتها مَساعيهم؛ حتى نوصل إلى حَظّه وقِسْطه، ويقف به عند غايته وحَدّه، لا يلحقه بَخْسٌ فيما يستحقّه، ولا نَقْصٌ فيما يستوجبه، ذلك حكمٌ لنا ماضٍ في جمهورهم، عامٌّ لكبيرهم وصغيرهم.

فأمّا العَيْن البَصيرة، واللّمعة المنيرة، والنّجم الزّاهر، والشّهاب الباهر، والفذّ الذي لا قَرين له، والفرد الذي لا يطير معه، فالعناية بشأنه تتوفر بتوفُّر قدره، والمراعاة لأمره تتضاعف بتضاعُف خطره، والرّعاية لذَمائه[2] تتظاهر بتظاهُر حَقّه، والإيجاب له يتأكّد بتأكّد سَببه.

وما تُزاد علماً باشتمال أخينا أبي نَصْر سُبُكْتِكين الحاجب على هذه الأوصاف،

---

(١) طهران. (العنوان فيها: وله إلى جماعة من القُوّاد..........).

صدرت هذه الرسالة قبل سنة ٣٦٣هـ وما وقع فيها من أحداث، وقد تقدم التعليق عليها.

(٢) الذَّماء: بقية النفس، وقيل: قوة القلب. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٣٨٩ (ذمي).

واستبداده بهذه الأحوال، وأنّه نَسيجُ وَحْده[1] في أبناء دَوْلتنا، وقَريع دَهْره في خَواصّ جُملتنا، وشيخ الأولياء المتقدِّم لهم بفضله، الزّائد عليهم بسابقته، النّازل من مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - الآن، ومن مَوْلانا السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة - كرم الله مثواه - كان، منزلة الوالد الأثير، وعِلْق المضنَّة الخطير، الجاري لنا مجرى الأخ الشّقيق، والعَضُد الوَثيق، الذي عُرفت له الآثارُ المحمودة، والمواقفُ المشهودة، وشُهرت عنه الخلائق الزّكية، والطّرائق الرّضية، وأنّ الأمير السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة - رضي الله عنه وأرضاه، وبرّد مضجعه وروى صداه - قاد عساكره به، وأوطأهم عقبه، وناط تدبيرهم بنظره، وعوّل فيهم على سياسته، وجمع له إلى رئاسة الحجبة في داره رئاسة الإسْفَهْسَلاريّة[2] في عسكره، وأننا سَلَكنا سبيله، واتّبعنا دَليله في إقرار ذلك عليه، والمزيد فيه لديه، ممّرين له عَقْده، مؤكّدين عَهْده، والأيّام تزيدنا بصيرةً في نُصحه وطاعته، ويقيناً من وَلائه ومُشايعته، إلى أنْ تناهت أواخيه، وتكاملت مَعاليه، واقتضت له أنْ نخصّه بشعارٍ من إكرامنا، ونَسِمه بمِيسَم من إعظامنا، يزيدانه إنافةً وعُلوّاً، ورفعةً وسُموّاً؛ فأمرنا بالجمع بين الحجبة والإسْفَهْسَلاريّة في مخاطبته حسب اجتماعهما في رُتْبته ومَنْزلته، وأوعزنا إلى سائر الوُلاة والعُمّال، والمتصرّفين في الأعمال، باتّباع هذا الرَّسْم في المكاتبات، واحتذائه في المفاوضات، وجدّدنا عنه من الخِلَع والحُمْلان، و..... [3] له من

(١) تقال للرجل المحمود، ومعناه أن الثوب إذا كان كريماً لم يُنسج على منواله غيرُه، لدقّته. وإذا لم يكن كريماً نفيساً دقيقاً عُمل على منواله سَدى عدة أثواب. وتضرب مثلاً لكل من بولغ في مدحه، وهو كقولك: فلان واحد عصره، وقريع قومه، فنسيج وحده، أي: لا نظير له في علم أو غيره. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٣٧٦ (نسج).

(٢) الإسْفَهْسَلار: مقدَّم العسكر.

(٣) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: استنينا.

الحِباء والإحسان ما أردنا به الإظهار والإذاعة، ونحونا فيه الاشتهار والإشاعة. فرأيك في عِلْم ذلك، والانتهاء إليه، والعمل بما يستأنفه من ذكر أخينا الإسْفَهْسَلار أبي نَصْر بحسبه، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله تعالى.

نُسْخة كتابٍ وَرَد من مدينةِ السَّلام إلى عِزّ الدَّوْلة أبي منصور وهو بواسِط عند عِصْيانِ سُبُكْتِكين الحاجبِ عليه

وهو كتابٌ نَاقِصُ اللّفظِ والمعنى، دالٌّ على اختلالِ مَن كتبَهُ وقلّةِ معرِفتِه بالرّسوم وإنّما كتَبْناه ليتلُوَهُ جَوابُه[1]

من عبدالله عبدِ الكريم الإمام الطّائع لله أمير المؤمنين
إلى عِزّ الدَّوْلة أبي منصور

سلامٌ عليك، فإنّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ الله الذي لا إله إلّا هو، ويسألُهُ أنْ يُصلّيَ على مُحمّدٍ عَبْدِه ورسولِه صلّى الله عليه وسلَّم. أمّا بعد،

فإنّ الله -جلَّ وعَلا- جَعَل دينَ الإسلامِ حقًّا متَّبَعاً، فشرَّفهُ وأعلاه، ولم يُرخِّصْ في رفضِ سُنتهِ، ولا أوجَدَ سبيلاً إلى انتقاضِ قواعدِه، فلم يَزلْ أهلُهُ، والمتمسِّكونَ بالعُروةِ الوُثقَى منهُ، والمتَحقِّقون بطاعةِ خُلفاءِ نبيّهِ -صلّى الله عليه وسلَّم- ورَضيَ عن الماضينَ منهُم، على تقلُّبٍ في السُّلْطان والقُدْرة، آخِذينَ بما أمَرَ الله تقدَّستْ أسماؤُه، ومن العمَلِ بالحقّ والإنصاف، ومراعاةِ القريبِ والبعيدِ من الأكناف، والمثابرةِ على قَمْعِ الكُفّارِ وغزوِهم، واستئصالِ شأفتِهم، وتطهيرِ البلادِ من مَعارِّهم.

وكان ذاك دَيْدَناً لازِماً ومَذهباً مُستعمَلاً، فاتّسعَ الباعُ في أخذِ الدّاني والشاسعِ، إلى أنْ أُهْمِلَ من الأمرِ ما أحدَثَ للمخالِفينَ أطماعاً، وأوْجبَ لهم انبساطاً واقتداراً؛ فَساروا

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة.

في البلادِ على طُمأنينةٍ من غيرِ مُدافع ولا مُمانع، ولم يَعْدُ ذلك ما دعا إليه التنازُع بين الطوائفِ المتحاسِدينَ على الأعمالِ، فاجتَذَبَ[١] كلُّ حزبٍ منها قطعةً من الأرضِ يتملَّكُها، ويَستولي عَليها، ويفوزُ بها لها، ويجعَلُ جِهاتِهِ إلى[٢] تصرُّفِهِ فيها لغيرِ ذاتِ الله - عظُمَتْ كبرياؤُه- ومن حيثُ يلزَمُ الاتفاقُ على استماعِ الإمْرةِ المطاعةِ على سالفِ الأيّام، ليزولَ عن الإسلام ما عرَاهُ من إفسادِ طوائفِ الكُفَّارِ -خذَلَهم الله- وأمكَنَ من نَواصيهم، ومِلْك رقابهم، ولا يقرِّبُ منهم مَن كان بعيداً، وينتشِرُ يَمْنةً وشمالاً مَن كان مقهوراً ذليلاً، حتى بَطَلَتِ الثغورُ، إلّا ما كان محروساً بالمراعاةِ التي أحمَدْناها من فعْلِ عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب -أحسَنَ الله عونَهُ- وقد أوجَدَهُ الله مَنّا، وعندَنا من الرِّفْدِ والمعونةِ والمسامحةِ بما كان طُولبَ به تغنُّماً بها أبداهُ وأذاعَهُ، وشاعَ في الآفاقِ موقِعُه، إلى أنْ يُتبعَهُ بغيرِه ممّا نرجو به صَلاحَ المسلمين، وارتفاعَ راياتِهم، حتى يرجِعَ الشيءُ جديداً بعونِ الله ومشيئته.

ولما وَجَدْناكَ -أمتَعَ الله بك- مُقيماً بواسِط، مُبيحاً لمال الفَيْءِ[٣]، ومسلِّطاً لذوي الغِواية والجهلِ على أموالِ أهلِ البلاد، لم نجِدْ مَنْدوحةً عن تنبيهِكَ وإيقاظِكَ من سِنَتِك، وتعريفِك ما لكَ وعليك، وتحذيرِكَ بالله، وتخويفِك بقُدْرته التي ينتزِعُ بها الأرواح من أجسادِها، ويحيي بمكانِها العِظامَ وهي رَميم، وبأوليائهِ الذّابّينَ عن الحريم، والدّافِعِينَ عن الإسلامِ. فإنِ انتقلْتَ إلى حيثُ نقلّدكه من الأصقاعِ على أنْ تعدِلَ في

---

(١) ل: واجتذاب.

(٢) ج: التي.

(٣) قال القاسم بن سلّام: ما نيل من أهل الشرك عَنْوةً قسراً، والحرب قائمة، فهو الغنيمة، التي تخمس ويكون سائرها لأهلها خاصة، دون الناس، وما نيل منهم بعدما تضع الحرب أوزارها، وتصير الدار دار إسلام فهو فيء يكون للناس عاما، ولا خمس فيه. الأموال، ص ٣٢٠.

أهلِهِ، وتَصدِفَ عن سَنَنِ الجَورِ في معاملةِ قاطنيه، قابَلْنا هذا بما تَستحِقُّهُ من الإكرامِ والإيثارِ، وإقرارِ اللَّقبِ والزيادةِ في الاختصاصِ. وإنْ خالَفْتَ واعتمَدْتَ الإقامَةَ على ما لا يَسُوغُ الصَّبْرِ عليه في الدِّينِ والسياسَةِ، قَصَدْناكَ بجُيوشِنا وسار نحوَكَ معَنا أهلُ هذه البلدانِ كافَّةً كالنفور إلى الثغورِ، وأزَلْنا ما تتعلَّقُ به من اللَّقبِ مِنّا الذي نُثبِتُه ونُمضِيهِ على مَن يَعتقدُ طاعتَنا ويعمَلُ بها، وهذا الآنَ التَّخْييرُ مِنّا قبلَ بادرةِ القَصْدِ. فتأمَّلْ - أمتعَنا الله بسلامتِكَ - خطابنَا لك، واخترِ الأعوَدَ والأجدى عَليك، فقد تقدَّمْنا بقراءةِ كتابِنا هذا على وُجوهِ المسلمين، وجعَلناهُ إعذاراً، وعجِّل الإجابَةَ فإنّا نتَوكَّفُها وإن كنا غيرَ لابِثينَ عن المسيرِ بجدٍّ واجتهادٍ، نَستفرِغُ معهما الوُسْعَ والطاقةَ، إلّا رَيْثَ وُصولِ الكتابِ بالجوابِ لنَنْثَني عنكَ إلى تأمُّلِ أمرِ الثغورِ ومَصالح المسلمين بإذنِ الله ومشيئته.

نُسْخة الجوابِ من إنشاءِ
أبي إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل بن إبراهيم بن زَهْرون الصّابي الكاتب
عن عِزّ الدَّوْلة[(١)]

للأمير أبي بكر عبد الكريم ابنِ أمير المؤمنين المطيعِ لله

من عِزّ الدَّوْلة أبي منصور بنِ مُعِزّ الدَّوْلة أبي الحسين

مَوْلى أمير المؤمنين

سَلامٌ على الأمير، فإني أحمَدُ إليه الله الذي لا إلهَ إلّا هو، وأسألُه أنْ يُصَلِّيَ على مُحمّدٍ عبدِهِ ورسولِهِ صلّى الله عليه وسلَّم. أمّا بعد،

فقد وَصَل إليّ كتابُ الأمير -أطال الله بقاءه وأدامَ عزَّه وتأييدَهُ، وأحسَنَ توفيقَهُ وتسديدَهُ، وألبَسَهُ عفْوَهُ وعَافيتَهُ، ولقَّاه رُشْدَهُ وهدايته[(٢)] - مفتتَحاً من الاعتزاءِ إلى إمْرة

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة.

لا أدري لماذا لم خاطب عَضُد الدَّوْلة الأمير عبد الكريم في هذه الرسالة بالإمارة، ولم يُسَمِّه بالخلافة ! في حين أن الرسالة مؤرخةٌ بالثامن من محرم ٣٦٤هـ، وفي هذا التاريخ كان الأمير عبد الكريم قد تولى الخلافة وتلقب بالطّائع لله، بعد تنازل أبيه المطيع لله بسبب إصابته بالفالج، وذلك في ١٣ ذي القعدة من عام ٣٦٣هـ، أي قبل هذه الرسالة بما يقارب الشهرين. كما أن الكتاب السابق، والذي جاءت هذه الرسالة جواباً له يصرّح بأنه موجّهٌ من الطّائع الخليفة، وليس الأمير. لكن عِزّ الدَّوْلة لم يكن قد اعترف بخلافته بعد، كما يبدو من هذا الجواب. في تولي الطّائع الخلافة، انظر: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٢٤؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٢١٥؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٦٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣١٨.

(٢) ل: كفايته.

المؤمنين، والتقلّد لأمورِ المسلمين بما أعراقُهُ الطيِّبَةُ الزكيَّةُ، وأرُومَتُه الشّامخةُ العَلِيَّةُ مجوِّزَةٌ لاستمرارِه، ومُسَوِّغةٌ لاستقرارِهِ، له ولكلِّ نَجيبٍ آخِذٍ معه بحظٍّ من نَسَبِه، وضاربٍ بسهمٍ في منصِبِه، إذ[1] كان ذلك جارِياً على الأصولِ المعهودةِ فيه، والأسبابِ العاقدةِ لهُ، من إجماع هؤلاء المؤمنين حتى لا يختصمَ منهم اثنانِ، ولا يختلِفَ بينهم رأيان. فإنْ تعذَّرَ أنْ يُجمِعُوا مع انبساطِهم في الأرض، وانتشارِهم في الطُّولِ منها والعَرضِ، فلا بُدَّ من اتّفاقِ أشرافِ كلِّ قُطرٍ وأفاضلِهِ، وأعيانِ كلِّ صُقْعٍ وأماثِلِه، الذين إذا أعطَوْا صَفقَةَ أيْمانِهم، وبايَعُوا بانشراحٍ من صُدورِهم، دخَل عَوامُّهم في جُملتِهم دُخولَ المقلِّدينَ لهم، وانقادوا انقيادَ المفوِّضينَ إليهم، فحصَلَ الإجماعُ حينَئذٍ حُصولاً لا يعتَلُّ، وانتَظَمَ انتظاماً لا يختَلُّ، أو من عهدٍ وعقدٍ يُمِرُّهما إمامٌ جائزٌ أمرُهُ وحُكمُه، أصيلٌ رأيُه وفَهْمُه، مُمَكَّنٌ ممّا يُورِدُ ويُصدِر، مخيَّرٌ فيما يأتي ويَذَر، ومخلّىً مع الإيثار، ممتنِعٌ على الإجبار، غيرُ محجوبٍ عن الإرادةِ، ولا محجورٍ عن المشيئةِ، ولا محمولٍ على الكَراهةِ، ولا مُضطَهَدٍ بالإخافةِ، وليسَ له مع ذلك أن يُمضيَ على المسلمين مثلَ هذا العَقدِ إلّا بعد أنْ يَعرِضَهُ على خِيارِهم وصُلَحائِهم، ويَعرِفَ ما فيه عند كُبَرائهم وعُظَمائهم، ويَظهَرَ منهُ الاجتهادُ في الارتيادِ لهم وتَرْكِ الافتئاتِ والاستبدادِ عليهِم، ويَصحُّ عندهم أنهُ لم يَعْدِل عن الرأيِ الثّاقبِ، ولا ذهَبَ مع الهوى الغالبِ، ليعودَ الأمرُ إلى اتّفاقِ الإجماعِ[2] الذي هو القُطبُ المدارُ عليه، والعَمودُ المشارُ إليه.

وقد عَلِمَ -أيّده الله- أنّ الأئمَّةَ كانت إذا أرادَتْ أنْ تعهَدَ عهداً أحكمَتْ له الأصولَ، وسلكَتْ فيه هذه السَّبيل، وتحرَّزَتْ من أنْ تَشُوبَهُ شوائبُ النقضِ، أو تُلِمَّ به

---

(١) ل: إذا.

(٢) ل: الاتفاق، بدون: الإجماع.

مُلمّاتُ الفَسْخِ، وأنّ عُمرَ بنَ الخطّابِ رحمَةُ الله عليه -وهو القُدوةُ العُظمَى، وفيه الأُسوةُ الكُبرى- سُئلَ وقد احتُضِرَ عن الخليفةِ بعدَهُ فقال: لم أكُنْ لأتحمَّلَها حيًّا وميّتاً، وكيفَ أفعَلُ ذلك وقد مَضَى رسُولُ الله -صلّى الله عليه وسلَّم- ولم يَستَخْلِفْ؟ ولما أُلحَّ عليه جعَلَها شُورى في الستَّةِ النفَرِ المعروفينَ -رحمَةُ الله عليهم أجمعين- وفوَّضَ إلى المسلمين أنْ يختاروا لنفوسِهم منهم مَن يرتَضُون.

وإذا لم يكُنِ النبأُ -أيّد الله الأميرَ- موضوعاً على أحدِ هذين الأُسَّيْن، ولا معقوداً على أحدِ الوَجْهَيْن، بل كان معدولاً به عنهما، ومُخالفاً فيه شرطَهما، فأخلِقْ به أنْ تتقوَّضَ أعاليه، وتزِلَّ قَدَمُ بانيه، وألّا تطَّرِدَ الدعوَى لمدَّعيها، ولا تتَّجهَ الشبهَةُ على دافِعيها.

ومعلومٌ -أيّد الله الأميرَ- أنّ أمير المؤمنين المطيعَ لله - تولاّهُ الله بالحراسةِ حَيّاً، وبالمغفرة مَيّتاً برَز عن دارِه، هارباً من اليدِ التي حَصَل فيها، خائفاً من الخُطَّةِ التي أُكرِهَ عليها، وأنّ هرَبهُ كان إلى جِهَتي، وسُكونَهُ كان إلى جَنَبتي، وأنّه رُدَّ رَدَّ العُصاة، وحُصِرَ حَصْرَ العُتاةِ، فأُقِرَّ في حَبْسِه، وأُخيفَ على نفسِه، ولم تُرْعَ له حُرْمَةٌ ولا ذمَّةٌ، ولا وُقِّرتْ له شَيْبَةٌ ولا كَبْرة، فأصبحَ وَحيداً فريداً، مَسْلوباً مَغلوباً، معزوزاً[1]، مبزوزاً، قد بعد عنه أنصارُ الدَّوْلة، وأحاطَ به غُواةُ الفتنةِ، لا يملِكُ ضَرًّا ولا نفعاً، ولا يستطيعُ نَصْراً ولاَ دَفْعاً، ولا يصِحُّ من مثلِهِ الاختيار، ولا يَثبُتُ عليه الإقرار، ولا تقدَّمتْ منهُ مشاورَةٌ لأحد، ولا مكاتبَةٌ إلى طرف، بل أُقدِمَ عليه بالعظيمةِ، واستُبدِلَ به على غير صحَّةٍ ولا وَثيقةٍ. وأنّ الطّائفة من غِلْماني النّاشزةَ عليَّ وإنْ لم تَخْلُ من لَبيبٍ فيها يتقدَّمُ، وحَصِيفٍ يَعرِفُ ويَفهَمُ، فأكثرُهم أعاجِمُ لم يُفصِحوا، وطَغامٌ لم يفقهوا، وليس لهم أنْ يُفارِقوا طاعتي، ولا أن يُقارِفوا معصِيتي، ومن فعَلَ ذلك منهم من رقيقٍ أو عتيقٍ فهو ملعونٌ

---

(١) أي: مغلوباً. ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٣٧٨ (عزز).

بالأثرِ عن رسُولِ الله صلّى الله عليه وسلَّم إذ يقول: «من ادَّعى إلى غيرِ أبيه، ومَن تَولّى غيرَ مَواليه، فعليهِ لعنَةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يُقبَلُ منهُ صَرْفٌ ولا عَدْلٌ»[١].
وجميعُهم بين مسترَقٍّ مِلكُه عائدٌ عليَّ، ومُعتَقٍ وَلاؤهُ منسوبٌ إليَّ، وما ينعَقدُ بمثلِهم أمرٌ، ولا ينفُذُ بقولِهم حُكمٌ، ولا يكون المركَبُ الذي رَكِبوهُ، ولا[٢] الانفرادُ الذي انفَردوهُ حجَّةً على دَهْماءِ المسلمين، المطبقة لمشارِقِ الأرض ومَغارِبِها، وأقاصيها وأدانيها. فكيف يكون الأمرُ تامًّا بشِرْذمةٍ من العَبيدِ، محصورةِ العَدَد، منقطِعةِ المدَد، ووَراءَها منِّي مالكٌ يُريعُها ويَنْحوها، وطالبٌ يتَّبِعُها ويَقْفوها، ولم يخرُجْ سُلْطانها ببغدادَ عن طرفَيْها، ولا تعدَّى مَآصِرَيْها[٣]، ولا تمّتِ البيعَةُ، ولا أُقيمتِ الخُطبةُ، ولا رَضِيَتِ الأمّة، ولا أجمعَتِ الكافَّة.

ألا يَعلَمُ الأمير -أيّده الله- أنّه لو حاوَلَ أحَدٌ من هؤلاء العَبيدِ[٤] أنْ يَعقِدَ لنفسِه عَقْدَ نِكاحٍ لما تمَّ إلّا بإذني، ولا جازَ إلّا بإجازةٍ منِّي؟ فكيف تكونُ الحال في الإمامةِ التي هي أكبرُ الأمورِ وأعظمُها، وأجَلُّ الشؤونِ وأفخمُها؟ أوَ لا يَذكُرُ -أيّده الله- أنّ من الأوامِر للوُلاةِ في العُهودِ المعهودةِ إليهم، والعقودِ المعقودةِ لهم تعريفَ اللُّقطة، ورَدّ

(١) أخرجه ابن ماجه: «إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصية. الولد للفراش، وللعاهر الحجر. ومن ادّعى إلى غير أبيه، أو تولّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل». سنن ابن ماجه، ج٢ ص٩٠٥ (رقم٢٧١٢). والصَّرْف: التوبة، والعَدْل: الفداء. ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص١٩١ (صرف)، ج١١، ص٤٣٤ (عدل).
(٢) ساقطة في ل.
(٣) المآصِر: سلسلةٌ أو حبلٌ يُشدّ معترضاً في النهر، يمنع السفن عن المضيّ إلّا بعد دفع الرسوم. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٩٥. والمقصود هنا أماكن استيفاء تلك الضرائب والرسوم.
(٤) ج: المماليك.

الضّالةِ، وحَبْسَ الأُبَّاقِ على مَواليهم[١] من أرِّقاءِ المسلمين والمعاهَدينَ عليهم وإعادتهم، على حاليَ: الانقياد والاعتياص إليهم؟ فما الحجَّةُ عليَّ في الاشتمال على مَن في هؤلاء الغِلْمان من عَبيدي الذين لم يَخرُجوا عن مِلكي ببَيعٍ ولا إعتاق؟ وكيفَ يستحِلُّ الارتباطَ لهم، والاستبدادَ بهم مَن أمَرَ بالمعروفِ ونهَى عن المنكرِ، وحَضَّ على العدلِ، وحَذَّرَ من الجَوْرِ، وادَّعَى أنّه للبريَّةِ سائسٌ، وعليها رائسٌ، وسمِعَ كلامَ الله إذ يقولُ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢]، والأثَر عن رسولِ الله صلّى الله عليه وسلَّم إذ يقولُ: «ضالَّةُ المؤمنِ حَرْق النّار»[٣].

والله الشّاهدُ أنني ما تصَرَّفْتُ في هذا القولِ عِناداً للأميرِ أيّده الله، ولا إباءً لتمامِ أمرِه، ولا مَيْلاً بالهوى إلى غيرِه، ولكنْ لزوماً للأوْلى، وسلوكاً للمحجَّةِ الوُسطى، وذهاباً على آثارِ المجتهدينَ المصيبينَ في صَلاحِ الدّنيا والدِّين. وكيفَ أأباهُ -أدام الله عِزّه- مع الباطِنِ الذي يَعرِفُه منِّي، والسرِّ الذي دَخَل فيه القاضِي أبو بكرٍ محُمّد بنُ عبدِ الرحمن[٤] بينه وبيني؟ وإنّي لَأرجو أن يَعودَ الحقّ إلى نِصابِهِ، ويؤُولَ الرأيُ إلى صَوابِهِ، وتَزولَ الشوائبُ المعترِضَةُ فيه، والغَوائلُ الغائلةُ لهُ، فيبلِّغَ الله الأمير المنزلةَ التي يترشّح لها في أوانها ووقتها، وعلى أيدي مَواليه وموالي سَيِّدنا وأبيه. ويكون مصيره إليها بالحقّ الواجب، وعلى السَّنَن اللّاحب، وبإجماع الصُّلحاء الأخيار، والصُّدحاء الأحرار، وبالله التوفيق.

---

(١) (على مواليهم) ساقط في ج.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٤.

(٣) أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن النار جزاء من تعرض للبهائم الضالة. انظر تخريجه في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري، ج٣، ص٤٠٥.

(٤) المعروف بابن قُرَيْعة، وقد تقدّم ذكره والإشارة إلى مصادر ترجمته في ص٢٢.

فأمّا ما ذكره الأمير -أيّده الله- من أنّ الله جَعَل الإسلامَ حقًّا متَّبعاً، وطريقاً مَهيعاً، وحَضَّ على حفْظِ فرائضِه وسُنَنِه، وحذَّرَ من النقْضِ لمرائرِه وعِصَمِهِ، وأنّ أهلَهُ المتديِّنينَ بالتُّقى، المتمسِّكينَ بالعُرْوةِ الوُثْقى، المتحقِّقينَ بطاعةِ نبيّهِ -صلّى الله عليه وسلَّم- والخُلفاءِ الرّاشدينَ من أهلِ بيتهِ -عليهم سلام الله ورضوانُه، وتحيَّتُه وغُفْرانُه- لم يزالوا[1] آخِذِينَ بأوامِر الله في العَدلِ والإنصافِ، ومراعاة ما قرب وبعد من الأطراف والأكنافِ، ومرابطةِ الكفَّارِ، وتطهير البلادِ من المعارِّ، إلى أنْ ضَرَب الدِّينُ بجِرانه[2]، وبَهَر ببُرهانِه.

ثم إنّ الشيطانَ نزَغ بين وُلاةِ أمرِهِ نَزغاً دَعاهم إلى التحاسُدِ والتنازُع، وأدّاهُم إلى الاختلافِ والتهارُج، فصارَتْ أيديهِم مُتَعادِيَة، بعد أنْ كانوا يداً على مَن سِواهم واحدة، وانصرَفَتْ هِمّةُ كُلِّ واحدٍ[3] منهم إلى قطعةٍ من الأرضِ يتملَّكُهَا ويَسْتولي على مالِها ويَصرِفُه في غيرِ ذاتِ الله -عزَّتْ أسماؤُه، وجَلَّت كِبرياؤُه- ففَسَدتِ الأمورُ بعد صَلاحِها واطِّرادِها، واختَلَّتِ الثغورُ بعد ضَبْطِها وانسِدادِها، إلى غيرِ ذلك من اللّفظِ الجاري مَجْراهُ، الحاوي لمعناه، فقد قال -أيّده الله- قولاً سَديداً، وسَلَك نَهجاً رشيداً، وصَدَق – صدَّقَ الله لهجتَهُ، وأحسَنَ هدايتَه – أنّ أمرَ الدِّينِ كان مَسُوقاً ذلك المساقَ القديمَ القويم، وأنّه آلَ إلى المآلِ الحديثِ الخبيثِ، إلّا أنّ الله أرادَ ذلك فيه، ولا خَذَل

---

(١) ل: يزلوا.

(٢) جِران البعير: مقدّم عنقه، فإذا أراد أن يبرك مَدّ جِرانه على الأرض. والمقصود أن الدِّين استقام وقرّ في قراره. وأول مَن قاله السيدة عائشة أم المؤمنين. ابن قتيبة، غريب الحديث، ج٢، ص٤٧٩.

(٣) من: ل.

أعوانَهُ وناصِريه، ولا أخلَفَ وَعْده، ولا نقَضَ عَهْدَه، ولكنّ للدهرِ نوائبَ تَنُوب، والحقّ بعدَها يُدالُ فيَثُوب.

وقد كانت الدّعائمُ -لعَمْري- ضَعُفت، والقواعدُ اضطَربَتْ، والسِّيرةُ تغيَّرتْ، والمضَرَّةُ شمِلَتْ، فكشَفَ الله ذلك بأولياءِ الدَّوْلة النّاصِحينَ لها، الذّابّينَ عنها، الذّائدين أعداءها، المُعِزِّينَ أولياءَها، المانعين جِوارَها، الحامينَ ذِمارَها: عمادِ الدَّوْلة، ورُكنِها، ومُعزِّها - رحِمَ الله منهم مَن مَضَى، وأعانَ وأنهَضَ مَن بقى - وأولادَهم: عَضُد الدَّوْلة، وعِزّها، ومُؤيِّدها، وعُمدتها[1]، الذين رَبيتهم أظآرُ[2] الطّاعة، وأرضَعتْهم أخلافُ المشايعةِ، ونشأوا تحت الرّاياتِ السُّودِ، ولواءِ الخلافةِ المعقودِ[3]، فإنّهم انتزعوا السُّلْطان من تلك الأيدي، التي ذكَرْتَ أيها الأمير أنها تخاذلَتْ وتحاسَدَتْ، وتغاوَتْ وتَتايعَتْ[4]، وجاءَتْ بالضَّررِ[5] على المسلمين، ونفَّسَتْ من خِناقِ الكافِرين، واستأنَفُوا إقرارَ الحقّ مَقرَّه، وإسلاكَهُ سَبيله.

وكان من أحسَنِ ما أثَّروا، وأتقَنِ ما دبَّروا، أنْ وجَدوا المتلقِّبَ بالمستكفي[6] قد

---

(١) ل: عدتها. وبهامش هذه الأسماء تعليق بخط مختلف: «أقول: كذب الكاتب...... هؤلاء المذكورون كانوا...... على الخلفاء والإسلام و....... موجبات و........ ذهاب رونقها، فهم بضد ما وصفه. يعرف هذا مَن نظر في تواريخ الثقاة. كتبه حسن العطار. [هذه الفراغات كلمات غير مقروءة] وقد صدق العطار في تعليقه هذا.

(٢) جمع ظِئر: المربية، والمرضعة لغير ولدها. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٥١٤ (ظأر).

(٣) ج: الممدود المعقود.

(٤) التتايع: الوقوع في الشرّ من غير فكرة ولا روية. واللَّجاج فيه. ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٣٨ (تيع).

(٥) ج: وأدخلت الخلل.

(٦) الخليفة المستكفي بالله (٣٣٣- ٣٣٤هـ) خُلع وسُمل وبقي معتقلًا إلى أن مات سنة ٣٣٨ هـ. ابن الطقطقى، الفخري، ص٢٨٧

غلَبَ على الأمرِ بالحِيلةِ والمكرِ، وأعانَه تُوزونُ عليه لاجتماعِهما في استجازةِ الغَدرِ، واستحَلَّ من المتّقي لله[١] -رضوانُ الله عليه- ما لا يستحِلُّهُ الكافِرُ في أعدائهِ[٢]، فَضْلاً عن المؤمن في أدانيهِ وأقربائهِ[٣]. وكانتْ خُراسان غيرَ داخلةٍ في بَيْعتِه، ولا مُقيمةٍ لدَعْوته، ولا راعيةٍ لذَّمتِهِ ولا راضيةٍ بإمامتِه، للظُّلمِ الذي اكتسَب، والإثمِ الذي احتقَب، وللسَّببِ الذي لا حاجةَ بنا إلى تكريرِ ذكْرِه، من دُخولهِ في الأمرِ من غيرِ بابِهِ، وأخْذِه إيّاه بغيرِ حَقِّه؛ فاستفرَغوا وُسعَهُم في الاختيارِ، واستنفَدوا طوْقَهم في الاعتيام، وقدَّموا وأخَّروا، وبحَثوا وفحَصُوا، فلم يجِدوا أحزمَ ولا أكفَى، ولا أنهضَ ولا أوْفَى من أمير المؤمنين المطيعِ لله[٤]، وهو إذ ذاك مُستتِرٌ خائفٌ، ومستَوحشٌ هاربٌ، قد هُدِمَتْ دِيارُه، واقتُصَّتْ آثارُه، وطُلِبتْ نفسُه، وهُدِرَ دَمُه، وحُوولَ فيه أنْ يَلحَقَ بأخيه[٥]، فأعْدَوْهُ على عدُوِّه، وأدالُوهُ من ظالِمه، وانتضَوْهُ من جَفْنِه، وأبرَزُوه من مَكمَنِه، ودَعُوا النّاس إلى مُبايعتِه، فانثالوا إليها ضارِعين[٦]، وأسرَعوا نحوَها

---

(١) الخليفة المتَّقي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ). وانظر تفصيلات ذلك عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص١٠١ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٣٤.

(٢) ج: أعاديه.

(٣) ساقطة في ج.

(٤) الخليفة المطيع لله (٣٣٤-٣٦٣هـ).

(٥) يقصد المستكفي بالله، وهو أخو المطيع لله. وكان مُعِزّ الدولة قد خلعه بطريقة مهينة وقاسية حيث حضر مُعِز الدَّوْلة والناس عند الخليفة، ومعهم رسول السامانيين، ومعز الدولة جالس، ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان، فتناولا يد المستكفي بالله، فظن أنهما يريدان تقبيلها، فمدها إليهما، فجذباه عن سريره، وجعلا عمامته في حلقه، ونهض مُعِزّ الدَّوْلة، واضطرب النّاس، ونهبت الأموال، وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار مُعِزّ الدَّوْلة، فاعتقل بها، ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء. انظر: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص١١٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٥٨.

(٦) ج: منازعين.

مُهْطِعِين[١]. وأُعطِيَتْ قَوسُ الخلافةِ منهُ بارِيها[٢]، وأُضِيفَتْ إلى كُفْئِها وكافيها. وحَصَل في يدِه المستكفِي وهو غاصِبٌ لا شَكَّ فيه، فأخَذ منهُ بثأرِ أخيه، فاعِلاً بهِ مثلَ ما فعَل، وصانِعاً كما صَنعَ حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ[٣]، وكَيْلَ الصّاعِ بالصّاعِ[٤]، لا اعتِداءً وظُلْماً، بل استقادةً وحُكماً، وتعفَّتْ آثارُ الفتنةِ، ووَقَى اللهُ شرَّ تلك الفَلْتة.

وجَدَّ رُكْن الدَّوْلة -كَبَتَ الله أعداءهُ- ومُعِزّ الدَّوْلة -نقَعَ الله صَداهُ- في فَتْحِ الفُتوحِ، وارتجاعِ الحقوقِ، ورمِّ الأمورِ، وسَدِّ الثغورِ، وعِمارةِ البلادِ، وسياسةِ العِبادِ. ورُدَّ الحجَرُ الأسوَدُ إلى مَوضعِه[٥]، وحُجَّ بيتُ الله بعد انقِطاعِ سُبُلِه، وانتُزِعتِ البصرةُ من أيدي البَريديّين، والموصِلُ من يدِ تِكين، وأُقِرَّ ناصرُ الدَّوْلة أبو مُحمّد -رَحمهُ الله- على أعمالِه[٦]، وأُعيدَتْ يدُه إلى ديارِه، وأسْفرت الوَحْشَةُ معه التي كان الذبُّ عن المطيعِ المطيعِ لله - أسعدَهُ الله في الحياةِ والوَفاة - الدّاعيَ إليها، والسببَ فيها، عن أُلفةٍ قد

---

(١) الإهْطاع: الإسراع في العَدْو. أو النظر بذلٍّ وخوف. ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٣٧٢ (هطع).

(٢) أي أعطيت لمن يحسن القيام بها. العسكري، جمهرة الأمثال، ج١، ص٧٦.

(٣) مثلٌ يُضرب لتطابق الشيئين تطابقاً تاماً. العسكري، جمهرة الأمثال، ج١، ص٣٨١.

(٤) إذا كافأتَ الإحسانَ بمثلِهِ والإساءة بمثلها. الميداني، مجمع الأمثال، ج١، ص١٦٨.

(٥) كان أبو طاهر القرمطي قد وافى مكة يوم التروية من سنة ٣١٧هـ، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود ونفذه إلى هجر، فخرج إليه ابن محلب، أمير مكة، في جماعة من الأشراف، فسألوه في أموالهم، فلم يشفعهم، فقاتلوه، فقتلهم أجمعين، وقلع باب البيت، وأصعد رجلا ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير كفن ولا غسل، ولا صلى على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة. ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٧٤٢. وبقي عندهم إلى سنة ٣٣٩هـ، فحملوه إلى الكوفة، وعلقوه بجامعها حتى رآه النّاس، ثم حملوه إلى مكة. أي أنه مكث عندهم ٢٢ سنة. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٩٠.

(٦) في هذا الموضوع، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٧٢.

مضَتْ عليها الأحقاب، ونشأ على اعتقادِهَا الأعقاب. وصُولِحت وُلاةُ مِصرَ على أعمالِها[١]، وفُورِقَتْ على المحمولِ من أموالِها.

ولم يزَلْ ذلك دَأبَها إلى أنْ حَدثتِ الحادثةُ فيها، التي أستَعينُ بالله على ما أنوْيه من تَلافيها. ورِيضَت خُراسان بعساكرَ غَشِيَتْها وطرقتها[٢]، ووَقائعَ أَلحَّتْ عليها وأرهقَتْها، وقادَتْها إلى أن أطاعتْ سُلْطانها وعَصَتْ شيطانها، وأفضَى الله بالحالِ بيننا وبين وُلاتِها[٣] إلى الصَّفاءِ والموَدّة، والصِّهْرِ والخُلطةِ. وحِيزَتْ كَرْمان وما والاها، وعُمانُ وما جاورَها، وانبسَطَ السُّلْطان شرقاً وغَرباً، وبرًّا وبحراً، والحبْلُ -بحمدِ الله- على أيدِينا منتظِمٌ، وشَمْلُ الدِّينِ بنا ملتئمٌ، وقد جعَلَنا الله له أنصاراً نُزاحِمُ عنه بالمناكِب، ونَحمي حِماهُ بالقَواضبِ، ولنا بعد من فضيلةِ الوفاءِ ما الأمير -أيّده الله- أوْلى مَن نشَرَهُ وأبداهُ، وحافَظَ عليه ورَعاهُ، لأنَّ المطيعَ لله خليفَةٌ مُذْ ثلاثينَ[٤] سنةً مَخطوبٌ لهُ، مُنادىً بشِعارِه، مُنفَّذٌ أمرُه، مُمْضىً حُكمُه، إلى أن استُحِلَّ من حَبْسِه، وإكراهِهِ وقَسْرِهِ ما لا يَستحِلُّهُ إلّا الظّالمونَ الآثمون، الذين سيعلمونَ أيَّ مُنقَلبٍ ينقَلِبون[٥].

وأمّا إحمادُ عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب -أيّده الله- وذِكْرُهُ بالجميلِ، ونَسْبُه إلى التحصيل، فقد وَضَع الأمير - أحسَنَ الله توفيقَهُ -هذا القولَ مَوضِعَهُ، ووَقَع منّي مَوقِعَهُ، لما هو عليه من طاعتي، والاتّصالِ بي، والكون في الغضَبِ لله معي، وما أحسَبُ الأمير -أدام

(١) يقصد الخلفاء الفاطميين.

(٢) من: ج.

(٣) يقصد الأمراء السامانيين.

(٤) في الأصول: ثلاثون.

(٥) من قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، سورة الشعراء، من الآية ٢٢٧.

الله عِزّه- عَلِمَ أنّ رأيَهُ فيها دَهَمَ المسلمين مُوافِقٌ لرأيي، ولا أنّه برز عن الموصِل متوجِّهاً إلى نُصْرتي، ولا أنّه سَيَّرَ أخاهُ أبا عبدالله الحسين بنَ ناصِرِ الدَّوْلة إلى تَكْريت مُقدِّمةً له في مُعاوَنتي، ولا أنّ صاحبَهُ وثقتَهُ الحسن بنَ طاهر ماثلٌ بحَضْرتي بالكتُبِ التي يَبذُلُ فيها من إنفاقِ الأمْوال، وتسريبِ الرِّجال ما يبذُلهُ ذَوُو اللُّحْمةِ الواشِجة، وأهلُ القَرابةِ الدّانية، ومَن كان للحقِّ طالباً، وفي طاعةِ الله دَائباً، ولا أنّه أنفَذ إليَّ نُسَخَ الكتُبِ المنشَأةِ عن الأمير -أيّده الله- إليه مُعَجِّباً لي منها، ومتبرِّئاً إليَّ من جميع[1] العمَلِ بها. ولولا أنّ ذلك أجمعَ طُوِيَ عن الأمير -أدام الله عِزّه- لما استَصْوبَ أنْ يَكتُبَ إليَّ بما كتَبَ به، وأنْ يَستدعيَ ما استَدعاهُ من جَوابي هذا عنهُ.

وأمّا ما تضَمَّنهُ الفصلُ، الذي نُسِبْتُ فيه إلى إباحةِ مالِ الفَيْء، وتَسْليطِ أهلِ الجهلِ والغَيّ، وغير ذلك ممّا انتُهي إليه في خِطابي واستُثيرَ به جَوابي، فهو -أيّده الله- يعلَمُ منِّي خِلافَ ذلك كُلِّه، بحمدِ الله ومشيئته. ومَن كانت آثارُهُ وآثارُ عمِّه وأبيه، وأهلِهِ وذوِيه، الآثارَ التي عَدَدْت، ومَواقِفُهم المواقِفَ التي وَصَفْت، لم يتعلَّقْ ذلك به، ولم يَحْسُنْ أنْ يُلقَى بمثلِه. وما أعلَمُ أننا اجتَرْمنا جُرماً غَيرَ التّمكينِ لمن ظلَمَ نفسَهُ بظُلمِهِ لنا، وعصَى ربَّهُ بعِصْيانِه إيّانا، وجَرَّ على المسلمين الفتنةَ الصَّمّاء، وشَنّ على ديارِهم وأموالِهم الغارةَ الشَّعْواء، وكَفّارةُ هذه الجناية ما نحنُ عليه من الصَّمْدِ لحَسم الدّاء، وكَشْفِ البلاء، وما ذلك ببعيدٍ ولا متأخِّر[2]، وليس فيهم فِئةٌ إلّا وهي بمَن معك وافيةٌ إذا انفردت، وليس ذلك مستصعبٌ ولا[3] مُتَعذِّرٌ مع تفضُّلِ الله وعَونِه، وإحسانِه ومَنّه.

وإذا انقادَتْ للأميرِ -أيّده الله- الأعِنّةُ، وانقَلَبتْ عن جهتِه الأسِنّةُ، وصَحَّ له عَقدُ

---

(١) ساقطة في ج.

(٢) ساقطة في ل.

(٣) (مستصعب ولا) ساقط في ل.

الخلافة، وحصَلَ له حقُّ الوِراثَةِ، وصارَ أميراً للمؤمنينَ لا يُنازَع، وإماماً لا يُدافَعُ، ومالكاً لأمره[١] لا يُعارَض، ومُمضِيًا لمشيئتِهِ لا يُناقَض، وسَقط الخلافُ فيه بين أهلِ الأمصارِ عامَّةً وبينَ وِراثةِ مدينةِ السَّلام خاصَّةً، وأطفأ النيرانَ المشْبوبةَ فيها، وطهَّرَها من الدُّعّارِ[٢] المغيرينَ عليها، وحَقَنَ دِماءَ المستورينَ الذين يُفتَكُ بهم على بِساطِه، وتُفاظُ أنفُسُهم بمَرأى عينِه، فأعوذُ[٣] بالله حينَئذٍ من أنْ أُخالِفَ مَن تَلزَمُني طاعَتُه، وأُدافِعَ مَن لا تَحِلُّ لي مدافَعتُه.

وأمّا التوعُّدُ لي بالمسيرِ إليَّ، وجمعِ[٤] الجموعِ عليَّ، فما أعرِفُ الحاجَةَ الدّاعيةَ إلى مُكاتَبتي بذلك، مع عِلْمِ الأمير -أيّده الله- بمَسيري من الأهْواز، ضارِباً بسَوْطي إلى بغدادَ، وإنهُ لا يسَعُني في الدِّينِ وما أوْجَدَنيه الله من القُدْرة على مَصالِح المسلمين، أنْ أترُكَ الأمرَ شاغِراً قد فَسَد على أيدي غِلْمان أنا وازِنُ أثمانِهم، وجامِعُ شَمْلِهم، والمسؤولُ غداً عمّا مكَّنتُهم منهُ وبسَطْتُ أيدِيَهم فيه، وأنهُ لا مَعدِلَ لي وللثائرينَ معي من رُكْن الدَّوْلة، وعَضُدِها، ومؤيِّدِها، وعُمْدتها[٥] -أدام الله عِزّهم- ومَن دونَهم ممّن يَطُولُ إحصاؤُهُ، ويُتعِبُ استقصاؤُه، عن الإسراعِ إليهم، والإطلالِ عليهِم.

---

(١) (مالكاً لأمره) من: ج.

(٢) ترد أحياناً في بعض القطع الذعار، والأصح بالدال المهملة، والعامّة تقول: هم بالذعار، وإنما هو بالدال. وهم قطّاع الطرق. وحّدناها وفقاً لما جاء عند ابن الجوزي، كشف المشكل، ج١، ص٤٤٤، والمعاجم العربية انظر على سبيل المثال: لسان العرب، ج١٥، ص٢٧ (عتا)؛ تاج العروس، ج١١، ص٣٠١ (دغر)؛ دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٤، ص١٨٨؛ ج١١، ص٧٣.

(٣) ج، ل: وأعوذ،وبها يتغير المعنى.

(٤) ج: جميع.

(٥) ل، ج: عدتها.

ولستُ أعلَمُ مَن أرادَ الأمير -أيّده الله- بالقومِ الذين وصَف أنَّهم يقصِدونَ لُمقارعتي، ويَسيرونَ لمدافَعتي، فإنْ كانوا هؤلاء الغِلْمان فقد كفَى ما تقدَّمَ من القولِ في أمرِهم، وهُم بين أنْ يَرشُدوا فيَفيئوا إليَّ، أو يَغوَوا فتكونَ الدّائرَةُ -بإذنِ الله- عليهم لي، وإنْ كان أرادَ دُعّارَ بغدادَ الخُرّابَ الشُّذّاذ، السّافِكينَ للدِّماء، المثيرينَ للدَّهماء، فقد كان الأمير -أيّده الله- بإيجابِ الحدودِ عليهم أوْلَى منهُ بالاستجاشةِ على مثلي بهم، وشأنُهم عندي أصغَرُ وأحقَرُ، وخَطْبُهم أهْوَنُ وأيْسَرُ من أنْ أتجاوَزَ هذا القَدرَ في ذِكْرِهم، ويَحسِبَ[1] الأمير -أيّده الله- أنني وضَعْتُ في نَفْسي العفوَ عنهم عند القُدْرة عليهم، عِلماً بخفَّةِ أحلامِهم، وترفُّعاً عن مُقابلةِ أمثالِهم، وصِيانةً لذوي السَّلامة الحالِّينَ بينَهُم، وحِياطةً لأهلِ الاستقامةِ المخالِطينَ لهم وبالله التوفيقُ، والسَّلام.

وكَتَب يومَ الإثنينِ لثمانِ ليالٍ خَلَوْنَ من المحرَّم سنةَ أربعٍ وستّين وثلاثمائة.

---

(١) ج: بحسب.

نُسْخة كتابٍ نَفَذ من عزّ الدَّوْلة في واسِط
إلى سُبُكْتِكين الحاجب عند عِصْيانِه
وقُرِن مع الجواب الذي كتبناه من قبلِه[١]

أمّا بعد، أطال اللهُ يا أخانا - على الطّاعة اللّائقةِ بك، والهداية المشاكلة لفضْلِكَ - بقاءَك، وأدامَ عزَّك وتأْييدك، وسَعادَتك وسلامتَك، ونِعْمتَكَ وكفايتَكَ، وأمْتَعَنا بك في عَوْدٍ إلى المعْهُودِ مِنْكَ، وانصرافٍ عمّا نَزَغَ الشَّيْطانُ به لك، ولا أخْلَانا منك، ومن إجابةِ هذه الدَّعوةِ فيك؛ فإنّ أولى ما اعتمده العاقل وأتاه، وذَهَب إليه وتوخّاهُ؛ أنْ يعرف الحقّ عليه فيؤدِّيه، كما يَعْرفه له فيقتضيه، وأنْ يتحرّزَ في مَجاري كَلِمِه، ويتوقَّى في مَساعي قَدَمِه ممّا يوتغ[٢] الدِّين، ويُسخط ربَّ العالمين. وإذا نزلتْ عنده نِعْمةٌ قرأها بغايةِ شُكْره وحَمْدِه، وأحْسنَ ضيافتها بمنتهى وُسْعه وجهده، وصانها عن عواقبِ إنْكاره وجَحْده، ووَقاها من جرائرِ كُفْرِهِ وغَمْطِهِ، إذ كان للنِّعم شرطٌ من الشُّكْر لا يريم[٣] ما وجدْتُهُ، ولا يُقيمُ ما فقدْتُهُ، وكثيراً ما تسكر الواردين حياضُها، ويُعشي عيون المُقْتبسين إيماضُها؛ فَيذهلونَ عن الامتراء لِدِرَّتها، ويَعْمهونَ عن الاستمتاع[٤] بنُضرتها،

---

(١) چستربتي، ليدن، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك، القاهرة. وأورد بعضها الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٨. والعنوان عنده: فصل عن بختيار إلى سبكتكين الغزني، وقد جعل محقق الكتاب (الغزني) بدل (المعزي)، ظنّاً منه أنه والد السلطان محمود الغزنوي! (من عِزّ الدَّوْلة) إضافة من الثعالبي للتوضيح.

(٢) الوَتَغ: الهلاك والفساد والإثم. ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٤٥٨ (وتغ).

(٣) رام، يريم: برح. لسان العرب، ج١٢، ص٢٥٩ (ريم).

(٤) ل، س: الاستماع.

ويكونون كمَن أطار طائرَها لما وَقَع، ونَفَر وحشيّها لما أنِس، ولا يَلْبثون أنْ يَتعرّوا من جلبابها، وينسلخوا من إهابِها، ويتعوّضوا منها بالحسْرةِ والغليلِ[1] والأسفِ الطَّويلِ. ونعيذكَ[2] بالله من استمرار ذلك بِكَ، ونسأله أنْ يأخذَ قبلَ التّمادي فيه بيدِكَ، بقُدْرته.

وأنْت – أدام الله عزَّك – الرّاجحُ الذي قد حَلَب الدَّهْر أشْطُرَهُ، وعَرَف خيرَهُ وشرَّهُ، وخرج عن حدِّ الحداثةِ، وارتفع عن عُذْر الغرارةِ، وتجلَّل بملابس الكُهول، وتحلّى بحُليِّ أهْل العقول. وقبيحٌ بك أنْ تهفو هَفْوةَ الجذع، وقد قرحْتَ واحتنكتَ، وأنْ تغلطَ غلط الصَّرورة[3]، وقد مارسْتَ وداوسْتَ.

وقد أجْرى اللهُ لك على أيدِينا، ويدِ الأمير مُعِزّ الدَّوْلة – نَضّر الله وَجْهه – قَبْلنا نِعَماً، ما ندّعى عليكَ شَيْئاً منها إلّا وأنتَ له مسلِّمٌ، ولسانُ حالِكَ به مُتكلِّم؛ لأنّ ذلك السَّيِّد الماضي – غفر اللهُ له – أعطاكَ ما لم تَسْمُ لكَ إليه همّة، وخوّلَكَ ما لم تَبْلغْهُ منك أمنية، وفضَّلك على ألوفٍ كثيرةٍ من عبيدِهِ وأوليائِهِ، وقرومٍ كريمةٍ من أدانيهِ وأقربائه. وإنّما ظنَّ بك[4] الإيفاء عليهم في الوفاء، فأَوْفَى بك عليهم في الرُّتبة، واستشعر فيك الإبرار في الحفاظ، فجعلَكَ لنا كالعُدَّةِ، ولم يَدُرْ في خَلَدِه – رَحمهُ اللهُ – أنّ مِثْلَ إحسانِه إليك يُكفَرُ، ومثلَ متجرِهِ فيك يَخْسَر، وقد جذَبَ بضبعك من مطارح الأرقَّاءِ العبيد، إلى مراتب الأحرار الصِّيد، وأوطأ الرِّجال عَقِبَك، وكثَّر مالك ونشبَك، وعَظَّم خَطَرَك

---

(١) ف: التعليل.

(٢) ف: نعيذ.

(٣) تقول العرب: دعوا الصرورة بجهله، وإن رمى بجعره في رحله. الطحاوي، شرح مشكل الآثار، ج٣، ص٣١٧. وهو الذي لم يحج ولم يتزوج. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٤٥٣ (صرر).

(٤) ساقطة في ف.

وقَدْرَك، وأبْعَد صِيتَك وذِكْرَك، وانتهى بك من الأثَرَة والثَّروةِ[١] إلى ما أقدرك الآنَ على المخالفةِ والمكاشفةِ اللّتين كنتَ عَنْهما بالعُدُول حَرْياً حقيقاً، وباستعمال ضدّهما[٢] وليّاً خليقاً.

وإنْ تأمَّلتَ – أيّدكَ الله – صَنيعَنا بك بعدَهُ، وجدْتَهُ أحْسنَ وأجْمل، وأوْفر وأجْزل؛ لأنَّنا مَلكنا الأمور، ودبَّرْنا الجُمْهور، وقَدرنا على أنْ نَنْفعَ ونَضرَّ، ونَسوءَ ونَسرّ، وننْقصَ ونزيدَ، ونرتجع ونعيدَ، فلم نثلم لكَ مالاً، ولم نُغيّرْ عليك حالاً، ولم نَنْزِعْ عنك[٣] عادةً، ولم نقطع مادةً، ولم نبززك لباسَ الكَرامةِ، ولم نعْدِمْكَ ظلّ السَّلامة، بل زِدْناك على ما كنت تحويه، وأعطيناك أكثرَ ممّا ترومه وتبغيه.

وكنتَ في أيّامنا مُرفَّهاً[٤] موفَّراً، مَصوناً موقّراً، مرفوعاً عن بَذْلة الخدمة، محمولاً على دالَّةِ الحُرْمة، مُسامحاً بما تطْلبهُ، مسوغاً ما تَقْترحهُ، مشفّعاً فيما تَسْأله، مُجاباً إلى ما تلتمسه، نُقرَّب مَن قَرَّبت، ونُبْعد مَن أبْعدتَ، ونرضى ما رضيتَ، ونكرَهُ ما كرهتَ. إقطاعاتُكِ مُقرَّةٌ عليك، ومَوادُّك منصبَّةٌ إليك، لا تعرف إلّا الصَّبُوحَ والغَبُوقَ، والتَّمتع بالمآرب والأوطار، واعتقاد الذَّخائر الدَّثرةِ النَّفيسةِ، وبناء الأبنية الرَّفيعةِ المشيَّدةِ[٥]، ونحن في نوائبَ تُلِمُّ بنا، وجَوائح تَبْلغ منّا بين مالٍ ينْكسِرُ على ضُمنائنا، وزياداتٍ نلتزمها لأوليائنا، ومؤنٍ تعجِزُ عنها الحال، وكُلَفٍ تزيد على الاستغلال، وعدوٍّ نَنْهد له ونُساوِرهُ، ووَجْهٍ يتعلّق[٦] علينا فَنشْخص إليه ونُباشرهُ، من حيث لا نبتدئك، ولا

(١) ف: المروة.

(٢) ل: ضدها.

(٣) س، ر: عليك.

(٤) ساقطة في ل.

(٥) س: المشدة.

(٦) ل: ينغلق.

تبتدئنا بإسعادٍ[١] في شِدَّةٍ، ولا بإسعافٍ عند ضِغطة، ولا ترى لنا ما يراه الشَّريكُ لشريكهِ، فَضْلاً عن المَوْلى لمليكِه.

وما زلتَ تترقّى في اطّراح الحقوق، واسْتِعْمال العقوق، إلى أنْ صرتَ لا تحضُر عندنا في مجلسٍ، ولا تركب معنا في مَوْكبٍ، ولا تهنّئنا بعطيةٍ، ولا تُعزِّينا عن رَزِيَّةٍ، وتدّعي مع ذلك علينا أنّا نَبْغيك الغَوائل، ونَنْصب لك الحبائل، ونشره إلى حيازة مالك، ونَسِف إلى استضافةِ حالِكَ، لا بدلالةٍ تقيمها، ولا عن حُجَّةٍ تُدلي بها، إلّا الإرادة منك أنْ يتداولَ النّاس دَعْواك، ويتفاوضوا شكواك، فيتخمَّر في نفوسِهم، ويتقرّر في قُلوبهم أنّ لك رُخْصةً في المركب الذي ارتكبتَه، وفُسْحةً في الإثْم الذي احتقبتَهُ.

وبالله لو كانت التّهمةُ منك لنا واقعةً بحقّها، ومقرونةً بشاهدها؛ لكانت طاعتُك إيّانا مظلوماً مُتَحيّفاً، أزينُ بك من مُخالفتِنا مُقتصّاً مُنتصِفاً، فكيف وعلّامُ الخفايا والغيوب، والمطّلعُ على الضمائر والقلوب، يشهد عليكَ باستحالةِ ما تَذْكرهُ، ولنا بصَفاءِ ما نضمرُهُ، وأنّا بريئون من كلِّ ما قُلْتَ وزعمتَ[٢]، وظنَنْتَ واتّهمتَ. ولو كُنّا نريد بك سوءاً لكان مَرامُه أسْهَلَ وأيْسرَ، وطريقُه أخْصرَ وأقْصر، ولانتهزنا فيك فُرَصاً كثيرة[٣]، منها:

شَغَبُ غِلْمانك عليك، وإحاطتُهم بك، وهربُك منهم وحيداً، وخروجُك من بينهم فريداً. وقد علمتَ أنّا وَقَيناك منهم، وكفيناك إيّاهم[٤]، وأنفذنا إليك مَن حَماك

(١) ل: بإسعادك.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) س: إياوهم.

وحَرَسَك، وصانَكَ وكَلأك، وفعلنا في ذلك ضدَّ فِعْلك في إفسادِ غِلْمانِنا[١] علينا، وتربية الوحشة في قلوبهم منّا.

ومنها: فرصةُ الحميّة من الدَّيْلَم عند فَتْك الأتراك بخمار الشُّرطي، وقد كانوا يتنزّون إليكَ، ويتلهّفون عليك، ويَرون أنك سببُ التَّبسُّط الذي تبسَّطوه، والحدثُ الذي أَحْدثوهُ، ونحن نَمْنعهُم ونَدْفعهم، ولا يجدون[٢] عندنا مُسامحةً فيكَ، ولا تخليةً عنك.

ومنها: فرصةُ حضور أبي دُلَف[٣] سَهْلان بن مُسافر، قَريبنا أدام الله عِزّه، وقد كان يمكن الاستظهارُ به في شيءٍ لو أردناهُ، وأمرٍ لو حاولناهُ؛ فوالله ما هممنا في الأوْقاتِ كلّها، بقَطْعِ لحبلِكَ، ولا بإضاعةٍ لحقِّكَ، بل كُنّا إلى الوقت الذي خرجتَ فيه، إلى ما خرجت، نحفظك حفظ السَّمْع والبَصَر، ونُعِدّك للتّصاريف والغِيَر، ونراك - على العلّات التي نَعرفها، والهِنات التي نَعلمها - الأخ الذي لا بدّ منه، والعِلْق الذي لا عِوض عنْهُ.

ولقد كُنّا نعجبُ من تلك الظُّنونِ التي تعترضك، والجفاء الذي يبدو منك في ادّعاء الغدر علينا، ونَسْب المكر إلينا، وفي مُضادّتِكَ إيّانا في إقْصاء مَن نُدْني، وإدناء مَن نُقْصي من جماعةٍ من النّاس لا حاجةَ بنا إلى ذِكْرهم. هذا ونحن نحْشُمُ لك الحِشَم[٤]، التي إنْ رُمْنا استقصاءَ شَرْحِها أوفَتْ وجَلّتْ، وطالتْ وأملّتْ، إلّا أنّا نذْكر البَعْض

(١) ساقطة في ف.

(٢) ف: يجدونا.

(٣) س: ولف.

(٤) ر: نتجشم لك الجشم.

منها[١]، تنبيهاً لك إنْ كُنْتَ غَفِلتَ، وإذْكاراً إنْ كُنْت نسيت ! ألا ترى أنّا شريناك بائعين بك كُلَّ وزيرٍ وظهير، وكبير وصغير ! وأنّك ذممتَ من شيرزاد بن سُرْخاب[٢] شيئاً لم تَقُمْ به بيّنَةٌ، ولا وضُحَتْ عليه دَلالةٌ. وكان منّا كجلدة بين العينِ والأنْفِ[٣]؛ فأبْعدناهُ. واتَّهمتَ العَبّاس بن الحسين أكفأ ما كان لنا؛ فَصَدَفْناه ونكبنَاهُ، واخْترتَ مُحمّد بن العَبّاس؛ فقرّبناه وقلَّدْناهُ. وأفْسَدك العَبّاس بنُ الحسين من بعد عليه؛ فانحرفتَ عَنْهُ، ومِلْتَ إليه. وأردتَ منّا أنْ نَصْرِفَ هذا، ونُعيدَ ذاك، فما راجعناكَ، ولا خالَفْناك.

ثم ظهر من العَبّاس بن الحسين في وزارتِهِ الأخيرةِ ما ظَهر من العظائم، وارتكب ما ارتكب من الجرائم، التي كان في الحقّ أنْ نَأخذك بها، ونرجع عليك بدركها لضمانك عنه ما ضمنتَ، وتوسُّطِك ما توسَّطتَ، فاحتملناها لما كنتَ بها راضياً، وأبَيْناها لما صِرتَ لها كارهاً، كلّ ذلك طَلَباً لمرادك وإيثارك، واحتراساً من استيحاشك ونفارِك.

ووفّقَ اللهُ لنا من النّاصح أبي طاهرٍ[٤] – أدام الله عِزّه – من سدّ ذلك المكان، وفاقَ فيه الأقْرانَ، ونَصَح من كلِّ قَوْلٍ وفِعْلٍ، واستقلَّ بكلِّ عبْءٍ وثقْلٍ، وجَهَد نَفْسَه في صِلةِ ما بيننا وبينَك، وتهذيب ما يَجْمعنا وإيّاك فما استقرَّ في مَوْضعِهِ، ولا سَحَب أذْيالَ

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) الضمة على السين من: ر.

(٣) كتب ناسخ ف بهامشها: «غريبة: كان عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم يحب سالماً ابنه ويجد به. وشب سالم والتحى، وهو يزيد به وجداً وشغفاً. وكان إذا أقبل سالم قام أبوه واعتنقه وقبّله وأنشد:

يديرونني عن سالم وأديرهم ... وجلدة بين العين والأنف سالمُ

انتهى». انظر الخبر في طبقات ابن سَعْد (طبعة الخانجي) ج٧، ص١٩٥ .

(٤) هو الوزير مُحمّد بن بَقيّة، وقد سبق التعريف به.

خِلَعِهِ، حتى بُلّغت عنه البلاغات فسمعتها، وحُكيت لك فيه المُحالات فقبِلْتها، وشرع في أنْ تشمئزَّ منه، وتنحرف عنْهُ، والضَّررُ عائدٌ علينا فيما نأتيه ونتابعك فيه؛ لأنّه أورثنا ملامةً وندامةً، وعلّقَ علينا شناعةً وضراعةً، واختلّت[1] أعمالُنا باختلافِ الأيدي المتعاقبةِ، واضطربتْ شؤونُنا بتوغُّرِ الصُّدور النقيّة، وظنَّ النّاس أنّ ذهابَنا معك إلى أغراضِكَ، وانقيادنا إلى مَراميكَ وغاياتك عن التياثِ حَزْمٍ وصَريمةٍ، وانتكاثِ رأيٍّ وعزيمة، وأنّ إمرارنا تلك النكبات على أولئكَ الطَّبقات من سوءِ رعايةٍ لمن نَصَح لنا، ونقصانِ وفاءٍ لمن خَدَمَنا. وتالله ما كان ذلك إلّا تَوْفيراً للوفاءِ والرّعاية عليكَ، وإغْراقاً فيهما لك.

وما عسيتَ – غفر الله لنا ولك – أنْ تقولَ إذا تَناولتْك الألسنةُ العاذلةُ، وتناقلتْ حديثَكَ الأنديةُ الحافلةُ، وقد دَلَفتَ[2] بالحرب إلى فِناء كبيرتنا وسَيِّدتك، وأخَوَيْنا ومَوْليَيْك[3] –أدام الله عِزّهم– فأزْعجتَهم وروّعتَهم، وغصبتَهم وحربتَهم، وأخرجتَهم عن الأوطان، وطوَّحتَ بهم في البُلْدان، وأحْرقتَ دُورَهم التي فيها دَرَجْتَ، ومِنْها

---

(١) س: اختلف.

(٢) عند الثعالبي: وقلدت.

(٣) لما وقعت الفتنة بين الأتراك والدَّيْلم في الأهواز وتعصب بَخْتِيار لهؤلاء، كتب لوالدته وأخوته أن يذيعوا خبر موته ويجلسوا للعزاء في بغداد، فإذا حضر سُبُكْتِكين التركي قبضوا عليه مكيدة منه دبرها، وأرسل كتابه هذا على أجنحة الطير، فلما وصل فعلوا ما أمرهم، فسأل سُبُكْتِكين عن الخبر فلم يجد ثقلاً يوثق به، فارتاب وخاف المكيدة، ولم تلبث أن وصلت رسل الأتراك بالنبأ اليقين، فأرسل سُبُكْتِكين إلى أبي إسحاق بن مُعِزّ الدَّوْلة أخي بَخْتِيار يخبره أن الحال قد فسدت بينه وبين أخيه، وأنه لا يرى العدول عن طاعة مواليه، وإن أساءوا إليه ويدعوه إلى الولاية، فأطلع والدته على ذلك، فمنعته فعندها حصر سُبُكْتِكين دارهم، ودخلها وأحرقها، وأخذ أبا إسحاق وأبا طاهر ابني مُعِز الدَّوْلة ووالدتهما ومن كان معهما أسرى، فسألوه الانحدار إلى واسط فأذن لهم. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣١٧.

خرجْتَ، وقلَّدْتَ نَفْسكَ من أمورِهِم عاراً، لا يَرْحَضُهُ الاعتذارُ، ولا يَعْفيه اللَّيْل والنَّهارُ. وها أنت - أيّدك الله - مُشْفٍ على مَسْلكٍ هو أوْعر، وخُطّةٍ هي أنْكر بتحقُّقِك بمُحاربتنا، وتصدِّيك[1] لمغالبتنا.

وما معك جيشٌ تظنُّ أنّه يَنْصرُك إلّا غِلْمانِنا الذين هم بين حازمٍ يوافِقُك؛ ليسلم عليك، ويُنافقُك إلى أنْ يجدَ لِنفْسِه فرصةَ الانسِلال منك، وبينَ غِرٍّ يريد منك ما إنْ أعطيتهُ جميعَه صَفِرَت يداك، وإنْ مَنَعْتَه بعضَهُ آثر عليك سِواكَ، وأصغرهم يضيف نفسَه إليك إضافة الرَّفيق وإنْ زِدْتَ عليه في القُدْرة، ويُصاحبك مُصاحبةَ القرينِ، وإنْ فُقْتَهُ في البَسْطة وأنْتَ ناصبٌ نَفْسَكَ بينهم مَنْصب الذُّبال الذي يُستضاء به وهو يحترقُ، وينْتفعُ به وهو يمّحقُ.

ولَعلَّك تظنُّ إنّ هَرَب الهاربينَ منهم إليك، وإكبابهم ومثابرتهم عليك، إيثارٌ لك علينا، وازورارٌ إليك عنّا، وليس ذلك كذلك، بل قلوبُهم إلينا أمْيلُ، وأعينُهُم نحونا أصْورُ؛ لأنَّهم غرائس أيدينا، وأغذياء نِعْمتنا، وعقائل أموالِنا، وأشبال عَريننا، نحنوا عليهم حُنَوَّ الجلّةِ الرّايمة، ويلوذونَ بنا لياذةِ السِّخالِ الرّاضعة. ولولا الحفائظ بينهم وبينَ الدَّيْلَم التي كنتَ أنتَ السَّببُ فيها، والمُسْدِي والملْحَم في تمكينها وتراميها، لما زال عنّا منهم زائل، ولا مال إليك مائل.

وتلك الوَحْشة الآن مُؤْذنةٌ بالزَّوال، مُسْفرةٌ عن الاتِّصال، ألم يبلُغْكَ ويبلغهم أنّ أكثرَ الدَّيْلَم في عَسْكرِنا أنكروا على الأقلِّ ما أتوه من مُنافرتِهِم ومُشاغبتهم؟ وخالفوا عليهم في مُهاجرتهم ومغاضبتهم؟ وأنّ الجماعةَ تحالفتْ بين أيدينا باليمينِ الغَموس، على زوال ما في النُّفوس، والعَوْد إلى التَّصافي، والاجتماع على التَّراضي، وأنّنا قد عَفَونا

---

(١) ر: تصديقك.

عن غِلْمانِنا الذين معَكَ، وبذلْنا لمن جاءنا الآن أو عند الإمكان إقرارَ حالِهِ ومالِهِ عليه، ومتابعةِ الإنعام والإحسانِ إليه[١].

فما هذه الثقةُ منك بأنّهم[٢] يُخاطرون لك بنفوسِهِم وأحوالِهِم، ويَخْرجونَ من أجلِكَ عن ديارِهِم وأوطانِهِم، ويوتغونَ[٣] أدْيانهم بإسخاط بارئهم، ويجرحون مروءاتهم بعصيانِ مَواليهم.

ومن أضعفِ ما اعتصمتَ به، وأوْهن ما عوَّلتَ عليه أنْ دعوتَ أدْون طوائف العَوامّ إلى الكون معك، وأهبْتَ بهم إلى الذَّبِّ عَنْكَ، ورضيتَ لنفسِكَ أنْ تكون عليهم أميراً، ورضيتَهم أنْ يكونوا لك جُنْداً، وأبَحْتَهُم النَّهْبَ والسَّلْبَ، وحكَّمتهم في المُهَج والحرم، وأطْلقتَهم إطلاقاً قد أعْوزكَ أنْ تضبِطَهُ، وأعجزَكَ أنْ تكفَّهُ، ومكّنْتَ في نفوسِهِم[٤] أنّنا مُعْتَقِدُون للإيقاع بهم، والاستباحة لدمائهم. فإنْ كانت هذه الإخافةُ التي أوْدَعَتها أسماعَهُم، وأشعرتَها قلوبَهُم عن ظنٍّ ظننتَهُ، فقد ذهبت فيه بعيداً، ألا تعلم - أيّدك الله - أنّهم مُخْتلطون بجماعةٍ لا يَحْصِرُهَا العَدَدُ من مشايخ دَيّانين أهواؤهم معنا، وصُلحاء مستورين مُوالينَ لنا؟ وأنّ السّوء لا يخلصُ إلى واحدٍ من هؤلاء الأحْداث الأغْمار إلّا بعد إتيانه على الكُثُر من أولئك الأخيار الأبرار؟ وأنّه لا تعدلُ عندنا فائدةُ الانتقام من الظّالم مَضاضةَ الاجتياح للمظلوم، وإنْ كان ذلك على سَبيل المكيدةِ لنا بإيحاش رعايانا منّا، والاستجاشة بهم علينا، إنّها[٥] لمكيدةٌ لا تضرُّ، وحيلةٌ لا تستمرُّ، إذ

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) س، ر: لأنهم.

(٣) الوَتَغ: الهلاك والفساد والإثم. ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٤٥٨ (وتغ).

(٤) ف: وسكنت في أنفسهم.

(٥) ر: إنهم.

كنّا قد أشْهدنا الله وملائكتَه وأنبياءه وأولياءه – عليهم السَّلام – أننا قد عَفَوْنا ومَنَنّا[١]، وحلَمْنا[٢] وكظمْنا، وبأنّ الجماعةَ الجانيةَ علينا من هذه الرّعيّة في حِلٍّ وَسَعةٍ من كلِّ ذنبٍ وجريرةٍ ما وقفوا حيث انتهوا، وانصرفوا عمّا أتوا، ولم نرضَ لهم بالصَّفْح والغفرانِ، حتى أضفنا إليهما الفَضْل والإحْسان، ورفعنا عنهم ما كان يُؤْخذ منهم لك ولنظرائِكَ الأتراك، من ضرائب الغَنَمِ المجْلوبةِ، والأمتعةِ التي يحْمِلها الحجيج صادرةً وواردةً، هذا إلى غيره من مُؤَنٍ اعْتقَدْنا إزالتها، ونوائب نوَيْنا حَسْمها، وأبواب بِرٍّ، نسأل الله المَعُونَة عليها، وحُسْنَ الجزاء لنا بها.

ونعود معك إلى ذِكْر الحربِ، التي أنت مجتهدٌ في أنْ تَشُبَّ بيننا نارَها، وتُطيرَ شرارها، فيا ليتَ شِعْرنا بأيّ قدمٍ تُواقفنا، ورايانُنا خافقةٌ على رأْسِك، ومماليكنا عن يمينك وشِمالِك، وخيلُنا موسومةٌ بأسمائنا تحتك، وثيابنا محوكةٌ في طُرزنا على جَسدِك، وسلاحُنا مشحوذٌ لأعدائنا في يدِكَ ! والله لَوْ لم يكُنْ بيننا فرقٌ غير هذا لكانَ كافياً في الاستظهار عليك، فكيف وها هنا فروقٌ كثيرةٌ، ومقاييسٌ بعيدةٌ !

منها: أنّ غِلْمانَنا الذين معكَ يلقوننا[٣] بهيبةِ الأبناء لآبائهم، والمماليك لمُلّاكهم، وأنّا نلقاهم على ثقةٍ بأنّ الله يردُّهم علينا ردَّ الضّالةِ على ناشدِها، ويوصِلُهم إلينا إيصالَ الظُّلامةِ إلى مُستحقِّها.

ومنها: أنّا أهلُ بيتٍ عوّدنا اللهُ أنْ يَنْصُرَنا على كلِّ باغٍ، ويُمكّنَنا من ناصيةِ كُلِّ طاغٍ، مدّاً منه – جلّ اسمُه – في عُمر دولةٍ لنا لا يُمكِّنُ المخْلوفين جميعاً أنْ يقرِّبوا[٤] لها أجَلاً

---

(١) س: ومنا.

(٢) ف: تحملنا.

(٣) س: يلقون.

(٤) ف: يقروا.

قبل أوانِه، ولا يطرقوا عليها خَللاً في غير إبّانِه، ولا يضرُّنا الله – مع تفضُّلِهِ الذي نُعوِّل عليه، والتآلف الذي نرجع إليه – بكيد الكائدين، ولا حَسَد الحاسدين.

وهذه العساكر التي معنا – وأنت تعرفها – مُتَحاشدةٌ لدينا، ومتحالفةٌ على نَصْرِنا، والأميرُ السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، والأميرانِ عَضُدُها ومُؤيِّدُها – أطال الله بقاءهم – وعُدّتها أبو تَغْلِب – أدام الله عِزّه – وسائرُ مَن في أكنافِ الأرضِ وأطْرافِها[1] وأوْساطِها وأثباجِها[2]، مُطلّون[3] عليك، مُتوجِّهون إليك، قد امتعضوا لنا، وتوافوا لمعاونتنا، وليس منهم فئةٌ إلّا وهي بمَنْ معك وافيةٌ إذا انفردَت، وعليهم زائدةٌ إذا تجرَّدَت، فما ظنُّكَ بالحال مع اجتماعها واتّفاقها، وإسراعِها واسْتباقِها؟ وكيف لا يهزُّك[4] مضجعُك، وينبو بك موضعُك، وقد قطعْتَ العصمةَ بيننا، وبَتَتَّ قرابتك منّا، وأحوجتنا إلى أنْ نتحرَّز مِنْك[5]، بعد أنْ كُنّا نتحرَّز بك، وأنْ نُدافعَكَ عن حالٍ كُنّا ندافع عنها لك، وأنْ يذكرَك العدوّ والصَّديق بما تُذكرُ به العصاةُ بعد أنْ كَسَوناكَ شعار السَّلاطين الولاة، وأيّ شيءٍ أقبح بمثلك من أنْ تُسْلَبَ الاسمَ الجميلَ، وتُنبز النَّبْز القَبيح، في عَصْر السِّنِّ والحِنْكة، وأوان الثّباتِ والمسْكة، وأنْ يُقالَ فيكَ إنّك بَعِلتَ[6] بحمل الإنعام، وأرنْت[7] على طُول الجمام. وعزيزٌ علينا أنْ نَسْمعَ ذلك

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) ثَبَجُ كل شيء: معظمه وأوسطه وأعلاه. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٢١٩ (ثبج).

(٣) ف: مظلين.

(٤) ف: يهول.

(٥) ف: منا.

(٦) بَعِلَ بالشيء: تبرَّم وضجر منه. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٥٩ (بعل).

(٧) الأرَن: النشاط، والمرح، والبَطَر، ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص١٤ (أرن).

فيك[١] فنرضاه، وقد كنا نَسْخطهُ ونأباهُ، وأنْ يتخلَّد في بُطونِ الصَّحائفِ غلطُنا وغلطُك في إحسانِنا وإساءتِكَ، وحفظُنا وإطاعتُك، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون.

وما كُنّا لنلقاك - لقّاك الله هُداك، وألْهمك تُقاك - لقاءَ المُحاربين، إلّا بعد أنْ تقدم إلينا تقدمة المعذِرين، أخذاً بأدب الله في دعائِكَ إلى رُشْدك، والصُّدوف بكَ عن غيِّك، وتَقْليدك البَغْي فيما بيننا وبينك، ولأننا لم نيأسْ إلى هذه الغاية من أنْ نَعودَ وتَعود، كما كُنّا وكُنْتَ، إذ كان اللهُ قادراً على أنْ يَكْشِفَ الخطْب، ويُذلِّل الصَّعْب، ويُدْني البعيد، ويُليِّن الشَّديد.

وكان الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، وكنّا نقيلك إذا استقَلْتَ، ونَعْذرك إذا اعتذرتَ، وبالله [ما كان][٢] ذلك من جِهتنا مُتَعذِّراً، إنْ كان من جِهتكَ متيسِّراً، فإنْ فعلتَ ورَددْتَ الأمور إلى حقوقها ورُسومها، وأزلتَ كُلَّ ما حدث[٣] من تغييرها[٤] وتبديلها، واستَظْهرتَ لنَفْسَكَ بما تحبُّ أنْ تستظهر لها به[٥]؛ فإنّ اللهَ يعفو عمَّا سَلَف، ويحسن في المؤتنف، وإنْ أَبَيْتَ وتماديْتَ؛ فالحجَّةُ متوجهةٌ عليك، والجيوشُ من كلِّ ناحيةٍ مُنْصبَّةٌ إليك، ولا تأخُّرَ لها عنْكَ، ولا عائق لنا دونَكَ، واللهُ الحاكمُ بيننا وبينك، والمطَّلِعُ على سرِّنا وسرِّك، والمجازي لنا ولك، والسَّلام.

وكَتَب يوم الإثنين لثمان ليالٍ خَلَوْنَ من المحرَّم سنة أربعٍ وستّين وثلاثمائة.

---

(١) ر: فينا.

(٢) إضافةٌ منّا من أجل الخبر المنصوب بعده.

(٣) س، ر: أحدث.

(٤) س: يغيرها.

(٥) س، ر: به لها به.

نُسْخة كتابٍ إلى الطّائع لله
عن عِزّ الدَّوْلة
كُتِب من واسِط وأُنفِذ إليه سِرًّا مع الجوابِ المتقدِّم[١]

كتابي -أطال الله بقاء الأمير وأدامَ عزَّهُ وتأييدَه وكِفايتَه، وتوفيقَهُ وحراستَه- يوم الإثنين[٢] لثماني ليالٍ خَلَوْنَ من المحرَّم، عن شمولِ السَّلامة لي، وما يُراعيهِ الأمير من أموري، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقد أجَبْتُ الأمير -أدام الله عِزّه- عن كتابِهِ الواردِ مع العَلَويّ المندوبِ بحمْلِه، جَواباً بنَيْتُهُ على أنْ يقرأهُ مَن عَرَضَهُ لهُ، وكُتِبَ عنه الابتِداءُ الذي أوْجَبَهُ، أصلَحَ الله لي منه ما فسَد، وعرَّفَهُ من حقِّي ما جَحَد، فمهما كان فيه من مُوَاَفَقةٍ ومُلاطفةٍ فهُوَ -أيّده الله- المخصوصُ به للحقِّ الذي التزَمَهُ له ولآبائه أئمّتِنا الطّاهِرينَ -صَلَواتُ الله عليهم أجمعين- ومهما كان فيه من استقاءٍ وموافقَةٍ، فالمُرادُ به مَن يَسُوغُ لي أنْ أتصرَّف في الإهابة به إلى الحقّ بين الخشونةِ والرفقِ، لاحتمالِ ما بيني وبينه ذلك، مطيعاً كان أو مخالفاً، ومجاملاً أو مُكاشِفاً.

وأفرَدْتُ هذا الكتابَ بنصيحةِ الأمير - أدام الله عِزّه - هو أحقُّ مَن تأمَّلَها وتصَفَّحَها، وأعمَلَ الفِكْرَ فيها وتدبَّرَها، وهي أنّ رسالةَ مَن أوْمأْتُ إليه -وفَّقَهُ الله لرُشْدِه- وصَدَفَ به عن غَيِّه، أَتَتْني مع كوهيار الدَّيْلَميّ يَسألُني فيها صُلْحاً ليسَتْ له بيننا قاعدة، ولا أظُنُّ أسبابَهُ إلّا متباعِدة، ويَزعُمُ أنّه متى مُنِعَ ذلك ورأى الجيوشَ عليه

---

(١) چستربتي، ليدن، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك، القاهرة.

(٢) ف: الإثنين المبارك.

متواترةً وإليه متقاطِرةً، رَحَل ومَن معه إلى صاحب المغرِب[١]، فأطاعَهُ ودانَ لهُ، وجَذَبه وجاء به.

والأميرُ -أيّده الله- يَعلَمُ أنّ للدَّوْلة العَبّاسيّة -حرَسَها الله- مِنّا ركناً لا يُطارُ بنَواحيهِ، وعَضُداً لا يُفَتُّ فيه، وعزّاً لا يضامُ، ومؤيِّداً[٢] لا يُرامُ، وعُمْدة[٣] لا يُخلَفُ، وأنّ أكثرَ بُلدانِ الإسلامِ في أيدينا وأيدي أهلِ طاعتِنا بالتفويضِ من الخلفاءِ الرّاشدِينَ إلينا، والعقودِ التي أمَرُّوها لنا، وأنا جميعاً مترافِدونَ متعاضِدون، متوازِرونَ متضافِرون، قد اتفقْنا على أن نَستدرِكَ ما حدَثَ، ونكشِفَ ما كرَث، وأنَّ الشِّرْذِمة التي ببغدادَ لو ضوعِفَتْ مرَّاتٍ كثيرةً لم تَفِ بمَن نَقودُهُ من عساكرِ الجِيل والدَّيْلَم وأصنافِ الأُمم، وأنّ المسلمين ببَغداد غيرُ مجتمعينَ ولا مُصْطَلِحين، ولو اجتَمَعوا واصْطَلَحوا لكانوا جُزءاً لا يتَجزَّأُ، وما أظُنُّ الرَّجل إلّا صائراً إلى الجهَةِ التي ذكَرَها إذا كَثُرَ النّاس عليه ودَنا الزَّحفُ إليه، ولا ذَريعةَ له لدَيها أعظَمُ من أن يُسلِّمَ الأمير -حَرَسَهُ الله- إليها، فيكونَ الأمرُ لم يَزُلْ عنه وَحدَهُ، بل عن كلِّ عَبّاسيٍّ كريمٍ بعدَهُ.

ومن أدَلِّ الدّليلِ على صحَّةِ ما توعَّدَنا به - لا مَكَّنَهُ الله منهُ - أنّه كان يَسَعُه لما رَدَّ المطيعَ له وأسَرَهُ، وحَجَر عليه وحَصَرَهُ، أنْ نُقِرَّهُ على أمرِه، ويَتَجمَّلَ بصِيانتِه، وكان إكراهُهُ إيّاه على المساعدَةِ له في محابِّهِ، أيْسَرَ قَباحةً عليه من ابتزازِهِ سِربالَ عزِّه، لكنَّهُ رآهُ شيخاً يَضعُفُ عن الأسفارِ الطويلةِ والمطارِحِ البعيدَةِ، فنصَبَ الأمير -أيّده الله- لأنّه أنهَضُ بها وأقدَرُ عليها، استعداداً للدّاهِيةِ الدَّهياء، والخُطَّةِ الشَّنعاء، اللتينِ نسألُ الله

---

(١) أي: الخليفة الفاطمي.

(٢) في الأصول كلها: وموئلاً.

(٣) في الأصول كلها: عدة. ولا يصح حيث أن عُدّة الدَّوْلة هو أبو تغلب الحمداني، وليس هو المقصود هنا، وإنما عُمْدة الدَّوْلة وهو الأمير أبو إسحاق إبراهيم بنُ مُعِز الدَّوْلة.

الإعاذةَ منهُما والوقايةَ من محذورِهما.

وإذا عرَضَ الأمير -أيّده الله- هذا القولَ على تمييزِه كنتُ فيه بالنصيحةِ له أوْلى ممّن اتّخَذَهُ سُوقاً، وجعَلَهُ إلى الفتنةِ طَريقاً. وقد مَكَثَ المُطيعُ لله مَصُوناً مُرفَّهاً، مُكَرَّماً مُوَقَّراً، مخطوباً له، مَذبوباً عنه ثلاثينَ سنةً لم يَبْلُغْها أحَدٌ من الخُلفاءِ قبلَهُ، وما زِلْنا فيها مُشايِعينَ لأعدائه مُقارِعين، إلى أنْ حَدَث ما حدَث من غِلْمانِنا الأتراكِ الذين إذا لم يَفُوا لنا، فأحرى ألّا يَفُوا لغيرِنا.

ومتى تصفَّحَ الأمير -أيّده الله- السِّيَرَ المسطورةَ، والأخبارَ المأثورةَ، في أيّام الأتراكِ القدماءِ بِسُرَّ مَن رأى وبغدادَ، وَجَد سائرَ الخُلفاءِ فيها: من المتوكِّلِ والمستعِين والمعتزِّ والمهتدِي[١] -رحمَةُ الله عَليهِم- مُغتَصَبينَ مُستَشهَدين، مفتوكاً بهم، مَسْفُوكاً ذَماؤهم[٢]، مستحَلَّا كلُّ حرامٍ فيهم، مُرتكَباً كُلُّ عظيمٍ منهُم. وهذا المتَّقي لله -رِضوانُ الله عليه- بالأمسِ وقد أُخِذَتْ له على تُوزُون بَيْعَةٌ مُستأنفَةٌ مُؤَكَّدةٌ عند عَودِهِ من الشّامِ إلى العراقِ، وأشهَدَ على نفسِه الله -جلّ اسمُه- وأنبياءَهُ ومَلائكتَهُ، ثم القُضاة والشُّهودَ، والشيوخَ والوجوهَ، بالوفاءِ له بما ثبَتَ له فيها، فما وقعَتْ عينُهُ عليه حتى غَدَر به ونقَضَ ميثاقَهُ وفعَلَ في أمْرِهِ ما هو مَعْروف مشهورٌ من حيثُ لم يُمهِلْهُ فَواقاً، ولا أبلَعَهُ رِيقاً، ولا طلَبَ عليه عِلَّةً، ولا ركِبَ فيما أحَلَّهُ به حُجَّةً ولا شُبْهةً[٣].

(١) ف: المقتدي.

(٢) الذَّماء: بقية النفس، وقيل: قوة القلب. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٣٨٩ (ذمي).

(٣) كان المتَّقي لله قد كتب إلى مُحمّد بن طغج الإخشيد متولي مصر يشكو حاله ويستقدمه إليه، فأتاه من مصر، فلما وصل إلى حلب، سار عنها أبو عبد الله بن سَعيد بن حمدان، وكان ابن مقاتل بها معه، فلما علم برحيله عنها اختفى، فلما قدم الإخشيد إليها، ظهر إليه ابن مقاتل، فأكرمه

الإخشيد ، واستعمله على خراج مصر ، وانكسر عليه ما بقي من المصادرة التي صادره بها ناصر الدولة بن حمدان ، ومبلغه خمسون ألف دينار . وسار الإخشيد من حلب ، فوصل إلى المتَّقي لله وهو بالرقة ، فأكرمه المتَّقي واحترمه ، ووقف الإخشيد وقوف الغِلْمان ، ومشى بين يديه ، فأمره المتَّقي بالركوب فلم يفعل إلى أن نزل المتَّقي ، وحمل إلى المتَّقي هدايا عظيمة ، وإلى الوزير أبي الحسين بن مقلة وسائر الأصحاب ، واجتهد بالمتَّقي ليسير معه إلى مصر والشام ، ويكون بين يديه، فلم يفعل وأشار عليه بالمقام مكانه ، ولا يرجع إلى بغداد، وخوفه من توزون ، فلم يفعل وأشار على ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر ليحكمه في جميع بلاده ، فلم يجبه إلى ذلك ، فخوفه أيضا من توزون ، فكان ابن مقلة يقول بعد ذلك: نصحني الإخشيد ، فلم أقبل نصيحته . وكان قد أنفذ رسلاً إلى توزون في الصلح، فحلَّفوا توزون للخليفة والوزير على الولاء والوفاء. فلما حلف كتب الرسل إلى المتَّقي بذلك ، فكتب إليه النّاس أيضا بما شاهدوا من تأكيد اليمين ، فانحدر المتَّقي من الرقة في الفرات إلى بغداد لأربع بقين من المحرم ، وعاد الإخشيد إلى مصر . فلما وصل المتَّقي إلى هيت أقام بها ، وأنفذ من يجدد اليمين على توزون ، فعاد وحلف ، وسار عن بغداد ليلتقي المتَّقي ، فالتقاه بالسندية ، فنزل توزون وقبل الأرض وقال : ها أنا قد وفيت بيميني والطّاعة لك ، ثم وكل به وبالوزير وبالجماعة ، وأنزلهم في مضرب نفسه مع حرم المتَّقي ، ثم كحله فأذهب عينيه ، فلما سمله صاح ، وصاح من عنده من الحرم والخدم ، وارتجت الدّنيا ، فأمر توزون بضَرْب الدبادب لئلا تظهر أصواتهم ، فخفيت أصواتهم ، وعمي المتَّقي لله ، وانحدر توزون من الغد إلى بغداد والجماعة في قبضته. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٣٤ . وساق مسكويه رواية عن ثابت بن سنان (ت٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) صاحب التاريخ قال: حدثني أبو العَبّاس التميمي الرازي وكيله، وكان خصيصاً بتوزون مستولياً عليه، قال: كنت أنا السبب فيما جرى على المتَّقي وذاك أنّ إبراهيم بن الربنبذ الديلمي لقيني يوماً وسألني أن أصير إلى دعوته فاستأذنت توزون في ذلك، فأذن لي فيه ومضيت إليه وهو ينزل في دار القراريطي على دجلة فوجدتُ داره مفروشة منضّدة فسألته عن السبب في ذلك وقلت: أحسبك قد تزوّجت. فقال: أنا أحدّثك عن أمري: اعلم أنّي خطبت إلى قوم وتجمّلت عندهم بأن ادّعيت أنّ لي محلّا من الأمير واختصاصاً به فقالت لي المرأة: إذا كنت بهذه المنزلة فهل لك أن تسفر في شيء يجمع صلاح الأمير وصلاحك وصلاح المسلمين؟ فقلت لها: نعم. قالت: هذا الخليفة (يعني المتَّقي لله) قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم

وكاشفتموه وليس يجوز أن تصفو نيته لكم آخر الدهر وقد اجتهد في بواركم فلم يتم له فمرّة ببني حمدان ومرّة ببني بُوَيْه. وهاهنا رجلٌ من ولد الخلافة من فهمه وعقله ودينه ورجلته كيت وكيت تنصبونه في الخلافة وتزيلون المتَّقي لله وهو يثير لكم أموالاً جليلة لا يعرفها غيره ولا يقدر عليها سواه وتكونون أنتم قد استرحتم من عدوّ تريدون أن تحرسوه وتحترسون منه وتخافونه ويخافكم وتقيمون رجلاً من قبلكم يرى أنّكم قد أحسنتم إليه وأنّ روحكم مقرونة بروحه. وأطالت الكلام في هذا المعنى فهوستني ودار كلامها في نَفْسي ـ وعلمت أنّ محلي لا يبلغ الكلام في مثله والسِّفارة فيه وكرهت أن أُكذّب نَفْسي عندها لما ادّعيته من المحلّ والمنزلة فأطمعتها في ذلك وعلمت أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلّا بك ولا يقدر عليه غيرك وقد أطلعتك عليه فأيّ شيء عزمك أن تعمل؟ فقلت: أريد أن أسمع كلام المرأة. فجاءني بامرأة تتكلم بالعربية والفارسية من أهل شيراز، جزلة شهمة فهمة، فخاطبتني بنحو ما خاطبني به الرَّجل فقلت لها: لا بد من أن ألقى الرَّجل وأسمع كلامه. فقالت: تعود غداً إلى ههنا حتى أجمع بينك وبينه. فلمّا كان من غد عدت فوجدت الرَّجل قد أخرج من دار ابن طاهر في زي امرأة وحصل في دار ابن الربنبذ فلقيته وعرّفني أنّه عبد الله بن المكتفي بالله. وخاطبني رجل حصيف فهم، ووجدته مع هذا يتشيّع ورأيته عارفاً بأمر الدّنيا، وضمن لي ستمائة ألف دينار يستخرجها ويمشّى بها الأمر ومائتي ألف دينار للأمير توزون وقال: أنا رجل فقير وإنّما أعرف وجوه أموال لا يعرفها غيري وأعرف من ذخائر الخلافة في يد قوم لا يعرفهم غيري. وذكر أنّ وجوهها صحيحة لا شك فيها ولا يقدر غيره عليها. فلمّا سمعت ذلك وعرفت صحته صُرت إلى توزون. وفكرّت في أنّ الأمر لا يتمّ بي وحدي فلقيت في طريقي وأنا أصعد إلى توزون أبا عمران موسى بن سليمان فأخذت بيده واعتزلنا. واستحلفته على كتمان ما أطلعه عليه فحلف ثم حدثته به كلّه وسألته معاونتى على تمامه فقال: هذا أمر عظيم لا أدخل فيه. فلمّا آيسني من نفسه سألته أن يمسك ولا يعارضني فقال: أفعل. فدخلت إلى توزون وأدخلته إلى حجرة وخلوت به واستحلفته بالمصحف وبأيمان مؤكّدة أن يكتم ما أحدّثه به فحلف فلمّا حلف حدّثته الحديث من أوله إلى آخره فوقع بقلبه وقال: صواب ولكني أريد أن أرى الرَّجل وأسمع كلامه. فقلت: عليّ ذلك ولكن إن أردت تمام هذا الأمر فلا تطلع عليه أبا جعفر ابن شيرزاد فإنّه يفثأ عزمك ويصرفك عنه. فقال: أفعل. وبلغ أبا جعفر خلوتي بالأمير فاتّهمني أني سعيت عليه ومضيت إلى القوم ووعدتهم بحضور الأمير ليرى

فاتَّقِ الله أيها الأمير -وقَاكَ الله- في نفسِكَ النفيسَةِ ودَولتِكَ الهاشميَّةِ، واخرُجْ من قبضةِ مَن لا يُؤمَنُ عليكَ، بل هو معتقِدٌ ما قُدِّمَ ذكْرُهُ فيكَ، وتوصَّلْ إلى أنْ تَخلُصَ إليَّ وتُقدِمَ عليَّ، ولو بأنْ تَستدعي بعض الباديةِ ممّن تُرغِبُهُ الإرغابَ التّامَّ ويَسلُكُ بكَ على طريقِ الكوفةِ، وتُعرِّفُني صحَّةَ عِزمِكَ، لأُنفِذَ من هؤلاء الأعرابِ مَن أثِقُ به، حتى إذا صار على مسافةٍ قريبةٍ منك خرَجْتَ إليه فخَدَمَكَ والرِّجال معه ومَن أضُمُّه من خواصِّ الأسبابِ إليهِم.

ولْيَرسُم الأمير -أدام الله عِزّه- لمن وراءه -حَرسَهُم الله- أنْ يَسيروا، فإنَّهُم -بإذن الله عزّ وجلّ- يَنْجُونَ ويَسْلَمون. ولا طلَبَ على أمثالِهم، إذ كان هو -أيّده الله- بعيداً عنهم. ولْيَنتَهِز الفُرصَةَ قبلَ فوتِها، ومَا دامَ مالكاً لنفسِه غيرَ مُستظهَرٍ عليه ولا يتعَاظَمُه ما أشَرْتُ به، وأنّ التكلُّفَ له أخَفُّ محَملاً من ذهَابِ الأصلِ ووقوع الندمِ والعياذُ بالله.

وأنا أُشهِدُ الله وحَملَة عرْشِهِ وأنبياءَ وَحْيِهِ، والمسلمين جميعاً في أقطارِ الأرضِ، على أنّني آخُذُ البيْعَةَ للأمير -أدام الله عِزّه- على نَفْسي وأهلي، وكلِّ نازحٍ عنّي، وقريبٍ مني،

الرَّجل ويكون الاجتماع في منزل موسى بن سليمان. قال: وتشددنا في الطوف بالليل في دجلة. ثم وافى عبد الله ابن المكتفي بالله إلى دار موسى بن سليمان ولقيه توزون هناك وخاطبه وبايع له في تلك الليلة وكتمنا القصة. فلمّا وافى المتّقي لله من الرقّة ولقيه توزون وسلم عليه قلت لتوزون: عزمك على ما كنا اتفقنا عليه صحيح؟ فقال: بلى. قلت: فافعله الساعة فإنّه إن دخل داره بعد عليك مرامه. » قال: فوكّل به وجرى ما جرى. وكانت المرأة التي سفرت في هذا الأمر المعروفة بحسن الشيرازية حماة أبي أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي، فلمّا تمت للمستكفي الخلافة غيرت اسمها وجعلته (عَلَم) وصارت قهرمانة المستكفي واستولت على أمره كلّه. تجارب الأمم، ج٦، ص١٠٣ وما بعدها.

وأدعو النّاس إليها وأُزيلُهُم عن الكراهَةِ، وأُضيفُ إلى ضياعِ خِدمتِه بالسَّوادِ ما ارتفاعُهُ في كلِّ سَنةٍ ثلاثونَ ألفَ دينار، وأحمِلُ إلى حضْرتهِ - ساعةَ يَصِلُ إلى عسكرِه هذا- ضِعفَ ما يتركُهُ وراءهُ من مالٍ وثياب، وسِلاحٍ ودَواب، وآلةٍ وفَرشٍ وغيرِ ذلك، وأكونُ وأولياؤُهُ: رُكْن الدَّوْلة، وعَضُدُها، ومؤيدُها، ومَن في حِزبِنا وتحتَ طاعتِنا، في أقاصي البلادِ وأدانيها، قياماً دونَهُ، ومُرَامِينَ عَنهُ، ومُعيدينَ له إلى دارِه ومَقرِّ عزِّه، إذ كانت الطّائفة الغالبةُ على بغدادَ لا تَثبُتُ لعسكرٍ من العساكِرِ المُظِلَّةِ عليها، ولا هي مقيمَةٌ إلاّ ريثَما نَقرُبُ منها. وبالله أحلِفُ مجتهِداً، وبحقِّ مُحمّد صلّى الله عليه وسلَّم، وبكلِّ يمينٍ يَلزَمُ المسلمين إبرارُها ولا يَسُوغُ لهم الحِنْثُ فيها لَأفيَنّ بكلِّ ما بذْلتُه، ولأجتهدَنَّ في المزيد عليه.

ولقد صَدَقْتُ في الرِّسالة الواردِة مع كوهيار الدَّيْلَميّ، وما أحَلْتُها عن جهتِها، ولا أضَفْتُ إليها ما ليس منها، والسَّلام.

وأنا أتوقَّعُ جوابَ هذا الكتابِ، والأمير -أطال الله بقاءه- أعلى عيناً وما يَراهُ في إصدارِهِ إليَّ، والتعجيلِ به عليَّ، إنْ شاء الله.

ووُقِّعَ عن عِزّ الدَّوْلة في آخِرِ هذا الكتابِ بخطِّهِ: هذا -أطال الله بقاء الأمير- كتابي، والذي فيه من ضَمانٍ ويمينٍ لازمٌ لي.

وكتَبَ عبدُه عِزّ الدَّوْلة بخطِّهِ

نُسْخة كتابٍ كُتِب عن عِزّ الدَّوْلة أبي منصور من واسِط إلى قاضي القُضاة أبي مُحمّد عُبيدالله بن مَعْروف وقُرِنَ إلى الكتابِ الذي نُسِخ قبلَه[١]

كتابي -أطال الله بقاء القاضِي، وأدامَ عزَّهُ وتأييدَهُ، وسَعادتَهُ ونعمتَهُ- يومَ الإثنينِ لثمانِ ليالٍ بَقينَ[٢] من المحرَّم، عن سَلامة، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وبينَنا وبين القاضي -أيّده الله- حُقوقٌ مِثلُه مَن رَعاها، وما نعتَدُّ عليه بِجنايةٍ علينا فنقولَ: إننا نَعْفُو عنها، ولا نَنْسُبه إلى خِيانةٍ لنا فنعاتبَه على أنِ استعمَلَها؛ لأنَّ الفتنةَ حَدثَتْ بَغْتةً ووَرَدَت على النّاس فجأةً، ولم يملِك فيها أحَدٌ نفْسَهُ ولا اختيارَهُ، إلّا أنّا نظُنُّ أنّ مُقامَهُ ببغدادَ، وتوَفُّرَهُ على الجُملةِ التي لا لَومَ عليه في مُلازَمتِها مع ما يتحقَّقُ له منها، رُبَّما قدَّرَ معه أنّا مُستوحِشونَ، فاستَوْحشَ.

وهذا بابٌ ينبغي أنْ يَزولَ بيننا، وألّا يعتقدَه القاضي -أيّده الله- فينا، إذ ليس في الإنصافِ أنْ يُلامَ مثلُه على المقامِ في وَطنِه، واللّزومِ لشأنِه، والانقطاعِ إلى مَن هو متعلِّقٌ بكَنَفِه، فلْيُزِل القاضي -أيّده الله- عن قَلْبِهِ الانقباضَ، ولْيَعُدْ معَنا إلى السُّكون والانبساطِ، وإنْ بلَغَهُ أنّا نُظهِرُ انحرافاً عَنهُ، وخاصَّةً بعد نفوذِ هذا الكتابِ إليه، فلْيَعلَمْ ولْيثِق أنّ الباطِنَ يُخالِفُه، والضميرَ يُضادُّه.

وقد كان الكتابُ المنفذُ مع العَلَويّ، الموجَّهِ إلينا، وَرَد عَلينا، فوجَدْناهُ مختلاًّ، مُنحلاًّ، مُتناقضاً مُضطرباً، مَعدولاً به عن رُسومِهِ وحُقوقِهِ، وعن كلِّ ما يتوخّاهُ الحازِمُ

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة.

يقصد بالكتاب الذي نسخ قبله: الكتاب الموجّه إلى الخليفة الطّائع لله.

(٢) ج: خلون.

في مِثلِهِ، فأجَبْنا عنه جَواباً ظاهراً - مَبنيًّا على ما لا يَسُوغُ لنا في هذا الوقتِ أنْ يَصدُرَ عنّا غيرُه، ولا يُسمَعُ منّا سِواه.

وأفرَدْنا كتاباً خاصّاً أنفَذْناه دَرْجَ هذا الكتاب، وجَعَلْناهُ أمانةً لنا عند القاضي -أدام الله عِزّه- مُستحفَظةً مُسترعاةً ليوصله ويَعرِضَهُ ويَستُرَهُ عن كُلِّ كبيرٍ وصغير، وخاصٍّ وعامّ، ويتنجَّزَ لنا الجوابَ عنه ويُنفِذَهُ إلى الكوفةِ مع مَن يُسَلِّمُهُ إلى صاحبِ الشريفِ أبي الحسن مُحمّد بنِ عُمَر -أيّده الله- فإنهُ يَصِلُ إلينا سريعاً إنْ شاء الله.

ونحن نَعرِفُ زُهدَ القاضي -أيّده الله- في الدّنيا، وأنّه لا يَرغَبُ في جميعِهَا، فَضْلاً عن بعضِها، إلّا أننا نَبذُلُ له منها ما الزهدُ يَقتضيهِ أنْ يقبَلَهُ ويَستعينَ على طلبِ العِلمِ والخيرِ به، وهو تسليمُ إقطاعٍ إليه بخمسةِ آلافِ دينارٍ في كُلِّ سنةٍ إذا تَوصَّلَ إلى ما الْتَمسناهُ في الكتابِ المنفَذِ وأشارَ به وتمَّمهُ ونبَّه على ما فيه، من حفْظِ أصلِ الدَّوْلة، والتحرُّزِ من انتقالِ الدَّعوةِ. ثم إنْ ساعدَنا القاضي -أيّده الله- على شيءٍ يتقَلَّدُهُ قلَّدْناهُ قضاءَ القُضاة، وقضاءَ كُلِّ بلدٍ يَنفُذُ لنا فيه أمرٌ، وتقامُ على مِنبَرِه خُطبةٌ لنا، والمظالمَ في جميعِها، وحَظَرْنا أنْ يُسمَّى أحَدٌ[1] بقاضٍ إلّا مَن جَوَّزَهُ في القُضاة، وأنْ يُرسَمَ بالعَدالةِ إلّا مَن جَوَّزهُ في العُدول، إنْ شاء الله.

---

(١) من: ج فقط.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
جواباً عن كتاب
أمير المؤمنين الطّائع لله[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا - وما يُراعيه من جهتي، ويتطلّعه من علم الأحوال قِبَلي جارٍ على السَّداد والاطّراد، والانتظام والالتئام. وأنا مُتمسّكٌ بعزّ طاعته ومُشايعته، سالمٌ موفورٌ بيُمْن طائره و دَوْلته، والحمد لله حَمْداً يقضي عليه مَوْلانا وعنّا فيه الحقّ، ويستمدّ له ولنا به موادّ الصُّنْع.

ووَصَل كتابُ مَوْلانا أمير المؤمنين، فجمّلني وشرّفني، وجدّد عَهْد إكرامه عندي، وزاد في آلائه ومِنَنِه لديّ، وشكرتُ الله تعالى على ما دَلّ عليه من كفايته إيّاه، ووقايته له، وعلى ما مَنحنيه من جميل رأيه، وخَوّلنيه من اصطفائه واجتبائه. فأمّا أخباري فالصَّلاحُ لها شامل، والإقبالُ متكامل. وكيف لا يكون كذلك مَن كان عن حَوْزتِه ذَبُّه، وإليه مُعتزاه ومُنتسبُه، وبحَبْل ولائه اعتلاقُه واعتصامُه ! تمّم الله النِّعْمة عليه وعليَّ به وفيه.

وأمّا تأخُّر كُتبي عن حضرته الجليلة، فلم يكن ذاك عن جهلٍ بما يلزمني له، ولا اعتماد تقصيرٍ في خدمته، ولكنّ عبدَه فلاناً الذي عليه الاعتماد في مُكاتبته والمعرفة برُسومها، والقيام بأداء الحقّ فيها، لم يكن سار معي، بل على إثْري. وقد لحق بي منذ أمس، وهو يقوم بالخدمة في المكاتَبة والمطالعة، ويستأنف فيها المداومة والمواظبة، إنْ شاء الله.

(١) طهران. (العنوان فيها: وله عنه جواباً عن ....).

وأمّا مُلازمة قاضي القُضاة عبيد الله بن أحمد[1] خدمة مَوْلانا وتوفّره عليه، وإجماله الأثر فيها، فبذاك جَرت عادتُه، وقد استحقّ منّي فضل إحْمادٍ وشكرٍ عليه. وتقدّمتُ بأنْ يُكاتَب بما يبعثه على الدَّوام والمزيد، وإنْ كان أحزم رأياً، وأحصف عقداً من أنْ يحلّ بعد أنْ ثابر، ويقصر بعد أنْ بالغ، بإذن الله.

وحِرْصي شديدٌ على تَعْجيل الأوْبة، وتخفيف أيّام الغَيْبة، إذ كنتُ لا أُسرّ بسكنى دارٍ عنه بعيدة، ولا أستوطئها إلّا إذا كانت من فنائه قريبة. فإنْ رأى أنْ يتطوّل عليّ، ويزيد في عَوارفه لديّ، ويوعز بتَشْريفي بكُتبه وتَصْريفي فيها - أعلى أمره ونَهْيه - فَعَل، إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) هو القاضي ابن معروف (ت٣٨١هـ)، وهو المذكور في الرسالة السابقة.

نُسْخة كتابٍ عن عِزّ الدَّوْلة أبي منصور إلى الأمير رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ يسألُهُ فيه المعونة والنجدة على سُبُكْتِكين الحاجب عند عِصْيانِه ببغداد[1]

كتابي -أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، وأدامَ عِزَّهُ وتأييدَهُ وعُلوَّهُ وتمكينَهُ- من المعسكرِ بظاهرِ سوقِ الأهْواز، يومَ الثلاثاءِ لإحدى عشْرةَ ليلةً بقِيَتْ من ذي القَعْدةِ، عن سَلامةٍ أحمَدُ الله عليها، وأسألُه أنْ يمُدَّ عليه ظلَّها، ويُحسِنَ إمتاعَهُ بها وبنِعَمِه عندي كُلِّها.

وفي هذا اليوم -أدام الله تأييدَ مَوْلانا- برَزْتُ متوجِّهاً إلى واسِط على طريقِ تُسْتَر وجُندَيْسَابُور، وبالله أستعينُ وعليهِ أتوكَّلُ، وإليه أُفوِّضُ أمري إنْ شاء الله.

وقد سبقَتْ كتُبي إلى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- بعظيم ما أجرَى إليه سُبُكْتِكين بمدينةِ السَّلام من الثَّلْمِ في دَولتِنا، والاشتمالِ على مُلكِنا، واستجازتهِ مُحاربَةَ سَيِّديَّ الأخَويْنِ: عُمْدة الدَّوْلة أبي إسحاق، وأبي طاهرٍ مُحمّد ابنَيْ مُعِزّ الدَّوْلة -أدام الله عِزّهما- وبإخراجِهِ إيّاهُما والكبيرَة[2] -أيّدها الله- عن منازِلهم، ووُرودِهم واسِطاً على الحال التي تُهِمُّ وتَغُمُّ، وإحراقِه مَنازلي ومَنازلَهم ومنازلَ كُتّابي

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (النجدة، الحاجب) من ج فقط.

(٢) أي: والدتهما.

وأصحابي وأسبابي، ونهبِهِ دُورَهُم ودُورَ قُوّاد[1] الدَّيْلَم الخاصّة، وإباحَتِهِ العامّة الديارَ والأموالَ، وارتكابِهِ من ذلك ما يستحِقُّ به من الله اللَّعنَ والعُقوبَة، والاستدراكَ والمعاجَلة.

وأنّ مَوْلانا أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- انزعَجَ بانزِعاجِ سَيِّدي عُمْدة الدَّوْلة - أدام الله عِزّه- وخَرَج بخروجِه متوجِّهاً إلى واسِط، فاتّبعَهُ بمَنِ اعتَرَضَهُ وانتزَعَهُ قهراً وبَغْياً، وجُرأةً وإقداماً، واستخفافاً بالحُرُماتِ التي ألْزَمَهُ الله رَعْيَها، وكلَّفَهُ المحافظةَ عَليها.

ووَرَدتِ الكُتُب بعد ذلك -أيّد الله مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة- بأنّه انتَحَل ما لم يجعَلْه الله له، وتَسمَّى بالاسمِ الذي لا يَستحِقّه، وأمَرَ بالخُطْبَةِ لنفْسِه على المنابِر، وكاشَفَ وجاهَرَ، وعَصَى وخالفَ، وفتحَ خَزائنَ السِّلاح واصطبلاتِ الكُراعِ، واستَوْلى على الجميع، ولم يَدَعْ مَوضِعاً لأذهانٍ ولا مُوارَبة، ولا تلبيسٍ ولا مُنافقة.

وهذه حالٌ لا صبرَ عَليها، وشدَّةٌ لا يُدفَعُ الإنسانُ إلى أكبرَ منها، ومَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- وليُّ هذا الأمرِ وصَاحِبُه، وأنا فيه عَبدُه وخليفته، ولو لم أكنْ أحدَ عبيدِهِ وأولادِه، ولا نائباً فيها أتولاّهُ عنهُ، بل جاراً من جيرانِه، ولائذاً من اللّائذينَ به، لما وَسِعَهُ في كرَمِهِ وفَضْلِه، وسُموِّه ونُبلِه، أنْ يُؤخِّرَ عنّي المغوثة وقد استغَثْتُه[2]، والإصراخَ وقد استصرَخْتُه، فكيفَ وأنا أنطِقُ بلسانِهِ وأبطِشُ بيدِه، وأورِدُ وأُصدِرُ عنهُ، وأُعزَى وأُنسَبُ إليه؟

---

(١) من: ج.

(٢) ل، ق: المعونة وقد استعنته.

والخَطْبُ -أيّد الله مَوْلانا- مُقلقٌ، والأمرُ مُرهِقٌ، وبينَنا الشُّقَّةُ البعيدَةُ، والمسافةُ الطويلةُ، وأنا في غَمْرةٍ ما دُفِعْتُ إلى مثلِها، ولا أرجو بعد الله غيرَهُ لكشْفِهَا، ولَو نهَضَ -أطال الله بقاءه- بنفْسِه لكانتِ الحال تقتضي ذاك وتوجِبُه، فكيفَ بأنْ تتأخَّرَ عنّي المعونَةُ، وتتمادَى الأيّام بالمغوثةِ؟

وبالله -جلّ وعزّ- ثم بمَوْلانا -أطال الله بقاءه- أعوذُ، من عظيمِ ما الدَّوْلة مُشْفِيَةٌ عليه، ومَمْنُوءَةٌ به، ومَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- أعلى عيناً، وما يراهُ في إنجادِي وإمدادي، ونُصْرتي وإصْراخي، والتقدُّمِ إلى مَن يَندُبُه ويُنفِذُهُ بأنْ يطيروا إليَّ إن استطاعوا، فالعينُ إليهم ممتَدَّة، والمهَجُ والأحوالُ بهم مَنُوطَةٌ إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى عَضُد الدَّوْلة فـي هذا المعنى[١]

كتابي -أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة- من المَعَسكرِ بخانِ طَوْق، يومَ الأربعاء لعَشْرِ ليالٍ بَقِينَ من ذي القَعْدة، عن سَلامةٍ أسألُ الله إتمامَها لدَيه، وأرغَبُ إليه في إسْبالِ سَتْرِها عليه، وأحمَدُهُ عليها وعلى الأحوالِ كُلِّها حمْدَ المستمدِّ من مَواهبه.

وقد تتابعَتْ كتُبي إلى حَضْرة مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة بشكْوى ما ارتكَبَه سُبُكْتِكِين من خَلْع الطّاعة، ومفارَقةِ الجَماعةِ، وإظهارِ المخالفةِ، واستعمالِ المكاشَفةِ، ومنازعةِ سَيِّدي الأخَوَيْن: عُمْدة الدَّوْلة أبي إسحاق وأبي طاهر مُحمّد، ابنَيْ مُعِزّ الدَّوْلة -أدام الله عِزّهما- وإخراجِهما[٢] عن ديارِهما بمدينةِ السَّلام، ووُرودِهما واسِطاً على الحال التي تُغِضُّ وتوصِمُ[٣]، وتوهِنُ[٤] وتُؤلِمُ، وبإحراقهِ المنازِلَ، ونهبِهِ الخزائن، واستباحَتِه الحريمَ[٥]، وتسهيلِهِ على العامّة[٦] العظيم، واعتراضِهِ مَوْلانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. وقد كان انزعَجَ للحادثةِ، واستوحَشَ من الفتنةِ، وخاف أنْ يُحالَ بينه وبين أولياءِ طاعتِه، وأغذياءِ نِعْمتِه، ورَدَّه إيّاه قهراً، وشَقِّهِ عصاهُ جهراً، واستحلالِهِ من

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان في الأصول: وإليه في هذا المعنى).

(٢) ل: وإخراجها.

(٣) ج: تضم.

(٤) ج: توهي.

(٥) ج: وإباحته العوام الحريم.

(٦) ج: عليهم.

ذلك ما يُخرِجُهُ عن عِصْمةِ المسلمين، ويَستحقُّ به لعنةَ الله ومَلائكتِه أجمعين.

وإنني سائرٌ إلى واسِط، ومتوقّعٌ من مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة المعونة التي استَدعيْتُها، والمغوثة التي التمَسْتُها، والنُّصْرة التي مُهَجُنا ونِعمُنا مَنُوطةٌ بها. وقد كان أقربَ ما نفَذَ من ذلك الكتابِ الصّادِر أمسِ مع بعض الرِّكابِيِّينَ المسرِعين.

ولما رأيتُ الأمرَ -أيّد الله مَوْلانا الأمير- مُتفاقِماً، والخَطْبَ مُتعاظِماً، والشُّقَّةَ بيننا طويلةً، والمسافَة بعيدةً، والكتُبَ تتكَرَّرُ باللّفظِ المُعادِ الذي رُبَّما قصَّرَ عن المرادِ، أنفَذْتُ عبدَهُ أبا الفَرَج قارَن كاتبَ الفارسيَّة -أعزَّه الله- وحمَّلْتُهُ ما يُورِدُهُ شَفاهاً عليه، وأمَرْتُه بأنْ يُنهي شرحَ هذه الحادثةِ الجليلةِ إليه، ليَعلَمَ -أدام الله عِزّه- المبْلغَ الذي بَلَغَهُ هذا الغلامُ الكافِرُ للنِّعمةِ في الثَّلْمِ والكَلْمِ، والإذالةِ والهضْم، وأنهُ مُجْرٍ إلى غايةٍ الله يَقصِمُه دونَها ويبُتُّ عمُرَهُ قبلَ بلوغِها.

وقد توجَّهتُ إلى واسِط متوكِّلاً على الله عزّ وجلّ، ومتَنجِّزاً أحسَنَ عادتِه، ورَهَنْتُ لساني في مجالِسي بإقبالِ الأمدادِ إليَّ من الحَضْرة الجليلةِ، ومن شيراز وأصْبَهان ليتماسَكَ الأمرُ بمَسِيري، ويُعلَمَ جِدِّي وتَشْميري، وتقوَى من أوليائنا المُنَّةُ، وتتمكَّنَ في قلوبِ أعدائنا الرَّهبَة.

ومتى تأخَّرَ سَيِّدي الأمير أبو الحسن -أدام الله عِزّه- بالعسكرِ القويِّ الذي يَصحَبُه، وأبو دُلَف سَهلانُ بْن مُسافرٍ -أدام الله عِزّهما- فيمَن معه وبرَسْمِه، وتَتابُعُ الكُتُب من مَوْلانا -أطال الله بقاءه- إلى سَيِّدي الأميرَيْنِ: عَضُد الدَّوْلة ومُؤيِّدِها -أدام الله عُلُوَّهُما- بإنْفاذ نجْدَتينِ قويّتينِ من جيشِهما. فالأمرُ الذي أنُوبُ عن مَوْلانا -أطال الله بقاءه- فيه خارِجٌ عن يدي -والعياذُ بالله- وهذِه جُملةٌ تُغْني عن التفصيل.

وأنا أسألُ مَوْلانا إصراخَ عَبدِه، وتعجيلَ نُصْرتهِ، والمبادرةَ يومَ وصولِ أبي الفَرَج -أعزَّهُ الله- ولو بالمقدَّمَةِ التي يَسبِقُ خبرُها، ويكونُ الجيشُ ناهضاً في أثرِها، والشَّدُّ منّي

في دفعِ هذه المحنةِ التي ما دُفِعتُ إلى مثلِها في وقتٍ من أوقاتِنا، ولا في مقرٍّ من مَقارِّ مُلكِنا، وانتياشُ السُّلْطان -أطال الله بقاءه- فيه ومَن بعدَهُ من الأهلِ والولدِ والأولياءِ والأتباعِ من اليدِ الغاصِبةِ السّالبةِ، والفِئةِ الباغيةِ الطّاغِية.

ومَوْلانا الملِكُ السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- أعلى عيناً، وما يَراهُ في ذلك وفي المبادرةِ إليَّ بالغَوثِ أسرعَ ما يُمكِنُ، فإني أعُدُّ السّاعاتِ توقُّعاً، وأستطيلُ اللّحَظاتِ تَرقُّباً. ولو تصوَّرَ -أيّده الله- الصّورَةَ على حقيقتِها لما استنكَرَ أنْ يكون هو -أدام الله عِزّه- السّائرَ لها، والثائرَ فيها، إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى مؤيِّد الدَّوْلة أبي منصور بن رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ[١]

كتابي -أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة- من المعسكرِ بخانِ طوق، عن سَلامةٍ أرغَبُ إلى الله في إمتاعِه بها، وتَوْفيرِ حَظِّهِ منها، وأسألُهُ أن يَحرُسَها ويُتمِّمَها، ويُعيذَنا ممّا يتخوَّنُها ويَثلمُها.

وقد تتابَعَتْ لي كتُبٌ كثيرَةٌ إلى حَضْرة سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة، آخِرُها الصّادِرُ أمسِ مع بعض الرِّكابيّين بذكْرِ ما استَجازَهُ سُبُكْتِكين حاجبُنا من خَلْعِ الطّاعة، ومُفارقةِ الجماعةِ، والخروجِ عن العِصْمة، وغَمْطِ عظيم النِّعْمة، التي لم يُعهَدْ أحَدٌ قبْلَنا سَمَح بإلْباسِ عبدِهِ مثلَهَا، ولا عبدٌ قبلَهُ استجازَ كُفْرَها وجَحْدَها، فإنّه حارَبَ بمدينةِ السَّلام سَيِّدي الأخَوَيْنِ: عُمْدة الدَّوْلة أبا إسحاق إبراهيم، وأبا طاهرٍ مُحمّداً ابْنَيْ مُعِزّ الدَّوْلة، مُنازِلاً لهما في دُورِهما، ومحيطاً بهما، وحاطباً عليهما، ومستثيراً للعوامّ، ومستَحِلّاً للحَرام، ومعترِضاً للخليفةِ -أطال الله بقاءه- في طريقِهِ، ورَدِّه إيّاه عن وُجْهَتِه.

وقد كان خافَ من معَرَّتهِ، وفارَقَ مقَرَّ مُلكِه من أجلِهِ وسَببِهِ، وتَوجَّهَ إلى واسِط مُنحازاً إلى أولياءِ طاعتِهِ، وأغذِياءِ نِعمتِهِ، وبُلوغه إليها في شقِّ العصا والمخالَفةِ، والانحرافِ والمكاشَفةِ، وإجرائهِ إلى غايةٍ اللهُ يقصِمُه دونَها، وينتقمُ منه قبل الوُصُولِ إليها.

وعَرَّفتُ سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة مَسيري إلى واسِط لتَلافي الخَطْبِ الحادث،

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة.
تتعلّق هذه الرسالة بأحداث الرسالة السابقة.

وكشْفِ المُلِمِّ الكارِث، وإني متوقِّعٌ على السّاعات، ومُتَرَقِّبٌ على اللّحظاتِ، المَدَدَ الذي استدعَيْتُهُ منهُ، والجيشَ الذي سَألتُه مَعُونتي به.

ولما تواتَرتِ الأخبار بكُلِّ ما يُقسِّمُ الأفكار، ويُوسوِسُ الصُّدورَ، ويُضيِّقُ خِناقَ المغمور، وخِفتُ أنْ تُقصِّرَ الكُتُب عن حقيقَةِ ما في النَّفْس، أنفَذْتُ أبا الفَرَج قارَن بن العبّاس[1] كاتبَ الفارِسيَّة -أعزَّهُ الله- وهو ثقتي وكاتبي، ومِن أهلِ الخصُوصِ بي، والقُرْب منِّي، إلى حَضْرتَيْ: مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، وسَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة، وحَمَّلتُه ما يُؤدِّيه من رَسائلي، وأمَرْتُه بأنْ يُفصِحَ[2] عن الصّورة، ليَعلَمَ أنّها فوقَ ما وصَفْتُ، وزائدَةٌ على ما حدَّثتُ[3].

وأنا أرغَبُ إلى سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة في أنْ يكون جيشُه أوَّلَ الجيوشِ السّائرة، وعَونُهُ أوَّلَ الأعوانِ الوارِدةِ، وأنْ يُنهِضَ إليَّ العَسكرَ الذي أتوَقَّعُه، طائراً لا سائراً، فقد ضاقتِ الخُطَّةُ، وأشكَلتِ الوَرْطَةُ، وأظلَّتِ الغُمَّةُ، وبَرَحَ الخَفاءُ وبالله العياذُ من السُّوءِ. وحسبُنا مَن هو مَأمولٌ مَرجُوٌّ، وسَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة وليُّ ما يَراهُ في الاستماعِ من أبي الفَرَج[4]، وتصييرِ الجوابِ بتَسْيير[5] الجيشِ الكثيف، وإدْراكِ ابنِ عمّهِ وأخيه اللّهيفِ إنْ شاء الله. والسَّلام.

---

(١) (بن العَبّاس) من ج فقط.

(٢) ج: ينصح.

(٣) ج: حددت.

(٤) (من أبي الفرج) من: ج.

(٥) ج: بتسريب.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى رُكن الدَّوْلة
في هذا المعنى أيضاً[1]

كتابي -أطال الله بقاء الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة- من المعسكرِ بظاهِر واسِط يومَ الثلاثاء، لخمسٍ ليالٍ بَقينَ من ذي الحِجَّةِ، عن سَلامةٍ متَّصلةٍ بسَلامتِهِ -أدامَها الله له وأحْسَنَ بها إمتاعَهُ- وأحوالٍ صَلاحُها مَنُوط بنَظَرِه ورعايتِهِ، ومقرونٌ بتدبيرِه وحمايتِهِ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وإلى الله أرغَبُ في إطالةِ بقاءِ مَوْلانا وإتمامِ نَعْمائه، وكَبْت أعدائه.

وقد تتابعَتْ كتُبي إلى حَضْرة مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- تتابُعاً مِثلُه يُضجِرُ لولا الثِّقةُ بتفضُّلِهِ عليَّ، واحتمالِهِ إيّاي، وانصرافِ فِكرِهِ إلى ما أصلَحَني، وكشَفَ الغُمَّةَ عنّي.

وكنتُ بنَيْتُ تدبيري -أيّد الله مَوْلانا- على ما أمَرَني به من التوقُّفِ بمَوْضِعي إلى وقتِ لَحاقِ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- بي، ومنَّيتُ نَفْسي الأمانيَ برؤيتِهِ، ومُشاهدةِ غُرَّتهِ، والتشرُّفِ بخدمتِهِ، وراسَلْتُه وكاتَبْتُه -أيّده الله- أشرحُ له صُورتي، وأسألُه المبادرَة لنُصْرتي. ووردتْ منهُ -أدام الله عِزّه- أجوِبَةٌ مَبْنيَّةٌ على جُملةِ الوعدِ بالمسير، فأظهَرْتُهُ للأولياءِ ولسائرِ منِ اجتمَعَ إليّ، وورَد من النّواحي عليَّ. ولما كان في هذا الوقتِ وَرَد كتابٌ له -أيّده الله- شَغَلَ قلبي، وأطارَ الغُمْضَ عن عيني،

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان في الأصول: وإليه في هذا المعنى أيضاً).

يَذكُرُ فيه أنّه يَسيرُ في الـمِهْرَجان[1]، ويكونُ تقديرُ وُصولِهِ بعد شهرٍ أو أربعينَ يوماً، وبينَنا وبينَ الـمِهْرَجان عشرونَ يوماً، فكأنهُ إنما يَحصُلُ عندي بعد شهرَيْن، وهذه حالٌ لو أظهَرْتُها ضَعُفَتْ نفوسُ نُصّاري وأهلِ عسكرِي منها، واشتدَّ قلَقُهم بها، واجترَأَ العَدُوُّ معَها على الدُّنوِّ إليَّ، والإقدامِ عَليَّ؛ لأنّه إنّما يُثبِّطُه الخوفُ من تَوافي الجيوشِ.

وما أقولُه من أنّ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- قد سارَ إليّ وقَرُبَ منّي، وأنّ سَيِّدي الأمير أبا الحسن عليًّا ابنَ رُكْن الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- قد توجَّهَ إلى بغدادَ في عَسكرِه، ومتى أحسَّ منهُما بالإبطاءِ والتَّمادي، عاجَلَني وانتهَزَ الفُرصَةَ في قَصْدِي، ثم أكونُ بين مُخاطَرةِ الثَّباتِ له فيمَن معي، ومَعرَّةِ النكوصِ عن مَوضعي.

ومَوْلانا -أدام الله علوَّهُ- يَعلَمُ ما في هذينِ الأمرَينِ جميعاً، ولو كان -أدام الله عُلوَّهُ- قَوَّى عُدّة سَيِّدي أبي الحسن -أدام الله عِزّه- وأذِنَ له ولي في الخُفوفِ إلى العَدُوِّ من الجِهَتين، لَرجَوْتُ أنْ نَقْلَعَهُ ونُطَهِّرَ المملكةَ منهُ، لكنّهُ -أيّده الله- أمرَنا جميعاً بالوقوفِ عند غايتِنا التي حَدَّها لنا، وانتظارِ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- الذي هو كَبيرُنا ومُدَبِّرُنا.

---

(١) في ج أينما ورد المِهْرِجان، وضبطه السَّمْعاني بكسر الميم والراء، وسكون الهاء، (مِهْرِجان) وقال: إن هذه نسبةٌ إلى شيئين، ذكر أحدهما، وهو اسمٌ آخر لبلدة اسْفَرايين. ولم يذكر الثاني. الأنساب، ج٥، ص٤١٤. وضبطه البعلي (ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) بكسر الميم وفتح الراء (مِهْرَجان) معتمداً على الزمخشري (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) في مقدمة الأدب، وقال: هو عيدٌ للكفار، يصادف اليوم السابع عشر من الخريف. المطلع على ألفاظ المقنع، ص١٩٢. وكذلك ضبطه الأحمد نكري (القرن ١٢هـ/ ١٨م) مِهْرَجان، وقال: إنه أول يوم من نزول الشمس في الميزان. دستور العلماء، ج٣، ص٢٦٨. وهو من أعياد العراق القديم، وانتقل إلى الأقوام المجاورة.

وقد بَقِيتُ واقفاً محَصُوراً، خائفاً مذعوراً، لا أملِكُ إلّا المكاتَبة التي أُتابِعُها، والشكوى التي أُواليها، والآنَ -أيّد الله مَوْلانا- فأنا من تأخُّرِ النَّجدةِ في خُطَّةٍ مُشكِلة، وعلى صورةٍ مُعضِلَة، ومتى انتشَرَ ذلك، ثارَ العدوُّ، وخارَ الوليُّ، ولم يُؤمَنْ حُدوثُ مَكْسَرة، وأعوذُ بالله منها وأستدفِعُهُ شرَّهَا.

ومِلاكُ الأمرِ -أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة إنعامُه- بمُكاتبةِ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- بالمبادرَةِ والمعاجَلةِ، وإنْفاذ مَدَدٍ إليَّ أمامَهُ، لتُؤمَنَ المعَرَّةُ وتَنحسِمَ المضَرَّةُ، والإذنُ لسَيِّدي الأمير أبي الحسن -أدام الله تأييدَه- في الإتمامِ، ولي في الاجتماعِ معه على مُناجَزةِ العدوِّ ودَفْعِهِ إنْ لم يكُنْ إلى تعجيلِ مَسيرِ الأمير عَضُد الدَّوْلة سَبيل.

فإنْ رأى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- أنْ يتَطوَّل بتأمُّلِ ما كَتبتُ به، وإنعامِ الفِكْرِ فيه، وتدبيري بما يُؤمِنُني من المَخُوفِ والمحذورِ، ويُوصِلُني إلى المأمولِ والسُّؤْلِ؛ فقد قَنَطْتُ من تطاوُلِ الأيّام وتمادِيها، وتأخُّرِ النَّصْرةِ وتَراخيها، وإكبابِ ذلك العدُوِّ اللَّعين على البحثِ عن الأموال، والتّفتيشِ عن العِيال، واستشراءِ طَمَعِه في مصيرِ إليّ؛ وإقدامِ عليّ، وإجابتي بما أعمَلُ عليه وأنتهي إليه، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة[١]

كتابي، وأنا أُحَدِّثُ بنِعَم الله فيما ألْبَسَنيهُ من السَّلامة، وأسألُهُ فيها الإتمامَ والإدامة، وأحمَدُهُ على الأحوالِ كُلِّها حمْدَ المستديمِ لرحمتِهِ، المستعيذِ من نِقمتِه.

وكتُبي إلى سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- مُتتابعَةٌ، والضَّرورةُ إلى مسألتِهِ تعجيلَ الحركَةِ داعيةٌ، وثقتي مع ذلك قَلِقةٌ بما عَراني، وامتعاضُهُ بما أظَلَّني مُستحكِمَة.

ووَصَل في هذا الوقتِ كتابُهُ -أدام الله عِزّه- يتضمَّنُ من الفَضْل والإنعام، والمُشاركة والاهتمام، والجَدِّ في جمعِ الرِّجال والمسيرِ بهم من غيرِ تأخُّرٍ، ما سكَنَتْ إليه نَفْسي، وانشَرَح له صَدري، وتناهَى اعتدادي به وشُكْري وثنائي ونَشْري، وإنْ كان ذلك ساقطاً بينه وبيني، وخارجاً عمّا يجمَعُهُ وإيّاي، ولا سِيَّما، وإنَّما يَذُبُّ عن حَريمِه، ويُحامي عن مُلكِهِ، ويَسعَى لأمرٍ مَرجِعُه إليه وصَلاحُه عائدٌ عليه، والله يُتمِّمُ الموهِبَةَ له ولي فيه، ويُسبغُ النِّعْمة عليه وعليَّ به، ولا يُخليني منهُ سيِّداً مَاجداً، ورئيساً مُعاضِداً بقُدْرته.

واللَّعينُ الحائنُ -أيّد الله سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- مستمِرٌّ على أسوإِ خَلائقِه، وأوْعرِ طَرائقِهِ في البحثِ عن الأسبابِ، والتتبُّعِ للأصحابِ، والانتهاكِ للحَريم، والارتكابِ للعظيم، ومَن بحَضْرتي من الأولياءِ على ظمَإٍ شديدٍ إلى مُقارَعتهِ، والْتواءِ عليَّ من مُطاولتِهِ ومُماطلتِه، وقد كاد الأباعِدُ والأصحابُ، والأطرافُ الثّائرونَ لخدمتِنا

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (إلى عَضُد الدَّوْلة) إضافةٌ منّا، وفي الأصول: إليه أيضاً.

والسّائرونَ إلينا، يَضْجَرونَ ويقنَطون، وأنا أُعِدُّ الجماعةَ وأُمَنِّيهم، وأُعلّلهم وأُداريهم، ولا أتحرَّكُ عن مَوضِعي، انتظاراً لسَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة، وامتثالاً لأمرِهِ -أعلاه الله- وهذه حالٌ تَقْتضيهِ الإسراعَ والتعجيل، وتُوسِعُ لي فيما أستعمِلُه من الإذكارِ والتنجُّز.

ولستُ أُطيلُ القولَ، اكتفاءً بما سَبَق من الرِّسالة مع أبي الفَرَج مُحمّد بنِ أحمدَ بنِ مُعاذ، وما تتابعَ من الكُتُبِ الشّافيةِ قبلَهُ وبعدَهُ، وعلماً بأنّ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة قد تصَوَّرَ ما أنا فيه، وعَرَف ما عَلَيَّ في تمادي الأيّام بتَلافيه، وسُكوناً إلى ما اشتَمَلَ كتابُهُ الآخَرُ عليه، وأنهُ لو استطاعَ أنْ يَطيرَ لطارَ، وأنهُ لا يَتأَخَّرُ عن البِدارِ، ولا يُخلِدُ إلى تلوُّمٍ ولا انتظار، وهو -أطال الله بقاءه- أعلى عيناً، وما يَراهُ في ذلك وفي الإيعازِ بتقديم كتُبِه أمامَ الاجتماعِ بأخبارِه وأحوالِهِ وأمرِهِ ونَهيِه، والغاياتِ التي يَبلُغُها في مَسيرِه، لأَقِفَ ويقفَ مَن بحَضْرتي على ذلك، وأسكُنَ ويَسْكُنوا إليه إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى عَضُد الدَّوْلة[١]

كتابي عن سَلامةٍ أحمَدُ الله عليها، وأسألُهُ أنْ يَـجعَلَها للنُّفوسِ والأحوالِ شامِلةً، وعندَ سَيِّدي الأمير قارَّةً نازلة.

وقد تتابعَتْ كُتُبي إليه -أدامَ الله عِزّه- جَواباً، وابتداءً بما أرجو وُصولَهُ وذَكَرْتُ في آخِرِ ما صَدَرَ منها اغتباطي بالسَّعادة التي أتوقَّعُها، واستشرافي إلى الفائدةِ التي أترقَّبُها، ومُلاحَظةِ غُرَّتهِ، وتأدِيَةِ حَقِّه وفريضتِه، وسَألتُهُ الإسْراعَ والتعجُّلَ، وتجنُّبَ الإبطاءِ والتَّمهُّل، واقتضَى ما في نَفْسي من هذا الأمرِ ألّا أَقنَعَ بالمكاتَبة وإنْ شَفَتْ، ولا[٢] بالمواصَلة وإنْ كَفَتْ.

وقد أنفَذْتُ خادِمَهُ أبا الفَرَج مُحمّد بنَ أحمَدَ بنِ معاذٍ بتَذْكِرةٍ يَعرِضُها، ورسالةٍ يُؤَدِّيها. وسَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- أعلى عَيناً، وما يَراهُ في التقدُّمِ بتمكينِهِ من ذلك، وبالإيعازِ بإجابة لي عنه أتعجَّلُ السُّكون إليها، وَأثِقُ بمبادَرتهِ بعدَهَا، وتصريفي بين أمْرِهِ ونهْيِهِ، وإيناسِي بذكْرِ خبرَهِ وحالِهِ إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان فيها كلها: وإليه عن عِزّ الدَّوْلة).

(٢) ل: ألّا.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة[١]

كِتابي -أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- والسَّلامةُ لي شامِلة، وأموري على الصَّلاحِ جارية، وأنا أحمَدُ الله حَمْدَ المستديمِ لما وَهَب، المُستزيدِ ممّا منَح، المُستعيذِ من طَوارِقِ الغِيَرِ وشَوائبِ الكَدَرِ، وأسألُهُ أنْ يجعَلَ سَيِّدي الأمير بالغاً ما يُؤْثِرُ، مَكفِيًّا ما يَحْذَرُ، ومحتوماً له بالسّعاداتِ الرّاهنةِ، والمَسَارِّ القاطِنَة بقُدْرته.

وقد كتَبْتُ إلى سَيِّدي الأمير -أدام الله تأييدَه- كُتباً متتابِعةً كان آخرَها الصّادرُ مع صاحبي أبي الفَرَج مُحمّد بن أحمَدَ بن مُعاذٍ -أعزَّهُ الله- مُضافاً إلى تَذْكِرةٍ استَصْحَبَها، ورسالةٍ تحمَّلَها. والجميعُ مَبنيٌّ على شَكوَى النّائبةِ التي نابَتْ، والمُلمَّةِ التي ألَمَّتْ من جهةِ سُبُكْتِكين صاحِبنا، الخارِج عن طاعتِنا، المُجاهِرِ بمعصيتِنا، وعظيمِ ما بَلغَهُ من إحراقِ المنازلِ، وإخرابِ الأوْطانِ، والبحثِ عن الأولادِ والنِّسْوان، ونَهْبِ الخزائنِ والآلات، واستثارةِ الودائعِ والأموالِ، وأنّهُ مع ذلك ما يَرُدُّ لسانَهُ عن هُجْرٍ[٢]، ولا يَدَهُ عن فَتْك، ولا يتَمسَّكُ من الجميلِ بشُعبة، ولا يقِفُ من القبيحِ عند غاية. وسَألتُ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- إمضاءَ العزيمةِ فيما تقرَّرَ الرأيُ عليه، وصَدَرَتْ كتُبُ مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- به إليه من زيارةِ ممالِكِه هذه، وإغذاذِ السَّيْرِ إليها، والمُعاضَدةِ في كشْفِ ما أظلَّها.

والشُّقَّةُ -أيّد الله سَيِّدي الأمير- بيني وبينَ هذا العَدوِّ قريبةٌ، وأنفُسُ مَن بحَضْرتي من الأولياءِ إلى مُكافَحتِهِ ظامئةٌ، والأيّام بتَراخيها تُمَكِّنُهُ من التناهي في النِّكايةِ،

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان فيها: وإليه أيضاً).

(٢) الهُجْر: الكلام القبيح. ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٢٥٣ (هجر).

والإيغالِ في الأذِيّةِ، وبالله العياذُ والملاذ، وإليه المَفْزَعُ والمَلْجأ.

وأنا أسألُ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة أنْ يتَجشَّمَ طيَّ منازلِه، وإنضاءَ جِيادِه، وإغذاذَ سَيْرِه، وتعجيلَ نَصْرِه، [وأنْ][1] يأمُرَ بتقديمِ كُتبِه بما أقِفُ ويقِفُ الأولياءُ بحَضْرتي عليه، وأسكُنُ ويسكنونَ إليه، وأثِقُ ويثِقونَ معه بقُربِ ورُودِه، وسُرعَةِ وُفودِه، وهو -أطال الله بقاءه- أعلى عيناً، وما يَراه في ذلك، وتصريفي إلى حينِ الاجتماعِ بين أمرِهِ ونَهْيِه، وإيناسِي بذكْرِ حالِهِ وخبَرِهِ إنْ شاء الله.

ومن أعجَبِ ما استعمَلَهُ هذا اللَّعين -أيّد الله سَيِّدي الأمير- من القولِ الفاسِد المُحالِ، والمَخْرَقةِ الظّاهِرةِ الاضمحلالِ: إشاعتُه أنّ نيّةَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة فيما أصلَحَهُ خالصةٌ، وعِنايتَهُ به حاصِلةٌ، وأنّ كتابَهُ وَرَد عليه بأنّه لا يُنفذُ إليَّ أحداً، ولا يُجرِّدُ نحْوي مدَدًا.

وفي دَرْج كتابي هذا كتابٌ منه بخطِّ كاتبِهِ المعروفِ بابنِ أدِّي إلى الشريفِ أبي الحسن مُحمّد بنِ عُمَرَ العَلَويّ الكوفيِّ -أيّده الله- بجُملةٍ من ذلك إذا وقَفَ سَيِّدي الأمير عليها زادَ تَعجُّباً منهُ، واستجهالاً له، وهذا الشريفُ -أيّده- فقد كان جاهَرَهُ بالمُخالفةِ، وأبدَى له صَفْحةَ المكاشَفةِ، وسَارَ عن الكوفةِ إليَّ، ووَرَد حَضْرتي، فجَرَى في ذلك مَجْرَى غيرِهِ من سائرِ أصحابِ الأطرافِ ووُلاةِ الأمصارِ، إذ كانوا مُجمِعينَ على ذَمِّهِ ومَقْتِه، والغَيْظِ من كُفْرِهِ وبُهتِه، وبذْلِ المَعُونةِ والمَسِيرِ إذا سِرْتُ إليه، ولله الشكرُ ومنهُ المعونَةُ والنَّصْر.

وذَكَرْتُ هذه الحال ليكونَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة على عِلمٍ بها، وليَرى رأيَهُ العاليَ الموفَّقَ في البِدار، وتركِ الانتظار إنْ شاء الله.

---

(١) إضافةٌ منّا.

وكَتَب[١]

كتابُنا، ونحنُ -ونِعَمُ الله السّابغةُ علينا، ومنائحُه الرّاهنةُ لدينا- بين سَوالفَ ماضية، وأوانفَ دانية، وأحوالُنا جاريةٌ في عزِّ أوليائنا، وكَبْتِ أعدائِنا، وعُلوِّ كَلمتِنا، ونُصرةِ رأيِنا، ونَفاذِ أمرِنا ونَهْيِنا، وإصابةِ مطالبِنا وأغراضِنا -على أفضلِ ما جَرَتْ به عادَةٌ عندنا، وأحسَنِ ما عُرِفَ وأُلِفَ من تفضُّلِهِ علينا، وهو المحمودُ ربُّ العالمينَ وأكرَمُ المنعِمين.

ووَصَل كتابُكَ مؤرَّخاً من يدِ صاحِبك، مُشتمِلاً على ما سكنَّا إليه من سَلامتِكَ وعافيتِك، ووَثِقْنا به من إخلاصِكَ ومُوالاتِك، وازدَدْنا بَصيرةً فيه من فَضْلك ومَعرِفتِك، وشكَرْنا الله كثيراً على جميلِ ولايتهِ إيّاك، واستدَمْناهُ الموهِبةَ لك ولنا فيك، وأصْغَيْنا إلى ما تصَرَّفتَ فيه من مُفاوضَتِكَ السَّديدة، وآرائكَ الرشيدة.

فأمّا ما دلَلْتَ عليه من مَذهبِكَ في النُّصحِ لنا، والتحقُّقِ بدَوْلتِنا، والسَّعْي لما أصلَحَ أحوالَنا، وحَرَس عليها نظامَها، وحاط جنَباتِها، من دخولِ الخلَلِ عليها، أو وُصولِ الضَّررِ إليها، فنحنُ بذاكَ واثقون، ولهُ متحقِّقون، ولا أجِدُ أوْلَى منك، لأنَّ حظَّكَ منها الأوْفى، وقَدْحَك فيها المُعَلَّى، وقد جَعَلَك الله من وجوهِ أوليائها وأصفيائها، وأكابرِ عُدَدِها وأعضادِها، ومَن تُشيرُ الأصابعُ إليه وإلى سَلَفِهِ -رحِمَهُمُ الله- في تحمُّلِ مَعْروفها، والمعرِفةِ بحقوقِها، والانتسابِ إلى ولائها، ووُفورِ القِسْطِ من آلائها، ولأنَّ الملِكَ

---

(١) ليدن.

لم أهتدِ للمرسل والمرسل إليه، لكن هذه الرسالة كتبت فيما يبدو بين عَضُد الدَّوْلة وابن عمه عِزِّ الدَّوْلة.

السَّعيد عَضُد الدَّوْلة نصَّ عليكَ في الاصطناعِ والتنويهِ، واختَصَّكَ بالتشريفِ والتنبيه، وآثرَك على كُلِّ نَظيرٍ وقَرينٍ، ورَفعَكَ فوقَ كُلِّ عَديلٍ وخَدين. ولا غَرْوَ أنْ ترعَى ما استُرعِيتَ وأُوليتَ، وتحفَظَ ما استودِعْتَ وأُوتيتَ، والله يَصِلُ سَبيلك الوكيد، ومحلَّكَ المهيد، بأحسنِ ما اتّصَلتِ الأسبابُ عليه، وترَقَّتِ الرُّتَبُ والمنازُل إليه، بقُدْرته.

وأمّا ما ذكَرْتَ، أنّكَ منذ كنتَ بالأهوازِ، وإلى الآنَ خائضٌ فيه مع الجنَبةِ المشارِ إليها -أحسَنَ الله تَوْفيقَها وتَسْدِيدَها، وحَفِظَ عليها مجدَها وسَناها- من المَشُورةِ بالرُّجوعِ إلى الأُلفة، والتلافي للوَحْشة، وما شَرحْتَهُ من الخطوبِ الجارِية، والأقاويلِ المتردِّدَة في ذلك، حالاً بعد حال، ومَقاماً بعد مَقام، فقد نصَحْتَ في جميعِ الذي كان منك لها، وتصدَّعْتَ بالرأيِ العائدِ عليه، ومثْلُكَ من أهلِ العَقلِ والدِّراية، وذوي الحَزْم والحَصافةِ، مَن رأى ما رأيتَ، وأورَدَ ما أورَدْتَ، وليسَ بخافٍ عَنكَ ولا عن غيرِكَ أنّا برِيئونَ في كُلِّ ما جَرَى من الملامةِ، سالمونَ من عَواقبِ النَّدامة، وأنّا وَلَّيناهُ الأمرَ الذي أفضَى الله به إلينا، والمهاجَرةُ واقعة، والمقاطعَةُ مُستعملَة، فوصَلْنا ما كان مقطوعاً، وأعطَيْنا ما كان ممنوعاً، والتزَمْنا من الحقّ ما لم تَقُدْنا إلى التزامِهِ ضرورة، ولا أوجبَتْه صُورة، ولا ألْجأَتْنا إليه حاجة ولا فاقةٌ أكثرُ من اعتقادِنا صِلَةَ السَّبَب، واتّباعَ الأدب، ولتقديرِنا أنّ الجميلَ الذي اسْتأنفْناهُ مُقابَلٌ بما يُشاكُلِه، ومُستدامٌ بما يُماثُله؛ فكانتِ الأخبارُ تأتينا بما نَستبشِعُه ونستَفْظِعُه، والآثارُ تبدو لنا بها نَعجَبُ منه ونَستنكِرُهُ، ونحنُ على ذاك نُغالِطُ نفوسَنا، ونُدخِلُ الشَّكَّ على يقينِنا، ونُغضِي عمّا يَلُوحُ لَنا، ونتوقَّفُ عن المجازاة عليه توقُّفَ الكارِهينَ للقبيحِ، والمؤمِّلينَ البادِينَ به إلى الجميل.

ثم لم يَرُعْنا إلّا الهجومُ على الأهْواز بالمخالفةِ، وإطلاقُ الألْسنِ النّاطقةِ، والأيدِي المكاتَبة بالمُنابذةِ والمكاشَفةِ، فحينَئذٍ دَفَعْنا عمّا تطَرَّفَ عن ممالِكنا، بالقَدرِ الذي اقتصَرْنا عليه مع القُدْرة على أكثرَ منهُ، وأجْلَتِ الحال عن نُصرةِ الله لنا، وإظهارِهِ إيّانا، وانتقاضِ

تلك العَزائِم التي لا يَعذِرُ فيها عاذر، ولا يتوقَّفُ عنها عاذِل، فلولا البُقْيا والرُّقبَى، وتحرُّكُ عِرْقِ الوَشيجةِ والقُرْبَى، لكان لنا في أثرِ النكوصِ عن الأهْواز حَركةٌ بل حَركاتٌ تَثقُلُ الوَطْأةُ بها، وتزيدُ الحال انقراضاً معَها، لكنّا قابَلْنا صَنيعَ الله -جلّ اسمُه- لنا، وحُسنَ بلائهِ لدينا، بمثلِ ما كنّا بدَأْنا به من بلِّ الرّحِم، وحفْظِ الذِّمَم، والتمسُّكِ بالعِصَم، ويَـحزُنّا من أنْ نكونَ في شيءٍ ممّا جَرى وتجري حجَّةٌ تتوجَّهُ عَلينا، أو معتِبَةٌ تتطرَّقُ إلينا، وأحبَبْنا أن يكون الفَضْل مأخوذاً به بيننا وبين مَن يَرى أنّ الفَضل على كُلِّ حالٍ له، وألّا نتَسرَّعَ إلى مقابلتهِ على ما بدَرَ إلينا منهُ، ورجَوْنا أن يكون الندَمُ واقعاً على الماضي، والتّلافي مستشعَراً في الآتي.

وصادَفَ كتابُكَ عندنا، الذي هذا جَوابُه ورسالتُكَ التي أدّاها حامِلُهُ، تقبُّلاً لما أشَرْتَ به، وانقياداً إلى ما دَعَوْتَ إليه، وتيقُّناً لما فيه من الصَّلاحِ الشّامِل، والحظِّ العاجِل والآجِل. وعرَضَ عارِضٌ دافِعٌ عن تقديمِ الإتمام، وماطَلَ بالإحكامِ والإبْرام، فردَدْنا الرسولَ بهذا الجوابِ وبما حمَّلناهُ إيّاه من الخطابِ، عن عزيمةٍ منّا على قَبولِ رأيكَ مستقرَّة، وبَصيرةٍ فيه مستمرّة، لتكونَ -أيّدك الله- ساكناً مِنّا إلى سَلامة النيَّة، وخُلوصِ الطَّويَّةِ، والإغضاءِ عمّا استُعمِلَ معنا من الجَفْوة، وجَرَى به مقدورُ تلك الهَفْوة، والتعويلِ عليكَ في لمِّ شَعْثِ المَودّة وإعادتِها إلى صحَّةِ العُقدةِ والعُهدة، فإنْ جَرَتِ الأحوالُ على هذه السَّبيل، وتقابَلَتْ جِهاتُها بالحَسنِ الجميل، فذاكَ الذي سَعَيْتَ له ووجَدْتَ عندنا مثلَه.

فإنْ تراخَتِ المدةُ إلى غايةٍ تَـجري إليها، ونهايةٍ مقدَّرَةٍ لها، في أثناءِ ذلك عارِضٌ يؤخِّرُ الاستقرارَ، ويقتضي اللُّبْثَ والانتظار، فحَقيقٌ عليكَ أنْ تتذكَّرَ الحقوقَ بيننا وبينَك، والحرماتِ الجامعَةَ لنا ولك، وما في عُنُقِكَ من مَواثيقِ الملِكِ السَّعيد، وأطواقِ مِنَنه وقَلائدِ نِعَمِه التي حقوقُها عليكَ وَدائعُ لنا في يدَيْك، وتجعَل حينَئذٍ ضَلْعَكَ معنا، وانحطاطَكَ في

شِعبِنا؛ فإنك مع هذا واجِدٌ عندنا ما لا تـجِدُهُ عند غيرِنا من الرغبةِ فيكَ والميلِ إليكَ، والتمسُّكِ بكَ، وخلوصِ المعتَقَدِ لكَ، واستواءِ الباطنِ والظاهِرِ فيما نُلقيه إليكَ، من قَولٍ وفعل، ونُقرِّرُه معكَ من عَقْدٍ وَعْهد، فتكونُ المشارِكَ في نِعمِنا، والمتمكِّنَ في أيّامنا، والمتحكِّمَ في أموالِنا وعساكِرِنا، والمُواسيَ بكلِّ ما نَفَذ عليه سُلْطاننا، وانبسَطَتْ فيه أيدينا عند نائبةٍ - والعِياذُ بالله - إنْ نابَتْك، أو طارِقةٍ إنْ طَرَقَتْك، وحاجةٍ إنْ عَرَضَتْ لكَ ومسَّتْك. وبيننا وبينَكَ في هذا كُلِّه عهدُ الله وميثاقُهُ اللذانِ يَرجِعُ المؤمنونَ إليهما، ويتقابلُ المخلِصونَ عليهما. فرأيُكَ في تأمُّلِ ما أوْرَدْناهُ، والتحصيلِ لما بذَلْناهُ، والإصغاءِ إلى ما اشتملَ هذا الكتابُ عليه ومَا يؤدِّيه رَسولُكَ العائدُ به، والثقَةِ بثقتِنا بك، والسُّكونِ إلى سُكونِنا إليك، وارتفاعِ الشكِّ عنكَ في ارتفاعِهِ عنَّا فيكَ، والعلمِ بأنّا مُـمْضُونَ لكلِّ ما أرشَدْتَ إليه، وصَـلاحِ حَضَضْـتَ عليه، ومُسْعِفوكَ بكـلِّ وَطَرٍ تَستدعيـه، وأربٍ تَنبسِـطُ فيه، ومواصلتِنا بكُتُبِكَ، مُضمَّنةً أخبارَكَ وأحْوالك، والمتجدِّدَ من مَواهب الله لكَ ولنا فيكَ، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

وكَتَب عِزّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة[١]

كِتابي -أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- من داري بسُوقِ الأهْواز يومَ كذا[٢]، عن سَلامةِ نَفْسي، وصَلاحِ أحوالي، وشُكرِي لله على أحسنِ ما منَحَني به وأوْلاني، ورغبتي إليه في أنْ يجعَلَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة مشمولاً بالكِفاية، مكنوفاً بالوقاية، محروساً من نواميسِ الزّمان وطَوارقِ الحَدَثان، وهو -جَلَّ وعَلا- وليٌّ بإجابة صالِح الدّعاء فيه، وإدامةِ سابغ النِّعَم له.

وقد آنَسَني -أدام الله تأييدَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- قُربُ الشُّقَّةِ بيننا أُنْساً وَدِدْتُ أنّه تـمَّمَها بالاجتماعِ والمشاهدَةِ، وانتَهى إلى الملاقاةِ وطُولِ المفاوضَةِ، وكفى بعِلْم الله أنني أعتَدُّ هذه الحال لو اتَّفقَتْ من أفضلِ المطالِبِ المأمولة، والمواهبِ المرجُوَّة. وأسألُ الله تيسيرَ أسبابِها والخِيرَةَ فيها، ومَدَّ ظِلِّهِ علينا في الأحوالِ كُلِّها، بقُدْرته.

وقد عَلِمَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة ما أُعَانيهِ على مرِّ السِّنين من تسحُّبِ الغِلْمان الأتراكِ عَلَيَّ، وتبسُّطِهم، واستطالتَهِم، للعادةِ السيِّئةِ التي نَشَأوا عليها وسَلكوا أغوَى وأضَلَّ سَبيلهم فيها. ولم أزَلْ أرى -على طولِ البُعدِ- وأتَظنَّى من وراءِ الغَيبِ، أنّهم لا يتَّعِظونَ ولا يرجِعونَ، ولا يُقلِعونَ ولا يَرْعَوُونَ، وأنّ الضرورةَ تَقُودُني إلى تجنُّبِ الصَّبْر إذا أفضَى إلى مُشاكَلةِ العَجْزِ، ومفارقَةِ الكَظْمِ إذا عادَ بعاقبةِ الوَهْن، إلى أنْ بدَرَتْ منهم بادرَةٌ إلى بعض الدَّيْلَم أوْجَبَتِ القَبْضَ على وُجوهِ مَن كان بحضْرتي منهم، وطَرْدِ الباقينَ ليتَمزَّقوا ويَذوقُوا وبالَ فِعْلِهم؛ وسُوءَ عاقبةِ جَهْلِهم، فأسألُ الله أنْ يجعَلَ الخِيرَةَ لنا، والدائرةَ على كل صَادٍّ صَادِفٍ عنَّا، وغامِطٍ جاحِدٍ لنعمتِنا، بقُدْرته.

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان في الأصول: وعنه إليه أيضاً).

(٢) (يوم كذا) ساقط في ج.

وجَمرَةُ هؤلاء الغِلْمان -أيّد الله سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- ببغداد، ولستُ أعلَمُ ما يكون منهم من المُقِيمينَ هناك معَهُم، وهذه حالٌ موجِبةٌ للاستظهارِ والاسْتصراخ.

وكنتُ قدَّمْتُ إلى الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- كتُباً سألتُه فيها أنْ يُعِدَّ لي نُصرةً تأتيني إذا الْتمَسْتُها، وتُدرِكُني إذا احتَجْتُ إليها، وأنْ يَكتُبَ إلى سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة بإنجادي وإمدادي، فأجابني -أطال الله بقاءه- بأنّه قد فَعَل. وقد اشتَدَّتِ الحاجةُ ومسَّتِ الضّرورَةُ، ونَدَبْتُ للنفوذِ بكتابي هذا أبا الحسن عليَّ بنَ الحسين الجَوْهريَّ -أعزَّهُ الله- لثقتِهِ وسَدادِه، ومكانِهِ في خدمةِ سَيِّدي الأمير -أدام الله عِزّه- ومَوضعِهِ، وضَمَمْتُ إليه شيرزيلَ بنَ أسْفار أحَدَ خَاصَّتي، وشافَهْتُهما بما يورِدانِهِ، وحمَّلتُهما ما يُؤدِّيانِه.

وسَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- المَفْزَعُ في المهمِّ، والمَدْفَعُ للمُلِمّ، والسَّندُ الذي ألجَأُ إليه وأُعوِّلُ عليه، وهَذا أمرٌ إنِ انتشَرَ -والعِياذُ بالله- كان عليه انتشارُه، وإذا صَلَحَ كان له صَلاحُه، ونعوذُ بالله من أنْ يُعْيِينا الفَتْقُ ويُعوزَنا الرَّتْقُ. ونحنُ على ما نحنُ عليه من التعاضُدِ والترافُدِ، والتَّوازُرِ والتضافُر.

والذي أُريدُ: إنعامُه بتجريدِ عَسكرٍ في ألفٍ وخمسِمائةِ رُجل، فإنْ تعَذَّرَ ذلك فألفُ رجلٍ يكون الزعيمُ عليهم أحَدَ وُجوهِ قُوّادِهِ وأكابرِ أوليائِه، والتقدُّمُ إليه وإليهم بأنْ يتَدَبَّروا بتدبيري، ويتصرَّفوا على إيثاري، وينتَهوا في المَسيرِ إلى كُلِّ غايةٍ أحُدُّها وأرسُمُ لهم بُلوغَها، ومِلاكُ الأمرِ المبادرةُ والمعاجَلة، فلم يَبْقَ موضِعٌ للانتظارِ، ولا قُدرةٌ على الاصطبار.

فإنْ رأى سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- أنْ يأتيَ في ذلك ما هو أهلُهُ ووَليُّهُ، وحَقيقٌ بالجَرْيِ فيه على عادةِ فَضْلِهِ وامتنانِهِ، وسابقَةِ طَوْلِهِ وإنعامِه، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى عَضُد الدَّوْلة[1]

كتابي -أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- عن سَلامةٍ أحْمَدُ الله عليها، وأسألُهُ إتمامَها، وأن يُوفِّرَ حظَّ سَيِّدي الأمير منها، ويُطيلَ إمتاعَهُ بها.

وقد كتَبْتُ إليه كُتباً مُتتابِعةً مَبْنيَّةً على ذكْرِ الصُّورةِ في استشراءِ اللَّعين سُبُكْتِكين وطُغْيانِهِ، وبَغْيِهِ وعُدْوانِه، وأنّه في كُلِّ يومٍ يَـجْني ببغدادَ جِنايةً تُقلِقُني، ويُنكي نِكايةً تُرمِضُني، ويُؤثِّرُ أثراً مُؤلماً في العَيْثِ والإخرابِ، وتتبُّعِ المُستَترينَ من العيالِ والأسبابِ، وأنّ مَن ثارَ للنُّصْرةِ وسَار للنجدة قد بَدَأُوا بالضَّجَرِ من تَطاوُلِ مَقامِنا، والقنوطِ من تأخُّرِ مَسيرِنا، وأنّ الصُّورةَ مُقتضِيةٌ من كلِّ وجهٍ وسَببٍ، أنْ يُعاجَلَ هذا العدوُّ قبْلَ استفحالِ أمرِهِ، وإعضالِ خَطبِه.

وكان بعض كُتّابِ سَيِّدي الأمير وَرَد يَذكُرُ بأنّه قد برَّز وتـجهَّز، وأنّه سائِرٌ لا يَني، ومتوجِّهٌ لا يَنْثني، فسَكَنَتْ نَفْسي، وتَضاعَفَ أُنْسي، وانشَرَحَتْ صُدورُ أوليائي، وانقمعَ العَدُوُّ الذي بإزائي، وأجَبْتُ سَيِّدي الأمير بالشكرِ على تفضُّلِه، وأتنجَّزُ مسِيرَهُ، والرغبة إليه في طيِّ منازِلِهِ وإنضاءِ جيادِه، والحمْلِ على نفْسِه، والتكملةِ لصُنعِه.

ولّما كان في هذا اليومِ وَصَل كتابُهُ -أدام الله عِزّه- يذكُرُ فيه أنّه يَسيرُ في الـمِهْرَجان ويعمَلُ على أنّه يصِلُ في شهرٍ أو أربعينَ يوماً، وبينَنا وبينَ الـمِهْرَجان عشرونَ يوماً، فكأنّه إنّما يَـحصُلُ عندي بعد شهرينِ أو خمسينَ يوماً، فأقامَني ذلك وأقعَدَني، وأقلقَني

---

[1] (١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان في الأصول: وإليه عن عِزّ الدَوْلة أيضاً).

وأزعجَني، وطَوَيتُه عن كلِّ مَن بحَضْرتي وفي جُملتي، إذ كنتُ وكانوا جميعاً نتوقَّعُ أنْ يَـحصُلَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- عندنا بعد أيّام يسيرة، ومتى شاع ذلك ضَعُفتِ النُّفوس وانقَطعَتِ الآمالُ، واجترَى العدوُّ وسارَ -لا مَحالةَ- مَسيراً أكونُ فيه بين ثَباتٍ على مُـخاطَرةٍ وتغرير، أو نُكوصٍ عنه يُقبِحُ الذِّكْرَ ويُفسِدُ التدبير، وبالله العياذُ من الحالَيْن.

وسَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- يَعلَمُ أنّ هذا العَدوَّ قد غَلَبني على بعض مَـمْلكتي، وهو الآنَ مُقارِعٌ لي عن مُهجتي، وليس تحتمِلُ هذه الحال التأخيرَ، ولا التوقُّفَ عن المسِير، ولا آمَنُ أنْ يَـحدُثَ ما لا يُتَلافَى، ويجريَ ما لا يُستدرَكُ.

وبالله، أنّني كتبتُ هذا الكتابَ ومَا أُحَصِّلُ كثيراً من أمري، لتقسُّمِ فكري، وإظلام ناظري، والْتياثِ خاطِري؛ لأنّه ما دار في خَلَدي أنّ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة يتَأخَّرُ عنِّي إلّا رَيثَ مسافةِ الطريق إليَّ، وكيفَ أظُنُّ به التأخُّرَ عن عدُوٍّ في فِنائهِ عاثَ وفتَك، ولحريمِهِ استباحَ وانتهَك، وعلى تفضُّلِهِ عَوَّلتُ، وعَوَّل بي مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- في أخْذِ الثأرِ منهُ، وإحلالِ النِّقمةِ به.

والآنَ، فعندي أنهُ -أدام الله عُلوَّهُ- مع نُفوذِ رَسُولي ومَا تَوالَى وتتابَعِ من كُتبي قد زالَ عن هذا الرأي في التمهُّلِ، واستعمَلَ ما توجِبُهُ الضرورةُ من التعجُّب، وأعوذُ بالله من أنْ يُلفيَه كتابي هذا إلّا مُقْبِلاً سائراً، ومُغِذًّا مُبادراً. وإنْ تكُنِ الأُخرى ولم يتمكَّنْ من أنْ يَسِيرَ لوقتِه، أمَرَ بإنْفاذ مَددٍ تَقْوى به نَفْسي ونفوسُ هؤلاء الأولياءِ الذين معي، وَيُـحْجِمُ الأعداءُ عن الدُّلوُفِ والإقدامِ عليَّ، إذ كنتُ لا أشُكُّ في أنهم يَنتهِزونَ الفُرصةَ في القصدِ لي إذا وثِقوا بتأخُّرِ النَّجدةِ عنِّي. فإنْ رأى سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال

الله بقاءه- أنْ يَـحمِلَني على عَادتِهِ الشّائعةِ الذّائعةِ في نُصْرةِ منِ استَنْصَرَهُ، وإصراخِ مَن اسْتَصْرَخَهُ، ويَمتعِضَ لدَوْلته وابنِ عمِّه، وأهلِه وأعمالِه، من عظيمِ ما نالهم سالفاً وما هم مُشْفُونَ عليه مُستأنَفاً، ويجعَلَ جوابي إسراعَهُ إليَّ، وطلوعَهُ عليَّ، أو تقديمَ المَدَدِ أمامَهُ في هذا الوقتِ، ليكونَ هو -أيّده الله- تابِعاً له في الوقتِ الذي يَراهُ، والتنفيسَ عنّي بكتابِهِ مشتملاً على ما أسكُنُ إليه، وأعمَلُ عليه، إنْ شاء الله.

نُسْخة تَذْكِرةٍ عن عِزّ الدَّوْلة إلى عَضُد الدَّوْلة[١]

إذا صِرْتَ إلى حَضْرةِ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- ذكَرْتَ له عظيمَ ما ارتكَبَه سُبُكْتِكين حاجبُنا من غَمْطِ النِّعْمة، وجَحْدِ الصَّنيعة، وإطّراحِ الحقوق، والإغراقِ في العُقوق. وإنّا كُنّا حَفظْنا وصيَّةَ الأمير السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة -أكرمَ الله مُنقلَبهُ ومَثْواه- وشفَعَها التأكيدُ الشَّديد من مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- في إقرارِ حالِهِ عليه، ورَبِّ العارفةِ لدَيْه. ثم لم نَقتصِرْ به على ذلك، بل أضعَفْنا له العَطيَّة، ورَفَعْناهُ إلى الذِّروةِ العَلِيَّة، وأمَّلنا أنْ يكون ممّن يَنهَضُ بالشُّكرِ، أو يُؤمَنُ منهُ الكفر، فما زالتِ الأيّام تكشِفُ لنا عن مَساوئِهِ، وَغلَطِ ذلك الرأي فيه، وعَلِمنا أنّ الإحسانَ إليه يُفسِدُ منهُ بقَدْرِ ما يُصلحُ من النَّجيب، والإنعامَ عليه مُضِرٌّ فيه بقَدرِ ما ينفَعُ في اللَّبيب، حتى استمالَ طائفَةً من غِلْمانِنا، وبعَثَها على الاسترابةِ بنا، وحمَلهَا على التحقُّقِ به دُوننا والانحرافِ إليه عنّا، وأقامَ في نفوسِها أنّا له ولها بالمكروهِ مُرصِدُون، وللإساءةِ به وبها معتقِدون، ليَعذِروهُ في سُوءِ الأدبِ عَلينا، ويساعدوهُ على ما تَرقَّى إليه من مَعْصيتنا، وهو في خلالِ ذلك يَمشي الخَمَرَ ويدِبُّ الضَّرّاء[٢]، ويُسِرُّ الغِيلةَ ويُضْمِرُ الشَّحْناء، ويُراعي فُرصةً ينتهِزُها في الإيهانِ للدَّوْلةِ، وغِرَّةً يَهْتَبِلُها في الإثارة للفتنة.

فلمّـا جَرى بين الدَّيْلَم وبينَ الأتْراكِ بالأهوازِ ما جَرى من الوَحْشةِ التي كانت

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (إلى عضد الدولة) إضافةٌ منّا.

(٢) يقال للرجل إذا ختل صاحبَه: يَدبُّ له الضَّـرَّاءَ، ويَمشِـي الخَمَـر، ويسـر حسـواً في ارتغـاء. الجوهري، الصحاح، ج٢، ص٦٥٠، ج٦، ص٢٤٠٩؛ الثعالبي، سحر البلاغة، ص٧٩.

أسبابُ زَوالها لائحةً، وطُرقُ تَلافيها واضحةً، لولا أنّه جَعَلَهُ سُلَّماً إلى سُبُل مُرادِهِ، وعِلَّةً لإظهارِ عِنادِهِ، رَكِبَ أصعبَ مَراكِبِهِ في الأمرِ الذي خَرَج إليه، والعظيم الذي هَجَم عليه، وأزعَجَ كبيرتَنا والأخَوينِ: عُمْدة الدَّوْلة أبا إسحاق وأبا طاهِرِ ابْنَيْ مُعِزِّ الدَّوْلة - أدام الله عِزّهم- عن منازِلِهم، بعد أنْ نازَلَهم ثلاثةَ أيّام مُنازَلَةَ المحاصِر والمحارِب، وناصَبَهم مُناصبَةَ المكاشِفِ والمُغالِب، ودَعا الطّائفة الحَشَويَّةَ[1] من عَوامٍّ ببغداد إلى

---

(١) اختلف في تفسير مفهوم الحشوية، فقال ابن تيمية (ت هـ٧٢٨/ ١٣٢٨م): إن هذا اللفظ ليس له مسمى معروف لا في الشرع، ولا في اللغة، ولا في العرف العام، وليس فيه ما يدل على شخص معين، ولا مقالة معينة، فلا يدرى من هم هؤلاء؟ ويذكر أن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد ، حيث قال: كان عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - حشوياً. وأصل ذلك أن كل طائفة قالت قولاً تخالف به الجمهور والعامة فإنها تنسب قول المخالف لها إلى أنه قول الحشوية: أي الذين هم حشوٌ في الناس ليسوا من المتأهلين عندهم. فالمعتزلة تسمي من أثبت القدر حشوياً، والجهمية يسمون مثبتة الصفات حشوية، والقرامطة يسمون من أوجب الصلاة والزكاة والصيام والحج حشوياً. وأهل هذا المصطلح يعنون به حين يطلقونه: العامة الذين هم حشو، كما تقول الرافضة عن مذهب أهل السنة مذهب الجمهور . دعاوى المناوئين، ص١٥٤. وبيّن الإسنوي (ت هـ٧٧٢/ ١٣٧٠م) رأيه في ذلك، فقال: اختُلف في الحشويةِ، فقيل بإسكان الشين لأنَّ منهم المجسِّمة، والجسمُ محشُوٌّ، والمشهورُ أنه بفتحها نسبةً إلى الحَشَا؛ لأنهم كانوا يجلسون أمام الحسن البصريِّ في حلقته فوَجَدَ كلامَهم رديئًا؛ فقال: «رُدُّوا هؤلاء إلى حَشَا الحلقة» أي: جانبِها، والجانبُ يُسمَّى: حَشًا، ومنه الأحشاءُ لجوانبِ البطن. نهاية السول، ص١٤٧. وحاول نشوان الحميري (ت٥٧٣هـ/ ١١٧٨م) التوصل إلى ماهية لفظ الحشوية، فقال: هي أصل فرق الإسلام، ثم تفرقت كل فرقة منها فرقاً، وإنما سميت الحشوية لكثرة روايتها للأخبار وقبولها ما ورد عليها من غير إنكار. شمس العلوم، ج٣، ص١٦٥. وقال في كتاب آخر: سمّيت الحشوية حشوية ، لأنّهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم، وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه. الحور العين، ص٢٠٤. ويرد هذا اللفظ كثيراً في المصادر الإسلامية مرادفاً للفظ (العَوامّ). انظر على سبيل المثال: المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص١٦٥.

مُؤازَرتهِ، وتنفَّقَ عندَها بإظهارِ النَّصْبِ[1] في ديانتهِ، وإباحَها الغارة والسَّلْب، وحَكَّمَها في الدِّماءِ والحُرَم، ووَثَبَ على الدُّورِ فأحرَقَها وعلى الخزائنِ فانتهَبا. وتتبَّعَ الخليفَة - أطال الله بقاءه- وقد كان برزَ عن دارِه مُتَوجِّهاً إلى واسِط للَّحاقِ بنا، والنَّجاة من عدُوِّ الله وعَدُوِّنا، فأخَذَهُ وأسَرَه، وحَبَسهُ وحَصَره، وتكَنَّى وتلقَّب، وتأمَّرَ وتعظَّم، وجَهَر بمُخالفتِنا، وخَلَع رِبْقة طاعتِنا، وبحَث عن كُلِّ وَلَدٍ وحُرْمة، وتابعٍ وسَبَب، واستثارَ أموالَنا ووَدائِعَنا، وانتهَى في ذلك إلى نَبْشِ القُبورِ التي كان يلزَمُهُ أنْ يزورَها ويستسقيَ السَّحائبَ لها، والله حَسيبُه وطَليبُه، ومُبيدُهُ ومُبيرُه، ومُعجِّلُ النِّقمَةِ منه، ومُحِلُّ العقوبةِ به، بقُدْرته.

وهذه جُملةٌ من أمرِ هذا اللَّعين، أنتَ -أيّدك الله- تُورِدُ على سَيِّدي الأمير تفصيلَها، وتُوَفّيه شَرْحَها وتُلخِّصُها، ليعلَمَ من الحال مثلَ ما عَلِمنا، وتأخُذَ منهُ الحَمِيَّةُ ما أخَذَها مِنّا، ويكونَ -أدام الله عِزّه- من وراءِ التلافي لها حَسَب ما يَخُصُّه ويَمَسُّهُ منها إنْ شاء الله.

وكُنّا لما وَقَفْنا على ما فعَلَهُ هذا العاقُّ القاطع، الشّاقُّ الخالِع، كتَبْنا إلى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة وسَيِّدي الأمير الجليلِ عَضُد الدَّوْلة كُتباً مُتَتابِعةً مَبْنيَّةً على الإنهاءِ لما ذكَرْنا، والاستصراخِ فيما دَهَمَنا وبلَغَنا، إلى أنْ قُلنا: إنّ الصُّورَة موجِبَةٌ لأنْ يَتجشَّما الحرَكةَ إلى هذه المَمالِكِ التي لهما صَلاحُها، وعليهما فسادُها، تفخيماً وتعظيماً، وتحقيقاً وتصميماً، وإشفاقاً من أنْ يتناولا - أيّدهما الله - التدبيرَ بالهُوينا، ويَسْعَيا فيه السَّعيَ الأدنى. ثم نَصَصْنا السُّؤالَ على طلَبِ مَددٍ من الرِّجال لنستعينَ بهم على هذا العدوِّ المبين، والناجِم اللَّعين.

وكان من جَوابِ كُلِّ واحدٍ منهُما -أطال الله بقاءهما، وكَبَت أعداءهما- ما يكـون

---

(١) النصب: مناصبة آل البيت العداء. واستعمال هذا المصطلح هنا من قَبيل الحرب الإعلامية، والدعاية السياسية.

من مِثلِه في التحرُّقِ والارتماضِ، والتلَظّي والامتعاضِ، وبَذَلَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- ما لم يزَلْ باذلاً له من كلِّ قُدرَةٍ يُطيقُها، وقوَّةٍ يستطِيعُها. وأجابَ مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أدام الله عُلُوَّه- أنّه قد كاتَبهُ بالمَسيرِ إلينا والطّلوعِ علينا، فَلإكبارِنا قَدْرَهُ، وإعظامِنا خَطَرَهُ، وانحطاطِ منزلةِ هذا العبدِ العاصي عن أنْ يُفارِقَ مقرَّ مُلكِهِ بسَببِهِ ومن أجلِهِ ما كتَبْنا كتاباً مَبْنيًّا على الاستعفاءِ من تجشُّمِه تجاوُزَ أرّجان، والاكتفاءِ بمن يَصْدُرُ عنها من الرِّجال.

ثُم تَواتَرتْ من مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- كتُبٌ دالَّةٌ على أنّ الذي صَدَر عنه -أيّده الله- في ذلك إنّما هو عن رأيٍ مَخَضَه، ونُصحٍ مَحضَهُ، وتدبيرٍ دَبَّرَه، وتقريرٍ قرَّرَهُ، فانعطَفْنا إلى تقبُّلِ السَّعادة المَسُوقةِ إلينا، والفائدةِ الجليلةِ المسَبَّبَةِ لنا، واستأنَفْنا المكاتَبة بما قد سبقَكَ إلى حَضْرة سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- بالرغبةِ إليه في الإغذاذِ والتعجُّل، وتَرْكِ التلوُّمِ والتَّمهُّلِ، ووافقَ ذلك حَنيناً شديداً مِنّا إلى مُلاحظةِ غُرَّتهِ الكريمة، والوقوفِ بحَضْرتهِ الجليلةِ، واعتقَدْنا أنْ نوفِّيَهُ الحقّ الواجب عَلينا، ونؤدِّيَ إليه الفَرْضَ اللّازمَ لنا، إذ هو -أدام الله عِزّه- جارٍ لنا الآنَ مَجْرى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة.

والأميرُ السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة كان بالسنِّ الزّائدة والقَدَم المتقَدِّمةِ، والأسبابِ الدّاعيةِ إلى إنزالِهِ أعظمَ منزلةٍ وأعلاها، وإحلالِه أوْفَى محلَّةٍ وأسناها، وبالله التوفيقُ. وسبيلُكَ -أيّدك الله- أنْ تُقبِّلَ بِساطَهُ -أدام الله تأييدَه عنَّا- وتُورِدَ عليه ما سَمِعتَ منّا، وتُخلِصَ الرغبةَ إليه في طَيِّ المنازلِ نحوَنا وإغذاذِ المسِيرِ لنَصْرِنا، وإظهارِ ما نحنُ -أهلَ البيتِ- ناشِئونَ عليه، وراجعونَ إليه من التآلُفِ والتكانُفِ، والتعاضُدِ والترافُد، فاعمَلْ -أيّدك الله- على ذلك ولا تخالِفْهُ، وعَجِّلْ كتابَكَ بما تأتيهِ فيه ولا تُؤخِّرْهُ إنْ شاء الله.

نُسْخة جواب تَذْكِرةٍ وَرَدت من عَضُد الدَّوْلة على عِزّ الدَّوْلة[١]

أما ما اعتمدني به سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة من إهداء السَّلام، وإسْباغ التّفضُّلِ والإنْعام، فقد تقبّلتُ ذلك، وتلقّيتُه بالشكر الواجب عليّ، والاعتداء اللّازم لي. وعليه - أيّده الله - أفضل السَّلام والتحية، وتولّاه الله بأحسن الدّفاع والكفاية.

وأمّا ما أبداه من شدّة الشوق إليّ، والظَّمأ إلى مُشاهدتي، فإذا كانت هذه حالُه وهو الكَهْفُ والملجَأُ، والسَّيِّد المرجَّى، والزائرُ المقبل، والمنعم المتطوِّل، والمالك لأن يَحُثّ الرِّكاب ويبعثُها، ويبطىء بها ويحبسُها. وكنتُ رهينَ الانتظار والتوقّع، تحت حُكم المراعاة والتطلّع. وبي مع ذلك حاجةٌ قد مَسَّت، وفاقةٌ قد اشتدّت، إلى أنْ أقمعَ بيده الأعداء، وأستكشفَ بغرّته الغمّاء. فما ظنُّه - أيّده الله - بما عندي؟ وكيف أشكو إليه التياحي ووَجْدي؟ وهل بذلك خَفاءٌ فأُبديه وأشرحه؟ أو غموضٌ فأُظهره وأوضحه؟ وإذا كنتُ لم أخلُ من شوقٍ إلى مَوْلاي - أطال الله بقاءه - يُضيّق الخِناق، وتلفت يلوي الأعناق، ونزاعٍ يرهق القلب، وصَبابةٍ تملأ الحجب، أيّام كانت دَواعي الاجتماع بعيدةً لم تحِن، ومَعوزةً لم تمكن، فأخلِق بأنْ تزيدَ وتضعُف تباريحُ هذه الآلام، مع دُنوّ الدّيار من الدّيار، لا سِيَّما وقد قضى لي بذلك الشاعر في بيته المتداوَل السّائر[٢] قضاءً كافياً في

---

(١) چستربتي.

(٢) لعله يشير إلى بيت إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

وكلّ مسافرٍ يزداد شوقاً ... إذا دنت الديارُ من الديارِ

الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص٣١؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢٢٦.

الدّلالة، مُغنياً عن الإطالة. وإلى الله أرغبُ في تَسْهيل الأسباب الجامعة، ودَفْع العَوائق المانعة، وأحمدُه جلّ وعزّ – على أنْ قدّر لنا الالتقاء على حالٍ أتحمدُ فيها مِنّته، وألبسُ نِعْمته، وأثره في ذلك عليّ بالفضل الذي هو به أحقّ وأولى، وأجدر وأحرى.

وأما قَلَقُه – أيّده الله – وتحرُّقه، وارتماضُه وامتعاضُه للذي حَدَث من سُبُكْتِكين الغادر اللَّعين، فمَثَلُه مَن غَضِب وأبى، وأنِف واحتمى للغريب المكفور النِّعْمة، والبعيد المجحود الصَّنيعة، فضلاً عمَّن تئطّ بينه وبينه أواصر الرَّحِم، وتنوطه به شَواجر العِصَم، وما استباح هذا الكافر إلّا حِماه، ولا عَاثَ إلّا في ذَراه، ولا تعرّض إلّا له، ولا تمرّس إلّا به. إذ كان سَيِّدي الأمير – أطال الله بقاءه – عَضُد هذه الدَّوْلة، ونجيب هذه اللُّحْمة، وعدّه مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، فمَن دونه في حِفْظ النَّعْماء، وحَسْم الأدواء، وزَمّ الأمر، وضَمّ النشر، ولمّ الشَّعَث، وكنّ الحَدَث !

وإنّي لأرجو أنْ تكون نجومُ هذا الغلام المستحلِّ للحرام، المحتقب للآثام، المرتكب للجَرائم، المستَصْغر للعظائم. وإنْ كان قد ثلَمَ وأجْحَفَ، وبالَغ وأسْرف علّةً لصَلاح أمري وشأني، وثَبات مُلكي وسُلطاني، وإقبال حَظّي وسَعادتي، فانحسار النّوائب كلّها عن ساحتي لأنّ قَدَم مَوْلاي الأمير قَدَمٌ مَيْمونة، والمصالحُ والمناجحُ لها حيثُ حلّت مَضْمونة. وإذا بَوَّأني كَنَفه، ومَدَّ عَليَّ ظلَّه، فأخلِق بكلّ إرادةٍ أنْ أُعطاها وأُوَفّاها، وبكلّ محنةٍ أنْ أُوَقّاها وأكفاها، بإذن الله.

وأمّا ما رَسَمه من المقام بواسِط، وتَرْك البَراح منها أو التّجاوُز لها، فقد كرّر – أيّده الله – هذا القول تكريراً، إنما ينبغي أنْ يستعمله مَعَمر يَظُنُّ به الأحْواج إليه[1]، والخلافَ في حالٍ من الأحوال عليه. وأُشهد الله أنني لو تيقّنتُ أنْ أدركَ في المسير الثأرَ

---

(١) كذا.

المنيم[1]، وأفوزَ الفوزَ العظيم، وكشفَتْ في الأيّام عن مستور المغبَّةِ، ووثقت لي بمـأمول المحبّة، لما بسطتُ لخُطوةٍ قدمي، ولا فغرتُ بلفظة فمي؛ إذا كنتُ فيهما عن أمره عـادلاً، وعن سَننه مائلاً.

وها أنا مُطيعٌ لما أمر، وحاذِرٌ ممّا حَذّر، ومُقيمٌ لا أبرح، وجانحٌ لا أجمح، حتى يكون هو الحاضر المدبّر، والمورد المصدر، أتبعُه في كلّ ما ارتأى، وأكونُ معه في كلّ ما انتحى، إلّا أنني قد ذكرتُ عزم هذا الحائن على الإقدام عليّ، والمسير إليّ، وأنه مُحتشدٌ مُستعدٌّ، ومُحتفلٌ مُجدٌّ، فإنْ سار فلا بدّ من أنْ أمانعه مع مَضارب العسكر، وأدافعه عن فِناء المدينة، فهل في الرأي أنْ يتركني مَوْلاي - أطال الله بقاءه - تحت هذه الخطّة، وأنْ تسكنَ نفسُه إلى تَعْريضي للغرر، وقد ألححتُ عليه - أيّده الله - في إنجادي بطائفةٍ من الرِّجال تسير إليّ جَريدةً، وتحصل عندي سَريعةً؛ لأكونَ بها على العدوّ ممتنِعاً، ويكون طمعُه في ناحيتي مرتفِعاً، وأتمكَّنَ حينئذٍ من استعمال ما وُصّيتُ به، واجتناب ما حُذّرتُ منه. وأنا للجواب مُنتظر، وبما أدبّر به فيه متدبّر، ولله المشيئة.

وأما أبو الحسن عليّ بن وَصيف السُّتْري فقد وَرَد حضرتي، وأوْرد ما حُمَّله إلى سُبُكْتِكين عليّ، وسار لوقته وساعته، ومضى لوجهه وطيّته، ووجدتُ ذلك للصّواب مُوافقاً، وبحزم سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة لائقاً، وإذا وافَـى بادرتُ بردِّه، وكتبتُ بما ذكره مع رِكابيٍّ قاصدٍ يسبقه، إنْ شاء الله.

وقد كان اللَّعين أنفَذَ إليّ كِتاباً عن الرَّجل الذي نَصَبه، رَكيكاً مختلاً، بعيداً من كلّ أصالةٍ وإصابة، مَعْدولاً به عن الرسوم وسُننها، والمعهود من مِنْهاجها وسَننها، بخُلوِّ البلد، إذ لم أكن وكُتّابي وأسْبابي فيه من رشيدٍ يستقل بهذه الحال، ويَهْتدي إلى سَدادٍ في

---

(١) الثأر المنيم: الثأر الذي فيه وفاء طلبته. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٥٩٧ (نوم).

مَقالٍ أو فَعال، فأجبتُ عنه، وأضفتُ إلى الجواب كتاباً إلى سُبُكْتِكين، ونُسِخ الجميعُ لأبي مُحمّد عُمير بن مُحمّد، وأمرتُه بأنْ يعرضه بحضرة مَوْلاي الأمير عَضُد الدَّوْلة حين يَرِدُها، ثم بحضرة مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة إذا انكفأ إليها، وأرجو أنْ يكون مُتَضَمَّنُ الجواب داخلاً عندهما في حيِّز الصواب.

وإنْ أنكرَ مَوْلاي الأمير شيئاً منه، أمرَ بتعريفي الموضع المنكَر لأعدِلَ في المستأنف عنه إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى عَضُد الدَّوْلة عن مُحمّد بن بَقيّة[1]

وقَفْتُ على ما شَرَّفني به مَوْلانا المَلِكُ الجليلُ -أطال الله بقاءه- في خِطابه، وأهَّلَني له من كتابِهِ، وأبانَهُ من جميلِ رَأيِهِ، وجَليلِ اصطفائهِ واجتبائهِ، وتَلقَّيْتُ نِعمةَ الله في ذلك بالشكرِ المستديم لها، والاعتدادِ المُستزيدِ منها، واشتَدَّ اغتباطي بالمرتبةِ التي نِلتُها وحَلَلْتُها، والمَرْقَبةِ التي عَلَوْتُها وامتَطَيْتُها، وألْزَمْتُ نَفْسي ما يَلزَمُها من التمسُّكِ بأسبابِ طاعتِه، والتعلُّقِ بأمْراسِ[2] مُشايعتِه، والمحاماةِ على ما تمهَّدَ لي من عنايتِهِ، وأزَلَّ إليَّ من رعايتِهِ، والله المُعين.

وأمّا التَّذْكِرة المفرَدَةُ من مَوْلانا المَلِكِ، إلى مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة، فقد عَرَضْتُها عليه، ولخَّصْتُها لهُ، وجَرَى على عادتِه في العمَلِ عليها والانتهاءِ إليها، وأجابَ عنها بما أبو الحسن يُؤدِّيه ويُورِدُ ما شُوفِه به فيه، ولله المشيئةُ. ولن يقَعَ عُدولٌ عمَّا أمَرَ به مَوْلانا المَلِكُ من المُقامِ والثَّباتِ، وترْكِ المَسيرِ والبَراحِ بوجهٍ ولا سَببٍ، إلّا أنّ الحاجَةَ ماسَّةٌ إلى الاستظهارِ بطائفةٍ من الرِّجال يَسيرونَ سَيْراً حثيثاً، ويَحصُلونَ بهذا المعسكرِ حُصُولاً وَشيكاً، للدَّواعي الموجِبةِ التي قد تضمَّنَها جَوابُ التَّذْكِرة، ولمَوْلايَ في ذلك فَضْل رأيِهِ العالي إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة.

(٢) جمع مَرَسَة، وهو الحبل. ابن منظور، لسان العرب، ج، ٦ ص٢١٦ (مرس).

وأما أبو الحسن عليُّ بنُ وَصِيفٍ -أعزَّهُ الله- فقد وفَّقَ الله مَوْلانا الملِكَ للصَّوابِ فيما حَمَّلَهُ إيّاه إلى اللَّعين سُبُكْتِكين، ونَفَذ لوقتهِ وساعتِه، وإذا وافَى لم أؤخِّرْ إنهاضَهُ عائداً إلى الحَضْرة الجليلَةِ، والكتابُ أمامَهُ بما يَسبِقُهُ بحصولِ الإجابةِ إنْ شاء الله.

وأنا واقِفٌ نَفْسي على طاعـةِ مَوْلانا الملِكِ الجليـلِ عَضُد الدَّوْلة، محدِّثٌ لها بخِـدْمتِه، والوقوفِ عند حَدِّه، والخفوفِ في مُهمِّهِ، ولَستُ آلو جُهداً في الاستعدادِ لكُلِّ ما يُقرِّبُني مِنهُ ويُحظيني عنده. وقد عَرَفَ أبو الحسن عليُّ بنُ مُحمّد النقيبُ -أعزَّهُ الله- من ذلك ما هو يَذكُرُه، ومَوْلانا الملِكُ الجليلُ وليٌّ بتشريفي بكُتبهِ، وتَصريفي بين أمرِه ونهْيِه إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة بن مُعِزّ الدَّوْلة
إلى عضد الدَّوْلة
في طلب الصُّلْح وقد جرى بينهما اختلاف[1]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك الجليل المنصور عضد الدَّوْلة - من العسكر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص٥٦٥.
في سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م تجهّز عَضُد الدَّوْلة وسارَ يطلب العراق لأسباب لخصها ابن الأثير بقوله: « لما كان يبلغه عن بَخْتِيار وابن بَقيّة من استمالةِ أصحابِ الأطراف كحَسْنُوَيْه الكُرْدي وفَخْر الدَّوْلة بن رُكْن الدَّوْلة وأبي تغلب بن حمدان وعمران بن شاهين وغيرهم، والاتفاق على معاداته، ولما كان يقولانه من الشتم القبيح له، ولما رأى من حسن العراق وعظم مملكته إلى غير ذلك، وانحدر بَخْتِيار إلى واسط على عزم محاربة عَضُد الدَّوْلة، وكان حَسْنُوَيْه وعده أنّه يحضر بنفسه لنصرته، وكذلك أبو تغلب بن حمدان، فلم يفِ له واحد منهما. ثم سار بَخْتِيار إلى الأهواز، أشار بذلك ابن بقية، وسار عَضُد الدَّوْلة من فارس نحوهم، فالتقوا في ذي القعدة واقتتلوا، فأمر على بَخْتِيار بعض عسكره وانتقلوا إلى عضد الدَّوْلة، فانهزم بَخْتِيار وأخذ ماله ومال ابن بَقيّة، ونهبت الأثقال وغيرها. ولما وصل بَخْتِيار إلى واسط، حمل إليه ابن شاهين صاحب البطيحة مالاً وسلاحاً، ودخل بَخْتِيار إليه فأكرمه. ثم أصعد بَخْتِيار إلى واسط، وأما عضد الدَّوْلة فإنه سيَّر إلى البصرة جيشاً فملكوها، وسبب ذلك أنّ أهلها اختلفوا، وكانت مضر تهوى عضد الدَّوْلة وتميل إليه لأسباب قررها معهم، وخالفتهم ربيعة، ومالت إلى بَخْتِيار، فلما انهزم ضعفوا وقويت مضر، وكاتبوا عَضُد الدَّوْلة وطلبوا منه إنْفاذ جيش إليهم، فسيَّر جيشاً تسلَّم البلد، وأقام عندهم، وأقام بَخْتِيار بواسط، وأحضر ما كان له ببغداد والبصرة من مالٍ وغيره، ففرقه في أصحابه، ثم إنه قبض على ابن بقية لأنّه اطرحه واستبد بالأمور دونه، وجبى الأموال إلى نفسه، ولم يوصل إلى بَخْتِيار منها شيئاً، وأراد أيضاً التقرُّبَ إلى عَضُد الدَّوْلة بقبضه، لأنّه هو الذي كان يفسد الأحوال بينهم». تفصيلات أكثر عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤١٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٤٣.

بظاهر سوق الأهواز، ومَوْلانا أمير المؤمنين مشمولٌ بالكفاية والتأييد، مخصوصٌ بالعزّ والتّمكين، يجري على أفضل ما عَوَّد الله خلفاءه في أرضه، وأحباءه في رعاية خلقه، من التكفّل لهم بالإظهار والإدالة، وتولِّيهم بالإعلاء والإنافة، وأنا مستظلٌّ بكنف طاعته، مستكنٌّ في حرم مشايعته، شاكرٌ لله على بلائه، مُثْنٍ عليه بآلائه، راغبٌ إليه أنْ يعصمني في مَوْلانا الملك الجليل المنصور، وفي نَفْسي من كلِّ مكروه ومُستهجَن، ويوقّفني وإيّاه لكلِّ مُستحبٍّ ومُستحسَن، ويعيذنا من المقام على الفُرقة، والزَّوال عن سَنَن الألفة، وهو المحمود رب العالمين.

والحقوق بين مَوْلانا الملك وبيني فيما قرّرته منّا اللُّحمة، وأكّدته العِصْمة، وأثّلته الأسلاف، ونشأت عليه الأخلاف، حقيقةٌ بأنْ لا تتسرّع إليها دَواعي النقض، ولا تتمكّن منها مُلمّات النَّسْخ، ولا يتم للشيطان عليها ما يحاوله بنَزْغه، ويتوصّل إليه بكَيْده، وأنْ تنزاح العَوارض عنها، وتضمحلّ دون التأثير فيها، وأنْ نعتقد جميعاً أنّ بِتقايِضنَا رعايتها ثبات النِّعَم المتّصلة بها، فلا يستنكف مستنكفٌ منّا أنْ يخفض جناحه لأخيه، ويغضّ من جُماحه في مقاربة ذويه، إذ كان ذلك حامياً له في أهْول الأحوال ممّا هو أشدّ خفضاً، وأبلغ رضاً، وأسوأ مغبَّة، وأنكر عاقبة.

وقد علم مَوْلانا الملك المنصور بالثاقب من تأمّله، والصحيح من تمييزه وتدبّره، أنّ دولتنا - حرسها الله - مبنيةٌ على أُسّ الترافُد والتعاضُد، موضوعةٌ على قاعدة التوازُر والتظافُر، وأنّ مشيختنا وسادتنا - رضوان الله عليهم - جعلوا الائتلاف رِتاجاً بين الأعداء وبينها، ثم إنّ مِفتاحه هو الخلاف المتطرق لهم عليها، ولو حدث التنافر في أيّام رياسة أضعفنا مُنّة، وأوهننا عقدة، وأحدثنا سِنّاً، وأقلّنا حِنْكَة، لكان ذلك أقلّ في التعجّب من أنْ يعرض في رياسة أحصفنا رأياً، وأسدّنا تدبيراً، وأَوْفانا حلماً، وأكملنا حزماً.

وقد تكرّرت - أيّد الله مَوْلانا - على ذات بيننا قَوارِصُ احتقرناها حتى امتلأ الإناء من قَطْرها، واستقينا منها على العظيمة التي لا ثواء بعدها، وما أعود على نَفْسي بلَوْمٍ في ابتداء قبيحٍ ابتدأتُه، ولا بِمركَبٍ شنيعٍ رَكِبتُهُ، ولا حقٍّ اطَّرَحْته، ولا استصلاحٍ تركته، ولا أدفع مع ذلك أنني قابلتُ لما تضاعف بالأقلّ الأيسر، وجازيت لما ترادف بالأدون الأنزر، إلّا أني ما آثرتُ كثيره ولا قليله، ولا اخترتُ دقيقه ولا جليله، لكنه لم يصلح في السِّيرة، وقد أشفينا على التزاحُف للحرب، والتَّدالُف للطعن والضرب، أنْ أستعمل ما كنتُ عليه من توفيةِ الحقوق، وإقامة الرسوم؛ فيراني الأولياء الذين بهم تُحمى البَيْضة، وتُحاطُ الحوْزة، متناقض الفعلَيْن، متنافي المذهبَيْن. وكنت في ذلك الفعل الذميم، والرأي الذي ليس بمستقيم، مقتدياً لا مبتدياً، ومتَّبعاً لا مبتدعاً.

ولو وقف بي مَوْلانا الملك الجليل قبل أواخر الجفاء، وعطف معي إلى أول شرائع الصفاء، لكانت عريكتي عليه ألين، وطريقه إلى ارتباط طاعتي وولائي أقصد، لكنه - أيّده الله - أقام على ما لا يليق به من مجانبتي ومغالطتي، وبثّ الحبائل لي، ودسّ المكائد إليّ، ومتابعته الجواسيس والكتب إلى الأولياء في عسكري الذين هم أولياؤُه إنْ أنصف وعدل، ونُصحاؤه إنْ أحسن وأجمل.

وكان الأشبه بمَوْلانا لو كنت الغالط عليه، والباعثُ لهذه الأسباب إليه، أنْ يسوسني سياسة الحكيم، ويستخلصني استخلاص الكريم، إذ كنّا لم نقدّمه مَعْشَرَ أهل البيت علينا، ونولّه أزمّة أمورنا، إلّا ليأسُو جروحنا، ويجبر كُسورنا، ويتعهّد مُسيئنا، ويستميل نافرنا. فأمّا أنْ يحاول مِنّا استباحة الحريم، وإركابَ المركب العظيم، فكيف يجوز أنْ تدوم على هذا طاعة، أو تصلح عليه جماعة، أو يغضي عليه مُغضٍ، أو يصفح عنه صافحٌ !

وكان من أشدّ هـذه الجفـوة وأفظعهـا، وأقسـاها وأغلظهـا، أنْ عـاد رسـولي مـن حضرته خالياً من جوابٍ بما كتبتُ إليـه، ومـا أعـرف لـه - أيّـده الله - في ذلـك عـذراً يبسطه، ولا سَلَك منه السَّبيل التـي تشـبهه، وبـالله جُهـد القَسَـم ومنتهاهـا، وأجلّهـا وأوفاها، لقد سار مَوْلانا أمير المـؤمنين - أطـال الله بقـاءه - وسرتُ إلى هـذا الموضـع، واعتقادنا لا يجاوز حفظ الحدود والأطراف، وحياطة النهايات والأكنـاف، والأغلـب علينا أنّ مَوْلانا الملك - أدام الله تأييده - لا يتجاوز معـي المعاتبـة اللّطيفـة، والمخاطبـة الجميلة، والاستدعاء منّي لما يسوغ لـه أنْ يطلبـه، ولي أنْ أبذلـه، مـن تَعْفِيـة السّـالف، وإصْلاح المستأنف، وتَوْفيةٍ للحقّ في رتبةٍ لا أضِنُّ بها عليه، ولا أستكثر النّزول عنها له، وتقرير أصلٍ بيننا يكون - أيّده الله - به معقلاً لي وموئلاً، وأكون نائبـاً لـه ومظفـراً، إلى أنْ بـدأ الأصـحاب بالعَيْـث في هـذه الـبلاد، وألحـوا عليهـا بالغـارات، واعتمـدوها بالنّكايات، وكان هذا كالرَّشـاش الـذي يُـؤْذِنُ بالانسـكاب، والـوَميض الـذي يوعـد بالاضطرام. وأوجبت قبل المقابلة عليه والشروع في مثله في حقّ مَوْلانا الملـك الجليـل، الذي لا أدع أنْ أحفظ منه ما دعاني إلى إضاعته، وأتمسّـك بـما اضـطرّني إلى مُفارَقَتِـه أنْ أقدم أمام الالتقاء على الحرب التي هي سِجالٌ كما يعلم، إبلاغ نَفْسي عُـذْرها، وإعطـاء الـمَقادَةِ منها، داعياً له إلى طاعة الخالق والإمام، وصلة اللّحم والأرحام، وحَقْن الدّماء والمهج، وتَسْكين الدَّهْماء والرَّهَج، وثني العِنان عن المورد الذي لا يـدري واردُه كيـف يصدر عنه، ولا يثق بالسَّلامة منه، وتَعْريفي ما يريـده منّـي لأتبعـه مـا لم يكـن ثالمـاً لي، وعائداً بالوَهَنِ عليّ.

والله الشاهد عليّ شهادة قد علم إخلاصي فيها، وسماحة ضَمِيري بها، وأنني أكره أنْ أنال منه، كما أكره أنْ ينال منّي، وأتألّم من أنْ أظهر عليه، كما أتألّم أنْ يظهر عليَّ، وأحبُّ أنْ يرجع عنّي وأرجع عنه ؛ وقد التقت قلوبنا، وتألّف على الجميل شملنا،

وطرفت أعين الأعادي عنا، وانحَسَمَتْ مطامعهم فينا، فإنْ فعل ذلك فحقيقٌ به الفضل، وهو لَعَمْرُ الله له أهل، ولا عذر له في أنْ لا يفعله، وقد وَسَّع الله ماله، ووَفّر حاله، وأغناه عما يلتمسه الصُّعْلوك، ويخاطر له السُّبْروت[1]، وجعله في جانب الغنى والثروة، والحزم والحيطة. وإنْ أبى فكتابي هذا حُجّةٌ عند الله الذي تُستنزل منه المعونة، وعند النّاس الذين تلتمس منهم العصبية.

وقد أنفذتُ به إسْفِنْدار بن خسرُوَيْه وإبراهيم بن كاكي[2]، وهما ثقتاي وأميناي، ليؤدّياه ويشافهاه عني بمثل مُتضمّنه ونَجواه، والله يُعيذنا في مَوْلانا الملك الجليل من أنْ يختار إلّا أولى الأمرين وأليقهما بدينه ومُروءته، وهو وليّ ما يراه في الأمر بتعجيل الإجابة بما أعمل عليه، وأنتهي بالتدبير إليه، إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) المفلس، الفقير، التافه. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٣٩ (سبرت)؛ الزبيدي، تاج العروس، ج٤، ص٥٤٤ (سبرت).

(٢) في النص المطبوع: كالي، وأرجِّحُ أن يكون الصواب: كاكي، وهو من أسماء الدَّيْلم.

فصل من رسالةٍ عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة
في محاولة الصُّلْح[1]

قد لَحقني من مَوْلانا ما يلحق الرَّجل، تذوي يمينُه، وهو بين أنْ يقطعها؛ ليسلم له ما بعدها، ويا لها من خطّةٍ ما أصعبها وأشقّها، وورطةٍ ما أحرجها وأضيقها. وبين أنْ يغضي عليها؛ فيرمي إلى ما هو أعظم من قَطْعها، وأمضّ من فَقْدها.

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٣٠٠.

فصل عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة
في تأليفه[1]

وإنّ من أعظم محن هذا البيت، أنْ تزول مَنابتُ فُروعِه عن مَنابتِ أُصوله، وأنْ تُؤتى مراسي أوتاده من ذوائب عروشه، وأنْ تدبّ بينهم عقاربُ المشاحنة، وتسري إليهم أراقمُ المناقشة، وتنبثّ الدّواهي فيهم من ذاتهم، وقد كانت محسومةً من أضدادهم وعداتهم.

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٧.

وكَتَب عن مُحمّد بن بَقيّة
إلى الملكِ عَضُد الدَّوْلة لما أطلّ إلى الأهْواز
وتقرّر الأمرُ على أنْ ينفُذَ إليه الشّريف
أبو أحمدَ الحسين بن موسى الموسَويّ
فـي الوَساطة بينه وبين عِزّ الدَّوْلة[1]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الملكِ الجليل المنصور عَضُد الدَّوْلة، وأدام عزَّه وتأييدَه، وعُلوَّه وتمكينَه، وقُدْرته ورِفعته - من واسِط يومَ الإثنين لإحدى عشْرةَ ليلةً خلَتْ من رجَبٍ - أسْعَده اللهُ به، ولقَّاه يُمنَ طائرِه، ووَفّاه فيه أوفرَ الأقساط من نازلِ

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، عاشر أفندي. (الحسين) ساقطة في ف. وأورد الثعالبي فقرة منها، يتيمة الدهر، ج٢، ص٣٠٠.

الحسين بن موسى بن مُحمّد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن مُحمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو أحمد الموسَويّ الملقب بالطاهر والد الرضي والمرتضى، ولد سنة ٣٠٤هـ كان من أهل البصرة وسكن بغداد وتقلّد نقابة الطالبيين سنة ٣٥٤هـ، وعزل عنها سنة ٣٦٢هـ وتقلّدها أبو مُحمّد الحسن بن أحمد بن الناصر، جيء به من الأهواز. ثم وليها ثانية سنة ٣٦٤هـ ثم عزله عَضُد الدَّوْلة سنة ٣٦٩هـ، وحمل إلى فارس واعتقل هناك ثم وليها ثالثة سنة ٣٨٠هـ. ولاه الطّائع لله النظر في المظالم وإمارة الحاج واستخلف ولديه الرضي والمرتضى. ولم يزل عليها إلى حين وفاته سنة ٤٠٠هـ، وكان قد عمي، ودفن في داره. ثم نقل إلى جوار الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء. صرف الثلث من أمواله وأملاكه على أبواب البر وتصدق بصدقات كثيرة. الصفدي، الوافي، ج١٣، ص٤٩. وكان يذهب في مهمات بين الأمراء البويهيين وغيرهم كرسول ومبعوث. انظر: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٠١-٤٠٢، ص٤٢٠؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٢٣-٢٤، ص٥٣، ص٨٣، ص٩٨-٩٩، ص١٥٣، ص١٧٢، ص٢٢٦، ص٢٤٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٥٨.

رحمته، وأجزَلَ الأقسامِ من شامل رأفتِه - والأخبارُ واردةٌ من حَضْرة مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - بما يزيدُ وليَّه سُروراً، وعدَوَّه ثُبوراً، من عُلوِّ شأنِه، وسُموِّ سُلْطانه، وتَناهي عزِّه وتأييده، واستمرارِ توفيقِه وتَسديدِه. ومَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - جارٍ في سَلامة نفْسِه، ورَغَد عيْشِه، وانبساطِ يدِه، ونَفاذِ أمرِه، على أجمل ما عوَّده اللهُ وعرَّفَه، وأحسَنِ ما قدَّم إليه وأسلَفَه. وأنا لابسٌ في أثناءِ ذلك لصُنوفٍ من النِّعَم تتمّ بتَمامِه، وتدومُ بدَوامِه. والجميعُ معدودٌ من مَواهب الله لمَوْلانا الملك إذ هو بأسرِه إليه واصلٌ، ولديه حاصل. والحمدُ لله ربِّ العالمين، حمداً يَصدُرُ عن أصحِّ بصيرة، وأخلصِ يقين.

وكان وُرودي هذا البلدَ - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك المنصور عَضُد الدَّوْلة - في مستهلِّ الشّهر، مَحروساً مَوْفوراً، مَصُوناً مَحُوطاً، مُجرىً على ما لم يزَلِ الله يُوليِنيه وأمثالي ممّن مَدَّتِ الدَّوْلة عليه ظِلَّها، وحمَّلتْه عِبْأها[1] وثِقْلَها. وأشكرُ اللهَ على ذلك شُكرَ المستديم لمصاحبتِه، المستعيذ من مُفارقتِه.

ولئن كانت هذه الحركةُ – أيّد الله مَوْلانا – لم تُبلّغْني مُنتهى الأُمنيّة من مشاهدتِه، وغايةَ الحقّ من خدمتِه، فقد أحسَسْتُ معَها عندما نقصَ من المدى، وقَصُر من الشُّقّة بأُنْسٍ يُخفِّفُ الوَحْشة، وارتياحٍ يُبرِّدُ الغُلّة. فوالله، لقد تَركتْني مَطارحُ البُعد عنه عند مَغابِط القُرب منه حاميَ الضُّلوع، هاميَ الدّموع، أليمَ البَرْحاء، قليلَ العزاء، داعياً على عَيْنٍ أصابتْ ذلك الشملَ المشعوب، والثأْيَ المرؤوب، بما يُطرِفُها ويُقْذيها، بل يَفقَؤها ويُعميها. وأحسَبُه - أدام الله عِزّه - يجدُ في نفسِه شاهداً على ما أدَّعيه، ودليلاً على صِدقي فيه، يتكفّلانِ لي بنَفْي الشُّبهة، ودَفْع التُّهمة، وأسألُ اللهَ الذي باعَدَ بين الدّيارِ

---

(١) ف: أعباءها.

بالعادل من قضيّتِه، والنافذِ من مشيئتِه، أنْ يُدانيَ بين القلوب بالسّابغ من إحسانِه، والغامر من امتنانِه، ويجعلَ كنَفَ مَوْلانا الملك الجليل المنصور عَضُد الدَّوْلة متّسعاً لأنْ يضُمَّ عبيدَه النّازِحين كما يضُمُّ الدّانين، ولا يَعدِمَني نصيباً من جميل رأيه، يُسافرُ إليّ إذا لم أسافرْ إليه، ويَقدمُ عليّ إذا لم أقدُمْ عليه، ويَخيرَ لنا معشرَ عِباده فيما يُسمَعُ من دُعائنا ويُرفَع، وفيما يُحجبُ منه ويُمنَع، إنّه أعلمُ بمواقع حُظوظِنا، وأنظرُ لنا من نفوسِنا بجُودِه ومَجْدِه.

ووَرَد - أدام الله تأييدَ مَوْلانا - فاذار بن يَزْد[1] فيروز بجواب الكُتب التي كان تحمَّلها، وأدَّى ما شرَّفه به من الرِّسالة معها، ووجدتُه - أيّده الله - قد خصَّني من ذلك بأتمّه شرحاً، وأغزرِه نفعاً؛ فلزمني أنْ أنتهيَ في جَوابه إلى ما تُحصُل بإذن الله معه الثمرةُ، ويُفضَى منه إلى الفائدة، وأنْ أُطلقَ[2] أعِنّةَ الكَلِم من حَلَبةٍ هو - أيّده الله - بَسَطَها، وفَسَح لي أنْ أجريَ فيها، قاصداً إلى ما حَسَم الدّاء، وحفِظَ النَّعْماء، وألقى شُعاعَ الصّلاح على آفاقِ الدَّوْلة وجَنَباتِها، وكنَفَها به من سائر أرجائها وجهاتِها، مُقرِّراً لأصلٍ تطَّردُ الفروعُ عليه، وتسكُنُ النُّفوس إليه. وأرجو أنْ يصادفَ ذلك من مَوْلانا - أدام الله عِزّه - استصابةً، ويقعَ منه على إحكامِه وإبرامِه مساعدةً، بعَوْن الله ومشيئته.

وشكرتُ أمامَ كلِّ شيء ما حَكى لي من لفظِه الجميل الذي لو وَرَد من نظيرٍ لأكبَرْتُ قَدْرَه، وأعظمتُ خطرَه، فكيف وهو واردٌ من أجلِّ مَن نِيطت به الآمال، وسَمَتْ نحوَه الأبصار، وسَعَت الأقدامُ إلى نَيْل الحُظْوة لديه، وإدراك القُربة منه؟ وتلك عادتُه الشّريفة، وسَجِيّتُه الكريمة، التّاركةُ لمن طلَبَها حَسِيراً، ولمن سَعى وراءها

(١) س، ر: قاذا بن بزد.

(٢) ف: نطلق.

مَبهوراً، زاده اللهُ من فَضْله إنْ أمكَنَ مزيدٌ على مقدارِه، ووَقاه من نوائبِ الزّمان وجرائرِ أقدارِه.

فأمّا اعتقادُهُ - أيّده الله - حِفْظَ الأُلفة، ورُخْصَ ما ألَمَّ بها من الوَحْشة، فمُشاكلٌ لآرائه الصّحيحة، وخَلائقِه السَّجيحة. ولمّا لم أزلْ أبعثُ وأحثُّ عليه، وأدعو وأُرشدُ إليه، وإذا كان هذا قولُه، وكان عند مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة - أطال الله بقاءهما - مثلُه، وكنتُ بينهما مُسَدِّياً مُلحِّماً فيه، وباذلاً وُسْعي في تقرير أواخيه، فما ينبغي أنْ يقعدَ بنا حالٌ عن الجمع بين القول والفعل، والمساواة بين الشّاهدِ والغائب، والمطابقةِ بين البادي والخافي، ويتبعُ ما يطرأُ على ذلك من أسبابِ الفساد الشّائنة له، وقَوادحِه العارضة فيه، حتى يُجَذَّ من الفريقَيْن أصلُها، ويُزاحَ عن ذات البَيْن كلُّها.

وأمّا اللّزومُ لسُنَن مَوالينا الماضينَ - رضي اللهُ عنهم أجمعين - فموْلانا - أيّده الله - أوْلى مَن حاطَ عليها، وتمسَّك بها، وكلُّ مَن بعدَه[1] من مَواليَّ - أدام الله علوَّهم - فيه يقتدي، وبرأيِه يهتدي، وما يخالفُ ذلك إلّا مَنِ الحقّ خصمُه، والحُجّةُ عليه، واللهُ من وراءِ المَعُونة له إن انثَنى وراجَع، والمعونةُ عليه إنْ أصرَّ وتتابع.

وها هنا - أيّد الله مَوْلانا الملكَ - أحوالٌ أُخَرُ دَواعٍ إلى اعتقادِ هذه الأُلفة لو لم تَسبِق الوصيّةُ بها من القَرْنِ السّالف، ويؤخَذَ العهدُ بها على القَرْن الخالف.

فمنها: أنّ الأدواتِ التي أدَّت الماضينَ - رحمةُ الله عليهم - إلى تلك الآراءِ السَّديدة، والمناهج الرَّشيدة، هي في الغابِرينَ الباقين - مدَّ اللهُ في أعمارِهم - أوْجَد، وعليهم أحْبَس، وهم[2] بأنْ يَسْتأنفوها ويستقبلوها أوْلى من أنْ يتعلَّموها ويتقيَّلوها،

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) ساقطة في ف.

لارتفاع العِصابة التي مَوْلانا - أدام الله نَعماءه - سيّدُها وزعيمُها، واللُّحمة التي هو كبيرُها وعظيمُها. وقد جاءت مُصَلِّيَةً وراء سَبْقِه، ومتلاحقةً[1] على آثار تقدُّمِه عن أنْ يحتاجَ في سُبُل الصّواب إلى دليل يقودُها، وهادٍ يؤمُّ بها.

ومنها: أنّ انتثار[2] النظام إنْ بدأ - والعياذُ بالله - لم يقفْ عند الحدِّ الذي يُقدَّرُ أنه يقفُ عنده، ولم يَخصّص الجانبَ الذي يُظَنُّ أنه يلحَقُه وحدَه، بل يدِبُّ دبيبَ النّار في الهشيم، ويَسري كما يَسْري النَّغَلُ في الأديم، وكثيراً ما تُعْدِي الصِّحاحَ مَباركُ الجُرْب[3]، ويتخطَّى الأذى إلى المرتقَى الصَّعب. وانعكاسُ المتخيِّلات في مثل ذلك أقربُ من استتابِها، والتواؤها أسرعُ من اعتدالها، وما من أغصانِ هذه الدَّوحة النَّفيسة - حَرَسها الله - إلّا ما هو بكافٍ لصاحبِه فيما أزَلَّ إليه من نِعَمِه، وأجزَلَ من قِسَمِه، ووسَّعه من أكنافِ مَمْلكتِه، ومَنَحه من مودّاتِ جُندِه ورعيّتِه، وثمَّره من ذخائرِه وعُدَدِه، ووَفْرةٍ من حَشْدِه وعَدَدِه، فإن اجتمعَتِ اجتماعاً يَعضُد الجزءُ منه أخاه امتَنَعت عن المجاذِبين، واستصعَبَتْ على المُغالِبين، وأوشَك أنْ يثبُتَ بُنْيانُها، وتتوطّدَ أركانُها، وتزولَ المخاوفُ عنها، وتَتوافى العوائدُ إليها. وإن افترَقتِ افتراقاً ينكأُ فيه بعضُها بعضاً شِمْلتها النِّكايةُ بأسْرِها، وتسلَّطت المضارُّ عليها، وكان أضعفَها وأبعَدها عن الفَلَج مَن ابتَدا الخلافُ منه، وأقواها وأقربَها إلى القهرِ من علائقِ العُذْر معه، ونعوذُ بالله من حالٍ نحتاجُ فيها إلى هذا القول. ولولا أنّ اجتهادي مُطالِبٌ لي ألّا أتوقّفَ عن غايةٍ يُمكنني بلوغها من تبصُّرٍ وموعظةٍ، وإيضاحٍ ودِلالة، لكان ما أحصَفَه الله من دِين مَوْلانا - أطال الله بقاءه - ويقينَه، وأصَحَّه من رأيِه واختيارِه، وأحضَره إيّاه من الخَواطرِ الحميدة، وأوضَحه له

---

(١) ف: لاحقة.

(٢) في الأصول الخطية: انتشار، وما أثبتناه من الثعالبي.

(٣) من أمثال العرب. الضبي، أمثال العرب، ص٨١.

من المسالكِ الرّشيدة، كافياً إلى أنْ أُسهِبَ وأُطْنب، وأُبيّنَ وأُبرهن. لكنّي فعلتُ ذاك خدمةً[١] وتأدباً بأدبِ الله سبحانه في الذكرى النّافعة لمن آمَنَ به، ولإرادتي أنْ يقفَ على كتابي هذا غيرُه ممّن لا يَستغني عنه غَناءَهُ، فيستشعرَ منه ما يكون به على الخير مُساعداً، وفي الإهابة إليه مُوضِعاً، ولا يتّبعَ هوىً لعلّه أنْ يُضلَّه عن السَّبيل، ويحتملَ عنده غيرَ الجميل.

ومنها: أنّ الوقتَ مع قُرب العهد بوفاة ذلك الأمير السَّعيد - نَضّر الله وَجْهه - وامتدادِ العيونِ والأعناق، من أهل العِناد والشِّقاق، إلى أنْ تظهرَ لهم عورةٌ أو تُمكنهم منه غِرَّةٌ، موجبٌ أنْ يُجدّدَ مَوالينا - أطال الله بقاءهم - بينهم عهوداً يسكّنُ بها بعضُهم بعضاً، ويزيدُ اللهُ منافسيهم معَها وَقْماً وغَضّاً، وتتعفّى بتجدُّدِها تلك الهناتُ التي كانت خامَرَتِ القلوب، وغادرتْ فيها بقايا من الندوب، وأحدثت لحُسّادِ النِّعْمة طمعاً في اختلاف الكلمة.

ومنها: أنّ مَوْلانا - أدام الله عِزّه - غيرُ مُنازَع في التعظيم، ولا مُدافَعٍ عن التقديم، فإذا مَنَع الرَّحِمَ أنْ تُقطَع، والعِصَم أنْ تُفصَم، والذِّممَ أنْ تُخفَر، والحدودَ أنْ تُتطرَّف، والحقوقَ أنْ تُتحيَّف، استدام من ساداتِنا وعبيدِه وإخوتِه ما هم عليه من طاعتِه، وأفرَدوه بمقام رياستِه، وكان مالكَ ممالِكهم كلِّها، ونافذَ الأمر في جميعها، يخطُبونَ له على منابرها قبلَ نفوسِهم، ويكْسونه لباسَ التفخيم بينَهم، ويضطرُّ أصحابُ الأطراف الذين يَلُونَهم إلى أنْ يفعلوا[٢] مثلَ أفعالِهم إمّا خيفةً ورِقْبةً لهم، وإما اقتداءً وتأسِّياً بهم. وهذه طريقٌ متى ركبها - أيّده الله - نالَ بها من جميل الذكر ما لا يَنالُه بالجيوش اللَّجِبة،

---

(١) ف: خدمة له.

(٢) ف: يفعلون.

والأموال الدَّثِرة، سالماً فيها من الغَرَر، واثقاً ببلوغ الوَطَر، لا يَصدُرُ عنه أمرٌ إلّا امتُثِل، ولا يُعرَفُ منه إيثارٌ إلّا فُعِل، ولا يُناوئه مُناوىء إلّا أسرعتِ الجماعةُ إلى تقليل حدِّه، وتقويض مجدِه، وكانوا هم الخُصومَ له والأنصارَ عليه. وأجلُّ هذه الجهات - أدام الله عزَّ مَوْلانا - الجهةُ التي هي قُبّة الإسلام، وفيها دار الإمام. وإذا كانت تَبذُلُ له على المكافة والمسالَمَة ما كانت هي المُطالبةَ له من غيرِه على المجاهدةِ والمحاربة، فأيُّ سَعادةٍ أعظمُ من سَعادتِه، أو رُتبةٍ أسْنَى من رُتبتِه، وإلى أيِّ أملٍ يَرْمي مَن أحرَزَ ذلك عفواً، وحازَه صَفْواً.

ومن المعلوم - أطال الله بقاء مَوْلانا - على سالفِ الاستقراءِ والاعتبار، وسابق التجربة والاختبار، أنّ المحبَّ للاستبداد، والسّاعيَ للاستئثار، والكارِهَ لأنْ يُشارَكَ في الأمر بقَسْم، أو يُضرَبَ معه فيه بسَهْم كثير التّعب، طويلُ النَّصَب، بعيدٌ من إصابة الغَرَض وإدراكِ الأرَب، خليقٌ بأنْ لا يُحصِّلَ الأنْزَر حتى يُضيّعَ الأكثر، ولا يصلَ إلى الأقلّ حتى يفوتَه الأجلّ. يا ليتَ شعري، ما الذي يحملُه - أيّده الله - على حلِّ النظام، وتصديع الالتئام؟ أمِن قِصَر بلادِه يفعلُ ذلك ! فوالله، لقد وَسَّع اللهُ أقطارَها، وباعَدَ ما بين أطرافِها، ومكَّنَ منها تمكيناً مَرْموقاً بالأعيُن، مشاراً إليه بالأصابع. أم من خلافٍ عليه في منزلةٍ عُليا يحبُّ أن يَفْرَعَها، أو غايةٍ قُصوى يؤْثر أنْ يتبوأها ! فوالله، لقد أُعطي من ذلك على الإجمال والإجمام ما هو غنيٌّ عن طلبِه بالاستكراهِ والاهتضام. أم من ثأْرٍ يَرومُ أنْ يأخُذَ به، ووِتْرٍ يحاول أنْ يُدركَه ! فوالله، ما رضيَ اللهُ له بألّا يكون مَوْتوراً حتى جعَلَ الأوتارَ مَصْفوحاً عنها له، والمطالباتِ بها منزاحة عن ساحته، فهل بقيت - أيّد الله مَوْلانا - حُجّةٌ إلّا وقد سدَّ طريقَها، أو علّةٌ إلّا وقد أغلَق بابَها؟

وقد كان مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة كتَبَ إلى مَوْلاي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة أطال الله بقاءهما، قبلَ مُفارقتِه الحَضْرة، مُسْتَسْعِياً له في لمِّ الشَّعث، ومُسْتَعيناً به في رَتْق ما حَدَث،

ونافساً بالحال أنْ تشرقَ، وقد بقيَ له في الذبِّ عنها سَهْمٌ في كنانةٍ، أو منزِعٌ من قوس.
وواللهِ، ما دَعاهُ – أدام الله تأييدَه – إلى ما قال ويقول، ولا دعاني إلى ما قلتُ عنه وأقول، إلّا الكراهيَةُ لمنازعةٍ يكون الغالبُ فيها مَغْلوباً، والقاهرُ مَقْهوراً، والثالمُ لصاحبِه فاتّاً في عَضُد نفسِه، وطارفاً عينَه بيده.

وحقيقٌ على مَوْلاي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة – أدام الله علوَّه – أنْ يلتزمَ في ذلك ما افترَضَه اللهُ عليه وعلى المسلمين جميعاً، إذ يقول: ﴿ وَإِن طَآيِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ﴾[1]. وقد جعَلَ اللهُ بهذه الآية الباغيَ من كلِّ فئتين مختلفتَيْن مَوْكولاً إلى نفسِه، بريئاً من حَوْل الله وقوّتِه، لا ناصرَ له منه، ولا من أحدٍ من عباده، إلّا مَن كان عن أمرِه صادفاً، ولنصِّ تنزيلِه مخالفاً.

وقد نزَّه اللهُ دولةَ مَوْلانا – أيّده الله – عميدُها، وزُمرةً هو وَلِيُّها، عن أنْ يمسَّها الدَّرَن أو يعلَقَ بها الدَّنَس، أو ينالَها الشَّلل، أو يعترضَها الخَلَل. وها هنا الآنَ – أيّد الله مَوْلانا – آثارٌ تبدُر، وأراجيفُ تتَّسق، وآياتٌ تُنكَر، وأماراتٌ تُحذَر، ولا بدَّ مع الاستشفافِ لها، وظهور ما يَظهرُ من شواهدِها أنْ تؤخَذ الأُهبةُ لدَفعِها، ويُعَدَّ لها عِتادُ مثلِها. وفي دون هذا ما أوجَدَ الشيطانُ طريقاً إلى بثِّ مَكائدِه، ونَصْب حبائِله، ووسَّع للعدوّ السُّبُل إلى معاودةِ وَساوِسه، ومُراجعة هَواجسِه.

وقد ساءني أنّ فاذار[2] بن يَزْد فيروز حُمِّل من الجميل رسالةً قيلتْ قولاً ولم تُضمَّنْ كتاباً، وأنّ طوائفَ من سكّان هذه البلاد، كدُبَيْس الأسَدي، والمُكنّى أبا بُجَيْر الكُرْدي

---

(١) سورة الحجرات، من الآية ٩.

(٢) ر، ف: قاذار.

وغيرِهما، يذكرونَ أنّهم رُوسِلوا واستُميلوا، والأغلبُ على ظنِّي أنّ ذلك محالٌ، لكنْ من يسمَعْ يخْل. ويحتاجُ هذا الأمرُ إلى سَلامةٍ تعُمُّ ظاهرَه وباطنَه(١)، وصحّةٍ تشمُلُ فاتحتَه وخاتمتَه، وأنْ تتّفقَ فيه النِّيّةُ والفعْل، والسرُّ والجهْر، وتمكَّنَ له قواعدُ من الأيْمان يَحلِفُ بها، ووثائقُ يعتمدُ عليها، وشهاداتٌ يرجعُ إليها، ووَسائطُ يتوسَّطونها من أشرافِ وقضاةِ الحضرتَيْن، وقوّادِ وخَواصِّ العسكرَيْن، لتسكُنَ النفوس، وتطمئنَّ القلوب، وترتفعَ الشكوكُ، ويَستحكمَ اليقين. ولذلك(٢) ما أنفَذ مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - الشّريفَ أبا أحمد الحسين بن موسى - أدام الله عِزّه - وهو هو في الموالاةِ للجهتين، واستحقاقِ الثِّقة والسُّكون من الفريقَيْن، والاشتهارِ بحُسن السِّفارة، وسَداد الوَساطة، والسَّعي للصَّلاح، وتعمُّدِ الصَّواب، والأحوالِ المجتمعة فيه من الشّرف والمعرفة، والدِّراية والتجرِبة، بعد أنْ كان مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - رَفَّهه(٣) لبقايا كان فيها من علّةٍ لِحقتْه، وهمَّ بالبِعثة بأبي سَهْل عيسى بن الفَضْل الدّواتي أيّده الله، فتمادتِ الأيّام بذلك إلى أنْ صَلَح وأبَلّ، ونهضَ واستقَلّ. وعرضتْ حاجةٌ مع هذا إلى توفُّر أبي سَهْل على الشُّخوص إلى حَضْرة مَوْلاي الأمير فَخْر الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - لتَتْميم ما كان مترسِّلاً فيه من أمرِ الوُصْلة، فقد اتّصلَتِ الرّغبةُ منه إلى مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة - أطال الله بقاءهما - في تسهيل الأمر، وتَعْجيل النَّقْل(٤)، خار اللهُ في ذلك وعظَّم بركتَه.

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) ف: وكذلك.

(٣) ع: وفده.

(٤) ر، ع: النفل.

وكتابي هذا مضافٌ إلى كتابٍ من مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة - أدام الله علاءه - في معناه، وتَذْكِرَةٌ للشّريف - أيّده الله - بما رَسَم له أنْ يوردَه ويعملَ عليه، وفاذار بن يَزْد فيروز عائدٌ معه إنْ شاء الله.

فإنْ رأى مَوْلانا الملكُ الجليل المنصور عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - أنْ يأتيَ في تأمُّل الجميع ما يأتيه مالكُ الأمرِ كلِّه، ومَن هو الأحوجُ إلى صلاحِه وانتظامِه، والأوْفرُ حظاً من اتّفاقِه والتئامِه، ويبدأ بما أشَرْتُ به، وحضَضْتُ عليه، بما يُسارعُ مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - إلى مثلِه، ويأمرَ - أعلى الله أمرَه - بتَشْريفي بجوابٍ أُضيفُ المِنّة به على ما اعتَدتُ من نظائرِها، وأعلمُ معه أنّ خدمتي هذه وقعَتْ مواقعَها، فَعَل إنْ شاء الله.

فصل عن عِزّ الدَّوْلة في ذكر عَضُد الدَّوْلة وما جرى بينهما[1]

والله عالمٌ أني مع ما عوّدنيه الله من الإظهار، وأوْجَدنيه من الاستظهار، ومَنَحنيه من شرف المكان، وظلّ السُّلْطان، وكثرة الأعوان، لأجزع في مناضلة عَضُد الدَّوْلة من أنْ أصيب الغرض منه، كما أجزع من أنْ يصيب الغرض منّي، وأكره أنْ أظفر به كما أنْ يظفر بي، وأشفق من أنْ أطرف عيني بيدي، وأعضّ لحمي بنابي.

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٩.

وكَتَب عن الطّائع لله
إلى عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاعِ بن رُكْن الدَّوْلة أبي عليٍّ
يستصلحُهُ لعِزّ الدَّوْلة[١]

من عبدالله عبد الكريم الإمام الطّائع لله أمير المؤمنين

إلى عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع بن رُكْن الدَّوْلة أبي عليٍّ مَوْلى أمير المؤمنين

سلامٌ عليْك فإنَّ أمير المؤمنين يَحْمدُ إليكَ الله الذي لا إله إلّا هو، ويسألُهُ أنْ يصلّيَ على مُحمّد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلَّم، أمّا بعد،

أحسنَ اللهُ حفْظَكَ وحِياطَتِكَ، وأمتع أمير المؤمنين بكَ وبالنِّعْمة فيك، فإنّك من المنزلةِ[٢] العالية عند أمير المؤمنين بحيث تقتضِيه تأهيله إيّاك لها، وإنافتِهِ بكَ إليها، ألّا يَصْبرَ منك على حُدوثِ قطيعةٍ، ولا يُغضي على اعتراضِ جفوةٍ، ولكنّهُ يُوجبُ في الحقوقِ بينه وبَينك، والأواصرِ المتمهّدةِ عنده لك أنْ يجمَّ صَفْوةَ الحال عمّا يَشوبُها، ويقيها ممّا يعيبها، ويتأنّاك إلى أنْ تعودَ من ذاتك إلى مُلازمةِ طَبْعكَ السَّليمِ، وسَننكَ المستقيمِ، وتعتقدَ أنّك منه كالعينِ النّاظرةِ التي تُصان عمّا يُقذيها، واليدِ الباطشةِ التي تُحفظ ممّا يُذويها[٣]، وأنّك من الطَّبقةِ المنيفة، وذوي الأنفسِ الشَّريفةِ الذين يصلحون على الإكرام، ويسمحونَ مع الإجمال، ويَعْرفون حقَّ ما يتناولون به[٤] من الملاينة،

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك. (يستصلحه لعز الدولة من ط فقط).

(٢) س: بالمنزلة.

(٣) ف: عما يدويها.

(٤) ر: يتناولونه.

ويُسْلكُ بهم من طرقِ المحاسنةِ، وما يَضعُ أمير المؤمنين ذلك منكَ بحمد الله ومَنّه، إلّا عند المحقّق لظنّه، والمصدِّق لمخيله[1]، والمغتبطِ بفِعْلِه، والمفترضِ لشكره.

وقد كان أمير المؤمنين كاتَبكَ - أحسن اللهُ الإمتاع بك - من الأهْواز بما قدَّر أنّه كافٍ في كفِّكَ من الزَّحفِ إليها، والهجوم عليها، وبذلَ لك من نَفْسِهِ، ومن عِزّ الدَّوْلة[2]، أمتع اللهُ بكُما، وحماهُ من استمرارِ الشَّغبِ بيْنكُما - أفضلَ ما يُبْذل لمن يستلُّ ما في نفسِهِ من ضَغينةٍ، ويستخرجُ ما في صَدْرِهِ من دَفينة، ويُبالغُ[3] في كلِّ إيثارٍ وبُغيةٍ، ويبلُغُ كلَّ أملٌ[4] وأُمنية، ما كان ذلك داخلاً في الاستطاعة، وحاصلاً تحتَ الإمْكان[5] والطّاقة[6].

ووَجَد عند عِزّ الدَّوْلة أبي منصور - أدام الله إمتاعه بكما - الإذْعانَ والطّاعة، والانقيادَ[7] والمسارعة، غير مُشاحٍ[8] ولا مُنافسٍ، ولا مُتثاقل ولا مُتقاعِسٍ، ولا عادلٍ عن الأوْلى بكما، والأوْصَل للرَّحمِ بينكما، فلم يكنْ منك عند وُرودِ الكتابِ عليكَ ما أمّلَهُ أمير المؤمنين فيك، ممّا يلائم سَداد طرائقِكَ ومَساعِيكَ، لكنّكَ[9] سِرْتَ إلى مَوْضع كذا، ودخلتَه على سَبيل المنازعةِ التي تَلَف فيها من المسلمين قَتْلاً وغَرَقاً، وضَيْعةً وجَهْداً، العددُ الكثير الذي مثلك مَن تحرّج منه وأباهُ، وكرهَهُ وتوقّاه.

---

(١) س: لمخيلته.

(٢) ر: معز الدولة.

(٣) ط: يتابع، ف: بتابع، ر: تتابع.

(٤) ط: مأمول.

(٥) ف: الإذعان.

(٦) هذا ما في ط، وفي ما دونها: الطاعة.

(٧) من: ط.

(٨) ف: مشاحن.

(٩) ساقطة في ف.

ولما رآك أمير المؤمنين مُجْرِياً إليه وحاملاً نفسَكَ عليه، مع المعلوم من تحوُّبك[١]، والمأثور من تذمُّمِكَ، أيقنَ أنّ تلك الحفيظةَ غالَبَت حِلْمَك، ودافَعتْ كَظْمكَ، فتجمَّشْتَ بها ما جشَّمتك عن حرارةِ قلبٍ بَرَّدَتها، وغُلّةِ صدرٍ نَقَعَتْها، وحاجة نفسٍ قضيتَها[٢]، وتحلَّةِ قَسَمٍ أبْررتها؛ فأوْجبَ أمير المؤمنين أنْ يعاودَ مكاتبتكَ بالقَوْل الأَلْيَن، واللَّفظ الأحسن، إغراقاً في استصلاحِكَ إلى غايتِهِ، وأخْذاً من الحزْمِ عليكَ بأوكده[٣] وألْزمِهِ، وخرج أمرُهُ عند فاجئةِ خبرِ الوقعةِ له بإنْفاذ فلان لتأديةِ رسالةٍ هي عن أمرِه وإذنه، وأتبعها بهذا الكتابِ تأميلاً أنْ تُصادفَك، وقد اكتفيتَ واشْتفيتَ، وانتهيتَ واتّقيت، وانتقلتَ عن مركبِ المغيظِ الثّائرِ، إلى مركب المراجعِ الشّاكر[٤]؛ فيجمع لكَ إلى الغرضِ الذي أصبْتَه[٥]، وإنْ تعسّفت الطّريقَ إليه، حُسْن التّوفيقَ، والانصراف عنه إلى ما هو أزينُ بك منه، والعدول إلى استئناف الجميل بين أمير المؤمنين وبينَكَ، وصَلةِ ما أمر اللهُ به من سببِ فلانٍ، ولم تقمْ على ما يشتّتُ[٦] الأُلْفةَ ويُفرِّقُ الكلمةَ، ويفرّع الوَحْشة، ويشعّب الفتنة، ويُمكِّنُ الأعداءَ منكما، ويطرّق لهم عليكما، بعد أنْ كانت أعينُهُم[٧] عنكما[٨] مغضوضةً، وأيْديهم[٩] عن القَدْح في

(١) ر: تحومك. ف، س: نخوتك.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ط: ما وكده.

(٤) ف: الساكن.

(٥) ف: تعسفته، وما بعدها ساقط إلى (حسن).

(٦) س: شتت.

(٧) ف: أعبنهما.

(٨) من: ف.

(٩) ط: وأيديكم.

دولتِكما ونعمتِكما مقبوضةً، ولا سِيَّما وقد علمتَ أنّ هـذا الخِـلافَ بينـك وبـين مـن[١] جعله اللهُ منك، وخصَصَهُ بك، يُؤدي إلى طمعِ طَوائفَ من الأعـداءِ المنحـرفينَ عـنكما، والجند المطيفين بكما، فيتّخذونَهُ[٢] سوقاً، ويجعلونَهُ إلى استئكال الأموال طريقاً.

وإذا كان ما بين أمير المؤمنين وبينكَ[٣] مُنيراً مُسْفِراً، وكان عِزّ الدَّوْلة[٤] على متابعتك وموافقتِكَ ماضياً مُسْتمرّاً، فالأرْوح لقلبِكَ، والأرْبحُ لمالِكَ، والأصْلحُ لحالِكَ أنْ تتقبلَ[٥] ما جَنَح إليه معكَ، وأنْ تكونَ هذه الكُلَفُ ساقطةً عنك.

وأميرُ المؤمنين يأمُرُكَ الآنَ بما يَأْمرُ به الدّاخِلَ في بيعتِهِ، والنّازلَ على حكم مشايعتِهِ، من استدامة رأيه فيك الحسنِ الجميلِ، وثنائه عليك العريض الطّويل، بالاستجابةِ إلى ما دعاكَ إليه، والطّاعة له فيما حَضَّك عليه، والوقوف بحيث انتهيت، وتركِ الزّيادةِ على ما بلغتَ، وتدبيـرِ حَضْـرة أمـير المؤمنين، ومَنْ بها[٦] مـن عِزّ الدَّوْلة[٧] ومَن دونَهُ من[٨] النّاس أجمعينَ، بما تتعمَّدُ أنْ لا يكون فيه شططٌ عليهما، فإنهما يتعمّدانِ أنْ لا يقعَ خلافٌ منهما. ومتى فعلتَ ذلك ضَممتَ النَّشر، وحصَّلتَ[٩] الأجرَ، ووَصَلتَ الحبْلَ، وجمعـتَ الشَّمْلَ، وحقنْتَ الدِّمـاء، وسكنتَ الدَّهْمـاء، وقُوبِلـتَ مـن أمير المؤمنين

---

(١) ف: منك وممن.

(٢) س: فتخذونه.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) ط: فلان.

(٥) ط: تقبل.

(٦) ف: فيها.

(٧) ط: فلان.

(٨) ساقطة في ف.

(٩) ط: حزت.

بالنِّهاية[١] من تشريفِه وتكريمِه، والغاية من تقديمه وتعظيمِه، ومن عِزّ الدَّوْلة[٢].

وَهَبَ اللهُ لأميرِ المؤمنين التَّوفيقَ لكما، وصَلاح ذاتِ البيْنِ منكما، بأفضلِ ما قابل به الولدُ والدَهُ، والأصغرُ كبيرَهُ، فكان ومَنْ بعدَهُ، ومَنْ دونهُ مُسَلِّمينَ لك، مُقرِّين بفضلك. وإنْ تكن الأُخرى – والله المَعيذُ منها – احتاجَ أمير المؤمنين بالضَّرورة التي لا خيارَ معها، ولا لَوْمَ على مَن أُلجيء إليها، إلى[٣] أنْ يُفارقَ ديارهُ، ويهاجرَ أوطانه، ويضْربَ في البلادِ مُنْحازاً عن الفتْنةِ، وناجياً إلى جَنْب السَّلامة، ثم يكون ظاهرُ[٤] ذلك ذلك مبايناً لموجباتِ فَضْلك ودينِكَ، ولمعتقدِه فيكَ ولكَ، ولم يُؤمن أنْ يتدنَّس من ذكرِكَ ما ترتفع عنه بخطرِكَ وقدْركَ.

وقد كان في حقِّ السِّياسةِ عند أمير المؤمنين أنْ يُطيلَ كتابَهُ هـذا بعِـبرَ يـذكِّرك بهـا، وأمثـالٍ يضـربها، وآيـاتٍ يتلوهـا، وأخبـارٍ يأثرهـا، وأنْ يشـيرَ عليـك باتّبـاع أقصـد الطُّرقِ[٥]، وأرْشد الخُلْق، لكنَّهُ عالمٌ بأنّك الحُوَّل القُلَّب[٦]، المحنَّكُ المجرِّب، الثّاقـبُ في درايتِهِ، الغزيرُ في روايتِه، المرتفعُ عن منزلةِ مَن يُوقَظ من غَفْلتِـه، ويُسـتهبُّ مـن سِـنَتِه، وأنّك تَرْجعُ إلى نفسٍ أمّارةٍ بالخير، بعيدةٍ من الشرِّ، توَّاقةٍ إلى لباس الفَخْر، مدلولةٍ عـلى سُبُل البرِّ، مَحْقُوقةٍ بأنْ تُنزَّه عن سوء قالة القائلينِ، وأحاديث المتحدِّثينَ، وعن أنْ ينْسِبَ إلى ما قد باعدَكَ اللهُ عنه من مفارقةِ كرمك إذا ظفرتَ، وإسْجاحك إذا ملكتَ؛ فاعمـلْ

(١) ط: بالزيادة.

(٢) ط: فلان.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) ساقطة في ف.

(٥) س، ر: الطريق.

(٦) أي البصير بتقليب الأمور. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٦٨٥ (قلب).

في ذلك - أمْتَعَ اللهُ أمير المؤمنين بك، وكفاه محذورَ كلِّ خطّةٍ فيك - بما هو الأولى بفضلِكَ، والأحْرَى بمثلِكَ، والأخلق بكمالِكَ، والألْيق بمحمود خلالك.

وأجِبْ عن هذا الكتاب، وعمّا تقدّم من الرِّسالة، جواباً يحسن موقعه، وينشر لك عَلَمُ الدِّين والمروءة معه إنْ شاء الله.

والسَّلام عليك ورحمةُ الله

وكَتَبَ نصير الدَّوْلة النّاصح أبو طاهر[1] يومَ السَّبْت لثمانٍ خلونَ[2] من ذي الحجّةِ سنة ستٍّ وستّين وثلاثمائة[3].

---

(١) (نصير الدَّوْلة الناصح أبو طاهر) من ط فقط، وفي ما دونها: فلان بن فلان.

(٢) (يوم السبت لثمان خلون) ساقط في ط.

(٣) انظر تفصيلات هذه الأحداث عند مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤١٤ وما بعدها، وذكر في ص٤٢٢ ما وقع في ذي الحجة سنة ٣٦٦هـ.

وكَتَب عن الطّائع لله
إلى عَضُد الدَّوْلة بعد وقوع الوَحْشة بينه وبين عِزّ الدَّوْلة عند وُرود الخبر بمسير عِزّ الدَّوْلة متوجِّهاً إلى الأهْواز ماضياً للحرب في عساكره، وحصوله بأرَّجان دعاءً إلى السِّلْم، واستكْفافاً عن الحرب في سنة ستٍّ وستّين وثلاثمائة[1]

أما بعد، فإنّ أمير المؤمنين إذا احتاجَ في اسْتِصْلاحِ وَلِيٍّ من أوليائه، وصَفيٍّ من أصْفيائه، إلى إطالة قولٍ فيها ألانَ الغِلْظة، ولطّف القسوة، وذكّر بمُوجبات الحقّ

(١) طهران، والعنوان فيها: (وكتب في المعنى) عطفاً على الرسالة السابقة التي تحمل عنوان: (وكتب عن الطّائع لله إلى عَضُد الدَّوْلة يستصلحه لعِزّ الدَّوْلة)، فيض الله، راغب باشا، سيلي أوك (وفيها بعد الحرب: والله الهادي)، رئيس الكتّاب (وفيها: بمسير عَضُد الدَّوْلة بدل من عِزّ الدَّوْلة) خطأ. وانظر ص٣١٤، هامش (١).

في سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م توفي رُكْن الدَّوْلة، واستخلف على مملكته ابنه عَضُد الدَّوْلة؛ فتجهَّز وسار يطلب العراق لما كان يبلغه عن ابن عمه، بَخْتِيار عِزّ الدَّوْلة والوزير مُحمّد بن بَقيّة من استمالة أصحاب الأطراف كحَسْنُوَيْه بن الحسن الكُرْدي، وأبي تغلب الحمداني، وعمران بن شاهين؛ بالإضافة إلى أخيه فَخْر الدَّوْلة، فسار عِزّ الدَّوْلة إلى الأهواز، وتوجّه إليه عَضُد الدَّوْلة من فارس، فالتقيا، وانهزم عِزّ الدَّوْلة، وملك عَضُد الدَّوْلة منه البصرة، فبدأ عِزّ الدَّوْلة بمحاولة الصلح وإنهاء الخلاف، وراسل هو ووزيره مُحمّد بن بَقيّة الخليفة الطّائع لله يسألانه الانحدار إليهما في واسط فامتنع، وترددت بينهما المكاتبات، فقبل في نهاية الأمر رغبة في الصلح. انظر تفصيلات ذلك عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٤٥. وانظر كذلك: ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص٨٣.

والحُرْمةِ، ومُلزماتِ العَهْدِ والبَيْعة، وَجدَك ممّن يُسْتغنى فيه عن ذلك بالوثيق من دِينك، والصَّحيح من يَقينك، والوافر من حَزْمك، والرّاجح من حِلْمكَ، والمجتمع فيك من خِلال النَّجابة، وخِصال اللَّبابة؛ إذ كُنْتَ ترجع في الطّاعة والمشايعة، والتَّحصيل والمعرفة، إلى مَنْشأٍ كريم، وعرقٍ غير لئيم[1]، وقديمٍ متَّصلٍ بحديث، وتليدٍ[2] مشفوعٍ بطريف، فأميرُ المؤمنين يرى أنّ تعبَهُ فيما يحاوله من لَمّ شعثٍ ورَمّه، ورأب ثأيٍ ورَبّه، يقلّ معك من حيثُ يكثر مع غيرِكَ لهذهِ المناقبِ[3] التي لا يراها إلّا لك، وللشَّجَرةِ الطيبة التي منها مُرَكّبُك، وإليها منتسبُك، وهذا هو السَّبب الدّاعي إلى تخفيف التَّشديد[4]، وتنكّب التكثير في الأمر الذي كاتبَكَ فيه، وإنْ كان من الشؤون العظيمةِ المقتضية لاستفراغ القَوْلِ في استنفاذ الوُسْع والطَّوْقِ، وما يزيدك أمير المؤمنين علماً بما أحبَّهُ اللهُ – تعالى – للمسلمينَ جميعاً من الأُلْفةِ، وكَرِهه من الفُرْقة. وإنّه أمَر بتلك حَتْماً، ونهى عن هذه جَزْماً؛ هذا على أنْ لا اتّصال بينهم، إلّا الدِّين وحده. وأمّا إذا انْضافتْ إلى شَواجر[5] الرَّحمِ، ونوائط اللَّحم، فقد ضاعَفَ اللهُ توكيدها، وضيَّقَ العُذْر في الإخلال بها.

ولم يزلْ أمير المؤمنين مُذْ نَزَغ الشَّيْطانُ بينك وبين عِزّ الدَّوْلة أبي منصور – أيَّدكُما اللهُ – مغضوض الجفونِ على قذىً، منطوي الجوانح على أذىً، وَقيذاً من أنْ ينتقص نِعمَ اللهُ عنده فيكما، بتنافسٍ يقْدَحُ في نفاستكما، وتقاطعٍ يَعْترِضُ ذاتَ بيْنكما. وما ترك

---

(١) هذا ما في ط، ف. وفي ما دونها: عرق مجيد.

(٢) ف: وقديم، مكررة.

(٣) ط: للناقب.

(٤) هذا ما في ط، وفي ما دونها: التشبيب.

(٥) هذا ما في ط. وفي ما دونها: شواجن.

الاهتمام بذلك، والارتماض له، والقلق من أجْلهِ، والفِكْر فيه، إلى أن انتهى[١] إلى مُهاجَرة دارِه، ومُفارقةِ استقرارِه، ومَسيرِه في الأشْهر التي يَصوم بعضَها فريضةً، وبعضَها نافلةً، مع حَمارّة القَيْظِ وشدَّتِه، والحاجة إلى الاكتنان من سُمومه ووَقْدَتِه.

واعتقد أنْ يبتدئك بالدّعاء إلى أرْشدِ الطَّريقةِ، وأحسنِ الخليقة في الإيجاب له، والقَبُول منه، والتَّصرُّف على مُرادِه وإيثاره، والزَّوال عن جَوالب[٢] عَتْبِهِ وإنكاره، ولا سِيَّما وأنْتَ وعِزّ الدَّوْلة أبو[٣] منصور - أيّدكما الله - في الملاحاةِ التي خرجتما[٤] إليها، والوَحْشةِ التي ألمتما بها، بمرأىً ومسمعٍ من أباعدَ وأقاربَ، إنْ يكنْ منهم وليٌّ صديق، فقد سُؤْتماه وعقَقْتماه، أوعدوٌّ فقد كفيتماه وشفيتماه، وما يختارُ ذلك مثلكما ممّن تقدّمت قِدمتُهُ، وعَلَتْ منْزلتُهُ، وبَعُدَ صيتُهُ، ونبه[٥] ذكرُه. وظاهرُ ما بينكما ظاهرٌ أنتَ المحجوجُ فيه، لأنّه ما تطرّق لك عملاً، ولا أفْسد عليك أمْراً، ولا أوْدعك ثأراً، ولا حملك[٦] إلى ما أتيته سبيلاً.

وقد يجوز أنْ تكون بلاغاتُ المتهيّجين[٧] أهاجتك، وحكاياتُ المتسوِّقين أحْفظتَكَ، وإنْ تكنْ أنكرتَ من الصَّفاء تكدّراً، ومن الودِّ تغيّراً! فأين الاستعتاب

---

(١) ف: ينتهي.

(٢) ط: جوانب.

(٣) س: أبي.

(٤) هذا ما في ط، ف. وفي ما دونها: جريتما. والملاحاة: المخاصمة. ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٢٤٢ (لحا).

(٥) س: علا، ف: نبل.

(٦) هذا ما في ط، وفي ما دونها: أوجدك.

(٧) ف: المتنصحة.

بالحُسْنى، والاستعادة إلى الأولى، والأخذ بفضل مَن قدّمته السِّن والحِنْكة، وتحلّى بالثَّبات والمسْكة. وألّا كاتبْتَ أمير المؤمنين بما هَجَس في نفسِكَ، وخرجْتَ إليه بحَوْجاء صَدْرك، والتمسْتَ منه ما عساكَ أنْ تبلغه منه بالملاطفَةِ والموادعةِ، دونَ المخاشنةِ والمنازعةِ، والآن[1] فللطّاعة شعارٌ مِثلكَ مَن ادَّرعَهُ، وغيرك مَن نَزَعه.

وكتابُ أمير المؤمنين هذا، وهو وعزُّ دَوْلته أبو منصور - أمتعه الله بكما - لصُلْحكَ مُؤْثران، وعلى عَهْدِك محافظان، وما عليك بينهما خلافٌ في أثرةٍ تحبّ أنْ تحوزها، ورتبةٍ تَرومُ أنْ تفرَعَها، ورَدّ كلِّ رَسْمٍ كانت النَّبْوةُ أسقطتْهُ، والجَفْوةُ رفعتْهُ، وإعطائك خالصةَ الصَّدْر، وصادقة الوُدِّ، ما لم يقعْ اشتطاطٌ في طَلَب ما لا يمكنُ مثله، ولا تحتملُ[2] الأحْوال بذله، ممّا الأعود عليك منْهُ سُكونُ جأشك، واستراحة قَلْبك، وأُنْسِ القلوبِ بك، ورضا الله عنك، ودعاء أميرِ المؤمنين لك، وثناء المسلمين عليكَ، فتأمَّلْ كلامَ أمير المؤمنين وموعظتَهُ، وإرشادَه وهدايته، وأطعْ أمْرهُ في إخراج حَسيكة صدرِكَ، ودَفينة غلّك. وانْزل له عن كلِّ ما ركبتَ هذا المركب بسببِه، واعتض بحُسْنِ الأحدوثة عن جميعِ ما شرعتَ بطلبِهِ؛ فإنّكَ تحقن الدِّماء، وتسكن الدَّهْماء، وتطيع الإمامَ، وتصل الأرحام، وتأخذ بالوثيقة، وتَسْلُكُ مناهجَ أهلِ العَقْل[3] والفَضْل والحصافة.

ومتى خالفْتَ ذلك كنتَ بإزاءِ[4] الأضداد من هذه المساعي الصّالحةِ التي ترفع قَدْرَكَ إنْ تُعْرِضْ عليك فتأباها، وتدخل في جملةِ المذمومين ممّن صدف عنها وتعدّاها.

---

(١) ساقطة في ط.

(٢) ط: تحمد.

(٣) ط: العقد.

(٤) ط: باذّا.

وأجبْ أمير المؤمنين عن هذا الكتاب، فقد أنفذ به خادماً من دارِه، وهو منتظرٌ من أثره ما ينتظرُ ممّن حَسُن اختياره، وكَرُم نِجاره. ثم يتلوه من مُسْتأنف المكاتَبة، ومُسْتقبل المخاطبة والمراسلة ما ينتهي بإذْن الله إلى الغاية الحميدةِ، والخاتمةِ السَّديدةِ، فيجمعُ اللهُ - تعالى - به الشَّمْلَ، ويصِلُ الحبلَ، ويَرْتَقُ الفَتْقَ، ويرقع الخَرْقَ إنْ شاء الله.

والسَّلام عليك ورحمةُ الله وبركاته

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى عَضُد الدَّوْلة[1]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - من واسِط، لإحدى عشرة ليلة خَلَت من رجب - عظّم الله عليه بركته، وعرفه يُمْنه وسواده، ووفّر حظّه فيه من كلّ عملٍ صالح يُرضيه - والأخبارُ الواردة عليّ من حضرة مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - سارّة، وموادّ الصُّنْع إليه - أعز الله نصره - متّصلةٌ دارّة. وأنا كما يؤثر سَيِّدنا الملك في السَّلامة الشاملة، والنِّعْمة المتكاملة، والاكتنان في ظلّ الطّاعة، والاعتلاق بحَبْل المشايعة، والحمد لله، حَمْداً بادئاً عائداً، نامياً زائداً، قاضياً للحقّ، مؤدّياً للفرض.

ووَرَد فاذار بن يَزْد فيروز من حضرة مَوْلانا الملك بالجواب عمّا كنتُ أنفذتُه به، وأدّى معه الرسالة الجميلة اللّطيفة التي حمّلته - أيّده الله - إيّاها، وحَسُن منّي موقعها، وجَلّت النِّعْمة عندي فيها، وقابلتها بالواجب من شُكرها، واللّازم من التحدُّث بها،

---

(١) طهران.

حينما توفي رُكْن الدَّوْلة سنة ٣٦٦هـ تقررت الرئاسة من بين أولاده على عَضُد الدَّوْلة، واعترف له أخواه مُؤيِّد الدَّوْلة وفَخْر الدَّوْلة، وكُتب بذلك عهدٌ. وكان عِزّ الدَّوْلة بَخْتِيار سيء الظن، شديد الحذر مما يقدم له ولجنده من مكاشفة عَضُد الدَّوْلة، فهو يحب أن يصلح أمره معه فتتابع كتبه إلى رُكْن الدَّولة ويسأله أن يعصمه من الحال التي خافها، وأنفذ إليه عيسى بن الفضل صاحب دواته ووافق ذلك هذا الوقت الذي كنا فى ذكره من اجتماع الجماعة بأصبهان فتكلم رُكْن الدَّوْلة فى ذلك، وأظهر عَضُد الدَّوْلة فى الحال الإغضاء عنه، وشرط عليه أن يقلع عما يوحشه من بعد، ولا يعاود شيئا مما ذمّه منه فعلاً وقولاً. تفصيلات أكثر عند مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤١٠ وما بعدها.

ووجدتُه سالكاً في الفضل طريقاً قد خلّى له عنها، وأفرد عن الرُّفقاء فيها، وشاكلت رتبته السّامية، ومنزلته العالية، ومواهب الله - تعالى - المجموع عنده متفرِّقها، المتألّفة لديه أشتاتها، وازددتُ بصيرةً في طاعته، واغتباطاً بسياسته، ووثقتُ بأنّ فِعْلَه يُوافق قولَه، وباطنَه يلائم عالِنَه، وأحدث لي ذلك رأياً أرجو أنْ يُقارنه الصّواب، ويُصاحبه السَّداد، في تجديد هذه المكاتَبة، وبَسْط المفاوضة فيها والمناقشة، وإخراج مَن يضطلع بالمناب في مُتضمَّنها، وفي تأدية ما يتحمّله عنّي معها.

ووَقَع اختياري على الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى أيّده الله؛ لفضله في نفسه، ومحلّه منّا جميعاً، واتّفاقنا في الثقة به، والسُّكون إليه، ولمذهبٍ له معروف في حُسْن الوَساطة، والنّجح في السِّفارة، ولعلمه بأوّل ما بيننا وآخره، ومشاركته لنا في الإحاطة بأصله وفرعه؛ فكان في بقايا علّةٍ رفهته معها عن الحركة. وعدلتُ عنه إلى أبي سَهْل عيسى بن الفَضْل الدَّواتي[1] أيّده الله، وتقرّر عَزْمي على أنْ يكون هو النّافذ فيها، فتمادت الأيّام بخروجه إلى أنْ تماثل الشريف أبو أحمد - أيّده الله - وأمكنته الحركة.

ووافق ذلك وُرود كُتب من سَيِّدي الأمير فَخْر الدَّوْلة أبي الحسن - أدام الله تأييده - تاليةً لنظائر كثيرة سابقة لها، يسألني فيها التقدّم بنقل وَديعته - حرسها الله - إلى جنبته. ورَدّ أبي سَهْل إليه بهذا السّبب.

وقد كنتُ وعدتُه بإنْفاذه من واسِط، فعدتُ إلى تكليف الشريف - أيّده الله - الشّخوص عود المغتنم لإمكان ذلك له، والنّاص عليه، فسارع مُسارعةَ المنازع إلى حضرة مَوْلانا أطال الله بقاءه، المؤثر لتجديد العَهْد بها، وقضاء حقّ الخدمة فيها،

(١) في الأصل: الدواقي، والأصح ما أثبتناه، وهو من أهل طبرستان، كان صاحب دواة لعِزّ الدَّوْلة. انظر: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٩٠.

وضممتُ فاذار بن يَزْد فيروز إليه، ليكون معه عند اتّصال هذا الكتاب والتَّذكرة المضافة إليه، وما كتب به الوزير النّاصح نَصير[١] الدَّوْلة[٢] - أدام الله عزه - ممّا تقتضيه الخدمة لنا جميعاً أنْ تكشفه وتوضّحه، وتلخّصه وتشرحه، ويكون ساعياً منه فيما ألّف الشّمل، ووَصَل الحبل، وأمِن من الفرقة، وعَصَم من الوحشة، وأوّل ما أقوله - أيّد الله مَوْلانا الملك - إنّ الحقوق بيننا حقيقة بأنْ تُحفظ ولا تُضاع، ويُشترى بقاؤها ولا تُباع، وأنْ تكون عنايتنا برَبّ الأصول أكثر منها برَبّ الفروع. ولستُ أورد في ذلك قولاً إلّا وهو - أيّده الله - به أعرف، وإليه أسبق، وقدره يجلّ عن أنْ أُخاطبه مخاطبة المرشد، وأسلك معه سَبيل الموقف المسدِّد، لأخذه بجميع الفَضائل، وإحاطته بسائر المناقب، واهتدائه من ذلك إلى ما أحتاج أنْ آخذه عنه، وأقتبسه منه. ولكن أُذكِّره بقليل ما عندي كثيرَ ما عنده، وأستثير بيَسير ما لديّ غزيرَ ما لديه. وقوامُ أمرنا كلّه التّعاضُد الذي يُقذي من الأعداء عُيونهم، ويرغم أنوفَهم، ويكذّب ظُنونَهم، ويخيّب أمانيّهم. وما كنّا في وقتٍ من الأوقات أحوج منّا في هذا الوقت إليه، ولا ينبغي لنا على تصرُّف الحالات أنْ نفارقه، ولا أنْ نخلّ به.

ثم إنّه بما مدّه الله يعلم أنّ الأسباب التي حصلت عنها الشكوك، وأدّتنا إلى هذه المكاتبات ليس منها شيءٌ عليّ فيه جَريرة أطالب بأرشها، ولا حجّةٌ أؤخذ بها، ولا يعود عليّ لوْمٌ في أوّلِ منها ولا آخر، ولا باطنٍ ولا ظاهر، وما ضايقتُ مَوْلانا - أطال الله بقاءه - في منزلته[٣]، ولا نافستُه في محلّته، ولا طلبتُ على إعطائي هذه المقادة من نفسي ثمناً منه، ولا إقطاعاً من بلاده، ولا تعرّضتُ لاعتنائه بالمسألة والاجتداء، ولا الثلمة

(١) في الأصل: نصر.

(٢) هو محُمّد بن بقيّة.

(٣) في الأصل: منزلة، والأرجح ما أثبتناه، لتنسجم مع السجع (منزلته - محلته).

بالتسلُّط والاعتداء، بل جنباته مَوْفورة، وحُدوده متحاماة، وأموالُه مرفّهة، والطّاعة له مبذولة؛ وليس ها هنا غير دفعٍ عن حريم لا يمكن الصّبر على تطرُّفه، ولا الإغضاء على انتهاكه وتحيُّفه. ولا بد من أنْ يستوي في هذا الذبّ البعيدُ والقريب، والغريبُ والنسيب. وبالله أنني لأحبُّ أنْ أحميه، وأكرهُ أنْ أحميه منه، وإنّ من أعظم المصائب عندي أنْ أحصّنه منه ولا أحصّنه له. وهذا مقامٌ أسألُ الله أنْ يكفينيه فسيّان في نفسي قمته غالباً أو مغلوباً، وظاهراً أو مستظهَراً عليّ.

والذي يستخلص الحال من شوائبها وأقذائها، ويستعيدها إلى المعهود من تهذُّبها وصفائها، هو ما تضمّنه كتاب الوزير النّاصح نَصير[١] الدَّوْلة[٢]، وتحمّل الرسالة فيه والتَّذكرة به الشريف أبو أحمد - أيّده الله - ممّا إذا ثبت بيننا عماده، وأرسيت أوتاده نقلنا جميعاً عن الشّكّ إلى اليقين، وأخرجنا عن الارتياب إلى السُّكون وكنتُ حينئذٍ عندما ينزلنيه نازلاً، وعلى ما يرسمه لي متصرّفاً، وبشعاره معلناً، ولولائه مظهراً مبطناً، واستمرت له هذه الطّاعة على جماعة السّادة أهل هذا البيت - أدام الله نعماءهم - بالخالص من ضَمائرهم، والصّادق من سَرائرهم، فليس منّي ولا منهم مَن ينقض[٣] مع الوفاء بالعُهود، ولا مَن يصبر على التعرّض للحدود.

وقد كتبتُ منذ أيّام إلى سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة أبي منصور - أطال الله بقاءه - في ذلك بما عساه أنْ يكون أنفذه بعينه، أو كتب باقتصاصه، ولستُ أستنكف - مع عظيم ما أنعم به عليّ، وأزلّه من مَواهبه إليّ - أنْ أسلك مع مَوْلانا سبيل الخافض للجناح، الدّائب في الاستصلاح، بالمكاتَبة له، والاستعانة عليه، والاجتهاد الذي

---

(١) في الأصل: نصر.

(٢) هو: محمّد بن بقيّة.

(٣) في الأصل: ينفر.

يوجب لي من الله - تعالى - المعونة، ويؤمنني من النّاس الملامة. فإنْ رأى مَوْلانا الملك - أطال الله بقاءه - أنْ يتأمّل ذلك حقّ تأمُّله، ويقابله بما هو أهله، ويجعلني على علمٍ بما عنده فيه؛ لأعتقد مثله، وأحتذي نهجه، فَعَل إنْ شاء الله تعالى.

وكَتَب عن عِزِّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة(١)

كتابي -أطال الله بقاء مَوْلانا المَلِكِ- وأخبارُ السَّلامة من حَضْرة مَوْلانا أمير المؤمنين مُتواترة، والكتُبُ بأوامرِه ونَواهيه العالية متَواليةٌ ممتَثلة، وأحوالُ خدمتِهِ جاريةٌ على ما عوَّدَ الله عزّ وجلّ من سَدادِها، وعُرِفَ من اطرادِها، وأنا -كما يُحبُّ مَوْلانا المَلِكُ- في سُبوغ النِّعَم عليَّ، ودُرُورِ مَوادِّها إليَّ، والحمدُ لله.

وكان وُرودي -أيّد الله مَوْلانا- هذا البَلَدَ في أوَّلِ شهرِنا، وكفايةُ الله - تبارَك وتعالى - تشمَلُني، ووقايتُه تُظِلُّني، والصُّنعُ منهُ -جلّ وعزّ- مُتأتٍّ لي يَقْفو بعَضُه بَعضاً، ويَشفَعُ آخِرٌ منهُ أوَّلاً، وذلك زائدٌ في إيجابِ الشكرِ، أنْهَضنا الله به ووَفَّقنا لتأديةِ الحقّ فيه.

وألفَيْتُ في هذا الموضِع فاذار العائدَ من حَضْرة مَوْلانا، فأوْصَلَ جوابَ الكتابِ الذي كان نفَذَ به، وأضافَ إليه تأدِيَةَ الرِّسالة بالجميلِ الذي هو أهلُهُ، ووَرَد عليّ منها ما سرَّني وأبهَجَني، وجَلَّتِ الموهبةُ منهُ لي، ووجَدْتُهُ قد نَهَجَ نهجاً للصّلاحِ يَلزَمُني أنْ أُساعدَهُ على سُلوكِهِ، وأكونَ معه في احتذائِهِ، وأنْ تنتهيَ -في التقريراتِ- إلى الغاية المُسكِّنَةِ للنفوسِ المُريحةِ من الشُّكوكِ، العائدةِ بشمولِ النظام، وعمومِ الالتئام.

فنَدَبْتُ للشُّخوصِ إلى حَضْرة مَوْلانا عبدَهُ وثقتي أبا سَهْل الدَّواتيَّ لِدَواعٍ دَعَتْ إليه، واقتضَتِ النصَّ في ذلك عليه، أوَّلُها: لُطفُ منزلةٍ له منّي، وسابقَةٌ في خدمتي، ثم عِلْمُه بِسِياقةِ ما بيننا، واهتداؤهُ إلى السَّعْي لتأليفِ شَمْلِنا، ثم ثناؤه على مَوْلانا، وشُكرُه

(١) ليدن. (العنوان في الأصل: وعنه إلى عَضُد الدَّوْلة).

إقبالَهُ عليه أيّام الاجتماعِ بأصْبَهان، واعتقادي فيه -مع هذه الأسبابِ- أنّه أحقُّ مَن خَدَمنا، وأُونس رشده للقيامِ بها.

وكتَبْتُ، وكتبَ الوزير على يده بما هو سائرٌ به، ومُورِدٌ بإذنِ الله لهُ، والذي جدَّدَتْهُ طاعَةُ مَوْلانا في مطالبِهِ ومَراسمِهِ التي حَكَى فاذار أنّه -أيّده الله- فاوَضَهُ إيّاها وخَرجَ إليه بها، وأنْ يُقَرِّرَ معه أصولاً لذلك وشروطاً يقِفُ عند حُدُودِها، ويُوقِّعُ المواثيقَ بيننا عليها. وأخرَجْتُ فاذار معه لهذه العِلَّةِ، ورأيتُ تقديمَ كتابي هذا ليَعلَمَ منهُ مَوْلانا الصورةَ، ويزيدَ في أيادِيه عندي بإنْفاذ مَن يُراعي أبا سَهْل إذا دخَلَ في حُدودِ أعمالِهِ ليؤنسَهُ في طريقهِ، ويمنَعَ من احتباسِهِ وتَعْويقهِ، ومَوْلانا الملِكُ أعلى عيناً وما يَراهُ في ذلك، إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى الملك عَضُد الدَّوْلة بعد الوَقْعة[١]

كتابي – أطال الله بقاء مَوْلانا – منذ تجلّت الغِشاوة عن بَصَري، وتكشّفَت الغَياية عن بَصيرتي، ووفّقني الله للتَّوْبة من مُخالفته، وهَداني إلى الواجب من طاعته، بما أرجو أنْ يكون نَفَعني ووَقَع منّي موقع إرادتي. ولا أقول: أرجو، بل أثق وأتيقّن، وأسكن وأتحقّق، إذ كان – أدام الله علوَّهُ – أكرم نِجاراً، وأعلى منصباً وفخاراً، وَأَسْجَحَ خلقاً، وأرجح شَرَفاً وحِلْماً، من أنْ يتعَذّرَ غفرانُه على المُستَغْفِرين، أو يبعدَ مَرامُه على الرّائمين، ولا سِيَّما مَن أطّت به شَواجرُ الأرحام، وجمعتُه وإيّاه ولادةُ الأسلاف الكرام.

و[٢]وَرَد بعد ذلك الشريف أبو أحمد الحسين بن مُوسى[٣] بجَواب ما كان تحمّله عني؛ فشكرتُ ضُروبَ ما كان فيه من المِنَن عليّ، وكان ما ظهرَ من بين مَعاطفه وسُرعة إيالته مشاكلاً لنِعَم الله الكثيرة العَدَد، المتّصلة المَدَد، التي ما وَضَعها[٤] الله – جلّ وعزّ – منه إلّا عند المُستوجِب لها، النّاهض بشكرها، الحقيق بأنْ يطمئن عنده مَقدورها، ويَطُول لديه مكثها.

وسَمَعتُ من أبي سَعْد – أيّده الله – ما رسم أداؤه إليّ، وتلقّيتُه بالامتثال المعرض عليّ، وكنتُ في استئنافي ما استأنفتُه، وإقْلاعي عما أقلعت عنه، بمنزلة مَن هَبّ من رَقْدته، وأفاق من غَمْرته، وانتعش من صَرْعته، واستقلّ من عَثْرته؛ ورَددتُها بالجواب

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) الواو من: ر فقط.

(٣) تقدّم التعريف به، ص٢١٤.

(٤) ر: وعد.

الذي يؤيّدانه، والعُذر الذي يمهّدانه، بالسّمع والطّاعة اللذين ما حمدتُ مفارقتهما، وأحمَد إنْ شاء الله العَوْدَ إليهما وملازمتهما.

وكلّ ما عَقَده الشريف أبو أحمد عليّ لمَوْلانا فقد أمضيتُه[1]، وكُلّ ما عقده لي فقد قبلتُه. وما أحتاج الآن مع خَلْعي جلباب الإصْرار والخلاف، ولباسي شعار الإقرار والاعتراف، إلى إحالةٍ على مَوْلانا فيما أحاول من عطفه، وأستلين[2] من قلبه، وأخطب من استنابته واستخدامه، وأبتغي من طَوله وإنعامه.

وقد كنتُ قدّمتُ قَوْلاً في الكتب السّالفة قرنتُه باليمين الغَموس الصّادقة، أنني ما كنتُ في ذلك الغلط مُصرّاً على اختياري، ولا سالكاً سَبيل رأيي، لكن مُجبَراً مَقْهوراً، ومستكرهاً مَقْسوراً. ووالله إنني إلى وقتي هذا أعالجُ شدّةً في الانسلال إلى طاعته، والتمسّك بحَبل وَلايته، والغرض[3] في ذلك لبادرة الفتنة ممّن لَبسُوا عليها بما ليسوا له بمؤمنين، ولا من أثارتها مُبْعدين[4]. وإذا مدّ عليّ ظلاً من تدبيره وكِنافته، وألبَسَني جُنّةً من إشفاقه وإيالِته، كنتُ أعزّ عزاً مني في الاستبداد، وأحمَى جانباً من الانفراد. ولعلّ فيما لحقني وإنْ كان ظاهرهُ ظاهرَ ثَلْمٍ مُمضّ، وثرمٍ[5] مُرْمض، مصالح محتجَبَة من ورائه، ومرحمة مستَتَرة[6] في أثنائه، فأخرج من ضَغْطة هذه الأمور المنتشرة التي ما تهنأتُ عيشاً بها منذ اعتنقتها في نعمةٍ منه استفسحتُها، واستطبتُ الحياة فيها، ومَوْلانا الملك السَّيِّد

---

(١) (فقد أمضيته) من ر فقط.

(٢) ر: أستكين.

(٣) كذا في الأصول الخطية.

(٤) ر: ببعيدين.

(٥) ر: ثلم.

(٦) ف، ع: متسترة. ر: مستسرة.

أعلى عيناً وما يراه في تأمّل هذا الكتاب، وما يُوردُه معه الشريف أبو أحمد - أيّده الله - مقبلاً عليه، ومُصغياً إليه، والتقدّم بتعجيل إجابةٍ عنه، وعمّا تقدّمه أُسَرُّ بها، وأعلقُ ومَن يَلَيني من الأهل والوَلَدِ والحُرَم بذمّتها، والنظر لي بما ينظر لمن مسّه سَبَبُه، وقرب منه منتسبُه، وانتقلت إليه نعمتُه، وحصلت عنده مؤنته إنْ شاء الله.

وله فصل[١]

وعرّفناك - أيّدك الله - مسيرتنا، واجتماع مَن اجتمع من العساكر معنا، وتَوافي النّاس إلى خدمتنا ومضامّتنا، ناظرين لنُفوسهم، ومُطيعين لسُلْطانهم، وجامعين حُظوظ دِينهم ودُنياهم، وبعثناك على إنجاز وَعْدك في الحقوق والنُّهوض، إذ كنتَ الشيخ الخطير، والعَوْن الأثير، والعُدّة النَّفيسة، والعُقْدة الوثيقة، ومَن قد غرس الله له عندنا غَرْس المودّة، ووَشَج بيننا وبينه أسباب الأُلفة؛ وصار شريكاً لنا في النِّعْمة، وآخذاً معنا بأوفر قسطٍ من الدَّوْلة، ولابساً للجمال والفخر، وحائزاً للصِّيت والذكر، وراجعاً إلى العِصْمة بأمير المؤمنين وبنا، والتحقُّق بأيّامه وأيّامنا، والكون في هذه الجملة التي الخير والسَّلامة مَوْجودان فيها، والخِبّ[٢] والخديعة مأمونان منها، ولا حُجّة إلّا لمن تعصّب لها، ومانَع عنها، دون مَن فارقها وتحزّب عليها. وذلك بعد كُتُبٍ سَلَفت ذكرنا فيها صحّة الأخبار بمَسير مَن سار إلى أرَّجان، وحضور الوقت الذي يجب أنْ تقع فيه الحركة للاجتماع على دَفْع مُخالفي أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - ومُنابذيه.

ولما كان هذا اليوم أحضرنا فلان كتابك المؤرَّخ بيوم كذا، مُشتملاً على ما يشبه دينك وفَضْلك، ويليق بديانتك ونُبْلك من ذكرٍ للرّسالة الواردة عليك، ممّن رأْيُه فيك أسوأ من رأيه فينا، واعتقادُه في نعمتك شرٌّ من اعتقاده في نعمتنا، وما تلقَّيتَها به من الردّ والكرامة، والإباء والمخالفة، والإعلان بشعار أمير المؤمنين، والاكتنان في ظلّه، والمراماة عنّا، والمحافظة علينا، وحفظ ما جمعنا وإيّاك من الحقوق، واستحكم بيننا

(١) طهران.

(٢) الخِبّ: الخداع والخبث والغش. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٣٤١ (خبب).

وبينك من العُهود، وأنّك سائرٌ في عسكرك وأحيائك إلى الصَّيْمَرة[(١)]، وعازمٌ على أنْ تكون في أول المقدمة، .... [(٢)] عنه في ذلك من الحِنكة التي اكتسبتَها، والتّجربة التي أصارَتْك السِّنُّ إليها، وأنّك باذلٌ لنا رأيك وعَوْنك في .... [(٣)] وآلاتك واجتهادك وسَعْيك، فوقع جميعُ ذلك منّا أجلّ مَواقعه، ونزل عندنا أشرف مَنازله، وأشعناه من مشيخة عساكرنا، وجماهير قُوّادنا وخَواصّنا وغِلْماننا من الدَّيْلَم والجيل والأتراك، وشكروا جميعاً سَعْيك، ووثقوا بضَمانك وقَوْلك، وازدادوا بتجديد تَكْرِمة لأبي الفرج - أعزه الله - والرّسول الوارد بكتابك عليه، وأنهينا إلى مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - الجملة من مُتضمَّن الكتاب، فتضاعف إحْمادُه لك، واستحكمت بَصيرتُه فيك، ودعا لك بما يدعوا به الأئمّة لمن حامى عزّ الدِّين، وذبّ عن الحريم. وحقيقٌ على الله - تعالى - أنْ يسمع ويجيب إذ كانت الدّعوة صَدَرت عن خليفته في أرضه، وحُجّته على خَلْقه، وأثنينا عليك الثَّناء الذي تستحقّه، وقرّظناك التّقريظ الذي تستوجبه، واعتقدنا من تمكينك، والتّمهيد لك، ومُشاطرتك النِّعْمة، ومُناصفتك الدَّوْلة، ما قد جعله الله تعالى لك واجباً، ولنا لازماً.

فأمّا المشورة بتألّف عسكر الأتراك، فما بصَواب الرأي في ذلك خَفاء، وما كنّا لنتركه ولا نؤخّره. وقد بلغنا فيه المبلغ الكافي الشافي، والجماعة على أفضل ما عُرف وعُهد منها: قُوّةً وعُدّةً، وشدّةً ونَجْدة، ومُحاماة عن مَواليها، ومُراماة عن نِعَمها. وإذا

---

(١) الصَّيْمَرة اسمٌ لموضعين، أحدهما بالبصرة على فم نهر معقل وهو عدة قرى. والآخر بلدٌ ببلاد الجبل ويُسمى مهرجا نقذق. ابن الفقيه، البلدان، ص٤١٧؛ ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٤٣٩. ولعلّ الثاني هو المقصود هنا.

(٢) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: وبالنبات.

(٣) كلمة غير مقروءة.

سَهّل الله وُرودك، كنتَ الثقةَ الأمين، المرجوعَ إليه، المعوَّل على قوله، المأخوذ برأيه، المؤتمّ بتدبيره، إنْ شاء الله.

وأمّا إنكارُك تأخّر كُتبنا عنك بما صحّ من الخبر، وعملتَ عليه من المسير، فما أخّرنا ذلك، وقد كتبنا فيه كُتباً متتابعة، نرجوا أنْ تكون وَصَلت بعد صدر كتابك. وهل كان يجوز أنْ نطوي عنك سِرّاً، أو نكتمك حالاً، وأنت أكبر العدد لها، وأنفع الذخائر فيها! إلّا أنّ كتابك دَلّ على أنّك تتشاغل عن المسير أيّاماً، وليس تحتمل الحال ذاك، لأن الأمر جدّ، والمسافة بين الفريقين[1] قريبة، والمناجزة وشيكة، ونحن نسألك ونتحكّم عليك، ونُلزمك المبادرة، وتَرْك التأخّر، وأنْ تتعجّل ولا تتلوّم، ليجعل الله لك في هذا الأمر سابقةَ القدم، وباديةَ الأثر، وتضرب معنا فيه بأوفر السِّهام، وتأخذ منه بأجزل الأقسام. فرأيك - أدام الله عزك - في تأمُّل ما كاتَبْناك به، والعمل بحسبه، ما اقتضاه من ابتدائك وبَذْلك، وجميل قولك وفعلك. فإنّا أصدرنا هذا الكتاب من الطّريق، ونحن سائرون مُغذّون، وعلى الله مُتوكّلون مُعتمدون، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) في الأصل: الفيقين، الثالث غير منقوط.

وكَتَب إلى عَضُد الدَّوْلة عن مُحمّد بن بَقيّة[١]

شَرِيْطَةُ الحليم الكريم - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك السَّيِّد الأجلّ المنصور عَضُد الدَّوْلة - أنْ يصعُب إغضابه، ويسهل إرضاؤه، ويتراخى المدى[٢] إلى سَخطه، ويَقرب المتناول لعطفه. وتلك صفةٌ من صفاته، وواحدةٌ من مَناقبه الكثيرة الغزيرة التي لا تتجاور إلّا عنده، ولا تتكامل إلّا له.

وقد كتبتُ قبل هذا الكتاب بما أرجو وُصولَه، ووُقوعَه موقعَه، وأنا ذلك العبدُ الذي افتتحتُ الخدمةَ له - أيّده الله - بالرغبة، ثم عَدَلْتُ[٣] عنها للرهبة. وها أنا عائدٌ إليها عَوْدَ مَن عَرَف فَضْلها، واستطاب ظِلَّها، ولم يحمد مُفارقتها، ولا استوفق مجانبتها. والسيّئةُ إذا جُعلت بين حَسَنَتَيْن كانت مغمورةً مغفورة، وأخلق بمَن استوطأ مَركب الطّاعة، واستَوْعر مَسْلك المباينة، وجَنح إلى الاعتراف والإقرار، ونَزَع عن التّمادي والإصرار أنْ تكونَ توبتُه[٤] مقبولة، وإنابتُه صَحيحةً غير مَعْلولة، وأنْ يتصَرّف بين الأمر والنهي تصرُّفَ القارح المحتنك، لا الجذع المتهوّك، والمتأمّل المتحذّر لا المخاطر المغرر. وشَتّان - أطال الله بقاء مَوْلانا - بين المتورّط النّاصر لتورّطِه، وبين النّازع الرّاجع عن غلطه، وإذا حَسُنَ الانتقام من الجاني مرّةً من الزّمان، حَسُن العفو عنه في كُلِّ حينٍ وأوان. وأُعيذُ مَوْلانا بالله من أنْ يغلُظ وقد لُوطف، أو يَقْسُو وقد استُعطف،

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) من: ر.

(٣) ف: عللت.

(٤) من: ر.

خاصّةً والمنازلُ متباعدةٌ، والغاياتُ مُتطارِقةٌ. وإنما أنا واحدٌ من عَبيده الذين لا يَزيدُ في فَضْله أنْ يُعاقبهم، ويزيدُ فيه أنْ يَصْفَحَ عنهم.

وقد شكرتُ المقدار الذي عَرَّفَنيه الشريف أبو أحمد - أيّده الله - من تطوّله، وقوي أملي أنْ يتناهى إلى أقصى غاياته، حتى يبلغ الحدَّ الكافي في الثقة، والنّافي لبقايا الوَحشة. ووَجدتُ من مفاوضة أبي سَعْد - أيّده الله - ومطاولته[1] فرصةً طالما اشتقتُ إليها، وتطلّعتُ إلى إمكان مثلها، وسمعا مني شتّى وفُرادى ما هُما مُؤدّيان الأمانة في إعادته عني، وتقريره وتمهيده لي. فإنْ رأى مَوْلانا الملك - أطال الله بقاءه - أنْ يتأمّل ما سَطّره بَناني، ونَطَق به لِساني، تأمُّلَ الرّاعي لسالف خدمتي، المتجاوز لحادث جَريرتي، المُعِين لي على سَوْرة غَيْظه حتى تبرُد، وفَوْرة غَضَبه حتى تخمُد، ويستأنف لي من مَلابس نعمائه، وسَوابغ آلائه، ما استأنف التمسُّك وحُسْن المصاحبة له. فَعَل إنْ شاء الله.

(١) ف، ع: ومطالعته.

وكَتَب إلى الملك عَضُد الدَّوْلة أيضاً عن مُحمّد بن بَقيّة[1]

مَوْلانا الملك السَّيِّد الأجلّ المنصور وَليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - أعْدَلُ وأنْصَف، وأعْلى وأشْرف من أنْ يقيمَ في أمري على الانحراف، ويذكرني بما يُذكر به أهلُ الخلاف، وقد جَعَلني الله تابعاً لمن يتبعُه، وخادماً لمن يَخدُمُه، ولي من سابق الذِّمام أولاً، ومن الجنوحِ إلى الاستصْلاح والاستصْفاح أخيراً، حَقّان إنْ دَخل بينهما ذنبٌ[2] عَصَياه[3]، أو غلطٌ عَفّياه.

ووَالله ما اعتمدتُ منكراً، ولا قبيحاً، وليسَ كلّ ما رُقي إليه عني صَحيحاً، ومثله - أدام الله عِزّه - لا يقابَل بالاحتجاج والمناقضة، ولا يُستعمَل معه المراجعة والمعارضة، لأن ذلك إنما يقع بين الأقران والمقاربين. وأمّا بين السَّيِّد وعبده، والرقيق ومُشْتريه، فالإقرار عنده بالباطل أولى من المجادلة له بالحقّ، ومع ذلك فلستُ أخلو فيما أُوردُهُ لو أورَدْت، وما أفصحُ به عن نَفْسي لو أفصَحْت، من أنْ أكُون صادقاً أو مُمَوّهاً، فإنْ صَدَقتُ وبَرّرتُ فالحقّ يَسعُني، وإنْ لبّستُ وموّهتُ، فالحِلْم يغمرني.

وأنا - أطال الله بقاء مَوْلانا - ذلك المنتسب للصَّنيعة، الحافظ الوديعة، العارف بقدر ما عُومل به المقرّ بما أزل إليه، النّازع عما أنكرَ منهُ، اللّائذ بطلب العَفو عنه. وقد

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب.

(٢) من: ر فقط.

(٣) في الأصول: معصاه، ولعلّ الأرجح ما أثبتناه.

عُصيَ الله ثم أُطيع، وكُذِّب الرّسلُ - عليهم السَّلام - ثم صُدّقوا، وأخطأ الأصاغر ثم استقالوا، وأعرض الأكابر ثم أقبلوا، وسَبَقت الجَرائر ممّن ليس ذنبه بأيسر من ذنوبنا فاغتفرها مَن ليس بأكرم ولا أعظم من مَوْلانا. فإنْ رأى مَوْلانا الملك أنْ يجعَلني ممّن رفعه إلى نَيْل مغفرته، أو ارتفع عن تبعته ومعاقبته، ويصل قديم ما أحسن فيه إليّ بِحادِثه، وسالِفه بمُستأنفه، ويؤهّلني لجوابٍ يَفْرحُ له رَوْعي، ويطمئنّ فيه جَناني، ويُعيدني في الخدمة إلى رَسْمي، وتتظاهر فيه المِنّة عليَّ، فَعَل إنْ شاء الله.

لما فتح أبو الفضل العَبّاس بن الحسين الشِّيرازي في وزارته الأولى البصرة كَتَب إليه أبو الخطّاب المفضّل بن ثابت الصّابي وهو يخلف إذ ذاك أبا إسحاق عن عِزّ الدَّوْلة ما هذه نسخته[1]:

وَصَل كتابُك[2] – أدام الله عزك – تذكر فيه ما كان منك من المحاماة عن دَوْلتك،

(١) طهران، وأورد نصها المواعيني، ريحان الألباب، ورقة ٧٨. (في وزارته الأولى) من المواعيني، والعنوان عنده: ولما فتح أبو الفضل العَبّاس بن الحسن (كذا) الشّيرازي في وزارته الأولى البصرة كتب بجملة ذلك وورد عليه الجواب من بختيلي (كذا ويقصد بختيار) أمير الجيوش بإنشاء أبي الخطّاب.

في سنة ٣٥٧هـ عصى حبشي بن مُعِزّ الدَّوْلة على أخيه بختيار عِزّ الدَّوْلة، وكان بالبصرة لما مات والدهما مُعِزّ الدَّوْلة، فحسّن له بعض مستشاريه الاستبداد بالبصرة، وأطمعوه بها، وسهلوا له ذلك، مقدرين أن عِزّ الدَّوْلة لا يستطيع قصد البصرة؛ فلما وصل الخبر إلى عِزّ الدَّوْلة سيّر وزيره أبا الفضل الشِّيرازي إليه، فأظهر الوزير أنه يريد الانحدار إلى الأحواز (الأهواز)، ولما بلغ واسط أقام بها، وكتب إلى حبشي يعده أنه يسلم إليه البصرة سلماً، ويصالحه عليها، ويقول له: إنني قد لزمني مال على الوزارة، ولا بد من مساعدتي، فأنفذ إليه حبشي مائتي ألف درهم، وتيقّن حصول البصرة له، وأرسل الوزير إلى عسكر الأحواز يأمرهم بقصد الأُبُلّة في يوم ذكره لهم، وسار هو من واسط نحو البصرة، فوصلها هو وعسكر الأحواز لميعادهم، فلم يتمكن حبشي من إصلاح شأنه وما يحتاج إليه؛ فظفروا به وأخذوه أسيراً وحبسوه برامهرمز، فأرسل عمه ركن الدولة وخلصه، فسار إلى عَضُد الدَّوْلة، فأقطعه إقطاعاً وافراً، وأقام بسابور من كور فارس إلى أن مات في آخر سنة ٣٦٩هـ. تفصيل ذلك عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٢٨١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٧٤.

(٢) ريحان الألباب: كتابك المبهج.

والمراماة من نِعْمتك، والذّبّ عن المُلْك الذي هو لك، وجَمْع الشَّمْل الذي نظمه الله تعالى ببركتك، وفهمناه. ووقفنا على ما أولى الله تعالى منك[١] بيُمْن نقيبتك، ويسّره بحُسْن نيابتك[٢]، وفتحه على يدك، وأصلحه بنظرك، وشكرنا ما[٣] بذلته – أيّدك الله – من الجهد، واستنفذته[٤] من الوسع، واعتددنا[٥] بمخاطرتك بالنفس التي هي أنفس عددنا[٦]، وتعريضك إيّاها للمخوف في طاعتنا. ووَجَدْناك – أيّدك الله – قد كفيتَ وأوفيت، ونُبْتَ وأغنيت، وحَقَّقْتَ الظنّ بك، وصدَّقْتَ المخيلة فيك، وقمتَ المقام الكريم، ورَتَقْتَ الفَتْق العظيم، ووفيتَ حين خان العضد، وصَلُحْتَ حين فَسَدت العُدد، ووَجَدْتَ إذ صارت الذخيرة نابية[٧]، ونهضتَ لما استحالت المنحةُ محنة. فإذا أحسن الله جزاء وَليٍّ صالح، وظهيرٍ ناصح، وعون مشارك[٨]، وساعٍ مُبارك؛ فأحسن الله عن جميل المؤازرة، وصادق المكانفة جزاءك، وأعان على تأدية[٩] حقّك الذي هو فوق كلّ حقّ، ووفّق بجزائك الذي يتجاوز كلّ حدّ؛ فقد كنتَ – أدام الله عزك – وجه أوليائنا، وعين كُفاتنا[١٠]، وأنت الآن[١١] واحد الحامّة[١٢]، وشيخُ الأهل، والمستردُّ لهذه

---

(١) من ريحان الألباب.

(٢) ريحان الألباب: نيتك.

(٣) ريحان الألباب: ونشكر فأما.

(٤) من ريحان الألباب.

(٥) ريحان الألباب: اعتدنا.

(٦) ريحان الألباب: عدداً.

(٧) ريحان الألباب: ثائبة.

(٨) ريحان الألباب: وعوين مشاوك.

(٩) ساقطة في ريحان الألباب.

(١٠) ريحان الألباب: أكفائنا.

(١١) ريحان الألباب: اليوم.

(١٢) الحامّة: العامّة. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٥٣ (حمم).

الدَّوْلة المباركة، بعد أنْ أعضل[١] وَجْه شفائها، وذوى[٢] أوْسَط أعضائها.

ووقفنا على ما ذكرتَه – أدام الله عزك – وعملتَه، ووَجَدْنا التوفيق قد صَحِبَه، والسَّداد قد شَمِله، والرُّشْد قد عَضَده، والعِصْمة قد كَنَفته. وحقيقٌ بمَن[٣] كان الله – عز وجل – سَعْيُه، وعن الحقّ دَفْعُه، وفي الدِّين اجتهادُه، وللصَّلاح قَصْدُه، أنْ يقيِّض الله له من أسباب الإصابة، وطرق الهداية، ما يحرس رأيه من الزَّلَل، وتدبيره من الخَلَل، ويجعله أبداً مباركاً ميموناً، مُظفَّراً منصوراً[٤]، سَعيد الجدّ، عالي اليَد، نافذ المكيدة، حَميد العاقبة. والله يُديم ذلك لك، ويُضاعف مَواهبه عندك[٥].

وعَرَفْنا ما ذكرتَه – أدام الله عزك – من اجتهادك، واجتهاد أبي العَبّاس – أيّده الله – والقُوّاد المضمومين إليك – أعزهم الله – وبعثت عليه من الزيادة في الإحسان إليهم، ومُضاعفة الإنعام عليهم. وهؤلاء القوم ثِقاتنا وعُددنا، ومَن لا نشكّ في مُوالاتهم، ولا نرتاب في نصيحتهم. وقد وَقع ما كان منهم في خدمتنا بحضرتك مَوْقعه، واعتقدنا لهم بخطابك زيادةً على ما كنّا نعتقده، والله يُعين على ذلك بمَنِّه.

ووقفنا على ما وصفتَه – أدام الله عزك – عن الخواصّ المنحدرين عن الحضرة، والمنجذبين من الأهواز، والنقباء والأتراك، ورجال القُوّاد والغِلْمان البغداديين والأُبُلّيين من تمام الخدمة والتجريد فيها، وخصصتَ عليه من الزيادة لهم في الثقة

---

(١) ريحان الألباب: أعظل.

(٢) ريحان الألباب: وودي.

(٣) ريحان الألباب: من.

(٤) من ريحان الألباب.

(٥) بعدها في ريحان الألباب: بمنّه. وبها تنتهي الرسالة. وعلّق المواعيني بعدها: وأبو الخطاب هذا وعبد الحميد قبله أول من بسط الخطابة ورتب الكتابة.

والاستنامة، ومقابلتهم على الاجتهاد والنصيحة؛ ووقع لهم عندنا أجمل المواقع. ونحن نعمل في أمورهم على رأيك بإذن الله ومشيئته.

وقد كتبتُ إلى الجماعة بما تأمر – أدام الله عزك – بإيصاله إليهم؛ ليعلموا أنك لم تخلل بذكر ما كان منهم.

وكُتُبك – أدام الله عزك – نتطلّعها ونُراعيها؛ فرأيك – أدام الله عزك – في المواصلة بها مضمَّنةً أخبارك وأحوالك، ومآربك وأوطارك، موفَّقاً إنْ شاء الله تعالى.

الجواب من إنشاء أبي إسحاق الصّابي عن الوزير أبي الفضل[١]

وَصَل كتابُ مَوْلانا الأمير عِزّ الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – جواباً عن كتابي بما سهّله الله من فتح البصرة، ودخول الأولياء إيّاها على أتمّ الأحوال من العزّ والنُّصْرة، وفهمتُه. ووَجَدتُ مَوْلانا الأمير – أدام الله تمكينه[٢] – قد خاطبني من الإغراق في إحْمادي، والإطناب في تقريظي بما لا أعتدّه[٣] لنفسي بحالٍ توجبه، ولا أعرف لها فعلاً يقتضيه، لأن هذا الفتح العظيم خطره، الجليل قدره منسوبٌ إلى إقبال دَوْلته، محمولٌ على عادات يُمْنه وبَركته، والأثر فيه لرايته المنصورة، وجيوشه الموفورة، وهو مستَمَدٌّ[٤] من رأيه السَّديد الثاقب، ومستفاد من تَدْبيره النّافذ الصّائب، اللذين بهما تمّم الله صالح ما أعطى، وأجرى على أحسن ما أولى، وأوصل إلى المأمول للسؤل، وسلم من المخوف والمحذور وأصاخت الفتنة بعد الصَّمَم، وصَحّت الدَّوْلة بعد السَّقَم.

وتأتّى من صُنْع الله الجميل، ومَنّه الجزيل، وتَسْكينه الدَّهْماء، وتَتْميمه النَّعْماء في الأمد القريب، والمدى[٥] القصير ما كفى مَوْلانا الأمير عِزّ الدَّوْلة أنْ يتقسّم له فكر، أو يلْتاث عليه أمر، وما أدّعي إلّا الاجتهاد في احتذاء مَراسمه، والوقوف

---

(١) طهران. وأورد قسماً من هذا الجواب المواعيني، ريحان الألباب، ورقة ٧٩.

(٢) (الأمير أدام الله تمكينه) من المواعيني.

(٣) ط: اعتد.

(٤) ط: مستثمر.

(٥) ريحان الألباب: الزمن.

عند توقيفه وتعريفه، والتأدّب بتهذيبه وتثقيفه. ولو كان ما نَحَلنيه من الأثر الصالح، والمقام الحميد خالصاً[1] لي، ومقصوراً علي. وكنتُ بفضيلته منفرداً، وبمزيّته مستبدّاً، ولنفسي فيه مورداً إلّا معرضاً[2]، لكان ذلك كلّه غير قاضٍ حق نعمةٍ من نِعَمه[3]، ولا مخفّف ثقل مِنّةٍ من مِنَنه. ولا واقع موقعاً أقنع به في واجب طاعته، ولا بالغ مبلغاً أعول عليه في مجازاة صَنيعته[4]، لأن فعلَه - أيّده الله - في رفعه منّي، وجذبه بضبعي[5]، وتقديمه إيّاي، وإيثاره لي مسلفاً[6] قبل الاستحقاق، ومبتدئاً قبل الاستيجاب فعلٌ يقصر عن أدناه، وأيسره أقصى سعي منّي وأكثره، فما أنال غايةً في مُوالاةٍ أخلصها، ونصيحةٍ أجتهدها، إلّا وجدتُ وراءها مرمىً بعيداً، ومسرحاً طويلاً[7] صار[8] يلزمني بلوغها[9]، وإنْ كان معوزاً، ويحقّ عليّ تقصّيها، وإنْ كان معجزاً[10]، ولأن هذه هذه الحشاشة التي الإنسان مجبولٌ على الضّن[11] بها، ومطبوعٌ على الدفع عنها هين عليّ في خدمة مَوْلانا – أدام الله تأييده – بذلها، وسهلٌ عليّ المخاطرة بها، إذ لا حظَّ في بقائها

---

(١) ط: حاصلاً.

(٢) (ولنفسي .... معرضاً) ساقط في ريحان الألباب.

(٣) (من نعمه) ساقط في ريحان الألباب.

(٤) ريحان الألباب: صنيعه.

(٥) ريحان الألباب: لضبعي.

(٦) ريحان الألباب: وإيثاري مسلفاً.

(٧) ساقطة في ريحان الألباب.

(٨) من ريحان الألباب.

(٩) ريحان الألباب: بلوغها.

(١٠) (وإن كان معوزاً .... معجزاً) ساقط في ريحان الألباب.

(١١) مكانها فراغ في ريحان الألباب.

إلّا مع بقائه أطاله الله، ولا فائدة في تعميرها إلّا بامتداد عمره وصله الله إلى الأبد، وبلغ به نهاية الأمد[١].

والإحمادُ – أيّد الله مولانا – فيما هذه سَبيله ساقطٌ مرتفع، والشكرُ له – أدام الله عزه – منّي مستمرٌّ لا ينقطع. والفضلُ في كلّ الأحوال حاصلٌ له، والتوفيقُ مأخوذٌ عنه، والإصابةُ مقتبسةٌ منه، والأوصافُ مقصورةٌ عليه، والآثارُ منسوبةٌ إليه؛ فأسأل الله أنْ يُطيل بقاء مولانا الأمير عِزّ الدَّوْلة في شأنٍ يُعليه، وسُلْطانٍ يُسميه، وفائدةٍ ييسّرها ويُسنيها، وعائدةٍ يحكم بها ويقضيها[٢]، وفتحٍ مُبينٍ يفتحه، ونصرٍ عزيزٍ يتيحه[٣]، وآلاءٍ تتواصل وتترادف، وعطايا تتوالى وتتضاعف، ومَنائح تتوافى وتتواتر، ومَواهب تتظاهر وتتناصر، وأنْ يجعل كلمته العليا، ويده الطولى، وأولياءه الأعزّاء، وأعداءه الأذلّاء، ولا يزيل عنّي ظلّه الظَّليل، وفضله الجزيل، بإحسانه الباهر، وإنعامه الغامر، ويتحسن عوني على خدمته، وإرشادي إلى مسالك طاعته، ويوفّقني لما يقرب منه، ويزلف لدنه.

فأمّا أبو العَبّاس ليلى أيّده الله، والقُوّاد أعزّهم الله، والخواصّ والغِلْمان حاطهم الله، فقد أوصلتُ الكتب إليهم، وأعلمتُهم ما تضمّنه كتابُ مَوْلانا – أطال الله بقاءه – من إحْماد أمرهم، وارتضاء أثرهم، والاعتقاد للإحسان إليهم، والإفضال عليهم، وأنّ كلًّا منهم قد حقّق الظنّ، وصدق المخيلة فيه، واستوجب أعلى المنزلة بين قُرنائه وأشكاله، والإنافة به على أضرابه وأمثاله، فسُرّوا بذلك وشكروا، واطمأنّوا ووثقوا، واغتبطوا بما أدّتهم إليه الطّاعة والمشايعة، وازدادوا فيها يقيناً وبصيرة، واستمرّوا على أخلص نيّاتهم،

---

(١) (إلى الأبد .... الأمد) ساقط في ريحان الألباب.

(٢) (وفائدة .... ويقضيها) ساقط في ريحان الألباب.

(٣) ينتهي النص هنا في ريحان الألباب. (يتيحه) في ط (يمنحه).

وأصفى طويّاتهم، في المحاماة عن الدَّوْلة، والمراماة عن الحوزة، والمسالمة لسلمها، والمحاربة لحربها. وأنا أكرّر على أسماعهم ما يفسح في آمالهم، وأجدّد من إكرامهم ما يستوجبونه بأفعالهم، وأخصّ أبا العَبّاس – أيّده الله – بالأثرة والتقديم، والاصطفاء والتقريب، وأنظر في أمره، وأقدّم تسليم إقطاعه إليه بإذن الله.

وأمّا التَّذْكِرة المضافة إلى الكتاب، المشتملة على ما أفردتَ به من الأبواب، فقد وقفتُ عليها، وانتهيتُ إليها، وشكرتُ تَوْسعةَ الأمير - أطال الله بقاءه - عليّ في متضمّنها، وتحكيمه رأيي، ومشاهدتي في مستودعها. وتحرّيتُ في ذلك كلّه الصَّلاح والسَّداد الذي هو – أدام الله تأييده – هاديَّ إليهما، ودَليلي عليهما. وأفردتُ جواباً عن الجميع، ورسمتُ لأبي العلاء صاعد بن ثابت[1] – أيّده الله – عرضه، وهو فاعلٌ ذلك إن شاء الله.

---

(١) من رجال الإدارة في بغداد. كان يخلف بعض وزراء مُعِزّ الدَّوْلة إذا غابوا عن بغداد كالحسن بن مُحمّد المهلبي، والعباس بن الحسين الشّيرازي. واستخصّه لبعض الوقت عِزّ الدَّوْلة بن مُعِزّ الدَّوْلة. عنه، انظر: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص١٨١، ص٢٨٢؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٢٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٤٩.

نُسْخة كتابٍ عن أبي الفَضْل العَبّاس إلى أبي الحسن كاتِب أبي تَغْلِب بعَقِبِ وفاةِ مُعِزّ الدَّوْلة[1]

كتابي يا سَيِّدي -أطال الله بقاءك- وأمورُ مَوْلانا الأمير عِزّ الدَّوْلة جاريةٌ على الانتظام والسَّدادِ، والاستقامةِ والاطّراد، ولله الحَمْدُ كثيراً، والشّكرُ دائماً.

ووَصَل كتابُكَ المؤرَّخُ، وفَهِمتُه، ووَجَدْتُه مشتمِلاً -من لطيفِ بِرِّك وجَليلِ تَطوُّلِكَ- على ما يُشاكِلُ فَضْلك، ونعمَة الله سبحانَه عندَك وتقتضيهِ الأحوالُ الوشيجَةُ، والمَوَدّة الوكيدةُ بيني وبينَك، وأسألُ الله ألّا يُعدِمَنيك، ولا يُخلِيَني منك، ويُنهِضَني بحُقوقِك، ولَوازِمك بقُدْرته.

وأمّا انزعاجُكَ لما كان بَلغَكَ من اشتدادِ الأمير السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة، فلا شكَّ فيما تعتقُدهُ في هذه الحال من المُشاركة والمساهمة، وقد نَفَذ من قضاءِ الله الكريم فيه ما هو جارٍ على الخَلْقِ أجمعين، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، وإلى الله -عزّ وجلّ- الرغبةُ في تَغمُّدِهِ بالعَفْوِ والغُفران، وإيّاه أسألُ أنْ يرزُقَنا من الصَّبْر لأمرِه، والتسليم لحُكمِه ما يُحمِدُنا عُقباهُ، ويوفِّقُنا فيه لرضاهُ بمَنِّهِ وجُودِه.

ولمّا نزَل الأمرُ الذي لا مَدْفَعَ لهُ، والحادثُ الذي لا مَحِيصَ عنهُ، جدَّد مَوْلانا أمير

---

(١) ليدن.

أبو الفضل هذا هو العَبّاس بن الحسين الشِّيرازي، وزير مُعِز الدَّوْلة، ثم ابنه عز الدَّوْلة. مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٢٤.

المؤمنين ما كان عقَدَهُ لسَيِّدنا الأمير عِزّ الدَّوْلة في حياةِ الأمير السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة من تفويضِ أمورِ المملكةِ إليه، والاعتمادِ فيها عليه، وأحَلَّهُ ذلك المحلَّ، وجَعَل له على الخاصِّ والعامِّ، والقاصي والداني ذلك الحقّ، وأظهَرَ من إفضالِهِ وإحسانِه، وإنعامِه وامتنانِه، ما عمَّتْنا وشمِلَتْنا الموهبَةُ فيه. واجتمَعَ أصنافُ الأولياءِ على طاعتِه، واستمرُّوا على أحمدِ طرائقِهم في مُشايعَتِهِ ومُناصحتِه، وجَرتِ الأحوالُ في ذلك على ما نَحمَدُ الله عليه، ونستديمُه النِّعْمة به.

فأمّا ما تضمَّنَهُ الفَصلُ المفرَدُ من الحِكايةِ عن الأمير أبي تَغْلِب، في مُشاركة الأمير عِزّ الدَّوْلة، والإبانةِ عن نيَّتِهِ ومخالصَتِه، والأخذِ بالنصيبِ معه في كُلِّ ما خَصَّهُ ومَسَّهُ وما بذَلَهُ من المعاضَدةِ والمرافَدة، والمؤازَرةِ والمضافَرة، فقد أورَدْتُ ذلك عليه، وأضَفْتُ إليه من القولِ الذي سلكْتُ فيه طريقَ تمهيدِ الحال وتمكينِ المودّة، وما أراهُ فَرْضاً يَلزَمُني في الخِدمتَيْن، وحقًّا يجِبُ عليّ للجِهتَيْن، ووَقَعَ ذلك ألطفَ مَواقعِه، ونزَلَ أحسَنَ منازِلِه، وتقبَّلَهُ الأمير عِزّ الدَّوْلة تقبُّلَ الواثقِ به، السّاكنِ إليه، المحصِّلِ المعوِّلِ عليه. وقال -أيّده الله-: إنّ هذا الغَرَض الصّادرَ عن النيَّةِ الصّادِقة، والطويَّةِ الخالِصة، صادَفَ عندنا ما وَطَّدَهُ الله -عزّ وجلّ- من هذه الدَّوْلة الرّاسخةِ الأصل، الشّامخَةِ الفَرْع، التي قد أحكَمَ الله أسبابَها، وَأمرَّ قُوَاهَا، وثبَّتَ أرْكانَها، وأنّه قد اعتُدَّ منهُ بما قيلَ، وبُذِل اعتدادَهُ به لو أُنجزَ وفُعِلَ، وأنهُ لو أوْجبَتْهُ ضرورةٌ لاسْتدعاهُ منبسِطاً فيه، واستمَدَّهُ واثقاً به. وأمَرَني - أعلى الله أمرَهُ - أنْ أُجيبَ عنه بأخلصِ شكر، وأتمِّ نشر، وأنْ يُشرَكَ بها وهبَهُ الله -عزَّ اسمُهُ- من انتظامِ الأمورِ بعَقِبِ ذلك الحادث الجليلِ، حتى لو أنَّهُ ما انتشرَ منتظِمٌ، ولا اضطربَ مُلتئِم، ولا جَرتْ حَالٌ تُهِمُّ في قربٍ ولا بعد، والله يتمِّمُ مَوهبتَهُ، ويُشيعُ نعمتَهُ، ويوزعُ شُكرَه، ويوفِّقُ له بطَوْله.

ورَسَم لي من بعد أنْ أكتُبَ إليكَ بما لم تزَلْ تعتقِدُه في أخيهِ وسيِّدنا الأمير أبي تَغْلِب من المخالصَةِ والمحبَّة، والميلِ والموَدّة، وأنّه يُجريه في صِلةِ حَبلهِ، والتمسُّكِ بالحالِ معه، على ما كان الأمير السَّعيد الماضي يعتقِدُهُ، ويَزيدُ على ذلك الزيادةَ التي توجِبُها الأُخوَّةُ الماسَّةُ، وتقتضيها الأوامرُ الواشِجَةُ، وأنْ أُعرِّفَكَ -أيّدك الله- ما تَستشعِرُهُ من زَوالِ الفَضْل بينهما، وارتفاعِ الفَرْقِ عمّا يجمَعُهُما، فإنّ أمرَ سَيِّدنا نافذٌ فيما تحويهِ اليدُ من الأموالِ والسِّلاحِ والرِّجالِ والكُراع، وإنّ ذلك كلَّهُ عَتيدٌ له متى احتاجَ إليه، وقريبٌ متى اسْتدعَاهُ، إذ كانت النُّفوس -صانَها الله- واحدةً، والأحوالُ - ثـمَّرَها الله - مُشتركةً، والنِّعْمة عليهِما وعلى أوليائهما فيهما بذلكَ عامَّةً شاملة. فإنْ رأيتَ أنْ تتفضَّل بإنهاء ما ذكَرتَهُ، وإبرامِ ما ابتدأتَهُ، من تأثيلِ الودِّ، وإمرارِ العَهْدِ، وصِلة الحبلِ، وعِمارةِ الحال، ومُكاتَبتي بما يكون منك فيه، وبأخبارِكَ وأحْوالك، وعَوارضكَ ومهمّاتِك، وأمرِكَ ونَهْيك، فعَلْتَ إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّالدَّوْلة
إلى أبي تَغْلِب
وقد نقل ابنته إليه (١)

كتابي يوم الإثنين للنصف من شعبان، ختمه الله عليك بالحسنى، ووفّقك في الشهر المقبل لأفضل الأعمال وأزكاها، وأوْجه القُرْب وأحظاها، ووفّر عليك من أقسام السّعادة ما يوصلك أملَك، ويبلغك الغرض الأبعد من أوطارك وأثرتك. وأنا بمخصوصٍ من نِعَم الله – عزَّ اسمُهُ – بأوفى حَظٍّ وأكمله، وأعلى قِسْطٍ وأجزله، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) طهران. (العنوان فيها: وله عنه إلى أبي تَغْلِب.......). وأورد فقرةً من هذه الرسالة كلٌّ من: الثعالبي، يتيمة الدهر، ج١، ص٣١٤؛ الآبي، نثر الدر، ج٥، ص٧٢؛ الخفاجي، سر الفصاحة، ص١٦٤؛ الحمدوني، التذكرة الحمدونية، ج٦، ص٣٣٥؛ ابن بسام، الذخيرة، ج٥، ص١٣١؛ الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص٩٩؛ ابن عراق، الجواهر المفتخرة (مخطوط)، ورقة ٩١ب. وقدّم لها الثعالبي بقوله : ولما نقل عِزّ الدَّوْلة بَخْتِيار ابنته المزوَّجة بعُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب بالموصل، كتب عنه أبو إسحاق في معناها فصلاً من كتابٍ استحسنه الناس وتحفّظوه، وأُقر له بالبراعة والبلاغة.

في محاولةٍ للتقارب والصلح، زوّج عِزّ الدَّوْلة ابنته إلى أبي تَغْلِب الحمداني. وفي شهر ربيع الأول من سنة ٣٥٩هـ وصل أبو الحسن علي بن عمرو بن ميمون، وقد ثبتت وكالته عند القاضي أبي محمد بن معروف، وتزوج له بنت عِزّ الدَّوْلة بَخْتيار، وعمرها ثلاث سنين على صداق مائة ألف دينار، وكنّى الخليفة أبا تغلب، وجدّد له ضمان الموصل وسائر أعمالـه بديار ربيعة ومضر في كل سنة بمليون ومائتي ألف درهم. الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٢٠٨. ونقلت إليه سنة ٣٦٠هـ. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٠١.

ومن مَواهبه - تبارك وتعالى - لديّ خلوصُ الأحوال التي تأتلف عليها من شوائب الأقذاء، وارتباط الأواخي التي تأوي إليها بوثائق الوفاء، وتحصيلي إيّاك أخاً بَرّاً أسكنُ إلى غيبته، ولا أرتابُ بمكنون قلبه، وأمنحُه صفو عقيدتي، وأملكه محض سَريرتي، وألاحظه بعين مَن لا يمير عني إلّا بشخصه. فأما نفسُه فممتزجةٌ بنفسي، موقوفةٌ على ما تنصرف إليه همّتي، عادلةٌ عمّا انثنى عنه عناني، و..............[1] من الاشتمال على أخيه إلى مثل ما أذهب لك عنه، فقد استوفى شرط الوفاء، ووفاه حقوق الصفاء، على أنّ الذي أخصّه أكثر بها أبديه. وما يطوي عليه أوفر ممّا صرفتُ القول إليه. وأسألُ الله أنْ يتمّم إمْتاعي بما خوّلنيه من المنحة بمكانك، كما عمر قلبي بما أشعر به من ودادك، ويجعل مبادىء ما جمعنا عليه مقرونةً بالخيار، موصولةً بأفضل مجاري الأقدار، مكنوفةً بصَلاحٍ يزيد على ماضيه حاضرُه، ويوفي على ذاهبه عابرُه، بمَنّه ولُطْفه.

ولما استقررتُ بمدينة السَّلام، عرفتُ من أحوال كُوَر الأهواز والبصرة ما أوجب مساوقتها والاستقرار فيها[2]، والنهوض لمشاهدتها؛ فاستخرتُ الله - جلّ اسمُه - في الشخوص، مستعيناً به على إصلاح ما فَسَد، وتثقيف ما تأوّد، وهي تصل إليك بذكر ما أقتضيه وآمر به، وأمضيه وأحكمه، حسب ما تحكم به دَواعي المشاركة، وتوجبه خصائص المشابكة. والله - جلّت عظمته - يؤدي إلى مَراشد الأمور نظري، ويُفضي إلى مَناهج الخير رأيي وفكري حتى سُكون صَعْبي بعُموم الحسنى، عابداً ....[3] كاسباً ....[4].

---

(١) كلمات غير مقروءة، أقرب قراءة لها: عز لي ومراسمي.

(٢) في الأصل: لها.

(٣) خمس كلمات غير مقروءة.

(٤) كلمة غير مقروءة.

وقد توجّه أبو النَّجْم بَدْر الحرمي، وهو الأمين على ما يلحظه الوفيّ بما يحوطه ويحفظه نحوك بالوديعة. وإنما نُقلتْ من وَطَنٍ إلى سَكَن، ومن مَغْرِسٍ إلى مُعَرَّس[١]، ومن مأوى برٍّ وانعطاف إلى مثوى كرامةٍ وإلْطاف[٢]، ومن منبتٍ درّت لها نَعماؤه إلى منشأٍ تجود عليها سَماؤه. وهي بضعةٌ منّي انفصلت إليك، وثمرةٌ من جنى قلبي حصلتْ لديك. وما بان عنّي مَن وصلتَ حبلَه بحبلك، وتخيرتَ له بارع[٣] فضلك، وبوّأتَه المنزل الرَّحْب من جميل خلائقك، وأسكنتَه الفسيح من كريم شيمك وطرائقك، ولا ضياع على ما تضمّه[٤] أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك[٥].

وأرجو أنْ يقرن الله صدرها ووردها بالطّائر السَّعيد، والأمر الرَّشيد، والعزّ الزّائد؛ والجدّ الصّاعد، والنَّماء في الائتلاف، والعِصْمة من الفُرْقة والخِلاف؛ حتى تكون عَوائدُ البركة بأحوالها منوطة، ومن عَوادي الأيّام وغيرها محوطة[٦].

وكُتُبك نَوادي[٧] أُنْسي، ومَسارح طَرْفي. فإنْ رأيت أنْ تتوخّى مَسَرَّتي بمُواصلتها، مودعةً أخبارك وأحوالك فعلتَ إنْ شاء الله تعالى[٨].

---

(١) المعرس: هو المكان الذي يعرس فيه القوم، أي ينزلون من السفر للراحة.

(٢) الجملة (وقد توجه .... وإلْطاف) أوردها الخفاجي.

(٣) التذكرة الحمدونية: باهر.

(٤) التذكرة الحمدونية: تضمنته، نثر الدر: تصحبه.

(٥) الفقرة (وإنما نقلت ..... ورعايتك) أوردها الآبي.

(٦) الفقرة (وقد توجه .... محوطة) أوردها الثعالبي والحمدوني.

(٧) في الأصل: نواد.

(٨) أجاب أبو تَغْلِب عن هذا الكتاب بكتاب من إنشاء كاتبه أبي الفرج الببغا، قال الثعالبي: «لما قُرِىء الفصل من إنشاء الصابي بحضرة أبي تَغْلِب اعتمد في الجواب عنه على أبي الفرج الببغا وكتب كتاباً يشتمل على .....». وقد أورد نصّ ذلك الجواب كلٌّ من: الثعالبي، والحمدوني.

نُسْخة تَذْكِرة عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب
نفَذت يومَ الأربعاء لثلاثٍ خَلَوْنَ من شهر رمضان سنة ستٍّ وستّين وثلاثمائة[1]

صِرْ - أطال الله بقاءك - إلى المَوْصِل حتى تُورِدَ على سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة ما تحمَّلته من رَسائِلنا في معنى ما سَبَقت به كُتُبنا، وتُقرِّرَ في نفسِه - أحياها اللهُ - اغتباطَنا بها لا تزالُ الأيّام تترَقَّى بنا إليه في الوُدِّ من الأُنس المتضاعِف، والوُدِّ المُستحكِم، والاشتراك في النِّعَم، والاجتماع على معاقدِ العِصَم، وأنّنا ساكنونَ إلى كونِه على مثل هذه الحال لنا، واثقونَ بمحافظتِه على ما يضُمُّنا ويشملُنا. وتَذكُر له - أيّده الله - أنّا قد كتَبْنا إليه كتاباً شافياً كافياً صَدَر من جهتِك بالأمس بعد نظائرَ سَبَقَتْه، وأنّنا اسْتَغْنَيْنا به وبنفوذِك على التكرير والتكثير، واقتَصَرْنا على مُشافهتِك - أدام الله عزَّك - إيّاه بما شاهَدْتَ وعرَفْتَ من الأمور، وتُعلِمُه - أطال الله بقاءه - أنّ الأمرَ جِدٌّ، وأنّ الجيشَ المُخالفَ وارد، وأنّ العسكرَيْنِ مُتقاربان، وحلقَتي البِطان[2] متدانِيتان، وأنّ الذي وعَدَ به - أدام الله عِزّه - من المدَد سَبيله أنْ يَرِدَ ليتقدَّم خبرُه، ويشيعَ ذكْرُه، وتسكُنَ نفوسُنا إلى انسدادِ ما عوَّلْنا فيه على حمايته، وإحكام ما وَكَلْناهُ إلى تفضُّلِه ومشارفتِه، ونسألُهُ - أدام الله عِزّه -

---

(١) فيض الله، راغب باشا، عاشر أفندي.

تتعلق هذه الرسالة بأحداث سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م حينما دخل عَضُد الدَّوْلة العراق وصراعه مع ابن عمه عِزّ الدَّوْلة. انظر تفصيلات ذلك عند: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٤٥.

(٢) تقول العرب: التقت حلْقتا البِطان. البِطان حزام يُجعل تحت بطن البعير، وفيه حلقتان. فإذا التفتا فقد بلغ الشدّ غايته. مثل يُضرب في الحادثة إذا بلغت النِّهاية. الميداني، مجمع الأمثال، ج٢، ص١٨٦.

المُبادرةَ بذلك على أتمِّ عُدّة، وأكمل عِدّة، وتعجيلَ ما أمكَنَ أنْ يُعجّلَ، وحراستَنا فيه من التلوُّم والتمهُّل؛ فإنّه - أيّده الله - إنّما يُنفِذُ رجالَه إلى رجالِه، ويُصدرُه عن أعمالِه إلى أعمالِه، ويذُبُّ عن حريمٍ هو له، ويُحامي عن أخٍ هو كثيرٌ به.

ولا تقنَع - أعزَّك الله - بأنْ يكون انحدارُك قبلَ الجيش بل معه، ولا تقُمْ أكثرَ من المقدارِ الذي تُقرِّبُ بيننا مدّته، وتشرح لسَيِّدي عُدّة الدَّوْلة ما نحن عليه من الاستظهار بالله أولاً، ثم بسَلامة الطَّوِيّة ثانياً، وأنّ جانبنا - والحمدُ لله - عزيزٌ منيع بظلِّ مَوْلانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وباجتماع مَن اجتمع من هذه الجيوش الضّخمة، والجموع الجمّة، وأنّ أبا الفَوارس حَسْنُوَيْه بنَ الحسين - أيّده الله - مُذْ وَصَل سَبَبَهُ بنا[1]، ومَهَد له عندنا، مُجِدٌّ في الطّاعة، مُخلصٌ في المُشايعة، صائرٌ إلينا بنفسِه، باذلٌ لذاتِ يَدِه ووُسْعِه، وأنه رُوسِل بما يُفسِدُه فأبَى ونَبا، وكاشَفَ وخالَف، وتمسَّك بعصمتِه من الله جلَّ وعلا، ومن رسولِه عليه السَّلام، ومن مَوْلانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ومِنّا.

ووَرَدتِ الكُتُب منه متّصلةً متواترةً، يقول فيها: إنه سائرٌ إلى أعمال الأهْواز بأحبائه وأولادِه، وعساكرِه وعُدَدِه، للمُماصَعَة والمُقارعة، والجِلاد والجهاد، وأنّ مُعينَ الدَّوْلة[2] أبا الحسن - أيّده الله - فاعلٌ مثلَ ذلك في أعمالِ دِجلة، وأنّ النّاس جميعاً على كلمةٍ سَواء في الرّغبة فينا، والانحيازِ إلينا، والكَوْن معَنا، والحَمِيّة لنا، وأنّ دلائلَ نُصْرةِ الله لائحةٌ واضحة، وعادته عندنا جميلة، ومواعيدَه لنا مُتنجِّزة، ورحمَتَه قريبة، وهو حسبُنا ونِعْم الوكيل.

وتُعرِّفُه - أدام الله عِزّه - شُكرَنا على ما ابتدأه في أمرِ بني شَيْبان، وتسألُه التناهيَ في حَسْم مَعرّتِهم، وكفِّ شِرَّتِهم وعاديتهم، والاستيثاقَ منهم بأخْذِ الرّهائن وغير ذلك ممّا

---

(١) أي: منذ صاهرنا. وكان صهراً لعِزّ الدَّوْلة. مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤١١.

(٢) معين الدَّوْلة هو: عمران بن شاهين صاحب البطائح. مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٠١.

يُتوثَّقُ به من مثلِهم، وأنْ يُدبِّرَ الأمرَ في حماية قَصَبةِ مدينة السَّلام وأعمالِها بما يُدبّر به الشيءَ الذي هو له، والأمرَ الذي يخُصُّه؛ فقد جعَلْنا الجميعَ أمانةً مسَلَّمةً إليه، ووديعةً مستحفَظةً لدَيْه، وأسقَطْنا الفِكرَ فيه عن قلوبِنا، لعِلمنا بانتقالِه إلى قلبِ مَن هو أوْلى النّاس بنا.

وتُعرِّفُ - أيّدك الله - أبا الحسن عليّ بن عُمر - أدام الله عِزّه - اعتمادَنا عليه، وسُكونَنا إليه، وأنّا لا نعرفُ سِواه في جميع ما استدعَيْناه والتمسْناهُ، وأنّا واثقونَ بأنّه يخدُمُنا، وسَيِّدي عُدّة الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - فيه خدمةً تُرضينا وتُرضيه. وتَعرِضُ عليه التواقيعَ بما يقرِّرُ له، وتجعلَهُ على أتمِّ يقين منه، وتبعثُه على الاجتهاد في أنْ يكون هو السّائرَ الزّائر، فإنّ مرادَه - حضَرَ أو تأخّر - حاصل، لكنّا قُلنا ذلك بفَرْط الأُنْس به، والسُّكونِ إلى حُسن تدبيرِه، والسَّلام.

وكَتَب إلى أبي تَغْلِب الغَضَنْفَر بن ناصر الدَّوْلة أبي مُحمّد الحسن بن عبدالله بن مُحمّد بن حَمْدان[١]

لو كانت الخدَم - أطال الله بقاء سَيِّدنا الأمير - لا تطالب ساداتها بالحقوق إلّا إذا سَلَفت موجباتُها، واستحكمت أسبابُها، لقلّ المتعلّقُ بها منهم، والماتُّ بها إليهم؛ لأن الأقوى مُسْتغنٍ عن الأضعف، والأدنى محتاجٌ إلى الأشرف[٢]، فليسَ تستوي بالجهتين أقدام التقارُض، ولا تجمعهُما منازل التدايُن. وإذا كان هذا الأمر[٣] راسخاً مستقراً، وثابتاً مستمراً، فأيسرُ شُعَب الحقّ والحرمة، وأخفضُ دَرج الذِّمام والعصمة، يمُدّان على التّابع ظلَّ المتبوع، ويؤويان[٤] الآملَ كَنَف المأمول، هذا على المتعالم في الجمهور، والمتعارف في العُموم.

فإذا اتّفق أنْ ينفرد السَّيِّد ببراعةٍ في كرمه، والمسوَّد ببلاغةٍ في شُكرِه، وكانت الصَّنيعة من ذاك نبيلةَ المصدر، شريفةَ المنسَب، وعند هذا مصيبة الغرض، جميلة الموقع، فقد صار ذلك قرباً يلزمهما، ويؤكّد ما بينهما؛ وتلك حالُ سَيِّدنا الأمير - أدام الله عِزّه - فيما يختصّ به من طيّب أعراقه وأخلاقه، وكرم أُصوله وفُروعه، وحالي فيما اختصّ به من استحقاق رأيه وعنايته، واستيجاب إحسانه وامتنانه.

ولي به - أدام الله عِزّه - وإنْ لم تكن الأيّام أسْعَدتني بلقائه، وضمّتني إلى فِنائه عِصْمةُ التأميل له، والمناب عنه، والكون مع أسْبابه المتخصّصين به في كلّ أمرٍ يمسّه،

---

(١) ليدن، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) ر: الأشراف.

(٣) ر، ل: الأصل.

(٤) ر، ل: يبوآن.

وحالٍ تهمُّه، وله - أدام الله عُلوّه - عندي سَلَفٌ في الإنعام، لم يزل واصلاً إليّ على الأيّام. ثم قصُرَ بعد الدُّرور، ورَكَد بعد الهبوب، وتوقعتُ أنْ يهتزّ - أيّده الله - لإعادة رَسْمه هِزّةَ الجواد من ذاته، وأنْ يجري[1] في التطوّل به على أجمل سُننه وعاداته، واعْتَرَضَت دون ذلك عَوارض ما غيّرت رأيه ولا ثقتي، ولا أعلّت نيّته ولا يَقيني. ولم يكن انقباضي عن الكتاب إلى سَيِّدنا الأمير - أطال الله بقاءه - إلّا انتظاراً لسببٍ يقتضيه، وعلماً بأنه مَحمُولٌ مني على المذهب المحمود من مُسْتَعمليه.

وأنا، والله - أيّد الله الأمير[2] - على تصرّف أحوالي من قُرْبٍ أو بعد، ومُشْهَدٍ أو مُغَيَّب، ومكاتبةٍ أو إجْمام ومُواظبةٍ أو إغْباب، أتجاوز في مُوالاته غاياتِ جميع عَبيده الحاملين لنعمته، المتسببين إلى جُملته، المشار إليهم في طاعته، الموثوق بهم في مشايعته.

ولو ملكتُ اختياري، وتصرّفتُ على إيثاري لهاجرتُ إلى حَضْرته، وثابَرتُ على خِدْمته، ولم تقتصر بي المسعاة عن وَطْء بِساطه، والهمّة عن تقبيل يَده، ولكنّني بين عِقالَيْ خِدمةٍ أو نكْبة، يتراميان بي متداولَيْن، ويتعاقبان عليّ متناوبَيْن. ورُبّ بعيد الدّار ناصح الجيب، وقريب الجوار متهم الغيب[3].

والأحوالُ من الحَضْرتين الجليلتين - أدام الله حِراستهما - متمهّدةٌ ولله الحَمْد تَمهيداً يقتضي التساهُم في النِّعَم، والتفاوض في الخدم، فمَن انقطع منهم إلى إحداهما فقد

---

(١) ر، ل: يجريني.

(٢) (وأنا..... الأمير) من ل فقط.

(٣) هذا نثر نظمٍ عن بيت لمحمّد بن حازم الباهلي (ولاءً) البصري، من السريع:

رُبَّ غريبٍ ناصِحِ الجَيْبِ وابنِ أبٍ متَّهمِ الغيْبِ

الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٤٥؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج٢، ص١٥؛ الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ص٨٥.

تجرّم بكليهِما، وأخذ بِعُرْوَتيهِما، والله يزيد في ذلك ويتمّمه ويُمرّه ويُبرمه، ويديم لسَيِّدنا الأمير السَّلامة والكفاية، ويجعلهما له لباساً وسِرْبالاً، وعليه جُنّةً وظِلالاً، ولا يعدمه زحام الرّاغبين عليه[1]، واللّائذين به، والمستكينين في ذراه، واللّاجئين إلى حِماه، بقدرته.

وقد نابتني - أيّد الله الأمير - في هذا الوقت نائبةٌ نهكت وأجحفت، وبالَغت وأسرفت، وما أُسامحُ نَفْسي بالإغراق في شَكْواها، لأنها تجافت المهجة والجاه، ولم تتعدَّ الأعواض والأعراض.

وأنا أحمدُ الله الذي لا يخلي عِباده من صُنعٍ لهم تنطوي عليه أثناء النكبات إذا طرقت، ولطفٍ بهم تلينُ به صِعابُ الخُطوب إذا جَمَحَتْ، وإيّاه أسأل أنْ يُعيذَ سَيِّدنا الأمير منها، ويجعلَ ساحته محرّمةً عليها، ولا يسلبُه النِّعَم غاديةً ورائحة، والمواهبَ راتبةً وحادثة.

ولي في تفضّله - أدام الله عِزّه - بالمعونة على هذه الحال أملٌ هو أكرم من أنْ يردّه خائباً، وحقيقٌ أنْ يُصدرُه غانماً. فإنْ رأى سَيِّدُنا الأمير - أطال الله بقاءه - أنْ يتطوّل في ذلك بما تبعثه عليه همّتُه السّامية، ويَدُه الهامية، ونفسُه الفائضة، ويأمر - زاد الله أمرَهُ عُلوّاً - بإجابة عن هذا الكتاب تشرّفني وتجمّلني، وتؤكّد صَنائعه وآلاءه عندي، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ل، ر: إليه.

وكَتَب عن الأمير عزِّ الدَّوْلة
إلى القائد أبي الحسن عليٍّ بن كامَه(١)

كتابي يا سَيِّدي وعُدّتي - أطال الله بقاءك - من واسِط، وأحوالُ مَوْلانا أمير المؤمنين جاريةٌ على النِّظام، ومستمرّةٌ على الالتئام. ونحنُ في كَنَفٍ حَصين(٢) من طاعته، وظلٍّ ظليلٍ من مشايعتِه، والحمدُ لله حقّ حَمْدِه.

وقد تقدّمت لنا إليك كُتبٌ تأخَّرتِ الأجوبةُ عنها، وكانت العادةُ سَبَقت منك أنْ تَبْتَدِأنا وتُواصلنا، وتُراعينا وتُواظبُ علينا، ونرجوا أنْ تَرُدَّ الآنَ بما نَسكُنُ إليه من خبرِك، ونشكُرُه من فعلِك وأثرِك؛ فإنّ تلك الكتُبَ كانت مستودِعةً ما لا يسَعُ مثلَك من أكابر ذوي لُحمتِنا، وعظماءِ أهل دولتِنا، أنْ يَضْرِبَ عنه صَفْحاً، ولا يُطبقَ عليه جَفْناً، واللهُ يُصلح الشؤون، ويُطرِفُ عن ذاتِ بيننا العُيون، ويكفينا نَزْغَ الشيطان، المُستحوِذِ على الإنسان، ويَجْعَلَنا ممّن يلعنُه ولا يتَّبعُه، ويَعْصيه ولا يطيعُه، بقُدْرته.

وقد عَرَفْتُ - أدام الله عزَّك - بالمُكاتبات السّالفة، والأخبار المتناصِرة(٣)،

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

علي بن كامه هو ابن أخت رُكْن الدَّوْلة البويهي، وكان واليه على الرَّيّ لبعض الوقت، وتولّى قيادة جيش مؤيِّد الدَّوْلة وقتاً آخر. توفي سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م. عنه، انظر: الصّاحب بن عباد، المختار من رسائل الصّاحب بن عباد، ص١٠؛ العتبي، اليميني، ص٥٤؛ ابن فندق، تاريخ بيهق، ص٢٦٠؛ الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٢٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٨٨، ص١٩١، ص٢٢٥، ص٤٠٦.

هذه الرسالة تتعلّق بالصِّراع بين عِزّ الدَّوْلة وعَضُد الدَّوْلة.

(٢) هذا ما في ك، وفي ما دونها: خفض.

(٣) ف: المتناصرات.

والأماراتِ الشّاهدة، والآياتِ الدّالّة ما عليه أكبرُ ساداتِنا[١]، وأحصَلُ أهلِ بيتنا - عَصَمه اللهُ من الغِواية، ووفَّقه للرُّشد والهداية - من البَغْي عليّ، والاطّراح لحقّي، والشّروع معي فيما يَسهُلُ عليّ أنْ يستسهَلَ خَطْبَه، ويُسْتَلْين[٢] صعبَه، ويدفعُني عما أُوثرُ من إعظامِه، وأوجِبُ من إكرامِه[٣]، وما زال يدُبُّ الضَّرّاء، ويُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء[٤]. وأُغالطُ نَفْسي، وأكذّبُ عيني وحِسّي، إلى أنْ زال الشكّ وليتَه لم يرتفعْ، وسارتْ مقدِّمتُه إلى أرَّجان لُمنازعتي، وامتلأ بجَواسيسِه عسكري، وأظهروا أنّ كُتبَه وخَواتيمَه إلى الأولياء بها قد قُوبل بالردِّ والاستقباح، وتُلُقِّي بالإعْراض والاطّراح.

وقادتْ مَوْلانا أمير المؤمنين الضّرورةُ إلى أنْ سار بنفسه، ونَدَب النّاس إلى جِهاده. وتحرّكت الخاصّة والعامّة، والحاضرةُ والبادية، وأولو الأطرافِ القاصية والدّانية، لممانعته عمّا يريده، ومكافحته دون ما يَرومه. وخرج الأمر العالي بأنْ يُسقَط الدّعاء له على جميع المنابر التي تُحامي وُلاتها عن أديانهم، ويتصرّفون على طاعة سُلْطانهم، وعمل مَوْلانا على أنْ يذكّره عليها بلسانه وألسنة النّائبين عنه، بما إنْ وَقَع - والعياذ بالله - شَنُع خبرُه، وقَبُح أثرُه، وبقي عارُه، وثبت شنارُه، وأنْ يصرفه عن أعماله، ويندبَ النّاس إلى قتاله، ويسلبه شعارَ تَكْرِمته، وجَمال تلقيبه ومَبَرّته، ويكتب بذلك إلى الأطراف التي يتورّع أهلُها عن الخلاف؛ فسألتُه التوقّف، ورغبتُ إليه في التثبّت، وأملتُ أنْ يثوبَ إلى هذا السَّيِّد لُبُّه، ويُراجعَهُ حِلْمُه، ويكفيه الله ويكفينا فيه، أنْ تتشعَّث على يده الألفة، وتتمكّن في أيّامه الوَحْشة.

---

(١) يقصد عَضُد الدَّوْلة.

(٢) ف، ع: يلين.

(٣) (وأوجب من إكرامه) ساقط في ف.

(٤) يقال للرجل إذا ختل صاحبَه: يدبّ له الضَّرّاء، ويمشي الخمر، ويسر حسواً في ارتغاء. الجوهري، الصحاح، ج٢، ص٦٥٠، ج٦، ص٢٤٠٩؛ الثعالبي، سحر البلاغة، ص٧٩.

ولي بحضرته رَسولٌ وكُتبٌ كنتُ عازماً على إنْفاذ غيره لو اتّضحت لي إلى ذلك السَّبيل، ولستُ أترك استنزاله عن القبيح، واستعادته إلى الجميل، ولو اصطفّ[1] العسكران، والتقت حَلَقتا البِطان، ولا أغِبُّ مكاتبة سَيِّدي الأميرين: مؤيِّد الدَّوْلة وفَخْر الدَّوْلة، ومكاتبتك، وإشهاد الله وإشهادكم جميعاً، أنني واصل من الرَّحِم ما قَطَع، وحافظٌ من الحقّ ما أضاع، ومتمسّكٌ بالبقيا ما وجدتُ لها حبلاً متيناً أميل عليه، وهُدْباً ضعيفاً أعلَق به. وإنْ أدّاني هذا الاجتهاد الشديد، والصّبر الطَّويل إلى ما أحب وأؤثر من امتشاج حَوزي، وألّا يقطع ما بيني وبين أسْرَتي، وإلّا كنتُ في الفُرْقة مَعذوراً لا ملوماً، وظاهراً لا محجوجاً، وتنجزّتُ وَعْدَ الله الذي لا يحيلُهُ الخلف، وقولَه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومَن ﴿بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[2]، ووثقتُ بأنّه - جلّ وعزّ - لا يخذل من بَذل ما بَذلتُ، وأعطى ما أعطيتُ، ولم ينازع إلّا عن حَريم، ولم يمنع إلّا من أمرٍ عظيم.

وقد كتبتُ إلى سَيِّدي الأمير عُدّة الدَّوْلة[3] بما سَيقف عليه، وأريد أنْ يكون على الرأي الذي عهدتُ الأمير السَّعيد رُكْن الدَّوْلة عليه، والمنهاج الذي دلّ وأرشد إليه، وأنْ يَدخل في هذا الأمر دخولَ مثلك ممّن وكّد اللهُ سَببه، وقرّب نسَبَه، وأحْصَف رَأيه، وأرْجَح عَقْلَه، وتستشف الحال، وتجعلَ ضلعك مع المظلوم حتى ينتصف، وعلى الظّالم حتى يقف، ولا تقعُد عمّن الحجّة معه، ولا تنحرف مع مَن هي عليه، وأنتَ وَليّ ما تأتيه وتراه في ذلك، وإعلامنا ما عندك لنكونَ منك على ثقةٍ، وشكرٍ لك عليه، وسُكونٍ إليه من معتقدك إنْ شاء الله.

---

(١) ف: اصطفت.

(٢) سورة الحج، من الآية ٦٠.

(٣) أبو تَغْلِب الحمداني.

وكَتَب عن نفسه إلى الملك عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة جواباً عن كتابه بقَتْل بَخْتِيار بن مُعِزّ الدَّوْلة وانهزام أبي تَغْلِب حَمْدان والظَّفَر بجماعةٍ من القُوّاد بالجانب الغربي بقصر الجَصّ المحاذي لسُرَّ مَن رأى وذلك في سنة سبع وستّين وثلاثمائة[1]

كتابي – أطال الله بقاء مَوْلانا الملك السَّيِّد الأجلّ المنصور وليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة – والأمورُ التي يُراعيها جاريةٌ أفضل مجاريها بظلِّه الممدود عليها، ونَظَره الشّامل لها، وعَدْله المحيط بها، وسياسة الأُستاذ – أدام الله عِزّه – التي حذا فيها مثالَه، وتقيَّل خلالَه، والخاصّة، والعامّة من عبيد مَوْلانا – أطال الله بقاءه – ساكنون في حماه، مطمئنون في ذراه، قارُّون بفنائه، راتعون في كلائه، داعون إلى الله بما هو سبحانه يسمع مَرفوعه، ويجيب مَسموعه، والحمدُ لله حمداً عائداً بمغابط الأولياء، ومغايظ الأعداء، والمزيد في مُترادف العطاء، ومُتضاعف الحِباء.

ووَصَل كتابُ مَوْلانا الملك السَّيِّد وليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة – أدام الله علوّ أمره، وعزّ نصره – في معسكره بِظاهر المَوْصِل، مبشّراً بالفَتْح الذي امتلأت له آفاق السّماء نوراً، وأرجاء الأرض سُروراً؛ فتلقّيتُه ساعياً على قدميّ، وقبّلتُه بكلتا يديّ، وسجدتُ شكراً لله على ما استودعه[2]، ولمَوْلانا – كَبَت الله أعداءَه – على تأهيلي

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، وقسم منها في سيلي أوك.
هذه الرسالة تتعلق بأحداث الرسالة السابقة، والتي انتهت بمقتل عِزّ الدَّوْلة وانتصار عَضُد الدَّوْلة. وعن قصر الجَصّ، انظر: الشرقي، قصور العراق، ص٢٦٧.

(٢) ر: على مستودعه.

للمطالعة به[١]. وتصرّفتُ في تأمّل معناه الجزْل، ومَنْطقه الفصْل، تصرّف المعجب به لا لا المتعجّب منه، وأقول في ذلك ما قاله أرسطو طاليس للإسكندر في مفتتح بعض رَسائله إليه، أما التعجّب من مناقبك، فقد أسقطه تواترُها؛ فصارت كالشيء المألوف قد أُنس به، لا كالغريب يُتعجّب منه.

فأمّا ما شرحه مَوْلانا[٢] الملك السَّيِّد - أدام الله عَلاءه، وتمّم نَعمائه - من تقسيم[٣] أعدائه بين قتيلٍ صار إلى النّار، وهزيمٍ تقنّع بالعار، فأيديهم أوْكت، وأفواههم نفخت. ولولا الشقاءُ المكتوب عليهم، والخزيُ المعصوب بهم، لاتعضّوا بغيرهم ممّن مضى قبلهم، وسلّموا الأمر لمستحقّه دونهم، وعرفوا حقّ المعرفة أنفسهم، ووقفوا بها عند حدّهم وقَدْرِهَم، فقد قيل إنّه لا ضَيْعة على مَن عرف قدرَه، وكذلك لا نجاة لمن عدا طورَه، ولكن الحيْن يُصمّ ويُعمي، ويُوبق ويُردي.

وقد عظّم الله شأن مَوْلانا - أطال الله بقاءه - عن أنْ يفخر له بالظهور على مَن ينحطّ خطرُه عن خطرِه، وينقص وزنُه عن وزنِه، وإنّما المفخر بالتفضيل الذي لم يدع له في الأرض نظيراً يُدانيه، ولا قريناً يُناوئه، حتى صارت فتوحُه لا تُعاب إلّا بانتزاعها ممّن ليس بضَريبٍ ولا قريب، وإذا هُنّيء الإنسان بالوصول إلى ما لم يكن له، فمَوْلانا الملك السَّيِّد - أطال الله بقاءه - يهنأ باستدراك ما هو له، إذ قد مَلّكه الله أقطارَ بلادِه، ونَواصي عباده، فكلّ حاصلٍ من ذلك له فمستقرٌّ عند مُستحقّه، وكلّ شاذٍ عنه فغلول[٤] في يَدِ متطرّقه، بارك الله له فيما أعطى وأجزل، وسوّغه ما منح وخوّل.

---

(١) بعدها في ف: به.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ف: تقسّم.

(٤) الغلول هو السرقة من الغنيمة أو الخيانة في المغنم، جاءت من الغل؛ لأن الأيدي فيها مغلولة، أي: ممنوعة مجعول فيها الغل وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقِه. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٥٠٠ (غلل).

وأمّا ما ارتآه وأمضاه مَوْلانا – أطال الله بقاءه، وتمّم علاءه – من إتمام المسير إلى تلك الديار للزيادة في الاستظهار، فقد كان أغناهُ[١] عَنْ كُلِّ شيءٍ باشرَهُ، البيتُ الذي هو أحقُّ به ممّن قيلَ فيه:

قد نابَ عنك شَديد الخَوْف واصْطنَعَتْ لـك المهابـة مـا لا تَصْـنعُ الـبهْمُ[٢]

وأرى أنّ ذلك سعادةٌ سِيقتْ إليها بأنْ حلّتْها قدمُه، وهطلتْ فيها دِيمُه، وغَسَلتْ أدْرانَها طهارتُه، وأماطَتْ أدناسَها نزاهتُه، وبَقيّة بقيت من منحسة بلادِنا هذه شَغَلتهُ أنْ يطولَ بها لُبْثُه، وأنْ يدومَ فيها مكثُه.

واللهُ يحرسُهُ دانياً مقترباً، ونائياً مغترباً، وحالاً قاطناً، ومُرْتحلاً ظاعناً، ويسهّل له الأوْبة إلى مقرّ عزّه، ومركز مُلكه؛ الذي ينبغي أنْ يكون مقامُه فيه، وانبثاث شعاعه إلى الأطراف منه، بقُدْرته.

وأمّا خُضوعُ الخاضعِ له، ونُزوعُه عن الأمْرِ الذي أوْردَهُ، وما يُصدرُه ويبذُلُهُ في افْتِداء[٣] حُشاشةِ النَّفْس، وثَميلة[٤] الحال ما بدله؛ فبالتَّذَلّل لمَوْلانا يعزّ العزيز، وبالتذلّل عليه يذلّ الذَّليل. وإنْ صحّتْ منه البَصيرةُ، وخَلُصتْ السَّريرةُ؛ فستكْسُوهُ المراجعة شعاراً من الطّاعة، يَتلافاه من السَّقْطة، وينقذه من الوَرْطة.

ومَوْلانا الملك السَّيِّد – أدام الله دَوْلته، وبسط قدرتَهُ – أعلم بالمخايل، وأهدى إلى الدَّخائل، وليس بمدلولٍ على قَبولِ الإنابة من النّادمِ المقرِّ، ولا على إبائها من المداهنِ المصرِّ.

---

(١) من هنا تبدأ قطعة سيلي أوك.

(٢) للمتنبي في مدح سيف الدَّوْلة الحمداني. ابن الإفليلي، شرح شعر المتنبي، السفر الأول، ج٢، ص٤٥.

(٣) ر: اقتداء.

(٤) الثَّميلة في الأصل: بَقيّة الماء في النقرة التي تمسك الماء في الجبل. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٩٢ (ثمل).

وله – أيّده الله – عادةٌ جاريةٌ بالعَفْو عن الهفْوةِ الأُولى، التي لم تَسْبقها قرينةٌ، ولا تَقَدَّمتها نظيرةٌ، فإنْ عَفَى، فعلى سُنّتِه الماضية، وبعض[1] قُدْرتِه القاهرة، وبالرأي الموضوع موضعه، والاختيار الذي لا اضطهاد معه. وإنْ سطا، فبالله ما تحِلُّ سَطْوتهُ إلّا بمَن لا مطمعَ في انتياشه، ولا سَبيل إلى انتعاشه، ولن يُعدمَهُ اللهُ صوابَ العزْم، وصَرِيمَةَ الحزْم، أيّ المذهبينِ ذَهَب، وأيّ الغرضينِ طَلَب.

وقد شَرَّفَ اللهُ مَوْلانا الملكَ السَّيِّد الأجلّ المنصور عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة – أطال الله بقاءه – خادمَهُ بالمكاتَبة تشريفاً باقياً على الأحقاب، سارياً في الأعقاب، مشارِكاً لما أُسدي إليه من الأيادي الجمّةِ، والعَوارفِ الفَخْمةِ، التي جميعها نَصْبُ ناظرِه، وشُغْلُ خاطِرِه، فما من لفظةٍ ولا لحظةٍ – أدام الله عزّهُ – بها، ورآه أهلاً لها في قديمِ من العَهْد ولا حديثٍ إلّا وهو في سُويداء قلبِه مَسْطورةٌ، وبلسان شكرِه[2] مَنْثورةٌ.

فإنْ رأى مَوْلانا الملكُ السَّيِّد الأجلُّ المنصور وليُّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة – أطال الله بقاءه – أنْ يُمرَّ عقد هذه المفاخر والمآثر، ساقياً مغارسَها بسَجْلِه، داعياً لها بعينه، ويحفظَها على خادمه المغتذي بثمرتِها، المُرْتَوي من درّتِها حفظاً يحصّلها في ضَمانه، ويحصّنُها في ذِمامه، ويأمرَ بتَضْمين ما أكاتب به من ابتداءٍ وجوابٍ طرفاً من الاسْتِخدام، لائقاً بما غَمَرني من الإنْعام، في صغيرٍ يُوازي قدري، أو كبيرٍ يجذب إليه بضَبْعي، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ر: بعد.

(٢) ر: ذكره.

وكَتَب عن نفسه في هذا المعنى
إلى الأمير عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة
في شَوّال سنةَ سَبْعٍ وستّين وثلاثمائة[١]

كتابي – أطال الله بقاءه مَوْلانا السَّيِّد الأجلَّ المنصور وليَّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاجَ المِلّة، وأدامَ عزَّهُ ونُصرتَهُ، وتَأْييدَهُ وبَسْطتَهُ، وعلوُّهُ ورِفعتَهُ، وتمْكينه وقُدْرته – عن نفسٍ قد سكّن اللهُ جَأْشتها، وآنَسَ استيحاشَها، ونَقعها من غُلَّتها، وشفاها من عِلّتها، بالفَتْح العظيمِ خطره، الجليل قدره الشّاملة فائدته، العامّة عائدته، فللّهِ على ذلك شكرٌ يوازي نعمتَهُ، ويجازي مِنْحته، ويَمْتري زيادته، ويستدرّ مادتَه.

وهنّأ اللهُ مَوْلانا الملكَ السَّيِّد ما وَهَب له ولخدمِهِ فيه من الظَّفَر بالنّواصي الطّاغية الباغيةِ العادية طَوْرَها، العادِلةِ عن رُشْدِها، المَرْكوسةِ في غوايتها[٢]، المنكوسةِ في ضلالتها، فَلَقَدْ جذَّ[٣] اللهُ منها على يدِهِ أُصولَ الفسادِ المنبّغة، وغوّر عيونه المنبّعة، وحَسَم الأدواء بكيِّهِ وإنضاجِه، وأدْمَل الجُروحَ بطبِّهِ وعلاجِه. وأصبحت الدّنيا متحلّيةً منه بأفضل حِلْيتها، ومُنْجليةً له في أفْخرِ حُلَلِها[٤]، وضاربةً من آثارِه وأفعاله بمُعلّى قِداحها، ومُفضيةً من تدبيرِهِ وسياستِهِ إلى نهاية صَلاحِها؛ فلا أعْدَمُه اللهُ السَّعيَ الرَّشيد، والمقام الحميدَ، والطَّائر السَّنيح، والمَتْجر الرَّبيح، ولا أخلاه من عزِّ الرّاية، وإدراك الغاية، وإعلاء الوليِّ، وإذلال العَدُوِّ، بفَضْلِه وطَوْلِه، وقُوّتِه وحَوْلِه.

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ف: جز.

(٤) ف: حلتها.

وكان المعهودُ – أطال الله بقاء مَوْلانا – ممّن مكّنَ اللهُ له في الأرضِ أنْ يكون هو الجاهد في مطالبِهِ، الكادحَ في مآربِهِ، حتى ينالَ الجميعَ أو البعضَ، ويصل إلى النَّتحِ[١] أو الطَّرفِ. وقد جَعل اللهُ مَوْلانا الملكَ السَّيِّد بحيث تطلبُهُ الفتوحُ، وتتأتّى له الحظوظُ، غَيرَ جاهدٍ فيها، ولا[٢] ساعٍ لها.

ولقد كان أعداؤه هؤلاء الأشقياء في فُسْحةٍ من أمْرهم، وبنجوةٍ من النَّكال النّازِلِ بهم، فمن هاربٍ قد نُفِّس من خناقِه، وأومن من لحاقه، وأُبقي عليه، وأُحسن إليه. ومن وادعٍ قد صِينَ ورُعي، وحِيط وحُمي، وصارَ من جميل الرَّأْي فيه، صالحَ الاعْتقادِ له، في الجانب الأعزِّ، والحِصْنِ الأحْرَزِ، فَلَمْ يرضَ اللهُ فيهم ما رضيناهُ، ولم يُمضِ لهم ما أردناه، للسّابقِ من جرائمِهِم، والسّالفِ من جَرائرِهم، والمسْتَسرِّ لنا في قضائه – جلّ وعزّ – من تَخْويلنا نِعَمَهم وأموالَهم، وتَمْليكنا ديارَهم وأعصارَهم[٣]، فكانوا الفاتحين دوننا أبوابَها، والمسبِّبينَ لها أسبابَها، بالفائلِ من رَأْيهم، والخائبِ من تَأْميلهم.

وعبدُ مَوْلانا الملك السَّيِّد الأجلّ المنصور عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة – أطال الله بقاءه – يقولُ مُرْتجلاً ومُذَكّراً:

قـــلْ للهُـــمام المسْـــتَطيل	بقَـــدْرِهِ السّـــامي الجليـــلِ
يَـــذْكر أبيـــاتي التـــي	أنشـــدتُهُ قَبْـــلَ الرّحيـــلِ
فَلَقَـــدْ ضـــمِنتُ لـــه الـــذي	قَـــدْ نـــال عـــن راعٍ كفيـــلِ
لـــولا اتّقـــاءُ البَغْـــي قَـــدْ	بَشّـــرته بـــرَدَى القَتيـــلِ
وكـــذاك يمضـــي مَـــن نجـــا	مِـــنْ سَـــيْفِهِ[٤] عـــمّا قليـــلِ

---

(١) ف: النطح.

(٢) س: ولها.

(٣) ف: أمصارهم. والعَصَر: الملجأ. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٥٨٠. (عصر).

(٤) ف: سفه.

مــــا زال ذلـــــك بيّنـــــاً[١] للعـــــينِ متّضـــــحَ الـــــدّليلِ
فالحَمْـــــــدُ لله الــــــــذي نَقَــــع الصُّــــدُورَ مــــن الغَليـــلِ

والحمدُ لله حمداً بادِياً عائداً، نامياً زائداً، يتضاعفُ على الأوقات، ويترادفُ على السّاعات، حتى يبلغ منه ما يُرضيه، ويُؤدِّي إليه الحقّ فيه، ولا قَطَع اللهُ عن مَوْلانا عادة المزيد إذا ظنَّ أنْ قد انتهى، والإيفاء إذا خِيل أنْ قد استوفى، وجعل خيرَ هذه الدّار الفانية أقلّ ما يجود[٢] به وينفِّله إيّاه، وخير تلك الباقية أفضل ما يُعدّه له، ويلقيه[٣] إليه، آمين يا ربَّ العالمين.

وأنا - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك السَّيِّد وليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة - ملازمٌ للخِدْمَة في الدّارِ المعمورة[٤]، ومُواظبٌ على مَجْلسِ الأُستاذ - أدام[٥] اللهُ عزَّهُ - تصرّفاً من الأمر العالي على ما سَبَق، وانتظاراً منه لما يَرِدُ[٦]، ومن الله أستمدُّ التوفيقَ، لما زادَني عند مَوْلانا حُظوةً وزُلفى، وأكسبني لَديه أُثرةً وقُربى، وهو حَسْبي ونِعْم الوكيل.

---

(١) ف: بيننا.

(٢) س: يحبوه.

(٣) س: يرقبه.

(٤) ف، ر: المعهودة.

(٥) ر، س: أطال.

(٦) بعدها في ر، س: به.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى رُكْن الدَّوْلة[1]

كتابي -أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة- من المعسكرِ بأعلَى واسِط يومَ الأربعاءِ لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ من المحرَّم، عن سَلامة، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقد تأخَّرَتْ كُتُب مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- تأخُّراً أقلَقَني، وأضعفَ نَفْسي، وشَغَلَ قلبي، فإنّني ما قرأْتُ له كتاباً بعد الكتابِ الذي وَرَد مع سرخُوَيْه[2] الرِّكابيِّ، ولي بحضْرتِه -أجَلَّها الله- عدّة رِكابيَّةٍ وكتُبٌ: فارِسيَّةٌ وعَربيَّةٌ، أشكو فيها بَثّي، وأسألُهُ -أيّده الله- إنعامَ النظرِ في أمْري، وتعجيلَ مَعُونتي ونُصْرتي.

وكان آخرَ ما نفَذَ الكِتابُ المشتمِلُ على ذكْرِ ما كاتَبَني به سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- من أنهُ لا يتمكَّنُ من الخروج من شيراز إلّا بعد الـمِهْرَجان، ويكونُ مَسيرُهُ في أربعينَ يوماً، وأنَّ ذلك شيءٌ طويلٌ لا تحتمِلُ الحال الصَّبْر عليه، ولا الانتظارَ لهُ. وأنّه لو وَرَد سَيِّدي الأمير أبو الحسن -أدام الله عِزّه- ولو في ألفِ رَجُلٍ لَأغنى، لأنَّ في العَسكرِ الذي يكون معه وعسكري هذا وعَسكرِ عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب -أيّده الله- ومَن جَمَعْتُه إلى نَفْسي من أصنافِ الرِّجال والأعرابِ والأكرادِ كِفايةً في قَلْعِ ذلك العدوِّ اللَّعين عن بغداد، وما يَقعُدُ بي إلّا توقُّعُ راية مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- التي لو وَرَدتْ في أيسَرِ عُدّة لكنتُ مستقِلاً مُستظهِراً، وأنْ يَرِدَ علَيّ إذْنُه -أيّده الله- في المَسيرِ؛ لأنّه قد كان أنكَرَ مُفارَقتي من الأهْواز، ورَسَمَ ألّا أبرَحَ من واسِط،

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان فيها: وإليه أيضاً).

(٢) ضبطها ناسخ ل بفتح السين، أما ناسخ ج فبالضم.

فأَجَبْتُ عن هذا بما لا أشُكُّ في وُصولِهِ، وأعلَمْتُه - أطال الله بقاءه - أنّ مَصيري إلى واسِط كان عينَ الصَّواب؛ لأني مَلكْتُ بمَلْكتي إيَّاها أكثرَ الأعمال، وتَوسَّعتُ بما أخَذْتُه من غَلّاتِها وأمْوالِها، وشاعَ أنّني قد سِرْتُ إلى العَدُوّ، فأطاعَ أبو الحسن عِمران[1]، وراقَبَ، وأمِنْتُ أنْ يُخالِفَ ويُكاشِفَ.

وأنفَذَ عُدّة الدَّوْلة أبو تَغْلِب -أدامَ الله عِزّه- أخاهُ في عسكرٍ قويٍّ قد حَصَلَ بتكْريت منذ أيّام، وبَرَز هو عن الموصِل، وعسكرَ في ظاهِرِها وتَوافَى إليَّ النّاس من كلِّ جهةٍ، إلّا أنّ أعيُنَهم ممتدَّةٌ إلى وُرودِ مَدَدٍ من حَضْرة مَوْلانا -أطال الله بقاءه- وإلى أنْ يَعلَموا أنّه قد اهتَمَّ بي وراعَى أمرِي، وأنْ يَصِحَّ عندهم أني ناهِضٌ سائرٌ إلى العَدُوِّ، ولا يتأخَّرَ أحدٌ عن مُساعدتي على الإطباقِ عليه بإذنِ الله.

ومُنذُ توقَّفتُ بواسِط -أيّد الله مَوْلانا- وتأخَّرَ المَدَدُ عنّي، ضَعُفتِ النفوسُ، وانكسَرَتِ القلوبُ، وظَنَّ النّاس أنّه ليس يُجيبُني أحَدٌ، وابتَدأ القريبُ والبعيدُ بالضَّجَر، وخاصّةً مع إقبالِ الشِّتاءِ وتَضاعُفِ المُؤنِ. وأيضاً فإنّ الغَلّات والأموالَ في السَّوادِ والرَّساتيق هو ذا تُنهَبُ وتَذهَب لأنّ كلّ ما قَدَر عليه مَن في جُملتِنا من الأعرابِ والأكرادِ ممّا في يدِ ذلك الملعونِ يُؤخَذُ ويُستباحُ، وكذلك كلُّ ما قَدَر عليه مَن في جُملتِه ممّا في أيدِينا، والعِمارات تَبطُلُ، والمِيَرُ تَضِيقُ، والخَرابُ يَزيدُ، وقد قَوِيَ ذلك الملعونُ، وهو من بغدادَ في بلدٍ كالبحرِ عِظَماً، وفي كلِّ يومٍ يكبِسُ المنازِلَ ويُثيرُ الودائعَ ويحصِّلُ الذخائرَ، ويَجمَعُ الأموالَ، ويُنفِذُ كُتُبه إلى الأطرافِ، ويُفسِدُ كُلَّ مَن استَمَلْتُهُ واسْتَصْلَحْتُه، ويَسعَى لنقضِ ما أُبرِمُهُ وأنظِمُه، وليستِ البلوَى صَغيرَة، ولا أسبابُ الضَّررِ يسيرَة، وهو مع هذا مُبَرِّزٌ عن واسِط. وقد حَدَّثَ نفسَهُ بأنْ يصيرَ إليَّ ويُقَارِعَني، وأُشيرَ عليه بالمُعاجَلةِ قبلَ وُرودِ العساكِرِ المتوقَّعة.

---

(١) عمران بن شاهين المتغلِّب على البطائح.

ومثلُه -أيّد الله مَوْلانا- من الأعداء، سَبيله ألّا يُنظَرَ ولا يُمهَل، وأنْ يُتَدارَكَ خَطْبُه قبلَ أنْ يتفاقَم ويَعظُمَ. وكذلك دَبَّر الأمير السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة -نَضَّر الله وَجْهه- في أمرِ رُوزبهان لما عَصاهُ، وأنّه لم يُنَهْنِهْهُ ولا لبَّثَهُ، بل أظَلَّ عليه وأرهقَهُ حتى اصْطَلَمَهُ في أيّام يَسيرة. وأنا مُضطرٌّ إلى سلوكِ خِلافِ تلك الطَّرائقِ؛ لأنّني مَأمورٌ بألّا أبرَحَ من مَوضِعي، ومنتظِرٌ مدَداً قد تأخَّرَ عنِّي، فأقولُ -أيّد الله مَوْلانا- إنه لو وَرَد خبَرُ عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب -أيّده الله- من تَكْريت، لم يَـحسُنْ بي أنْ أتأخَّرَ عن المسيرِ، وما أدري ما أدبِّرُ ولا كيف أصنَعُ، وصورتي صورَةُ العَبْدِ الذي يُنهي ما هو فيه ويَصدُقُ عنه، ومَوْلانا -أطال الله بقاءه- هو المالكُ المُدبِّرُ، وما أوْلاهُ أنْ يتأمَّلَ الحال، ويَعلمَ أنَّها - من جميعِ جهاتِها - لا تُمكِّنُ من الانتظارِ، ولو قد وَرَدتْ من سَمتِ الرَّيّ رايةٌ له -أيّده الله- في نفَرٍ من الرِّجال لقَوِيَتْ قلوبُنا، وضَعُفَت نفوسُ أعدائنا، ولَسِرْنا جميعاً وتَعاضَدنا ودَفَعناه وقَلعناهُ بإذنِ الله، واستَراحتْ منهُ تلك البلادُ، وأمِنَتْ على مَن فيها من العِيالِ والأولادِ، ورَجَوْتُ أنْ أستَدرِكَ مِحْنتي وأتلافاها، وأنْ أستأنِفَ تدبيرَ أمري بما تَثبُتُ معه قَدَمي، وبالله أستعينُ وعليه أتوكَّلُ، ثم إلى مَوْلانا -أطال الله بقاءه- ألجأُ وبه أنتصِر.

فإنْ رأى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة أنْ يتطوَّلَ على عَبدِه، ويُعينَهُ بمَسيرِ سَيِّدي الأمير أبي الحسن -أدام الله تأييدَه إليَّ- والإذنَ له في القُربِ منّي، لأسيرَ حينَئذٍ ونتعاضَدَ، وينثالَ إلينا هؤلاء الأعرابُ ونُناجِزَ العدوَّ -خَذَلَهُ الله- ونستعينَ عليه - بإذنِ الله جلّ اسمُه- فَعَل إنْ شاء الله. فإنْ تعذَّر -أطال الله بقاءه- أنْ تـجيئني عن قُربٍ نُصْرةٌ منهُ -أيّده الله- كثيرةٌ أو قليلةٌ، أمَرَ -لا زالَ أمرُهُ عالياً- بتعريفي الصّورةَ لأطرحَ نَفْسي على هذا الملعونِ طرْحَ المُخاطِر، وأُحاكمَهُ إلى الله، وأرضى بما قضاه، وأقنعَ بما أمضاه، إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى رُكْن الدَّوْلة
عن مُحمّد بن بَقيّة[١]

كتابي -أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة- من المعسكرِ بأعلى واسِط يومَ الأربعاءِ لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ من المحرَّم، عن سَلامة مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- واستقامةِ الأمورِ بحضْرتِهِ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكُتبي متَّصِلةٌ إلى حَضْرة مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- إلّا أنّي كنتُ أُخفِّفُها تعويلاً على الشرحِ الذي تتضَمَّنُه كُتُب مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- وقد تأخَّرتِ الأجْوِبَةُ عن حضْرتِه الجليلةِ تأخُّراً أضعَفَ النُّفوس وضيَّق الصُّدورَ، وتضاعَفَ معه قلَقُ الأمير عِزّ الدَّوْلة، وكاد أهلُ العسكرِ ومَن وَرَد إلينا من كلِّ مَوضعٍ يَضجَرونَ ويقنَطُون، وبالله نستعينُ. وهو - جَلَّ وعَلا - يُجري مَوالِيَنا على أفضلِ ما عوَّدَهم، وينتقِمُ من حسَّادِهم وأعدائِهم، ويتَولاّهُم بالنَّصْر والمعُونة في نُفوسِهِم وأوليائهم بقُدْرته.

وقد كَتَب مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة إلى مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءهما- بما أضَفْتُ هذا الكتابَ إليه، وشَرَح من الأمورِ ما أذكُرُ ما عندي فيه بحقِّ النّصيحة اللّازمةِ لي، ولأنني أجِدُ خَدمَهُ في إحسانِه وإنعامِه ووُزرائه النّاشِئين في دَوْلته وأيّامه.

وقد عادَ -أيّد الله مَوْلانا- تَمادي الأيّام بالضَّررِ العظيمِ فيما بيننا وبينَ العَدُوِّ اللَّعين، لأنّ الإهمالَ له يُقوِّي أمرَهُ، ويَجمَعُ شملَهُ، ويَربِطُ جَأشَهُ، وفي كُلِّ يوم يَظفَرُ بمالٍ

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة. (العنوان فيها كلها: وإليه عن محمد بن بقية).

يأخُذُه، وذُخرٍ يُحصِّلُه، فقد استَظْهَرَ واستكبرَ، وطَغَى وتجبَّر، وأحدَثَ له توقُّفُنا بواسِط عُجْباً بنفْسِه، وتمادِياً في غيِّه، حتى أنهُ قد برَّزَ على سَمْتِ واسِط، وعمِلَ على أنْ يكون هو الصّائرَ إلينا، والمناجِزَ لنا، بعد أنْ كان يخافُنا، ويُعِدُّ أسبابَ الهَرَبِ مِنّا.

والسَّوادُ الذي منهُ الموادُّ، وفيه الإقطاعاتُ والمعايشُ، يَخرَبُ ويبطُل، والغاراتُ التي تُشَنُّ عليه من جهتِنا وجهتهِ، لأنَّ كلّا من أصحابِنا وأصحابهِ لا يَألو جُهداً في إخرابِ ما في يدِ عَدُوِّه، ولو أرَدْنا كفَّهم لما كَفُّوا، إذ كانوا أعراباً وأكراداً، الفتنةُ سيرَتُهم[١]، والغارَةُ عادَتُهم، والعِمارَاتُ مع ذلك تَفُوت، والأقواتُ تَضيقُ، والشتاءُ يُقبِلُ، ومَن قد حَضَرَ للمُعاونةِ يَضجَرُ.

وقد ظَهَر من عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب -أدامَ الله عِزّه- فِعلٌ جميلٌ، وعَمِلَ ما يَعمَلُهُ الأحرارُ، وامتعَضَ واحتَمى، وحافَظَ ورَعَى، وكاشَفَ العدوَّ ونابذَه، وأجابَهُ أجْفَى جَوابٍ عن رسالةٍ ومُكاتَبة، وأنفَذَ أخاهُ في جيشٍ كثيفٍ إلى تَكْريت مُقَدَّمةً لهُ، وبرز هو عن المَوصِل، وكَتَب يَسألُ عن المدَدِ، وعن الوقتِ الذي ينبغي أنْ يسيرَ فيه ليكونَ على اتّفاقٍ وتقدير.

ومَوْلايَ الأمير عِزّ الدَّوْلة واجِمٌ لا يدري ما يُجيبُه، إذ ليس عندنا خَبرٌ لجيشٍ سائرٍ إلينا، ولا لمَدَدٍ قَرُبَ مِنّا، ولا يجوزُ أنْ نَسيرَ فنُخالفَ الأمرَ الوارِد، ولا أنْ نستمرَّ على التَّلوُّمِ فيتقاعَسَ مَن تجرَّدَ للمُعاونةِ والمُعاضَدة.

ومتى تَمَّ عُدّة الدَّوْلة أبو تَغْلِب -أيّده الله- إلى تَكْريت، لم يَسَعْ مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- التوقُّفُ عن الإصعاد، ولو توقَّفَ -أيّده الله- لما توقَّفَ العَدُوُّ عن طرح نفْسِه عَلينا، وإمضاءِ عزيمتِه في المَصيرِ إلينا، والأمرُ في وُرودِ مَوْلاي الأمير

---

(١) ج: سوقهم.

عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- بعيدٌ إذا صَحَّ أنهُ سائرٌ في الـمِهْرَجان، وتقديرُهُ أنه يَصِلُ بعد شهرَيْنِ. والقصّةُ لا تُمهِلُ نِصفَ هذه المدةِ، فَضْلاً عن جميعِها.

ولو أنعَمَ مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- بتسيير مَوْلاي الأمير أبي الحسن - أدام الله تأييدَه - فيمَن معه من الجيشِ، لكان في عَسكرِه وهذا العسكرِ - حَرسَهُما الله- بلاغٌ وإقناع، خاصَّةً مسيرَ عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب -أيّده الله- وما يقدِرُ مثلي - أيّد الله مَوْلانا الأمير السَّيِّد - على أكثرَ من الخِدْمةِ والاجتهادِ، وإنهاءِ الصّورة على الشَّرْح والتَّلْخيصِ. ثم إنّ الأمرَ له -أطال الله بقاءه- ومَوْلايَ الأمير عِزّ الدَّوْلة - أدام الله عِزّه- وَلَدُهُ وكُلُّ مُتَعلّقٍ به خادِمُهُ، والبلادُ التي تُنسَبُ إليه بلادُه، ونحنُ تحت السّمعِ والطّاعة، ومَوْلانا -أطال الله بقاءه- أعلى عَيْناً، وما يراهُ ويُنعِمُ به في ذلك إنْ شاء الله.

نُسْخة جَوابِ تَذْكِرةٍ وَرَدت من حَضْرة الأمير رُكْن الدَّوْلة[1]

وقَفْتُ على ما تحمَّلَهُ أبو مُحمّد عُمَير بنُ مُحمّد -أيّده الله- من رسائلِ مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- وجَلّ عندي مَوقِعُ ما تضَمَّنتْ من التفضُّلِ بالإرشادِ والتَّوْقيفِ، والتنبيهِ والتّعريفِ، وافترَضْتُ على نَفْسي الاحتِذاءَ لأمثلتِهِ، والاقتِفاءِ لمَراسمِهِ، لا أعْدَمَني الله فَضْلهُ وطَوْلَهُ، ولا سَلَبني ذُراهُ وظِلَّهُ، فإنّه السَّيِّد الذي بآدابِهِ يُقتَدى، وبآرائه يُهتَدى، وبتقويمِه يُتَقوَّمُ، ومن عِلمِهِ يُتعَلَّمُ.

فأمّا اللَّعين سُبُكْتِكين وما أورَدَهُ مَوْلانا الأمير -أطال الله بقاءه- فيما كنتُ قدَّمته إليه من الشكوى، والْتمَسْتُهُ من العَدْوَى، وما كتَبْتُ به من الأهْواز عند إقدامِهِ على ما أقدَمَ عليه، وإجرائهِ إلى ما أجرَى إليه ممّا الله عليه حَسِيبُه، وبه طَلِيبُه، فما زِلتُ أتصوَّرُ هذا الغادِرَ الفاجِرَ بالصُّورَةِ التي هو بها من العُجْبِ والخُيَلاءِ، والاستطالةِ والكِبرياءِ، والذُّهولِ عن شُكرِ النِّعْمة الجَسيمةِ، والاستعدادِ لارتكابِ الخُطَّةِ العَظيمةِ، وأُقاسي منهُ ما يُنغِّصُ عَيْشي، ويقْذِي عيني من إفسادِ الغِلْمان وإضْرائِهم[2]، وتحريضِهم وإغرائِهم، ونَقْلِهم عن المحاسِنِ التي نَشَأوا عليها إلى المَقابِح التي جَذَبَهم إليها، ومِن إدخالِ الضَّيْم والضَّررِ عليَّ بكلِّ ما تتَّسِعُ له قُدرَتُه وتَنفُذُ فيه حِيلتُه.

وما كنتُ أكتُبُ إلى مَوْلانا -أطال الله بقاءه- تلك الكُتُبَ المتَقدِّمةَ إلّا عن ضرورةٍ قائدة، وأدِلَّةٍ شَاهدة، وأماراتٍ مُنذِرَة، وقَوارِصَ مُحذِّرَة، والآنَ فقد رَكِبَ المركَبَ الذي

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة.

(٢) أي: الإغراء.

لا بدَّ أنْ يتَردَّى راكِبُه، ويتجدَّلَ فارِسُه. ولله عند مَوْلانا -أطال الله بقاءه- وعندَنا عادةٌ جميلَةٌ في التمكينِ من ناصِيةِ كُلِّ باغٍ طاغٍ، جاحِدٍ غامط، وهو بتَطوُّلِهِ يُـجرينا عليها، ولا يُـخلينا منها.

وأمّا ما ذكَرَهُ -أدام الله علوَّهُ، وكَبَت شانِئَهُ وعَدوَّهُ، من تقريرِ الرأيِ على اعتناقِ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- مَعُونتي، ومَسيرِهِ إلى أعمالِهِ التي في يدي، وتوجُّهِ سَيِّدي الأمير أبي الحسن -أدام الله تأييدَه- إلى الجبَلِ للقُرْبِ منّي، والإتمامِ في وقتِ الحاجةِ إلى مُستقرِّي، فذلك نهايةُ ما يَرجوهُ الرّاجي، ويعتمِدُ عليه اللّاجي، إلّا أنني قد كتَبْتُ بأنّ المدَى بعيدٌ، والأمدَ طويل، فإنّ كتُبَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- تَرِدُ بأنّه يَسيرُ بعد الـمِهْرَجان، وتقديرُ الوصولِ في أربعينَ يوماً، والعدُوُّ قريبُ الدّار، مُستَعِدٌّ للانحدار، بانٍ أمرَهُ على العَجَلةِ، مستَوفِقٌ لنفسِهِ المناجَزَةَ، وليسَ يَـجوزُ إنْ وَرَد أنْ أنكُصَ فتلحَقَني القَباحَةُ والمعرَّةُ، والفَسادُ والمضَرَّةُ، ونتفَرَّقُ وقد جمعَتْهُ الفتنَةُ واجتَذَبَتْه واستدعَتْهُ، وتَضعُفُ مُنَنُ مَن معي من الدَّيْلَم الذين هم -في هذا الوقتِ- كالأُسودِ تنزِّياً وإقداماً، وكالنّارِ تلهُّباً واضطراماً، وإنْ ثَبتُّ له غيرَ مستظهِرٍ بمزيدٍ من الرِّجال ومَددٍ من السِّلاحِ، كنتُ راكِباً للخطَرِ، وداخلاً تحت الغرَرِ، والحاجَةُ ماسَّةٌ إلى تطوُّلِ مَوْلانا -أطال الله بقاءه- بالتقدُّمِ بإنْفاذ طائفةٍ من الرِّجال يُسيَّرونَ جَريدةً، ويَصِلونَ إليَّ في المدةِ القريبة، وأستعينُ بهم على ما رَسمَهُ من انتظارِ الأمدادِ المتَوافية. وقد سَبقَتْ كُتبي بالصِّدقِ عن الحال التي تَقتضيه، ولمولانا -أطال الله بقاءه- عُلوُّ الرأيِ فيه إنْ شاء الله.

وأمّا مَسِيري إلى واسِط، فقد كان الصّوابُ مقروناً به، والتّوفيقُ مُصاحِباً لهُ، لاشتمالي على غَلّاتِ هذه البِلادِ وأموالها، وانتفاعي بمِيَرِها وأقْواتِها، وقُرْبِ المدى على الدَّيْلَم المنكوبينَ ببغدادَ في الانسلالِ إليَّ واللَّحاقِ بي، ومُراقَبةِ أبي الحسن عِمْران -أيّده

الله- إيّايَ مقامَهُ على عهدِي، وإعراضِهِ عمّا لم يكنْ يؤمَنُ أنْ يُصغِيَ إليه من إفسادِ عدوِّي، وإنْفاذ عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب -أدام الله عِزّه- مَن أنفَذَهُ إلى تَكْريت من الرِّجال مقدَّمةً لهُ، واستعدادِهِ للانحدارِ على أثَرهم. ووَرَد صاحِبُه في هذا الوقت، وقد شاهَدَهُ أبو مُحمّد عُميرُ بنُ مُحمّد -أيّده الله- مُتطلِّعاً للرأي في المسيرِ، ومُظهِراً للجَدِّ والتشمير، وكُلُّ ذلك ممّا يَفُتُّ في عَضُدِ اللَّعين الخائن، والناكِص الحائن، ولو لم أسبِقْهُ إلى هذه الأسبابِ لَسَبقَ هو إليها وقَوِيَ أمرُهُ بها، وحالَ بيني وبينَ كثيرٍ من المصالحِ والمناجحِ التي قد تَفرَّدتُ واستَبْدَدْتُ بها عليه والحمدُ لله.

وأمّا التوقُّفُ عن العَجَلةِ، واستعمالُ الصَّبْر والأناةَ، فكذلك أفعَلُ -أيّد الله مَوْلانا- وقد وَرَدتْ كتُبُ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- يُشيرُ فيها بمثلِه، ورسَمَ ألّا أتجاوزَ واسِطاً، ولو كان الصَّوابُ عندي أن أتجاوَزهَا لَضَرَبْتُ عنه صَفْحاً، وطَوَيْتُ دونَهُ كَشْحاً، ومَا استَجْزتُ أنْ أرُدَّ رأيهُ ولا أُخالِفَ تدبيرَهُ، إلّا أنّ العدوَّ -أدام الله تأييدَ مَوْلانا- عامِلٌ على الانحدارِ إليَّ، ومُحَدِّثٌ نفسَهُ بالإقدامِ عليَّ، وهذا هو الذي اقتضاني المسألةَ في إنْفاذ جريدةٍ من الرِّجال من أيِّ جهةٍ كانت لأستعينَ بهم على الثَّباتِ، وأرجو أنْ لا يتأخَّروا بمَعُونةِ الله.

فأمّا البصرة فهي مضبوطَةٌ محروسَةٌ، وقد زِدتُ في إحكامِ سُورِهَا وإتقانِهِ، وتَعْلِيتِهِ وبُنيانه، وفي عُدّة المرسومينَ لحفظِهِ والمندوبينَ لضبطه، والله الحافظُ والواقي، والكالىءُ والرّاعي.

وأمّا ما أومَى إليه مَوْلانا الأمير من تَوْفيةِ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة حَقَّهُ الذي يَستوجِبُهُ بقَدَمِه المتقَدمة، وسنِّه الزّائدة، وفضائله الظّاهرة، ومناقبِه الباهِرة، فمَوْلانا -أطال الله بقاءه- يَعلَمُ أنّني غُصنٌ من أغصانِ دَوحَتِه، وفَرْعٌ من فروعِ أرُومتِه، وعارِفٌ بسُنَّةِ أهلِ بيتنا التي يتقَيَّلُها الطّارِفُ عن السّالِف، ويأخُذُها اللّاحقُ عن السّابِق في

تعظيم الصَّغيرِ الكبير، وتناوُلهِ بالإجلالِ والإكرام، وإذا اعتقَدَ أنني أتقدَّمُ بالتأخُّرِ عنهُ، وأتأخَّرُ بالتقدُّمِ عليه، وأنّ مَعرِفتي لحقِّه، ووقوفي دونَ غايتهِ، محسوبٌ في المآثر التي سَبيلي أنْ أكتسِبَها وأحرِصَ عليها.

وقد كتبتُ في هذا المعنى بما لا أشُكُّ في وُصولهِ، ولو جازَ أنْ أُطلقَ لفظي بالاستغناءِ عن كَلمةٍ رَشيدةٍ أسمَعُها من مَوْلانا لَقُلتُ: إنّ هذا الفصلَ ممّا يُستغنىَ عنهُ، لكنّي قد تلقَّيتُ أمرَهُ باليَدين، ووَضَعتُهُ على الرأسِ والعَينين، وازدَدْتُ به بصيرةً إلى بصيرتي، ويَقيناً إلى يقيني، وإذا سَهَّل الله لِيَ النظرَ إلى سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة خدمتُهُ بغايةِ وُسعِي وطاقتي، وتقرَّبْتُ مَنه بنهاية جُهدي واستطاعتي، وأعطَيتُه من نَفْسي ما كنتُ أُعطيهِ مَوْلانا -أطال الله بقاءه- أنْ أسْعَدني الزّمان بمشاهَدةِ غُرَّتهِ، وأسعَفَني بالمثولِ بحضْرتهِ إنْ شاء الله.

وأمّا أبو منصور بَخْتِكين الحاجبُ -أدام الله عِزّه- فأنا أمتثلُ ما أمرَ مَوْلانا -أطال الله بقاءه- في المزيدِ من الإحسانِ إليه، والبَسْطِ له والإنافةِ به، والإعلاءِ لخَطرِه، وهو على أرشدِ طَريقةٍ في الإخلاص والنُّصحِ، والشكرِ والنَّشرِ، تمَّمَ الله له توفيقَهُ.

وأمّا ما سوى هذا من الأُمورِ التي مَثَّلَها مَوْلانا لأبي مُحمّد[1] عُمَيرِ بنِ مُحمّد، فقد بلَغَ نهايةَ ما يَبلُغُه الوليُّ المُخلِصُ لنا، والشيخُ المُتحَقِّقُ بنا، وسَلَك فيما خاطَبَ به الأولياءَ عن مَوْلانا -أطال الله بقاءه- ألطَفَ مسلَكٍ، ودَخَل من أقربِ المداخِل، ونفَعَ الله بما أتاهُ، وأبانَ المصلحَةَ فيما أدّاهُ وحَكاهُ، واستحقَّ منّا أنْ نَزيدَهُ من التَّكرِمة، وتُضعفَ له الأُثرة، وكَلَّفتُه أنْ يَصيرَ إلى حَضْرة سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- مُذكِّراً له الحرَكةِ، وراغباً إليه في المبادَرةِ، وسائلاً له تقديمَ طائفةٍ من الرِّجال، ومُورِداً عليه ما شاهَدَهُ من الحال.

---

(١) في الأصول: علي، وتقدّم: مُحمّد ص٢٠٤، ص٢٨٩، ص٢٩١.

واستجابَ وانقادَ، وذكَرَ أنّ مَوْلانا قد أوجَدَهُ الرُّخصَة إلى التصرُّفِ على أمري، والتوجُّهِ لمهمّتي، والله يجعَلُ التوفيقَ في ذلك معنا، ويُسهِّلُ أسبابَ الاستظهارِ لنا، ويُعينُنا على كَشْفِ ما أظلَّنا، ويَمُدُّ لمَوْلانا في العُمُرِ، ويُوقينا فيه من مَكائدِ الدَّهْر، ويُعيذُنا من مُفارقةِ كنَفِه المؤلِّفِ لشملِنا، النّاظِم لحبلِنا، الواصِلِ لذاتِ بيننا، الدّاعي إلى دَوامِ عزِّنا بقُدْرته، والعينُ - أدام الله تأييدَ مَوْلانا- ممتدَّةٌ إلى طالِع غَوْثٍ يَطلُعُ ويَسبِقُ من جهةِ سَيِّدي الأمير أبي الحسن -أدام الله تأييدَهما- ومِن جِهتِهما جميعاً، لتتماسَكَ به الأُمورُ، وتؤمَنَ من المحذورِ، إلى أنْ يَرِدا بنفوسِهما بباقي الجُيوشِ وجَماهيرِ العساكرِ إنْ شاء الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى الأمير عَضُد الدَّوْلة[١]

كتابي، وقد تتابعَتْ كُتبي إلى حَضْرة سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله تأييدَه- بشَرْح الحال في عبوري إلى هذا الجانِب، وإنّني استوقَفْتُ الانتقالَ إليه، لأنّه أعْمَر، والمِيرَةُ فيه أغْزَر، ومَوضِعُ العَسكرِ منه أحْصَن، والدَّيْلَم في مثلِهِ أمْكَن، ولأنني أرَدْتُ أنْ تتمادى الأيّام بإحْواجِ سُبُكْتِكين الحائن إلى العُبورِ الذي إنَّما يتِمُّ في مُدَّةٍ أزدادُ بها في الفسحةِ، إذ كان غَرَضُهُ المناجَزةَ، وغَرَضي المحاجَزة، طاعةً لسَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- وانتظاراً للجَريدةِ التي سألتُ تعجيلَها.

وكان على مُقدَّمتِهِ حَمْدان بنُ ناصرِ الدَّوْلة، وقد انتهَى إلى جَبُّل[٢]، وبيننا وبينَها خمسةَ عَشَرَ فَرْسَخاً، وانتهَى هو نَفْسُه إلى دَيْرِ العاقُول[٣]، وبيننا وبينَها ثلاثونَ فَرْسَخاً، ثم توقَّفَ الفريقانِ بموضِعِهما توقُّفاً كنتُ أظُنُّه للفِكَرِ في العُبورِ إلى الجانبِ الذي عَبَرْتُ إليه، وكان الله من وَراءِ الانتقامِ منهُ، والاصطلامِ لهُ، ورَفعِ الحِلْم عنهُ، وإدارةِ الدّائرةِ عليه. فلمّا كان البارحَةُ وَرَد كتابُ حَمْدان بن ناصِرِ الدَّوْلة عليَّ، مشتملاً على كتابِ ألفتِكين إليه بوفاةِ سُبُكْتِكين، بخطِّ المعروفِ بابنِ أدِّي كاتِبِهِ، وأنها كانت ليلة الأربعاء، وبالاستدعاءِ إلى دَيْرِ العاقُول والاجتماعِ بها، وتقديرِ التدبيرِ فيها، إذ كان قد انتصَبَ مَنْصِبَهُ وقام مقامَهُ، وتراضَى الأتراكُ برياسَتِه.

---

(١) چستربتي، ليدن، القاهرة.

(٢) بليدة بين النعمانية وواسِط، في الجانب الشرقي. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص١٠٣.

(٣) بليدة بين النعمانية والمدائن، بينها وبين بغداد خمسة عشر فَرْسَخاً على شاطىء دجلة. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٠.

وذكَرَ حَمْدان أنّه ماضٍ إلى هُناك، وواضِعٌ نفْسَهُ للانسِلالِ إلينا بعد أنْ يتمكَّنَ من جَذْبِ أسبابِهِ وسَوادِه، وبعدَ أنْ يُوثَقَ له بما الْتمَسَهُ واقترَحَهُ. وقد أجَبْتُه، وأزَحْتُ في هذه التوثِقَةِ علَّتَهُ، ولعَلَّهُ أنْ يَفيَ بوعدِه، وينتهيَ إلى رُشدِه بإذنِ الله.

وتَواتَرتْ أمسِ الأخبارُ -أيّد الله سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- بصحَّةِ الخبر، تواتُراً لم يَبْقَ في نَفْسي رَيْبٌ منهُ، ولا شَكٌّ فيه، وأنّ ذلك اللَّعين اعتَلَّ عِلَّةً مَكثَ فيها أربعةَ أيّام، وأفضَى منها إلى تَلَف نفْسِهِ، وحُلولِ رَمْسِه، والانقلابِ إلى ما أعَدَّهُ الله له ولأمثالِهِ من العذابِ، وسُوءِ المآبِ، وسُكْنى النّارِ ومثوَى الكُفّارِ، فالحمدُ لله الذي قصَّرَ مُدَّتَهُ وصَدَع مروءتَه، وبَتَر عُمرَه، وكفَى أمرَهُ. وإيّاه نَسألُ أنْ يُوَفِّقَنا لشُكرِ هذه النِّعَم العِظامِ والمواهِبِ الجِسامِ، والآياتِ التي يُظهِرُها في كُلِّ عانِدٍ عَنّا، وغامطٍ لنِعمتِنا، وجاحِدٍ لصَنيعَتِنا، وحاطبٍ على دَولتِنا، بقُدْرته.

واقتضَى الرأيُ -معَ ما تحقَّقْتُه من انتصابِ ألفتِكين في مَوضِعِهِ، وانعقادِ الرئاسةِ على تلك الطّائفة له، واجتماعِهم عليه ورضاهُم به، أنْ توقَّفْتُ بمُعَسكرِي هذا، ولم أخِفَّ إلى النهوض عنه والمُفارقةِ له إلّا على بَصيرةٍ من أمري وثقةٍ من تدبيري، ولا سِيَّما مع ما أمَر سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أدام الله عِزّه- وتمثيلي أمْرَهُ الواردَ عليَّ بأنْ أُقيمَ ولا أُرِيمَ، وأتمهَّلَ ولا أعجَلَ، وإنْ كاتَبْتُهُ على يد أبي أحمدَ الحسين بنِ موسى العَلَويّ -أيّده الله- بما قد أنفَذْتُ نُسخَتَهُ دَرْجَ كتابي هذا ليقِفَ -أدام الله عِزّه- عليها، وكاتَبْتُ القُوّادَ والحجّابَ والغِلْمان أدعُوهم إلى الرّجوعِ والنّزوعِ، وعِصْيانِ الشّيطانِ وطاعةِ الرّحمن، وأبذُل لهم العفوَ والأمان، والإفضالَ والإحسان، وأرجو أنْ ينجحَ هذا السّعيُ والاجتهاد، وأنْ يكون سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- موافِقاً للصَّوابِ والسَّدادِ إنْ شاء الله.

ووَرَدتِ الأخبارُ في هذا اليوم -أيّد الله سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة- بأنّ ألفتِكين تـمَّمَ جِسْراً كان ذلك اللَّعين الخائنُ عقَدَهُ بدَيْرِ العاقُول[1]، وجَدَّ في تعبيرِ الرِّجال عليه ليستويَ معي على أرضٍ واحدة، وأنّه مُعِدٌّ مُبادرٌ، مجدٌّ مثابِر، والله يُلحِقُهُ بصاحبِه، ويُسلِكُهُ سَبيله، ويَـجمَعُهما في الجحيمِ، كما جمَعَهما في ارتكابِ العظيم.

وأنا على جُملتي في التَّوكُّلِ على الله، وامتدادِ العينِ إلى ما يُنعِمُ به سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة -أطال الله بقاءه- من المُبادرةِ بالطّائفة التي يُـجرِّدُهَا، والعمَلِ على المسيرِ في إثْرِها، إذ كانت الفتنَةُ قائمَةً بحالِها، وما فقد منها إلّا عينُ ذلك اللَّعين، وهو -أطال الله بقاءه- أعلى عيناً، وما يَراهُ في ذلك وفي التقدُّم بمُكاتبتي بذكْرِ سَلامتِه وعافيتِهِ لأُسَرَّ بهما، وعالي أمرِهِ ونهْيِهِ لأتصَرَّفَ عليهما إنْ شاء الله.

---

(١) ل: العاقلون.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى أبي المعالي شريف بن سيف الدَّوْلة[١]

كتابُنا، والسَّلامةُ لنا شاملةٌ، ولدينا راهنة، ونحن بنعمة الله فيها مُحدِّثون، ومنها بالشكر مُستزيدون. ووَصَل كتابُك بما أذكرتَ به من الحرمات بين السَّلَف، ودللتَ عليه من تمسُّكك بها، واعتلاقك أزمّتها، ومراعاتك الحقّ فيها، ووصفتَه من انزعاجك وارتياعك للحادث – كان – من كافر نعمتنا سُبُكْتِكين حاجبنا، ومَن اتّبعه من غِلْمانِنا، في الفتنة التي شَبَّها، والغارة التي شَنَّها، والخلاف علينا الذي قطع به العِصْمة، وتنجّز به نازل النقمة، وبذلتَه من المعاضدة لنا، والكون معنا، وإنْفاذ العدّة من الرِّجال التي انتهى إليها وُسْعك لخدمتنا، والانضمام إلى عساكرنا، وفهمناه.

ووَجَدْناك قد قلتَ القول السَّديد، وأبنتَ عن الرأي الرَّشيد، وأتيتَ ما يأتيه مثلُك من النجباء ....[٢]، البررة الوادين، وأوجبتَ علينا حقّاً مستحدَثاً يَنْضاف إلى الحقوق السّالفة، والمواتّ السابقة التي قد بانت لك أثر رعايتنا لها، وحفظها إيّاها، في المعاملات بيننا وبين أخينا وسَيِّدنا عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب – أدام الله عزه – وأحسن عن المودّة والمشاركة جزاءه وجزاءك، ووَصَل إخاءه وإخاءك.

ولو دعتنا حاجةٌ إلى استنهاضك لحشمناك ذاك عن ثقةٍ بأنك تُسرع وتُبادر، وتُجيب وتُطاوع. ولكنا رفهناك وأجممناك، وعلمنا أنّ البلاد التي أنت بها تختلّ عليك إذا فارقتَها، وتلتاثُ إذا بعدتَ عنها. ونحن بما يمسّنا منها، ويهمّنا من صَلاحها حقيقون

(١) طهران.

سعد الدَّوْلة ابن سيف الدَّوْلة جلس على عرش أبيه في حلب سنة ٣٥٦هـ. أفرد ابن العديم فصلاً للحديث عن حلب في أيّامه. زبدة الحلب، ص٩١ وما بعدها

(٢) كلمة غير مقروءة.

بأنْ نوفّرك عليها، ونعينك إذا احتجتَ إلى المعاونة على ضبطها، وحَسْم الأطماع من كلّ قريبٍ وبعيدٍ عنها. وكان خطب أولئك الغِلْمان النّاشـزين علينـا، الغـامطين لإحسـاننا يسيراً في جنب ما أوجدناه الله من القُدرة عليهم، والإحاطة بهم، والتمكُّن من اجتثـاث أُصولهم، وتعفية آثـارهم. ولا شـك في وُقوفـك عـلى الحـروب المتّصـلة بيننـا وبيـنهم بواسِط، وأنها أجلت عن هزيمتهم عنها بعد استحرار القتل فيهم، واستمرار النكبـات بهم، ومعرفتك بوُرود سَيِّدي الملك في العساكر التي لا قِبَل لها، ولا لأضعافٍ لهم كثيرةٍ بمقاومتها. وإنّ الله ....[1] للوقوف عليها في أكناف مدينة السَّلام بعلّة ما استوفوه من البَوار، ودَواعي الإدبار، وأنّ الشِّرْذِمة الناجية منهم أجفلت بحـالٍ سـيئة مـن نـزع النِّعَم التي ألبسوها، والأموال والأحوال التي خولوها، وتمزّقـوا بـين مسـتأمنين إلينـا، وإلى أخينا وسَيِّدنا عُدّة الدَّوْلة، أو ذاهبٍ على وجهه لا يجد أرضاً تقلّه، ولا أحداً يقبله.

ونحن نحمد الله على ما وَهَب وأعطى، ونستوزعه شكر ما منح وأسـنى، ونسـأله أنْ يجعلنا وإيّاك ممّن يحسن حمل الصَّـنيعة، وحفـظ الوَديعـة، ويتـوقّى مَصـارع البغـي، ومَواقف الخزي، ولا يسلبنا ما مدّ من ظلّه علينا، وتابع من فضله لدنياه، بقُدْرته.

وأصدرنا هذا الجواب ونحن في الـوطن مسـتقرّون، وعـلى ....[2] ممـا لحـق المسلمين من تلك الطائفة الباغية متوفّرون. وقد أصلح الله الأمر، وضمّ النشـر، وجمـع الشمل، ووَصَل الحبل، وعدل الميـل، وقـوم الرفـع، وأوجـب علينـا مضـاعفة شـكره وحمده، وامتراء المادّة من إنعامه وطَوْله.

وأنت وَليٌّ بأنْ تأخذ من المسرّة بأوفر حظوظك، وتضـرب فيهـا بـأوفى سِـهامك، وتشفع المكاتَبة التي افتتحتها بمواصلة تبسط فيها، وتزيد في تمكين السَّبب بها، إنْ شـاء الله تعالى.

---

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) كلمة غير مقروءة.

تَذْكِرةٌ
عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة[١]

قد اشتمل الكتابان اللّذان احتملهما الشريف عنّا، وعن الوزير[٢] إلى مَوْلانا — أطال الله بقاءه — على ما جاز أنْ يتضمّنه من المكاتَبة. ونحن نقصر هذه التَّذْكِرة على ما ينبغي أنْ يورد مشافهته؛ ليرجع الشريف[٣] إليها رجوعاً يحفظ عليه ما سَمِعه منّا، ويؤمنه عن تحرّفه عن مُرادنا.

فأوّل ذلك إعلامه — أدام الله علوه — أنّه كان ممّا حكاه فاذار بن يَزْد فيروز التوجّد من انتحال اسم الرئاسة دونه، والاستبداد به عليه، والعُدول في ذلك عن سُنّة أهل البيت — حرسهم الله — من عقد الأمر لأكبرهم سِنّاً. وهذا أصلٌ صحيحٌ لا يُدفع، وماضٍ لا يُمنع، إلّا أنّ الشريطة فيه ألّا يتطرّف كبيرٌ منهم صغيراً، ولا صغيرٌ كبيراً، فإنْ يكونوا في مَودّات القُلوب، ونيّات الصُّدور مشتركين متّفقين، فمتى ناب أحدَهم خَطْبٌ يعجز عن الثبات لحسْمه، أو قَصَده عدوٌّ يضعف عن المقاومة له، كان على

---

(١) طهران، والعنوان فيها: (تذكرة).

تتعلّق هذه الرسالة بأحداث الصراع بين عِزّ الدَّوْلة وعَضُد الدَّوْلة، وسيتضح أن من أسباب الصراع تنافسهما على لقب (شاهانشاه).

(٢) الوزير محمد بن بقية.

(٣) هو الشريف أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوي الذي كُلّف بالسفارة والمفاوضات بين الأميرين. وقد تقدّم التعريف به في ص٢١٤.

الباقين أنْ يعاونوه ويؤازروه، ويعاضدوه ويضافروه. وقد لما بلغه من ذلك لعمري أصل ما[١]، وهو أنّ أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – لما انعقدت بينه وبيننا الوُصْلة، وأهّلنا فيها للمخالطة باللُّحمة[٢]، ونفذ من قضاء الله تعالى في الأمير السَّعيد رُكْن الدَّوْلة – نَضّر الله وَجْهه – ما نفذ، وكان ذلك في حين شكوكٍ معترضة لما بيننا وبين سَيِّدي – أطال الله بقاءه – أهاب بنا إلى تلك المنزلة، وندبنا بفَرْط التطوّل منه لتلك الأثرة، ورأى أنْ تكون بنا مَنوطة، وعلينا مَعْصوبة.

وذكر لنا لقباً ثانياً يبيننا به عن الأضراب، ويوفي بنا على الأتراب، وأمَر بإعداد خِلَعٍ نلبسها، وكراماتٍ نُخصّ بها، فامتنعنا من أكثر ذلك امتناعاً قد علمه الشريف، وما سبقنا أحدٌ إليه في مريدٍ إذا أمكنه أنْ يحرزه مجتهداً، فضلاً عن أنْ يأتيه عفواً. ولم يكن الإباء منّا لذلك جَهْلا، ولا قصوراً بالهمّة والاستحقاق عنه، ولكنْ توقّفاً يشهد الله لمَوْلاي عن غايةٍ لعلّ الأيّام أنْ تقوده إلى مساعدتنا على إيثاره بها، وقبض الخُطى دونها.

وكان الذي قبلناه من تلك الكرامات القدر الذي تضمّنه الكتاب السُّلْطاني الذي نفذ إلى الأطراف، وقد حصلت عنده نسخةٌ به، والدّليل على أننا باذلون لإعظامه، مُسارعون إلى إكرامه، أننا كنّا نتكاتب بالسّوية إلى أنْ جرى ما جرى ممّا كان عَثْرةً لنا جميعاً، وفَلْتةً وقى الله شرّها، فكتبنا حينئذٍ بالزيادة التي نحن نكتب بها إلى الآن، فإننا لم نبخل عليه بها بعد قُدرتنا على إسقاطها، ولا ضايقناه فيها أيّام الأمير السَّعيد رُكْن

---

(١) كذا العبارة.

(٢) لعلّه يقصد المصاهرة التي انعقدت بين الخليفة الطائع وعِزّ الدَّوْلة، وذلك حين تزوج الخليفة شاه زنان بنت عِزّ الدَّوْلة على صداق مبلغه مائة ألف دينار، وتم ذلك سنة ٣٦٤هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٦٧.

الدَّوْلة الذي كانت الرئاسة له، ولا عند تفضُّل مَوْلانا أمير المؤمنين بالتقديم والتشريف لنا. وقد كان من الحقّ أنْ يتأمّل ذلك ويعرفه، ويقابل بزيادةٍ في تلقيبنا[1] لا يُبلغ بها إلى المساواة، ولا يُغفل منها واجب المجازاة، ولم نكن في الأمر كلّه إلّا في طريق الأناة والانتظار، والمحبة لأن يفضي الأمر إلى الإسفار، ونحن الآن نفرج له بعد اليمين[2] والتوثقة والعُهود المستحكَمة التي تؤمن من التجاذب، وظهور ما يشبه فضله من المعرفة بحقّنا، والإجمال في مخاطبتنا ومعاملتنا عن الشاهانْشاهيّة ومحلّها، ونبذل له كلّ غاية يربي بطرفه إليها، بإذن الله.

وكان ممّا حكاه فاذار أنّ ظهور الخلاف يدعو إلى تبسُّط الأعداء، ويحدث لهم تطاولاً وتسحّباً، ويعود على جماعتنا بكلفٍ ينبغي أنْ نترفّه عنها، ونسقط بيننا دَواعيها. وهذا ممّا لا نشكّ فيه، ولا نمتنع من الاعتراف بما مسّنا منه من إغضاءٍ عن أموالٍ تركناها مع حدوث الشَّوْب[3]، ولا نتركها عند عَوْد الصَّفْو، ومن تقديم أقدام، وتنويهٍ بأسماء، وتألّف جهات، ومُواصلة جنبات. ولو حسم - أدام الله عزه - ذلك منذ أول الحال، لكانت هذه الحضرة له، وكنّا فيه من قبله، ولبعد عن كلّ كبيرٍ وصغير أنْ يصل إلى أربٍ أو يقدر على مطلب، إلّا بعد أنْ يكون هو الآمر به، والمتكلّم فيه. وبالله أنّنا لذلك أشدّ إنكاراً، ومنه أعظم اضطراباً، فقد ألْزمنا أنْ سمحنا لعُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب بالمال المعقود - كان - لنا عليه، واعتضنا منه: بمعاهدة على النّهوض إذا دعوناه إليه، وأنْ وَصَلْنا ما بيننا وبين غيره ممّن أعطيناه بالوُصْلة صيتاً وذكراً لم يكن يستحقّها ولا

---

(١) في الأصل: هبتنا، والأرجح ما أثبتناه.

(٢) في الأصل: المين.

(٣) أي: الخلط. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٥١٠ (شوب).

موضعاً لهما، وأنْ قبلنا الأتراك العائدين كلّهم، والْتزمنا مُولِّهم إلّا الشِّرْذِمة التي بالشام.

وقد كتبتُ بأمرهما في هذا الوقت، وكَتَب أخونا أبو منصور ألفتِكين المعزِّي عند إجْفال المغاربة من بين أيديهم، ونُكوصهم بأقبح هزيمة، وأذلّ هضيمة عنهم يذكرون إقامتهم الخطبة لنا بعد أمير المؤمنين، وإعلانهم شعارنا، وانتسابهم إلى ولائنا، ويسألون إلْحاقهم بمَن شمله صفحُنا، وغمره عفوُنا وطَوْلنا، وأنْ نرسم لهم ما يعملون عليه من مصيرٍ إلينا، أو مقامٍ على خدمتنا، بحيث يتمّ التّدبُّر بتَدْبيرنا، وأجبناهم بما سَكَنوا إليه، ورَسَمْنا لأخينا أبي منصور ألفتِكين أنْ ينفذ إلينا منهم قوماً أسْميناهم، وأنْ يقيم على أمره في تلك الأعمال التي هي الآن تحت سُلْطاننا، وألّا يضيع سالف ما أنفقه من زمانه، واجتهاده في حيازتها لنا، فمتى احتجنا إليه سارَع بكلّيته ولم يتأخّر. وأمَرْنا بإنْفاذ أصحابه لعهودٍ تقع في ذلك وغيره مما بيننا، ونستدعي له من أمير المؤمنين تشريفاً وتَكْرِمةً يشاكلان طاعته وخدمته، وفعله وأثره، والله وليّ التوفيق والمعونة، بقُدْرته.

ومن أسباب الفَساد أيضاً التي ينبغي أنْ يزيلها اتّصال كتبٍ إلينا من أهل عسكر سَيِّدي بها لعلّ الكتب من بعض أهل عسكرنا متّصلةٌ إلى هناك بمثله، ومن الواجب أنْ لا نقيم لمرّهم[1] ذلك سوقاً، ولا نوجدهم إليه طريقاً ....[2] ولا خرجنا، والشكر لله إلى تحقّق التهمة، ولا بلغنا إلى المنزلة التي خرقُها أوسع، ونكؤها أوجع، وإنّما نحن في أطراف، ونعوذ بالله من أنْ لا تقف عندها، ثم نتراجع القَهْقَرى عنها إلى ما نحن أهله، ولا يشبهنا غيره.

---

(١) هذه أقرب قراءة لها.

(٢) أربع كلمات غير مقروءة.

وكان مما حكاه أمر الوُصْلتَيْن، وما يحتاج إليه من نقل الوَديعتَيْن، والقول المشكور في رَدّ ذلك إلينا، والعمل فيه لمحبّتنا. وهذا بابٌ سَبيلنا أنْ نفرغ منه ونتنجّزه، لنكون قد وَصَلْنا به الرَّحِم، وقضينا حقّ الولد، وأظهرنا منه ما يكون زائداً في الوثائق، وتمكّناً من العَلائق، ومؤكّداً للعِصَم، ومُلزماً للذِّمم، ومُقذياً لأعين الأعداء، وشاهداً لنا بالتآلف عند الغرباء.

وسَبيل الشريف - أدام الله عزه - أنْ يكرّر المسألة والرّغبة في إتمام جميعه، والابتداء بأيّ الجهتَيْن شاء مَوْلانا، فإنّ الأمر له، وهو وَليّ الجماعة، وإليه مرجعها، وعليه معوّلها بإذن الله. وإذا استقرّت الموافقة - أيّد الله الشريف - عُملتْ لها ولليمين نسخةٌ مشتملةٌ على الشّروط والعُهود، ويكون فيها خطّه بعد أنْ يلفظ بها، ويشهد عليه مَن بحَضْرته - أجلّها الله - من الأشراف والقُضاة والوُجوه والقُوّاد والخواصّ بجميعها، لنحلف ونلفظ بمثلها ونشهد على نفوسنا مَن بحضرتنا من هذه الطّوائف بالوفاء بها، ونكون حينئذٍ يده الطولى، وكلمته العليا، وأمره النافذ، وسُلْطانه الماضي، وبهما التمسه بعد إحكام هذا الأصل من ظهور تعظيمٍ له وطاعة، وإكبارٍ ومُوالاة، ومسألةٍ لأمير المؤمنين في تجديد تشريفٍ له، وتعويضٍ إليه، وإنافةٍ به، جرى جميع ذلك على ما يريد، وكان أقرب إليه من حبل الوريد[1]، إنْ شاء الله تعالى.

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، سورة ق، من الآية ١٦.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى ألفتِكين التُّركي عندَ انتصابِه في الرِّئاسةِ على الأتراك بعد وَفاةِ سُبُكْتِكين الحاجِب[١]

كتابُنا يا أخانا -أطال الله بقاءك- يومَ الجُمُعة لأربع ليالٍ بَقِينَ من المحرَّم عن

(١) چستربتي، ليدن.

ألفتِكين التركي مولى مُعِز الدَّوْلة دخل في فتنة الأتراك مع الدَّيْلم التي تقدّم ذكرها، ولما توفي سُبُكْتِكين؛ قدّم الأتراك ألفتِكين هذا. ولما هزمهم عَضُد الدَّوْلة وابن عمه بَخْتِيار، سار ألفتِكين إلى الشام في طائفة من الجند، فوصل إلى حمص، فقصده ظالم بن موهوب العقيلي أمير دمشق من قبل المعز لدين الله الفاطمي ليأخذه، فلم يتمكن من أخذه، فعاد عنه وسار ألفتِكين إلى دمشق على فساد من أحوالها، فخرج إليه أشرافها ورحبوا بقدومه وسألوه أن يقيم بينهم ويملك بلدهم ويزيل شعار الفاطميين التي يكرهونها لمخالفة الاعتقاد، ويكف شر الأحداث في البلد، فأجابهم إلى ما سألوا، ودخل البلد وضبط أموره، وصرف ريان الخادم العامل من قبل المعز، وقطع خطبته، وخطب للخليفة العباسي الطّائع لله. وكان الأعراب قد استولوا على أطراف البلد فقصدهم وشرَّدهم، وأبان عن حسن تدبير، فأحبه الناس وتمكن منهم، وكاتب مع ذلك المعز مداراة له، فأجابه يشكره ويطلب منه المسير إليه ليخلع عليه، فامتنع لعدم الثقة به، فتأهب المعز لقصده فمرض ومات وولي من بعده ابنه العزيز. وكان ألفتِكين قد قصد سواحل الشام، وحصر صيدا وفيها ابن الشيخ وظالم بن موهوب وغيرهما من الرؤساء، فخرجوا إليه بعسكر وافر، فاستدرجهم وقتل منهم نحو أربعة آلاف وتحول إلى طبرية فعاث فيها، فجهز العزيز العساكر لقتاله وأنفذَها مع جوهر القائد، فلما سمع ألفتِكين بمسيره جمع أهل دمشق وقال لهم: قد علمتم أنني ما وليت أمركم إلا عن طلب منكم، ورضى من صغيركم وكبيركم، وإنما كنت مجتازاً، وقد أظلمكم هذا الأمر، وأنا سائر عنكم لئلا ينالكم بسببي أذى، فقالوا له: لا نمكنك من فراقنا ونحن نبذل الأنفس والنفائس بهواك وننصرك، فاستحلفهم، فحلوا له ووصل جوهر في ذي القعدة سنة ٣٦٥هـ فأقام الحصار واستمر القتال شهرين قتل فيه

عدد كبير من الطائفتين. ولما رأى أهل دمشق طول مقام الفاطميين عليهم أشاروا على ألفتِكين باستنجاد الحسن بن أحمد القرمطي، فكتب إليه بمكانه من الإحساء، فسار إليه، ولما علم جوهر بدُنو القرمطي خشي أن يقع بين عدوين فأفرج عن دمشق بعدما قام سبعة أشهر، ووصل القرمطي واجتمع بألفتِكين، وتبعهما جمع كثيف من رجالات الشام والعرب قيل بلغوا خمسين ألفاً، فأدركوا جيش الفاطميين في الرملة واقتتلوا وقطع ألفتِكين الماء عن البلد فانحاز جوهر إلى عسقلان، فحصره ألفتِكين والقرمطي وكان الزّمان شتاء، فلم يمكن إيصال الذخائر من مصر إلى عسقلان فاشتد الخناق بجوهر، فجعل يراسل ألفتِكين ويبذل له المواعيد، ويطلب منه الاجتماع به، فتقدم إليه واجتمعا راكبين، فقال له جوهر: قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة وأريقت فيها الدماء، ونهبت الأموال ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك إلى الصلح والموافقة، وبذلت لك الرغائب فأبيت إلا القبول ممّن يشب نار الفتنة فراقب الله تعالى، وراجع نفسك وغلّب رأيك على هوى غيرك، فأجابه ألفتِكين: أنا والله واثق بك في صحة الرأي والمشورة منك، لكنني غير متمكن ممّا تدعونني إليه بسبب القرمطي الذي أحوجتني أنت إلى مداراته، فقال جوهر: إذا كان الأمر كما ذكرت فإنني أصدقك الحال تعويلاً على أمانتك، وما أجده من الفتوة عندك، فقد ضاق الأمر بنا، وأريد أن تمن عليّ بنفسي وبمن معي من المسلمين ، فأعود إلى صاحبي شاكراً لك، فأجابه ألفتِكين وحلف له على الوفاء به، وعرف القرمطي ذلك، فعذل صاحبه وقال له: دعنا نهلكهم جوعاً أو نأخذهم بالسيف، فإن جوهر إذا رجع إلى صاحبه حمله على قصدنا بما لا قبل لنا به، فلم ينكث ألفتِكين وأذن لجوهر في المسير، فلما وصل هذا إلى مصر قال للعزيز: إن كنت تريدهم فاخرج إليهم بنفسك،وإلا فهم واصلون على أثري، فجهز العزيز جيشاً جرّاراً وسار، وجعل جوهر على مقدمته وتلاقى الجمعان بظاهر الرملة، واصطفوا للحرب في المحرم سنة ٣٦٧هـ، فرأى العزيز من شجاعة ألفتِكين ما أعجبه، فأرسل إليه في تلك الحال يدعوه إلى خدمته ويبذل له الولايات، وأنْ يجعله المقدم عنده، فترجل ألفتِكين، وقبل الأرض بين الصفين، وقال للرسول: قل لأمير المؤمنين: لو قدَّم هذا القول لأطعتُ وسارعت، وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى، ثم حمل على الميسرة فهزمها، فحمل العزيز بالقلب والميمنة، فانهزم القرمطي وتبعه ألفتِكين، واستلحم المغاربة جمعها، وقتلوا نحو عشرين ألفاً، وأسروا الكثير، وبذل العزيز لمن أتاه بألفتِكين أسيراً مائة ألف دينار، وكان ألفتِكين في مضيه منهزماً، قد جهده العطش، فالتقى بالمفرج بن دغفل الطائي، وكان بينهما علاقة قديمة فسقاه وأنزله وأكرمه، وسار إلى العزيز فأعلمه بأسر ألفتِكين، وطلب المال فأعطاه ما

سَلامةٍ، والحمدُ لله ربِّ العالمين. وإن احتَجْنا -أطال الله بقاءكَ- في مخاطبةِ أحدٍ من عِلْيَة النّاس وفُضَلائهم، وأعيانِهم وعُقَلائهم، إلى الإطالةِ في أمرٍ نُصلِحُه، وحقٍّ نُوضِحُه، فالاستغناءُ واقِعٌ عنها معك لزيادةِ فَضْلكَ وإبرارِك، وتدبيرِكَ وإيفائِك، وانفرادِكَ بالسَّدادِ والصَّواب، من بين النُّظَراءِ والأتراب، لكِنّا لا نَدَعُ أنْ نُورِدَ ما يقَعُ في نفوسِنا من ذلك اجتهاداً في الخيرِ، وبُلوغاً إلى آخِرِ العُذْرِ، وعلماً بأنّ هذه المكاتَبة - وإنْ كانت مقصُورةً عَليك- فربَّما دَعَتْكَ الضَّرورَةُ إلى أنْ يَدخُلَ فيها غيرُك ممّن ينبغي أنْ يُبصَّرَ رُشْدَهُ وحظَّه، ويقِفَ به على المنهاجِ السَّليم، والطريقِ المستقيم، ليَؤُولَ ما يسعَى له إلى عُمومِ الصَّلاحِ وشُموله، واجتماعِ الأكابرِ والأصاغرِ فيه، وبالله التوفيق.

وقد عَلِمْتَ -أدام الله عزَّك- من نصِّ كتابِ الله -جَلَّ ذكْرُه- والآثارِ عن رسُولِ الله -صَلَّى الله عليه وآلِه- أنّ الشيطانَ ينزَغُ للإنسان[1]، ويُوسْوِسُ في صَدرِه، ويُضِلُّه عن مسَالكِه، ويسعَى به على مهَالكِه، وأنّ المؤمِنَ مِنّا مَن عَصاه ولم يُطِعْهُ، وخالَفهُ ولم يتَّبِعْهُ، ومتى اتفقَ عليه أنْ تَجذِبَهُ جَواذِبُه إلى حَدٍّ من حُدودِ الغِواية، تَنبَّه على الرّجوع، وبادَر بالنّزوع، ولم يُساعِدْهُ على الوصولِ إلى غايتِه، والبلوغِ إلى نهايتِه، إذ كان العَودُ إلى الحقّ أوْلى من التَّمادي في الباطِل.

ضمنه، وسير معه من جاء به، فلما وصل إليه رأى من الإكرام والإعزاز ما لم يكن يخطر له في بال، وأخذه في صحبته إلى مصر، وجعله من أخص المقربين عنده والمتحكمين في ماله وجاهه، فعظم شأنه، ووقعت المنافسة بينه وبين وزير العزيز يعقوب بن كلس، فدسَّ هذا عليه من سقاه سماً، فمات وحزن عليه العزيز، واعتقل من أجله الوزير، وصادره وغضب عليه مدة طويلة. مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٣٨٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٢٣.

(١) لعلّه يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ سورة الإسراء، من الآية ٥٣، وما جاء في تفسيره عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد رأيتَ أنّ الله -عزّ وجلّ- مع عادَتِه في الإمهالِ والإملاء، والإنظارِ والإرْجاء، عاجَلَهُ بالاصطلام، وتَناوَلهُ بالانتقام، وأظهَر فيه الآيةَ الواعظةَ لكُلِّ مَن تأمَّلَها وتَدبَّر صُنعَهُ فيها، لأنّه ما زالَ -أيّام تَسَرْبُلِهِ بطاعةِ مَواليهِ- رَخِيَّ البالِ كثيرَ المالِ، مَنيعَ الحِمَى، مَصُونَ الحريم، عزيزَ الجارِ معمورَ الفِناءِ. فلمّا نَزعَ الجُنَّة الحصينة، وقطَعَ العِصْمةَ المتينةَ، أزالَ الله نِعمتَهُ، وبَتَر مدّتَهُ، وحَطَمَ قَناتَهُ، وصَدَعَ صفاتَهُ، وأصارَهُ إلى ما لا فِكاكَ له منهُ إلاّ بإحلالِنا إيّاه منهُ إنْ أحلَلْناه.

وما نقولُ: إنّ أفعالَنا أوْجَبتْ لنا من الله ما أنزَلهُ به، وكيف نقولُ ذلك وما نخلوا من فَرَطاتٍ إنْ لم يَغفِرْها بإحسانِهِ، ويتغمَّدْها بامتنانِهِ فنحنُ من الهالكينَ الخائبين، لكنّه -جَلَّ وعَلا- لم يجعَلْ تقصيرَنا في عِبادتِه، ووقوفَنا دونَ الغاية من طاعتِهِ عُذْراً له في اطِّراحِ حقِّنا ونقْضِ عَهْدِنا والسّعيِ عَلينا، واستحلالِ الحرامِ منّا. وقد مَضَى الآنَ إلى عَمَلِهِ، وكَفانا حُكْمُ الله بيننا وبينه.

ونرجِعُ إليكَ -أدام الله عزَّكَ- وأنتَ عندنا العَينُ البصيرةُ، والموثوقُ بسَدادِهِ وفَضلِه، وكمالِه وعَقلِه، فنقولُ: إنّه ما لكَ إلينا مَعصيةٌ، ولا لنا إليكَ إساءةٌ، ولا حَصَل في نفْسِكَ ونفوسِنا شيءٌ من تلك الأحقادِ التي حَصَلتْ بيننا وبينَ الماضي، بل كانت الحال بالضِدِّ منها على الحقيقةِ، وما زِلنا نحمَدُ فيكَ ما نُذمُّهُ منه، ونجِدُ عندَكَ ما لا نَجِدُه عنده، ونُعِدُّكَ لموضعِه، ونُرشِّحُكَ لمنزلتِهِ، ونَتَمنَّى تسهيلَ السَّبيل إلى ذلك، ونُجارِيكَ ما أنتَ له ذاكِرٌ وبه عالمٌ. ولئنْ كان استيحاشُك أمضَّنا وانتَقَصَنا، وساءنا وبَلَغ منّا، فإنّ فيه عندنا طَرَفاً قويًّا من أطرافِ العُذرِ، لأنك رأيتَ أموراً قد حَدَثت، مثلُها يُشَكِّكُ ويُوهِنُ، وحَصَلتَ مع ذلك الرَّجل وتحتَ قَبْضَتِه في جَمْرةِ الأولياءِ والغِلْمان، ولم تَستَطِعِ الخروجَ عمّا دَخَلوا فيه، ولا المفارَقة لما اجتَمَعوا عليه. وعَلِمْتَ أنّ

الخلافَ عليهم يُولِّدُ عليكَ مَكروهاً عاجلاً، ويُلحِقُ بكَ مَخُوفاً حاضِراً، والله يُعيذُكَ ويعيذُنا فيك من السُّوءِ كُلِّهِ، فدَخَلْتَ مَعَهم، وأغرَقْتَ بإغراقِهم، وقد كان يَبلُغُنا عنك الجميلُ الذي أنتَ أهلُه، والتَّذمُّمُ من العِصْيانِ الذي نزَّهَكَ الله عنهُ، وأنَّك تتَذكَّرُ الحقوقَ وتَمتعِضُ من العقوق، وتتمسَّكُ بأشراطِ الدِّينِ، وتتحرَّزُ من إسْخاطِ ربِّ العالمين، فنَسكُنُ ونَأنَسُ، ونُسَرُّ ونبتهِجُ، ونتَوقَّعُ أنْ تَنجليَ العَواقبُ عن اجتماعِ الشَّملِ بنا وبك، وانتظامِ الأمرِ لنا ولك، ونَرجوا أنْ يكون الله قد حَقَّقَ الظنَّ وصَحَّح الأمَل، وأدّانا وإيّاك إلى النجاحِ، بقُدْرته.

والآنَ -أدام الله عزَّك- فما نَزيدُكَ عِلْماً بمذهبِنا في سَلامة أوليائنا علينا، ومُشاركتِنا إيّاهم في نِعَمِنا، وأنّنا -خاصَّةً من بين نُظَرائنا- نَصْفَحُ عمّن أساءَ، فَضْلاً عن أنْ لا نُثيبَ مَن أحسَن. ولعلَّكَ أنْ تُدعَى إلى أمرٍ إنْ دخَلْتَ فيه أتعبَكَ وأنصَبَك، وكَدَّك وبَهَضَك، وجَشَّمكَ ضَرْباً من الخطار بالُمهَجِ والنِّعمَ، والانتهاكِ للحُرَمِ والذِّمَم، ولا سِيَّما وقد وَعَظَك الله بغيرِكَ، وكَشَف عن غيبِ العَواقِبِ لك، وأراكَ السَّنَن الذي هو أحسَنُ لذكْرِكَ وأطيَبُ لنَشْرِك، وأخفَضُ لعَيشِكَ وأعلى لقَدْرِك. ونحنُ نَبذُلُ لكَ الاشتراكَ في كُلِّ ما نَحوزُه، والتحكيمَ في كلِّ ما نَملِكُه، وأنْ نَرُدَّ إليكَ الإسْفَهْسَلاريّة في جميعِ عَساكِرِنا، ونُسمِّيَكَ بها، ونُنزِّلَك مَنزلتَها، ونُقِرَّ عليك إقطاعاتِكَ ومَوادَّك، ونُضيفَ إليها ما ارتفاعُهُ خَمسونَ ألفَ دينارٍ في كُلِّ سَنةٍ، ونُسَلِّمَ إليكَ بها ما تَختارُهُ من النّواحي، ونُعطِيَكَ عهدَ الله وميثاقَهُ، وما اتّخَذَه على أنبيائهِ ومَلائكتِهِ -صَلَواتُ الله عليهم أجمعين- على الصحَّةِ والوفاء، والخلوصِ والنَّقاء، واستواءِ الظّاهِرِ والباطِنِ، وسَلامة الشّاهدِ والغائب، ونرضَى من هذا الأمرِ باسمِه، ونُفَوِّضَ إليكَ مَعناهُ وحقيقتَه، ونُرَتِّبَ الحُجّابَ والقُوّادَ -أيّدهم الله- والنُّقَباءَ والغِلْمان، مَراتبَ أُخَرَ نُعْليها،

ونَتْبَعَ تدبيرَكَ فيها، ونُحسِنَ إليهم، ونُفضِل عليهم بوَساطَتِكَ، ونَعمَل مثلَ ذلك في أمورِ غِلْمان المُتوفَّى وحُجّابِه وصَنائعه.

وقد جَشَّمْنا الشَّريفَ أبا أحمدَ الحسين بنَ موسى[1] -أيّده الله- المصيرَ إليك، وإيرادَ ما شافَهْناهُ به عَليك، واعتمَدْناهُ لهذا الشأنِ الخطيرِ والخطبِ الكبيرِ، تَبرُّكاً به، وتعويلاً على أمانتِه، لاجتماعِنا وإيّاك في مُوالاةِ آبائه، صَلَواتُ الله عليهم أجمعين. فرأيُكَ -أدام الله عزَّكَ- في استماعِ ما يَذكُرُه، وإنعامِ الفِكْرِ فيه والتَّدبُّرِ لهُ، واختيارِ ما هو الألْيَقُ بكَ، والأخلَقُ بمثلِكَ، وتعريفِ ما تُؤْثرُهُ من كُلِّ تَوْثِقةٍ تَلتمِسُها، وشَرِيطةٍ تَستَدعيها لنُساعِدَكَ عَليها، ونُزِيحَ عِلَّتكَ فيها، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

(١) تقدّم التعريف به في ص٢١٤.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى ألفتِكين[١]

كتابُنا يا أخانا - أطال الله بقاءك، وأدام تأييدك وسعادتك، وسلامتك ونعمتك وكفايتك[٢]، ولا أخلى منك[٣] - يوم الخميس لثلاث ليالٍ خَلَوْن من صفر، عن سَلامةٍ، والحمد لله ربِّ العالمين. وكنّا نتوقع كتابك - أدام الله عزّك - عند إمكان المكاتَبة لك، ومِلْكِك فيها[٤] اختيارَك بوفاة مَن يعزّ علينا أنْ نَسْتروحَ إلى فَقْده، ونسكنَ إلى كفاية الله أمره، بعد أنْ كان لنا كالنّاب والظُّفْر، والجُنّة من نَوائب الدَّهْر، تجاوز الله عن سيئاته، وسامحه في فَرَطاته. فلمّـا تأخّر ذلك ظنّنا أنّ هذه الفُرقة الواقعة بالجسوم قد أقامت في نفسك أنّها تجلب فُرقةً بالقلوب، وأنّ الوَحْشة قد تمّت واستمرّت، والمصلحة قد أعوزت وتعذّرت؛ فكتبنا إليك مع الشّريف أبي أحمد الحسين بن موسى[٥] - أيّده الله - ما لا نشكّ في وُصوله ووُقوعه عندك موقعه. ولئن كان الجواب تأخّر فما أساء تأخّرُه ظنَّنا، ولا قدح ذلك في جميل تقديرنا، لكنّا نسبناه إلى التثبّت منك، فيما تأتيه، وتحرّي الصّواب فيما ترتئيه وتمضيه، ودعانا فَرْطُ التمسّك بك، واشتداد[٦] المنافسة فيك إلى أنْ

---

(١) چستربتي، ليدن، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك.

(٢) (وأدام....... وكفايتك) ساقط في ج.

(٣) (ولا أخلى منك) من: ر، ف.

(٤) س، ر، ف: فيه.

(٥) تقدم التعريف به.

(٦) س: اشتباه.

نشفعَ ذلك الكتاب بهذا، وأنْ نستعملَ معك ما يُستعمل[١] مع المعلوم فضله[٢]، المرجوّ خيرُه، الموثوق منه بسَداد الطّرائق، وتهذّب الخلائق، والرّعاية للحقوق، والمحافظة على العُهود، والإيثار لما أطفأ نار الفتنة، وأعلا[٣] ظلّ النِّعْمة. ولأنّ الماضي - خفّف الله عنه - كان ينطوي على غِلٍّ قد تقادم، وفَسادٍ قد تعاظم، وأسبابَ للوَحْشة هو ملومٌ[٤] على سالف استشعاره إيّاها، ومعذورٌ في حادث انقباضه معها.

وحالُك - أيّدك الله - خاصّةً تُضادّ حالَه في ذلك وتنافيها؛ لأنك ما زلت مُستودعَ سِرّنا وجَهْرنا، ومُشتكى حزننا وبثّنا، والأمير[٥] والكبير الأثير عندنا، والخصيص المكين لدينا، ومَن نستضيء في ظُلَم الخطوب برأيه، ونستجنّ من سِهام النّوائب بإخلاصه ووَلائه، ونخرج إليه بخفيّة الصّدر. وحوجاء النَّفْس، والعُجَر والبُجَر[٦] التي يحتشمُ فيها الأخُ الشقيق، والوالد[٧] الشّفيق. وما تغيّر من الأُنس بيننا، ولا انتكثت مَرائِرُه بنا إلى الوقت الذي سِرْنا فيه عن مدينة السّلام، فإننا وَدّعناك بعد خَلْوةٍ كانت لنا معك في الدّار العِزيّة، ومفاوضاتٍ طويلة شافية، ووَصايا لك ليس مثلك من أضاعها وأغفلها، ولا مَن أعرض عنها وأهملها، مع فَضْلك المتعارف، وسَدادك المتعالم، وإنّك اليوم واحدُ هذه العساكر في الحزم، وفريدها في الدّراية والفَهْم. وهذه الأصولُ المستحكمة،

---

(١) ر: يستعلم.

(٢) س: تفضله.

(٣) س، ف: أعاد.

(٤) ف: مكوم.

(٥) من: ف.

(٦) تقول العرب: أطْلَعْتُك على عُجَري وبُجَري، أي همومي وأحزاني. لسان العرب، ج٤، ص٥٤٢ (عجر).

(٧) ف: الولد.

والوَشائجُ المتمكّنة التي قد تعاقبت عليها الليالي والأيّام، وتظلّلت بها السّنون والأعوام هي المُطْمِعَة[١] لنا في عَوْدك معنا إلى الأوْلى بك، ورجوعك إلى المحقوق عليك، ومساعدتك على ما أصْلَحَنا وأصْلَحَك، وكان الحظّ فيه لنا ولك، لتأمَنَ من شَماتة الأعداء، ومَساءة الأولياء، ولأن يَسِمك النّاس بالمِيسَم الذي نربأ بك عنه، ونصونك عن التعرّض له، مع المشهور من محاسنك ومناقبك، والمأثور من وفائك لمولاك - نَضّر الله وَجْهه - الذي هو عِوَضُك من الوالد، ولنا إذ نحن عوضك من الأخ.

وقد تضمّن الكتاب الأوّل ما أنتَ عارفٌ به، ولسنا نُضيّقُ عليك البذلَ، ولا نقفُ بك فيه على حدّ، ولا نمتنعُ من النُّزول على حُكمك في المزيد عليه، والإمضاء لما تُؤْثِره وتقترحه منه، إذ كنّا نُشهد الله على نفوسنا بالوفاء لك به، وبأنّا نُحلّك محلّ الإسْفَهْسَلار المدبِّر المستخلف على عَساكرنا الذي لا يجوز عليه أمرٌ لغيرنا، ولا يُساويه أحدٌ من النّظراء عندنا. وإنّا نفردك بالمنزلة الكبيرة، ونُشاركك في الحال والقُدْرة، ونساهمك في المال والثروة. ويكون معنى الأمر والنهي في يدك، وكلّهما موضوعٌ عنك، ومُتَحمَّلٌ دونك. ولا ندع أنْ نُعطيك المواثيق منّا، والشّهادات علينا بذلك كلّه، والإقطاع السَّنّي، والإفضال الغامر، وبسائر ما تُحبّ أنْ تحتاط فيه، وتستظهر به في أصلٍ وفرع، وعهدٍ وشرط، وكثيرٍ وقليل، ودقيقٍ وجليل لك ولسائر القوّاد والحجّاب والنُّقباء والغِلْمان.

وإنْ كان في نفسك أنْ تجري ذلك أجمع على صورة أخرى تكون فيها ساكن الجأش، مالكاً للاختيار، أنفذتَ مَن يتكلّم عنك، ووَسَطْتَ مَن يتوثّق لنا ولك؛ فلن تجد عندنا خلافاً عليك في كلّ ما عاد بالصّلاح والاستقامة، والدَّعة والسَّلامة، إيجاباً لحقك، وضَنّاً بك، وبلوغاً إلى آخر العذر معك، واعتماداً لأن يطّلع الله علينا.

---

(١) س: المطعمة.

وقد بدأناك بالإحسان قبل السيّئة، ودَعوناك بسائر دَواعي الأنس والقُربة، فإنّه - جلّ وعزّ - لا يخلينا من المعونة والتّوفيق إنْ سُوعِدْنا، أو من النُّصْرة والإظهار إنْ بُغي علينا والله يُلهمك الأحسن الأزين، ويُعيذك[1] من الأقبح الأشين، فرأيك - أدام الله عزّك - في تذكّر ما أذكرناك، وتقبّل ما أعطيناك، ورَبِّ الأواصر بيننا وبينك، التي أوجب الله رَبّها علينا وعليك، وتأمّل الجميل السّالف والآنف من قولنا وفعلنا وابتدائنا وتعقيبنا، وحراسته من أنْ يتغيّر أو يتكدّر من جهتك أو جهتنا، وتقديم ردّ الشّريف أبي[2] أحمد - أيّده الله - بالجواب عن الرِّسالة على يده، والكتاب معه وبعده بما يُسّر الوليّ الودود، ويُكْبت العدوّ الحسود، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

---

(١) س: يعزل.

(٢) (ابي) من: ج فقط. وتقدّم التعريف في ص٢١٤.

نُسْخة كتابٍ عن الأمير عِزّ الدَّوْلة بن مُعزّ الدَّوْلة إلى أبي منصور ألفتِكين التُّرْكي المعزّي جواباً عن كتابٍ وَرَد له من الشّام سنة ستٍّ وستّين وثلاثمائة[١]

كتابُنا يا أخانا - أطال الله بقاءك، وأدام عزَّك وتأييدك، وسَعادتَك وسَلامتَك، ونعمتك وكفايتك، وأمتعنا بك، وبالموهبة فيكَ، ولا أخلانا منك - يومَ الإثنين لإحدى عشرة ليلةٍ بقيت من صَفَر سنة ستٍّ وستّين وثلاثمائةٍ، وأمير المؤمنين - أطال الله بقاءه، وأدام تأييدَهُ ونعماءَهُ - على أفضل ما عوَّده[٢] اللهُ من تمام عزِّه وتمكينه، ونَفاذِ أمرِه ونَهْيِه. ونحنُ تحت الظِّلِّ الظَّليل من الطّاعة له، وفي المحلِّ المنيفِ من الأثرةِ عنده، وأحوالُنا في الاستقامة مستمرةٌ، وعلى المحبّةِ مستقرةٌ، والحمدُ لله ربِّ العالمين، حَمْداً يقضي الحقّ موفّى، والفرضَ مؤدّى، ويستديمُ النِّعْمة سابغةً، ويرتبطها راهنةً، ويحرسها علينا ظاهرةً وباطنةً.

ووَصَل كتابك - أدام الله عزَّك - مُفْتتحاً بتَحْميداتِ الفتوح وتَصْديراتها، دالّاً على تضمُّنه البُشْرى بأعظمها وأفخمِها، ومنتظماً ضُروباً من القولِ، نحن نجيبُ عنها الجواب الكافي في كلِّ منها، وفَهِمْناه، وسكنّا منه إلى الجُمْلةِ التي نَشْهدُ بها من سَلامتِكَ

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك. والعنوان فيها كلها: نسخة كتاب أنشأه أبو إسحاق إبراهيم بن هِلّيل بن إبراهيم بن زَهْرون الصّابي الكاتبُ..... وبعد (ثلاثمائة) في س: والله الهادي. العنوان في ط (وله عن عِزّ الدَّوْلة إلى ألفتِكين التركي المغربي). وانظر ما تقدّم في ص٢٣١، هامش (١).

(٢) س، ر: عود.

وعافيتكَ، وتماسُك أمْرِكَ وحالك، واعتددْنا ذاك من مَواهب الله لنا في نُفوسِنا، وفي كلِّ مُنتمٍ إلينا، ومختصٍّ بنا، واسْتَدمْنا منه أحْسنَ ما عوَّدَ وأوْلى، وأجزل ما مَنحَ وأعْطَى، وهو فاعلٌ ذلك بكرمه، ومجيبٌ دعاءنا بلطفِهِ.

فأمّا ذلك التحميد – أدام الله عزَّك – فلم نجده انتهى إلى ذِكْر عدوٍّ أسَرْتَه، ولا عسكرٍ له كَسَرْتَه، ولا خاتمة أمرٍ اقتضت ما شبَّبْتَ به وسطَّرْتَهُ، بل كان منبئاً عن حروبٍ دائمةٍ، ومنازعاتٍ متصلةٍ، ومجاذباتٍ مُشْتَبهةٍ مُشْكَلةٍ، ونرجوا أنْ يهبَ الله لنا ولكَ فيك، العاقبة الجميلة، والإدالة العزيزة، والنُّصْرةِ المحقِّقةِ للآمالِ، المصدِّقةِ للأقْوالِ، السّائغ لك معها أنْ تبشّرنا، ولنا أنْ نُهنئك، ونتهنأ النِّعْمة بكَ، بقُدْرته.

وأمّا اعتذارُك – أدام الله عزَّك – من التأخّر عن حضرتنا التي هي وَطَنُكَ، ومنها مَنْشؤكَ، فأنْتَ أحقُّ مَن أقام بها، ودبَّر أمورها، واشتمل عَلَيْها، وتقدَّمتْ منزلتُهُ فيها، واحتجاجُكَ في ذلك بالعَلائق القاطعة، والعَوائق المانِعَة، والمجاهدة لمن يُزينك أنْ تجاهدهُ، ويُشينك أنْ تنحاز عَنْهُ، فما نَدْفعك – أيّدك الله – عن نيّةٍ في مُوالاتنا خالصة، وبصيرةٍ في طاعتنا ثاقبة، وإنَّكَ لنا[1] من بين أوليائنا، الأخُ النَّقيُّ الحبيب، السّليمُ من الرِّيب، المأمونُ في القُرْب والبُعْدِ، النّاصحُ في المشْهدِ[2] والمغيبِ، الذي مآثرُهُ إلينا مَنْسُوبةٌ، وفضائلُهُ لنا مَحْسوبةٌ، وأمورُهُ كلُّها بنا مَنُوطةٌ، وعنّا غيرُ متميزةٍ، ولم نَدْعُك إلّا إلى مقرٍّ من حضرتْنا هو بكَ إذا حللتَهُ أنيس، وعليك إذا فارقته محروس، ولعلَّ الأحوال التي ذكرتها – أيّدك الله – واعتذرْتَ باكتنافها إيّاك أنْ تستفرَّ عمّا يسُرُّك ويسرُّنا فيك، وعما يوجدك السَّبيل إلى ما أردناه وأحببناه منك، ولله المشيئةُ، ومنه التَّوفيق، وبه القوَّةُ، وعليه التَّعويل.

---

(١) ر: وإنا لك.

(٢) س: الشهد.

وأمّا اقشعرارك – أدام الله عزَّك – من الكتاب الذي ذكرتَ أنه وَرَد عليك، وإنكارك منه ألفاظاً خالفَت عادتنا عِنْدَك، فما نَعْرفه ولا أمرْنا به، ولا فكَّرْنا قطُّ في مخاطبةٍ[1] لك بشيءٍ تشمئزّ منه، ولا يقتضي محَلِك لدينا ذلك، ولا يقاربُهُ، وكان في الحقّ لما خالفَ العادةَ، وخرج عن الرَّسم والسُّنةِ؛ أنْ تَطْرحَهُ اطّراح الواثق ببطْلَانِهِ، أو تردَّهُ إلينا ردَّ المسْتَثْبِتِ فيه، ثم تُجيب حينئذٍ عنه بحسب ما نذكرهُ لك من صِحّتِه أو سَقَمِه، وألّا تعجَلَ إلى ما عجِلْت إليه من المُناقَضَةِ بمَعاريض من القَوْلِ، لولا مسامحتُنا إيّاك فيها، وإغضاؤنا لكَ عنها، وكراهيتنا أنْ تجريَ – أيّدك الله – معنا فيها جري المسبوقِ إلى الغاية، المغمور بلازم الحجّة؛ لكان لنا مَسْرحٌ طويلٌ في ردِّها إليك، وعَكْسها عليك[2]، ولكنّا على ذلك أقْدَر، ومنه أمكنُ.

وقد عَلِمْتَ أنّ عهدَنا قريبٌ بمكاتبةٍ لك مُسْتقيمةٍ، ومراسلةٍ مع أصحابك جميلةٍ، وما كنّا لِنَنْقُضَ ذلك ونَفْسخَهُ، ولا لنبدِّله وننسخَه، إلّا عن سببٍ مُوْجبٍ، وعُذْرٍ واضحٍ، وما ها هنا – والحمدُ لله – شيءٌ عن ذلك، وما نظنُّ الكتابَ إلّا باطِلاً، ونافذاً بحظٍّ صغيرٍ من الكُتّاب، قد عجّل إلى إنْفاذه قبل عَرْضِهِ، وحَرّفَهُ عن جميع أو بعض ما أمرَ به. وإذا رَدَدْتَه – أدام الله عِزَّك – إلينا، عرّفناك صورته، وتقدَّمنا بعقوبةِ الجاني عليك وعلينا فيه، وكُنتَ بعد هذا مُعْتمِداً من كُتُبنا على ما كان فيه خطٌّ لنا، أو لمشْهورٍ من كُتّابنا، وكان مَبْنيّاً[3] في خطِّهِ ولفظِهِ على ما يُشْهدُ له بالصّحةِ، ويُبعد عنه الاسترابة، وكَيْف جرتْ الأحوالُ، فأنتَ – أيّدك الله – أخصُّ موقعاً، وأرْفعُ موضعاً من أنْ يتشعّتَ ما بيننا وبينكَ بأمثال هذه الأسباب التي لا تحِلُّ عقْداً، ولا تعلُّ أصلاً، فليكُنْ

---

(١) ف: مخاطبتنا.

(٢) س، ر: إليك.

(٣) ف: منبيا.

على هذا عملُكَ، وإليه مَرْجِعُكَ، فقد أحلَّك اللهُ مِنّا محلاً بعيداً في رفعته، قريباً من أثرتِه إنْ شاء الله.

ونحنُ – أدام الله عزّك – إلى معرفةِ أخبارِكَ – أطابها اللهُ – مُتَطلِّعونَ، ولما تجري عليه أحْوالك في الوَجْه الذي أنْتَ بإزائِه مُراعُون، ولا سِيَّما مع ما دلّ عليه آخِرُ كتابِكَ دون أوَّلِهِ، من أنّ الحال واقفةٌ، والحرْبَ متّصلةٌ، وعلى أنّ لله عادةً عندنا في إعلاءِ المعتزي إلينا، والمتعلِّق بعصْمتنا، والمُخْلِص في طاعتِنا، والمعْلِن بشعارِنا، أنت أحقُّ مَن أجراه – جلّ وعزّ – عليها، وحَمَلهُ على حُكْمها، ولم تخرجْ بنا وبه فيه عن شَرْطِها.

فرأيك يا أخانا – أدام الله عزَّكَ – في مُكاتبتنا من ذلك، بالشّافي من شرحِكَ، والواضِح من تَلْخيصك، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

ووَرَد جوابهُ
فأُجِيب عنه بما هذه نُسْخته[١]

كتابُنا يومَ السَّبْت لخمسٍ ليالٍ بقيْنَ من جُمادى الأولى، ومَوْلانا أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه، وأدام عزَّهُ وتأييدَهُ، وتوفيقَهُ وتَسْديدَه – جارٍ على أفضلِ ما أجْرى اللهُ عليه إماماً خلفَهُ في أرضِهِ، ونهضَ بواجبِ فرضِهِ، دفعاً عن وَليِّه، وغَضّاً عن عدوِّهِ، وإعلاءً لشأنِهِ، ومَدّاً لظلِّ سُلْطانه، وقَوْداً لصعابِ الأمورِ إلى مشيئتِهِ، ورَدّاً لها إلى[٢] إرادته. ونحنُ مُسْتكنّونَ في ذراه، راتعونَ في أكنافِ نَعْمائه، نازلونَ منه المنزلةَ التي وقَفتْ المنازلُ دُونَها، وتقاصَرتِ الغاياتُ عن بلوغِها، حامدونَ لله على جميع ذلك، حَمْدَ الشّاكرينَ لآلائه، النّاشرين لجميل بلائهِ.

ووَصَل كتابُكَ – أدام الله عزّكَ – جواباً عن جوابِ كتابِكَ المتَقَدِّمُ، مُفْتتِحاً بذِكْرِ البُشْرى التي جلَّ موقعُها، وعَظُمتْ النِّعْمة فيها، بما أصارك اللهُ إليه من الاستعلاءِ والظُّهور، وكفاكَ إيّاه من المخوف والمحْذُور، وقضى لكَ به من عاقبة الفَلْج والنَّصْر، وخاتمة الظَّفَرَ والقَهْر، وانصراف المغاربة[٣] عن مواجهتِكَ، وانثنائهم عن منازلتِكَ، بضُروب الضّروراتِ التي نقضتَ منهم العزيمة، وأفْضَتَ بهم إلى الهزيمة، والأسبابِ التي نطق الكتاب بجُمْلتِها، وتتابعت الأخبارُ بجليّتها، وفهمناهُ. ووَقَع منّا ألطفَ مواقع الصُّنْع، لما فيه من فنونِ المصالح والنّفْعِ، ووجدْنا منه بَرْداً على قلوبنا، وشفاءً

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك. العنوان في ط: (وله عن عِزّ الدَّوْلة إلى ألفتكين التركي). وأورد الثعالبي بعض كلماتها، يتيمة الدهر، ج٢، ص٣٠٠.

(٢) س: ورد الهلالي.

(٣) يقصد جيش الفاطميين.

لصدورنا، ووفّيناهُ واجبَهُ من الاعتدادِ والاغتباطِ؛ بأنْ أذلَّ الله مَن عارّنا، وأعزَّ مَن اعْتزَى إلينا، وجَعَل شعارنا ناصراً لمن ادّرعَهُ، مانعاً لمن امتنَعَ به[1]، مَحْتوماً له أنْ يعلو بالعدد الأنزر[2] على العدد الأوْفر، وبالحرب الأضْعف على الحرب المضعّف، مضيفاً لنا بهذه الفضيلةِ إلى زُمْرةِ أوليائه المُجاهدينَ عن دينِه، الذّابين عن حريمه، الذين يقولُ الله جلّ وعزّ لهم: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[3]. وكفانا وكفاك، معتبراً أنْ يكون أولئك النَّفر من غِلْمانِنا – حفظهم الله علينا، وأحسنَ فيهم رعايتنا وهم جزءٌ يسيرٌ من أصْناف الرِّجال المطيفة بنا، والأجيالِ السّائرةِ تحت راياتنا – وَقَت بتلك الطَّوائف التي وصفتَها بالشِّدَّةِ والنّجدةِ، ونعتَّها بالقُوّة والكثرةِ لما أطاعت الله وأطاعتِكَ فيما أعدتها إليه من واجبِ مُوالاتنا، وسلكتها إيّاه من سُنَن مشايعنا، ولم تكنْ هذه حَالُها أيّام خلافها، وأوانَ انحرافها.

ونحنُ نحمدُ اللهَ كثيراً، ونُسبِّحُ له طويلاً، ونَسْألهُ أنْ يهنّئنا ما وهب لك ولنا فيك. فبالله قَسَماً لا يَدْخلها التَّجوُّز، ولا يُعِلُّها التَّأوّل، إنّ انحرافَ المكروه عَنْك، ومساعدةَ المقْدورِ لكَ مَحْسوبانِ لدينا من أجلِّ منائح الله لنا، وأجزل عطاياه عندنا، لأنّه حفِظَ علينا منك وليّاً يتجاوز الأوْلياء في الأثرةِ، ويضارعُ ذوي اللُّحمة البررة، وكشف في الذي تمَّ على يدِكَ لكلِّ عدوٍّ مُباينٍ، وكاشحٍ مُضاغنٍ أنّ حَوْزتنا لا يستطيعُها الرّائمُ لها، إذ لم يستَطِعْ[4] اللَّمة من حُماتها، وأنّ دَوْحتنا لا يَنْحتها المَنْحي عليها، إذا لم يُنْحتِ

(١) ساقطة في ر.

(٢) س: الأقل، ر: الأثرد.

(٣) سورة الأنفال، من الآية ٦٥.

(٤) تنقطع الرسالة هنا في ط.

الواحدُ من أعوادها، وصار ذلك كالآيةِ الواعظةِ لمن انْهَمَكَ في عُدْوانه، وتهوّك[١] في طغيانه، وكالشكيمة الكابحة لمن أطلق البغيَ من عنانِهِ، وجمح به في ميدانه. فمَن اتّخذه بُرْهاناً، واقتنع به بَياناً، كفى من نفسِهِ المُخاطرةَ، وكفينا فيه المُساورةَ. ومَن تعقّبه بأباطيلِ زَعْمِهِ، واعترضَهُ بأضاليل حُكْمِهِ، كان متورِّطاً على بصيرةٍ وتجربةٍ، وكُنّا فيه على بيِّنةٍ من رَبّنا ووَثيقة.

وما خاطبْناكَ – أدام الله عزَّك – بذلك لظنِّنا أنّه ذاهبٌ عليكَ، ولا خافٍ عنك. ولا لأنّك متميزٌ عنّا فيه، ولا خارج عن جُمْلةِ أهليه. بل ليشيعَ ويذيع ويكون شجىً في حُلوق مَن عادانا وعاداك، ووَرْياً في أكْبادِ مَن ناوأنا وناوأك، وإلّا فنحنُ نعلم عِلم اليقينِ، ونحلف لو دُعِينا إلى اليمينِ، أنّكَ الأديبُ[٢] اللّبيبُ، السَّديد الرَّشيدُ، المجموعةُ له فضائلُ النّفس من ذاته، وفضائل التَّنْويه من أدواته، وأنك لم تكن في الذي جرى منك أيّام نزَغَ الشيطان بين الفئتين من عسكرنا[٣] عامداً مُصِرّاً، بل مكرَهاً مُضطرّاً. ولا كنّا لك عاذلين بل عاذرين، ولا عليك حَنِقِين بل مُشْفقين.

فأمّا جماهيرُ قُوّادِنا وغِلْمانِنا – رعاهم الله – فمعلومٌ أنّهم وإخوانهم من أوليائنا الدَّيْلَم، إنما تَساقَوْا كؤوس[٤] الحِمام بعد كؤوسِ المُدام، وخرجُوا إلى تَنازُع الأعداء بعد بعد توادُع الأصْدقاء، تنافساً فينا، وغيرةً على المنزلة مِنّا، وطاعةً للعصبيّة، والنُّفوس الغَضَبيّة التي لم يزل دَواءَها المُعْضِل، وخطبها المُشْكل، قاطعين بين المرء وأخيه، وابن

(١) التَّهَوُّك: السقوط في الرّدى، وقيل: هو مثل التَّهوُّر. لسان العرب، ج١٠، ص٥٠٨ (هوك).

(٢) ويمكن أن تقرأ: الأريب، في الأصول الخطية كلها.

(٣) ر: عساكرنا.

(٤) س: كؤو.

العمِّ وذويه. وما كان الفريقان[١] كلاهما إلّا كما قال البُحْتري:

وفرسان هيجاءٍ تجيش صُدورُها ... بأحقادها حتى تضيق دروعُها

تقتّل من وِترٍ أعزّ نفوسها ... عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعُها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها ... تذكّرت القُربى ففاضت دموعُها[٢]

وليس في أحد الحزبين إلّا مَن كان له في الحزب الآخر الصَّديقُ المعاشر، والخليلُ المراضع، ومَن يَسوؤهُ أنْ يُفقد؛ ويحزنه أنْ يهلك، ومَن لو أمْكنهُ في تلك المواقفِ أنْ يستلّه من بين عائرة سِهامها، وفاجئة حِرابها، لاستلّه استلال الوالد سُلالته، والمعلوق علاقته. وفي اجتماع البعضِ من ذلك إلى البعضِ ما جعلَ الكُلَّ مُصافياً للكُلِّ.

وها أنتَ – أدام الله عزَّك – الآنَ والطّائفة التي تليك ترونَ الطّائفة التي تلينا من رفقائكم مخالطةً عندنا لمن كانت له منازلةً، ومشابكةً لمن كانت له مقاتلةً[٣]، قد استقرُّوا في الأوطان، وتآلفوا تآلُف الإخْوانِ، وتلافوا تلك الهنات بعواطف الأحلام، ووَطِئوا عليها بأخامص الأقْدام، واستظلُّوا من رعايتنا بظلٍّ لا تروعهم فيه رائعةٌ، ولا تَغُولُهم غائلةٌ، ولا يفقدون فيه شيئاً أَلِفُوهُ من حنوٍّ وإشبالٍ[٤] عليهم، ورقَّةٍ ورَأْفةٍ بهم.

وبحسبك – أيّدك الله – أنا لما بَعِدتَ وبعدُوا عنّا، وانتظم بَعْدكم شملُنا، تنغّصنا بأنْ يستقرّ[٥] بنا نوىً، قلقتْ لها ركابُكُمْ، وتطمئنُّ بنا دارٌ تقاذفت عنها أشخاصُكم، ووَدِدْنا لو أنّ النِّعْمة تمّت، والفائدة عمّتْ بأنْ تعودَ تلك البقيّة عنكم إلينا عود الأنياب

(١) س: الفريقين.

(٢) ديوانه، ج٢، ص١٧.

(٣) ف: مخاتلة ومقاتلة.

(٤) غير واضحة في س، ف: انسبال.

(٥) ف: يستقروا.

إلى أفْواهها، والأظفار إلى برائنها، والنّصول إلى أجْفانها، والسِّهام إلى كَنائنها.

وإذا كانت الآن تلك الحروبُ القاطعةُ، والشّدائدُ المانعةُ، قد أسفرت لك عن حصول الإيثار، وملكتك جهات الأخْيار[1]، فهذه الحَضْرة لك معرَضةٌ، وعليك معروضةٌ فإنْ نَزَت يدُهُ إليها نَوازي الشّوق، وبعثتْكَ نحْوها بواعثُ التّوق، كنتَ عائداً منها إلى دارِكَ، وقافلاً إلى أوطانِكَ، ووجدتَ عندنا أفْضل ما يَجِدُهُ المقترح المستام[2]، والمتخيِّر المعْتام، من تَوْسعةٍ عليك، وتَفْويضٍ إليك، ومعرفةٍ بحقِّك، وإعلاءٍ لمنزلتك. وكان كلُّ واحدٍ من قُوّادنا – أعزّهم اللهُ – وغِلْمانِنا – كلأهم الله – الذين يلونَك قابضاً لما كان يقبضُهُ، ومَحْمولاً على أجمل ما يعْهِدَه. وإنْ كان مَوْضعُكَ لك[3] كافياً، وبِكَ مُطْمئناً، ورضيته بدلاً، واتّخذته مَعْقِلاً، فنَحْنُ نَمْنحُكَ خالصةَ الصدر مع القُرْبِ والبُعْدِ، ونمحضك صَفْوَة الوُدّ على الرغبةِ والرهبةِ، ونبذل لك المعاونة إن احتجتَ إليها، والمعاضدة متى استدعيتها.

وأنتَ – أدام الله عزَّك – وَليّ ما تراه في الثقة بذلك، والعمل عليه، والتّحصيل له، والسُّكُون إليه، ومكاتبتنا بما يتولّاكَ اللهُ به من مُسْتأنفِ تمكينٍ وتأْييدٍ، ومُسْتقبلِ تمهيدٍ ومزيدٍ، إنْ شاء الله تعالى.

ووَقَفْنا على ما شُبْتَ – أيّدك الله – كتابَك به، وتكلَّفْتَ الاحتجاجَ لما فيه، على الألْفاظِ التي ظننتَ أنّ المُنْشيءَ للكتابِ عدلَ فيه[4] عن صواب الطريقةِ، وتأوَّلَ الحال المُوْجِبة لها، بخلافِ الحقيقةِ، ولم يكنْ كتابُنا مبنياً على الابتداء فيتّجه العَتْب منه، ويطّرد

---

(١) ف: الاختيار.

(٢) س: المنتام.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) س، ف: فيها.

الطَّعْن عليه، وإذا قرنْتَهُ – أيّدك الله – بما هو جوابٌ عنْهُ، أيْقنتَ أنّ كلَّ معنىً من معانيهِ موضوعٌ مَوْضعه، ومُقابلٌ به ما استجرّه. ولست -أدام الله عزَّك - عندنا على تصرُّفِ الأحْوال والأقْوال[١]، ممّن تَدْخُل المناقضةُ بيننا وبينهُ، ولا ممّن نسلك سبيلها معهُ؛ فليكن جوابنا[٢] هذا حاسماً للمادّة، ومانِعاً من الإعادةِ، وجامعاً بيننا وبينك، على سَلامةٍ من الدَّخيْلةِ، ونقاءٍ من السَّريرة، إنْ شاء الله تعالى.

(١) ف: الأفعال.

(٢) س: جواحنا.

وكَتَب عن الوزير
أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين بن سَعْدان
إلى الصّاحب أبي القاسم إسماعيل بن عَبّاد
فـي المحرَّم سنة أربعٍ وسبعين وثلاثمائة (١)

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدنا الصّاحب - ومَوْلانا الملكُ السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أطال الله بقاءه - جارٍ على أفضلِ ما عوَّده اللهُ تعالى تمامَ عزٍّ وتأييد، ودَوامَ نَصْرٍ وتمكين، والأحوالُ بحَضْرته الجليلة(٢) مُستَتِبّةٌ منتظمة، والنِّعْمةُ في ذلك تامّةٌ عامّة، وهي مع عُمومها وشُمولها خاصّةٌ لنا، وبادئةٌ بنا، وموجبةٌ علينا، بفَضْل القسطِ منها، فَضْل السّعي في شُكْرها، والحديث بها، وتَنَجُّزِ المزيد فيها، والمادّة منها، وبالله أستعينُ على ذلك، وهو المحمودُ ربُّ العالمين.

---

(١) باريس، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي، (والعنوان فيها: كتب أبو إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل الكاتب ....)، سيلي أوك، وهي فيها بدون عنوان.
في سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م وقع الصلح بين صَمْصام الدَّوْلة وعمّه فَخْر الدَّوْلة، بسعي من الصّاحب بن عَبّاد، ومكاتبة الوزير أبي عبد الله بن سَعْدان. انظر: الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٢٣ وما بعدها. قال ابن تغري بردي: كان ابن سَعْدان يخاطب الصّاحب بن عَبّاد بالصاحب الجليل، والصّاحب بن عَبّاد يخاطب ابن سَعْدان بالأُستاذ مَوْلاي ورئيسي. النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٤٥. (وابن سَعْدان) هنا إضافةٌ منّا، وهو وزير صَمْصام الدَّوْلة، استوزره سنة ٣٧٣هـ، وقتله سنة ٣٧٥هـ. عنه، انظر: الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٠٧، ص١٢٨، ص١٣٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٠٤، ص٤٠٥، ص٤٠٨. وانظر مقدمة التحقيق لكتاب أبي حيان التوحيدي (الإمتاع والمؤانسة).

(٢) ب: الجلية (مجودة).

وقد أحَلّ اللهُ سَيِّدنا الصّاحب من رُتَب الفَضْل، ومنازل الطَّوْل، بحيث تقصُرُ عنه رغباتُ[١] الغُرباءِ منه، وتُلوى إليه أعناقُ الأقصياءِ[٢] عنه. فأمّا مَن تقدَّمت قَدَمُه في طاعته، وسَبَق السَّلَفُ منه في مُوالاته، وأخَذ بالحظِّ الوافر من مُحاضرته ومُؤانسته، فأحرى وأوْلى أنْ يتمسّكَ بما حصل له من رأيه، ويُحاميَ على وثيقة[٣] عهدِه ووفائه، ويعمرَ[٤] سَبيل الصّلة بينه وبينه بأحسن ما عُمِرت سُبُلها به[٥] مكاتبةً ومواظبة، ومباسطةً ومخالطة. وتلك حالي - أيّد الله سَيِّدنا الصّاحب - فيما أُسِرُّ وأُعلنُ من مُشايعتِه وأعتقدُ، وأفترضُ من مُصافاتِه وأستَصْوِبُ، وأستصلحُ وأستعذبُ[٦] من الرّجوع إلى أوامرِه ونَواهيه في كلِّ ما ثَبَّتَ من الدَّوْلة عماداً، ووَثَّرَ لها مهاداً، وحاز إليها صلاحاً، وهاضَ من عدوِّها جناحاً، واللهُ المعينُ المرشد، والموفِّقُ المسدِّد، بقُدْرته.

ولئن كنتُ على قِدَم الأيّام، وتصاريف الأحوال، موجِباً له - أدام الله عُلُوَّه - المطالعةَ الدّائمة، والمفاوضةَ الشّافية، فإنّي أرى أنّ لوازم ذلك زادت، والدّواعي إليه تضاعفت[٧] بالعِصْمةِ الجامعة - بيني وبينه في مُؤازرةِ مَوالينا أطال الله بقاءهم، وكَبَت حُسّادهم - التي أنا فيها رديفُه وخليفتُه، ومُصَلٍّ وراءه، وجارٍ على أثَرِه.

---

(١) ب: وقات!

(٢) ب، س: الأقوياء، ر: الأقضياء.

(٣) ب: حقيقة.

(٤) ب: يغمس، س: يغمر.

(٥) من: ب.

(٦) (واستصلح واستعذب) من: ف، ر.

(٧) من: ف.

وبالله أحلف، قَسَماً مبرورةً محميّةً من كلِّ ما يُعِلُّها، ويُحيلُها عن حقيقتها، ما أَخَّرتُ تأديةَ هذا الفَرْض إلّا للأشغال القاطعة، والحوائل المانعة، ولإيثاري أنْ أبتدىءَ بذلك. وقد قَرَّت[١] النّوازعُ، وأُمِنت الروائعُ، وخلا الذَّرعُ، وانشرح الصّدرُ، حتى يكون ما أُنهيه إليه مخفَّفاً[٢] عنه لا مُثقلاً عليه، ومُسكِّناً منه لا شاغلاً قلبَه.

ولعلّ سَيِّدنا الصّاحب - أدام الله تأييدَه - بنظرتِه البعيدة المطْرَح، ورؤيتِه الطويلة المسْرَح، قد طالَعَ ما أومَأْتُ إليه مطالعةَ المستشِفِّ المتأمِّل، وعَرَف موضعَ اجتهادي فيه معرفةَ المتيقِّن[٣] المتدبِّر، ولا سِيَّما بعقِبِ زوال ذلك الجبَل الرّاسي[٤]، والسَّعيد الماضي[٥]: عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة - نَقَع اللهُ صَداه، وبَلَّ ثراه، وأحسَنَ مُنقَلَبَه ومَثْواه - فإنّ افتقادَ مثلِه، والتعرِّيَ من ظلِّه، يُبلِّدُ البصير، ويَهُدُّ الجليد، ويبسُطُ عُذرَ المَنُوِّ به، والمدفوع إليه، في كلِّ ما يتسكّعُ فيه، ويتصرّفُ عليه[٦].

وما أحسَبُني محتاجاً إلى دلالة سَيِّدنا الصّاحب - أطال الله بقاءه - على تفصيل هذه الجُملة مع قُربِ عهدِه بما يُشاكلُها ويُقاربُها، وعلمِه بما يَلحَقُ الحاصلَ فيها، والمقاسيَ لها، صَرَف اللهُ عن ساحتِه الأسواءَ كلَّها. وكلُّ ما وَفَّق اللهُ تعالى له من وَهنٍ جُبر، وخَلَلٍ سُدّ، ونَشْرٍ ضُمّ، وفَتْقٍ رُتِق، فهو مستثمَرٌ من بَركة سَيِّدنا الصّاحب، ومُسْتَنْتَجٌ[٧] من

---

(١) س: مرت.

(٢) س: مخفظاً، وبعدها: لا شغلا.

(٣) ب: المتبين.

(٤) عبر الصابي عن وفاة عَضُد الدَّوْلة بزوال ذلك الجبل.

(٥) لفظة «الماضي» يعبّر بها الصابي عن معنى: الراحل الفقيد.

(٦) (في كل... عليه) من ب فقط.

(٧) ب: مستفتح.

إقبالِه، ومحمولٌ على عادةِ الله - عزّ وجلّ - عند مَواليِنا - أطال الله بقاءهم - وعندَنا في خدمتِهم، والحمدُ لله حمداً يَقْضي حقَّه، ويقتضي مزيدَه.

وإذ قدَّمتُ هذا القولَ إليه - تمّم اللهُ علوَّه - وجعلتُه مفتاحاً لما أوثِرُه من صلةِ حضرتِه، وتنجُّزِ إجابتِه، فإنّي أُعلمُ سَيِّدنا الصّاحب - أدام الله نعمتَه - أنّ مَوْلانا الملكَ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أطال الله بقاءه - جارٍ على أفضل شِيمةٍ، وأكرمِ وَتيرة، في الإخباتِ[1] لمولانا الأمير الأجلّ المنصور فَخْر الدَّوْلة[2] - أطال الله بقاءه - والإعظامِ لحقِّه، وتوفِيتِه ما أوجَبَه اللهُ - جلّ وعزّ - له، وأنّه - بحَمْد الله ومَنِّه - ماضٍ على طرائق السَّلَفِ الصّالح[3] - رحمةُ الله عليهم - فيما اتّفقوا عليه من الاشتراك في النِّعَم، وتعادُل الأقساطِ والقِسَم، والاعترافِ بالحقوق، والاتّباع للرُّسوم، والاصطلاح على أنْ يوقِّرَ الصغيرُ كبيرَه، ويُشبلَ[4] الكبيرُ على صغيرِه، وأنْ يَرُدُّوا جميعاً كَيْدَ الكائد في في نحرِه، وحسَدَ الحاسِد في صدرِه؛ وتلك النيّات منهم - رضي اللهُ عن الماضين، ومَدَّ في أعمارِ الباقين - هي كالأطنابِ لدَوْلتهم، والدّعائم لممالكِهم، وبها يُرجَّى الدّوامُ والمزيد، والاستقرارُ والتمهيد، بإذن الله.

ويَتْلو ذلك اعتقادُه أنّ سَيِّدنا الصّاحب شيخُ دَوْلته، وعميدُ مملكتِه، والمتقدِّمُ لي ولجميع النّاس في مؤازرتِه ومظاهرتِه، والمُشاركة له، والتقرّبِ إليه، وحُسن المناب عنه،

(١) التواضع والطّاعة، ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٢٨ (خبت). قال تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ سورة الحج، من الآية ٥٤.

(٢) س: صَمْصام الدَّوْلة، سهو من الناسخ.

(٣) ب: السالف.

(٤) أشبل عليه: عطف عليه. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٣٥٢ (شبل).

بحضرة سَيِّدِه وعمِّه مَوْلانا الأمير الأجَلّ فَخْر الدَّوْلة - أدام الله أيّامه - ومهما أتاه - أيّده الله - في ذلك وبينه من محمود الأثرِ فيه، فالشكرُ به مَقرون، وعليه مَضمون، وهو الحقيقُ بمحلّه، والخليقُ بفضلِه.

فإنْ رأى سَيِّدنا الصّاحب - أدام الله تأييدَه - أنْ يثقَ بما أنهَيْتُه إليه، ويتحقَّقَ ما أطلعتُه عليه، ويقابلَ رأيَ مَوْلانا الملك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أطال الله بقاءه - بما يَزيدُ فيه، ويُؤْذنُ بتضاعُفِه وتناهيه، ويُعطيَني من نفسه النَّفيسة - صانَها الله - ما لم يزَلْ يُرخِصُه على مَن أخلَصَ له إخلاصي، واختَصَّ به اختصاصي، واعتَزَى إليه اعتزائي، وطَرَق بابَ فَضْله بمثل ابتدائي، ويُكلِّفَني عَوارض أمرِه ونَهْيه - لا زالا عاليَيْن - لأتصرَّف بينهما تصرُّفَ المقتدي بهما، والمرتدي جمالهما، فَعَل إنْ شاء الله.

نُسْخة كتابٍ وَرَد من الصّاحب أبي القاسم إسماعيل بن عَبّاد على الوزير أبي عبدالله الحسين بن أحمد بنِ سَعْدان العارض في سنة أربعٍ وسبعين وثلاثمائة[١]

كتابي أطال الله بقاء الأُستاذ مَولاي ورئيسي – أدام الله تأييدَه ونعماءه – يوم الإثنين، للَيْلتين[٢] بقيتا من ذي الحجَّة[٣]، ومَوْلانا الأمير السَّيِّد فَخْر الدَّوْلة[٤] شاهانْشاه[٥] – أطال الله بقاءه، وكَبَت أعداءَه – فيما يرفعُ اللهُ من قَواعِد مُلْكِه، ويعْضُد من سَواعِدِ عزِّهِ، ويَعْمرُ من أبْنيةِ استظْهارِهِ، ويَفْسِحُ من أفْنية استيلائه واقْتِداره، على ما تقرُّ به عيونُ أوْلياءِ الدَّوْلة، وأنْصارِ البَيْضة[٦]، وحُماة الحوْزة، وثقات الدَّعْوة، وأنا سالمٌ والحمْدُ لله ربِّ العالمين، وصَلّى اللهُ على سَيِّدنا مُحمّد وآلهِ أجْمعين.

وعِنْدِي للأُستاذِ مَوْلاي – أدام الله تأييدَه – كُتبٌ، أنا رهنُ[٧] برِّها، وعبدُ[٨]

---

(١) باريس، طهران، فيض الله، راغب باشا، سيلي أوك. مكان (ورد) في ب (قدم). (ابن سعدان) ساقطة في ب، وكذلك سقط التاريخ. وأورد ابن حمدون نصّ هذه الرسالة، التذكرة الحمدونية، ج٦، ص٣٤٦.

(٢) س: ليلتين.

(٣) ف: يوم كذا، ولم يذكر التاريخ.

(٤) س: ركن الدَّوْلة.

(٥) ساقطة في س.

(٦) ب: البيعة.

(٧) س: رهين.

(٨) س: عقيد.

شُكْرِها. وما عن تَقْصيرٍ في حقِّها ذَهَبتُ عن الإجابة، ولا[١] للإقْصارِ عن فَرْضِها قبضْتُ يدي عن الكِتابة، وكيف وقد عَلِمَ مَن له الخَلْقُ والأمْرُ، وسواءٌ عنده السِّرُّ والجَهْرُ؛ أنّي لم أسْتفدْ منذ دَهْرٍ لا أضْبطُ أطرافَهُ امتداداً، ولا أُحْصِي أيّامه تعْداداً، مَوْهبةً هي في نَفْسي أكرمُ مَنْبتاً من وُدِّهِ، وفي صَدْري أوْكدُ مَوْثقاً من عَهْدِهِ، ولكِنْ حوادث اعترضَتْ فأجْحَفَتْ، وكوارث ألحَّتْ فألحفَتْ، وأتَتِ اللَّيالي بما لم يُحْتسبْ طُروقُه، وهجَمَتِ الخُطُوبُ بما لم يُرْتَقبْ حُدوثُه، ومضى أمير الأمراءِ[٢]، وسَعيدُ السُّعَداءِ - رضوانُ الله عليه - فعادَ النَّهارُ أسودَ، والعيشُ أنْكدَ، والملكُ أغْبرَ بل أرْبَد. وأصبحتُ خصوصاً، والعمرُ خَصْمٌ يُهالُ عليه، والمَوْتُ سَلْمٌ يُحنُّ إليه.

وقد كان - قَدَّسَ اللهُ سرَّهُ ومثواه، وأكْرَمَ مَأْواه - عند بلوغ الأمر إلى حيثُ لا مَطْمعَ في العُمْرِ، أشار إلى مَوْلانا الأمير السَّيِّد فَخْر الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - إشارة النّاصّ[٣]، وعيّن على ذكره بالاسم الخاصّ، عالماً بأنّه - أدام الله أيّامه - سَدادُ الأمْر[٤]، وسِدادُ الثَّغْرِ، والكافلُ بَعْدَهُ بالشّمْلِ حتى يجتمعَ، وبالحبل حتى يتّصلَ، وبالشَّعْثِ حتى يُلَمَّ، وبالنَّشْرِ حتى يُضَمَّ، فحقَّق اللهُ مخيلتَهُ في حياتِه، وحَفِظَ حقيقتَهُ بعد وفاتِه، وقبل ذلك ما كان - سوّغهُ اللهُ رضوانُه - كلَّفني الاستمالة به - أدام الله سُلْطانهُ - لتُماتَ[٥] تلك الأحْقَادُ عن الصُّدورِ، وتُعاد[٦] عواطفُ النُّفوس والقُلُوبِ، ويتساهم

---

(١) (لا) ساقطة من ب.

(٢) أي: مؤيِّد الدَّوْلة (٣٦٦-٣٧٣هـ/ ٩٧٦-٩٨٣م).

(٣) أي: نصّ عليه نصّاً بالاسم. لكن ابن الأثير ذكر أن الصّاحب بن عَبّاد طلب من مؤيد الدولة أن يوصي بمن يخلفه، فقال له: أنا في شغل عن هذا، ومات ولم يعهد بالملك إلى أحد. الكامل، ج٧، ص٣٩٥.

(٤) س: الأمير.

(٥) س: لتماد، وفي التذكرة الحمدونية: لتمار.

(٦) س: تقاد، وفي التذكرة الحمدونية: تقار.

إحْسانُ الله الموفورُ، لا سِيَّما وقد تخوَّنَ الدَّهر الملكَ السَّعيد طَوْدَ الأطْوادِ، وعَضُد الأعضادِ – رحمةُ الله عليه – فوجَبَ أنْ يُزادَ في التّناصر[١]، ويُحصَّنَ الملكُ بالتّظاهُر.

وبَذَلْتُ جُهْدَ النّاصح، وهديتُ بالأدب الصّالحِ، إلى طريقِ الوَاضِحِ، فَثنَى مَوْلانا الأمير السَّيِّد فَخْر الدَّوْلة[٢] – أدام الله علوَّه – عنانَهُ عن نَيْسابُور لإعادَةِ الأُلْفةِ، وجدّ على سَمْتِ جُرْجان ماحياً للنّبوةِ، إلّا أنّ القضاءَ سبقَ فلم يلحقْ؛ وفرطَ فلم يدرِكْ، وقُبِضَ أمير الأمراءِ – قدَّسَ اللهُ روحَهُ – إلى قَبْضَةِ الرَّحْمةِ، والصَّلوات[٣] الجمَّة، بعد أنْ ذلَّل الخصوم، وأدال[٤] القُرُوم، واسترقَّ الأعْداء، وساسَ الدَّهْماء، واستقلَّ بالأعْباء، وخلَّفَ أطْيبَ الأبناء، فخدمتُ الدَّوْلة بالضَّبْطِ ما استطعت، وكفيتُ[٥] بقَدَرِ ما كفلتُ[٦] له واتّسعت، إلى أنْ عادَ مَوْلانا الأمير السَّيِّد فَخْر الدَّوْلة – أدام الله أيّامه – لمنْصِبِه المْهود، وسريرِهِ المْوروث، ورواقِ عزِّهِ الممدود، ومستقرِّ مُلْكِهِ المنصور، فتجلّت الغُمَمُ[٧]، ونَهضَت الهِمَمُ، وقَوِيَتِ المِنَنُ، وانزاحتِ الظُّلَمُ، وأصفقت الكافَّة، ونَزَلَتِ الرَّحْمةُ والرَّأفةُ، وشفى اللهُ صُدورَ قومٍ مؤمنين[٨]، ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٩].

---

(١) س: الناصر.

(٢) (فَخْر الدَّوْلة) ساقط في ب.

(٣) ف: التحيات.

(٤) ب، ف، س: أزال.

(٥) في التذكرة الحمدونية: تكلفت.

(٦) في الأصول: كملت، وما أثبتناه من التذكرة الحمدونية.

(٧) (ومستقر ملكه...... الغمم) ساقط في ب.

(٨) من قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، سورة التوبة، من الآية ١٤.

(٩) سورة الزمر، من الآية ٧٥.

ورأى[١] أهْلُ البَصائِر أنْ قد أعادَ اللهُ الدَّوْلة أجدَّ ما شُوهِدَتْ[٢]، وأشبَّ ممّا عُهِدَتْ[٣]، نافضةً غبارَها، رافعةً منارَها، خافقةً بلوائها، مستعليةً على أعدائها، مرسيةً بدعامتها، عند مَن يوفِّيها نذورها، ومفوِّضةً لزَعامتِها إلى مَن يَحْميها مَحْذُورها.

وكان من أوَّلِ ما فاتحنيه[٤] - حَرَسَ الله مُلكه - فقرأتُ منه صحيفة السَّعادة، وأخَذتُ فيه بوثيقة الإرادة، ما أعلمنيه من وُقوفِ همّته، وعُكوفِ عَزْمِه على عِمارَةِ ما أثَّلهُ الأمراءُ السّعداء - رضوان الله عليهم - بينهم قَبْلُ، انْخراطاً في سِلْك الاتفاق، وانحطاطاً في شِعَب الائتلاف، ودعاءً للأُمراءِ السّادة منْ أهْله - أدام الله تأييدَهم[٥] - بحقِّ الكِبَر، وفَضْلِ التَّجريب؛ لأطْوارَ الدَّهْر، إلى التّناصُر والتَّناصُف، والإعراضِ عن التَّباعدِ والتَّخالُف، ورَفْض المناقشة، التي تهيّج كَوامن النُّفوس، وتُثير سَواكن[٦] القُلوبِ، فقد أتى اللهُ في الممالك فُسْحةً، ولم يُوجِد في المشاحَّةِ والمباينة رُخصةً، هذا ولو كانت على أشدِّ تضايق، وأتمِّ تقارُب، لوَجَب أنْ يُتَساهَمُ عليها، علماً بأنّ يسيرَ الحَظِّ مع التعاون، والتّوافر[٧] خيرٌ من كثيره[٨] مع التَّقاطُع والتَّدابُر، فإنْ كان فيهم مَن تأخذُه العزَّةُ بالإثم، ويبغي تجاوُزَ سابقِ الوَصيَّة والحُكْم، كانت الجماعةُ يداً عليه إلى أنْ يفيء

(١) ب: ودان.

(٢) ب: شهدت.

(٣) في التذكرة الحمدونية: عوهدت.

(٤) س: مفاتيحه، التذكرة الحمدونية: ما فاتحته.

(٥) (من أهله..... تأييدهم) ساقط في ب.

(٦) ب: دحايل، ف: وسواكن بدون (تثير).

(٧) في التذكرة الحمدونية: التآزر.

(٨) ف: كثير.

للحُسْنَى، ويعودَ طوْعاً أوكرْها للطَّريقةِ المُثلى.

فأمّا الذي عنده - أعلى اللهُ جَدَّه - لمولانا الأمير صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أدام الله علاءه - فالانصبابُ[1] بالموَدّة التي لا مَطْلَعَ من بَعْدِها، ولا منزع وراءَ حدّها، وبالإشْفَاقِ المتَناهي؛ إلى حيثُ لا اقتراح وَراءَهُ للمُريد، ولا استزادة للمُلْتمس المستزيد، والله يُمتِّعُ بعضاً ببعضٍ، ويمدُّ هذه الظّلال على بسيطِ الأرْض؛ حتى لا يُعْرَفَ لها من سِواهم ملكٌ يُطاعُ، ولا مالِكٌ يقع عليه الإجْماع، إنّ الله سميعٌ مجيبٌ.

وأرْجع لنظامِ ما افتتحْت المخاطبة.

---

(١) ف، ر، س: بالانصباب.

ما رَجَع لنظامِ ما افتُتحتْ له المُخاطبة[1]

كان كتابُ مَوْلاي الأُستاذ – أدام الله عزَّه – الأوّلُ قد ملأ اليَديْن فَضْلاً، وحمّل الكاهلَ ثِقْلاً، فأيقَنْتُ أنّ أوْلى الموّدات[2] بالثِّقةِ الوَكيدة، وأحراها بالاسْتنامة الشّديدة موَدّتُه التي طلَعَتْ من أُفُق فَضْل، وشَيَّدها كرَمُ أصل؛ فأتَتْ تبرُّعاً من غير استجلاب، وتطوُّعاً من دون استكراه. ورجوتُ[3] أنْ أكونَ نِعْمَ النّاهضُ بحقِّ المقابَلة وإنْ فاز في المبَرَّة بالرُّتبةِ السّابقة، ووجدتُه – أدام الله عِزّه – قد بذل[4] من نفسِه في المُشاركة ما لو كلَّفتُه إيّاه لكنتُ مُتحكِّماً، أو مائلاً على جانبه مستحبّاً.

ولْيعلَمْ – أيّده الله – أنّي قد غَدَوْتُ أرى الحال بيننا أولى[5] ما أصرِفُ[6] الهمَّ إلى حِفظِه من جوانبِه، وأوكلُ الفِكرَ بحراستِه من الدَّهْر ونوائبه، وليس ذلك إلّا نتيجةَ ما قدَّمَه، وثمرةَ ما تجشَّمَه، وإلّا فقد عَلِمَ الأُستاذ مَوْلاي – أدام الله تأييده – أنّ كثيراً ممّن سَدَّ خَصاصَ المجلس الذي سَدَّه، وإنْ لم يَسُدَّ في الكفاية والبراعة مسَدَّه كاثَرَني؛ فخَفَّفتُ، وباسَطَني؛ فانقَبَضْتُ، لا تقصيراً بواحد، ولكنْ علماً بالمصادرِ والموارد. فلمّا وجَدْتُ مَن جَمَع مرتبةَ الاستقلال إلى كرَم الخِلال وشَرَف النِّجار، إلى إكبارِ مَن كان أهلاً للإكبار، ومَن هُنِّئَتْ به الأمورُ قبلَ أنْ يُهنَّأَ، وأوْلاهُ اللهُ – جلّ وعزّ –

---

(١) باريس، فيض الله، راغب باشا، سيلي أوك. وأوردها ابن حمدون في تذكرته، ج٦، ص٣٤٩.

(٢) س، ر: الأمور.

(٣) ب: وجدت.

(٤) ب: بدأ.

(٥) ب، ف، س: أول.

(٦) ر: ما صرف.

مَودّاتِ[١] الصُّدور[٢] قبلَ أنْ وُلِّي، أرسلتُ نَفْسي على سجيّتها، وأعدتُّها لفطرةِ أوّليّتها، وظنَنْتُ اللهَ تعالى قد أنشَرَ الفُضْلاءَ الأعيانَ الذين كنتُ أتجمَّلُ بوِدادِهم، وأتكثّر باعتقادِهم، واستَوْحشتُ من الأيّام بفَقْدِهم، وأنِسْتُ بقلّةِ الصَّديق من بعدِهم. والآن، حين أعتَبَ الزّمان فغَفَرْتُ له أكبرَ جَرائرِه، وسَحَبْتُ ذيْلَ التّجاوُز عن مُعظم جرائمِه.

ووَرَد بعدَه كتابانِ جَعَلا التفضُّلَ منه عادة، والبرَّ بِدْءاً وإعادة، ولو قد وَفَيتُ بما سَبَق لوفّيْتُ الحقّ بما لَحِق، إلّا أنّي إلى الآنَ مُعذِرٌ أو مُعتذر، ومُقصِّرٌ أو مقتصر.

ولئن كانت محَامدُ الأُستاذ مَوْلاي تُسابقُ يقينَ العارف، وتستغني عن لسانِ الواصِف، إنّي قد خَطَبْتُ في مجلسِ مَوْلانا الأمير السيد شاهانْشاه فَخْر الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - فيها بخُطَب إنْ لم تُفتَحْ بالتحميد فقد شُحِنت بالتعظيم، وإنْ لم تكنْ قُرئت على دَرَج المنابر فقد تُليت في أشرفِ المحاضر، وحقّقْتُ عنده - أدام الله سلطانه - أنّ الأُستاذ مَوْلاي - أدام الله تأييده - يَرى الخِدمتَيْنِ خدمةً واحدة، ويعُدُّ الغائبةَ منها شاهدة، فاعتَدَّ - أدام الله علاءه - ذلك أشدّ اعتداد، وأسلفَ عنه أتمَّ إحماد، وقد نَفَذ إليه عن حضرتِه العالية ما ليس بغايةٍ يوقَفُ عندَها، حتى أرْدف[٣] مع استقرارِ المخاطَبات بما يجبُ بعدَها بمشيئةِ الله. وإذْ قد جمَعَنا اللهُ على ما جَمَع فالانقباضُ هُجنة، والاحتشامُ وَصْمة.

وكنتُ - أدام الله تأييدَ مَوْلاي الأُستاذ، وقد يَسَّر اللهُ مَن سَدَّ الثَّلْمة ما استَبْدعتِ النُّفوس أنْ ينسَدّ، وسَهَّلَ من ارتدادِ الظُّلمة ما استَبْعدتِ العقول[٤] أنْ يرتَدّ - آمُلُ

(١) ف، ر: أدب.

(٢) ب: الصدق. وساقطة في س، ف.

(٣) ف، ر: يردف.

(٤) س، ب: القلوب.

ظَفَراً بها لم أزَلْ أُنازعُ إليه، وأُقارعُ الأمانيَ عليه، من اعتزالِ الأشغال التي كان يَحسُنُ الانقطاعُ إليها وفي الأيّام بقيّة، وفي الأقرانِ تقيّة، والعُمرُ في إقبالِه، والنشاطُ في استقبالِه، والشبابُ بحالِه، والأشدّ على استقلالِه، إلّا أنّ مَوْلانا الأمير السَّيِّد فَخْر الدَّوْلة شاهانْشاه - أطال الله بقاءه - خاطَبَني في هذا الباب بمُخاطباتٍ لم أستطعْ معها أنْ أبلُغَ ما أردت، وأُيمِّمَ إلى حيثُ قصَدْت، وانتهى بي في التعظيم إلى ما يُقسَمُ للمشارِك القسيم، فلم أُطِقْ شُكرَ نعمتِه إلّا بأنْ أتطوَّق فَرْضَ خدمتِه.

وأوردتُ هذا الفصلَ اعتذاراً إلى الوفاءِ وأهلِه، من النّظر بعد مَن لا تُؤرِّخُ السِّيَرُ بمثلِه، وإنْ كان اللهُ - جلّ وعزّ - قد أدال[1] من القُنوط اللّازم[2] بالإحسان الفائض، وانتضَى للمُلْكِ أكملَ سائس، وأشرفَ رائض[3].

وقد خاطَبْتُ أبا العلاء في كلِّ بابٍ بما يؤدَّى فيه حقُّ المناب[4]، وعلى ذكْرِه، فإنّي أرعى له حقوقَه لديّ، ووسائله إليّ، أنْ أدَّى إليّ عن الأُستاذ مَوْلاي - أدام الله تأييده - ما كَتَب بالإخلاص على سَرِّ القلب[5] فَرَسَخ[6]، وجعَلَ المَوَدّة شريعةً لا تُعقَبُ بالنَّسْخ[7].

---

(١) ر: إذال. ب، ف، س: أراك. وما أثبتناه من ابن حمدون.

(٢) ف: الملازم.

(٣) س، ب: عائض.

(٤) ب: المتاب.

(٥) ر: سواء سواد القلب.

(٦) من ب فقط.

(٧) ف، ر: بالفسخ.

فإنْ رأى مَوْلاي الأُستاذ – أدام الله تأييده – أنْ يُخاطبَني بما يخاطَبُ الموثوقُ به، المسكونُ إليه، المعتمَدُ منه، ما لا استظهارَ عليه، ويقرِّرَ عند مَوْلانا الأمير صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة – أدام الله بقاءه – أنّي وإنْ غِبتُ فخادمٌ يتصرَّفُ بإخلاصٍ حاضر، وعبدٌ قد وَرِثَه كابراً عن كابر، ويُصرِّفني بين أمرِه ونَهْيِه، فَعَل إنْ شاء الله.

نُسْخة الجواب من إنشاء أبي إسحاق إبراهيم بن هِلِّيل الصّابي عن الوزير المذكور[١]

كتابي – أطال الله بقاء سَيِّدنا الصّاحب – ونعمةُ[٢] الله عند مَوْلانا الملك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة – أطال الله بقاءه – سابغةٌ راهنةٌ، وأحْوالُ مملكتِه – رعاها الله – مستقيمةٌ مُنْتظِمةٌ، واللهُ – جلّ اسمُه – مُتَكَفِّلٌ له[٣] بحِفْظ الحوْزة وحياطتها، وإظهار الرّايةِ ونُصْرَتها، والتمكين في الأرضِ بأفْضل ما مكّن به للملوك المؤيَّدين، ووُلاة الأمر المختارين المنتَجبين، تصاعُداً وسُموّاً، وتَزايُداً[٤] ونُموّاً، وتوقّلاً في هضاب الفَخْر والمجْد، وترقِّياً في درجات الحظِّ والجدِّ. وهو – أدام الله تأييدَه – مقابلٌ لذلك بالشُّكْر لمولِّيه، والاستمداد للَطيف صُنْعِهِ فيه، ومدِّ الظلِّ الظَّليل على كلِّ عامٍّ وخاصٍّ[٥]، وإفاضةِ الفِعْل الجميلِ في كُلِّ دانٍ وقاصٍ، فالأولياءُ على طاعتِهِ مجمعون، وفيها مُخلصون، والرَّعايا في كَنَفِ سياستهِ وإيالته ساكنون وادِعون.

فأمّا ما خصَّني اللهُ به من تفويضِهِ إليّ، وتَعْويلِه عليّ، وإنْفاذه أمري في البَسْط

---

(١) باريس، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي، سيلي أوك. (إبراهيم بن هِلِّيل) و(عن الوزير المذكور) ساقط في ب. وتظهر في س كلمة (هِلِّيل) واضحة جلية. وأورد نصّ هذه الرسالة ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٦، ص٣٥١. والوزير المذكور هو ابن سعدان.

(٢) ف: نعم.

(٣) ف: لنا.

(٤) ف، ع: مزيداً، ر: تزيداً.

(٥) س: الظل على عام وخاص.

عنه والقَبْضِ، والإعْلاءِ والخَفْضِ، فلساني يقصُر عن ذِكْرِه مُوْجزاً مُجْملاً، فكيفَ به مَشْروحاً مُفَصَّلاً[١]، فالحَمْدُ لله على ذلك[٢] حمداً يَنْتهي باتِّصالِه وتَرادفِه، وتَناهيه[٣] وتضاعُفِه إلى مُجازاة هذه المِنن كُلِّها وإنْ كانت استطاعتُنا مُتخلِّفةً عنها، وواقفةً دونها، وناقصةً عن الوفاءِ بحقِّها، حتى يُتمِّمَهُ عفوهُ وفَضْلُهُ، وإحْسانُهُ وطولُهُ.

ووَصَل[٤] كتابُ سَيِّدنا الصّاحب – أدام الله تأييده – بتاريخِ ليلتين بقيتا من ذي الحجَّة مُصدَّراً بنظير ما صدّرتُ كتابي هذا[٥] به من منائح الله – جَلّ وعلى – الجليلة له في نَفسِهِ، ولي فيه ولنا جميعاً في سَلامة مَوْلانا الأمير الأجلِّ فَخْر الدَّوْلة – أطال الله بقاءه وانتظامَ أحْوالِه، واطّرادَ شؤونه، ونفاذَ أمرِه، وامتدادَ سُلْطانه – وفيما أحْسَنَ اللهُ تعالى توفيقَهُ له وإرْشادَهُ إليه من تَوْفيته – أدام الله عِزّه – حقَّهُ، وإنْزالَهُ منزلته، وإيفائه به[٦] إلى إلى أقْصى مراتب الجلالِ والنُّبْل، كما أوْفى اللهُ – جلّ وعزّ – به إلى أعلى مراقي الكَمالِ والفَضْل، ومُفيضاً عليّ من صُنوف البِرّ والإكرام، وضُروبِ المِنَنِ الجِسام ما يستعبد الأحْرارَ بأقلّه، ويَسْترِقُّ الأعناق بأيسره، ومُفاوضاً لي من جلائل الأمور، ومعاظم الشؤون، ما يجِبُ أنْ تكون المفاوضاتُ بيننا فيه متردِّدةً، وسُبلُ المواصَلة به وبأمثالِه مَعْمورَةً، وفهمتُه.

فأمّا تذمّمُ سَيِّدنا الصّاحب – أدام الله تأييدَه – من تأخُّرِ الأجْوبةِ عن كُتبي المتواترةِ

---

(١) ساقطة في ر.

(٢) ساقطة في س.

(٣) ف، ر، ع، س: وتوافيه.

(٤) من بداية الرسالة إلى هنا ساقط في ب.

(٥) ساقطة في ب.

(٦) ساقطة في ب.

إليه، واعتذارُه من ذلك بما اعتذر به، فقد قام عندي إحصاؤُهُ إيّاها، وحفظهُ عَدَدَها، وتوكُّل فكره، ومراعاته بها، وجَمْعَهُ لي الجوابَ عنها في الكِتابِ الذي هذا جوابُه[١] مَقام المكاتَبة الجارية على المواظبة، المسْتمرَّةِ على المداومةِ، لا سِيَّما مع ما يتناولني[٢] به من لَفْظِه الجميلِ، وبرِّهِ الهنيّ، ومطاولتِه البالغةِ، ومُناقشتِه الشّافية على حَسَب ظمئي - كان - إلى ذلك وارتياحي، وسروري - الآن - به وارتياحي. وهذه حالٌ تخفِّفُ عنه - أدام الله تأييده - كُلْفةَ الاعتذارِ، فتُوجِبُ له مزيداً في الاعتداد[٣]، ولا أعْدَمني اللهُ تحمُّلَ عَوارِفِه، وتطوُّقَ مِنَنِه، مع الإنهاض بها، والمعونة على شُكْرِها.

وأمّا ما ذكَرَهُ سَيِّدنا الصّاحب - أدام الله تأييدَه - الأثقال الفادحة التي حَمَلَها، والأمور المنتشرة التي نظمها، بين الرَّزية في أمير الأمراء مؤيِّد الدَّوْلة - رُضوان الله عليه - التي نَكأتِ القُلوبَ، وأحرّت الأكْبادَ، ومن العطيّة في مَوْلانا الأمير الأجَلِّ فَخْر الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - التي أقرّتِ العيونَ، وأثلجت[٤] الصُّدور، فقد كُنْتُ لجميعِ ذلك متصوراً، وبه محيطاً، ولَوْ لم أعْلمهُ بالمراعاة، وأضربُ[٥] فيه بِسَهْم الموالاة، لعلمتُه لعلمتُه بالقِياسِ والاسْتِدْلال؛ لأنني كافَحْتُ النّائبةَ الأولى، ولاقَيْتُ الدّاهية الجُلّى في الملِكِ الأعْظمِ، والسَّيِّد المقدَّم، عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة - لَقّاهُ اللهُ رَوْحَه ورَيْحانه، وبوَّأهُ جنّته ورضوانَه[٦] - وقاسيتُ شدائدَ مُتْعبةً فيما خَدمتهُ - رحمه اللهُ - به أيّام علّتِه

(١) (وجمعه..... جوابه) ساقط في ب.

(٢) ساقطة في ب، ر: يتأولني (مجودة).

(٣) (فنتوجب..... الاعتداد، و) ساقط في ب.

(٤) ر: أنتجت.

(٥) من: ر، وفي ما دونها: أضربت.

(٦) تأثّر بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ سورة الواقعة، الآيتين: ٨٨-٨٩.

المتطاولة، وفيما نَفَّذْتهُ بعدَهُ من وَصاياهُ المؤكَّدَة[١]. ولما انتقل إلى جوار ربِّـه، وانْقَلَـبَ إلى كرامتِه وعَفْوِهِ، ثنيتُ وَجْهي إلى احتذاءِ مَراسِمِه[٢]، وامتثالِ أوامرِه فيما عَقَد مـن العَهْـد للملكِ القائمِ بعده، السّاد ثلمه[٣]، الوارِث شَرَف مَنْزلتِهِ، المُسْتقِرِّ في عَلْياء رُتْبتِهِ، مَوْلانا صَمْصام الدَّوْلة وشَـمْس المِلّـة - أطـال الله بقـاءه - مُسْـتَمْلياً فـيما أخَـذْتُ وتركْـتُ، وأوْرَدْتُ وأصْدَرْتُ مـن سَـديد آرائـهِ، ومُستضـيئاً بـوَميضِ لَألائـه، وضـارباً وُجـوهَ النَّوائـب بِـيُمْنِ طـائره، وسَـعادةِ طالعِـهِ، إلى أنْ تجلّـتْ غَمّاؤهـا، وانْسَـمَح[٤] إباؤُهـا، وتذلَّلتْ صِعابُها، وتَفلّلت[٥] أنْيابُها، وضُرِبتِ الدَّوْلةُ بجِرانها[٦]، واستقلَّت بأرْكانها، واطمأنّت على مهادها، وطَرَفَ اللهُ أعْيُنَ شُنّائها وحُسّادِها، هذا[٧] عـلى شَـوائِبَ كانـت تَعترِضُ ثم تُقْلِع، وتُظِلُّ ثم تُقْشَع، لا تخلُو الدُّوَلُ المتجدِّدةُ من اعتنان أمثالها وأشْكالها، وأهْون بها مع حُسْن عُقْباها ومآلها، فلو وَصَفْتُ لسَيِّدنا الصّـاحب - أدام الله تأييـدَه - ما مَرَّ بي في هذه الأحـوال مـن إصْـلاحِ الفاسِـد، وتَقْـويم المائـد[٨]، وقَـبْضِ المنبسـط،

---

(١) ف، ر، ع، س: المتوكدة.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) بعدها في ف، ر، ع، س: بمكانه.

(٤) ب، ر: اسمح.

(٥) ف، ع: تهللت. والتفليل: تفلل في حد السيف والسكين. ابـن منظـور، لسـان العـرب، ج١١، ص٥٣٠ (فلل).

(٦) جِران البعير: مقدّم عنقـه، فـإذا أراد أن يـبرك مَـدّ جِرانـه عـلى الأرض. والمقصـود أن الدَّوْلـة استقامت. وأول مَن قاله السيدة عائشة أم المؤمنين. ابن قتيبة، غريب الحديث، ج٢، ص٤٧٩.

(٧) ساقطة في ر.

(٨) ف: المايل.

وإرْضاءِ السّاخطُ، وتآلف المخالف، واستفاءة المجانف[١]، ومقابلةِ كلِّ داءٍ بدَوائه، وتَعْديل كل أمرٍ خِيفَ من اضطرابِهِ والتوائه؛ لَطالَ الخِطابُ، واتّصَلَ القَوْل.

وأنا أحْمَدُ اللهَ على أنْ جَمَع بيننا فيما تَولّانا به من المعونَةِ التي قَضَيْنا بها حُقُوقَ مَوالينا الأمراءِ السّادة - رضوانُ الله على مَن مَضَى منهم وسَلَف، وأطال بقاءَ مَن قام بعدهم وخَلَف - وإيّاه أسألُ إدامتَها والزِّيادةَ فيها؛ ليُشار إلينا في المسْتَقلِّينَ، بحمل أياديهم، كما يُشارُ إليهم في الإنْعام على مَواليهم بمَنِّهِ وطَوْلِه.

وأمّا ما أورده سَيِّدنا الصّاحب - أدام الله تأييده - في الحضِّ على التَّآلف والتَّعاطُفِ، والنَّهْي عن التَّقاطُعِ والتَّدابُر، فمثلُهُ ولا مثل له، قال ذلك، وأرْشَدَ إليه، وأشارَ به، وحثَّ عليه، وحَقيقٌ علينا فيما نَلْتزمُهُ من شُكْرِ النِّعم؛ التي خَصَّتنا خصائصها[٢]، وتَظاهَرَتْ علينا ملابِسُها؛ أنْ نُكرِّرَ على أسْماع مَوالينا - أيّدهم الله تعالى - ما يعودُ عليهم وعلينا في ظِلِّهم، باجتماع الشَّمْل، واتّصالِ الحَبْل، والتّعاضُدِ الكابت لأعْدائهم، الزّائدِ في عَلْيائهم، وبالله ما أجِدُ عند مَوْلانا الملكِ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أطال الله بقاءه - مستزاداً في ذلك ولا مُوْضِعاً لبَعْثِ باعثٍ عليه؛ إذ كان - أدام الله عِزّه - يرجعُ إلى أكرم طبيعةٍ، وأشْرَفِ غريزَةٍ، وأنْجبِ عُودٍ، وأفْخرِ نِجار، وأثقب رَأْيٍ، وأصحِّ اخْتيار.

ويَرى لمَوْلانا وعمِّهِ وسيِّدِهِ الأمير الأجلِّ فَخْر الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - ما ينبغي له أنْ يراه له من الحقّ[٣] العظيم، والفَضْل الكبير، ويثق بما له عنده من مِثْل ذلك،

---

(١) ف، ر، ع، س: المتجانف.

(٢) س: خصنا به.

(٣) ب: الحظ.

ويعتقد في سَيِّدنا الصّاحب – أدام الله تأييدهُ – ما يعتقد في أفْضلِ[١] الوُزراء، وأجَلِّ الكُبَراء، والأوْحدِ في الدَّوْلة والمُتفرِّدِ بكلِّ فضيلة، والمعمولِ على رَأيه، والمرجوع إلى تَدْبيره فيما خصَّ وعمَّ، وجلَّ ودقَّ، وما أخلّ بـرَبِّ هـذه الحـال وحراستها وعِمارتها، ونفي الأقـذاء والشّوائب عنها، وبلوغ كلِّ غايةٍ في تَقْريرِها وتَمْهيدِها، وتثبيتها وتَوْطيدِها، غيرُ موجبٍ لنَفْسي فيها من الحَمْد إلّا ما يجبُ للعارفِ بالحقّ، والمؤدِّي للفَرْض.

وأمّا تمهيدُ سَيِّدنا الصّاحب – أدام الله تأييده – لي عند مَوْلانا الأمير الأجلِّ فَخْر الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – وإصدارُه ما أصدر إليّ عن حَضْرتِه، ووَعْدُه بها وعَدَنيه من مُسْتَأنفِ زيارتِه، فقد شكَرْتُ ذلكَ، وتحمَّلْتُ المِنَّة فيه، ووثقتُ من سَيِّدنا الصّاحب – أدام الله تأييده – بأنّ كرمَهُ وكيلٌ لي عليه، والنائبُ عنّي عنده، في توفيتي من جهتيهما جميعاً ما أستحقُّهُ بالموالاةِ المحوضةِ غير المَشُوبةِ، والطّاعة المصْدُوقةِ غير المكذوبة، وبما وَسَمني به مَوْلانا المِلكُ السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة – أطال الله بقاءه – من نعْماءِهِ وأثرِه، وفوَّضه إليّ من وزارته[٢]، ومظاهرتِه مُؤَهّلاً لي في ذلك للتَّفرُّدِ والاستبداد، وذاهباً بي عمّا كان أمْرُ[٣] الوزارة جارياً[٤] عليه بين الشُّرَكاءِ والأنْداد.

ولَسْتُ أخافُ وقد عَرَفْتُ لسَيِّدنا الصّاحب – أدام الله تأييدَه – حقَّ السّابقِ المجلّي؛ أنْ يمنعني حق التّالي المصلِّي، هذا فيما تتراءاه العُيونُ[٥] ظاهراً، وتتناقلُهُ

---

(١) ب: أول.

(٢) ف، ر، ع، س: موازرته.

(٣) ف: أمراء.

(٤) ف: جارين.

(٥) ب: العين.

الأخبارُ[١] سائراً، ومن ورائه باطنٌ منّي في التَّعبُّد له، والانحطاطِ عنه أُشْهِدُ[٢] الله على سماحة نَفْسي به، وانْشراح صدري له، ووَصَل الله ما تقرَّر في قلبي من إعْظامِه، وتحصّلَ في يدي من عَهْدِه وذِمامِه، بأحْسنَ ما اتّصلَتْ به ذاتُ بَيْنٍ، والتأم[٣] عليه شَمْلُ فريقين بطَوْلِه ومَشيئته وإذْنه.

وقد سمعْتُ من أبي العلاء - أيّده الله - ما أدّاهُ، وأجبتُ عنه بما اقتضاهُ، واعتددْتُ له بشُكْر ما شكرَهُ؛ وإنْ كنتُ لا أرضى حدّاً أقفُ عنده في مُراعاةِ مِثْلِه، ممّن انْتسبَ إلى جملتِه الجليلة، وجنبته الشّريفة. وكان مَرْسوماً منها بالسِّفارة، ومَوْسوماً بتحمُّل الرِّسالة. وقَبْلَ ذاك وبعدَه، فإنني أرغبُ إلى سَيِّدنا الصّاحب – أدام الله تأييدَه – في إمْدادِي بأمْرِه ونَهْيه، وتَصْريفي في عَوارض خِدْمتِه، واخْتصاصي بمفاوضتِه ومباسطته، واعتمادي لحاجاتِه وأوْطارِه، وإطْلاعي على سائرِ أحْوالِه وأخْبارِه، ومُتجدِّد نِعَم الله عنده، ومواهبه له.

فإنْ رأى أنْ يتوخّاني بالمِنّة في ذلك محقّقاً سالِفَ ظنّي به، ومُنْجزاً آنفَ وَعْدِه فيه، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) بعدها في ب، ف: باطناً، وهي زائدة.

(٢) ب: لنشهد.

(٣) ف: اشتمل.

وكَتَب عن الوزير أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن سَعْدان إلى[١] أبي النَّجْم بَدْرِ بن حَسْنُوَيْه[٢] الكُرْدي[٣]

جوابٌ[٤]

كتابي – أطال الله بقاء مَوْلاي ورئيسي الحاجِبَ – والسَّلامة لمَوْلانا الملكِ السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة – أطال الله بقاءه – شاملةٌ، ونعمةُ[٥] الله - عزّ وجلّ - في ذلك[٦] عنده وعِنْد أوْليائِهِ تامَّةٌ كاملةٌ[٧]، وأحوالي جاريةٌ في النّفس والحوْزة، وما نَفَذ

---

(١) ف، ر، س، ك: بن. وهو خطأ – على صغره – كبير جداً.

(٢) ضبطه ابن ناصر الدين بضم النون. توضيح المشتبه، ج٣، ص٢٤١.

(٣) باريس، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك، وبعضها في طهران بعنوان (فصل من كتاب). (بن سعدان) هنا إضافةٌ منّا للتوضيح.

أبو النجم هذا ورث أباه حسنويه في حكم بلاد الجبل وهَمذَان والدينور وبروجرد ونهاوند وأسد آباد وغيرها؛ فأقره عضد الدَّوْلة، وكنّاه الخليفة القادر بالله أبا النجم، ولقّبه نصرة الدَّوْلة، وعقد له لواء. وكانت أعماله آمنة. توفي سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٥٩٥. أخباره ومطاولاته مع الخلافة والبويهيين مبثوثة – بالإضافة إلى الكامل – في: تجارب الأمم لمسكويه؛ وذيله لأبي شجاع؛ والمنتظم لابن الجوزي. وسترد رسائل إلى أبيه في فصل الرسائل الإدارية.

(٤) من ب فقط.

(٥) ف: نعم.

(٦) (في ذلك) ليست في: ب، ف.

(٧) ف، ب: متكاملة.

فيه الأمْرُ والقُدْرة، على أجْمل ما عوَّدَ اللهُ وأوْلى، وأجْزل ما مَنَح وأعطى؛ فلَهُ الحَمْد كثيراً، والشُّكْرُ دائماً.

ووقفتُ على كتابِ مَوْلاي الحاجِبِ – أدام الله نعمتَهُ – إلى مَوْلاي القائد أبي حَرْب زِيار[١] بن شَهْراكُوَيْه مَوْلى أمير المؤمنين – أدام الله تأييدَه، وتَصرّفَ[٢] فيه تَصرُّفَ مِثْلِهِ، ممّن سدَّدَ اللهُ مذاهبَه، ووفَّرَ مناقبَه، وأكْمَل فَضْله، وأرْجحَ وزنَهُ – وفهمتُهُ، واعتَنَقْتُ الأمْرَ فيه اعتناقَ المشارِكِ له، المرامي دُوْنهُ، المحَامِي عَنْهُ، المُتمسِّكِ بعلائق وُدِّهِ، ووثائقِ عَهْدِهِ.

وعَرَضْتُ من مَعانيه في المجلِس العالي ما صَلُحَ أنْ يُعرَضَ ممّا زاد المحلَّ تمهُّداً، والرأيَ الجميل تأكّداً[٣]، وأضفتُ إليه ما حضرني[٤] من سَدِيد التَّلطُّفِ، ودَقيقِ[٥] التَّوصُّل، غير مُسْتكْثِرٍ ذلك في جنْبِ المعتقدِ له، والملتزِمِ من حقِّه، فوَقَع الجميلُ – بحَمْدِ الله – أحْسَنَ مَوَاقِعِهِ، وقابلَهُ من تفضُّل مَوْلانا الملك السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة – أطال الله بقاءه – ما اشتدَّ اغتباطي وابتهاجي به، وجعلتُ ذلك كالأصْلِ المُسْتقرّ الذي يقَعُ البناء عليه؛ حتى انتهى بالحالِ إلى غاية مرادي و[٦]إيثاري

(١) ب: رنار. ف، ر: زياد. وأبو حَرْب هذا من كبار رجال عَضُد الدَّوْلة وصاحب جيشه، وكان قد دخل معه على الخليفة الطّائع لله في مشهدٍ مهيب، نقله الصابي، رسوم دار الخلافة، ص٨٢؛ الصّاحب بن عباد، المختار من رسائله، ص١٢. وأخباره مبثوثة في ذيل تجارب الأمم للروذراوري؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير؛ تاريخ الفارقي، ص٥٣.

(٢) س: الذي تصرف.

(٣) ن: نوطا، س: شاكراً.

(٤) س: خصني.

(٥) ب: رفيق.

(٦) (مرادي و) من ب.

لمَوْلاي الحاجب أدام الله تأييدَه – بعَوْنِ الله وإذْنه.

ووجدتُ مَوْلاي الحاجبَ قد ضمَّنَ ذلك الكتابَ النَّفْث الكثير، وأوْرَد فيه الجَمَّ الغَفير، وميّزَتُ جميعهُ؛ فكان منه ما أُسَلِّمُهُ ولا أدْفعهُ[١]، ومنه ما يَقْتضي بعض الموافقةِ والمحاجَّة. ولما كان الأمرُ كذلك، وكانتِ النيَّةُ التي استأنفها سَيِّدي الحاجبُ – أدام الله عِزّه – نيَّة العائدِ الآيب، و[٢]المُخْلص الرّاغب، والاعتقادُ مِنّا اعتقادُ القابلِ منه، والمقبل عليه، رأيتُ أنْ أطويَ بساطَ الجفْوَة، وأخْفِضَ عِمادَ النَّبْوة، وأخرجُهُ – أيّده الله – وأخْرجُ معه عن ضِيقِ المناقَشةِ إلى فُسْحةِ المُسامحةِ، وعَنْ حَزُونةِ المعاشرةِ إلى سُهولة المياسرة، إذ كنتُ لا ألزمُهُ في شيءٍ مما مَضَى[٣] لوماً إلّا قَرَنْتُ به عُذْراً[٤]، ولا أُطالبُهُ[٥] بالفَيْئة إلينا؛ إلّا طالبتْ[٦] نَفْسي له بمثْلِها.

والواجب – أيّد الله مَوْلاي الحاجبَ – أنْ يُحصّل الآنَ هذه الجُمْلة من قَوْلي، ويثقَ بما وراءَها من خالصِ مُحاماتي ومُصافاتي، ولْيستخر[٧] اللهَ كثيراً في إنْفاذ[٨] مَن يَراهُ من وُجوهِ أصْحابِه – أيّدهم اللهُ – إلى البابِ المعمور، ليصلَ إلى الحَضْرة الشّريفة؛ فيُسْمَعُ ما يؤدِّيهُ، ويُجابُ عنهُ، ويَبْلغَ المحبةَ وتُبلَغُ منه. وأتنجّز لمَوْلاي الحاجبِ – أدام الله عِزّه –

(١) س: ارفعه.

(٢) الواو من ب فقط.

(٣) س: يخصني مضى.

(٤) بعدها في ر: أولاً.

(٥) ف: طالبته.

(٦) س: طلبت.

(٧) ف: يستخير.

(٨) س: إيقاد.

التَّكْرِمة المشاكلةَ لقدرِه[١]، والتَّفْريقَ[٢] المضاهي لمحَلِّه، وأرد صاحبَهُ بذلك، وبكُلِّ ما يُرْضيه ويُسُرُّهُ أثَري فيه، فإنْ رأى مَوْلاي الحاجبُ - أطال الله بقاءه - أنْ يتفضَّلَ بذلكَ ويُقَدِّمَه، ويُعجِّله ولا يُؤخّره، ويُجيبني بما أعتمدُه وأحصلُه، وأزيدُ ثقةً به، وتيقّناً إليه، ويتبسّط إليَّ في كلِّ حاجةٍ تعرض، ومهمٍّ يسنح، فَعَل إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) ب، ر: التشريف.

وكَتَب عن صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة إلى سَعْد الدَّوْلة أبي المعالي ابن سَيْف الدَّوْلة في شعبان سنة خمسٍ وسبعين وثلاثمائة[١]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي سَعْد الدَّوْلة - يومَ الإثنين لأربع ليالٍ بقِينَ من شعبان، عن شُمول السَّلامة، وعُموم الاستقامة، واكتنافِ السَّعادة، وصَلاح الأمورِ خاصّةً وعامّة، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقد وقَعَتْ في المواصَلة بيننا - أدام الله عزَّ سَيِّدي سَعْد الدَّوْلة - فترةٌ إذا حُمِلت منّي على ظاهرِها أشبَهَتْ الجفاء، وإذا رُدَّت إلى باطن غَرَضٍ فإنّما هي لتهذيب المَوَدّة، وعلى أنه إنْ كان للعَتَب .....[٢] بيننا مع ما أكّده اللهُ - جلّ وعزّ - من الثِّقة الجامعة لنا، فعليه توجُّهُه لا .....[٣]، إذ قد عَرَفَ العَوارض التي عَرَضتْ بالحضرة، وأنّها كانت عائقةً لي عن المكاتَبة، وداعيةً إلى أنْ أوفِّرَ الفِكرَ عليها، وأنصرفَ بالهمّة عن كلِّ شيءٍ إليها، حتى كشَفَها اللهُ - جلّ وعزّ - بلطفِه، وأجْريَ فيها على المعهودِ من فَضْله وصُنعِه، وانعكَسَت مَكِيدةُ كلِّ باغٍ إليه، وكانتِ الدّائرةُ فيها عليه، فالحمدُ لله على ما أنزَلَ علينا من الرحمة، وقضَى لنا به من الإظهارِ والنُّصْرة.

وقد طُولعَ سَيِّدي سَعْد الدَّوْلة بذلك لأوقاتِه، ونَفَذت البشائرُ إليه في أحبّائه، حسَبَ ما تقتضيه مساهمتُه لنا في كلِّ ما يتجدَّدُ عندنا من مُلمٍّ سيُلمُّ بنا، وعاقبةٍ تكونُ

---

(١) باريس.

سعد الدَّوْلة ابن سيف الدَّوْلة جلس على عرش أبيه في حلب سنة ٣٥٦هـ. أفرد ابن العديم فصلاً للحديث عن حلب في أيّامه. زبدة الحلب، ص٩١ وما بعدها.

(٢) كلمة غير مقروءة، ضَبَّبها الحبر.

(٣) كلمة غير مقروءة، ضَبَّبها الحبر.

لنا، هذا مع ما اختلفَتْ به الأخبار، ودَلَّت عليه الآثار، ممّا استبعَدْتُ[١] أنْ يتأتّى مِثلُه من مِثلِه، مع الأحوال بيني وبينه، وما للسيِّد الماضي[٢] نَضّر الله وَجْهه من الإسلافِ عنده.

ولما كان في هذا الوقت اهتزَزْتُ لتصفُّح كتُبِ سَيِّدي سَعْد الدَّوْلة والمقابلةِ بين أوائلها وأواخِرها، والمقايَسةِ بين فَواتِحها وخَواتِمها، فوجدتُه يعتَدُّ لنا وعلينا بحقوقٍ ما يتناكَرُها لكنْ جميعُها مُلزِمٌ لنا طَرْدَ الآنِف على السّالف، ورَبَّ الماضي بالآتي، والتحرُّزَ من أنْ يعترضَ الشِّربُ في الصّفاء، ويتسلّط الشكرُ على اليقين، وأحببتُ إليك هذا الفعلَ لقُوّة الثِّقة، وضَعْف الشُّبهة. ولأنّني قبلت ما عرَضَه عليّ أبو العَبّاس الفَضْل بن إسحاق من الاعتلال، ومَهَّدَه عندي من الاحتجاج، ورَفَعتُ سَيِّدي عن أنْ أُلجئَه إلى مَضيقٍ من القول، وأُحْوِجَه إلى غامضٍ من العُذر، وَصَل اللهُ ما بيننا بأحسنِه، وصانَه عن جرائرِ وجوانبِ هُجَنِه.

وقد أخرجتُ أبا الهيثم السَّريَّ بنَ الحسين وأبا العَبّاس الفَضْل بنَ إسحاق ممّا يوصِلانِه من المكاتبات، ويؤدِّيانِه من المراسَلات، وأمَرْتُ أبا الرَّيّان حَمْدَ بن مُحمّد[٣]

---

(١) في الأصل: استعبدت.

(٢) لفظة «الماضي» يعبّر بها الصّابي عن معنى: الرّاحل الفقيد، كما أشرنا إلى ذلك قبلُ.

(٣) حَمْد بن مُحمّد، أصْبهاني. كان خاله أبو القاسم الواذاري أستاذ دار الملك عَضُد الدَّوْلة أبي شجاع. فلما توفي قلَّده عَضُد الدَّوْلة ما كان إليه. فلما أخرج عَضُد الدَّوْلة أبا القاسم المطهَّر بن عبد الله وزيره إلى البطائح لأخذها عند وفاة عمران بن شاهين، استخلف له أبا الرَّيّان بحضرته. ولم يكن له بضاعة في الكتابة، ولا دربة بالأعمال، ولكن دبَّر ذلك بعقله. فلما توفي عَضُد الدَّوْلة، قبض عليه الغد من موته. ثم استدعاه صَمْصام الدَّوْلة أبو كاليجار ابن عضد الدَّوْلة، وقلَّده الوزارة وخلع عليه. فدبَّر الأمور سبعة أشهر وتسعة أيّام. ثم قبض عليه وسلَّمه إلى أبي الفضل المظفَّر بن محمود الحاجب وهو عدوه فقتله. ولما ورد شرف الدَّوْلة أبو الفوارس

بأنْ يكتُبَ مع ذلك ما هو عاملٌ عليه، وممتثلٌ للأمرِ به. وأبو الهيثم ثقتُنا والمندوبُ لتوسُّط ما بيننا، وقد وَلّيْناه العَقْدَ عنا، وقبول العَقْدِ لنا، وارتضَيْنا رأيه وفعلَه في كلِّ أصل وفَرْع. وأمضَيْناهما فيما قَلَّ بيننا وجَلَّ، وأمَرْنا بالإفراجِ عن سَقْلارُوس[1]، وأُفيضَتْ عليه كراماتُنا، وتتابَعَ إليه إحسانُنا، ووفَيْناهُ حقَّ مِثلِه من عُظماءِ أهل مِلّتِه

ابن عَضُد الدَّوْلة، بحث عن أمره فأخرجه بقيوده مدفوناً في دار الحاجب، فسلَّمه إلى أهله. وكانت قتله سنة خمس وسبعين وثلاثمائة؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٥٩؛ الصفدي، الوافي، ج١٣، ص٩٩.

(١) الضبط من الأصل، وسيصفه الصابي في رسالةٍ لاحقة، ج١، ص٣٥٣، ص٣٥٧، ص٣٦٠، ص٣٦٢ بملك الرُّوم، ولا يصحّ ذلك، إنما هو دمستق، وهو الذي قال عنه ابن الأثير في أحداث سنة ٣٦٥هـ: وفيها أقام بَسيلُس بنُ أرمانوس ملكُ الرُّوم ورداً، المعروف بسقلاروس، دمستقاً. فلما استقرّ في الولاية استوحش من الملك، فعصى عليه، واستظهر بأبي تغلب الحمداني وصاهره، ولبس التاج وطلب الملك. الكامل، ج٧، ص٣٤٢.

وأردف هذا الخبر بذكر وصول ورد الرُّومي إلى ديار بكر سنة ٣٦٩هـ، واستجارته بعَضُد الدَّوْلة، ويعده ببذل الطّاعة له وأداء الأموال إذا ساعده في الوصول إلى العرش والملك. لكن عَضُد الدَّوْلة تلقى عرضاً من البلاط الرُّومي، والممالأة إن هو قبض عليه؛ فاعتقله في بغداد سنة ٣٧٠هـ. ثم أطلقه صَمْصام الدَّوْلة بعد خمس سنين، مشترطاً عليه إطلاق أسرى المسلمين، والنزول عن عُدّة حصون من معاقل الرُّوم، وأن لا يغير على بلاد المسلمين. الكامل، ج٧، ص٣٦٨، ص٤٠٩؛ وانظر: الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٢٠، ص١٣٧؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ج٣، ص٥٥١؛ وكذلك: الصابي، رسوم دار الخلافة، ص١٥.

ولم أجد نصّ الهدنة التي وُقّعت بينه وبين صَمْصام الدَّوْلة فيما عثرت عليه من رسائل الصابي، لكن القلقشندي – لحسن الحظ – احتفظ بذلك النص، وسأضعه كاملاً بعد هذه الرسالة مباشرة، تجدر الإشارة إلى أن هذه الهدنة كُتبت على ثلاث نسخ متساويات كما صرّح الصابي في خاتمتها، وقال: خُلّدت اثنتان منها بدواوين مدينة السَّلام، وسُلّمت الثالثة إلى وردس بن بينير. يُذكر أنه ورد عند القلقشندي: سفلاروس (بالفاء).

والموسومينَ بمثل سِمَتِه، وجعَلْنا لسعدِ الدَّوْلة مَدداً، وضَمَمْنا إليه من يزيدُ على اقتراحِه عدداً. وقد عُرِفت آثارُه في مَكِيدةِ أعدائه، وشُهِرت مواقفُ نَجدته وغَنائه. ونحن من وراءِ المعُونة له والزِّيادة في حُسن الصَّنيع عنده، وبالله نستعين.

فإنْ رأى سَيِّدي سَعْد الدَّوْلة أنْ يُصغيَ إلى ما تضمَّنَه كتابي من الجملة الكافية وما حَواهُ كتابُ أبي الرَّيّان من المُطاوَلةِ الشّافية، وما يؤدِّيه صاحبانا شَفاهاً، ويُورِدانهِ خِطاباً، ويأتيَ في جميعِه ما يفُتُّ في أعضادِ الأعضاء، ويشُدُّ أزْرَ الأولياء، وتُحمَلُ الأُحدوثةُ عنّا، وتَحسُنُ العائدةُ على ذاتِ بيننا منه، ويفعَلَ في أمرِ سَقْلارُوس مثلَ فعلي، ويشفعَ بإحسانِه إليه إحساني، ويمكّنَه من الوفاءِ بما ضَمِنه، ويعينَه عن القيام بما عَقَده، ويعرِّفَني من أحوالِه وأخبارِه ما أسكُنُ إليه، ومن مَآربِه وأوْطارِه، ما أتقبَّلُه وأشكُرُ عليه، فَعَل إنْ شاء الله تعالى.

نُسخة هُدْنةٍ
عن صَمْصام الدَّوْلة بن عَضُد الدَّوْلة بن رُكْن الدَّوْلة
بأمر أمير المؤمنين الطّائع لله
لوردس المعروف بسَقْلارُوس ملك الرُّوم
حين حِيل بينه وبين بلاده، والتمس أن يُفرج له طريقُه إلى بلاده
على شروطٍ التزمها وحصونٍ يسلّمها(١)

هذا كتابٌ من صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبي كاليجار
بن عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة أبي شُجاع بن رُكن الدَّوْلة أبي علي
مَوْلى أمير المؤمنين
كتبه لوردس بن بينير المعروف بسَقْلارُوس ملك الرُّوم

إنك سألتَ بسفارة أخينا وعُدّتنا وصاحب جيشنا أبي حَرْب زِيار بن شَهْراكُوَيْه تأمُّلَ حالك في تَطاوُل حبسك، واعتياقك عن مُراجعة بلدك، وبذلتَ - متى أُفرج عنك، وخُلّي طريقك، وأُذن لك في الخروج إلى وطنك، والعَوْد إلى مقرّ سُلْطانك - أنْ تكونَ لوليّنا وليّاً، ولعدوّنا عدوّاً، ولسِلْمِنا سِلْماً، ولحربنا حرباً، من جميع النّاس كلّهم على اختلاف أحوالهم ،وأديانهم، وأجناسهم، وأجيالهم، ومقارّهم، وأوطانهم، فلا تصالح لنا ضداً مبايناً، ولا تواطئ علينا عدوّاً مخالفاً، وأنْ تكفّ عن تطرّق الثغور

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٢١.

وعن سَقْلارُوس وما تم في شأنه انظر: الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص٢٠٦. وانظر الرسالة التي كتبها أبو القاسم الشيرازي، رسائله، ص٢٩.

والأعمال التي في أيدينا، وأيدي الداخلين في طاعتنا، فلا تجهّز إليها جيشاً، ولا تحاول لها غزواً، ولا تبدأ أهلَها بمنازعة، ولا تشرع لهم في مُقارعة، ولا تتناولهم بمكيدةٍ ظاهرةٍ ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذيةٍ جليةٍ ولا خفية، ولا تطلق لأحدٍ ممّن ينوب عنك في قيادة جيوشك ومَن يُنسب إلى جملتك، ويتصرّف على إرادتك الاجتراءَ على شيءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كلّها، وأنْ تفرجَ عن جميع المسلمين، وأهل ذمّتهم الحاصلين في محَابس الرُّوم ممّن أحاطت بعنقه رِبْقة الأسْر، واشتملت عليه قبضة الحصْر والقَسْر، في قديم الأيّام وحَديثها، وبَعيد الأوقات وقريبها، المقيمين على أديانهم، والمختارين للعود إلى أوطانهم، وتُنهضهم بما ينهض به أمثالهم، وتمكّنهم من البروز والمسير بنفوسهم وحرمهم، وأولادهم، وعيالاتهم، وأتباعهم وأصناف أموالهم، موفورين مضمونين، متبذرقين محروسين، غير ممنوعين ولا مُعَوَّقِين، ولا مطالبين بمؤونة، ولا كلفة صغيرة ولا كبيرة.

وأنْ تسلّم تتمةَ سبعةٍ من الحصون، وهي: حصن أرحكاه المعروف بحصن الهندرس، وحصن السناسنة، وحصن حويب، وحصن أكل، وحصن أنديب، وحصن حالي، وحصن تل حرم، برساتيقها ومَزارعها إلى مَن نُكاتبك بتسليمها إليه، مع مَن بها من طبقات أهلها أجمعين، المختارين لسكناها، والاستقرار فيها بحرمهم، وأولادهم، وأسبابهم، ومَواشيهم، وأصناف أموالهم، وغلّاتهم، وأزوادهم، وسلاحهم، وآلاتهم؛ ليكون جميعها حاصلاً في أيدينا وأيدي المسلمين، على غابر الأيّام والسنين، من غير أنْ تلتمسَ عنها أو عن شيءٍ منها مالاً، ولا بدلاً ولا عوضاً من الأعواض كلّها.

وعلى أنك تمضي ما عقدتَه على نفسك من ذلك كلّه باباً باباً، وتفي به أولاً أولاً، منذ وقت وُصولك إلى أوائل أعمالك، وإلى غاية استيلائك عليها، ونَفاذ أمرك فيها، ولا

ترجع عن ذلك ولا عن بعضه، ولا تؤخّر شيئاً من الوقت الذي تقدر فيه عليه، ولا ترخص لنفسك في تجاوز له، ولا عدول عنه.

ومتى سَعَت طائفةٌ من الطوائف التي تُنسب إلى الرُّوم والأرْمَن وغيرهم في أمرٍ يخالف شرائط هذا الكتاب، كان عليك منعهم من ذلك إنْ كانوا من أهل الطّاعة والقبول منك، أو مجاهدتهم وممانعتهم إنْ كانوا من أهل العنود عنك، والخلاف عليهم حتى تصرفَهم عما يرومونه، وتحول بينهم وبين ما يحاولونه، بمشيئة الله وإذنه وتوفيقه وعَوْنه.

واشترطتَ علينا بعد الذي شرطتَه لنا من ذلك التخلية عن طريقك وطريق مَن تضمّنتْه جملتُك، واشتملتْ عليه رفقتُك من طبقات الأصحاب والأتباع في جميع أعمالنا حتى تنفذ عنها إلى ما وراءها غير مُعوّق، ولا معتقل، ولا مؤذى ولا معارَض، ولا مطالب بمؤونةٍ ولا كلفة، ولا ممنوع من ابتياع زادٍ ولا آلة، ولا نؤثر عليك أحداً ناوأك في أعمالك، ونازعك سلطان بلادك، ودافعك عنه، وناصبك العداوة فيه، ممّن ينتسب إلى الرُّوم والأرمن والخَزَرية، وسائر الأمم المضادّة لك، ولا نوقِّع معه صلحاً عليك، ولا موافقةً على ما يعود بثلمك، أو قدحٍ في أمرك، ولا نقبل سؤال سائلٍ، ولا بذل باذلٍ، ولا رسالة مُراسل، فيما خالف شرائط هذا الكتاب، أو عاد بإعلاله أو إعلال وثيقةٍ من وثائقه. ومتى وَفَد إلينا رسولٌ من جهة أحدٍ من أضدادك، راغباً إلينا في شيءٍ يخالف ما انعقد بيننا وبينك، امتنعنا من إجابته إلى مُلتمسه، ورَدَدْناه خائباً خالياً من طِلبته.

وإذا سلّمتَ الحصون المقدَّم ذكرها إلى مَن نكاتبك بالتسليم إليه، كان لك علينا أنْ نُقرّ مَن في[1] رَساتيقها على نعمهم ومنازلهم وضياعهم وأملاكهم، وأنْ لا نزيلهم عنها،

---

(١) في الأصل: فيها.

ولا عن شيءٍ منها، ولا نحول بينهم وبين ما تحويه أيديهم من جميع أموالهم، وأنْ نجريهم في المعاملات والجبايات على رُسومهم الجارية الماضية التي عوملوا عليها على مرّ السنين، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم، من غير فَسْخٍ ولا تغيير، ولا نَقْضٍ ولا تَبديل.

فأنهينا إلى مَوْلانا أمير المؤمنين الطّائع لله ما سألتَ، والتمستَ وضمنت، وشرطتَ واشترطت من ذلك كلّه، واستأذنّاه في قبوله منك، وإيقاع المعاهدة عليه، معك؛ فأذن - أدام الله تمكينه - لنا فيه، وأمرنا بأنْ نحكمه ونمضيه، لما فيه من انتظام الأمور، وحياطة الثغور، وصلاح المسلمين، والتنفيس عن المأسورين؛ فأمضيناه على شرائط، وتراضَيْنا جميعاً به، وعاقَدْناك عليه، وحلفتَ لنا باليمين المؤكَّدة التي يحلف أهل شريعتك بها، ويتحرّجون من الحنث فيها، على الوفاء به، وأشهدنا على نفوسنا وأشهدتَ على نفسك الله - جلّ ثناؤه - وملائكته المقربين وأنبياءه المرسلين، وأخانا وعدّتنا أبا حَرْبٍ زِيار بن شَهْراكُوَيْه مَوْلى أمير المؤمنين، ومَن حَضر المجلس الذي جرى فيه ذلك باستقرار جميعه بيننا وبينك، ولزومه لنا ولك.

ثم حَضَر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها وثبوتها واستقرارها قُسْطَنْطين بنُ بينير أخو وردس بن بينير، وأرمانوس بنُ وردس بن بينير، فوقّعا على هذا الكتاب، وأحاطا به علماً، واستوعباه معرفةً، وشهدا على وردس بن بينير ملك الرُّوم بإقراره، والتزامه إياه.

ثم تبرّع كلُّ واحدٍ منهما بأنْ أوجب على نفسه التمسّك به، والمقام عليه متى قام وردس بن بينير فيما هو موسومٌ به من ملك الرُّوم، وجعل جميع الشرائط الثابتة في هذا الكتاب المعقود بعضها ببعض أمانةً في ذمّته، وطوقاً في عنقه، وعهداً يُسأَل عنه، وحقّاً يُطالَب في الدّنيا والآخرة به، وصار هذا العقد جامعاً لهم ولنا، ولأولادنا وأولادهم،

وعقبنا وعقبهم، ما عشنا وعاشوا، يلزمنا وإيّاهم الوفاء بما فيه علينا وعليهم، ولنا وهم، على مرور الليالي والأيّام، واختلاف الأدوار والأعوام.

أمضى وأنفذ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبو كاليجار ذلك كلّه على شرائطه وحدوده، والتزمه وردس بن بينير المعروف بسَقْلارُوس ملك الرُّوم، وأخوه قسطنطين، وابنه أرمانوس بن وردس بن بينير، وضمنوا الوفاء به وأشهدوا كلّ واحدٍ منهم على نفوسهم بالرّضا به، طائعين غير مكرهين ولا مجبرين، ولا علّة بهم من مرضٍ ولا غيره، بعد أنْ قرأه عليهم وفسّره لهم وخاطبهم باللّغة الرُّومية مَن وُثق به، وفهموا عنه، وفقهوا معنى لفظه، وأحاطوا علماً ومعرفةً به بعد أنْ ملكوا نفوسهم، وتصرَّفوا على اختيارهم، وتمكّنوا من إيثارهم، ورأوا أنّ في ذلك حظاً لهم، وصَلاحاً لشأنهم، وذلك في شعبان سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائة.

وقد كُتب هذا الكتاب على ثلاثِ نُسخٍ متساوياتٍ، خُلّدت اثنتان منها بدَواوين مدينة السَّلام، وسُلّمت الثالثة إلى وردس بن بينير ملك الرُّوم وأخيه وابنه المذكورين معه فيه.

وكَتَب عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد إلى سَعْد الدَّوْلة أبي المعالي بتاريخ الكتاب المُقَدَّم[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلاي سَعْد الدَّوْلة - عن سَلامة الملكِ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة، وسَلامتي في ظلِّه، لا سَلَبني اللهُ ذراه، والحمدُ لله حقَّ حمدِه.

وقد كنتُ كتَبْتُ إلى سَعْد الدَّوْلة مبشِّراً له بما أوْلى اللهُ المِلكَ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة من الإظهارِ والنُّصْرة، والإعلاءِ والقُدْرة، عند وَثْبةِ أسْفار بن كَرْدُوَيْه[٢] التي كَبا فيها لوجهِه، وتقنَّع بها قناعَ خِزْيه. ثم عند هَجْمةِ الهَجَرِيِّين[٣] القَرامِطة على الكوفة انقَلبوا عنها بخيبةِ الهزيمة، والنكبة الأليمة. ووَعَدتُه ....[٤] صاحبِه أبي العَبّاس ابن إسحاق بالجواب كما كان قد دوَّنَه، وهو عالمٌ بأنّه وافى أيّام نظري، وأنّ العَتْبَ من تَمادي أمرِه لاحقٌ بغيري. ولولا تلوُّنُ ما تلوَّنَ من الكتُبِ والأخبار، والخلافِ اللّائح

---

(١) باريس.

(٢) من أكابر الدَّيْلَم، وقادة البويهيين، خدم صَمْصام الدَّوْلة مدّة، ثم خرج عليه سنة ٣٧٥هـ. عنه، انظر: العتبي، اليميني، ص٨١، ص٢٣٩؛ ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ج٢، ص٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٠٨، وأخبارُه مبثوثةٌ في كتاب ذيل تجارب الأمم لأبي شجاع الروذراوري. وانظر دوره في أحداث سنة ٣٧٥هـ وما جرى فيها من فتنة في ج١، ص٤٦٩، من هذا الكتاب.

(٣) نسبةً إلى هَجَر في بلاد الأحساء التي اتّخذوها قاعدةً لهم.

(٤) كلمة غير مقروءة، ضَبَّبها الحبر.

بين الأقوالِ والأفعال، لكنتُ قد ....[١] مُدّة طويلة، لكنّ اجتماعَ تلك الأسباب التي تُغني الإشارةُ إليها عن الإفصاح بها ثَبَّط أمرَه، وأخَّر وَعْدَه. على أنّ لكلِّ أجلٍ كتاباً، ولكلِّ صَلاحٍ أواناً يُجريه، ويُفضي به إليه.

ولما كان في هذا الوقتِ نظَر المَلِكُ صَمْصام الدَّوْلة إلى ما بينه، وبين الأمير سَعْد الدَّوْلة نَظَر الضَّنين به، الشَّحيح عليه، الغَيْرانِ على مودَّته، المحامي عن[٢] وثائِقه، وفاوَضَني في ذلك مفاوضةً قمتُ فيها بما ألتزمُه من ....[٣] والمشورة بالصّواب، والسَّعْي للصَّلاح، وتأليف الأهواءِ، واستخلاص ....[٤] والأقذاء، واستَخْرجتُ منه - أيّده الله - إذْناً لي فيما رغبتُ فيه إليه، واعتمدتُ الحظَّ به من إيقاع وَصْلتَيْن، وإحكام عَقْدَيْن تتمازجُ بهما[٥] النفوسُ، وتتَصافَى القلوبُ، وتتأكّدُ الحُرمات، وترتفعُ الشُّبُهات، ويخضعُ الأعداء، ويستعلي ....[٦]، وتقَرُّ العيون، ويقَعُ السُّكون.

ونَدَب للخدمة في ذلك أبا الهيثم السَّرِيَّ بن الحسين الحُصَيْنيَّ، وجعَلَه والياً لهذا الأمر، وفوَّضَ إليه تقريرَ التعاقد، وتحديدَ التعاهُد، واللهُ يَخيرُ في ذلك خِيرةً تامّة، ويَقرنُه بالبَركة للعامّة، ويُعَرِّفُ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة، والأمير سَعْد الدَّوْلة خاصّة، وجماعةَ المسلمين كافّة، فَضْلَ العائدةِ فيه، وحُسنَ عواقبِه ومَباديه.

وكان ممّا أجريتُه من الخطابِ تَقْويتي العُذرَ الذي أومَى إليه سَعْد الدَّوْلة في معنى

---

(١) كلمة غير مقروءة، ضَبَّبها الحبر، لم أتبين منها إلّا: رَدَ. ثم كلمة: مد، ولعلها (مذ).

(٢) في الأصل: على.

(٣) كلمة غير مقروءة، ضَبَّبها الحبر.

(٤) كلمة لم أتبينها، ضَبَّبها الحبر.

(٥) في الأصل: بها.

(٦) كلمة غير مقروءة، ضَبَّبها الحبر.

تغيُّر الخُطبة، وتحرُّفِها عن العادة والحاجة في ردِّها إلى حقِّها، وإجرائها عن سَنَنِها، إلى بعض المعاونة؛ فنتَجَ ذاك إخراجَ سَقْلارُوس مَلِكِ الرُّوم من مَوْضعِه، وإعادتَه إلى منزلتِه، ولَمَّ شَعْثِ حالِه، وردِّ محلِّه وجاهِه، وأخْذِ الرّهائنِ منه، على أنْ يكون عن الدَّوْلة مُحامياً، ولأعدائها مُرامياً. وضُمَّ إليه من العدد زيادةٌ على ما التَمَسه من المَدَد، وعُمِلَ على إتباعِه في كلِّ مدّةٍ بمَن تدعو إليه الحاجة، وسيصيرُ بمعونةِ الله في حُلوق أعداءِ سَعْد الدَّوْلة شجىً، وفي عُيونهم قذىً؛ إذ كان جماعةُ المخالفينَ من مُجاوريه يتأذَّوْنَ الأذى الشديد، وفيهم مَن يتَضَعْضَعُ، ويتضاءَلُ له إذا شاعَ عندهم أنّ عَقْدَ الصّفاءِ معقود، وظلَّ الوفاءِ ممدود، وتحقَّقوا وقوعَ المشابكة، وصحّةَ المُشاركة، هان من أمرِهم ما عَزّ، وذَلّ من خَطْبهم ما صَعُب، وطالتِ اليدُ عليهم، وامتدّت بإذْنِ الله إليهم، وشغَلَهم التحرُّزُ منّا عن التمرُّس بنا، والانحيازُ عنّا عن التطرُّف لنا.

وقد كَتَب صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أدام الله عِزّه - إلى الأمير سَعْد الدَّوْلة بما أَضَعْتُ كتابي هذا إليه، وتحمَّلَ أبو الهيثم وأبو العَبّاس ما يورِدانِه عليه، وفُوِّضَ إلى أبي الهيثم خاصّةً إيقاعُ أحد العَقْدَيْن وقَبُولُ الآخر، جعَلَهما اللهُ ميمونَيْن مُبارَكَيْن. وشافهتُه بما اتّسعت الـمُحاورةُ وضاقتِ المكاتَبة عنه. ومهما أورَدَه وعقَدَه فعليّ يورد، وعليّ الوفاءُ بما يعقِد. وقد ضَمِنْتُ، مع هذا، عن الأمير سَعْد الدَّوْلة ضماناً وثِقتُ بأنّ عقْلَه وحزْمَه يدعُوانِه إلى تحقيقِه، ويمنَعانِه من إخفارِه في ردِّ الأمور إلى رُسومِها، وإجرائها على سُبُلِها، وإزالةِ كلِّ ما عَرَض فيها وألَمَّ بها. ومن الرأي في أمرِ سَقْلارُوس[1] التقبُّلُ لما عُمِل فيه، ومُقابلتُه بما يُضاهيه، والتوثِقةُ لصاحبِه النّافذ مع أبي الهيثم وأبي العَبّاس بغاية ما يَسكُنُ إليه، فإنّني أتصوَّرُه بصورة الهدِيّة الموافقة لمرادِه، الواقعةِ بإيثارِه.

---

(١) الضبط ها هنا من الأصل.

فإنْ رأى الأمير سَعْد الدَّوْلة أنْ يأتيَ في ذلك أجمَعَ ما يُشاكلُ قَدْرَه ومحلَّه، وقد جعَلَه اللهُ وليَّه وأهلَه، ويأمرَ تعجيلَ الإجابة بما يَسكنُ إليه، ويتوفَّرُ الشكرُ عليه، واختصاصي[1] بأمرِه ونَهْيِه، وإيناسي بذكْرِ أخبارِه وأوطارِه، فَعَلَ إنْ شاء الله.

---

(١) في الأصل: اختصاص.

وكَتَب عن القائد أبي الفَوارس ختور التُّرْكي المعِزِّي إلى وردس بن بينير المعروف بسَقْلارُوس[١]

كتابي إلى ملك الرُّوم الفاضل، الجليل، النبيل، الخطير، أدام الله كفايته وسَلامته، ونعمته وسَعادته، وعافيته وحراسته، من الحضرة الجليلة بمدينة السَّلام لثمانِ ليالٍ خَلَون من ذي الحجّة سنة تسعٍ وسبعين وثلاثمائة، وهو اليوم التاسع من آذار، عن شُمول السَّلامة، وعُموم الاستقامة ؛ وصَلاحُ حالي في ظلّ الدَّوْلة المنصورة . والحمدُ لله ربِّ العالمين وحده لا شريك له، وصلّى الله على مُحمّد وآله وسلَّم تَسْليماً.

ووَصَل كتاب مَوْلانا ملك الرُّوم الفاضل الجليل الصّادر عن العسكر بمَرْج لارضة[٢] بتاريخ التاسع من حزيران. وفهمتُه، وجلّ عندي موقعه، وعظم في نَفْسي خطرُه ؛ وحمدتُ الله على ما شهد به من انتظام أحواله، واطّراد أموره ؛ وسألته أنْ يتمّم النِّعْمة عليه، ويزيد فيها لديه، ويواصل إحسانه إليه، ويطيل مدّته، في أتم رشدٍ وهداية، وأرفع قدمٍ ومنزلة، وأعلى خطرٍ ورتبة، بمَنّه وطَوْله، وجوده ومجده .

فأمّا ما ذكره سَيِّدنا الملك الجليل من مقامه على العَهْد، وافتقاره إلى الميل والودّ، فذاك يوجب فَضْله البارع، وكرمه الشائع، وخلال الخير التي أهّله الله لها، وخصّه الله بها. وبالله أحلف إنني ما خلوتُ منذ افترقنا من مُطالعة أخباره، وتتبّع آثاره، واستعلام

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص١١٩ (وعنده: وردس بن قنبر المعروف بعسقلاروس).
أخذتُ (بينير) من نص الهدنة الذي تقدّم. وعند ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٧٠؛ ابن خلدون: منير.

(٢) لم أتوصّل إلى مصدرٍ يعرّف هذا الموضع.

مجاري شؤونه، والسّرور بكلّ ما تمّ له ووَصَل إليه؛ حتى كأنني حاضرٌ له، وضاربٌ بأوفر سهمٍ فيه، بل مخصوصٌ بجميعه . والله يجريه على أحسن ما أولاه وعوّده، ولا يخليه من الصُّنع الجميل فيما أعطاه وقلّده، برحمته .

وكنتُ قبل ذلك عند وُرود رَسولي في الدَّفْعَةِ الأولى على غاية الغَمّ وشُغل القلب، بسبب الغَدْر الذي لحقه من عدوّه الذي أظفره الله به؛ وأنهيتُ ذلك في وقته إلى الملك السَّعيد الماضي: شرف الدَّوْلة وزين المِلّة رضي الله عنه؛ فاشتغل قلبه - رحمه الله - به، وعمل على إنْفاذ العساكر لنُصرته ؛ ثم أتى من قضاء الله في أمره ما قد عرفه.

ولما انتصب في المملكة مَوْلانا السَّيِّد بهاء الدَّوْلة وضياء المِلّة - أطال الله بقاءه - شرحتُ له ما جرى قديماً على سياقته، ومهّدتُ الحال عنده، ووجدتُه - أدام الله سلطانه - معتقداً لسَيِّدنا ملك الرُّوم الجليل - أدام الله عِزّه - أفضل اعتقاد، وسُرّ بما انتهت إليه أموره، وتنجّزتُ الكتب إلى موصلها الرّسول حفظه الله، وسمعتُ منه ما كان تحمّله عن سَيِّدنا ملك الرُّوم - أدام الله تأييده - وأخرجتُ معه صاحبي أبا القاسم الحسين ابن القاسم، وحملتهما جميعاً ما ينهيانه إليه في سائر الأمور التي يرى عرضها ويحتاج إلى معرفتها .

وأنا أسأل سَيِّدنا الملك الجليل - أدام الله بركته - تعجيل ردّه إلي، فإنّه ثقتي، ومَن أسكن إليه في أموري؛ وأنْ يتفضّل ويكلّفني حوائجه ومهمّاته، وأمره ونهيه لأقومَ في ذلك بالحقّ الواجب له. فإنْ رأى سَيِّدنا ملك الرُّوم الفاضل الجليل، الخطير النبيل، أنْ يعتمدني من ذلك بما يتضاعف عليه شكري، وتجلّ النِّعْمة فيه عندي، ويشاكل الحال بينه وبيني، فَعَل إنْ شاء الله تعالى .

وكَتَب عن الملك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة إلى حاجب الحجّابِ أبي القاسم سَعْد بن مُحمّد وهو مقيمٌ بنَصِيبِين على مُحاربة باد الكُرْدي في شهر رمضان سنة خمسٍ وسبعين وثلاثمائة في شُكْرٍ على حُسْنِ خدمة، وجُودة تدبيرٍ وسياسة[١]

كتابُنا ووَصَل كتابُكَ مُؤرخاً بيومِ كذا، تَذْكر فيه ما جرى عليه أمرُك في الخدمةِ

(١) باريس، طهران، ليدن، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي، سيلي أوك. وقد أورد نصّ هذه الرسالة القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص١٠٩، ج٨ ص٣٥٠.

قال ابن الأثير إن باد (باذ) هذا هو أبو عبد الله الحسين دُوسْتَك. لكنه استدرك بعدها قائلاً: وقد حدثني بعض أصدقائنا من الأكراد ممّن يعتني بأخبار باد أن كنيته أبو شجاع، واسمه باد، وأن أبا عبد الله هو الحسين بن دُوسْتَك، وهو أخو باد. كان في بداية أمره راعي غنم، وكان كريماً جواداً؛ فظهر اسمه واجتمع عليه النّاس، وصار يقطع الطريق، ويوزع الغَنائم، فكثر جمعه. وصار يغزو، فدخل أرمينية، فقوي بها، ومنها سار إلى ديار بكر فملك مدينة آمد، ثم ميَّافارقين. فلما ملك عَضُد الدَّوْلة الموصل حضر عنده، ثم خافه، وهرب إلى أن استفحل أمره في ديار بكر، وميافارقين بعد وفاة عَضُد الدَّوْلة. واستولى بعض أصحابه على نَصِيبِين؛ فجهّز صَمْصام الدَّوْلة إليه جيشاً كبيراً بقيادة أبي سَعْد بهرام بن أردشير، لكنه انهزم، وأسر جمع كبير من جنوده، وقوي أمر باد. فأرسل صَمْصام الدَّوْلة أبا القاسم سَعْد بن مُحمّد الحاجب في جيش كبير، فانهزم أيضاً في بلدة كواشى، وقتل باد الأسرى. ثم استولى على الموصل، ورام غزو بغداد، وإخراج البويهيين منها. اهتم صَمْصام الدَّوْلة، ووزيره ابن سَعْدان بأمره، فأرسلا أبا حَرْب زِيار بن شَهْراكُوَيْه وهو من أكبر قوّادهم، فانتصر عليه وأرسل كثيراً من الأسرى إلى بغداد، وأرسل في طلب باد؛ فلما رأى ضعفه طلب الصلح على أن تكون له ديار بكر، ثم طمع سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م بالموصل، وصار يحشد واستطاع الدخول إلى جانبها الشرقي، والحمدانيون في ضعف، فاستنصروا العُقيليين. فوقع في المعركة، وأرسل رأسه إلى الحمدانيين

التي نِيطت بكفايتك، وغَنائك، ووُكِّلتْ إلى تَدْبيركَ ورَأْيك، من رَدِّ باد الكُرْدي عن الأعْمالِ التي تطرّقها، وحدَّثَ نَفْسَهُ بالتَّغَلُّبِ علَيها، وتَصرّفك في ذلك على مُوجباتِ الأوْقاتِ، والمتردَّدِ بين أخينا، وعُدَّتِنا أبي حَرْب، وبينك من المكاتباتِ، وحُسْن بلائكَ في تحيُّفِه، ومقاماتك في حَصِّ[1] جناحِهِ، وآثاركَ في القَبْض[2] على فريقٍ بعد فريقٍ[3] من أصحابِه، واضطراركَ إيّاه بذلك، وبضُروب الرّياضاتِ التي استعملتَها، والسِّياسات التي سُسْتَ أمْره بها، إلى أنْ نَزَل عن وُعورةِ المعصية إلى سُهولةِ الطّاعة، وانصرف عن مجاهل الغِوايةِ إلى معالمِ الهداية، وتَراجع عن السَّوْم إلى الاقتصار، وعن السَّرَفِ إلى الاقتصاد، وعن الإباء إلى الانقياد، وعن الاعتياصِ إلى الإذْعانِ. وأنّ الأمرَ استقرَّ على أنْ قُبِلَتْ مِنه الإنابةُ، وبُذِلتْ له فيما طلب الاستجابةُ، واسْتُعيدَ إلى الطّاعة، واسْتُضيفَ إلى الجماعةِ، وتصرَّفَ على أحْكام الخدْمةِ، وجَرَى مجرى مَن تضمّه الجُمْلة، وأُخذت عليه بذلك العهودُ المستحكَمة، والأيْمانُ المغلَّظةُ، وجُدِّدَت له الوِلايةُ على الأعْمالِ التي دَخَلتْ في تَقْليدِهِ، وضُربت عليها حُدودُه، وفهمناه.

وقد كانت كُتُب أخينا وعُدَّتنا أبي حَرْب زِيار بن شَهْراكُوَيْه مَوْلى أمير المؤمنين تَرِدُ علينا، وتَتَّصِلُ إلينا مُشْتملةً على كتبك إليه، ومطالعاتِك إيّاهُ، فنعرف من ذلك حُسْن أثرِكَ، وحَزْمَ رَأْيك، وسَداد قَوْلِكَ، وصَواب اعتمادِك، ووُقوعِ مضاربكَ في مَفاصلها،

سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م. انظر: الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٠٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٠١، ص٤٢٠، ص٤٣٤؛ الفارقي، تاريخه، ص٥٠، ص٥٨.

(١) الحَصّ: حلق الشعر. ويقال: طائر أحصّ الجناح. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص١٣ (حصص).

(٢) ف، ر، س، ع: الانقضاض.

(٣) ساقطة في ب، س.

وإصابة مراميك أغراضها، وما عدوتَ في مذاهبك كلِّها، ومُتَقلِّباتِكَ بأسْرِها. المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أُمِرْت به عنّا.

ولا خَلَتْ كُتُب أخينا وعُدَّتِنا أبي حَرْب من شُكْرٍ لسَعْيك، وإحْمادٍ لأمرك، وثَناءٍ جميلٍ عليكَ، وتلويحٍ، وإفصاحٍ بالمُناصحةِ الحقيقة بك، والموالاةِ اللّازمةِ لك، والوفاءِ الذي لا يُسْتغرَبُ من مثْلِكَ، ولا يُسْتكْثَرُ ممّن حلَّ في المعرفةِ محلَّك.

ولئن كُنْتَ قصَدْتَ في كلِّ نَهْجٍ استمررتَ عليه، ومَعْدلٍ عدِلْتَ إليه مُكافحةَ[1] هذا الرَّجل ومُراغمته، ومُصابرته، ومُنازلته، والتماس الظّهورِ عليه في كلّ[2] ما تراجعتماهُ من قولٍ، وفعل[3]، وتنازعْتماهُ من حدٍّ، فقد اجتمعَ لكَ إلى إحْمادِنا إيّاك، وارْتضائنا ما كان منك المنَّةُ عليه أنْ سَكَّنَتْ جأشَه، وأزلْتَ استيحاشَهُ، واستلَلْتَه من دَنَسِ لِباس المخالفة، وكَسَوْتَه حُسْنَ شِعار الطّاعة، وأطَلْت يدَهُ بالوَلاية، وبَسطت لسانَهُ بالحُجَّة، وأوْفيْت به على مراتب نظرائه، ومنازِلِ قُرنائِهِ، حتى هابوه هيبة الولاة، وارْتَفَعَ بينهم عن مَطارح العُصاة.

فالحَمْدُ لله على أنْ جَعلَك عندنا محموداً، وعند أخينا وعُدَّتِنا[4] أبي حَرْب مَشْكوراً، وعلى هذا الرَّجل مانّاً، وفي إصلاحِ ما أصْلحت من الأمْر مثاباً مأجوراً. وإيّاه نَسْأَلُ أنْ يَحْرُسَ علينا عادتَهُ الجارِيةَ في إظْهارِ راياتِنا، ونُصْرَة أوْليائنا، والحُكْم لنا على أعْدائنا، وإنزالهم على إرادتنا طَوْعاً، أوْ كَرْهاً، وسِلْماً أو حَرْباً، فلا يَخْلو أحدٌ منهم من أنْ تحيط لنا بعنقه رِبْقة أسْر، ومِنّة عفو، إنه - جلَّ ثناؤه - بذلك جديرٌ، وعليه قديرٌ.

---

(١) ر: فكافحه.

(٢) ف، ر، س، ع، ل: جميع.

(٣) من: ب فقط.

(٤) (أخينا وعدتنا) ساقط في ب.

ويجب أنْ تُنفذَ إلى حَضْرتنا الوثيقةَ المكتَتبة على باد الكُرْدي إنْ كنتَ لم تُنفذها إلى أوان وُصولِ هذا الكتاب، لتكونَ في خزائننا محفوظةً، وفي دواويننا مَنْسوخة[١]، وأنْ تتصرَّفَ في أمْر رُسُلِه، وفي بَقيّة إنْ كانت بقيَتْ من أمْره على ما[٢] يرسمُهُ لك عنّا أخونا وعدَّتُنا أبو حَرْب، فرأيك في العملِ على ذلك، وعلى مطالعتنا بأخْبارِكَ، وأحْوالك، وما يحتاج إلى عِلْمِه من جهتِكَ مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

---

(١) ط، س: متسوفة.

(٢) ساقطة في ب.

وكَتَب إلى الأمير فَخْر الدَّوْلة
عن الوزير أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين بن سَعْدان
عند فَتْح الموصل، وانهزام باد الكُرْدي عنها[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا - ومَوْلانا الأميرُ صَمْصام الدَّوْلة جارٍ على أفضل حالٍ جَمَع الله بينهما فيها على تَمام عزٍّ ونَصْر، ونَفاذ نهيٍ وأمر، وعُلوِّ كلمةٍ وراية، وسبوغ موهبةٍ ونعمة، وشكرٍ لله يستزيده من فضله، ويستدرّ المادة من طوله، وأنا جارٍ في ما أحمله من أعباء خدمتها، وأتولّاه من معاظم شؤونها، على أجمل ما عوّد الله وزراء هذه المملكة المناصحين لها، وأولياءها المحامين عنها، من هدايةٍ إلى مراشد الأمور، وتوفيقٍ لصَواب التدبير، والحمد لله ربِّ العالمين.

وقد جعل الله هذه الدَّوْلة الشريفة - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير الجليل - محتوماً[٢] لها بقوة الأسباب، وثبات الأطناب، وعزّ الأولياء، وذلّ الأعداء، فلم تلمّ بها ملمّةٌ من مُلمّات الزّمان إلّا خفّ حملها، وقلّ لبثها، وقرب الخروج منها، وحسنت العاقبة فيها. ثم يكون مآلها إلى عزٍّ يتجدّد ويتمهّد، ونَصْرٍ يتكرّر ويتردّد، وثقةٍ[٣] من الله لا تنقض عقودها، ولا تنكث عهودها. وعلى حسب ذاك تكون الجولة الجائلة من عدوّها في قصر المدّة، وانحلال العقدة، والإفضاء إلى عَواقب الهلاك والبَوار، وغايات الخذلان

---

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٤، ص١٤٨. والفقرة الأولى فقط أوردها القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص١٤١.

(٢) في المصدرين: مختوماً، ولعلّ الأصح ما أثبتناه.

(٣) في الأصل: وثيقة.

والإدبار؛ فأدام الله ذلك ولا قطعه، وتمّمه ولا انتقصه، وألهمنا الشكر الذي هو قَيْدُ النِّعَم وشكالُها، وحبسُها، وعِقالُها، ولا أخلانا من مُواظبةٍ عليه يُتنجّز بها المزيد المضمون منه، إنه جلّ وعزّ بذلك جدير، وعليه قدير.

وقد عرف مَوْلانا حال باد الكُرْدي في كُفْر النِّعْمة وغَمْطها، وإنكار الصَّنيعة وجَحْدها.

ومنها[١]:

وكان مَوْلانا صَمْصام الدَّوْلة يتأدّب في أمره بأدب الله - عزّ وجلّ - في دعائه إلى رشده، والصّدوف به عن غيّه، وتقديم الإعذار إليه، والأخذ بالوثيقة عليه، طمعاً في أنْ يعطف إلى ما يعطف إليه التائب المنيب، والمراجع المصيب، والنازع عن الغواية، والعادل إلى سَبيل الهداية، حتى إذا تقدّمت النُّذُر، وبلغ الإملاء إلى الحدّ المنتظر، استأنف به طريقاً أخرى في الصَّمْد لاستئصاله، وتنجُّز عادة الله في أمثاله، فجرّد إليه عسكراً استخلف صاحب الجيش أبا حَرْب زِيار بن شَهْراكُوَيْه، واستظهر في تكثيف عدده، وتوفير عُدَدِه؛ فنهض إلى عدوّ الله اللَّعين، متوكّلاً على الله ربِّ العالمين، ومستشعراً شعار الدَّوْلة التي عوّدها الله إعزاز المرامي عنها، والمحامي من ورائها، وإذلال المحاد لها، والسّاعي عليها. ووَرَد في هذا الوقت كتابه من الموصل بأنّه افتتحها ودخلها بعد حروبٍ شديدة اضطرمت، ومعاركاتٍ متّصلة احتدمت، وثَباتٍ من ذلك الحائن للمقارعة، واستبسال في المجاهدة والمصارعة.

---

(١) أي: من الرسالة.

ومنها :

ونجا بحُشاشته معتداً أنْ سلم بها من أعظم غنائمه، ولا سلامة لمثلها مع عظيم ما نزل عليها، وأحاط بها، ووَقَع الاستظهار بإنْفاذ مَن يقتصّ أثره، ويأتي بإذن الله عليه، والحمد لله ربِّ العالمين، حمداً يكون لإنعامه مجازياً، ولإحسانه موازياً، وإنْ كانت آلاؤه - عزّ وجلّ - لا تُجازى ولا تُوازى، ولا تُجارى ولا تُبارى، ولا تُقابل إلّا بالانحطاط لها، وخفض الجناح دونها، والاعتراف بالعجز عن مداها، والقصور عن منتهاها.

وهنّأ الله مَوْلانا بهذا الفتح المنسوب إليه، المقصور عليه، والمستثمر من بركة أيّامه، المستَنْتَجِ عن إقبال جَدّه. وأطال الله بقاءه وبقاء مَوْلانا صَمْصام الدَّوْلة لعدوٍّ يرغمانه، ووليٍّ يعزانه، وحُجَة حقٍّ يثقبان زنادها، ويرفعان عمادها، وشبهة باطلٍ يطفئان نارها، ويخفضان منارها، وجمع بينهما في هذه النِّعْمة في أمثالٍ كثيرة لها، لا يزالان يشتركان فيها، ويتناصفان الموهبة منها، ويتراجعان البشائر والتّهاني بها، بمَنّه وقُدْرته.

وكَتَب عن صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة
إلى الحاجب أبي عبدالله مُحمّد بن خلف النَّيْرَماني
عند شُخوصه إلى الأهْواز في شَهْر رمضان سنة خمسٍ وسبعين وثلاثمائة[1]

كتابُنا - أطال الله بقاءك، وأدامَ عزَّكَ وتَأْييدَك وسعادتَك - آخر

---

(١) باريس، فيض الله، راغب باشا، عاشر أفندي، سيلي أوك. سقطت (أبي) في ر، س. وسقط (الحاجب) في ب، ف، ر، ع. وسقط (شهر رمضان) أيضاً في ب. أما (النيرماني) فورد في الأصول الخطية كلها (البيرماني)، ولم أجد هذه النسبة فيما اطّلعت عليه من مصادر، وإنما وجدت (النيرماني) نسبة إلى نيرمان، إحدى القرى الصغيرة التابعة لهَمَذان من بلاد الجبل (الجبال). ضبطها السمعاني بكسر النون وفتح الراء، وأردف: ويقال بفتح النون. الأنساب، ج٥، ص٥٤٩. وضبطها ياقوت بفتح النون فقط. معجم البلدان، ج٥، ص٣٣٠. وكذلك فعل ابن الأثير، اللباب، ج٣، ص٣٤٠.

وهو من رجال الإدارة في عهد التسلّط التُّرْكي (إمرة الأمراء)، ثم خدم البويهيين، فكان كاتباً ليوسف بن أبي الساج سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م، وقُلّد أعمال الحرب والخراج والضياع بحلوان العراق سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م. الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٢٩، ص٦٥. وقُلّد أعمال الجبل سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م. مسكويه، تجارب الأمم،ج٥، ص٤٢٣.

وحينما عاد الخليفة الراضي من واسط إلى بغداد بعد فتنة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م عاد معه بعض القادة الأتراك، ومنهم بجكم الذي قُلّد شرطة بغداد، فنزل دار مُحمّد بن خلف النيرماني بشريعة سوق الدواب. الصولي، الأوراق (أخبار الراضي والمتّقي)، ص٨٧. وانظر أيضاً: مسكويه، تجارب الأمم، ج٥، ص١٠٤، ص١٤٠، ص١٥٠، ص٢١٦، ص٢٣٨، ص٢٥٨، ص٣٠١، ص٣٣٢، ص٤٢٣؛ الصابي في كتابيه: تحفة الوزراء، ص٣٤١؛ تاريخه الذي نُشر ذيلاً على ذيل تجارب الأمم، ص٥٢٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٧١٤، ص٧٢٢.

نهار[1] يوم الجُمُعة – لثمانِ ليالٍ بقينَ من شَهْر رمضان عن شُمول السَّلامة، وعُموم الاستقامة، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ووَصَل كتابُك الصّادِرُ عن المصلّى بسوقِ الأهْواز مؤرَّخاً أوَّلَهُ بيومِ الإثنين لأرْبع ليالٍ خَلَوْنَ من شهر رمضان، وآخره بوقت مَقْدمه[2]، وهو يوم الخميس لسبع ليالٍ خَلَون[3] منه، ومُقتصّاً فيه ما جَرَى عليه أمْرُكَ فيما أُنفذتَ له، وتأديتُكَ ما حُمّلته، وتبليغُكَ ما لُقّنته، وما عُومِلَتْ به من ضُروبِ البرِّ والإكْرام، وأُفيضُ عليكَ من صُنوف الإحسان والإنعام، واخْتُصِصْنا[4] به من مُقابلةِ رغبتنا بالقَبول، وطِلْبتنا بالإيجاب، وطاعتِنا بالثِّقةِ، وإخْلاصِنا بالمَيْلِ والمِقة إلى غير هذا ممّا لخصْتَه، وشرحتَه، وأبَنْتَ عنه، وأوْضحته، وفهمناه.

وأكْثَرَ اغتباطنا، وجلّتِ الموهبةُ عندنا فيما حازَهُ اللهُ لنا من جميلِ رَأْي مَوْلانا المَلِكِ

كما أن ابنه أبا سَعْد علي بن مُحمّد بن خلف النيرماني الكاتب (ت٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) خدم البويهيين، واتصل ببهاء الدَّوْلة بن عَضُد الدَّوْلة، وصنف له كتاب (المنثور البهائي) وهو نثر كتاب (الحماسة). الصفدي، الوافي، ج٢١، ص٢٩٩.

وكان الأمير شرف الدَّوْلة بن عَضُد الدَّوْلة قد سار سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م إلى الأحواز (الأهواز) فملكها، وملك البصرة، وبلغ الخبر إلى صَمْصام الدَّوْلة، فراسله في الصلح؛ فاستقرّ الأمر على أن يخطب لشرف الدَّوْلة بالعراق قبل صَمْصام الدَّوْلة، ويكون صَمْصام الدَّوْلة نائباً عنه. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤١١.

(١) (أطال........ نهار) ساقط في ب.

(٢) هذا ما في ب، وما في سائر الأصول: مصدره.

(٣) (من شهر....... خلون) ساقط في س.

(٤) ف: اختصاصنا.

السَّيِّد أبي الفَوارس[١] – أطال الله بقاءه – وأفاءه علينا من فضله، وغَمَرنا من طَوْله، ووفّقنا له من اعتلاق حبله، والتفرّد بمعرفة حقِّهِ، والتنزّه عن مقامِ مَن عند عزّ أمره، والتحف بغير ظلِّه، وأنْكر المعروفَ من رياستِهِ، وتقلّد المنْكر من مخالفتِه، ووجَّهْنا الرَّغبة إلى الله تعالى في إدامة علائه، وكَبْتِ أعدائه.

وأنا[٢] من بينهم مفضّلاً بحَسْب ما فَضلَنا اللهُ به عليهم في أحْوالٍ كثيرةٍ أجلّها خطراً، وأطْيبها خبراً، السَّبقُ إلى طاعتِه، والاكتنان في كَنافتِه، والتَّسْليمُ إلى سياستِه وإيالته، وجميعُ ذلك بيد الله وعينه، وهو المَرْجوُّ لتثبيت قَواعده بعونِه ومَنِّه.

ولما وقفنا على كتابِكَ الموجبِ لتَوقّع عَوْدِك مع الرّسول، الذي قُلتَ إنه يضمُّ إليكَ بما يتكامل معه السُّكون والائتلافُ، ويتناهى به الاستسعادُ[٣] والاستبشار، أشَعْنا ذلك وأذعْناه، وكَشَفْناه وأعلناهُ، وعَرَضْناهُ على جماعةِ مَن بحضرتنا من أصنافِ الأوْلياءِ، وأطْلقنا من ألسنتنا لَفْظ الرِّضا به، والتمسُّكُ بمسْتودعِه، وعَرَّفْنا مَن لم يعرفْ، وفهَّمْنا مَن لم يفهمْ أنّ الدَّوْلة واحِدةٌ، والممالِكَ مشتركَةٌ، والأنْفسَ متوافقةٌ، والنِّيّاتِ مُتطابقةٌ، وأنّ مَوْلانا[٤] الملك السَّيِّد مالكُ الأزمة، ومصرِّفُ الأعِنَّة، وصاحب[٥] الأمْرِ، ووليُّ التَّدْبير؛ فأظهروا الابتهاج والسُّرور، وأعْلَنوا بالشِّعار المنصور، وحمدوا اللهَ على شُمولِ

(١) شرف الدَّوْلة، وهو شيرزيل بن عَضُد الدَّوْلة (ت٣٧٩هـ/ ٩٨٩م). ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٢٦.

(٢) ف، ر، ع، س: لنا.

(٣) س: الاستبعاد، ب: الاستعداد.

(٤) ساقطة في ب.

(٥) ب: مالك (مكررة).

الصَّلاحِ، والاستغناء عن مقارعة الأقارب، وذوي الأرحام، والحمدُ لله عَوْداً على بدء، حمداً يَقْضي[١] الحقّ، ويُؤَدِّي الفرض، ويزيدُ جماعتَنا من التَّوْفيق، ويُقيمنا على هذا الرأي الوَثيق، الذي بمثْلِه تدومُ النِّعْمة، وتَطولُ المدَّةُ، ويَطيبُ الذِّكْر، ويَضوَّعُ النَّشْر، ويعزُّ الوليُّ، ويذلُّ العدوّ، وتُؤمنُ النّوائبُ، وتصْلح العَواقب.

وبعد تقوّض مَجْلسنا الذي جَرَى فيه ذلك، أنْفذنا إلى كلِّ ناحيةٍ نُسْخةً لكتابك، وأمرنا مَن كاتَبْناه من الولاة بأنْ يفعلَ مِثلَ فِعْلنا، ويُظْهِرَ مِثْلَ إظهارنا، وكانَتْ أمورُ واسِط جاريةً على الاستقامة، حتى كان من الحسن بن عليٍّ التميمي. فيها ما كان ممّا لَوْ انتظَرَ لجرى الأمر فيه على واجبِه، ولوَرَد عليه من أمْرنا، ورأينا ما يُغنيه عن إخفار الأمانةِ، وتدرّع لباس الخيانة، لكنَّهُ سَلَكَ المسْلكَ الذَّميمَ، وعَدَلَ عن السَّنن المستقيم، وصَوَّر الحال لمن قِبله من الأولياءِ بخلافِ حقيقتها، وأقامَ في نفوسِهِم مباينةً لا أصلَ بيننا لها، فأحْدَثَ ذاك شعثاً أنْفذنا أبا الفَتْحِ الحاجِبَ؛ ليلمّه، ونشراً أردنا منه أنْ يَنْظمه ويضمّه[٢]. هذا قبل وُرودِ كتابِكَ، فساعةَ وَرَد كاتبناهُ بالعَوْد إشْفاقاً من أنْ يقعَ في النَّفس أنه الحذر لتحرّزٍ أو تحزّب[٣]، أو لسَببٍ يُخالف شَرْط ما نفذت فيه، وتوقعتُ[٤]

---

(١) ب: يقتضي.

(٢) من ب فقط.

(٣) ما بعد هذا وإلى نهاية الرسالة ساقط في س. وقد كتب الناسخ بعده مباشرةً رسالةً أخرى مبتورة العنوان. والكلمات الأولى، هي: «وكفايته يوم الجُمُعة جمع الله له كل مسرة...»، وهي جزء من رسالة بعنوان: «كتب إلى الحاجب أبي علي الحسن بن علي التميمي المقيم بواسط في سنة خمس وسبعين وثلاثمائة»، وقد وردت في قطعتي: باريس، وراغب باشا أيضاً؛ فوضعتها بعد هذه الرسالة مباشرة.

(٤) ف: توقعنا.

أنْ يُصْلى التَّميمي ومَن اتّبعه، ورَكِب ذلك المركب معه، بمثل ما صُلي به أسْفار؛ فيكون التفضُّل بذلك من مَوْلانا الملك السَّيِّد حاسماً لأسباب الفَساد، وكافياً لنا مؤونة الإمداد والإنجاد.

وبادَرْنا بهذا الكتاب إليك لتعرِضَه إنْ ألْفاك مُقيماً، أو لينفذه إنْ لَقيك سائراً، وتُعرِّف مَوْلانا الملك أنا لم نكن لنشوبَ تَفْويضنا إليه باستظهارٍ عليه، ولا انقيادنا له بتعويلٍ على غير تدبيره. ونسأله – لا زال مسؤولاً – التقدّم برَدِّ المظهرين الخلاف على أعقابهم، وإلْجائهم إلى النَّدم على تسوّقهم، ومُعاملتهم بمثل ما عُومل به مَن تقدّمهم، لننفذَ نحن شحنةً من الرِّجال إلى واسِط تردّ أمرَها إلى التئامه، وتُجريه على نظامه.

فرأيك في العمل على ذلك مقدِّماً له غير مؤخِّر، ومنجزاً غير مفتر؛ ليكون ما نعمل وندبّر، مبنياً على ما يُرْسَم ويُؤثر، والإجابة عن هذا الكتاب أمام انكفائك إلينا بما نحتاج إلى علمه من جهتك؛ فإننا مُقيمون على الرأي الصحيح الذي رأيناه، والاختيار الجميل الذي اخترناه، غير مُصغين إلى عادلٍ بنا عنه، أو مشيرٍ علينا بخلافه، ممّن نعلم أنّ غرضه التنفّق عندنا، والتسوّق بتشعيث ما بيننا، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

وكَتَب عن نفسه مُرتجلاً مُستعجلاً
إلى الحاجِب أبي عليّ الحسن بن عليٍّ التَّميميِّ
المقيم بواسِط
عند استكتاب صَمْصام الدَّوْلة له
في شهر ربيع الآخر سنة خمسٍ وسبعينَ وثلاثمائة[١]

كتَبتُ - أطال الله بقاء سَيِّدي الحاجِب، وأدام عزّه وتأييده وسَعادته ونعمته وكفايته[٢] - يومَ الجُمُعة - جمَعَ اللهُ له كلَّ مسرَّة - لثمانِ ليالٍ[٣] بقِينَ من شهرِ ربيع الآخِر - جَعَل اللهُ زمانَه ربيعاً كلَّه، وعَيْشَه رَغَداً بأسرِه - وحالي مستقيمةٌ بما امتدَّ عليّ من الظِّلِّ الظَّليل الذي كنتُ عنه مَذُوداً، وأصبحتُ بالالتحاقِ به والعَوْدِ إليه محسوداً، والحمدُ لله حقَّ حمدِه.

واللهُ العالم، أنّني أخَّرتُ مُكاتبةَ سَيِّدي[٤] الحاجِب ونيّتي تقديمُها، وأخلَلْتُ[٥] بها ورأيي المواظبةُ عليها. وما فعَلتُ ذلك إلّا للثِّقة بما لي عنده، من السُّكون إلى تَناجي

---

(١) باريس، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي، سيلي أوك. وكما نوهتُ في هامش الرسالة السابقة، فإن هذه الرسالة وردت في س مبتورة العنوان، وكأنها جزء من الكلام السابق لها. (عن نفسه مرتجلاً مستعجلاً)، و(عند استكتاب... الآخر) من: ف، ر فقط.

(٢) (وأدام...... وكفايته) ساقط في ب.

(٣) ساقطة في ب.

(٤) ساقطة في ب.

(٥) س: أخليت.

قلبي وقلبه، والتعويل على أنّ قراءته[١] خطِّي في المكاتباتِ إليه خدمةً له، ووُقوفي على الأجوبة منه نصيبٌ لي من تطوُّلِه، وقدَّرتُ أنْ يَخْلوَ ذَرْعي لكتابٍ شافٍ أُطيلُه، وأستَوفي فيه على نَفْسي شرطَ التعظيم والتبجيل له، وأبى اللهُ إلّا أنْ جَرَى ذلك على إيثارِه دون إيثاري، إذ سَبَق إلى تطويقي مِنّتَه، وتقليدي عارفتَه، بالرِّسالة التي أدّاها أخي وكاتبُه أبو الحسن، فإنّها صادفَتْ منّي عبداً واثقاً، ولساناً بالشُّكر ناطقاً، ويداً إلى مُكاتبتِه مُبادِرةً، ونيّةً على خدمتِه وطاعتِه مُثابِرةً، فحصَلَتْ له اليدُ العُليا، والمِنّةُ العُظمى بالابتداء.

وقادَتْني الضّرورةُ إلى أنْ أُعجِّلَ الجوابَ عن غيرِ أُهبةٍ مأخوذةٍ له، ولا تمكينٍ من تحفُّظٍ ولا تيقُّظٍ فيه؛ فغلَبَتْني يدي مُنطلِقةً بالكتاب، ونَفْسي مُسارعةً إلى الجواب، وعلَّقتُ هذه الأحرفَ على السَّبيل التي يَذكُرُها أبو الحسن من ضِيق الوقت عن استيفائها، وتكاثُف الشُّغل والعَمل دونَ تأدية الحقّ فيها. فإنْ صادَف فيها خطأً، فهو المأمونُ عليه، والحقيقُ بطَيِّه. أو إصابةً، فإنّما هي مستفادةٌ منه، ولآثاره سَبيل الخاطِر في مُناجاتِه. ولستُ أقنَعُ بها، ولا أُعوِّلُ عليها، ولا أرضى في خدمةِ ذلك الفضل الظاهر[٢]، والأدب الباهر[٣]، والوَجْه الحسَن، والكنَف الرَّحْب، والخُلُق السَّهل السَّكْب، إلّا باستنفادِ الطُّرُق[٤] فيما قضَى حقَّه السّالفَ والآنف، وأدَّى فرضَه السّابقَ واللّاحق، بإذنِ الله.

وإلى ذلك، فللحاجبِ علوُّ الرأي في تشريفي بجوابٍ لا يتكلَّفُ فيه طُولاً يُضجِرُه، ولا استيفاءً يَكُدُّه، بل يجعلُ رَسْمي معه أنْ يَأذَن لي في إيناسِ حضرتِه بكُتُبي

(١) ب: وراثة، س: قران.

(٢) ب: الباهر، ف: ر: القاهر.

(٣) ب: البارع.

(٤) ف، ب، ر: الطوق.

إنْ حَلَّتْ محَلَّ المأنوسِ به، وأنْ يقتصرَ بي على اللَّمحة الدّالّـة في الجـواب، إذ هـي كثـيرةٌ عندي منه، وتعريفي[١] فيما يَنشَطُ له من ذلك بين أمْرِه ونَهْيِه، وتكليفي ما أصلُحُ له مـن عَوارض مُهمّاتِه إنْ شاء الله.

---

(١) ر: تصريفي، ف: تشريفي.

نُسْخة الجواب
من الحاجب أبي علي[1]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلاي الشّيخ - يومَ السّبت لسبع ليالٍ خَلَوْنَ من جُمادى الأُولى، عن سَلامةٍ في ظلِّ الدَّوْلة حَرَسَها اللهُ وثَبَّتها. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وَصَل كتابه بما ذَكَرَ من تأخيرِه مكاتَبتي ونيّتِه تقديمَها، وإخلالِه بها، ورأيِه المواظبةَ عليها، إلى غيرِ ذلك، ممّا هذَّبَ مَعانيَه[2]، ولَطَّفَ حواشيَه، وأحسَنَ التصرُّفَ فيه. ووجدتُ ما أقدِّرُه من المعنى الذي افتتَح به المكاتَبة أحلى لفظاً من قولِ إبراهيم بن المهْدي للمأمون[3]:

ما أنْ عصَيْتُك والغُواةُ تمُدُّني ... أسبابها إلّا بنيّةِ طائعِ[4]

ووقَفْتُ عليه وفهِمتُه.

وقد عَلِمَ اللهُ عزّ وجلّ أوّلاً شَغَفي به، ومودَّتي له، وشَوْقي إليه، ونِزاعي نحوَه، وقَرَمي[5] إلى لقائه، وأسَفي على ما يَفُوتُ من مشاهدتِه، وإنْ كنتُ أُعِدُّ نَفْسي في كوْني بالحضرة بالاجتماع فيَحُولُ دونَه عَوارض الأيّام، فلمّا حصَلتُ بواسِط سَنَحتْ لي

---

(١) باريس، سيلي أوك، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (من الحاجب أبي علي) من: ف، ر فقط.

(٢) ب: جعاينه.

(٣) من ر.

(٤) قال الثعالبي عن هذا البيت: «من أعاجيب شعره للمأمون». خاص الخاص، ص١١٦.

(٥) ر: قرى.

خطوبٌ أيسَرُها كثير، وأصغرُها كبير، إلى أنْ أتاحَ إقبالُ الدَّوْلة العزيزة[١] انصرافَها، وأعقَبَ ذاك ما تجدَّدَ له – أيّده الله – فشرَكْتُه بنيّةٍ خالصةِ المَوَدّة، سليمةِ العهد، محمودةِ المذاهب، بريئةٍ من الشوائب، وكنتُ مُرَوِّياً مع قلّةِ البضاعة في اختراع المعاني أي الطُّرُق، وما من الجواد أنهج، وأسهَلُها – مع ما ركبتُه – وَعِر، وسَلِسُها حَزَن، وكنتُ أتنزَّهُ في أثناءِ ذلك في رياضِ كتُبِه المدَبَّجة بالمُلَح، المرصَّعةِ بالجَوْهر، وأُكرِّرُ فيها نظري، وأقضي – من ملاحظةِ مواقع أنامِله – وَطَري، إلى أنْ وَرَد هذا الكتاب المغبطُ الجذْل، السّارُّ المُبهج، الذي تسمَحُ مَبانيه، وتُزهرُ معانيه؛ فوقَعَ موقعَ الماءِ من ذي الغُلّة، ووافَقَ ظمأً ونِزاعاً وتلهُّفاً وتشوُّفاً.

فأمّا ما أفاضَ – أيّده اللهُ – فيه ممّا أورَدَه أبو الحسن الكاتبُ من الشُّكرِ على ذلك والاعتدادِ به، فلم أقصِدْ هذا المعنى بالرِّسالة، ولا اعتَمدتُ إلّا تعريفَه – أيّده الله – ما أضمَرَه فيه من المخالصة، والمصافاة، والمظاهرة والممالأة، وأصنافِ ما يكون عليه خواصُّ الإخوان في السِّرِّ والإعلان. وما عندي شُكرٌ في ما يَنطوي عليه لا أخْلاني اللهُ منه، ولا سَلَبَني جميلَ الموهبة فيه، بمَنِّه ورحمتِه.

وأمّا وَصاتُه – أيّده الله – إيّاي بالاقتصارِ في مُكاتبتِه إشفاقاً من ضَجَري، فقد شَكَرْتُ عليه، وإنْ كانت الضّرورةُ تدفَعُني إليه؛ لأنّ مَن أنفَقَ من خَدَمه[٢] من بضاعةٍ نزرة[٣] كان حَرِيّاً من ذلك بالفُسحة. وأنا أُواصلُه – أيّده الله – بما أُريد تفضُّلَه فيه قاصداً للمعنى دونَ غيره، فمُسالمتُه – أيّده الله – غنيمة، ومُجاراتُه في حَلَبتِه الفَسِحة هزيمة، والسّالكُ غيرَ المقصِدِ ضالٌّ غيرُ مُهتَدٍ، واللهُ – جلّ وعزّ – يُجمِّلُني ببقائه، ويَحرُسُ ما وهَبَه لي منه بمَنِّه.

---

(١) ب: والغريزة.

(٢) (من خدمه) من ب فقط.

(٣) ب: بودده، وفي ب، ع: (بطاعة) بدل (بضاعة).

ومِثلُه - أدام الله عِزّه - شَفَع يداً بيد، وأتْبَعَ مِنّةً بفَضْل، وأنا أسألُه - أدام الله تأييدَه - أنْ يُواصلَني بكتُبِه مُضمَّنةً أخبارَه الطيِّبة، وأمرَهُ الممتثَل، وأوطارَه ومهمّاتِه، معتمداً مسَرَّتي بذلك إنْ شاء الله تعالى.

نُسْخة الجوابِ عن هذا الكتاب[١]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي الحاجب - يومَ السّبت لأربعَ عشْرةَ ليلةً خَلَتْ من جُمادى الأُولى عن سَلامة، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ووَصَل جوابُ الحاجبِ الزّائد في دلالاتِ فَضْله، وشَهاداتِ نُبلِه وطَوْلِه، فسَرَّني منهُ الشّرفُ، وساءَني أنْ غَمَرني بإحسانِه وبيانِه، وأفحَمَني بطُول منطِقِه ولسانِه، وإنْ كان لا عارَ في التأُّخر عن غايته، ولا عَيْبَ في الانحطاطِ عن طبقتِه، بل الفضيلةُ كلُّها في أنْ أهَّلَني لجوابِه، ورَآني أهلاً لمطاولتِه، وموضِعاً لمفاوضتِه، وقد قيل: جَرَى الوادي فطَمَّ على القَرِيّ[٢].

ولستُ أرى، وأنا عبدُه في المنزلة، وتلميذُه في الصِّناعة، أنْ أسلُكَ معه طريقَ المجاراةِ والمباراة، والمزايدةِ والمكاثَرة، إذ الفَضْلُ له في القولِ والفعل، والإحسانِ والطَّوْل. وقد كنتُ سألتُه – أدام الله الرغبةَ إليه – استدامةَ خدمتي بالإيجازِ في مخاطبتي .... [٣] منّي لأن يخِفَّ عنه محمَلُها، وتسقُطَ عنه الكُلفةُ فيها، وإذا كان قد استَسهَل بفَيْض أدبِه ما يَستصعبُه المُعَنّى بدَأبِه وطلبِه، فقد أخَذْتُ بالطَّرَف الذي خَلّاه عليّ في .... [٤]، وتَرْك الاستكثار، لا استئثاراً عليه بالرّاحة، بل إعظاماً له عن المُساجَلة. وأسألُ اللهَ تعالى أنْ يحرُسَ منهُ عليّ الفضائلَ كلَّها جمعاً، بَحْرُها زاخر، [و] نَوْؤُها ماطر، وعَيْنُها

---

(١) باريس.

(٢) القَرِيّ: مجرى الماء في الروضة، والجمع أقْرِية، أي أتى سيل الوادي فدمن المجرى. مثلٌ يُضرب عند تجاوز الشر حدّه. الميداني، مجمع الأمثال، ج١، ص١٥٩.

(٣) كلمة غير مقروءة ضَبَّبها الحبر.

(٤) كلمة غير مقروءة ضَبَّبها الحبر، بقي منها: الاختـ....

.... [١]، وشِهابُها ثاقب، ويُريَني غُرّتَه الجميلةَ. خدمته[٢] والاستمداد من معرفتِـه، فـإنّ صُحبتَه نُهْيَةُ الآمل، ومُنْيَةُ السّائل، بجُودِه ومجدِه.

ولما اتّفق عَوْدُ أبي الحسن الكاتبِ تحمّلتُ له المنّةَ بتحميلي إيّاه هذه الجُملة، وكلّفتُه ....[٣] لي أحلّه فَضْلاً عن سَيِّدي الحاجب عنها، وأعتذرُ إليه منها، وأحمِلُ أمري فيها على ما رُويَ عن بعض الأئمةِ - رضوانُ الله عليهم - أنّه قال لرجُل استأذَنه في ذكر حاجةٍ تصغُره ويَجِلُّ عنها: قُلْ ما تشاء، فإنّ الحُرَّ لا يَكبُرُ عن صغيرِ صديقِه، ولا يَصغُر عن كبيرِه. وما أُطالبُ الحاجبَ بالمكاتَبة إلّا عند الحاجة.... [٤] ، فإنّه يُفيدُ فيَّ جَمالاً أشكرُه، ويستفيدُ منّي سَعْياً يحمَدُه.

فأمّا ذاك[٥]، ممّا يَشغَلُ أوقاتَ راحتِه، ويسُدُّ فُرَجَ خَلْوتِه، فإنّني أستَعفي منه استعفاءَ المتقرِّب إليه، المؤْثِر لما خَفَّ عليه، وله - أيّده الله - فيما سألتُ فَضْل النّظَرِ فيه، والإسعاف به إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) كلمة مفقودة أغفلها الناسخ.

(٢) كذا.

(٣) كلمة غير مقروءة ضَبَّبها الحبر، بقي منها: حا.

(٤) كلمة غير مقروءة ضَبَّبها الحبر.

(٥) العبارة في الأصل: فأما ما ذاك.

وكَتَب من صَمْصام الدَّوْلة إلى أحدهم يطلب العون على الحسن بن عليّ التَّميميّ الخارج عن الطّاعة[١]

وعِلمُك – أيّدك الله – مُحيطٌ بما تظاهَرَ على الحسن[٢] بن عليّ التَّميميِّ حاجبِنا من إنعامِنا، وتَتابَع إليه من إحسانِنا، وأنّنا أهّلناهُ للمنزلةِ التي يحِقُّ على مِثلِه أنْ يَستديمَها ويعرِفَ حقَّها، فكان من مُجازاتِه إيّانا عنها أنْ هرَبَ عن واسِط، مقاوماً للجُملة، وقاطعاً للعِصْمة، ومُخِلًّا بالخدمة، ومُخفراً للأمانة، والله.... [٣] استحقاقَه، ويُجرينا فيه وفيمَن سَلَك سَبيله على جميل عادتِه. وقد عَرفتُ حالَ مَن قد ..... [٤] الأهْواز، وأنّ أمرَ واسِط كان مَنُوطاً ومُنتظِماً به، للذي قدَّرناه من نُصحِه وولائه، وظنَّناهُ من أمانتِه ووَفائه. فلمّا غَدَر ونكَث، وَكَلْناهُ إلى الله الذي لا يَخِيرُ لغادرٍ ولا ناكث، ولا يُصلحُ عَمَل مُفسدٍ ولا خائن.

والآنَ، فالصُّورةُ موجبةٌ أنْ تشحَنَ واسِط بمَن يحفَظُها، وتَسُوسَ العسكرَ المُقيمَ بها. وقد أخرَجْنا إليها عاجلاً أبا الفضل[٥] المظفَّر بنَ محمود الحاجبَ، إلى أنْ نَرى رأينا فيمَن نفوِّضُ إليه أمرَ الدَّيْلَم المقيمينَ بها، بحسَبِ ما نتّفقُ عليه مع أوليائنا، وذوي

---

(١) باريس. (العنوان فيها: وكتب).

(٢) في الأصل: الحسين، وقد تقدّم في رسالتين أخريين: الحسن.

(٣) كلمة لم يبق منها إلا: يلقـ... .

(٤) كلمة ضَبَّبها الحبر.

(٥) في الأصل: الفتح، والأصح ما أثبتناه. وسيرد على الوجه الصحيح. ج١، ص٣٩٦، وانظر: الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٢٠، ص١٣٦.

الحِفاظِ لنا، الذين أنتَ - بحَمْد الله ومَنِّه - من أنصَحِهم جَيْباً، وأسلَمِهم عَيْباً، وأطْيبِهم خَبَراً، وأحْسنِهم في خدمتِنا أثراً.

وليس بخافٍ عليك شدّةُ الحاجة في مثل هذا الأمر إلى طائفةٍ من الأتراك، تَخرُجُ إلى ما هناك، ولسنا نَعلَمُ ما نُدبِّرُ به أمورَهم، ولا مَن نُجرِّدُه منهم، ولا مَن نكِلُ إليه سياستَهم، ولم يبقَ في الدَّوْلة مَن يُصغُونَ إليه، وينقادونَ له، ويوثَقُ في الرِّياسة عليهم والسِّياسةِ لهم غيرُك.

ونحن محتاجونَ إليك كذلك، وللدّخول معنا في الرأي والتدبير. وسبيلُك أنْ تُسدِّدَ أمرَ الكوفة، وتَنظِمَه على ما يوجبُه الصَّوابُ عندَك، ....[1] أسْرِعَ ما يُمكنُك، فقد مسَّت الحاجةُ إليك، واشتَدَّ التطلُّعُ إلى مدودِك.........[2] في العَمَل بذلك، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

(١) كلمة ضَبَّبها الحبر. لم يبق منها إلا: بُنـ...

(٢) كلمة ضَبَّبها الحبر.

نُسْخة تَذْكِرةٍ عن عِزِّ الدَّوْلة إلى القَرامِطة[1]

صِرْ - أطال الله بقاءك - إلى حَضْرة إخواننا السّادة الفاضلين - أدام الله عِزّهم -

(١) چستربتي، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك. (عن عِزِّ الدَّوْلة) إضافةٌ منّا.

في سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م ورد الخبر بأن أبا علي الحسن بن أبي منصور أحمد القرمطي سار إلى مصر وجرت بينه وبين جوهر القائد الفاطمي وقعة وكان النصر فيها لجوهر. وكان جوهر لما دخل مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م ووطأ الأمور للمعز بالله الفاطمي وأقام له الخطبة سيّر القائد جعفر بن فلاح إلى الشام فأسر الحسن بن عبيد الله بن طغج وبعث به إلى مصر. وبلغه أن أبا القاسم إسماعيل ابن أبي يعلى قد أقام الدعوة بدمشق للمطيع لله العباس فسار إلى دمشق فعصوا عليه وقاتلوه فظهر عليهم وهرب ابن أبي يعلى إلى المغرب. وعرف القرامطة استيلاء الفاطميين على الشام وأخذهم ابن طغج فانزعجوا من ذلك لما يفوتهم من المال الذي كان قرره ابن طغج لهم وهو ثلاثمائة ألف دينار في كل سنة فبعثوا أبا طريف عدي بن مُحمّد بن المعمر (العمر) صاحبهم إلى عز الدولة بَخْتِيار يطلبون المساعدة على الفاطميين بالمال والرِّجال، فاتفقوا أن عز الدولة يعطيهم مليون درهم وأسلحة كثيرة وقال: إذا وصل أبو علي الجنابي إلى الكوفة حمل إليه جميع ذلك. ولما وصل الجنابي إلى الكوفة وكان في عدد كثير من أصحابه ومن الأعراب فبعثوا إليه بالمال والسلاح وسار يريد الشام. وبلغ جعفر بن فلاح خبرهم فاستهان بأمرهم ثم لم يشعر بهم حتى كبسوه بدمشق بمكان يقال له الدكة فقتلوه واحتووا على أمواله وأثقاله وملك أبو علي دمشق وأمن أهلها، وغلب على الشام واجتمعت إليه العرب وسار إلى الرملة. ودخلها وقتل من وجد من المغاربة فيها ثم رحل طالباً مصر وخلف بالرملة أبا مُحمّد عبد الله بن عبيد الله الحسني ومعه دغفل بن الجراح الطائي وجماعة من الاخشيدية والكافورية وجاء فنزل عين شمس على باب مصر واقتتلوا أيّاماً وانتصر القرمطي على جيش جوهر وغنم أموالهم وأسلحتهم ودوابهم. فلما كان ثالث ربيع الأول نشبت الحرب واقتتلوا إلى العصر فانهزم القرامطة فما وقفوا إلى الرملة وظن جوهر أن هزيمة القرمطي مكيدة فلم يتعرض لما كان

واقرأ عليهم سَلامنا، وعرِّفْهم أنّنا على أفْضل ما عهدوا في اعتقاد المَوَدّة والتمسُّكِ بعَلائقِها، والمحافظةِ على وَثائقِها، وأنّنا ما فارَقْنا سالِفاً، ولا نُفارق مُسْتأنفاً، الظنَّ الحسن بهم، والاعتقادَ الجميلَ فيهم، والسُّكونَ إلى غَضاضةِ عَهْدِهم على مرورِ الأزْمانِ، وحَصافة عَقْدهم على تصرُّف الحدَثان، وأنّهم لا يُخلّون بمُراعاتنا ومُشاركتنا، والكون معنا في سائرِ ما يخصُّنا، حسب ما تَقْتضيه الأصولُ الجامعةُ لنا ولهم، والقواعدُ المتمهّدةُ بيننا وبينهم، التي ما مِنّا مَن خرج عن حدٍّ من حُدودِها، ولا أضاع حقّاً من حقوقِها. ونحنُ بحَمْد الله مُسْتمرُّون على أرْشد طَرائقنا فيها، مُتحرِّزون من كلِّ ما يطرقها ويقذيها.

ثم تذكرُ لهم – أدام الله عِزّهم – أمرَ سُبُكْتِكين مَوْلانا في ما ارتكب من كُفْرِ صَنيعتنا، واحتقب من غَمْط نعْمتِنا، وأنّه كان تغنَّم بُعْدَنا عن مدينةِ السَّلام إلى الأهْواز، واهتبل الغِرّة في نَبْوةٍ جَرَتْ بين الدَّيْلَم والأتْراك، قد كان مثلُها يجري في الأوْقاتِ، فنُصْلحهُ بأيْسرِ النَّظر، ونتلافاه بأهْونِ السَّعي، فأظْهَر مكنون سِرِّه، وأبْدى كامنَ شرِّه، وفَعَل ما يفعلهُ العبيدُ إذا أفْسدها غامرُ الإنعام، وأرِنَت على طُولِ الجِمام، واستغوى طائفةً من غِلْمانِنا، موَّه عليها[1] بالتّخويف مِنّا والتّحذير، ودخل عليها من طريق الإيحاش والتنفير، حتى صارت ملومةً مِثْله لا تُعْذر، وواردةً معه لا تُصْدِر، وبسط جُهّال الرّعيّة على مَسْتوريها، وبعثها على قبائحَ شارَكَها فيها، وسلَّطها على قَتْل النُّفوس وإفاضتها، وسَفْك الدِّماءِ وإراقتها، ونَهْب الأموالِ واستباحتها، وإخْراب المنازل

في عسكره إلى ثلاثة أيّام حتى تحقق الخبر فاستولى على الجميع. ونادى جوهر في الاخشيدية فاجتمعوا فعمل لهم طعاماً وحلف لهم على المصافاة ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم وكانوا ألفاً وثلاثمائة مقاتل. سبط ابن الجوزي، مرآة الزّمان، ج١٧، ص٤٢٢ وما بعدها؛ وانظر تفصيلات أكثر عند الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص١٣١.

(١) ف: عليهم.

وتعفيتها، وجَهَر بعداوةِ أهْل بيتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلَّم ومُنابذتِهم، والغَضِّ منهم ومن شيعتِهم، وأوْصلَ الضَّررَ والأذى إليهم، وآثر أضدادهم عليهم، وجعل شعارَهُ كلمةَ النّصْب[1]، وإسْخاط الربِّ، طَمْساً لمعالم الدِّين، وخلافاً لإجماع المؤمنين، وكذاك يفعل مَن حُرِم خيرَ دُنياهُ وآخرتِهِ، وحظَّ عاجلتِه وآجلتِه، وانقطعت[2] العصمةُ بينه وبينَ إلهه المنزِّل لرزقِه، ومَوْلاه المالكِ لرقِّه.

ونعوذُ بالله من مِثْل حالتِهِ الشَّنيعة، وجنايتِه الفظيعة، ونَسْأله أنْ يصْرَعَهُ ببغْيه، ويقنّعه بخِزْيه، ويجزيه جزاءه، ويُرَدّيه رداءه، ويُفضي به إلى ما أعدَّهُ لأمثاله[3]، من سُكْنى الجحيم، والعذاب الأليم.

وتَشْرحُ لهم – أدام الله عِزّهم – ما الأخوّة بيننا داعيةٌ إلى شرحه من انكافئنا عن الأهْواز إلى واسِط، ونُفوذ كُتبنا إلى الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، والأمير عَضُد الدَّوْلة، باسْتدعاء أمدادٍ من الرِّجال، لم نجْذبهم للاستكثار، ولا التمسْناهُم للاضطرار[4]، إذ كنّا – ولله الشكر – في عددٍ وافرٍ جَمٍّ، وعسكرٍ لجبٍ ضَخْم، من الدَّيْلَم والجِيل، وأهل الوفاء من الأتْراكِ، وأصنافِ الرِّجال والصَّعاليك[5] الفُتّاك، لكننا جَرَيْنا على عادةٍ لنا أهل البيتِ في الاجتماعِ على كلِّ ناجمٍ؛ وإنْ كفانا التَّفردُ، والتَّعاضُد على كلِّ ظالمٍ، وإنْ أغْنانا التَّوحُّدُ. وأنّهما – أدام الله عِزّهما – قد حميا وارتمضا، وأنِفا وامتعضا[6].

---

(١) النصب: مناصبة آل البيت العداء. واستعمال هذا المصطلح هنا من قَبيل الحرب الإعلامية، والدعاية السياسية.

(٢) س: انفصمت.

(٣) ج: له.

(٤) ج: الاستظهار.

(٥) ف: الصعاب.

(٦) س: امتعنا.

وأنْفذ الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة فتاهُ الأمير أبا الحسن من الرَّيّ في عَسْكرٍ وافرِ المَدَد، وشخصَ الأمير عَضُد الدَّوْلة من شيراز في جيشٍ كثيف العدد، وأنّ عُدّة الدَّوْلة أبا تَغْلِب بن ناصرِ الدَّوْلة أنْفذَ أخَاهُ على مقّدمته إلى تَكْريت، وأخاً ثانياً من طريقِ هِيت، وبَرز هو عن الموْصل غضباً لنا، وقضاءً لحقّنا، وانتهازاً للفُرْصةِ في التّقرُّبِ إلينا، وتأكيد السَّبب بنا، وأنّ كُلّ نازعٍ من النّاس إلى عزٍّ وكرم، وراجعٍ بنسبِه إلى عربٍ أو عَجَمٍ، قد نَهَد لهذا العَبْد نهود الواثب المتنزّي، والثّائر المتلظّي من أكابر وأصاغر ليست بنا حاجةٌ إلى الإطالة بذكرهم، للشائع الذّائع من خبرِهِم، وأنّه الآن محصورٌ بمدينة السَّلام، لا يتجاوز سُلْطانُهِ طرفَيْها[1]، ولا يتعدّى مَأصِرَيْها[2]؛ قد صارت الدّنيا عليه ككِفّة الحابل، وضاق به فيها مجال الجائل، ومعه من هؤلاء الغِلْمان الأغْمارِ، والعوامّ الرِّعاعِ، مَن لا يُقيم له وَزْناً، ولا يمتثل أمراً، وإنّما نصبوه سُلّماً لهم إلى الأمْوالِ المُسْتهلكةِ، والمحارم المنتهَكة، والمآكل الموبية، والموارد المودية[3]، وإذا ساعدَهَم في القبيح إلى غايةٍ لم يقفوا عندها، ولم يكتفوا، وإنْ نهاهم عن تجاوزِها لم يحفلوا به ولم ينتهوا. ولمّا تنبّه من عَمهه، وتحلّم من سَفْههِ، وتذكَّر سخطَ الله عليه، وتَوافى أقاربُنا والأباعد إليه، ورأى أنّه محاطٌ به، ومأخوذٌ بناصيتِه، وأنَّه لا ثبات له على ما دهمَهُ، ولا بقاء على ما غشيَهُ، راسَلَنا مُراسلةَ المسْتسلِم، واعتذر اعتذارَ المتندِّم، والتمسَ أنْ تُقرَّ عليه من أعمالنا ناحيةٌ يَخْدمنا فيها، ويعيش بَقيّة أيّامه منها. وذكر أنّه متى مُنِع ذلك صار إلى صاحب

---

(١) ف: ترفيها.

(٢) المأصِر: سلسلةٌ أو حبلٌ يُشدّ معترضاً في النهر، يمنع السفن عن المضيّ إلّا بعد دفع الرسوم. الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٩٥. والمقصود هنا أماكن استيفاء تلك الضرائب والرسوم.

(٣) ف: المردية المؤذية، ج: المردية.

المَغْرب[١]، وساعدَهُ على كلِّ مُرادٍ ومَطْلبٍ؛ فأجبناه بالمنْع، وجَبَهْناه بالدَّفْع، وأعلمْناه أنّه العبدُ الذّليل، والواحدُ القليل، والمهينُ عندنا قَرُب أو نَأى، والحقيرُ لدينا أطاع أمْ عَصَى، إذ كان مالنا[٢] نَطْلبهُ طلبَ الضّالةِ المنشودةِ، ونثقُ من الله بأنْ يُعيدَهُ إلينا، إعادة[٣] الظُّلامة المردودةِ، بذلك جرتْ عندنا عادتُهُ فيه وفِي أمثالِه، وفي قروم مصاعبَ من أعدائنا كانوا أعظم منه شَأْناً، وأعْلى يداً ومكاناً، فأظْفَرنا[٤] اللهُ بهم، وحكم لنا عليهم، وأورثنا أعمارهم، وملّكنا ديارهم، فله الحَمْد كثيراً، والشُكْر دائماً.

وأولى النّاس بأنْ يكون للمَوْلى المُنْعِمِ متعصّباً، وعن العبدِ الغامطِ مُنْحرفاً: إخوتنا السّادة - أيّدهم الله - بأصولهم الطيّبة، وأعْراقهم النّجيبة، وفضائلهم الظّاهرة، ومناقِبهم الباهرة. وما عندنا شكٌّ في ذلك، فَنَبْعثُهم عليه، ولا نظنُّ بهم الذَّهابَ عنه، فنردُّهم إليه. وكيف نَرْتاب بمعادنِ الفَضْل والنُّبْل، الذين يَجْرون لنا ونجْري لهم مَجْرى اللُّحْمةِ والأهْل ! بل نحن عالمونَ بأنهم - أدام الله عِزّهم - معنا في البراءةِ منه، والازْوِرارِ عنه، وأنّ قلوبَهم لا تُضْمِرُ، وألْسنتهم لا تُظْهِرُ، إلّا ما يوافقُ إيثارنا، ويعمّر سَبيل الصِّلة بيننا. إلّا أنّ أبا طريفٍ عَدِيِّ بن مُحمّد[٥] - أعزَّهُ اللهُ - عجّل بأنْ صار إلى هذا العَبْد العاقِّ، واللَّعينِ المُشاقِّ مصيراً ربّما[٦] حُمل على المصافاةِ له، ونُسِبَ إلى الرِّضا

(١) يقصد الخليفة الفاطمي. وكان ولاء أصحاب النفوذ السياسي والطامحين يتذبذب بين العباسيين والفاطميين وفقاً للمصالح والمكاسب.

(٢) ج: مالاً لنا.

(٣) ج: كما تعاد.

(٤) ف: فاظفر.

(٥) من بني الغَمْر، وكان من زعماء بادية الكوفة. ابن حوقل، صورة الأرض، ج١، ص٢٧.

(٦) ف: بها.

بفعلِهِ، وطرَّق للأباعد أنْ يُسيئوا[١] الظَّنّ بما بيننا، ويخوضوا في التياثِ وُدِّنا، وانْتكاثِ عَهْدنا، وحاشَ لله أنْ يكون ذلك كذلك، وقد كان لَعَمْري كتب إلينا كتاباً أَلَمَّ فيه ببعض الاعتذار، فأجبْناهُ بالقَبولُ لقَوْلِه، والبَسْط لعُذْرِه، وغلَّبنا الثِّقةَ على الشَّكِّ فيه، وأمرناه بالمصير إلى حَضْرتنا لنفاوضه مهمّاتٍ يكتب بها عنّا، فتأخَّرَ تأخّراً جرَّ عليه هذا العَتْبَ[٢] منّا.

وتَسْألهم - أدام الله عِزّهم - أنْ يَرْسموا له استئناف ما نَحْمده، واستقبال ما نَشْكره، وأنْ يحضرَ مَجْلسنا، ليَغْسِلَ دونَ حضورِهِ مجلس العاصي علينا، وليسمعَ منّا ما يصيرُ إلى إخْواننا السّادة مشافهاً به، أو يخدمنا وإيّاهم مُكاتِباً فيه، وليكونَ[٣] انكفاؤهُ سريعاً على التَّكْرِمة التي يستحقُّها، ونراه أهلاً لها بإذن الله.

وإذا أَتَيْتَ على ذلك[٤]، وحصّلتَ الجواب عنه، وانصرفْتَ إلينا بالنِّعْمة الجليلةِ من من سَلامتِهم وعافيتهم، والفائدة الجزيلة من كفاية الله إيّاهم تحمَّلْتَ من أمثلتهم ما يُحتذى، ومن مَراسمهم ما يُقْتفى إنْ شاء الله.

---

(١) س: يسؤا.

(٢) س، ف: العتاب.

(٣) ف: ويكون.

(٤) ف: أبيت الحق ذلك.

نُسْخة كتابٍ
عن صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة
إلى الهَجَرِيَّيْن القُرْمُطيَّيْن: إسحاقَ وجعفرٍ
وهما بالكوفة[1]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي - عن سَلامةٍ أحْمَدُ اللهَ عليها، وأسألُه أنْ يجمَعَنا وإيّاهما فيها، وبينَنا - أدام الله عزَّ سَيِّدي - عهدٌ ورِثْناه عمّن مضَى أوّلاً، وعهدٌ أكَّدناه بعدَه ثانياً. وما زلتُ على السَّنَن المستقيم في الرّعاية لهما، والمحافظةِ عليهما، والتمسُّك بالأسبابِ الزّائدة فيهما، والمواثيقِ الممهِّدة المؤكِّدة لهما، لم يقدَحْ في ذلك إلى هذه الغاية

(١) باريس.

قال ابن الأثير في أحداث سنة ٣٧٥هـ: ورد في هذه السنة إسحاق وجعفر الهَجَريّان، وهما من الستة القرامطة الذين يُلقّبون بالسّادة، فملكا الكوفة، وخطبا لشرف الدَّوْلة، فانزعج النّاس لذلك لما في النُّفوس من هيبتهم وبأسهم. وكان نائبهم ببغداد يعرف بأبي بكر بن شاهُوَيْه يتحكّم تحكّم الوزراء، فقبض عليه صَمْصام الدَّوْلة. فلما ورد القرامطة الكوفة كتب إليهما صَمْصام الدَّوْلة يتلطفهما ويسألهما عن سبب حركتهما، فذكرا أن قبض نائبهم هو السبب في قصدهم بلاده. الكامل، ج٧، ص٤٠٩.

ولما ورد الخبر باستيلائهما على الكوفة، بادرهما الوزير أبو الرَّيّان بالمكاتَبة، وسلك معهما طريق الموادعة والملاطفة وبذل لهما ما يحاولانه، وعوّل على أبي بكر بن شاهُوَيْه في الوساطة معهما، وكان أطلقه من الاعتقال. تفصيلات ذلك أوردها الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٣٦.

تجدر الإشارة إلى أن كلمة (الهجريين) وردت في طبعات الكامل مصحفة (البحريين). وهي نسبة إلى هَجَر في الإحساء شرقي الجزيرة العربية، وكانت مقر حكمهم.

قادح، ولا طَمِعَ في تشعيثِه طامع، واللهُ يحفَظُ علينا أصُولَ ما بيننا وفروعَه، ويُحسنُ توفيقَنا لما عاد بثبوتِه واستقرارِه، بحَوْلِه وطَوْلِه.

وكان تأدَّى إلى سَيِّدي في القُربِ من الكوفة من غير مُكاتبةٍ سَبَقت، ولا مُقدِّمةٍ تقَدَّمت، وظنَنْتُ أنهما مُجتازانِ إلى بعض مَقاصدِهما، واستَظْهرتُ بالتقدُّم بمكاتبةِ العُمّال بخدمتِهما، وإقامةِ الأنزال لعسكرِهما. ثم عرَفْتُ خبَرَ وصولِهما إليها؛ فأمَرْتُ أبا الرَّيّان حَمْدَ بنَ مُحمّد من الكتابِ إليهما بما امتثَله، وعَرَض عليَّ من الجوابِ ما أوقَعْتُ التأمُّلَ عليه؛ فوجدتُه مَبْنيّاً على مُعاتبةٍ في أمرِ أبي بكرٍ مُحمّد بن عليِّ بن شاهُوَيْه، ما أدفَعُ أنّ ظاهرَ الأمر يوجبُها، لكنّ الباطنَ يوجبُ خلافَها؛ لأنّني ما استَحَلْتُ عن أفضلِ ما عُهِد منّي في إيجابِ حقِّه، ورعايةِ حُرمتِه، والثِّقة به، والسُّكون إليه. وكان ما عوملَ به من الجفاءِ معدوداً عندي في ذنوبِ مَن ولَّيْتُه أزِمّةَ أموري، وأساء التدبيرَ فيه، وقصَدَ إفسادَها وإلحاقَ الخَلَل بها. ألا يَرى سَيِّدايَ[١] - أدام الله عِزّهما - أنّ لجنايتِه عليّ في أمرِ أبي بكرٍ تطايُرَ كبائرَ قد شاعت وذاعت، وظَهَرت وانتَشَرت؟ أفتَراني رضِيتُ بتلك التُّهمةِ[٢] المُنكرة، ولم أذمُمْ ما وَضَح من آثارِها المستعظَمة المستنكرة؟ بلى، والله إنّي لَساخطٌ، وعلى رأي المرتكِب لها ذارٍ، لكنّ المقاديرَ لا بدَّ أنْ تتمَّ على كلّ مُسترسِلٍ ومتحفِّظ، ومُستنيمٍ ومتيقِّظ.

ولمّا وفَّق اللهُ - جلّ وعزّ - لما وفَّق له من رَدِّ أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد إلى مكانِه من النّظَر في الأمور وتسديدِ التدبير، وهو الرَّجل الذي ....[٣] عُرِف سَدادُه ونُصحُه، وأنه كان المتوسِّطَ بين الماضي - رِضوانُ الله عليه - وبينَ أبي بكر، والموثوقَ به في تثبيتِ ذلك

(١) في الأصل: سيدي.

(٢) كلمة ضَبَّبها الحبر، قدّرناها تقديراً.

(٣) كلمة ضَبَّبها الحبر.

الأصل وتقريرِه، كان أوّلَ ما تلافاه أمرُ أبي بكر الذي إنكارُ ما جَرَى فيه كإنكارِ سَيِّديَّ، أو زائدٌ عليه بعد أنْ لم يكنْ أيّام .... [١] في داري مُذالاً، ولا مُخْفَراً ولا ممنوعاً عادةً، ولا محمولاً على خُطَّة.

وها هو الآنَ كما كان في الثِّقة عندنا، والتوسُّطِ لما بيننا، وقد قال وقُلنا ما هو المعتمَدُ للكتاب به على شَرْحِه. واللهُ العالم أني كفَفْتُ الأولياءَ، وخاصّةً المُقطَعينَ بالكوفة، عن سُلوك سَبيل المُدافعةِ والمُمانَعة، إشفاقاً من أنْ يتطرَّقَ على ما بيننا عِلّةٌ في الفَسْخ، أو فُسحةٌ في النَّقْض. فإنْ رأى سَيِّدايَ - أدام الله عِزّهما - أنْ يعودا إلى حيثُ ما أنا مقيمٌ عليه من المحافظةِ على الوثائق، والتمسُّك بالعلائق، وتحكيم الثِّقة، والاحتراسِ من الفرقة، ويتأمَّلا ما يَبسُطُه أبو بكرٍ من الشّرح، ويوضِحُه من الأمر، ويجعَلا الإجابةَ عنه شُبهةً بفضلِهما في نفوسِهما، ولائقةً بصحّةِ رأيهما واختيارِهما، وحُسنِ ظنِّي بهما، ومُحاماتي على ما بيني وبينَهما، فَعَلا إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) كلمة ضَبَّبها الحبر.

نُسْخة كتابٍ عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد إلى صاحبِ الجيش أبي حَرْب زِيار بن شَهْراكُوَيْه مَوْلى أمير المؤمنين بالبِشارةِ بخبَر القَرامِطة وانهزامِهم وما عُومِلوا به[1]

كتابي - أطال الله بقاء صاحبِ الجيش - يومَ الثُّلاثاء لاثنَتَيْ عشْرةَ ليلةً خَلَت من شهرِ ربيعِ الأوّل سنة خمسٍ وسبعينَ وثلاثمائة، عن سَلامة المِلِك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة، وانتظامِ الأمورِ بحضرتِه، وجَرْيِها على إيثارِه وإرادتِه، وصَلاح حالٍ بالممتدِّ عَليّ من ظلِّه، والشامل لي من إنعامِه وطَوْلِه، والحمدُ لله حقَّ حمدِه.

ومهما أتاحَه اللهُ تعالى لهذه الدَّوْلة الميمونة من عزٍّ وليّ، وذُلِّ عَدوٍّ، ومَزيدٍ في نعمةٍ، وسُبوغٍ في مَوْهِبة، فإنّه منسوبٌ إلى تفضُّل الله جلّ وعزّ، ومحمولٌ على عادةِ إحسانِه، وشاكلةِ امتنانِه، وقضائه للمَلِك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة بطُول اليد، وعُلوِّ الكلمةِ، ونُصرةِ الرّاية، وبُلوغ الأُمنية، وما عَرَّفَه من بركةِ سَيِّدنا صاحبِ الجيش الأجلِّ ويُمْنِه، ومَضاءِ رأيِه وعَزْمِه، وحَصافةِ تدبيرِه وحَزْمِه، ثم بتوفيقِه لي في كلِّ ما أَنُوبُ فيه عنهما، وأحمِلُه من أعباءِ خدمتِهما؛ فللّه الحَمْد ربِّ العالمينَ على بلائهِ الجميل عندنا،

---

(١) باريس.

انظر تفصيلات هزيمة القرامطة عند: الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٢٣٣؛ الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٣٦ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٠٩.

وعطائه القابِض علينا، التي[١] لا يزالُ الشكرُ لها يُديمُها، والحديثُ بها يضاعفُها ويزيدُ فيها. وإيّاه أسألُ أنْ يُهنِّيء الملِكَ ما قَدَّم إليه من سالفِ النِّعَم، وأوجَبَ له من مستأنَفِ القِسَم، ويوطِّئه رقابَ أعدائه، ويبلِّغَه نهاياتِ آمالِه، ويُسعدَه في سائرِ أحوالِه، ويجمَعَنا وصاحبَ الجيش في كلِّ ما يُنزلُه من خيرٍ وفائدة، ويَسنيه من فَضْلٍ وعائدة، بمَنِّه وقُدْرتِه.

وكنتُ قدَّمتُ إلى صاحبِ الجيش خبَرَ القَرامِطة في تورُّدِهم الكوفةَ، وتورُّطِهم بتوسُّط المملكة، وأنّي بدأتُهم بالمُراسَلة، وتلقَّيتُهم بالمُلاطفة، وسَلكْتُ معَهم سَبيل المجاملة، مُتَغاضِياً عن أمورٍ ارتكَبُوها من الإعلانِ بالمنابَذة، والمجاهرة بالمخالفة، وتغييرِ رَسْم الخُطْبة، فكان الجوابُ منهم مَبْنياً على الموارَبةِ والمخاتَلة، ....[٢] وببعضِ المناوَأةِ والمطاولة.

وامتثَلْتُ أمرَ الملِك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة في الأخذِ بالحَزْم، وتجريد عَسْكرٍ كثيفٍ من عساكرِ الحَضْرة المنصورة مع الحاجبِ أبي الفَضْل المظفَّر بن محمود[٣]، فسار إلى القَصْر، ثم إلى جِسْر بابِل وقد انعقَدَ الجسْرُ بها.

وكان رُسِمَ له أنْ يَستعملَ البُقْيا بتَرْكِ الابتداءِ بالحَرْب، وألّا يَخْرُجَ إليها إلّا للدَّفع والذَّبّ. وأخرَجْتُ أبا القاسم بنَ زَعْفَران إلى أخينا إبراهيم بن مَرَح ومَن معه من بني عُقَيْل حتى عَبَرَ بهم الفُراتَ وسَيَّرَهم ....[٤].

---

(١) الاسم الموصول صفة لـ(البركة) التي تقدّمت.

(٢) كلمة ضَبَّبها الحبر.

(٣) هو الذي قتل أبا الرَّيّان حَمْد بن محُمّد وزير عَضُد الدَّوْلة وصَمْصام الدَّوْلة سنة ٣٧٥هـ. الصفدي، الوافي، ج١٣، ص٩٩.

(٤) كلمة ضَبَّبها الحبر.

وكانت أخبارُ القوم في خلالِ ذلك تأتيني بانتشارِ سَراياهم إلى النّواحي، و.... [(١)] إلى الغاياتِ والأقاصي، حتى اشتَمَلوا على سُورا[(٢)] والجامعَيْن، وحاولوا ما وراءَ ذلك. فأمّا سُورا فإنّ أبا الفَرَج الخَزائنيَّ أنفَذ إليها من الرِّجال المضمومينَ إليه مَن أوقَع بالقوم الصّابرينَ إليها، وأثَّر فيهم وقتَل بعضَهم، وأمّا الجامعَيْن[(٣)] فكان فيهما عريفٌ كبيرٌ من عُرَفائهم يقالُ له: أبو قَيْس[(٤)]، في جَمْرةٍ قويّة من جَمَراتِهم، ووُجوهِ جِلّةٍ من رجالِهم، فتوَجَّه إليه في غَداة السّبت الماضي إبراهيم بن مَرَح، وأبو القاسم بنُ زَعْفَرانَ فيما خَفَّ رِكابُه من سَرَعان الخيل؛ فكان بين الفريقَيْنِ ما يكون في أوائل الحَرْب من الطِّراد والكَرِّ والفَرّ، وصادَفَ ذلك الفراغَ من عَقْدِ جِسْرِ بابل، فعَبَر الغِلْمان الأتراكُ عليه، فأنجَدوا أصحابَنا وضاموهم، وأوقَعوا بأولئك وَقْعةً عظيمة، ووَطِؤوهم وَطْأةً ثقيلةً أليمة، فقُتِلَ وأُسِرَ منهم نحوَ ثلاثمائة رجُل، فيهم جماعةٌ من الوجوه المشهورين، والأماثل المذكورين، وحُصِّلَ أبو قَيْس نفسُه أسيراً، فقَتَلَه إبراهيم بن مَرَح لثأرٍ كان له عنده، وحُصِّلَ ابنُ الوافواق العريفُ أيضاً وهو في جُملة الأسْرى، وغَنِم أصحابُنا خَيْلَهم ورواحلهم، وأجفَلَت منهم بَقيّة يسيرةٌ طائرينَ على وجوهِهم، واستُخلِصَتْ نواحي الجامعَيْنِ وسُورا وما يجري معَها، ووَرَدتِ الأخبارُ بأنّ القومَ أزمَعوا رجوعاً عن

---

(١) كلمة ضَبَّبها الحبر.

(٢) وَرَدت بتنوين الرّاء المفتوحة، هنا وبعد ست كلمات، ثم في نهاية الفقرة. وهو خطأ، فسُورا موضعٌ قريبٌ من الحِلّة في وسط العراق. أما الجامعين (كذا بلفظ المثنى المجرور) فهو الحِلّة نفسها، حِلّة بني مَزْيَد الأسَديين، في محافظة بابل الآن، على الفرات. عنهما، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٩٦، ج٣، ص٢٧٨.

(٣) وردت: الجامعان. انظر التعليق السابق.

(٤) هو الحسن بن المنذر، من وجوه قوّادهم بالجامعَيْن. كما ذكر أبو شجاع الروذراوري وابن الأثير.

الكوفةِ، وهزيمةً إلى ما وراءهم، لعِلمِهم بألاّ قِبَلَ لهم بما أظَلَّهم.

ووافَى أبو القاسم بنُ زَعْفَران مُبشِّراً، ومعَه جماعةٌ من العرب، فأمَرَ مَوْلانا الملِكُ بالخَلْع عليهم في هذا اليوم، وإشاعةِ الخبر بما جَرَتْ به العادةُ في مِثلِه ورؤوسُ القَتْلى تُحمَلُ على الأثرِ لتُشهَد.

وصادَفَ ورودُ هذا الفتح وصولَ المُستأمِنة من الأهْواز من الدَّيْلَم، وهم مائةٌ وثلاثونَ رجلاً، فخُلِع عليهم، وأُحسِنَ إليهم، وأُظهِرَ أمرُهم.

فالحمدُ لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً، يقضي حقَّه، ويقتضي مزيدَه، ويتنجَّزُ وعدَه، ويَمتري المادّةَ من فَضْله وطَوْلِه. وهنّأ اللهُ صاحبَ الجيش هذه البشائرَ المتوافية، وجَعَلها رهناً بنظائرَ لها مُتَدانِية، وعرَّفَه برَكةَ جميعها[1]، وأسعدَه بها وبأحوالِه كلِّها، ولا أخلاهُ في ظلِّ مَوْلانا الملِك من يُمْن الطّائر، وسَعادة الطّالع، وعزِّ الجانب، وذُلِّ المجانِب، ولا أعدَمَني حُسنَ التوفيق والتصرُّفِ فيما أُلابِسُه من إتمامِ صغيرِ كلِّ أمرٍ وكبيرِه، وكثيرِه وقليلِه، إنه بذلك جدير، وعليه قدير.

---

(١) في الأصل: جميعاً.

وكَتَب عن صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة إلى القَرامِطة بعد انهزامِهم عن الكوفة ووُرود الخبر بذلك إلى الحضْرة

يومَ الثُّلاثاء لسَبْعٍ خَلَوْنَ من جُمادى الآخِرة سنة خمسٍ وسبعينَ وثلاثمائة[1]

كتابي - أطال الله بقاء سادَتي - والسَّلامة لمولانا أمير المؤمنين ولي في ظلِّه شاملة، والنِّعمُ لدَيْه ولدَيّ بحُسن رأيِه كاملة، وعادةُ الله للامتناع بها، والمزيدِ فيها ضامنة، وهو المحمودُ كثيراً، والمشكورُ دائماً، وقد جَعَل اللهُ سادَتي من الفَضْل والمعرفة والحِنكة والتّجرِبة، بحيث يُصيبونَ أغراضَ الحَزْم في آرائهم وتدبيراتِهم، ويُطبِقُونَ مَفاصلَ الصّواب في أفعالِهم واختياراتِهم، ويَستَغْنُونَ عن مخاطبةِ المخاطِبينَ لهم في كلِّ ما كان إلى انتظام الأمورِ داعياً، ولانتشارِها نافياً، وهو الشّاهدُ - جَلَّ ثناؤه - أنّهم ما زالوا مُجْرَوْنَ عندي مَجْرى العادة التي تُمتار الفضائلُ منها، وتؤخَذُ المناقبُ عنها، وعلى حسَبِ ذاك توَجَّه ما يتوجَّهُ عليهم من العتاب، على يَسير الجفاءِ الذي يُعذَرُ في كثيرِه مَن لا يَجري معهم في هذا المضمار، ولا يُقارِبُهم في طيِّب الأحاديثِ والأخبار.

وليس بخافٍ عنهم أنّ أهلَ الفَضْل إذا عَقَدوا بينهم عَقْداً للمودّة كُفِلوا كفالةَ الطِّفل بالإنشاءِ والتغذيةِ حتى يشتَدَّ عَظْمُه، وراعَوْه مراعاةَ الغَرْس بالسُّقْيا والتّربية حتى يَصلُبَ عُودُه، وكنَفُوه في مَبْدئِه من أنْ تنالَه الأسبابُ الضَّعيفة خيفةً عليه من تأثيرِها فيه، وإيهانها له. فإذا استحكَمتِ الأُصولُ، ومَضَت عليها السّنُون، ووَقَع السُّكون، أُمِنت عَوارض الأسباب أنْ يُعِلَّها ويَقْدَح فيها، أو أنْ تَعدِلَ عن سَنَنِها

---

(١) باريس. وفيها: وكتب (من) بدل (عن).

ومَجاريها، لا سِيَّما قبلَ الكشفِ عنها، والعِلم بحقائقِها.

وتلك صفةُ العَهْدِ القديم الوكيد بيني وبينَهم، فإنّني كنتُ أُراه بالصُّورة التي هو بها من الاستقرارِ والتمكُّن، والاستحكام والتوثّق، وأنّ السَّهوَ إنْ وَقَع منهم أو منّي في أمورٍ إنْ عرَضَتْ لم يُزِلْه ذلك عن تلك القاعدةِ التي ثَبَت عليها واطمأنّ بها، بل كنتُ أرى أنّ من أدلّة صحّتِه احتمالَه إيّاها، وامتناعَهُ من قَبُول أثرِها، وأنْ يَكتفيَ كلٌّ منّا في شيءٍ إنْ أنكرَه من ذلك بالمعاتبة عليه تلويحاً وتصريحاً، وإيماءً وإفصاحاً.

ولما بلَغَني قُربُ سَيِّديَّ أبي فلانٍ وأبي فلان[1] من الكوفة، توقَّعتُ أنْ يُقدِّما كتاباً بالسبب في خروجهما وحركتِهما، أو أنْ يَلتمِسا مَعُونةً على أرَبٍ إنْ كان لهما، فلمّا تأخَّر ذلك، ووَقَع الاستظهارُ منّي لمن كان في البلد من العُمّال والأولياء بخدمتِهما، وإقامةِ الأنزال لعسكرِهما، والتصرُّف عن أمرِهما ونَهْيِهما، وإجرائهما مَجْرى المالكَيْنِ لما وَطِئاه من هذه الأعمال، ما راعَني إلّا هجومُهما على أمورٍ مستنكَرة قد كانت عندي مُغتفَرة، لو لم يُظهِرا ما أظهَراه من الشِّعار المخالِف الذي استَثارا به أولياءَ هذه الحَضْرة على مُحاربتِهما، واستهاجاه[2] بذكْرِه لمدافَعتِهما، فبدَأْتُهما بالمكاتَبة، وبذَلْتُ لهما المقاربة، وذكَّرتُهما المعاهدةَ، فأجابا بالمُحاجَزة، وجَنَحا إلى تخفيف المخاطبة، ورَغِبا عن الموادَعة، وبَثَّا سَراياهُما إلى كلِّ جهة؛ فتشَظَّت الحال، وقَبُح المقال، وجرَتْ أمورٌ لم تقَعْ منّي بإيثارٍ ولا اختيار قد رسَمْتُ لأبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد المكاتَبة بشَرْحِها، إذ لم أحبَّ تهجينَ كتابي بذكْرِها، خاصّةً وأنا ممّا مضَى - يشهَدُ اللهُ - متذمِّم، وإلى استئنافِ ما يُعفّي أثَرَه ويَأْسُو جُرحَه داعٍ، وتقدَّمتُ إلى أبي بكرٍ مُحمّد بن عليّ بن شاهُوَيْه بالعَوْدِ إلى رَسْمِه في توسُّط ما بيننا، وإجرائه على ما مضَت عليه سُنّتنا بإذنِ الله.

---

(١) تقدم ذكرهما في رسالةٍ سابقة، وهما: إسحاق وجعفر.

(٢) في الأصل: استهاجاهم.

فإنْ رأى سادَتي أنْ يتأمَّلوا ما كتبْتُ وكَتَب أبو الرَّيّان به، ويثِقوا منّي بالمحافظة على عهدِهم، والتمسُّك بإخائِهم، واعتقادِ ما هَذَّب الأحوالَ بيني وبينَهم، وإزال القَذَى عما يجمَعُني وإيّاهم، ويستأنِفوا ما يُوجبُه فَضْلهم من طيِّ الأسبابِ التي جَرَت، ورَدّ المَوَدّة إلى أفضلِ ما عُهِدت، فَعَلوا إنْ شاء الله.

وكَتَب عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد إلى الأمير فَخْر الدَّوْلة وفَلَك الأمّة [١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد شاهانْشاه فَخْر الدَّوْلة وفَلَك الأمّة - يومَ كذا، والسَّلامة للملكِ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة شاملة، وكفايةُ الله إيّاه على العادةِ جارية، وأنا سالمٌ بسَلامتِهما، مستظلٌّ بظِلِّهما، متصرِّفٌ على طاعتِهما، منتسِبٌ إلى وَلايتِهما، حامدٌ اللهَ جلّ وعزّ على ذلك كلِّه، مستديمٌ له من أحسَنِه وأجملِه. ومِثلي، من خَدَمِ مَوْلانا الأمير السَّيِّد أطال الله بقاءه - يُنازِعُ إلى التجمُّل بمُكاتبتِه، ويلتمسُ المداخلَ إلى شَرَف خِدمتِه، وكانت لي عن ذلك عوائقُ جَرَى بها المقدار، ثم أسْفَرَت - بتفضُّل الله - أحسَنَ الإسفار، وذكَرْتُ هذه الجُملة على وَجْه الاعتذار. ومَن كانت حالُه حالي في السّابقةِ والقِدْمة، والمُناصحة في الخِدمة، أوْشَكَ أنْ يَمْتارَ عليه من ظلِّ

---

(١) باريس.

(فلك الأمة) يأتي في بعض المصادر (ملك الأمة). خطأ، فقد التبس الأمر على بعض المؤرخين قديماً وحديثاً. قال ابن تغري بردي: «لقّبه الخليفة الطائع بملك الأمة أو بفلك الأمة». النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٩٧. لكن الروذراوري كان واضحاً في ذلك، قال: «وأضيف إلى لقبه الأول فلك الأمة». ذيل تجارب الأمم، ص١٢٥. وانظر: الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٣، ص٤١٠، ص٤٤٢. وقد جزم الصّاحب بن عباد في ذلك حينما وضع على دينارٍ سكّه في إحدى المناسبات أبيات شعرٍ فيها (دولة فلكية) إشارة إلى لقبه فلك الأمة. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٢٤

هذه الرسالة في الإبلاغ عن الانتصار على القرامطة سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وقد تقدّم التعليق على ذلك.

الدَّوْلة ما يُقيلُه العَثْرة، ويَفيضُ به إلى جميل العاقبة، واللهُ يُحسنُ تَوْفيقي لقضاءِ حقِّ الصَّنيعة التي أُرضِعتُ من ثَدْيها، وغَذِيتُ بثَمرِها، ونشأتُ فيها متدرِّجاً في مَراقيها، حتى وَلِيتُ أسنَى الأعمال، وبَلَغتُ أعلى المنازل، بمَنِّه وقُدْرته.

ولما تفَضَّل اللهُ تعالى بما تفَضَّل به من هزيمةِ القَرامِطة عن الكُوفة، واستظهارِ الرّاية المنصورةِ عليهم، وإثخانِ الأولياءِ فيهم، واشتمال القَتْل والأسرِ على كبيرِهم وجُمهورِهم، ونَفَذ كتابُ الملِك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة إلى مَوْلانا الأمير السَّيِّد فَخْر الدَّوْلة وفَلَك الأمّة - أطال الله بقاءهما - بالبُشرى بما أوْلى اللهُ تعالى فيهم، خَدَمتُ حَضْرتَه الجليلةَ بهذا الكتاب، ومُنْهِياً بجُملةِ تلك الحال، ومُهنِّئاً بها، ورافعاً يديّ بخالص الدّعاء فيها، ومُتْبِعاً لها بذكْرِ النِّعْمة التي خصَّتْني فيما فوَّضَه إليّ الملِكُ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة من وِزارتِه، ووَسَمَني به من مُظاهراتِه، وحمَّلنيهُ من أعباءِ خِدمتِه، وأنفَذ أمري فيه من تدبيرِ مملكتِه، وشرَّفني به من الخِلَع والحُمْلان، وضُروب المَنِّ والإحسان، وإلى الله الرّغبةُ في إنهاضي بما يُحِقُّ عليّ من الاعتدادِ والشُّكر، والثناءِ والنَّشر، والمقابلة لما أُوليتُه، ووُلِّيتُه بالنُّصْح ما انتَهتْ إليه طاقتي، وبَلَغتْه استطاعتي، ولي فيما تعرَّضتُ له من جوابِ هذا الكتاب جَمالٌ أرجو أنْ أُرَدَّى رداءَه، وأُطوَّقَ نعماءه.

فإنْ رأى مَوْلانا الأمير السَّيِّد شاهانْشاه فَخْر الدَّوْلة وفَلَكُ الأمّة أنْ يتطوَّلَ في ذلك بما جَرَتْ به عادتُه في تهنئةِ نِعَمِه، وتشريفِ خَدَمِه، وتكليفي عَوارض مُهمّاتِه، وتَصْريفي بين أمرِه ونَهْيِه، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد إلى الصّاحب الجليل أبي القاسم إسماعيل بن عَبّاد[١]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدنا الصّاحب - يومَ كذا، عن سَلامة المِلِك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة، وسَلامتي في ظلِّه - لا عَراني اللهُ من ذُراه - واستمرارِ أحوال الدَّوْلة على النِّظام، وإيذانها بالتمام والدّوام، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ولو تقَدَّم لي إلى سَيِّدنا الصّاحب كتابٌ خَدَمتُ فيه حضرتَه، واستَدْعَيْتُ بجوابِه تَكْرِمتَه، وأنا مُراعٍ لذلك مُراعاةَ المترقِّبِ لوُرودِه، الواثِق باقترانِه. ولو واظَبْتُ على مُواصلتي حسَبَ مُواظبةِ سِرّي على مُوالاتِه، لأكثَرْتُ من الكتُب وتابعتُها، ونظَمْتُ الطريقَ بيني وبينه بها، لكنّي أعتمدُ - بالمُؤاخاة بين أوقاتِها - التخفيفَ عنه، وتجنُّبَ التثقيل عليه، وإذا عَرَض - مع ذاك - ما تجبُ المطالعةُ به عُدتُ إلى سَنَن الخِدمة فيه.

وقد أجرَى اللهُ تعالى مَوْلانا المِلِكَ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة، فيمَن كان هَجَم على الكُوفة من القَرامِطة، على عادتِه الجميلة في كلِّ خارج عن الطّاعة، ومُفارِقٍ للجماعة، وانهزَموا عنها أقبحَ هزيمة، بعد أنْ وطِئَهُم الأولياءُ وَطْأةً أليمة، وقَتلوا منهم مَقْتلةً عظيمة. ولهذه الجُملة شَرْحٌ اشتملَ عليه الكتابُ الصّادرُ من الحَضْرة البَهيّة إليه، فللّه الحَمْد كثيراً والشُّكرُ دائماً، وهنَّأهُ اللهُ نعمتَه، ووَفّاه كرامتَه، وأقَرَّ بهذه الحال عينَه، ووَفَر من بَركتِها حظَّه.

---

(١) باريس، طهران.

هذه الرسالة في موضوع هزيمة القرامطة الذي تقدّم، وفيها يخبر أبو الريان الصّاحب بن عَبّاد بتولّيه وزارة صَمْصام الدَّوْلة.

وأُنْهي إليه - تَمَّمَ اللهُ تمكينَه - بعد ذلك ما خصَّني به المَلِكُ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة من شَرَف مُؤازرتِه، وأهَّلَني له من مِيسَم مُظاهرتِه، وأفاضَهُ عليّ من جليل خِلَعِه، وأنفَذ أمري فيه من أقاصي وأداني مملكتِه، وحمَّلني به من حُمْلانِ مركبٍ[1] ذَهبٍ انصَرَفْتُ عليه من حضرتِه، وجَنيبَتَيْن قِيدتا بين يديّ من خاصِّ مَراكبِه، ودَواةِ ذهَبٍ حُمِلت إليّ من خزائنِه.

وأنا أشكرُ اللهَ على هذه النِّعَم شُكرَ العارف بحقِّها، المعظِّم لقَدْرِها، المستعين به - جَلَّ ثناؤه - على مقابلتِها بما تستحقُّ من الإخلاصِ والنَّصيحة، والطّاعة الصَّحيحة، بجُودِه ومجدِه، وحَوْلِه وطَوْلِه، وما أعُدُّ نَفْسي - أدام الله تأييدَ سَيِّدنا الصّاحب - في المحلِّ الذي أوفَيْتُ عليه، والخَطَرِ الذي سَما بي إليه، إلّا خليفةً له أُورِدُ وأُصدِرُ عنه، وأعتزي وأنتمي إليه.

فإنْ رأى سَيِّدنا الصّاحب - أدام الله تأييدَه - أنْ يُحقِّقَ دعوايَ هذه بتَصريفي في أسبابِ خدمتِه، وتكليفي عَوارض أمرِه ونَهْيِه، وإمدادي برأيِه ومَشُورتِه، واعتمادي بإنهاضِه ومَعُونتِه، والتقدُّمَ بإجابتي بما أسكُنُ إليه من سُرورِه العامِّ بتلك البِشارة الكبرى، والخاصِّ بهذه الصُّغرى، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) في الأصلين: موكب.

وكَتَب عن نفسه
إلى الصّاحب بن عَبّاد
في أمر القَرامطة[(١)]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدنا - والسَّلامة لمولانا شاملة، والمواهبُ إليه مُتوافية، وعادةُ الله تعالى عنده مستمرّةٌ على المعهودِ من إظهار رايتِه على مَن نازَعَها، وإعلاءِ كلمتِه على مَن راجَعَها، وأنا محدِّثٌ بالنِّعْمة في ذلك، وفيما تَولّاني اللهُ تعالى به من[(٢)] تَضاعُف إقبالِه عليّ، وتَزايُد إحسانِه إليّ، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ولئن كنتُ[(٣)] قَبَضْتُ يدي إلى هذه الغاية عن مُكاتبة سَيِّدنا الصّاحب، فاللهُ يعلَمُ أنّ نيّتي في خدمتِه منبسِطة، ومُوالاتي بحُسن رأيِه مُرتبِطة، وما كنتُ في ذاك إلّا مخفِّفاً عنه، وموقِّراً حضرتَه، ومُجِلاً قَدْرَه، عن أنْ أُكاتبَه إلّا بما أكونُ فيه خادماً له، ومُنْهِياً إليه، أو مُورِداً مسَرّةً وبِشارةً عليه، من حيثُ لم أُخلَّ عمّا عَهِد من تحقُّقي وتعلُّقي بذِمامِه، وتمسُّكي بالأسبابِ التي أكَّدَها اللهُ - عزّ وجلّ - لي عنده، واختَصَّني بها من إيجابِه.

ولما تَجدَّد للملِك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة[(٤)] ما تَجدَّد من الاستظهارِ على أعدائه القَرامِطة، والدَّفْع لهم عمّا راموهُ من هذه الحوْزة المنصورة، واشتمالِ القَتْل

---

(١) باريس، ليدن. (العنوان فيهما: وكتب). والإضافات منّا للتوضيح.

وهي رسالةٌ إضافية - كما سيصرّح الصابي بعد قليل - إلى الصّاحب بن عَبّاد في الموضوع السابق ذاته، هزيمة القرامطة، ويخبره فيها بتقلّده ديوان الرسائل.

(٢) من: ل.

(٣) من: ل.

(٤) ل: لمولانا.

والأسْر على وُجوهِ أصحابهم، وأعيانِ ثِقاتِهم، وانصرافِهم خِفافَ الحقائبِ من الأماني والآمال، ثِقالَها من المخاوفِ والأوْجال، أضَفْتُ كتابي هذا إلى ما كوتبَ به سَيِّدنا الصّاحب من الحَضْرة الجليلة - زادَ اللهُ في بقائها، ولا أخلاها من كَبْتِ حُسّادِها وأعدائها - في شَرْح البُشْرى، واستيفائها لفظاً ومعنىً، مهنِّئاً له بهذا الفَتْح الكبير، والأثَر الخطير الذي حُمِيَتْ به الدَّوْلة ممّن أرادها، وحِيطت عمّن كادَها، ومُقفِّياً على إثْر ذلك ما أهَّلَني له، ورَفَعني إليه مَوْلانا المِلكُ[١] من تقَلُّد[٢] ديوانِ الرَّسائل بحضرتِه، ومُلازمة مجلسِه، وتَوْفيتِه إيّاي ضُروبَ الكرامات بالخِلَع التّامّة، والحُمْلانِ الرّائع بالمركَبِ الذّهَب، والجَنِيبة المقُودة بين يدَيّ، والدَّواة الموضوعة بحضرةِ الدَّسْت المرسوم لي، وأسألُ اللهَ أنْ يوفِّقَني لشُكر هذه النِّعَم، ويُنهضَني بما قضَى حقَّها، وأدّى فَرْضَها، واقتضَى ثباتَها والمزيدَ فيها، بمَنِّه.

والآنَ، فأنا خليفةُ سَيِّدنا الصّاحب[٣] بهذه الحَضْرة البَهيّة، وأكرِمْ بها من خلافةٍ جليلةٍ سَنيّة. وقد خَطَبْتُ بكتابي هذا خِدمتَه فيما كثُرَ وقَلّ، ورغبتُ إليه في اعتمادي منها بما دَقَّ وجَلّ، فإنه يجدُ عندي ما يجدُ[٤] عند العبدِ المُخلِص، والوليِّ المتخصِّص، مُناصحةً له، وامتثالاً لأمرِه، وافتخاراً بذكْرِه، ووقوفاً عند حَدِّهِ ورَسْمِه.

فإنْ رأى سَيِّدنا الصّاحب[٥] أنْ يَأمُرَ بإجابتي عن هذا الكتاب بما أستزيدُ به من الشَّرفِ والجمال، وأصُولُ به على الأقرانِ والأشكال، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ساقطة في ل.

(٢) ل: تقليد.

(٣) ساقطة في ل.

(٤) ل: يوجد.

(٥) ساقطة في ل.

وكَتَب عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد إلى الأمير سَعْد الدَّوْلة ابنِ سَيْف الدَّوْلة(١)

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير سَعْد الدَّوْلة - والسَّلامة لمولانا الملِك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة شاملة، والمنائحُ لدَيْه نامية، والفُتوحُ إليه مُتوافية، وعادةُ الله - جلّ اسمُه - في ذلك مستمرّةٌ جارية، وآثارُ صُنعِه له لائحةٌ في استظهارِ رايتِه على مَن نازَعَها، واستعلاءِ كلمتِه على مَن راجَعَها، وتطاوُلِ يدِه على مَن رافَعَها، وأنا محدِّثٌ بالنِّعْمة في ذلك، وفيما تَولّاني اللهُ به في نَفْسي من استقامةِ الأمور، وانتظام الشّؤون، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وللمُواصَلةِ - أدام الله تأييدَ سَيِّدي الأمير - سبيلان، إحداهما: المكاتَبة ظاهراً، والأخرى: المُخالصةُ باطناً، فلئنْ عاقَني عن الأُولى عائقُ الاعتقال، ثم شاغلُ الاستعمال، فلم يُعِقني عن الثّانية حالٌ من الأحوال، ولا أحلَلْتُ بها في سرٍّ ولا إعلان، ولم أزَلْ أُريغُ الأسباب لابتدائه بالكتاب، حتى قَضَى اللهُ تعالى أنْ يكون بالتهنئة وإهداء البُشرى إليه، بما أجرَى اللهُ تعالى مَوْلانا المِلكُ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة على أجملِ العادة فيه من تحكيم أسيافِ أوليائه، في أكتافِ أعدائه، وانهزام مَن كان صار إلى الكوفة من جيش القَرامِطة على الحال التي اجتَهَد واجتهدتُ في انصرافِهم على خلافِها، وأبَثُّ لهم دأل أضاليلِ الهوى، وأباطيلِ المنى، وأحاديثِ النُّفوس الكواذب، ووَساوسِ الآمالِ الخوائب، ممّا تفصيلُ جُملتِه ثابتٌ في الكتابِ إليه من الحَضْرة الجليلة - أدام الله سُلْطانها

---

(١) باريس.

هذه الرسالة في موضوع الانتصار على القرامطة ذاته.

- فالحمدُ لله الذي جعَل هذا الفِناءَ المعمور، والجَناب المَرْجوَّ المحذور، حامياً لمن احتَمَى به، ومَحْمِيّاً ممّن كارَهَ وأضمَرَ السُّوء له، وهنّأ سَيِّدي هذه النِّعْمة التي تعلَّى[1] فيها قَدَحُهُ، وتوفَّر منها سَهْمُه، وعادت عليه بحُسن المزيد في العزِّ والعلاء، والبهجة والبهاء، بمَنِّه وقُدْرته.

وأنا بعد ذلك مستدرِكٌ ما كان غيري سببَه من تطاوُل أصحابِه بالحضرة، ومتوصِّلٌ إلى سُرعةِ انكفائهم بالمحبّة، ولا سِيَّما إذا أوجَدَني سَيِّدي الأمير السَّبيل إلى ذلك ممّا يَظهَرُ منه، ويَتأدَّى عنه، من مَقامِه على العهد، وتمسُّكِه بالعَقْد، وإجرائه الأمورَ المَنُوطةَ به على استقامتِها، والمعهودِ من سَنَنِها ورَسْمِها، وإن احتاج أنْ يستمدَّ من عساكر الحَضْرة المنصورة مَن يَستعينُ به على ذلك، ويَستدفعُ به المعارضينَ له فَعَل، فإنّه يجدُ عندي إجابةَ الدّعوتة وإزاحةَ العِلّة. فإنْ رأى سَيِّدي الأمير سَعْد الدَّوْلة أنْ يُقابِلَ تلك البُشْرى بالاغتباطِ بها، والإشادةِ بذكرِها، وإنْ كان لها بحَمْد الله من ذاتِها شاهر، ومن تضَوُّع الثناءِ بها ناشر، والثِّقةُ منّي بها بذَلتُه من نَفْسي، ودَلَلْتُ عليه من مُخالصتي ومَعُونتي فيما انطوَى عليه بإيجادي السَّبيل إليه، وتصريفي بين أمرِه ونَهْيِه - أعلاهما اللهُ - وتعريفي أخبارَه وأحوالَه أطابَهما الله، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) في الأصل: تعلّ.

وكَتَب عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد إلى الأمير شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبي الفَوارس شيرزيل ابن عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة أبي شُجاع بن رُكْن الدَّوْلة أبي عليٍّ(١)

كتابي، وإذا احتاجَ - أطال الله بقاء مَوْلانا - أحَدٌ من خَدمِ الدَّوْلة الميمونة إلى دَلالةٍ على خالِصِ وَلائه، أو إبانَةٍ عن صادِقِ وَفائه، فإنّي أسْتغْني عن ذلك بما سَلَف لي من الحُرْمة، وسَبَق لي من الخدْمة؛ إذ كُنْتُ صنيعةَ الملك السَّعيد الماضي - نَضّر الله وَجْهه، وأحْسن مُنقلبه - الذي نَشَأ على طاعته، وارتضع لِبان مُشايعتِهِ، ولم يَعْرف خَيْراً إلّا مِنه، ولا اكتسب ذِكْراً إلّا به. وبحَسَب ما وَصَل إليَّ من نِعمه، وشملني من أياديه ومِنَنِه، وُجوبُ ما يجبُ عليّ من مُوالاة مَوالينا الأمراء السّادة - أطال الله بقاءهم - والتَّسْوية بينهم في النُّصْح لهم، ووقْفِ النّفس على طاعتهم، وصَرْف الهمّة إلى ما أصلح بينهم، ونَظْم شملهم(٢)، وحفظ الأُلفة عليهم، وذاد(٣) الفرقة والتّنافس عنهم، وأعادهم إلى أحْسن ما مَضَى عليه مَوالينا وأسْلافُهُم - رُضْوانُ الله عنهم - في اتِّفاقِ الكلمات، واتّحادِ النِّيّات، وتَداولِ النِّعَم، وتفاوضِ القِسَم، والإقْران للأعداء، والاشتراك في الأوْلياء؛

---

(١) باريس، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي، سيلي أوك. (شرف الدَّوْلة وزين المِلّة) من: ب فقط.

هذه الرسالة في محاولة الصلح بين الأميرين صَمْصام الدَّوْلة وشَرَف الدَّوْلة ابني عَضُد الدَّوْلة سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م. انظر تفصيلات ذلك عند: الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤١٠.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ر: زاد (مجوّدة).

فإنّ هذه الخلال أدبُ الله لعباده المؤمنين، إذ نهاهم عن الاختلافِ والافتراقِ، وأمَرهم بالائتلافِ والاتِّفاقِ، وندبهم إلى الاصطلاح والإصلاح. وإذا كان ذلك مأخوذاً على جَماعاتهم مع ما هم عليه من تبايُن الأجْيال، وتباعُدِ الأنْساب، وافتتان الأحْوال، وتنازُح الأوْطان، فأخلقُ به أنْ يكون للإخوة ألْزم، وعليهم أحقّ، ولا سِيَّما إذا جَعَلهم اللهُ ساسةً لعبادِهِ، ووُلاةً لبلادِهِ[١]، والقُدْوة في مَحاسن الأفعال، ومكارم الأخلاق، وكانوا في[٢] دَهْماء[٣] هذه الأمّة بمنزلةِ المصابيح التي يُهْتدى بها، والأعلام التي يُشارُ إليها، وهذا معنى إنْ أطْلقتُ فيه عِنانَ القَوْلِ فلإيثاري الخيرَ والصَّلاحَ[٤]، وإنّ تثنيته[٥] دونَ غايته، فلاستغناء مَوْلانا - أطال الله بقاءه[٦] - عن الإفْصاحِ والإيضاح بما مَنَحه اللهُ من الفَضائلِ المأْثورة، والمناقبِ المشْهورة، والخلائق السَّجيحة، والآراء الصَّحيحة، وأيّ السَّبيلين سَلَكْتُها من إقلالٍ وإكْثارٍ، وانبساطٍ وانقباضٍ، فمعلومٌ أنّني فيها على السَّنن القَويمِ، والمذْهب السَّليمِ، والإرادة للأمْر المحمودِ الذي لا يكرهه[٧] مِثْلُهُ، ولا يأْباهُ فَضْلهُ.

وقد عَرَف مَوْلانا - أطال الله بقاءه - أنّني كُنْتُ مُذ ساعة ارتفع الملك السَّعيد إلى

---

(١) ب: البلاد.

(٢) من هنا إلى نهاية الرسالة في س مكرر في رسالة أخرى بعنوان: «نسخة الجواب من الحاجب أبي علي» حذفناه هناك، وأثبتناه هنا، وفقاً لما جاء في الأصول الخطية الأخرى.

(٣) من هنا إلى نهاية الرسالة من: ب، ف، ر، ع. وبعضها في س لكنه مضطرب أشد الاضطراب فيها.

(٤) ب: الإصلاح.

(٥) ر: بينته.

(٦) بعدها في ف:، س، ر، ع: فيه.

(٧) س: يلزمه.

جِوار ربِّه، وانتقل إلى قَرار نَعيمِهِ، محبوساً مَعُوقاً، لا قُدرةَ لي على صَلاحٍ، ولا جُناح عليَّ في فسادٍ، وأنّ مَن لا خير فيه، ولا حِنكة له، ولا معرفة عنده[١] ولا تَجْرِبةَ معه، غَلَب على الأُمورِ، واسْتولى على التَّدْبير، وأجْرى في سائر ما قال وفَعَل، وأوْرَدَ وأصْدر إلى ما مالَ به إليه[٢] هواهُ، وإنْ ساءت وقبحت عُقْباهُ، حتى أوحش[٣] واستوحش، وأفسَد واستفسد، وبَلَغَ بالأمْر بين مَوالينا إلى ما هو عليه الآن من التَّباين الذي نَهى اللهُ - عزّ وجلّ - عنْهُ، وحذَّر أولياءَهُ مِنْهُ.

وقد توكّدت عهودُ الأسْلاف - رحمةُ الله علَيْهم[٤] - في أعْناقِ الأخْلافِ - أطال الله بقاءهم - بالاجتناب له، والقَصْد لخلافِه. فلمّا كَشَف اللهُ عنِّي الغُمّة، وأعادَني إلى الالتحافِ بأوْراقِ هذه النِّعْمة؛ وجدتُ أولى ما قابلتها به[٥]، وأفْضَل ما قضيت حقّها فيه الخَوْض في لَمِّ ما شعثته[٦] الطّوائفُ المُفْسِدةُ، والاجتهاد في ردِّ مَوالينا - أعزَّ اللهُ نَصْرَهم، وأعْلى شَأْنهم - إلى اعتقادِهم الثِّقَةِ والمقة، وتأكيدِ الأنس والمَوَدّة، ورَفْع المشاحةِ والمنافسة[٧]، وتَجْديد المعاهدةِ والمعاقدة[٨]، وإعادة رَسْم المكاتَبة والمواصَلة، لِيُعِزَّ اللهُ بذلك أولياءَهُم، ويُذِلَّ أعْداءَهُم، ويَكْمِدَ حُسّادَهم، ويَقمع أضدادَهم،

---

(١) سقطت الهاء في هذا الموضع في س.

(٢) من ب.

(٣) من ب.

(٤) س: وعليه.

(٥) ساقطة في ب.

(٦) ب: تشعثه.

(٧) ب: المناقشة.

(٨) ف: المقاقدة.

ويُسقط سُوقَ المتسوِّقين بينهم، والموغرين لصُدُودِهم، والمتوصِّلين إلى غِشِّهم، من طريقِ النُّصْحِ لهم، والدّاخلينَ على إفْساد دُخلتِهم، من أبوابِ التَّمْويه عليهم، فإنّ هذه الطَّبَقَةَ من النّاس ترى أنّ صلاحَها في الفَسادِ، ونظامَ أمْرِها في الانتشار، وهي حقيقةٌ بأنْ تُكْرَه[1] وتُؤبى، وتُبعد وتُتّقى[2].

وكنتُ أنْهيتُ مُخاطبةَ مَوْلاي صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة – أطال الله بقاءه – في ذلك لا باليَسيرِ من الإشارة[3]، والخفيف من العبارة[4]، من أجْلِ حَسيكةٍ[5] في النّفس حَصَلَتْ، وعزيمةٍ على ما تُوجِبُه اعتقدتْ، فتشاغلتُ منذ نظرتُ بتعفية ذلك الأثَر، وصَرْفِ الرَّأْي عمّا يُكرَهُ ويُحذر، ثم تدرَّجَتُ من هذه المنزلة إلى المشورةِ بما يُحْسِنُ ويُجْمِلُ، والبَعْثِ على ما يُسْتحَبُّ ويُؤْثَرُ. فلمّا تردَّدَ ذلك وتكرّرَ، وعَلِمْتُ أنْ قد بين وأثّر، وأيْقَنْتُ أنّ حالي عند مَوْلانا الملكِ[6] مُخالفةٌ لحالِ مَن كان قَبْلي، ومَساعيّ المتقدِّمةِ في خِدْمته موجبةٌ للاسْتِصْلاح[7] لي، والقَبُولِ منّي، وبراءتي عنده من كلِّ ذَنْبٍ وجَريرَةٍ مقتضية[8] لتحْكيم سِفارتي، وتَوْجيه وَساطتي، كتبتُ هذا الكتابَ داعياً له – أيّده الله – من السِّلْمِ والصُّلْح إلى ما هو أوْلى به، ومستأذنا له في تقريرٍ أواخيه وأسبابه؛ لينفذ فيه

---

(١) ساقطة في ب.

(٢) ف، ر، ع: تنفى.

(٣) ف: الإشادة.

(٤) ف: العبادة.

(٥) الحسيكة: الحقد. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٤١١ (حسك).

(٦) ساقطة في ب.

(٧) ب: الاستنصاح.

(٨) ب: مقتصة.

من كُلِّ حَضْرةٍ إلى صاحبتها مَن يقع[١] الاختيار عليه من أهْل الدِّين والأمانةِ، المتنـزِّهينَ عن الغشِّ والخيانةِ، ليتولّوا[٢] أخذ العُهودِ المُسْتحكمةِ، والأيمان المغلَّظـةِ[٣]، والوثـائق التي تَسْكنُ النُّفوس إليها، وتَطْمئنُّ القلوب عليها، وتكسد بها أسْواقُ مستأكلة الجُنْـد الذين يتحكَّمون في الأمْوال، ويتنقّلون بين الأعْمال[٤]، فلا يجدُ واحدٌ منهم عن لزوم شَأْنه مذهباً، ولا إلى مفارقةِ مَرْكزِهِ ومقرِّهِ مهرباً.

وإذا تمَّمَ اللهُ ذلك فحينئذٍ تنزلُ الرحمةُ، وتَشْمُلُ البركةُ، وتُثْمرُ الأمْوال، وتتأثّل الأحْوالُ، وتُؤْمَنُ البَوائقُ، وتُحْسَنُ العَواقبُ، ويلتئم الشِّعْبُ، ويتَّصِلُ الحبْلُ، وتَقْذَى عُيونُ الأعْداءِ، وتُخيَّبُ ظنونُ ذوي الشَّحْناءِ، فلا يَنْصِبونَ رايةً إلّا نُكِسَتْ، ولا يعملون مكيدَةً إلّا عُكِسَتْ، ولا يَطْمحُ منهم طامحٌ بطَرْفِهِ، ولا يَشْمَخُ شامخٌ بأنْفِهِ، إلّا كانت الأيدي مُتَّفِقةً على إرغامه ووَقْمه، وإذلاله وكَبْته.

وأنا أسْألُ مَوْلانا أنْ يتأمَّلَ ما كتبتُ به بعينِ معرفتِه وفَضْلِهِ، ويُعمل فيه صحيح تمييزه ونَقْدِهِ، ويُنزله، ومنّي منزلة النَّصيحة التي أسوّي فيها بين الحَضْرتين، وأعمّ[٥] بها كلتا الجهتين. فإنْ آثَر – أدام الله تأييدَه – مُشاورة أحَدٍ من النّاس فيه؛ فليكُنْ من الطبقة التي تجري مَجْراي، وتغزو مَغْزاي في طَلَبِ الصَّلاحِ، وإيثار الصَّوابِ، دون أنْ[٦] يَرى وقوعَ الصُّلْحِ نقيض تبسّطِه، ويرفعَ تحكُّمَهُ، فإنّ مَن هذه صِفَته لا يُشاوَر في مِثْلِ ما

(١) ر: نفع.

(٢) ف: تولوا. س، ر، ع: فيتولوا.

(٣) س: الغلظة.

(٤) ف: الأموال (مكررة).

(٥) ب: أعمر.

(٦) ف، ر، س: من.

كتبتُ به، ولا يؤنس منه رشد فيه. فإنْ رأى مَوْلاي أنْ يتطوَّلَ في ذلك بما هو أهْلُه، ويتقدَّمَ بإجابتي بما أعْملُ في تَتْميم الأمْر بحسَبِه، ويَسْتَأْنفُ بي في الاخْتِصاصِ والاسْتِخْلاص، والاسْتِخْدام ورفع الاحْتشام، حالاً تشاكل حالي التي نَشَأتُ عليها، وشختُ فيها من مُوالاة هذه الشَّجرة الكريمة، والأُسْرَة الشريفة، والأخْذِ بأوْثَقِ شُعبها[1]، وأقْوى أسبابها، [فَعَل][2] إنْ شاء الله.

---

(١) س: سعيها.

(٢) إضافة مقتضاة.

وكَتَب عن صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة إلى فَخْر الدَّوْلة في سنة ستٍّ وسبعينَ وثلاثمائة[1]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد شاهَنْشاه فَخْر الدَّوْلة وفَلَك[2] الأمّة - يومَ الخميس لستٍّ ليالٍ خَلَوْنَ من جُمادى الآخِرة، عن سَلامةٍ مستمرّة من سَلامتِه، وكفايةٍ مستمَدّة من كفايةِ الله إيّاه، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ووَصَل كتابُ مَوْلانا الأمير - أعزَّ اللهُ نَصْرَه - من المتصيَّد بجَناشْك[3] مؤرَّخاً بيوم الإثنين رابع جُمادى الأُولى بجُملةٍ من التفصيل؛ فهِمتُها وقابلتُها بالإعظام لها.

وعَرَض عليّ أبو العلاء الحسن بن مُحمّد ما كوتبَ به من تفصيلِها، فوجَدتُ الشُّكرَ عليه زائداً على قَدْر طاقتي، ومتجاوزاً حدَّ استطاعتي؛ لأنّه ملأ صَدْري ارتياحاً وانشراحاً، وأوسَعَهُ أملاً انطلاقاً وانفساحاً، ووافَق منّي يقيناً تحقّقتُه لا ظنّاً رَجَمْتُه، في إشْبالِه عليّ، وإحسانِه إليّ، ونُصرتِه لي، ودَفْعِه عن حريمي. وقد عَلِم اللهُ - وكفَى بِه - أنّني مُجْرٍ له فيما أستظِلُّ به من كنَفِه، وألتزِمُه في طاعتِه مَجْرى المِلك السَّعيد عَضُد الدَّوْلة

---

(١) باريس، طهران.

هذه الرسالة من صَمْصام الدَّوْلة إلى عمّه فَخْر الدَّوْلة خلال الصِّراع الدائر بين أمراء البيت البويهي. انظر تفصيلات أكثر عند: الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص١٥٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤١٤.

(٢) في الأصل: ملك.

(٣) في الأصل بدون نقط. قال عنها ياقوت: من قلاع جُرْجان واستراباذ، مشهورةٌ معروفة بالحصانة والعظمة. معجم البلدان، ج٢، ص١٦٧.

وتاج المِلّة - بَرَّد اللهُ صفحَه ونوَّرَ ضَريحه - ومقيمٌ نَفْسي له مقامَ العبدِ اللّائذ الخاضِع، والوَلَد السّامع الطّائع.

وما شككْتُ منذ أوّلِ الأمر الذي تردَّدَتِ المُكاتَباتُ فيه أنّ الرأيَ ما أرشَدَ إليه، والصَّوابَ ما أمَرَ به ونَصَّ عليه، لكنّي بدأتُ بالحُسنى، وشَرَعتُ في الأصلح والأوْلى، وأعطَيْتُ من نَفْسي بادئاً ما يُعطيه الرّاغبُ في الاتفاق، الزّاهدُ في الشِّقاق، والعالمُ بأنّ الدُّولَ تطمئنُّ على التوادُع، وتَنزعجُ مع التنازُع، وإذ قد بلَغْتُ في ذلك إلى أقصى غاياتِ المعذرة، وأخَذْتُ بأوثقِ عُرى الحُجّة، فإنّني راجعٌ إلى رأي مَوْلانا الأمير وأمرِه، وواقفٌ عند حدِّه ورَسْمِه، وبالله أستعينُ وأعتضد، وعليه أتوكَّلُ وأعتمد.

وقد فاوَضْتُ أبا العلاء في جَواب الفُصول التي عَرَضها ما هو - بإذْن الله - يَكتُبُ به مشروحاً، ويُلخِّصُه موضَّحاً، ووقَفْتُ على الكتابِ إلى أبي النَّجم بَدْر بن حَسْنُوَيْه، وأنفَذْتُه وكاتَبْتُه بأنْ يَدنُوَ منّي ليَقرُبَ استدعاؤهُ عليّ. وأقولُ مع هذا، أدام الله سُلْطان مَوْلانا: إنّ وصولَ المَدد إليه يَبعُدُ مداه، وتتأخَّر جَدْواه. وأنفَعُ منه أنْ يَبتدىء - بإمدادِ الجهة التي يَذكُرُها أبو العلاء في كتابِه - بطائفةٍ من الجيش تُجرَّدُ من الذي يُشيعُ خبَرَها، ويتعجَّلُ الفائدةَ بانتشارِ ذكْرِها، وتُكاتبُ هذه الجهةُ بتقديم إخراج المضارب إلى ظاهر البلد الذي هو فيه، وإنْ كان بالجَبَل طائفةٌ من قُوّاد الدَّيْلَم وغيرِهم ممّن يُستَصوبُ إنْفاذهم إليّ كوتِبوا بالمِيَر والإغذاذ نَحْوي.

فإنْ رأى مَوْلانا الأمير السَّيِّد أنْ يُتمِّمَ نِعمَه عليّ، ويزيدَ في مِننِه لديّ، بتقديم ما سألتُ بغاية المُمكن فيه، ثم إتْباعِه بغيرِه ممّا يُدبِّرُني به ويَرتئيه، والثِّقةِ منّي بأنّ رِقِّي له، وما أتقلَّبُ فيه من نعمةٍ هبةٌ منه، وأنّني وما في يدي من بلادٍ ومملكةٍ وحالٍ معتقَدة مِلكُ يَمينِه، وطَوْعُ أمرِه ونَهْيِه، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى الصّاحب الجليل كافي الكُفاة أبي القاسم إسماعيل بن عبّاد[١]

كتابُنا، وأحوالُنا جاريةٌ على استقامةٍ ونظامٍ نَسألُ اللهَ أنْ يُفضيَ بهما إلى الاتّصالِ والدّوام، وهو المحمودُ على ما طَوَّقَنا من مِنَنِه، وظاهَرَ علينا من نِعمِه.

ووَصَل كتابُه الصّادر عن المتصيَّد بجَناشْك[٢]، مؤرَّخاً بيوم الإثنين رابع جُمادى[٣] الأُولى. وفهِمناهُ، واستَبْشَرْنا بما دَلّ عليه من سلامتِه، واستمدَدْنا[٤] اللهَ أحسنَ ما أوْلاه من كفايتِه. وعَرَض أبو العلاء ما كاتَبه به، ولَطُفَ منّا موقعُ ما أفاضَ فيه، ودَلَّ عليه من إخلاصِه لنا، وتحقُّقِه بأمورِنا، واعتناقِه شؤونَنا، ونيابتِه بحضرةِ مَوْلانا الأمير عنّا، وما عدا في ذلك عادتَه الجميلةَ عندنا، ورأيَه الرَّشيدَ في الحماية لمملكتِنا، والحِراسة لأرجاءِ دولتِنا، التي هو الشَّريكُ فيها، والفائزُ بأوفرِ حظٍّ منها. واللهُ العالمُ أنّنا نُجريه مع بُعد دارِه مجرى الحاضِر المقترِب، والحاضِن الحَدِب، لا أعدَمَنا اللهُ ولا أخْلانا منهُ، وأنهَضَنا بما نعتقدُه ونوجبُه له.

وقد كتَبْنا إلى مَوْلانا الأمير بما هذا الكتابُ له تابعٌ، ومعه واصِل، وضمَّنّاهُ اقتراحاً

---

(١) باريس.

هذه الرسالة في موضوع الرسالة السابقة ذاته.

(٢) في الأصل: المتصد بحناسك.

(٣) كتبها النّاسخ كذا: جميدي.

(٤) رسم هذه الكلمة في الأصل هكذا: واستمدنا.

عليه - أطال الله بقاءه - في عُجالةٍ من مَعُونتِه، وطليعةٍ من مَعُونته[1]، الكتابُ بها مُفصِحٌ، ولها مُوضحٌ، وجارَيْنا أبا العلاء من تفصيل الجُملة ما هو يَجري في استيفائه على محمودِ العادة.

فإنْ رأى أنْ يأتيَ في الجميع ما يُتمِّمُ به أسلافَه لدينا، وسوابقَه في إيجابِ الحقّ علينا، فَعَل إنْ شاء الله.

(١) معونته الأولى من المعاونة والمساعدة، والثانية تعني رجال المعاون، وهم طائفة من العسكر والشرطة.

وكَتَب عن بعض الرؤساء
إلى الملك عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة
يهنّئه بفَتْح مَيّافارِقِين
في جُمادى الأولى سنة ثمانٍ وستّين وثلاثمائة[1]

كتابي – أطال الله بقاء مَوْلانا الملكِ السَّيِّد الأجلِّ المنصور وَليِّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، سيلي أوك.

لما انهزم أبو تغلب بن حمدان وقتل بَخْتِيار، سار عَضُد الدَّوْلة إلى الموصل فملكها وبث السرايا في طلب أبي تغلب، فأرسل هذا يعرض عليه أن يضمن منه البلاد، فلم يجبه عَضُد الدَّوْلة، وكان مع أبي تغلب المَرْزُبان بن بَخْتِيار وأبو إسحاق وأبو طاهر ابنا مُعِز الدَّوْلة ووالدتهما وهي أم بَخْتِيار وخدمهم، فسار إلى نصيبين فسير إليه عَضُد الدَّوْلة سرية استعمل عليها أبا الوفاء طاهر بن مُحمّد، فسار أبو تغلب إلى ميافارقين، فطارده أبو الوفاء فسار نحو بَدْليس ثم عاد إلى ديار الجزيرة، واستصحب أمواله وتفقد قلاعه، فسار إليه عَضُد الدَّوْلة بنفسه، فلم يظفر به، وسار أبو تغلب إلى بدليس، فتبعه طغان صاحب عَضُد الدَّوْلة، ففر إلى الروم، فأدركَهُ عسكر عَضُد الدَّوْلة فهزمهم، ثم عاد إلى بلاد الإسلام وأقام بآمد إلى أن فتحت ميافارقين، وذلك أن أبا الوفاء حاصرها ثلاثة أشهر، فامتنعت عليه لحصانتها، وكان واليها هزارمود، فمات فكتب إلى أبي تغلب بخبر وفاته، فأمر أن يقام مقامه غلام من الحمدانية اسمه مؤنس، فأخذ أبو الوفاء يراسل أعيان البلدة في التسليم، واستمال إليه منهم أحمد بن عبيدالله، وأرسل إلى مؤنس يطلب منه المفاتيح، فأرسلها إليه وطلب منه الأمان على يد أحمد بن عبد الله، فأمنهُ واستولى على ميّافارقين، وكان أثناء حصاره إياها قد افتتح جميع الحصون التي تجاورها، فلما سمع أبو تغلب بذلك بمكانه من آمد، سار إلى الرَّحْبَة، وأمر بعض أهله، وأصحابه بالاستئمان إلى أبي الوفاء، ففعلوا، ثم سار أبو الوفاء إلى آمد، فحصرها فلم يلبث أهلها أن اقتفوا أثر أهل ميافارقين، فسلموها بالأمان، وتمهدت لأبي الوفاء جميع ديار بكر، وعاد إلى

وتاج المِلّة – والأمورُ التي يُراعيها مُستمرةٌ على أفضلِ ما أوْلى من سَدادها والتآمها، وأحْسنِ ما عوَّد من اطّرادها وانتِظامِها، بظلِّه الماتِع[1] المُمتدِّ عَلَيْها، وتَدْبيره الصّائبِ المجلّل لها. ونيابةُ الأُستاذ – أدام الله عِزّه – ونُصْحهُ، واجتهادُه وكدحُه، وتأتّيه[2] لكلّ ما أقام من الدَّوْلة عموداً، ورَفَع لها مَناراً، وَرَد إليها رَشيداً، ونَفَى عنها غاوياً، بذلك غَرامَهُ ولهجه، وإليه مسلكُهُ ومنهجُهُ، لا يَجِدُ راحةً إلّا في التَّعب به، ولا يُحسّ[3] خَفْضاً إلّا في النَّصَب له، والخدمُ على اختلافِ[4] منازلهم، وترتيب[5] طبقاتهم، ذاهبونَ في الاستقامةِ على أثرِه، ومتخلّقون[6] في التّهذُّبِ بخلقه، إمّا تقرّباً ورغبةً، وإمّا هيبةً ورَهْبةً.

والحمدُ لله ربِّ العالمين حمداً يقتضي لمَوْلانا الملك شاهانْشاه[7] السَّيِّد الأجلِّ وليّ النِّعَم – أطال الله بقاءه – شُمول[8] هذه النِّعَم في كلِّ أصْلٍ وفَرْعٍ، وتابعٍ ومَتْبوعٍ، ودانٍ

الموصل، وأرسل أبو تغلب رسولاً إلى عَضُد الدَّوْلة يستعطفه ويلتمس الصفح عنه، فأحسن عَضُد الدَّوْلة الجواب، وبذل له إقطاعاً يرضيه على أنْ يطأ بساطه، فلم يجبه أبو تغلب، وتحول إلى الشام إلى العزيز صاحب مصر. تفصيلات أكثر عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٣٢ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٦٣ وما بعدها.

(١) ف: المانع.

(٢) ر: تأنيه.

(٣) ر، س: يحسن.

(٤) س: الاختلاف.

(٥) س: ترتب.

(٦) ر، س: متخلفون.

(٧) س: شاهنشاه.

(٨) س: وشمول.

وقاصٍ[(١)]، وعامٍّ وخاصٍّ.

وكان جوابُ مَوْلانا – أطال الله بقاءه – وَصَل إليّ مستودعاً من إنعامِهِ ما شَرَّفني وعَظَّمني، وشَرَح صَدْري وأنْهَض مُنْيَتي؛ فَلَبِسْتُ من جمالِهِ لباساً جديداً، وارْتَديتُ من عزِّهِ رداءً قشيباً. وشفع وُصولَه وُرودُ الكتب المُبْهجة، مشتملةً على البُشْرى المنتظرة بفتح مَيّافارِقِين، وظَفَر الأولياءِ بها منصورين، بعد إعْطاءِ المتحصِّنينَ - كانوا - فيها يَد طاعةٍ لم يكنْ لهم عنها مُعدّلٌ، ولا على غيرها مُعوّلٌ، واستيلاءُ يدِه الطُّولى، وكلمتِه العُلْيا على تلك الطَّوائفِ التي دَعَتْها ذُنوبُها إلى الاعتصام، ورَدّها قهرُه إيّاها إلى الاستسلام؛ فَنَزلتْ على حُكْمِهِ طائِعةً بظاهرِ انقيادِها، صاغرةً بباطن اعتياصها، صائرةً إلى إمرتِه وترتيبِهِ[(٢)]، حاصلةً تحت نَقْدِهِ وتمييزِه، مستوفيةً ما قَسَّمه[(٣)] لها قولُه الفَصْل، وقضاؤُهُ العَدْل، من إحسانٍ إلى البَرِّ التّقيّ، وتنكيلٍ بالفاجر الغَويّ، وصَفَح عن الفِرقَةِ الوسطى بين الفرقتين، التي لم تَعْظُمْ جَرائرُها أنْ تُغْتفَر، ولا جلّتْ هفواتُها أنْ تُتغمَّد[(٤)]، فتلقّيتُ هذه الموهبةَ بما تلقّيتُ به ما أمامَها، وما أتلقّى به ما وراءَها؛ من شُكْر الله، الحافِظِ لها، الموجبِ لثباتِها، المستزيد[(٥)] من أمثالها، المستمدِّ لأشْكالِها، وأخلصتُ كما يُخلصُ العبدُ الضّاربُ بمعلّى[(٦)] قِدْحِهِ، الفائزُ هو بأوفر قِسْطه[(٧)] في الدّعاء له بأنْ يزيدَ اللهُ كَعْبَهُ عُلوّاً، وسُلطانَهُ سُموّاً، وبقاءَهُ طولاً، وعزَّهُ شمولاً، وأنْ

(١) ف: وقاض وعامل.

(٢) ف، ر: أمره ونهيه.

(٣) س: قسم.

(٤) ف: تتعمد.

(٥) س: المتزيد.

(٦) س: بمعتلي.

(٧) ر: بوافر، س: هو قسط أوفر.

يجعل[١] عادته – جلّ اسمُه – الجميلةَ، قاطنةً عنده راهنة[٢]، وظاهرةً لديه باطنة، في إرغامِ[٣] كلِّ أنفٍ احتمى دُونَه، وإقذاءِ كلِّ طَرْفٍ صَدَف عنه، من آبٍ متقاعس، وذاهبٍ بنفسِهِ متشاوسٍ[٤]، فلا يجدُ واحدٌ[٥] منهم معقلاً مانعاً إلّا حماهُ، ولا شَمْلاً جامعاً إلّا ذراه، ولا معاجاً على طُمأْنينةٍ[٦] إلّا في كَنافَتِه، ولا ارتياعاً على سُكونٍ إلّا بموادعتِه، واللهُ سامعٌ ذلك، وفاعلُه بمنِّهِ وقُدْرته.

ولو جاز – أدام الله تأييد مَوْلانا – أنْ تُقدّم التَّهْنئةُ قبل وقتها، و[٧]أنْ يُسبقَ بها حلول موجبها، لبادرتُ بها عن هذا الفَتْح منذ عَلِق تدبيرُه به، ولقدّمتُها سَلَفاً عن أمثالٍ لا بدَّ أنْ تتلوه، ثقةً بأنّ الله زائدٌ له في عطائه، ومُعْلٍ له[٨] على أعدائه، ومفوّضٌ إليه بَقيّة الأرض، ذات الطُّول والعرض، التي ما حازها ولا يحوزها أعمُّ منه إنصافاً وعدلاً، ولا أغمرُ إحساناً وفضلاً، ولا أسْلَمُ نيّةً وطويّةً، ولا أسْوَسُ لخاصّةٍ ورعيّة[٩]، لكنّني انتظرتُ بذلك حلول[١٠] أوانِه، واستأنيتُ به إلى إبّانِه، وسيحقّق الله بفضله[١١]

---

(١) ف: ويجعل، س: وألا يجعل.

(٢) ف: داهنة.

(٣) س: إدغام.

(٤) ر، س: متشاوش. والشَّوَس: النظر بطرف العين، أو رفع الرأس تكبّراً. ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١١٥ (شوس).

(٥) س: يجدوا واحداً.

(٦) س: الطمأنينة.

(٧) س، ر: أو.

(٨) ف: معينة.

(٩) س: لخاصته ورعيته.

(١٠) ر، س: حضور.

(١١) ر، س: بلطفه.

وطوله[١] من المستأنف ما يشفعُ بعض منه بعضاً، ويتبع[٢] آخر أولاً.

وكتابي هذا – أطال الله بقاء مَوْلانا – كتابُ عبدٍ يُسرُّهُ ما سرَّه، ويَظهر له ما أظهرَهُ، ويقرُّ بعينِه ما يقرُّ بعيون خواصِّ صنائعِه، وحُمّالِ[٣] عَوارفِه، من متجدّدِ النَّصْرِ العزيز، ونازلِ الفَتْحِ القريب، ومتسبّبِ الأملِ البعيد، ومُتيسَّرِ الأمدِ الطويل. فإنْ رأى مَوْلانا الملكُ السَّيِّد وليُّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاجُ المِلّة – أطال الله بقاءه – أنْ يأمرَ – لا زال أمرُه نافذاً بُعْداً وقُرْباً، ومنبسطاً شرقاً وغرباً – بتقليدي شرفاً بالجواب عنه ثانياً بعد الشرف بجواب ما تقدّمه ماضياً، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ساقطة في س.

(٢) س: وتبع.

(٣) في الأصول الخمسة: جمال (مجودة)، ولعل الأصح ما أثبتناه.

وكَتَب عن أبي طاهرٍ مُحمّد بن بَقيّة إلى الملكِ عَضُد الدَّوْلة بعد عَوْدِه إلى مدينة السَّلام من واسِط على أثر انْصِراف الملكِ إلى شيراز[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك الجليل المنصور عَضُد الدَّوْلة، وأدام عزَّهُ وتأييدَهُ وعُلوَّه وتمكينَهُ - يومَ كذا. وقد وَصَلتْ لمَوْلانا الملكِ الجليلِ المنصور عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - كُتُبٌ مَبْنيةٌ على الابتداءِ بعد كُتبٍ أصْدرتُها إلى حَضْرتِه الجليلةِ، أظنُّ ظنّاً كاليقين، أنَّها وَصَلتْ بعد نُفوذِ ما نَفَذ إليَّ عنه، وفهمتُها، وحَمَدْتُ اللهَ على ما دلَّت عليه من النِّعْمة اللَّابسةِ، والموهبةِ الرّاهنةِ عنده، وسَألْتُه بأحبِّ الوسائلِ إليه، وأوْلاها بالنَّجاحِ لديه، أنْ يُخوِّلَهُ إيّاهما أحْسنَ التَّخْويلِ، ويَحْرسهما في فنائه من الانتقالِ والتَّحْويل، ولا يَسْلبَهُ وخَدَمَهُ فيه ظلّ العزِّ الممدود، والسُّلْطان المبسوط، والفوائد المُتَرادِفة، والمنائح المتضاعِفة.

وشكرتُ[٢] ما لا يزالُ الأمير يُتابعُه ويُواليه، ويَجْري على كريمٍ سَجيّته فيه، من المكاتَبة المشرِّفةِ لي، والمواصَلة[٣] الزّائدة في آلائه لديّ، ولو وجدتُ مع بعد الدّار غايةً في الشُّكْرِ، تزيدُ على ما يُمْله خاطِري، وتُسطِّرُهُ يدي لبلغتُها سابقاً إليها، ومُسْتَفرِغاً وُسْعي في تجاوزِها، مُؤَدّياً ما يلزمني فيها، لكنَّ ذلك جُهْدُ الطّاقة، ومُنتَهى الاستطاعة،

---

(١) چستربتي، فيض الله، راغب باشا، سيلي أوك. والعنوان فيها كلها: «كتب أبو إسحاق إبراهيم بنُ هِلِّيل بن إبراهيم بن زَهْرون الصّابي الكاتِب......». ولم أجد ضرورةً لإبقائه في العنوان. وليس في چستربتي ليس فيها ما بعد: عضد الدَّوْلة.

(٢) هذا من: ج، وفي ما دونها: وسألت.

(٣) من: ج فقط.

وأعتذرُ إليه – أطال الله بقاءه – من تَراخي الفُرَج بين أوْقات المكاتَبة، ووُقوفي فيها عند أوَّل حُدُودِها، والمواظبة[١] بما وَرَدت عليَّ من الأمورِ الشّاغلة، والعوائقِ القاطعةِ، والحاجة إلى تَوْفير الزّمان كُلِّه أو أكْثرِه، على إصْلاح بلادٍ اختلَّتْ، وأحْوالٍ فَسَدَتْ، وأمورٍ اضطربتْ، وعِمارات[٢] بَطُلَتْ، حتى أعانَ اللهُ على إعادة ذلك إلى طريق السَّداد الذي كان مُنْحرفاً عنها، وبعيداً منها، بإقْبال السّادة – أطال الله بقاءهم – وعُلُوِّ دَوْلتهم، وسَعادةِ جَدِّهم، واستمرار عادة الله عندهم، وعند خَدَمِهم النائبين عنهم؛ في تَسْهيل المُتعسِّر، وتذليل المَتصعِّب، وتَقْريبِ البَعيد، وإلانةِ الشَّديد. ولله الشُّكرُ كثيراً، والحَمْدُ دائماً.

وما بهذا العُذْر خفاء، عن مَوْلانا الأمير – أدام الله عِزّه – لأنّه قد استشفَّ أُمورَ هذه البلادِ، وعَرَف ما لَحِقَها ولَحِقَ الأمراءَ – أيّدهم اللهُ – فيها باختلافِ العساكر الطّارقة لها، وتكرُّرِ النَّوائب والحوادث عليها، وسُوءِ آثارِ الخُرّاب الشُّذّاذ من الأتْراكِ والدُّعارِ[٣]، ثم ما أثَرَتْه تلك الحال التّاليةُ للفتْنةِ التي لا يعرف الغرباء منها إلّا الظّاهر[٤] المتَّهم الظَّنين، دُونَ الباطن السَّليم الأمين، وأنَّها وإنْ كانت أفضت إلى اتّفاقٍ وأُلْفةٍ، وإيثارٍ ومحبةٍ، فقد كانت أحْدثَتْ للمُعامَلينَ المجاورينَ من أهْلِ البَدْوِ والحَضَر، والوَبَرِ والمدَر أطْماعاً في حقوقٍ جذبُوها، وأموالٍ استهلكوها، وإخلالٍ بعِمارةٍ كانت تُقام، وأقْدامٍ على عَيْثٍ لم يكنْ يُرامُ، فكان ثباتُ الأمرِ وتماسكُهُ ثم إقبالُهُ وتزيُّدُه، مع اكتنافِ

---

(١) ج: حدود المواظبة.

(٢) هذا من: ج، وفي ما دونها: وعمارة.

(٣) ترد أحياناً في بعض القطع الذعار، والأصح بالدال المهملة، والعامّة تقول: هم بالذعار، وإنما هو بالدال. وهم قطّاع الطرق. ابن الجوزي، كشف المشكل، ج١، ص٤٤٤.

(٤) ف: المظاهر.

ما اكتنفه، واجتماعِ ما اجتمع عليه، والإتْيان على ما كان في الخزائنِ من عُدّة مُعْتدّة، وذخيرةٍ لشدّة، كالمعْجِزِ المشاكِل لما عَوّد اللهُ هذه الدَّوْلة المكينة البنيان، الوثيقة الأرْكان، المقضيّ لها بالبقاءِ والنَّماء، وعزِّ الأوْلياء، وكَبْت الأعداء، والحَمْدُ لله ربِّ العالمين. ووفّر اللهُ حظَّ مَوْلانا الأمير، من خَيْرِها ومَيْرِها، ولا أخْلاهُ من تمامِها ودَوامِها، ولا أخْلاها من نَظرِهِ المُصْلِح لها، المؤدِّي إلى قوةِ أسبابها، بقُدْرته.

هذا – أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير[1] – إلى مُؤنٍ لَزِمتْ، وزياداتٍ تُحمِّلتْ؛ بتراجع العدَّة الوافية، من الأتْراكِ المقيمينَ - كانوا - بالمَوْصِلِ وغيرها، واجتماع عَسْكرٍ كثير منهم، وممّن كان مُقيماً بالحَضْرة من رُفقائهم المعزّية والعِزيّة، وحاجةُ مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة إلى الإنفاق فيهم، والإحْسان إليهم، وخَوْض الدَّيْلَم في أمورٍ لعلَّها قد انتهت إليه – أدام الله عِزّه – حَمْلاً على النّفس في إخْراج المال وصَرْفِهِ إلَيْهم، وإلى جَماهير الرِّجال، وإنْ كان – بحَمْد الله ومَنِّه – انتهى إلى ما لو وَقَع التَّعمُّل له، والتَّوصُّل إليه، لما زاد عليه من تحالِفِهم بغَموس الأيْمان على السَّمْع والطّاعة لمَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة، ومَوْلاهُ ووَليِّه، والذَّبِّ عن مَمْلكتِهِ، والتَّصرُّفِ على إراداتِهِ، وبَذْلِ النُّفوس دونَ كلّ طَمَعٍ يمتدُّ من مُناوِئٍ أو مُنابِذٍ إلى شيءٍ يكرهُهُ، وقد أنهض اللهُ بهذه الأعْباء ووَهَب الاسْتِقْلالَ بها[2]، وتَمّتْ نِعْمتهُ التي ظاهَرَها، وأحْسنَ الصُّنعَ فيها، فله الشُّكْرُ القاضي حقَّه، المؤدِّي فرضه.

وكنتُ ضَمَّنتُ الكتابَ الصّادِرَ إلى مَوْلانا الملِكَ الجليل عَضُد الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – ذِكْرَ ما أتيته في مُكاتبةِ أبي الحسن عِمْران بنِ شاهين بضُروبِ التلطُّف[3]، الباعثةِ

---

(١) ساقطة في ف، ر.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ف، ر، س: اللطف.

على الطّاعة فيما التمسناهُ، الصّادقةِ به عن الترجُّح فيما كلَّفْناهُ، وإلْزامي إيّاه، إجازة السُّفن[١] ومَن تخلَّفَ من الأسبابِ، وما مَعَهُم من السِّلاح والآلاتِ. وإنْفاذي إليه صاحباً لي في هذا المعْنَى، لا شكَّ أنّه يُراجع ويُسارع.

وعلى ذاك، فأنا - أيّد الله مَوْلانا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - مُنْحدرٌ بنفسي لمهمّاتٍ أُباشرها بواسِط والأهْوازِ والبصرة، وهذا[٢] البابُ أوَّلها، وهو بالتَّقديم أولاها، وإذا وَصَلتُ إلى هناك جَرَيْتُ[٣] في حَدْر هذه السُّفُن والآلات على غاية الصَّون، ومن الله التَّوفيقُ والعونُ.

وأُشْهِدُ الله وكفى به أنني إلى حَضْرة مَوْلانا، والمثول بين يديهِ والتَّقبيل لِبساطه جدُّ مَشوقٍ ظمآنٌ، ولولا هذه الخِدْمةُ، التي هي له غير محتملةٍ في وَقْتِنا هذا[٤] لأن أخلَّ بها، ولا مُكْتَفيةٌ بنيابةِ نائبٍ غَيْري فيها، لاجتهدتُ في أنْ أكونَ مكانَ كتابي، ولأحْرَزْتُ بذلك الفَخْر العظيم، والحظّ الجسيم.

وكانت المشافَهةُ بما أكْتبُ به أشْفَى وأوْلى، وأبْلغَ وأنْجعْ، وإذا كان الحُضورُ عليَّ متعذِّراً، فأرجو أنْ أكونَ في التَّأخُّرِ مَعْذوراً، وأنْ يجعلَ اللهُ الخِيْرَةَ مَقْرونةً بكلِّ ما تَجْري به الأقْدارُ من بعد دارٍ وقُرْبها، وإمْكانِ مُشاهدَةٍ وتعذُّرِها إنْ شاء الله.

ومَوْلانا الأمير مع ما خارَهُ اللهُ له ووفَّرَهُ عليه من الفضائل الظّاهرةِ، والمناقب الباهرةِ، والمَعْرفةِ بما يَحِلُّ ويَحْرِمُ، ويُحْسِنُ ويقبح، ويمدحُ ويَذمُّ، ويُؤْثِرُ ويكرَهُ، مُسْتغْنٍ عن كثيرٍ من نُصْحِ النّاصحين، وإرْشادِ المُرْشدين، إلّا القَدْرَ الذي أمَرَنا اللهُ به - عزّ

---

(١) (إجازة السفن) من ج فقط.

(٢) ج: منحدر نَفْسي إلى واسط لمهمات أباشرها، وهذا الباب...

(٣) س، ر: جددت.

(٤) ساقطة في ف.

وجلّ - وعَرَّفَنا نَفْعَهُ من الذِّكْرى التي مِثْلَهُ مَن تقبَّلها، وأصْغى إليها ولم يعْدِل عنها، وعمَّنْ أفاضَ فيها.

وقد عَلِمَ - أدام الله عِزّه - أنّ دَوْلته ودَوْلَة ساداتنا ومَوالينا من سَلَفِه وأهْلِه - نَضَّر اللهُ وجوهَ الماضين، ومدَّ في أعمارِ الباقين[١] - إنّما ثَبتَت بالتعاضُدِ والتّآلفِ، والتَّوادِّ والتّعاطُفِ، وأنّ الأعداء انقمعوا عنها، ويئسوا من تهيّؤ القَدْح فيها باتّفاقِهم علَيْها، وترافُدِ أيْديهم في دَفْعهم عنها[٢]، وبهذا السَّبب طال المدى، وعزَّ الجانبُ، ونُصِرت الرّاياتُ[٣]، وبُلِّغتِ الإراداتُ، وخليقٌ بذلك أنْ تزيدَ وتُنمى، مستمرّاً في الأولاد والأعْقاب وعلى مرور السِّنين والأحْقابِ، مع لُزومِ ما أصَّلَهُ وقرَّرَهُ، والتَّمسُّكِ بما أثَّلَهُ ووطّدَهُ، ونعوذُ بالله من عكس ذاك الذي لا خيرَ معه، ولا تماسكَ لأمرٍ دخلَهُ.

وقد كان مَوْلانا الأمير نَشَر في النُّصْرةِ لهذه الممالك، والاستنقاذ لها، والإبْعادِ لأعْدائها عنها، علماً شاكَلَ أعلامَ فَضْلِهِ المنْشورَةِ المأثورة، فعظُمت المِنّة، وشمِلَت النِّعْمة، وشاع الحديثُ الحسن، وذاعَ الثناءُ الطيّب. ثم نَزَغ الشَّيطانُ نزغَهُ، وأرسَل نبْلَهُ، وأعْملَ مكائِدَهُ، وبثَّ حبائله[٤]، فأصابتْ العينُ ذلك الفعلَ الجميلَ الجليلَ، والمقام الشَّريفَ المنيفَ، واعترضَ فيه ما قد وفَّق اللهُ أخيراً لتلافيه. ولو كان مَوْلانا أطْلعني على الرَّأي الذي رَآه، والأربِ الذي استهواهُ، لَوَجَد[٥] منّي عَبْداً من عَبيده، طَبّاً[٦]

(١) (دولة سادتنا...... الباقين) ساقط في ج.

(٢) من ف.

(٣) س: الريات.

(٤) س: حايله.

(٥) س: الوجد.

(٦) ر: طيباً. رجلٌ طَبٌّ: عالم حاذق عارف. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٥٥٤ (طبب).

بالتَّوصُّلِ فيه إلى أكْثرِ المحبةِ، ومُعْظم البُغْية[١]. ولكان أخُوهُ مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة يُقِمْه مقامَ الوالدِ – نَضّر الله وَجْهه – في تَقْديمه على نَفْسِهِ، وترتُّبِهِ دونه، وتفويضِ أمرِهِ إليه، وتصرُّفِهِ من أمْرِهِ ونَهْيِهِ، وكُنتُ أكون وسيطاً لذلك، ومُتمِّماً مِنْهُ ما أحبَّه وأثَرَهُ على الحال المحمودة، والعاقبةِ السَّليمة. ثم[٢] لو كان – أيّده الله – بعد حصولي بواسِط قبل قَوْلي، وأخّر حَذْر العسكر إليّ، واستخدمني في تقرير أمرٍ يُرْضيه، ويُزيلُ طَعْنَ الطّاعنينَ على مَعاليه؛ لكانتْ هذه منزلةً أخرى في الصَّلاحِ، تاليةً لِتِلْكَ، لكنَّ المَقْدورَ[٣] غالبٌ لا يُغالَب، والمَحْتومَ نازلٌ لا يُدافَعُ، وأنا أحْفظُ على مَوْلانا الأمير قَوْلاً اسْتَحْسَنْتُه واسْتَجْمَلْتُهُ وهو أنّ تلك الفرطةَ مِنْه وحيدةٌ لا أختَ لها، وغريبةٌ لم يتقدَّمْ مِثلُها، ومِثلُهُ مَن تنبّه، وتأمَّل، وتلافى واستدْرك. وعلى ذلك الأصْلِ انْبساطي في مُفاوضتِهِ، وتَطْفيلي على نصيحتِهِ، وما زالَ المتسوّقون – أيّد الله مَوْلانا – مَغْضُوضةٌ أبْصارُهم، مَقْبُوضةٌ أطْماعُهم عن كلِّ ما يسعَى له أمْثالهم، إلى أنْ وجدوا مَساغاً[٤] فدبّتْ عقاربهم بحكاياتٍ تُحكى، ورواياتٍ تُروى، وأراجيفَ يُرْجَفُ بها، وتشنيعات لا تُحْمدُ عُقْباها[٥]، وأكْثرُ ذلك من كُتُبٍ تَرِدُ من المتصرّفين العراقيين الشّاخصين في الحمْلةِ[٦] إلى أقاربهم وخلطائهم، فإنَّهم يَزْعمونَ أنّ هُناكَ استعداداً[٧] للمنازَعة، وإجْماعاً على المجاذَبة، وقد

(١) ر: البَقيّة.

(٢) ساقطة في ف.

(٣) ف: المقدر.

(٤) ساقطة في ف.

(٥) ف: أعقابها.

(٦) س، ف: الجملة.

(٧) ف: استعاداً.

– والله – آلمني ذلك له، وبَلَغَ منّي فيه[١]، ولو أمْكنني أنْ أحْسِمَ هذه القالة عنه لحسمتُها بجميع ما تحويه يدي، بَلْ بما تحتوي[٢] عليه ضلوعي.

وظنّي لمَوْلانا الأمير – أيّده الله – أنّه يعْرِفُ الصّوابَ ويتوخّاهُ، وينكر الزَّلَل ويَأْباهُ، ومَنْ حلّ محلّه في فضله وكرمه، وظهور ما ظهر من رجوعه وندمه كان بعيداً من أنْ يأتي ما هو أفظعُ وأعْظَم، ويَدَعُ ما هو أعْودُ وأسْلَمُ، وليس يسعني وأنا وزيرٌ من وزرائه، ووليٌ من أوليائه؛ أن أتْركَ الاجتهادَ فيها جملَهُ، والحضَّ على ما زيَّنَهُ، لا سِيَّما إذا كان ذلك عائداً على جميعِ الدَّوْلة بالاستقامةِ، وعلى سائر المَمْلَكةِ بالصِّيانة، و[٣]على أصول الأحْوالِ بالاسْتِقرار والإسفار، وانْحسارِ النَّوائب والشَّوائب، واللهُ الشاهد أنّني ما كتبتُ كتابي هذا عن جَزْعٍ مَلَكني، ولا قنوطٍ اشتمل عليَّ، وكيف يجزع الإنسان؛ وقد وَهَبَ اللهُ له الاستِظْهار، وكيف يَقْنُطُ وقد وثِقَ بعادتِه في الإظْهار ؟! ولكنّي وجدتُهُ كبيرَ هذا البَيْتِ الجليل، فالأعيُن ممتدةٌ إليه، والإعظامُ موفورٌ عليه، والإجماعُ واقعٌ على تقديمِهِ والتَّأَخُّرِ عنه وتكْريمه، والانحطاط له، ووَجَدْتُ الأمير عِزّ الدَّوْلة، ومَوْلانا – أيّده الله – تاليه، ومَن قد نَصَبَ نَفْسَهُ مع جَلالِة مركزِهِ ونُبْلِ مَقرِّهِ، ومنصب الخليفة له والنائب عنه، فكرهتُ أنْ يتطرّقَ على هذا الصّفاءِ ما يكدّره، وعلى هذا النظامِ ما ينشره، وهو – أيّده الله – يعلمُ أنه وإنْ وَهَب الله له فَضْلاً في المال، فقد وَهَب الله للأمير عِزّ الدَّوْلة محبّةً مَصْبوبةً على قلوب الرِّجال، وأنّ عسكرَه هذا وأهلَ بلاده هذه منذ ثلاثين[٤] سنة ناشئون معه على طاعةٍ اغتَذَوْا بها، ومُشايعةٍ ارتضعوا

(١) (وبلغ مني فيه) ساقط في ف، (فيه) ساقطة في ر.

(٢) س، ر: بل ما تحنو.

(٣) سقطت الواو في ف.

(٤) في الأصول: ثلثون.

لِبانها[١]، وأنهم يبذلون أنفسهم دون عقالٍ من ماله، أو حدٍّ من بـلاده، أو أيسـر سبب تشعّث أمره، أو يتطرّف مُلكه. وقد زادت تلك المحبّة بما عـامَلَهم بـه مـن الإحسان إليهم، والنظر لهم، وإزالة العَداء[٢] عنهم، وإصلاح أمورهم وشؤونهم، ورفـع المناكير والمحظورات عن ديارهم[٣]، وتهذيب النقود والعِيار في معاملاتهم، فهـو - أيّـده الله - راجعٌ من بَصائر أهـل عَساكره، والمتحـالفين المتعاهـدين عـن نَصْـره، وأهـل بـلاده المخلصين المجتهدين في مناصحته، إلى ما هو أحضر نفعاً من الكنوز، وأحمد عُقبـى مـن الذخائر، حتى لو أنه أساء إليهم وأحسـن غـيره بهـم لكانـت إسـاءته خفيفـة المحمـل عليهم، وإحسان غيره غير واقع بالموافقة منهم، ويجب أنْ يكونا - أدام الله عِزّهما - على سَبيل الاتفاق والاشتراك، وطريق الاختلاط والاشتباك، وأنْ يكون ما وَهَب الله لكـلّ واحدٍ منهما من هذه العُدَد مجموعاً في جهة، ومدبَّراً بيدٍ واحـدة، ومَصْـروفاً إلى جهـاد الأعداء ووَقْمِهم[٤]، وإذلالهم وإذالتهم، وألّا يجد الشيطان فسحةً في تشاحٍ يلقيه بيـنهما، ولا ضررٍ يُدخله عليهما، ولا على أحدٍ منهما. وحَقيقٌ على الله أنْ يوقعَ ذلـك في قلـوبهما، ويسهّل أسبابه لهما، وهو الشّاهد - جلّ وعلا - على تألّمي وتذمّمي من الحروب الواقعـة بواسِط، والتزام مَوْلانا الأمير والتزامي ما التزمناه فيها، وأنها حالٌ عظم[٥] عنـدي فيهـا ذلك الاستظهار الذي تأتّى لي، واستظهارٌ لو وقع عليّ لأنها كانـت بمنزلـة يـدٍ طرفَـتْ عينُ صاحبها. ولو كانت تلك الكُلف المتكلّفة، والأموال المستهلكة، والنفوسُ المغتبطة

(١) ف: ألبانها.

(٢) ف: الأعداء.

(٣) س: درديارهم.

(٤) ف: وقمعهم ووقمهم.

(٥) ساقطة في س، ومكانها فراغ في ر.

مَصْـروفةً من الجهتين إلى جهاد عدوٍّ من أعداء الدَّوْلة، كان ذلك أولى وأحرى، ولا رادّ لأمر الله، ولا مَهْرب من قضائه.

وقد أطلتُ القول إطالةَ المستفرغ لوُسْعه فيما نَظَم الشمل، ووَصَل الحبل، وجمع الكلمة، وحرس الألفة، وعاد على أعين الأولياء بالقرّة والمسرّة، وعلى أعين الأعداء بالقذى والمعرّة، غير مستثيرٍ لمناقضة، ولا مستجيزٍ[١] لمجادلة، ولا خارجٍ عن مَسْلك الخدم المشفقين، والأولياء المتحقّقين. وكتبتُ هذا الكتاب على غير علمٍ من أخيه مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة لأخرجَ به من عُنقي ما يلزمني من النّصيحة، والمشورة الصّحيحة. فإنْ صادَف وُرودُه كذباً من هؤلاء المكاتبين المرجفين، والمتسوّقين المتفقين[٢]، فسيكون منه - أيّده الله - في عقوبتهم ما هو الأشبه بنعمة الله عنده، ويوعز في حَظْر ذلك بما يشتهر عند الملوك والسُّوقة، والأقاصي والأداني، ويعلمون معه[٣] تآلف القلوب، واتفاق النيّات، وعودَ الأحوال إلى أفضل المعهود من تهذّبها، والمعروف من تمكّنها، وإنْ كانوا تكملوا[٤] عن أصلٍ وحقيقةٍ، فمثله مَن أزال ذلك ورجع عنه وحاط جوانب فَضْله من كل ما يتخونه وَيَثْلِمُه أولاً، فقد وفيته الحقّ بالموعظة والتَّذْكِرة، ووثقت بحصول الفائدة من القبول، أو تقلّد البغي. ولست أدع أنْ أعاوِد وأتابع، وأكرر وأراجع، وأكاتب الأمير مؤيِّد الدَّوْلة في هذا الأمر، وأشهره شهرةً تقطع العذر، وتستنزل النَّصْر، وتتنجز وعدَ الله جلّ جلاله إذ يقول: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ

---

(١) س، ر: مستجر.

(٢) ف: المنفقين، ج: المتفقين.

(٣) ف: منه.

(٤) ف: تكلموا.

لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾[١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾[٢].

ومما يجب أنْ يحاسبَ الأمير – أيّده الله – نفسَه النفيسة فيه، ويلتزمَ جميلَ مذهبه في تعمُّده وتحرّيه، الوفاء بالمال الواجب عليه مَعُونةً في تمشية أمور مملكته هذه – حَرَسها الله – التي قد أُتي عليها وأُخِذت أموالُها، واستُنظف كلُّ ما كان يقدر رواجه منها، وإنجاز ما وعد به الأمير عُمْدة الدَّوْلة أبو إسحاق – أدام الله عِزّه – من الإقطاع بثلاثمائة ألف دِرْهَم بنواحي أرَّجان، والتقدُّم بالاحتياط على الضُّمَناء والمعامَلين الشّاخصين في حملته، وإنْفاذهم إلى الحَضْرة، من المعروف بالطبري، ومُحمّد بن أحمد القُمّي، وأبي الغمر وغيرهم، فإنّ على هؤلاء أموالاً باقيةً واجبة، وما هربوا إلّا من أجلها، وما طلبوا إلّا كسرها.

والأمير عِزّ الدَّوْلة كثير الخوض معي في هذا الباب، ومراعٍ ما يكون منه – أدام الله تمكينه – فيه، فإنْ تفضّل وأمرَ بإنْفاذهم، وأنجزَ ما وقعت الموافقة عليه من الأبواب المتقدّمة، وإلّا فهو – أيّده الله – يعلم ما يجرُّه النقض – وقبل ذلك ما ينظم الله الأمور، ويصلح النيّات، بقُدْرته. وهو حَسْبي ونِعْم الوكيل.

---

(١) سورة الحج، من الآية ٦٠.

(٢) سورة يونس، من الآية ٢٣.

فصل من كتاب[١]

وإنّما ها هنا فضل ....[٢] ومراء، وسوء خُلقٍ وشَراسةٍ يستشعرها أصحابنا - أيّدهم الله وأصلحهم - في ذات بينهم، ثم لا يصرفهم عنها مسألة، ولا عظة، ولا رفق، ولا شدّة، ولا لُطف، ولا حيلة. وهذه السَّجايا هي التي فرّقت نظامَهم، وصدعت التئامهم، وشتّت كلمتهم، ومَحَقت عددهم، وأوقعت أديانهم، وعطّلت نَواميسهم، حتى انتهى أمرهم إلى ما هم عليه من ترفُّع أكابرهم عن قبول الرئاسة عليهم، وتصوُّنهم عن تولّي شيءٍ من أمورهم، وحتى صاروا كالغنم السّارحة، والإبل السّائمة، وكذلك تكون أفعال النّاس إذا كانوا في بقايا دولة، وأواخر مدة، كما أنهم يكونون على أضدادها في الابتداء الأول، والاستئناف المستقبل تساعُداً وترافُداً، وتواصُلاً وتعاطُفاً، واجتماعاً على كلمةٍ واحدة، وإصفاقاً بأيدٍ متعاضدة، وتوقيراً من الصّغير، ورأفةً من الصّغير بالكبير، ونحن وأسلافُنا - رحمهم الله - منذ دَهْرٍ طويل نقابل القَضاء والقَدَر في استبقاء هذه الثَّميلة الضَّعيفة، والذَّماء[٣] القليل، وسبيلُنا أنْ نصبر ونثبت، فإنّا بين حالَيْن: إمّا أنْ ينتهي بنا الصّبر أو بمَن يأتي بعدنا إلى صَلاح دور، ومساعدة قدر، فليسدّ الله الخلّة، ويصلح الفاسد، ويجبر المهيض، وينهض العاثر، ويرشد الغالط. أو نكون قد قضينا ما علينا، وانصرفنا عن الدّنيا، ولنا نيّة المجتهد في الخير، وثواب السّاعي

(١) طهران، والعنوان في الأصل: فصل آخر منه. وهو ليس فصلاً من الكتاب السابق له في أصل المخطوط. لذلك، أفردناه هنا.

(٢) كلمة غير مقروءة. أقرب قراءة لها: محك.

(٣) الذَّماء: بقية النفس، وقيل: قوة القلب. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٣٨٩ (ذمي).

للصَّلاح، ثم إنّ الله أولى بعباده وما يدبّرهم به، وهذا قول .... [١] من أصحابنا وقف عليه استصوبه واستسدّه، واستصلحه واستحسنه. ثم إنْ رُمْتَ منه أنْ يفعلَ موجباته، ويقفَ على حدوده، ويأخذَ بآدابه كان تناوُلُ الثريّا أقرب من ذاك مكاناً، وأسهل مراماً، وإنْ سيم أحدُهم أنْ ينزل لصاحبه عن مشيئته، أو أنْ ينهزم أمامه عن مقام ممّا رأته أو قيل له إذا عز أخوك فهن، وإذا خشن فلن، فقد سِيم الخسْف، وكلف الشَّطَط، ودعى إلى الرّضا بالصَّغار، وادّراع العار، ودخل دون أيسره وأقلّه النار. فأنا والله أستقبح لهم ذلك، وأضجر به منهم، وأتجنّب كثير الكلام في أمورهم، من أجله وبسببه إليهم معشر كلّما قلّوا عدداً زادوا تحاسداً وتنافساً، وكلّما ضعفوا جانباً تضاعفوا فَظاظةً وغلظاً. صغيرهم مجترىء على كبيرهم، وجاهلهم مُزْرٍ على عالمهم، وحاضرهم حاطبٌ على غائبهم، وهذا خلاف ما عليه أهل المِلّة والذّمّة كلّها، وضدّ ما يوجبه المعقول؛ فإنّ المبارّ والتّراحُم مع القلّة والضَّعْف، والتكاثر والتفاخر، والإباء والتقاطع مع الكثرة والقوّة، فكيف يُداوى الدّاء إذا كان خارجاً عن المعهود والمألوف، ومعضلاً بالشبان والشيوخ، ومضجراً لأهل الحلم والحدّة. ولولا أنك عندي بنجوةٍ من هذا المرض لما أطلتُ هذه الإطالة في البث والنفث، لكني أعلم أنك بعيدٌ من العَيْب، خليقٌ بأنْ تتجنّبه، وتسعى لنقل أهله عنه، وبحسبك أنا ها هنا في عجائب من هذا الشأن قد صرتُ فيها أعطي قيادي كلّ حادثٍ، وأذهب في الأهواء والآراء مع كلّ ذاهبٍ، و.......... [٢] في مَسالكي مَكامن اللَّجاج، ومَعادن الفَساد، وأطيع مَن يلزمه أنْ يطيعني، وأقبل ممّن سَبيله أنْ يقبل منّي.

---

(١) كلمة غير مقروءة.

(٢) كلمة غير مقروءة.

وكَتَب[١]

كتابُنا من دارِنا بمدينةِ السَّلام يومَ الثلاثاءِ للنِّصفِ من رَجبٍ، وفيه وَرَدناها على الحال التي تَسُرُّك وجميعَ أوليائنا، من شُمولِ السَّلامة، وكمالِ الاستقامةِ، وتمامِ المحبَّة، وبُلوغِ الإرادة، والحمدُ لله حمداً يُوجِبُ المزيدَ ويَقتضيه، ويُؤذِنُ به ويَستدعيه.

وقد عَرْفتَ -أعزَّكَ الله- رأينا في الغَزوِ، وشَوقَنا إليه واعتزامَنا عليه، وبناءنا الأمرَ فيه على ما أوجَبتْهُ المُكاتَباتُ المُتَردِّدة، والمراسَلاتُ المتكرِّرَة، ونَسألُ الله الخِيرَةَ العامّة، والمعونةَ التّامَّة، وإنالةَ الرجاءِ والأملِ، وإنجاحَ السعي والعمَل بقُدْرته.

وما ظَنَّناكَ تَتأخَّرُ عن حَضْـرتِنا مـع التماسِـنا إيّـاك، وتأكيـدِنا في البِـدارِ عليـكَ، وعِلمِكَ ما في وُرودِكَ قبلَ فُصولِنا عن مدينةِ السَّلام مـن الصَّـلاحِ الـذي أنـتَ حقيـقٌ بالحِرْصِ عليه، وما في تأخُّرِكَ من الفسادِ الذي أنتَ خَليـقٌ بـالتحرُّزِ منـه. والآنَ، فـلا وجْهَ لتثاقُلِكَ مع احتدادِ العزْمِ، ولا عُذرَ فيه مع دُنوِّ الدِّيارِ، وسـبيلُكَ أنْ تَنحـدِرَ عنـد وُصولِ هذا الكتابِ متعجِّلاً غيرَ مُتَلوِّم، ومُسرِعاً غيرَ مُتوقِّفٍ، فـإنّ مُثولَـكَ بحَضْـرتِنا قبْلَ الرَّحيل أحْزَمُ في الـرأي، وأحْـوَطُ في التـدبيرِ، مـن جهـاتٍ ليسـتْ خافيـةً عَليـكَ فنوضِحَها، ولا مُشْكِلَةً فَندُلَّ عليها، فرأيُكَ في العمَلِ بذلك، والثقةِ بما تُصادِفُه من الميلِ إليكَ، والإقبالِ عليكَ، والإيجابِ لك، والثقةُ بكَ مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

---

(١) ليدن.

وكَتَب[١]

كتابي، والسَّلامةُ لمَوْلانا شاملةٌ، والنِّعْمة عنده وعندَنا مَعْشَرَ خَدَمِهِ فيه مُتكاملةٌ، وأنا بما مَدَّهُ عليَّ من ظلِّهِ وعَليهِ -أيّده الله- وعَلينا أجمعين، من ظلِّ مَوْلانا الملِكِ، مغتبطٌ معتَدٌّ، ومن جميلِ صُنعِ الله في ذلك مستزيدٌ مستمِدٌّ.

وسَيِّدي يَعلَمُ أنّ التواصُلَ بالنيّاتِ أفضَلُ من التواصُلِ بالمكاتَباتِ، ولولا أنّا نَرجِعُ إلى ثقَةٍ مُؤلِّفَةٍ بيننا، وأُخوَّةٍ خالصةٍ تجمَعُنا، وأنّ ذلك يُغنينا عن تراجُعِ الاعتذارِ من إعرابٍ لم يَجُرَّهُ ذهابٌ إلى جَفاء، ولا ضعفٍ عن عُقْدَةِ وفاءٍ، لكان لي ولسَيِّدي مَسْرحٌ طويلٌ في القولِ الذي قد كفَيْناهُ المودّةُ الصّادِقةُ، وأعفَتْنا منهُ البصيرَةُ المُستحكِمَةُ، ورُبَّ قاطعٍ بكتابِهِ واصلٌ بضميرِه، وواصلٍ بكتابِهِ قاطعٌ بضميرِه. وقد جَعَل الله العهدَ بيننا بعَيْنِ الرّعاية ملحوظاً، ومن عَوارض الفَسْخ والنَّقْضِ محفوظاً، فالحمدُ لله على هذه الحال، وهو المسؤولُ رَبَّها مع بَسْطِ اليدِ في المكاتَبة وقبضِها، وعلى دُنوِّ الشُّقَّةِ وبُعدِها بمَنِّه.

فاتَّفقَ -أيّد الله سَيِّدي- من إنْفاذ الأمير أبي القاسم فاذار أحدِ الخاصّة إلى حَضْرة الملِكِ بالرَّسائل التي يُؤدِّيها، والكُتبِ التي سَيِّدي مخصوصٌ بأحدِها، ما اتَّخذْتُه سُلَّماً إلى إعادةِ رَسْمِ المكاتَبة ونَهجِ سَنَنِها، والاستئنافِ للمواصَلةِ وإحياءِ سُنَنِها، وسَيِّدي وليُّ ما يَراهُ في ذلك، معتمداً مَسَرَّتي ومَبَرَّتي، جارِياً على مشكورِ عادَتِه عندي، ومُتَوخِّياً أبا القاسم بمعاونةٍ على تأديَةِ ما تحمَّلَهُ وسرعةِ عَوْدِهِ إليَّ بالجوابِ عنهُ، والانبساطِ في إجابتي بأخبارِه وأحوالِه وحاجاتِه ومُهمّاتِه إنْ شاء الله.

---

(١) ليدن.

وكَتَب عن مُحمّد بنِ بَقيّة في وِزارته[1]

كتبتُ -أطال الله بقاء مَوْلانا أمير المؤمنين، وأدامَ العزَّ والتمكينَ لهُ، وتـمَّمَ الإنعامَ عليه، وضاعَفَ الإحسانَ إليه، وأجراهُ في جميعِ الأمورِ على أفضلِ ما عوَّدَهُ من عَوْنٍ وتأييد، وتوفيقٍ وتَسْديد، ولا سَلَبَ الدّنيا ظِلَّهُ، ولا أعْدَمَ أولياءَهُ طَوْلَهُ- من مُعسكَري بِكَذا، والأحوالُ التي أُراعيها من جهتهِ مستقيمةٌ موفورَةٌ، ونعمَةُ الله -جلّ وعزّ- في ذلك شامِلَةٌ مشكورَةٌ، وهو -جلّ وعزّ- المسؤُولُ إدامتَها، وحراسةَ ما منَحَ وخَوَّلَ منها.

ووَجَدْتُ خادِمَ مَوْلانا أمير المؤمنين عبيد الله منذ بَلَغ في تشييع عَبدِه عِزّ الدَّوْلة وتَشْييعي إلى سُرَّ مَن رأى، مُقيماً بها، عامِلاً على انتظارِ الإنهاءِ لينكفىءَ معَنا منها، فعَلِمْتُ أنّه قد تَـجشَّمَ من مُفارقَتِه فِناءَ مَوْلانا مشَقَّةً تُـمِضُّهُ، وتَكلَّفَ من الإخلالِ بحَضْرتهِ -أجَلَّها الله- شِدَّةً تؤلِمُهُ وتُرمِضُه، وأنّ مَوْلانا أمير المؤمنين لا يَـخْلو -مع فائض كَرمِهِ، وشريفِ أخلاقِهِ وشِيَمِهِ- من الإيثارِ لقُربه، والإباءِ لبُعدِه، فجَزَيْتُهُ خيراً عمّا ذهَبَ إليه من تلك المبَرَّة، وثنَيْتُه فانثنى مُبادِراً إلى حَظِّه من هذه الخِدْمة، وحالُهُ عند مَوْلانا في الأنَسَةِ المستَحكِمة، والحُرمةِ المتأكِّدة، والصَّنيعة المشهورة، تُغْنيهِ عن أنْ أقولَ في أمرِهِ قولاً أتنجّزُ له به مَزيداً في التشريفِ له، والإحسانِ إليه، والإنعامِ عليه. ولو كانت ها هنا حاجَةٌ إلى ذلك لكان ما يَتبرَّعُ به مَوْلانا منهُ أبعَدَ من سُؤالِنا غايةً، وأوْفَى من اقتراحِنا نِهاية.

---

(١) ليدن.

وأمّا اعتقادُ عبدِ مَوْلانا أمير المؤمنين عِزّ الدَّوْلة فيه، فأجَمَلُ اعتقادٍ وأحسَنُهُ، وأصْدَقُه وأخْلَصُهُ اتّباعاً له -أيّده الله- في الاجتباءِ لهُ، وذَهاباً على أثَرِهِ في التمسُّكِ به، ومُحافَظَةً على ما يَرى أنه يَستحِقُّه في نفْسِهِ، ويَستوجِبُه بمحمودِ أثرِهِ وسَعْيِه، وهو ثقتُه وثقتي عند مَوْلانا، والوسِيطُ الموثوقُ به في إيصالِ ما يُوصِلُه، وإيرادِ ما يُورِدُه. ومَوْلانا وليُّ ما يَراهُ في إحْمادِ مَذهَبِ عبدالله في المقامِ الذي أقامَهُ بِسُرَّ مَن رأى، فإنّه -وإنْ كان فارَقَ به من الحَضْرة حَظًّا جزيلاً، أو ظِلاًّ ظليلاً- فقد اعتمَدَ من خدمةِ عِزّ الدَّوْلة ما يَزيدُهُ من مَوْلانا أُثْرةً، وتجديدَ قَولٍ وفعلٍ في أمرِه يبينُ بهما استمرارُ محلِّه، واستقرارُ قدَمِهِ، على عادتِهِ في رَبِّ الصَّنيع إلى أوليائِه وخَدَمِه، والأمرِ بتشريفي بجوابٍ عن هذا الكتابِ بما أسكُنُ إليه، وأشكُرُ الله عليه إنْ شاء الله.

وكَتَب
إلى الأمير مؤيِّد الدَّوْلة (١)

كتابي - أطال الله بقاء الأمير - ومَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة على أفضل الأحوال السّارّة له، المقرّة لعينه، من استمرار السَّلامة والعافية، وانتظام الأمور والشؤون، وقد شَخَص - أيّده الله - إلى نَواحٍ من السَّواد لمشارفة شيءٍ من مَصالحها، وللتَّصَيّد والتنزّه فيها، وهو يعود - بإذن الله - عن قرب، ولله على جميع نعمه خالص الشّكر والحمد.

وقد نفذ كتابي إلى حَضْرة الأمير - أطال الله بقاءه - على يد غلامٍ لفلان بما أرجو وُصوله، وعرّفته - أدام الله عِزّه - انشراحَ صَدْري، وزيادةَ مُنّتي، بإحماده إيّاي، وارتضائه في الخدمة مذهبي، وأنني حاذٍ على تمثيله، ومتّبعٌ لدليله بالدّوام على ذلك والجدّ في عِمارة البلاد، وتَلافي ما لحقها من الفَساد، وظنّي بالله في المعونة على هذه الحال أحسنُ الظنّ وأجملُه، وثقتي مستحكمةٌ بما يُجري - عزّ وجلّ - الأمير عليه وكلّ خادمٍ له، ومنتسبٍ إليه من الصّنع الذي يتيحه ويفتح أبوابه، والنّجاح الذي يُسبّبه ويسهّل أسبابه.

وأنا خارجٌ إلى أعمال واسِط والبصرة والأهواز لإصلاح أمورٍ التاثت، وتألّف رَعيّةٍ استوحشت، وقَبْضِ أطماعٍ انبسطت، وعِمارة نَواحٍ اختلّت، والله المنهضُ والمسدّد، عليه أتوكّل وبه أعتضد.

---

(١) چستربتي، وبعضها في طهران. (العنوان في ج: وكتب، وفي ط: وله).

هذه الرسالة موجهة إلى مؤيِّد الدَّوْلة، وهي بشأن العلاقة بين الأميرين عِزّ الدَّوْلة وعَضُد الدَّوْلة، وإفراد إقطاع لعُمْدة الدَّوْلة. وهي متعلقة بالرسالة اللاحقة.

ولن أؤخّر كُتبي عن الأمير - أطال الله بقاءه - من كلّ منزلٍ أنزلـه، وبكلّ أثرٍ أوثره إنْ شاء الله. والأمير - أطال الله بقاءه - يعرف من خادمه على بُعد المدى، واعتراض الشُّقّة، شدّة الحرص على دَوام الألفة، واتّفاق الكلمة، والتوقّي من كلّ ما يُفسد الخلّة، ويَغُولُ الدَّوْلة. وإذا احتجت في ذلك إلى شَدٍّ منه - أيّده الله - لي، وصَرْف طرفٍ من عنايته إليّ، لم أجد بداً من مكاتبته، ولم يكن لي مذهبٌ عن اللِّياذة به، بل كان العذر ضيّقاً عليّ في طيّ مثله عنه مع أني أحد خَدَمه وأوليائه، وثقاته وأمنائه، وقد كانت الأمور جرت في مُوافاة الأمير عَضُد الدَّوْلة هذه الأعمال واجتماعه مع الأمير عِزّ الدَّوْلة على ما عَلِمَهُ، وكلّ جميلٍ جرى في ذلك مَنسوبٌ إليه، ومَحسوبٌ له، وكلّ ما عداه فهو من نزغ الشّيطان المتسلّط على الإنسان. وإذا كان قد لَعِنه وعَصاه، واستدرك تَضْليله وتلافاه، فحقيقٌ عليه أنْ يبلغَ الغاية في غَسْل البدَن، وإزالة التّهم والظُّنَن، وأنْ تكون أفعالُه المستأنفة متشابهة يجمعها نظامٌ واحدٌ في الصّفاء والوفاء، واعتماد الأحسن، وتجنّب الأهجن، وما ترك قبل انحداره عن الحَضْرة التندّم والتذمّم، واستشفاف ما لحق هذا المُلْكَ من الوهن والفتق، والموافقة على ردّ بعض ما يجبر كَسْرَه، ويأسوا كَلْمَه من جملة الأمور العظيمة، المأخوذة من الأعمال والأسباب لتكون معونةً على شَدّ ما اختلّ، ونَظْم ما انتشر، وإفراد إقطاعٍ لمَوْلاي الأمير عُمْدة الدَّوْلة من نواحي أَرَّجان وغيرها بخمسمائة ألف دِرْهَم، وترك العرض لأحدٍ من المعامَلين، أو استصحاب أحدٍ من المتصرّفين. فلمّا حصل - أيّده الله - بالأهواز استضمّ إلى جُملته طوائف من الضُّمناء عليهم أموالٌ باقية واجبة، وأخّر ما كان تفضّل وأعفى به بعض ذلك المال والإقطاع، وعدل عن عادته المشهورة المعروفة في الوفاء، وقاسيتُ من تمحُّل العُذر له عند مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة شدةً شديدة، راعيتُ فيها الحقّ الواجب عليّ، والفرض اللّازم إليّ.

ونحن - أيّد الله الأمير - في هذا إذ نشأت أراجيفُ عن كُتبٍ وَرَدت من هؤلاء العُمّال الهرّاب إلى أقاربهم وأسبابهم بالعزم الواقع على المسير إلى أعمال الأهْواز والتطرّف لها، ومدّ اليد إليها والمجاذبة عليها، فقدح ذلك في ثقة مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة التي أنا مجتهدٌ في تمكّنها وتوكدّها، ومتحرّزٌ ممّا يغيّرها ويشعّثها ؛ وثار مَن بالحضرة وأعمالها الدّانية والقاصية من الدَّيْلَم والأتراك والعَوام والأتباع، وهم أمّةٌ لا يأخذها العَدَد، قد صبّ الله في قلوبها محبّةً لمَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة ومَن يضمّه كنفه، حتى أنّهم يعتقدون مُجاهدة مَن نابذهم من أهل الشّريعة كما يعتقدونها في الأمم الطّاغية. ولو قلتُ أكثر لما عدوتُ الحقّ الذي قد أدركه البيان وشهد به الامتحان، فشغل ذلك قلبي، وقسم فكري، وبلغ كلَّ مبلغٍ في إقْلاقي وإرْماضي. ولستُ - أيّد الله الأمير - خائفاً على هذه الجهة - حرسها الله - من ضَعْف رجالٍ، ولا خفّة عَددٍ، ولا خَوَر قلوبٍ، ولا نقصان مُنَن، بل الأمر بالضدّ من هذا كلّه والحمد لله. ولكنني خائف أنْ تقعَ الفُرقة، وتتفاقم الوحشة، ويُساء الوليّ ويُسرّ العدوّ، ويجد الحسّاد سَبيلاً إلى أمرٍ كانت عنه أعينهم مَغْضوضةً، وأيديهم مَقْبوضةً وأمانيهم خائبةً، وظنونهم كاذبة. وتزول حينئذٍ هذه الدَّوْلة عن سيرتها العادلة، وسُنَنها الفاضلة، والآداب التي قرّرتها المشيخةُ لأولادها، والأسلاف لأخلافها، في التآزر والتعاضد، والتضافر والترافد؛ فإنّ تلك الأصول الصَّحيحة، والآراء السَّديدة هي التي جمعت الشملَ، ونظمت الحبلَ، وحرست الحوْزة، وكلأت النِّعْمة، وحمت من كَيْد الكائدين، وإرْصاد المرصدين.

وقد كتبتُ - أيّد الله الأمير - إلى الأمير عَضُد الدَّوْلة كتاباً خاصّاً أنفذتُ نسخته دَرْج هذا الكتاب من حيث لم أطالع مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة قبل شُخوصه مشافهةً، ولا بعده مكاتبةً بشيءٍ من مُتضمَّنه، لأنني رأيتُ أنّ هذا الباب من الأبواب التي طيّها

عنه أولى بالخدمة، وأعود بالفائدة، ولكنني[١] استعملتُ في الكتاب طَرَفاً من الإفصاح، وذهبتُ فيه مذهباً من التّصريح، اقتضانيهما ما عليه مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة من شدّة التألّم والعزم على لقاء كلّ أمرٍ بمثله، وأنْ يمدّ يده إلى الأسباب والأصحاب متى أُخِّر عنه أسبابُه وأصحابُه. وكان صِدْقي عن ذلك قبل خُروجه إلى الفعل، وظُهوره لأهل الشنان والودّ أوْلى وأحْمد، وأجْدى وأعْود، ولا سِيَّما مع ما ألزمنيه الأمير من عِمارة هذه البلاد، ومعالجة[٢] جرحها بالإدمال، وحاجتي إلى التفريغ لذلك، والمعونة عليه، والسُّكون إلى انحسار ما يمنع منه، ويشغل عنه؛ ولأنظر: فإنْ كان الفَسادُ مأموناً، والأذى محسوماً، وإلّا خلّيت الأمر مع المقدور الذي أنا إنْ غَلَبني معذور.

فإنْ رأى الأمير أنْ يتطوّلَ بتأمّل ذلك بعين سياسته، ويدبّره بصواب رأيه، ويوعز بإنْفاذ كتبٍ، وإرسال رُسلٍ إلى الأمير عَضُد الدَّوْلة تسبق إليه، قبل حدوث ما يُشفق منه، ويبعثه على رَبِّ محاسنه، وسُلوك أرْشد مذاهبه، ولُزوم أكرم مناقبه في الوفاء بتلك التقريرات، والإنجاز لها، ورَدّ الطّائفة المنجذبة معه من العُمّال والضُّمناء، وإظهار ما إذا أظهره أظهر ها هنا أضعافه من كلّ ما يحسم الإرجاف ....[٣] ويزعم أهل الخلاف، ويأمر - أعلى الله أمره - بإجابة أتشرّفُ بها عن هذا الكتاب مشتملةٍ على أمرٍ أمتثلُه، ونهيٍ أقفُ عنده إنْ شاء الله.

---

(١) مكانها مخروم في ج، لم يظهر منه إلّا اللام، فقدّرنا الكلمة تقديراً. وهذا الجزء مفقود في ط.

(٢) ج: معاجلة.

(٣) كلمة مكانها مخروم في ج.

وكَتَب
إلى الأمير مؤيِّد الدَّوْلة[١]

أنا - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير - أُحافظ على المكاتَبة الجارية على رَسْمها في النُّوَب محافظةَ الملتزِم لفريضة الخدمة، المستدعي للتشريف بالإجابة، وإذا عرض المهمّ الذي تجب المكاتَبة بشرحه، أو المطالعة بكُنْهه، انبسطتُ في إيراده ليتأمّله تأمّلَ مثلِه، ويدبّره بثاقب رأيه، ولا سِيَّما إذا كان ذلك في الأمور العامّة التي لا تخصّ حينةً دون أختها، ولا جهةً دون صاحبتها. وقد علم - أدام الله عِزّه - بالأنباء المتتابعة، والمكاتَبات المتردّدة ما جرى الأمر عليه في إنْجاد مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة لما استنجده، وإصْراخه لما استصرخه. وأنّ كلاً منهما فعل الفِعْل الحميد، وسَلَك المنهج الرشيد، وأثّل المكرمة التي يبقى له ذكرُها وفخرُها، ويتظاهر عليه سَناؤها[٢] وبهاؤها.

أمّا الأمير عَضُد الدَّوْلة فبأنْ[٣] أجاب الدّعوة، وأسرع النهضة، ووَصَل الرّحم، وقضى الحقّ السّالف، وألزم الحقّ المستأنف، [و] أمّا الأمير عِزّ الدَّوْلة فبأنْ أحلّ ثقته منه في محلّها، وأنزل رغبته بمستحقّها، وعرف له فَضْل سِنِّه، وقدّمه في المنزلة على نفسه،

---

(١) چستربتي. (إلى الأمير مؤيِّد الدَّوْلة) إضافةٌ منّا.

كتب الصابي هذه الرسالة إلى الأمير مؤيِّد الدَّوْلة يخبره فيها بعض جوانب علاقة سيده عِزّ الدَّوْلة بعَضُد الدَّوْلة. وكتبها - كما قال - دون علمٍ من عِزّ الدَّوْلة. وهي متعلقة بالرسالة السابقة.

(٢) كلمة لم يبق منها إلّا (ناوها) قدّرناها تقديراً.

(٣) في الأصل: فان.

وكانت النِّعْمة في ذلك قد كملت كمالاً كثيراً ما تُسرع إليه العينُ فاعترضت فيه نَزَغات الشّيطان وكَيْده، واغتياله ومكره وأحدث ذلك للأعداء تطاوُلاً إلى ما كانت عُيونهم عنه كليلةً، وأيديهم دونه مغلولةً. فلولا أنّ الله بلطفه نبّه من الغفلة، وأيقظ من السِّنَة وهدى مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة إلى الاستدراك والتّلافي، وعَصَمه من الاستمرار والتّمادي، وعَطَف به إلى السَّنَن اللائق بمَحاسنه، الشبيه بمَناقبه، ووَعَظه في الأمر الذي كان هو أغلب فيه رأيه بفتوقٍ انفتقت، وتدبيراتٍ انعكست، وظنونٍ عاق المقدور عنها عَوْقاً هو أحمد من تمامها، وأسلم عقبى من تحقّقها، إذن لَتَرامى الأمر إلى ما نحمدُ الله على أنْ كفاناه، ونشكره على أنْ وقاناه.

وكان - أيّده الله - لما أزمع الانصراف عن هذه البلاد تبيّن ما لحقها من الاجتياح بعد الاستنقاذ، ومن الإذالة بعد الإعزاز، فتذمّم وأسْمَحَ، وانعطف وأسْجَحَ، وجرت معه مقاولة انتهت إلى أنْ وَعَد بردّ ألفي ألف دِرْهَم من عرض الأموال الكثيرة المستخرَجة، وبإقطاع سَيِّدي الأمير عُمْدة الدَّوْلة من ناحية .... [1]، وواقف على ألّا يستصحب أحداً من عُمّال وضُمناء لنا كانوا اعتصموا به، وقدّروا أنْ يكسروا ما عليهم من المال بالانحياز إلى جنبته. فلمّا سار - أيّده الله - وعَرُضَت الشُّقّة، وبَعُدَت المسافة، سامَح نفسه بتأخير ما وعد به، والمدافعة بما شرطه والتزمه، واستضمّ هؤلاء العُمّال والضُّمناء إلى جملته، وعليهم نحو ألف ألف دِرْهَم واجبة هي كالمنكسرة به، ومن أجله.

ولحق الأمير عِزّ الدَّوْلة من ذلك ألم شديد، ومَضَضٌ عظيم. وكنتُ إذا كرّر الشكوى إليّ أكرر التطبيب بنفسه وأسكّنُ فيها أنّ الأمير عَضُد الدَّوْلة أجلّ خطراً،

---

(١) فراغ بمقدار كلمة.

وأعظم شأناً من أنْ يفسخَ عقداً عقده، أو ينقضَ عهداً عهده.

وبينا نحن في هذا الحدّ من الأمر إذ تواترت كتب أولئك الهرّاب معه إلى أقاربهم وخلطائهم بعزمٍ قد أُجمع عليه في تطرّف هذه البلاد، ومَدّ اليد إليها. وانتشر من هذا الإرجاف ما ولّد للأعداء تنزّياً بعد قبوع، وتخايلاً بعد خضوع.

وثار مَن في هذه الممالك من الدَّيْلَم والجيل والأتراك والعرب وأهل النّواحي والبلدان الذين قد ظهر واشتهر ما عندهم لمَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة من بذل النُّفوس في نُصْرته، والسّماحة بها في طاعته إذ كانوا ناشئين معه وفي أيّام الأمير الماضي رضي الله عنه، وأيّامه من بعده. وقد جرت مُوالاته منهم في مجاري الأنفاس، واغتذوا بها مع لِبان الأمّهات. فالله يعلم - أطال الله بقاء الأمير - ما تَداخَلَني لذلك من القلَق الممضّ لأحوالٍ كثيرة، منها الإشفاق على فَضْل مَوْلاي الأمير عَضُد الدَّوْلة من أنْ يتطرّق عليه مَعابٌ لعائب أو مقالٌ لثالب، وأنْ يسلكَ - أيّده الله - عائداً سبيلاً قد كان استوعرها بادئاً، ويتقلّد البغي الذي نهى الله عنه، وعرّف عباده سوء مغبّته إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[1]، وإذ يقول: ومَن ﴿بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[2]، ....[3] ما مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة، فإنّما يُشفِق ويُشفَق له من ضرورةٍ تقودُه إلى مخالفة مَن يرى موافقته، ومدافعة مَن يوجب مساعدته، ومن انفراج حالٍ بينه وبين مَن يجري مجرى الأخ له.

فأمّا ما سوى ذلك، فهو - أدام الله عِزّه - فيه على ثَبَجٍ من الاستظهار لا يتقلّد من

---

(١) سورة يونس، من الآية ٢٣.

(٢) سورة الحج، من الآية ٦٠.

(٣) كلمة مخرومة، لم يبق منها غير (ذا).

ركبه بغياً، ولا يخاف مصرعاً؛ لأن مَن دفع عن ماله أعذر ممّن طلب ما ليس له، ومَن رجع من الثّقة بالله، وجميل عادته، وكثرة عدد الرِّجال، وخلوص نيّات الأصحاب، إلى ما يرجع - أيّده الله - إليه، فنُصرة الله له سَريعة، وكفايته إيّاه وَشيكة.

وكتبتُ هذا الكتاب - أيّد الله مَوْلانا الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - على غير علمٍ من أخيه ومَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة، ومن حيث لم يدعني إلى أنْ كتبتُه ضَعْف مُنّة، ولا نقصان نَجْدة، ولا اعتراض خَوَد، ولا استشعار جزع. لكن لأبلغَ أقصى ما يلزمني من نصيحة الدَّوْلة، والإهابة بالجماعة إلى الألفة، والإفصاح في ذلك بالقول الذي إنْ لانَ فللمقاربة، أو خَشُن فللمَوْعظة. وأنا في كلتى هاتين الحالين على سَبيل الخدمة. وإذا تأمّله - أدام الله عِزّه - وتبحّر قولي كلّه، أيقن أنّ مذهبي فيه مذهبُ الباذل في الإصلاح جُهْده، المستفرغ وُسْعه. وكان حقيقاً بأنْ يكاتبَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة ويراسله بما يعطفه إلى جميل عادته، ويردّه إلى كريم خَليقَتِه، ويدعوه إلى الإعفاء بذلك اليسير المردود من الكثير المحسوب، على تصرّف الحالات من مننه المعدود في أياديه، والتقدم بالقبض على أولئك الهاربين وبإنْفاذهم إلى هذه الحَضْرة ليُستوفى الحقّ منهم، وإغناء مَوْلاي الأمير عِزّ الدَّوْلة عن مقابلة ما يُعامل به في أسبابه[1] بمثله، فإنّه لا يزال[2]...

في الأصل: أسابه.

(٢) تنقطع هنا قطعة چستربتي.

نُسْخة تَذْكِرةٍ من عِزّ الدَّوْلة إلى مؤيِّد الدَّوْلة صحِبَتْ أبا جعفرٍ بن أحمد بن مُحمّد الخيّاط في شكوى[١]

تقصِدُ، يا أبا جعفر مُحمّد بنَ أحمد - أعزّك الله - حَضْرة سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - أدام الله تأييدَه - وتبلِّغُه من سلامِنا أطيَبهُ وأهناه، وأتمَّه وأوْفاه، وتُعلِمُه - أيّده الله - ما نحن عليه من مُراعاة أخبارِه، واستطلاع أحوالِه، والسّرورِ بما نَظَم اللهُ من شأنه، وأعزَّ من جانبِه، وذَلَّل صِعابِ الأمور له، وسهَّل من مُتَوعِّرها عليه، حتى انقادت بخَزائمِها، واستمرَّت على إذلالها، وأجرى اللهُ على أحسنِ عاداتِه، وأجمل شاكلاتِه في أمثالِها. وتُوردُ عليه ما سمعتَ من لفظِنا، وعرفتَ من معتَقَدِنا، ممّا تتضمّنُ هذه التَّذْكِرة جُملَته.

وعليك - أعزّك الله - أنْ تلخّص[٢] ما يوافقُها من تَفْصيلها، وهو أنّه - أدام الله عِزّه - إذا رجَع إلى سالفِ نِعَم الله على آبائنا - رضي اللهُ عنهم - التي سَبَقت إليهم، وسَبَغت عليهم، ووَرِثْناها عنهم، واستَوْسَقَت لنا بعدَهم، وَجَدها نِعَماً ثبتَتْ بعدَما سبَّب اللهُ من أسبابِها، ومكَّن من أطنابِها، بالتعاضُد والترافُد، والتضافُر والتآزُر[٣]، وبأنْ

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (من عِزّ الدَّوْلة إلى مؤيِّد الدَّوْلة) إضافةٌ منّا للتوضيح.

عن أبي جعفر الخياط، انظر: رسائل الشيرازي، ص٥٥.

(٢) ر: تخلص.

(٣) ف: التوازر والتناصر.

عرَفَ كلٌّ منهم حقَّ صاحبه، وخَرَج من الواجب له عليه، إعظاماً من الأصغرِ للأكـبر، وحُنُوّاً من الأكبر على الأصغر، واشتراكاً في النُّفـوس والأحـوال، وافـتراداً في الممالـك والأعمال، وكفّاً في ذلك عن التطرُّف، وتجنُّباً للتحيُّف، ووُقوفاً عنـد الحـدود، ومحافظـةً على العهود، وإقراناً للحُسّاد، واجتماعاً على الأضداد، وتقـابُلاً في النِّيّـات، وتصـافياً في الطَّوِيّات، وأمناً على حُشاشةِ النَّفْس، وما لَمَّت[1] به ذاتُ اليد. حتى أنهم – رِضـوانُ الله عليهم، وإنْ كان المُلْـكُ عقيـماً، والـدّاءُ في محبـة الاسـتبدادِ بـه مُعضِـلاً قـديماً – كـانوا يفتـرقونَ السِّنين الطِّوال، ثم تضُمُّهم بعـدَها الأوطـان، وتُقـرِّبُ بعضَـهم مـن بعـض حوادثُ الزّمان، فيكونونَ كمَن لم تَترامَ بهم الأسـفار، ولا فـرَّقَ بيـنهم انفصـال، غـيرَ فاسِخينَ لعَقْد، ولا متنافقينَ في وُدّ، ولا مُضِبِّينَ على حِقْد، ولا مشتملينَ على ضِغْن، إلى أنْ مَضَوا كابراً عن كابر، على آدابهم الحَسَـنة، وأُصـولهم المُتْقَنـة، ومَسـاعيهم الرَّضِـيّة، وسَجاياهمُ الزَّكيّة، وسَنّوا لنا السُّننَ النّافعةَ التي لم يُبعد عهـدُنا بهـا، ولا أنْ يَعفُـوَ بيننـا رَسْمُها، لكنّا أوْلى منهم باقتفـاءِ سـبيلها، واتّبـاع دليلِهـا، إذ كـانوا نَهجوهـا مُفتتحـينَ، وأخَذْناها عنهم متأسِّين. والاقتداءُ أسهلُ من الابتداء، والاتّباعُ أخـفُّ مـن الابتـداع، وحِفظُ الشيء الموجود أيسرُ مَحْمَلاً من اكتساب المفقود.

وكانوا – رحمةُ الله عليهم – ثلاثة، ونحن أكثرُ عدداً، وأوسعُ وِراثة. فمن كلِّ جهةٍ تُلزِمُنا المُلزمات، وتدعونا الدَّاعيات إلى أنْ نتعاطفَ ونتآلف، ونتشابكَ ونتلاحَك[2].

وقد كان مَوْلانا الأمير عَضُد الدَّوْلة زَلّ في زيارتِه إيّانا زلّةَ العالِم، وعَثَر عثْرةَ الجَواد، فاتّفقتْ له أوّلاً، ولنا ثانياً اتفاقاتٌ شتّى أنقَذَتْنا من الخُطّة، وأنقذَتْه من الشَّنْعة، وأعادتْه إلى كرَمِه، وفاءت به إلى أفضل شِيَمِه. وألزَمْنا أنفُسَنا بعد الذي أثَّر فيها، وكدَّر

(١) في الأصول: ما إذا لمت.

(٢) الملاحكة: شدة التئام الشيء بالشيء. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٤٨٣ (لحك).

صافيها، أنْ نرفعَه عن مقام التّهجين، ونذهبَ به عن طلب القِصاص، وأنْ نَقْبَل عُذرَه على عِلّاتِه، وننسُبَه إلى أجمل جهاتِه.

فأسجَحْنا لما مَلكْنا، وأغضَيْنا لما تمكَّنّا، وأسقَطْنا عنه اللّائمةَ على المُبتدا، وأوجَبْنا له المحْمَدةَ في المنتهى، وأُصعِد عن هذه الحَضْرة موفوراً مجبوراً، معذوراً[1] مشكوراً، مُخدَّماً[2] مشيَّعاً، مقدَّماً متَّبعاً، محسوباً له غيرَ مُحاسَب، مسموعاً منه غيرَ مُناقَض، مخطوباً له في أعمالنا قِبَلَنا، مَسْموحاً من ذلك ما كان يعِزُّ أنْ يجدَه أحدٌ غيرَ الأمير رُكْن الدَّوْلة - نَضّر الله وَجْهه - عندنا، وأملْنا أنْ ينظرَ - أدام الله عِزّه - في مستأنَفِ الأيّام، ومستقبَل الأحوال[3]، بعَيْنٍ قد تجلَّى عنها عَوارُها، وبصيرةٍ قد انحسر عنها ما اعتوَرَها، وتَبينَ منه - أيّده الله - لنا أجمعين آياتُ النَّدامة، وأسبابُ الاستقامة؛ فجَرى الأمرُ منه على الضدّ، وسَلَك سَبيل العكس، إذ ما تزالُ تتّصلُ بنا أراجيف، وتبلُغُنا أعاجيب، وتأتينا قوارضُ، وتلذَعُنا لَواذعُ لو تجرَّدت عن شهاداتٍ بها، وعلاماتٍ لها بقَبول كلِّ هاربٍ منّا، والإقبالِ على كلِّ منحرِفٍ عنّا، وما أشبَه ذلك من الاستعداد المُوحِش، والاعتقادِ الرّائب، لَنَبذْناها وراءَ الظّهور، وجعَلناها دُبُرَ الآذان، وألقَمْنا رُواتِها الحَجَر، وتناولناهم بأوجعِ الأدب، ورجَعْنا إلى عَمُودِ الثّقة فلزِمناه، وإلى مِنهاجِنا فانتهَجْناه.

وكان وكنّا في ذلك على تقابُلٍ في النِّيّات، وتقارُضٍ للأعمال، وما بشيءٍ من جميع ما ذكَرْناه خفاءٌ عن الأمير، بل لعلّه يعرفُ أكثرَ ممّا نشرحُه، ومُستيْقِنٌ أضعافَ ما نُوضحُه. وليس على هذا وأمثالِه يتوادعُ المُتوادِعون، ويتَسالمُ المُتسالِمون، فَضْلاً عن أنْ يَتَواخى

---

(١) ساقطة في ر.

(٢) هذا ما في ع، وفي ما دونها: مخدوماً.

(٣) ساقطة في ف.

المُتواخُون، ويَتصافى المُتصافُون.

وبالله، ما يسُرُّنا أنْ نَجْري معه إلى غايةٍ من شَعَث الحال قاصيةٍ أو دانية، فنكونَ فيها قاهرينَ ولا مقهورين، ولا ظالمينَ ولا مظلومين، بل الأحبُّ إلينا والأوْلى بنا أنْ يكون كلٌّ منّا مَحْميَّ الأرجاءِ والأكناف، مَصُونَ الأوساطِ والأطراف، راقدةً عينُه عن مراقبة أخيه، ساكنةً نفْسُه إلى ما يُبديه ويُخْفيه. فإنْ فعَل هذا الأمير السَّيِّد فعلاً يستوي ظاهرُه وباطنُه، وتنزاحُ أسبابُ الارتيابِ والاتّهام عنه، ويحصُلُ لجماعتنا السُّكون إليه والتيقُّنُ له، فهو النّازلُ منزلةَ الأمير رُكْن الدَّوْلة - قدَّس اللهُ روحَه - عندنا، القائمُ مُقامَه لنا، الماضيةُ رِياستُه علينا، الصّادقةُ في مُوالاتِه ضَمائرُنا. وإنْ تكنِ الأُخرى - ونعوذُ بالله منها - فاللهُ يُسدِّدُه ويرشدُه، ويُعيننُا ويُنْهضُنا، بقُدْرته.

وسَيِّدي الأمير على حقيقة الأمرِ ومعناه مُنتصِبٌ في المَقرِّ الذي كان سَيِّدنا الماضي - غَفَر اللهُ له - مستقرّاً فيه، ونازلٌ في نفوسِنا أعلى محلٍّ وأجلَّه، ونحن وهو - أيّده الله - على أصولِنا في الصّفاءِ الذي لم يعترضْه - والحمدُ لله - شيءٌ يَشِينُه ويَعيبُه، ولا قَدَح فيه ما يُكدِّرُه ويَشُوبُه، والمخاطبةُ له منزَّهةٌ عن أن تُبنى على استصلاحٍ من فساد، واستعادةٍ إلى جميل، واستكفافٍ من طَمَع، أو مُدافعة عن حقّ، بل على استدامةٍ لما هو عليه من سُلوكِ السَّنَن اللّاحب، وحفظ الأواصرِ واللّوازب. وظنُّنا به أحسنُ ظنٍّ وأجملُه، ويقينُنا فيه أصحُّ يقينٍ وأخلصُه، وبحسَب ذلك انبساطُنا في الخروج إليه بحَوْجاءِ النَّفْس، ومكنونةِ الصَّدْر، وهو - أدام الله عِزّه - عندنا محتاجٌ فيما يُهمُّه ويَخُصُّه قبلَ ما يُهمُّنا ويَخُصُّنا إلى استشفاف الدَّخيلة واستبطانِ السَّريرة، وإنْ كانت أعمالُه التي تخُصُّه، وأعمالُنا التي تخُصُّنا، وأعمالُ سَيِّدي الأمير فَخْر الدَّوْلة أبي الحسن - أدام الله عِزّه - التي تخُصُّه، جاريةً على رُسومِها، وقائمةً على حدودِها، واستَعمل معنا ما يُعيدُ القلوبَ إلى بَرْدِ الثِّقة، ويُميطُ عنها حرارةَ الشُّبهة، وإلّا فلْينظُرْ لنفسِه وللجماعة نَظَر الحازم ليأمَن

عاقبةَ النّادم، وليعتقدَ متى امتدَّت إلى جهةٍ من جهاتِنا، وجَنَبةٍ من جَنَباتِنا يدٌ طامعةٌ أو عينٌ طامحة، وإنْ كان ذلك بفضل الله لا يستقرُّ لمن يَرومُه، ولا يستمرُّ على مَن يُرامُ فيه أنْ يكون – أيّده الله[1] – ونكونَ للحائفِ خصوماً وللمَحيف عليه أنصاراً، فإنّ الزَّيْغَ إذا كان في جانب، فالاستقامةُ في باقي الجوانب، كان اجتماعُ الكبيرَيْن المتَّفقَيْنِ على الواحد المُخالف أقربَ إلى إنابتِه، وأدعى إلى إفاقتِه، وأربَّ للنِّعَم، وألمَّ للشَّعَث، وأحرسَ للأصول، وأحْوط على الفروع من أنْ يكون الخلافُ فاشياً، والشَّتاتُ عامّاً، ونعوذُ بالله في نفوسِنا من شرِّ وَساوِسها وهَواجِسها، وفي أحوالِنا من دَبيبِ عقاربِ التنافس والتظالمُ إليها، بمنِّه.

وإذا أوردتَ – أعزَّك اللهُ – ذلك أسرعتَ إلينا بالجواب، فإنّنا نؤْثرُ تعجُّلَ عِلْمِه ليكونَ التّدبيرُ والعملُ بحسَبِه إنْ شاء الله.

وكَتَب يومَ السّبت لعَشْرِ ليالٍ بقِينَ من جُمادى الأُولى سنة ستٍّ وستّين وثلاثمائة.

(١) ف: أن يكون الله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة إلى مؤيِّد الدَّوْلة(١)

كتابي، ومَوْلانا أمير المؤمنين سالمٌ مَوفور، والله على ذلك محمودٌ مَشكور، وأنا بخيرٍ ما مدَّ الله على سَيِّدي وعليَّ ظِلَّهُ، وأشعَرَنا طاعتَهُ، وبَوَّأنا المنزلةَ الرفيعةَ عنده، وهذه نعمَةٌ هو -أيّده الله- لابسٌ لها، وحاصِلٌ معي فيها، ومحقوقٌ عليه ما يحِقُّ عليَّ من نَشْرِها والحديثِ بها، ولي بحَضْرتِه -أجلَّها الله- كُتبٌ ضمَّنتُها، من عُجَري وبُجَري(٢) ما لا يَسَعُني طَيُّهُ دُونَه، ولا مذهبٌ لي فيه غيرُه، وكان السّابقُ منها في معنى العَتْبِ على مَوْلانا الملِك، والتألم ممّا لا يَزالُ يأتيني به من قَوارِصِه، ويَلذَعُني من لَواذِعهِ، والتّالي مشروحاً فيه ما حكاهُ فاذار بن يَزْد فيروز أحَدُ خاصَّتي، النّافِذُ كان إليه -أيّده الله- للتعزيةِ من جميلِ ما لقِيَهُ به وحمَّلَهُ إيّاه، وأنّ الذي أبداهُ قولاً يُخالفُ لما يُبديهِ من استعدادِهِ وتأهُّبِه، وأنّني غلَّبتُ الحَسَن على القبيح، والظاهِرَ على الباطن، واعتقَدْتُ إنْفاذ الشريفِ أبي أحمدَ برسالةٍ أشكرُ فيها ما يُشكَر، وأستَعْفي ممّا يُنكَر، وأستجِرُّ الصَّفوَةَ، وأستدفِعُ الجَفْوَة، وقدَّمتُ أمامَهُ فاذار هذا مُستأذِناً له، ومُستدعِياً تلقِّيه بما يُؤنِسُه، إيثاراً لدَوامِ الأُلْفة، وكَراهةً لوقُوعِ الفُرقة، وتَقْليداً للبَغْي وإبلاءً للعُذر، وذَهاباً به -أيّده الله- عن أنْ يُنسَبَ إلى تقطيعِ الأرحامِ، وإخفارِ الذِّمام، واستعمالِ ما يسُرُّ العدُوّ، ويسوءُ الوليَّ، ويُنافِي الصَّوابَ، ويُخالفُ الصَّلاح.

---

(١) ليدن.

(٢) تقول العرب: أطْلَعْتُك على عُجَرِي وبُجَري، أي همومي وأحزاني. لسان العرب، ج٤، ص٥٤٢ (عجر).

فنحنُ في هذا -أيّد الله سَيِّدي- إذا حضَرَني الأولياءُ على تتابُعِ وتواتُرِ كُتُبٍ[١] وَرَدتْ عليهم قُدِّرَ بها الإفسادُ والتخييبُ لهم، وظَفِرْتُ بعدَهُ كثيرةٌ[٢] من الجواسيسِ معَهُم، خَواتيمُه[٣] والكتُبُ التي تُبذَلُ فيها الرغائبُ للأولياءِ عنهُ، الذين ما فيهم إلّا نافِرٌ ممّن يأتيه، كارِهٌ لمذهبِهِ فيه، فوالله ما أساءني ذلك لنفْسي، بل لهُ، ولا خَشِيتُ أنْ يَضُرَّ بي بل به، لأنّ أولياءَ هذه الجَمْرةِ أوسَعُ أحوالاً، وأرخَى بالاً، وأرفعُ معاشاً، وأكثُ رِياشاً، وأثقبُ بَصائر، وأخلصُ ضَمائر، وأعرَفُ بي وبه، وأعلَمُ بما عندي وعندَهُ من أنْ يُصْغوا إلى جهتِه أو يَميلوا إلى جانِبِهِ، أو يوتغوا[٤] أديانَهُم بالانحرافِ عني، والخِيانةِ لي، لي، والكُفرِ لنِعمتي، والاطّراحِ لحقِّ صَنيعتي.

ولما عَرَف مَوْلانا أمير المؤمنين ذلك، أنكرَهُ طويلاً، وامتَعَض منه شديداً، وانزَعجَ عن دارِ الخلافَةِ سائراً، وعَمِل على الانحدارِ لتوسُّطِ عساكرِهِ مُبادراً. وثارَتِ الخاصّة والعامّة وأهلُ البلادِ والسَّوادِ، والأوساطُ والأطرافُ، وأنا -أيّد الله سَيِّدي- مع ذلك وفي خِلالِهِ أذكرُهُ بالتعظيمِ، وأكسُوهُ شِعارَ التفخيم، وأمنَعُ من انهتاكِ السِّتْر، وأتحرَّزُ من انخراقِ الأمر، غير قاطعٍ ما كنتُ أُقيمُ له عليه من الخُطْبة، ولا مُفارِقٍ معه بحُسنِ العِشرةِ، ولا مانعٍ أصحابَهُ وأسبابَهُ من أنْ يَقْضُوا حاجاتِه وأوطارَهُ ويُنفِذوا أمرَهُ ونهيَه، وتتردَّدَ المكاتَباتُ والمراسلاتُ بينهم وبينه ممكَّنينَ منها. وليس لي بحَضْرتِهِ صاحِب، ولا عليه من جِهتي مُتَخيَّرٌ[٥]، وإذا نَفذَ إليه رُسُلي اعتُقلوا وضُيِّقَ عليهم، وعُومِلوا بما

---

(١) في الأصل: كتباً.

(٢) كذا.

(٣) كذا.

(٤) الوَتَغ: الإثم وفساد الدِّين. ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص٤٥٨ (وتغ).

(٥) في الأصل: متحير.

يُعامَلُ به رسُلُ الأعداءِ القاطعين، والأضدادِ الصّارِمين، فنحنُ جميعاً في ذلك وفي ضُروبٍ تَـجري مَجراهُ وتُشاكِلُهُ كما قال الشّاعر في البيتِ السّائر:

دَعـاني أشـبُّ الحربَ بينـي وبينَهُ فقلتُ له لا بل هلُمّ إلى السِّلْمِ[1]

وليسَ يجوزُ مع ما بين سَيِّدي الأمير وبيني، وما وفَّرَهُ الله من مُـخالصتِه ومُصافاتهِ إليَّ، أنْ أذخَرَ عنه شيئاً يتجدَّد، ومُخاطبةً تتردَّد، أو حالاً تُذَمُّ أو تُحمَد، توفِيَةً له شُروطَ الأُخوَّة، ووُقوفاً معه على حُدودِ المَودّة. ويُشتَهرُ عنده، وعندَ كُلِّ بعيدٍ وقريبٍ، وغريبٍ ونَسِيبٍ، أنّ رداءَ البغْيِ مَوضوعٌ من عاتِقي، ووَثائقَ الحُجَّةِ حاصلةٌ في يَدي، فآمَنُ من الملامةِ، وأسلَمُ من النّدامة، وأتنجَّزُ من الله جميلَ العادة، وأستحِقُّ مِنهُ المزيدَ والمادَّة.

والوَحْشَةُ - أيّد الله سَيِّدي - متى استمرَّت - والله يُعيذُ منها ويَـحرُسُ من تفاقُمِهَا - شعث كثيرة[2] العَدد، وجَرائر عَظيمة الضَّرر، والمسلمونَ جميعاً وأصحابُ الأطرافِ يَعرِفونَ لنا فَضْل ما في أيدينا من خدمَةِ السَّرير، والاتّفاقِ في الأُمورِ، والاقترانِ لكلِّ مُناوِىءٍ ومُعاند، والاجتماع على كلِّ عدوٍّ وحاسد، فإذا لاحَ لهم أنّ أيديَنا تارِكةٌ للترافُد، وآراءَنا زائلةٌ عن التعاضُدِ، طَمِعوا منّا فيما لم يكُنْ فيه مَطمَع، ورَتعُوا من ذكْرِنا، والطَّعنِ علينا فيما لم يكُنْ بمَرتَع، وتوجَّهتِ الحُجَّةُ على مَن يكون الإمامُ -أيّده الله- مُحارِباً له، وبريئاً منهُ، وكان ذلك من الفُتوقِ العَظيمةِ على دَولتِنا والمكائدِ الشديدةِ علينا.

فإنْ رأى سَيِّدي الأمير أنْ يتأمَّلَ كتابي هذا وما تقدَّمَهُ، تأمُّلَ مثلِهِ ممّـن لا يسـعُهُ أنْ يُغضيَ في ذاتِ البَيْنِ على قذًى، ولا يُطلِقُ عليها اعتراضَ أذًى، ولا يُقعِـدُه عـن إخوتـه

---

(١) لبلعاء بن قيس الكناني، أحـد شـعراء مـا قبـل الإسـلام. البصـري، الحماسـة البصـرية، ج١، ص٦٣.

(٢) في الأصل: كثرة.

وأهلِه -لا زالَ شملُهم مجموعاً وعِمادُهم مرفوعاً- عَوْناً للمُنصِفِ، وكفاءاً للمتحيِّف، وأعـدى للمسـتعدي، ورَدّاً للمُتَعـدِّي، وقَصْـداً لـدَوام الصَّـفاء، وانحسـامِ الجفـاء، وحراسةِ سَيِّدنا عن أنْ يُحْرِجَنا بما يفعَلُه، ويُحْرِجَنا عن طاعتِه بما يَستعمِلُه، فقد عَلِـمَ الله عزّ وجلّ، وعَلِمَ أنّني لا أستعفي من الشرِّ خَوفاً ولا ضَعْفاً، ولا جُبناً ولا وَهناً، وكيفَ ذاك ونعَمُ الله عندي مُؤَثَّلةٌ ومستحدَثَةٌ، ومُتلَدةٌ ومُطرَفَةٌ، وأسبابُ القوَّةِ حاصِلَةٌ لي من طاعةِ السُّلْطان، وشَرَفِ المكان، وكثرةِ الأعوان، وامتناعِ البُلدان، وانصـبابِ المحبَّـةِ في القلوب، وتخميرِها في النفوس ! وأحصَفُ تلك الأسبابِ وأحصَرُها، وأمَرُّها وأبرمُها: الثقَةُ بالله أوّلاً، ثم سَيِّدي ثانياً.

والمشهورُ المأثورُ من أنّ هذا السَّيِّد الملِكَ مُحاوِلٌ أنْ يَستبيحَ منّي حَريماً، ويَركَب عظيماً، وأنّني لستُ في مُدافَعتِهِ مَلُوماً، ولا في مكافحتِهِ مَذْموماً ولا سِيَّما ما تعفَّت كُلومي منه السّالفَة، ولا انْدمَلَتْ جُروحي الماضية، ويَأمُر بإجابة أسكُنُ إليها وأشكرُ عليها، وأعمَلُ بحسَبِهَا، وأحتَذي آراءهُ وأمثِلتَهُ فيها مضمَّنةً أخبارَه وأحوالَهُ وأمرَهُ ونهيَهُ، ومُتَجدِّدَ المواهبِ لهُ، والنِّعم عنده، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب مواصفةً بالصّلح بين شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبي الفَوارس وصَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبي كاليجار في النصف من صفر سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائة[1]

هذا ما اتّفق واصطلح وتعاهد وتعاقد عليه شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبو الفَوارس وصَمْصام الدَّوْلة أبو كاليجار ابنا عضد الدَّوْلة وتاج المِلّة أبي شُجاع بن ركن الدَّوْلة أبي علي، مَوْليا أمير المؤمنين الطّائع لله أطال الله بقاءه، وأدام عزّه وتأييده، ونَصْره وعلوّه وإذنه.

اتّفقا وتَصالحا وتَعاهدا وتَعاقدا على تقوى الله تعالى، وإيثار طاعته، والاعتصام بحَبْله وقُوّته، والالتجاء إلى حُسن توفيقه ومعونته، والإقرار بانفراده ووحدانيته، لا شريك له ولا مثل، ولا ضدّ ولا ندّ. والصّلاة على مُحمّد رسوله صلّى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً، والطّاعة لأمير المؤمنين الطّائع لله، والالتزام بوثائق بيعته وعلائق دَعْوته، والتّوازر على مُوالاة وَليّه، ومعاداة عدوّه، وعلى أنْ يمسكا ذات بينهما بالسِّيَر الحميدة، والسُّنَن الرَّشيدة التي سَنّها لهما السَّلف الصّالح من آبائهما وأجدادهما في التّآلف والتّوازر، والتّعاضد والتّظافر، وتعظيم الأصغر للأكبر، وإشبال الأكبر على الأصغر، والاشتراك في النِّعَم، والتّفاوض في الحظوظ والقِسَم، والاتّحاد بخلوص الطوايا والخفايا، وسَلامة الخواطر، وطهارة الضمائر، ورفع ما خالف ذلك من أسباب المنافسة، وجَرائر المضاغنة، وجَوالب النَّبْوة، ودَواعي الفرقة، والإقران لأعداء الدَّوْلة،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص١٠٥.

والإرصاد لهم، والاجتماع على دَفْع كلّ ناجمٍ، وقمع كلّ مقاوم، وإرغام أنف كلّ ضَارٍّ متجبّر، وإضراع خدِّ كلّ متطاولٍ مستكبر؛ حتى يكون المُوالي لأحدهم منصوراً من جماعتهم، والمعادي له مقصوداً من سائر جوانبهم؛ فلا يجد المنابذ على أحدهم مفزعاً عند أحد من الباقين، ولا اعتصاماً له، ولا التجاءً إليه لكن يكون مرمياً بجميع سهامهم، ومضروباً بأسياف نقمتهم ومأخوذاً بكُلّيَّة بأسهم وقوّتهم، ومقصوداً بغالب نجدتهم وشدَّتهم، إذ كانت هذه الآداب القَويمة، والطّرائق السّليمة جارية للدول مجرى الجنن الدافعة عنها، والمعاقل المانعة لها، وبمثلها تطمئن النِّعَم وتسكن، كما أنّ بأضدادها تشمئز وتنفر.

ولما وفّق الله تعالى شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبا الفَوارس وصَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبا كاليجار اعتقاد هذه الفضائل وإيثارها والتظاهر بها واستشعارها، ودعاهما مولاهما الطّائع لله أمير المؤمنين إلى ما دعاهما إليه من التّعاطف والتّآلف، والتّصافي والتّخالص، وأمر صَمْصام الدَّوْلة أبا كاليجار بمُراسلة شرف الدَّوْلة أبي الفَوارس في إحكام مَعاقد الأخوة، وإبرام وثائق الألفة امتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبو الفَوارس، أصغى إليه شرف الدَّوْلة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبّله تقبّل العالم اللّبيب، وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نَصْر خُرشيد يزدار[1] بن مافَنّة

(١) في الأصل أينما ورد: خرشيد بن ديار، وسيرد في رسالةٍ لاحقة على الوجه الصحيح، ج٢، ص٤٣٥؛ وكذلك عند: مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٤٢، ص٤٦٥؛ الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٢٤، وورد (خرشيد بن زيار) عند: الشيرازي، رسائله، ص٥٤؛ الصابي، رسوم دار الخلافة، ص٨٤، ص١٠٠، و(ابن ديار) عند: الشجري، الأمالي الخميسية، ج١، ص١٩٧. وهو من كبار أعوان عَضُد الدَّوْلة وخازنه، ودخل معه على الخليفة الطّائع لله، سنة ٣٦٧هـ ضمن مَن دخل معه من وجوه قُوّاده وأعوانه، وذلك حينما قرىء عليه عهد الخليفة وأُلبس التاج وعُقد له اللواء. وكان قد أنفذه برسائل إلى أخويه: مؤيد الدَّوْلة وفَخْر الدَّوْلة وإلى

بالمعروف من كفايته والمشهور من اصطناع الملك السَّعيد عضد الدَّوْلة وتاج المِلّة - رضوان الله عليه - له، وإيداعه إيّاه وديعة الإحسان التي يحقّ عليه أنْ يساوي في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين؛ فجرت بين صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبي كاليجار وبينه مخاطباتٌ استقرّت على أمورٍ أتت المفاوضةُ عليها، وأُثْبِتَ منها في هذه المواصفة ما احتيج إلى إثباته منها أمر عام للفريقين، وقسمان يختصّ كلّ واحدٍ منهما بواحدٍ منهما. فأما الأمر الذي يجمعهما عمومه، ويكتنفهما شموله، فهو أنْ يتخالصَ شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبو الفَوارس، وصَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبو كاليجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سَرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جرّه عليهما سُفهاء الأتباع من ترك التواصل، واستعمال التقاطع، ويرجعا عن وَحشة الفرقة إلى أُنس الألفة، وعن منقصة التّنافر والتّهاجر إلى منقبة التبارّ والتلاطف؛ فيكون كلُّ واحدٍ منهما مُريداً لصاحبه من الصَّلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقداً في الذبِّ عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذبِّ عما يختصّ به، ومسرّاً مثل ما يظهر من مُوالاة وليّه، ومُعاداة عدوّه، والمراماة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه، فإنْ نجم على أحدهما ناجم، أو راغمه مراغم، أو همّ به حاسد، أو دَلَف إليه معاند، اتّفقا جميعاً على مقارعته قريباً كان أو بعيداً، وترافدا على مدافعته دانياً كان أو قاصياً، وسمح كلٌّ منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزّمان ونُوَبه، وتَصاريفه وغِيَرِه، بما يتّسع ويشتمل عليه طوقه من مالٍ وعدّة، ورجالٍ ونجدة، واجتهادٍ وقدرة لا يغفل أخٌ منهما عن أخيه ولا يخذلُه ولا يسلمُه، ولا يترك نُصرته، ولا ينصرف عن مؤازرته ومظاهرته

قابوس بن وَشْمَگير. أخباره مبثوثة عند ابن الأثير الذي يسميه أبا نصر خواشاذه. الكامل، ج٧، ص٣٩٠، ص٣٩٢، ص٤٢٠، ص٤٣٠، ص٤٣٨، ص٤٥١، ص٤٦٤، ص٤٧١.

بحالٍ من الأحوال التي تستحيل بها النيّات من إرغاب مُرغَّب، وحيلة مُحتال، ومحاولة مُحاوِل. ولا يقبل أحدهما مستأمناً إليه من جهة صاحبه من جنديٍّ ولا عامل، ولا كاتبٍ ولا صاحبٍ ولا متصرّف في وَجْهٍ من وجوه التصرّفات كلّها، ولا يجير عليه هارباً، ولا يعصم منه مُوارباً، ولا يتطرّف له حسداً، ولا يتحيّفه حقّاً، ولا يهتك له حريماً، ولا يتناول منه طوفاً، ولا يُخيف له سبيلاً، ولا يتسبّب إلى ذلك بسببٍ باطن، ولا باعتلالٍ ظاهر. ولا يدع موافقته وملاءمته، ومعاونته ومظافرته في كلّ قولٍ وفعل، وسرٍّ وجَهْر على سائر الجهات، وتصرّف الحالات، ووجوه التأويلات. يلتزم كلُّ واحدٍ منهما ذلك لصاحبه التزاماً على التماثل والتعادل والتوازي والتقابل.

وأمّا الأمر الذي يختص شرف الدَّوْلة وزين المِلّة به، ويلتزمه صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة له، فهو أنْ يقدِّمه صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة على نفسه، ويعطيه ما أعطاه الله من فَضْل سنّه، ويطيعه في كلّ ما أفاد الدَّوْلة الجامعة لهما صلاحاً، وهاض من عدوّهما جناحاً، وعاد على وليّهما بعزّ، وعلى عدوّهما بذلّ، وأنْ يقيم صَمْصام الدَّوْلة الدعوة على منابر ما في يده من مدينة السَّلام وسائر البلدان والأمصار التي أحاطت بهما حقوقه، وضربت عليهما حدوده لأمير المؤمنين، ثم لشرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبي الفَوارس، ثم لنفسه. ويجري الأمر في نقش سكك دور الضَّرْب التي يطبع بها الدينار والدِّرْهَم في جميع هذه البلاد على المثال، ويوفي صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبو كاليجار شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبا الفَوارس في المكاتبات والمخاطبات حقّ التعظيم وشعار التفخيم على التقرير بينه وبين خُرشيد يزدار بن مافَنّة في ذلك.

وأمّا الأمر الذي يختصّ صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبو كاليجار به، ويلتزمه شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبو الفَوارس له، فهو ترك التعرّض لسائر ممالكه، وما يتّصل بها

من حُدودها الجارية معها، والإفراج منها عما يوده، ويسرع إليه أصحاب شرف الدَّوْلة وزين المِلّة، وتجنّب التحيّف له أو لشيءٍ من الحقوق الواجِبة فيها، ومُراعاته في الأمور التي يحتاج فيها إلى نظره وطوله وإجماله وفضله، وما يجب على الأخ الأكبر مراعاة أخيه وتاليه فيه ممّا ثبتت في هذه المواصفة جملته، واشتملت المفاوضة مع خُرشيد يزدار بن مافَنّة على تفصيله.

اتّفق شرف الدَّوْلة وزين المِلّة أبو الفَوارس وصَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة أبو كاليجار بأمر أمير المؤمنين الطّائع لله، وعلى الاختيار منهما والانشراح من صدورهما من غير إكراهٍ ولا إجبار، ولا اصطبارٍ ولا اضطرار، على الرّضا بذلك كلّه، والالتزام له، ويصير جميعه عهداً مرجوعاً إليه، وعقداً معمولاً عليه، وحَلَفَ كلٌّ منهما على ما يلتزمه من ذلك يميناً عقدها بأنْ يحلف صاحبها بمثلها على ما يلتزمه منه، فقال صَمْصام الدَّوْلة: والله الذي لا إله إلّا هو، ويستتم اليمين.

وكَتَبَ إلى صاحب أذَرْبَيْجان[1]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي - ونعمةُ الله في سَلامة مَوْلانا المِلك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أطال الله بقاءه[2] وعافيته، وعُلوَّ قَدْرِه[3] وجَدّه وسَعادته، ونَفاذ أمرِه ونَهْيِه، وامتداد ظلِّه وعزِّه - جاريةٌ على أفضلِ ما أوْلَى اللهُ منها وعوَّد[4] فيها، فله الحَمْد كثيراً والشكرُ دائماً.

---

(١) باريس، طهران.

لعل المقصود بصاحب أذَرْبَيْجان هنا أبو الهيجاء الحسين بن مُحمّد الروادي (ت٣٧٨/ ٩٨٩م) وهو من الأسرة الروادية التي حكمت أذَرْبَيْجان، فحينما ضعفت دولة بني السَّلّار الدَّيْلَم في أذَرْبَيْجان (انظر عنهم: فون زامباور، معجم الأنساب، ص٢٧٥) استطاع مُحمّد بن الحسين الروادي انتزاع بعض الأراضي من سيطرتهم، وهي الأراضي الممتدة من أذَرْبَيْجان إلى أرمينيا. ثم انتصر ابنه أبو الهيجاء الحسين بن مُحمّد على إبراهيم بن السَّلّار، ووسّع مملكته جنوبي نهر أراس. وظل خلفاؤه يوسّعون أراضيهم؛ فشملت مملكة الروادين في أقصى اتساع لها كل جنوب أذَرْبَيْجان، متخذين من تبريز عاصمة لهم. عن الروادين (٣٣٧-٤٦٣هـ/ ٩٤٨-١٠٧٠م). انظر: غيفونتيان، الإمارات العربية في أرمينيا البقرادونية؛ النقشبندي، أذَرْبَيْجان في العصر السلجوقي.

وهناك اختلافٌ في كيفية ضبط (أذَرْبَيْجان). وقد ناقش حسام الدين النقشبندي أصل التسمية ومعناها وتطور الصيغ المختلفة لنطقها في أطروحته (أذربيجان في العَصْر السلجوقي). ص٢٧ وما بعدها.

هذه الرسالة ردٌّ على رسالةٍ تعبّر عن ولاء صاحب أذَرْبَيْجان لصَمْصام الدَّوْلة البويهي.

(٢) (أطال الله بقاءه) من ط.

(٣) ساقطة في ط.

(٤) ب: (وعوّذ) بالذال المعجمة، خطأ وصوابه إهمالها، وهو دأب ناسخ ب في إعجام دال هذه الكلمة فيما يأتي مكرراً.

وأنا أعتقدُ من مودّةِ سَيِّدي ما يقتضيه فَضْله، ومَوْهبة الله الجليلة فيه، وأُوجبُ له ما أُوجبه للمشاركِ في الدَّوْلة، الضّارِب بأوفرِ السّهام في النِّعْمة، ولا أزالُ أُفاوِضُ في ذلك مَوْلانا الملكَ السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة - أدام الله أيّامه - فأجدُه متقبِّلاً له، ومعتقداً مثلَه، والأيّام بمُرورِها تزيدُ الأحوالَ تمكُّناً وتأكيداً، وتوطُّداً وتمهيداً، وَصَلها اللهُ بأحسنِها، وأعان على تأدية الحقِّ فيها.

ووقَفْتُ على كتاب سَيِّدي، فسَكنتُ منه إلى عِلم سَلامَتِه، لا زالت راهنةً لديه، متظاهرةً عليه - ورغِبتُ إلى الله تعالى في مزيدِه منها، ومن نِعَمِه كلِّها.

فأمّا ما بَذَلَهُ من نفسِه - صانَها الله - فقد وقَع جميعُه من مَوْلانا الملك - أطال الله بقاءه - ألطَفَ وأجمل[1] مواقعِه، واستحكَمَتْ ثقتُه بأنّ سَيِّدي يفي ويوفي، ويُغني ويكفي، وأنّه - أيّده الله - وليُّ أوليائه، وعدوُّ أعدائه، والمتحقِّقُ بأمورِه، والمتخصِّصُ بشؤونِه، لا أعدَمَناه اللهُ ولا أخلانا منه، وأعانَنا على الموجب، له والمعتقَدِ فيه.

فأمّا تأخّرُ أبي فلان كاتِبه عنه، وتطاوُلُ مقامِه بالحضرة، فما أدفَعُ ذاك، والعلّةُ فيه أشغالٌ تقسّمَتْني، ومهمّاتٌ اعتوَرَتْني، والرأيُ الآن مستقِرٌّ على إصدارِه على إثرِ هذا الكتاب، وإخراجِ أبي الهيثم الحُصَيْنيّ[2] معه برسائلَ يؤدّيها، وأمورٍ يُشافهُ بها، وتَكرِمةٍ بجُمَل إلى سَيِّدي يُقضَى بعض الحقِّ فيها، بإذن الله.

وقدّمتُ هذا الكتابَ مع الرِّكابي الموصِل له ليتعجَّل العلمَ بجُملتِه، والسُّكونَ إلى متضمَّنِه، إلى أنْ يَتْلُوَه الشّرحُ الذي وَعدتُ به. فإنْ رأى سَيِّدي أنْ يعملَ على ذلك

---

(١) من: ط.

(٢) ط: فلان. ب: (إلى الهيثم الحصيبي)، خطأ، وصوابه ما أثبتناه من موضع أوضح ممّا هنا. وتقدّم على الصواب، ص٣٥٩، وسيأتي في ج٢، ص٣٨٠ من هذا الكتاب. وانظر: ابن العديم، بغية الطلب، ج١٠، ص٤٦٥٥.

ويزدادَ بصيرةً فيما عند مَوْلانا الملك صَمْصام الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - من رعاية حقِّه وشكرِ بِرِّه، وما عندي من مَودّتِه ومخالصته، ويجريَ على أفضلِ شاكلتِه في المقام على العَهْد، والتمسُّكِ بأسباب الوُدّ، والكوْنِ بحيث بَذَله لنا ووَثِقْنا به منه من المحاماةِ والمراماة، والمساعدةِ والمرافدة، والإجابةِ بما أسكُنُ إليه من أخبارِه، وأشكُرُ انبساطَه فيه من حاجاتِه وأوْطارِه، فَعَل إنْ شاء الله.

جوابٌ عن صَمْصام الدَّوْلة
إلى أبي الهَيْجاء الحسين بن مُحمّد[1]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي ومَوْلايَ ورئيسي - وأحوالُ مَوْلانا الملك صَمْصام الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - جاريةٌ على ما يُعزُّ الوليَّ ويرفعُه، ويُذلُّ العدوَّ ويضَعُه، وأنا سالمٌ موفور، واللهُ على جميع ذلك محمودٌ مشكور.

ووَصَل كتابُ مَوْلاي إلى مَوْلانا الملكِ وإليّ، وفَهِمتُهما وسكنْتُ إلى ما دَلّا عليه من طِيب أخبارِه ومستقيم أحوالِه، وسألتُ اللهَ إدامةَ ذلك والزيادةَ فيه عنده. وعرَضْتُ معنى الكتابَيْنِ في المجلس العالي عَرْضاً قرَنْتُه بما أُوجِبُه له من التمهيد والتشييع؛ فوقَع ذلك أحمدَ مَواقعِه، ونزَلَ أشرفَ منازِله، ووكَّد سَوابقَ الحقّ وسَوالفَ العهد. وكان ما بذَلَه سَيِّدي من اجتهادِه وعَرْضِه من المسير ليجمُلَ التّبْحارُ بنفسِه، وإنْفاذ أحد الوَلَد للمَناب فيه عنه، مُوافقاً لتخصُّصِه بهذه الدَّوْلة السَّعيدة وتمكّنِه منها وتقدُّم قَدَمِه فيها، والموثوقِ به من مُوالاتِه إيّاها، واعتزائه إليها، لا أعدَمَنا اللهُ ولا أخلانا منه، وأنهَضَنا بالمعتقَدِ فيه وله، إلّا أنّ الخَطْبَ في أمرِ هذا الحائن النّاجِم يَهُونُ مع تفضُّل الله وعَوْنِه، وإحسانه ومَنِّه.

فلذلك رأيْنا ترفيهَ سَيِّدي عن المسير، والاكتفاءَ منه بإنْفاذ مَن يَراهُ من الوَلَد بعد أنْ يستكشفَ العِدَّةَ، ويَستظهرَ في العُدّة، فلولا أنّ الحَزْمَ يوجبُ الأخْذَ بكَظْم العدوّ وإنْ صَغُرَ وقَلّ، وجَمْعَ الأيدي على استئصال شَأْفتِه وإنْ خَسَّ وذَلَّ، لكان في بعض مَن جرَّد من عساكر حضرتِه المنصورة ما كفَى وأغنى فيمَن هو أقوى منه شوكةً، وأثبتُ مُسْكة،

(١) باريس، والعنوان فيها: جواب وعنه.

ولا سِيَّما مع ما[١] وَعَد اللهُ به في مثلِه ممّن فارَقَ الطّاعة، وخَرَج عن الجماعة.

وأنا – أيّد الله مَوْلاي – مُخرِجٌ إليه على إثْرِ كتابي هذا أبا الحسن كاتبَه مع مَن[٢] يَندُبُ بصُحبتِه من الأسباب حَسَب ما استدعَى، وأُحمِّلُهما من الرَّسائل الشّافية ما يؤدِّيانِه، ومن التَّكْرِمة الشّريفة ما يُوصِلانِه، وأُوفيه – أيّده الله – على أيديهما ما سَبَق به كتابي وتقدَّم فيه وَعْدي، ولله الإذْنُ، ومنه العَوْن.

وقدّمتُ هذا الكتابَ إلى مَوْلاي مع رسُولَيْه العائدَيْنِ إليه، ليكونَ على ترقُّبٍ لذلك، وانتظارٍ لمورِدِه، وليتقدَّمَ في أخْذ الأُهبة ....[٣] من الرِّجال حتى لا يكون لهم توقُّفٌ عن المسِير ساعةَ وُصول صاحبِنا. وسَيِّدي وليُّ ما يَراه في الثِّقة في ما ذكرْتُه، والسُّكونِ إليه، والتَّعويلِ عليه، والجَرْي على أفضلِ الشّاكلة في الخدمةِ الزّائدة له عند مَوْلانا الملِك – أطال الله بقاءه – قُرْبةً وحُظْوةً، وعندي مودّةً، ومُشاركة، ومُكاتبَتي بأخبارِه، وأحوالِه، وحاجاتِه إنْ شاء الله.

---

(١) كتب النّاسخ هاتين الكلمتين كلمة واحدة هكذا: معما.

(٢) كتب النّاسخ هاتين الكلمتين كلمة واحدة هكذا: معمن.

(٣) ثلاث كلمات غير مقروءة، هذا رسمها: لم بحره ده !

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى صاحب أذَرْبَيْجان[١]

كتابُنا، ومَوْلانا أمير المؤمنين جارٍ في سَلامةِ نَفْسه، ورَفاغة عَيْشه، وعُلوّ كلمته، ونُصْرة رايته، على أفضل عادةٍ عوّدها الله خلفاءه في بلاده، وأمناءه على عباده، ونحن حالّون منه المحلّ الذي تأخّرت الأقدامُ عنه، ووَقَفت الرُّتبُ دونه، وكفاية الله لنا في ذلك وفي أمورنا كلّها كانفة، وموادّ نِعَمه وإحسانه إلينا مُترادفة، وله الحمد ربّ العالمين، حَمْدَ الشاكرين المخلصين.

ووَصَل كتابك من يد فلان وفهمناه. وازددنا بمتضمَّنه بصيرةً في سَدادك الذي تخيّلناه وتوسّمناه، ووَقَع منّا الموقع الذي يسرّك أنْ يقع، وحَصَل لك من ثقتنا وأُنسنا ما يبهجك أنْ يحصل، ووَجَدنا أبا فلان فيما شافهنا به عنك على طريقةٍ أحْمَدناها، وعُرِضت علينا البُزاة التي استهديناك إيّاها، فارتضيناها وقبلناها.

وقد كانت كُتبُ سَيِّدي الأمير فَخْر الدَّوْلة وَرَدت علينا من قبل بمسألةٍ لنا في أمرك، وتمهيدٍ عندنا لمحلّك، فتضاعف الاعتقاد، وتأكّدت الأسباب؛ وصرتَ - وإنْ ترامت بك الدّار، وتعذّر عليك المزار - كالماثل لعيوننا، والواطىء لبساطنا.

وقد جرى بيننا وبين فلان ما هو يذكره، وعندنا لك أكثر منه. فرأيك في الانبساط إلينا، والمواصلة لنا، وسُلوك سُبل الخواصّ الثّقات في دَوْلتنا، ومُكاتبتنا بسارّ أخبارك، وعَوارض حاجاتك، وحادث نِعَم الله فيك ولديك، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) طهران. (العنوان فيها: وله عنه إلى صاحب أذربيجان).

وكَتَب عن صَمْصام الدَّوْلة أبي كاليجار إلى فَخْر الدَّوْلة أبي الحسن في معنى ما جرى عليه من أسْفار بن كَرْدُوَيْه عند عصيانه سنة خمسٍ وسبعين وثلاثمائة(١)

ومن أعظم النِّعَم - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير الجليل - قدراً، وأسْيرها ذكراً،

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج٤، ص١٥٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص١٤٠. العنوان في صبح الأعشى: (وكتب عن بعض الأمراء إلى أمير آخر مبشّراً بفَتْح). وجاء التاريخ في التذكرة الحمدونية هكذا (سنة خمسين) وهو خطأ، فقد كان عصيان أسفار وفتنة الدَّيْلَم في بغداد سنة ٣٧٥هـ. ففي هذه السنة جرت فتنةٌ ببغداد بين الدَّيْلَم، وكان سببها أنّ أسفار بن كَرْدُوَيْه وهو من أكابر القُوّاد، استُنفر من صَمْصام الدَّوْلة واستمال كثيراً من العسكر إلى طاعة شرف الدولة واتفق رأيهم على أن يولوا الأمير بهاء الدَّوْلة بن عَضُد الدَّوْلة العراق نيابةً عن أخيه شرف الدَّوْلة. وكان صَمْصام الدَّوْلة مريضاً، فتمكن أسفار من الذي عزم عليه وأظهر ذلك، وراسله صَمْصام الدَّوْلة يستميله ويُسَكِّنه فما زاده إلا تمادياً، فلما رأى ذلك من حاله راسل الطّائع لله يطلب منه الركوب معه، وكان صَمْصام الدَّوْلة قد شُفي من مرضه، فامتنع الطّائع لله من ذلك، فشرع صَمْصام الدَّوْلة واستمال فولاذ زماندار وكان موافقًا لأسفار، إلا أنه كان يأنف من متابعته لكبر شأنه. فلما راسله صَمْصام الدَّوْلة أجابه واستحلفه على ما أراد وخرج من عنده، وقاتل أسفار فهزمه فولاذ وأخذ بهاء الدَّوْلة أسيراً، وأحضر عند أخيه صَمْصام الدَّوْلة فرق له، وعلم أنه لا ذنب له، فاعتقله مكرماً، وكان عمره حينئذٍ خمس عشرة سنة. وثبت أمر صَمْصام الدَّوْلة وسُعي إليه بابن سعدان الذي كان وزيره، فعزله وقيل إنه كان هواه معهم فقتل، ومضى أسفار إلى الأهواز واتصل بالأمير أبي الحسين بن عَضُد الدَّوْلة وخدمه، وسار باقي العسكر إلى شرف الدَّوْلة. انظر أسبابها وتفصيلات أحداثها عند: الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٣٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٤٠٨.

وأسناها خطراً، وأحسنها أثراً، نعمةٌ سكَّنتْ ثورةً، وأطفأت فورةً، وعادت على النّاس بجميل الصُّنع، وجليل النفع، ونظام الأمور، وصَلاح الجمهور، فتلك التي يجب أنْ يكون الشكر عليها مُتَرادفاً، والاعتداد بها متضاعفاً، بحسب ما أزالت من المضرّة، وَجَدَّدت من المسرَّة، وأماطت من المحذور، ويسَّرَت[١] من المأمول.

وحقيقٌ على النّاس أنْ يعرفوا حقّها، ويوفوها من حمد الله قِسْطَها، ويتنجَّزُوه وعده الحقّ في أدائها، وإطالة الإمتاع بها، والحمد لله على أنْ جعلنا ممّن يعرف ذلك ويهتدي إليه، ويعتقدهُ وينطوي عليه، ويؤدّي فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستزادة منه، وأنْ خصّنا من هذه النِّعَم بذوات الفَضْل السّابغ، والظلّ الماتع، الجامعة لكَبْت العدوّ ومَساءتِهِ، وابتهاج الوليّ ومَسرَّتِهِ، وهو المسؤول - جلّ اسمُه، وعز ذكره - أنْ لا يسلبنا ما ألبسناه من سَرابيلها، وأحرزناه[٢] من فَضْل ذيولها، وعوّدناه من جلالة أقدارها، وتعاظم أخطارها، ولا يعدمنا معونةً منه على بلوغ أقصى الوُسْع في الاعتداد بها، ومنتهى الطّوق في البِشْر[٣] لها، بمَنّه وطوله، وقُوّته وحوله.

وقد عرف مَوْلانا[٤] حال أسْفار بن كَرْدُوَيْه في اصطناع الملك السَّعيد عضد الدَّوْلة إيّاه، وجذبه بضبعه من مطارح الأصاغر إلى منازل الأكابر، ومن مزاجر المتأخّرين إلى مراتب المتقدّمين، حتى جمّت عنده الأموال، وتأثّلت له الأحوال، ووطئ عقبه من الأولياء من هم أكرم منه حسباً، وأفضل أمّاً وأباً، وإنَّني حملته على حكم الرّعاية الذي

---

(١) صبح الأعشى: نشرت.

(٢) صبح الأعشى: أجرناه.

(٣) التذكرة الحمدونية: النشر.

(٤) بعدها في صبح الأعشى: الأمير فلان ما كان من كذا وكذا. وعلّق القلقشندي بعدها: «ثم أتى على ذكر الفتح إلى آخره». وبعدها ينتهي النص عنده.

لا يزال يحمل عليه، من تَظَاهُرِ الصَّنيعة لديه، وتقادم الإحسان إليه، إيفاءً به على تلك الغاية، وزيادةً له في الإيجاب والعناية، وإفاضةً لسجال المواهب عليه حالاً بعد أخرى، وثانيةً تلو أولى، فكان يقابل جميع هذه الحقوق بالنَّكْث والنَّقْض، والكُفْر المحْض، إرصاداً للدولة، واستعداداً للوثبة، وإسْراراً للغيلة، وإعمالاً للحيلة، وإفساداً لسُفهاء الرِّجال الذين علم منهم ضعف النَّحائز، ولؤم الغَرائز، والإسفاف إلى الدنيَّة، والإيضاع في الفتنة.

وتمادَت بي وبه الأيّام في تناولي إيّاه بالتَّسْكين والتأنيس، ومُضيه على غَلْوائه في الإدهان والتلبيس، إلى أنْ بلغت عقاربه في دبيبها إلى الأخ أبي نَصْر، فصادف منه حدثاً غِرّاً، وصبيّاً غِمْراً، فأزاله عن سَبيل الرَّشاد، واستزل قدمه عن مقام السَّداد، وساعده على جميع ذلك أوثق كُتّابي كان عندي، وأقدمهم رتوعاً في نعمتنا، وأولاهم بالوفاء لنا، لولا أنّ البِطْنة نزلت به، والشّقوة انْتحَتْ له، فلان بن فلان.

ومنها[1]: إلى أنْ حكم الله بينهما حكمه العادل، وأمضى عليهما أمره النافذ، بإظهار رايتنا المنصورة، وتنكيس تلك الراية المخذولة، فانهزم أسْفار وفلان[2]، فَريدَيْن وَحيدَيْن، واستباح الأولياءُ ما كان هذا اللَّعين اشتمل عليه من أموالنا، وحاربني به من سلاحي وكُراعي، وحُصِّل الأخ أبو نَصْر في قبضتي أسيراً نادماً، ومتأسفاً واجماً، وقُتل في المعركة خلقٌ كثير من أولئك الفَسَقة، واستأمن الباقون، ولجَّ سَرَعان الخيل في قَصّ آثار الهاربين، ولا شكّ أنّ الله يظفر بهم أجمعين على عادة قضيته لهذه الدَّوْلة بإظهارها على كلّ غامطٍ لها نعمة، وجارٍ عليها فتنة، فالحمد لله حمداً لا تضرب عليه

(١) أي: ومن الرسالة.

(٢) لعلّه عبد العزيزبن برسق المذكور في الرسالة اللاحقة.

حـدود الغايـات، ولا يقـف عنـد الأقـاصي والنهايـات، لكنـه يَنْمـي ويزيـد، ويبـدأ ويعـود، حتـى يبلـغ رضي الله سـبحانه، ويقضـي حقّـه، ويـؤدّي فرضـه، ويقتضـي وَعده، بمَنّه وطَوْله، وإحسانه وفَضْله.

وهذه حالٌ يسَّرها الله بيُمْن مولانا، وببركة أيّامه، وإقبال دَوْلته، وسَعادة جَدّه، وما يجمعني إليه من جوامع الموالاة، وأسباب المُشاركة، فهنَّأَهُ الله إيّاها من نعمةٍ جلّ موقعُها، وعَمَّ نفعُها، وَحَسُنَ أثرها، وعزّ الوليّ بها، وذلّ العدوّ لها. ولا أَخْلاه من استماع البشائر بأمثالها في الاستعلاءِ والظُّهور، والابتهاج والحبور، وتذلل الخطوب، وتأتّي المحبوب، واستقامة الأمور، ومُسالمة المقدور، إنه بذلك جديرٌ، وعليه قدير.

وكَتَب عن الأمير نصر خوزه فيروز بن عَضُد الدَّوْلة إلى ابن عَمِّه شرف الدَّوْلة يذكر له حاله مع أخيه صَمْصام الدَّوْلة[1]

كتابي – أطال الله بقاء مَوْلانا الملك السَّيِّد الأجلّ شرف الدَّوْلة وزين المِلّة – والسَّلامةُ لي شاملةٌ بما مدّه الله تعالى عليَّ من ظلّه الظليل، ورأيه الحسن الجميل، والحمد لله ربِّ العالمين.

وقد تأدّى إلى مَوْلانا الملك السَّيِّد من أخباري ما أستغني به عن تطويل المفصَّل، وأكتفي به عن إجمال المجمل، وذلك أنّ أسْفار بن كَرْدُوَيْه[2] وعبد العزيز بن برسق، الكافرَيْن لنعماء الله ونعمة الملك السَّعيد عضد الدَّوْلة أبينا – رحمة الله عليه – قبلنا، الغامطَيْن لما تظاهر عليهما من إحساننا وإفضالنا هجما علينا بخدعةٍ تظافرا عليها، وشبهةٍ جذباني إليها، وأبرما كذباً من القول لم أظنّهما يقدمان على مثله، ولا يتفوّهان باطلاً به، فأصغيتُ إليهما إصغاء الواثق بهما، لا المنخدع لهما. فلمّا أنزلاني على حكمهما، وأوثقاني بحيث لا أستطيع مخالفتهما، ظهرت الحيلة، ووضحت الغيلة، وفاتني الاختيار، وغلبني المقدار؛ فجرى ما كانت عاقبته خذلان الله إيّاهما، وإنزاله بأسه ونقمته عليهما، وخَلاصي بسَلامة الصَّدْر، واتّضاح الغَدْر من حبائلهما المنصوبة، وأشراكهما المبثوثة. ولما حصلتُ في كَنَف الملك السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة أقالني العَثْرة،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص٥٦٩. وبعضها في طهران.
لم أجد ما أعتمد عليه في تعريف الأمير نصر، ويغلب على ظني أن (نصر) كنيته وليس اسمه، أي أنه (أبو نصر). وأرجح أن يكون هو نفسه الوارد ذكره في ج٢، ص٤٨٢.

(٢) تقدّم التعريف به في ص٣٥٨، هامش (٢).

وقبل مني المعذرة، وأحلّني من داره وحماه بحيث لم أُعدم عادة، ولا انقطعت عني مادة. وكانت الحال توجب مقامي فيها إلى أنْ تتعفى آثار الفتنة التي أثارها ذانِكُما الخبيثان الجانيان.

ثم وَرَد فلان في الرسالة، وتمّم الله على يده عقد الصُّلْح والمسالمة، فأُخرجتُ عن الاحتجاب إلى الظهور، وعن الاحتجار إلى البروز، وأُنزلتُ من الدار المعمورة في جانبٍ يصل إليّ منه سَيْب وُصوله على العموم دون الخصوص، وعاملني الملك السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة بما يليق بفضله متَّبعاً في ذلك مقاطعة السيف بينه وبيني، وطاعة مَوْلانا الملك السيد الأجل شرف الدَّوْلة في أمري، وجدّد عندي من الإنعام والتوسعة والإيثار والتَّكْرِمة - آخراً - ما شفع تلك الشفعة أولاً، ولقيني فلان دفعات، وشافهني مرّات وتحمّل عنّي إلى مَوْلانا الملك موالاتي الشكر كثيراً، واعتداداً طويلاً عريضاً، ودعاء الله يَسمَعُ مرفوعه، ويجيب مسموعه، بمَنّه وقُدْرته، وحَوْله وقُوَته.

والآن فإذْ قد جمع الله الكلمة، ووكّد الألفة، وحرس النِّعْمة، وحصَّن الدَّوْلة، وأخرج عنها مَن كان يَشِبُّ الفتنة، ويسدي وينير في الفرقة، فإنّي واثق بالله - جلّ وعزّ - وبما تترقّى الحال إليه في غاية محبوبي، ونهاية مطلوبي، وأقاصي ما تبلغه أمنيتي، وتسمو إليه همّتي، وتقتضيه أخوّتي وعِصْمتي، ولله المشيئة ومنه المعونة. فإنْ رأى مَوْلانا الملك السَّيِّد أنْ يسكنَ إلى سُكوني، ويطمئنَّ إلى طمأنينتي، ويُجري إلي غاية فضله وطوله في الأمر الذي أحسن فيه، وأجمل ليشملنا إنعامه، ويتظاهر علينا امتنانه، وأستوفي بَقيّة حظّي من ثمرة ذلك وعائدته، وجدواه وفائدته، ويأمر بتشريفي بكتابه، وتأهيلي بجليل خطابه، وتصريفي بين أمره ونهيه، فَعَل إنْ شاء الله تعالى.

وله[1]

كتابُنا، وأمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - جارٍ في عُلوّ كلمته، ونُصرة رايته، وعزّ وَليّه، وكَبْت عدوّه، على أفضل ما أجرى الله عليه أمناءه في أرضه، المؤهَّلين للخلافة، المكرَمين بالإنافة، المخصوصين في أهل طاعتهم بالإدالة، وفي مُخالفيهم بالإذالة. وأنا مُتبوّأٌ منه منزلةً تقاصَرَت المنازلُ دونها، وتأخّرت الأقدامُ عنها، سالمٌ في المهجة والحوْزة، وما نفذ فيه الأمر والنَّهي، والحمد لله ربِّ العالمين.

ووَصَل كتابُك - أدام الله عزك - من يد فلان، وفهمناه. وأصْغينا إلى ما أدّاه عنك وتقبّلناه، وزاد ما أظهرتَه من مُوالاتك إيّانا، واعتزائك إلينا، فيما يمكن لك عندنا، وتوفّر عليك من رأينا، حتى انتهى ذلك إلى غايته، وثبت على نهايته، وصرتَ تستحقّ من الخصوص بنا، والأثرة لدينا، والاعتلاق لأوثق عُروة، وأوْكد سَبب منّا، فكن - أيّدك الله - لهذا الأصل محصِّلاً، وبحسبه عاملاً، وواظبْ على مُكاتبتنا، مُواصلاً بها، ومُنبسطاً فيها، إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) طهران.

فصلٌ من كتاب إليه[١]

ويجعله في الأحوال كلّها، و........[٢] أجمعها، والمسالك التي يسلكها، والأغراض التي ينحوها مكنوفاً بالنَّصْر والتّأييد، محفوفاً بالعزّ والتَّمْكين، مَهْديّاً إلى الرَّشاد والتَّوفيق، مَقْضيّاً له نَيْل الأوْطار، وبلوغ المحابّ والمسارّ، محَميّاً من النَّوائب، ممْنوعاً من المكارِه، مَكْفيّاً فيما أهمّه، محَوطاً فيما شهده وغاب عنه، بقدرته.

(١) طهران.
لم أهتدِ إلى مرسل هذه الرسالة، والمرسل إليه، لكن الرسالة السابقة لهذه الرسالة في الأصل المخطوط من عِزِّ الدَّوْلة إلى أبي تَغْلِب الحمداني.
(٢) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: المسعرات.

رسائل

في التهاني



وكَتَب إلى الملك عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة أبي شُجاع ابن رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ يُهنّئه في ذكرى مَوْلده[1]

أطال الله بقاء مَوْلانا الملك شاهانْشاه السَّيِّد الأجلّ المنصور وَليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة[2]، وأدام تأييده و[3]تمكينه وعُلوّه، وسُموّه ورفعته، وقدرته[4] ولا أعدَمَهُ تجدّد أحواله، وتيسّر آماله[5]، وقَضاء[6] أوطاره، وتأتّي مَسارّه، وتوفّر فَوائده، وتثمر عَوائده، ومُوافقة المقادير إيثاره، ومواردتها[7] اختياره؛ فلا يمضي منها ماضٍ، ولا ينفذ نافذ[8] إلّا أحدَث عنده وعند خَدَمه فيه أيادي لله مشكورةً، وآلاءً منشورةً،

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. العنوان في ط (وله إلى عمدة الدَّوْلة يهنئه بالتحويل). وعمدة الدَّوْلة لقب أبي إسحاق إبراهيم ابن مُعِزّ الدَّوْلة، فهو وهمٌ من الناسخ. (يهنئه في ذكرى مولده) إضافةٌ منّا للتوضيح. وأورد نصّ هذه الرسالة الشيزري، جمهرة الإسلام، ص١١٧٧. وأورد قسماً منها الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٢٩٣؛ الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص١٠٢.

(٢) (شاهنشاه .... الملة) ساقط في ط.

(٣) (تأييده و) من: ط فقط.

(٤) من: ج فقط.

(٥) ساقطة في ف.

(٦) ط: فضل.

(٧) في جمهرة الإسلام: ومراد دأبها.

(٨) (ولا ينفذ نافذ) ساقط في ط.

تقضي[١] لهم نيل الأهواء والأماني، وتقتضيهم تراجعَ البشائر والتهاني. وكذلك أدعـوه - جلّت أسماؤه، وعظُمت كبرياؤه - أنْ يَصرفَ وُجوه الرّزايا، ويعكس رِقابَ المنايا إلى أضداد دَوْلته، وكُفّار نعمته، المعاندين[٢] عن طاعته، المفارقين لعِصْمته، فلا يخلـو أحـدٌ منهم[٣] من فَجيعةٍ وَجيعة، ومُلمّةٍ أليمة، يشغلانه بنفسه، ويكلانه إلى خُذلانه ونَحْسه، ويغنيان مَوْلانا - أطال الله بقاءه - عن أنْ ينزعَ له سَهْماً من كِنانته، أو يشهرَ عليه سَيْفاً من أسْياف نقمته، والله بكرَمه ومَنّه، وجُوده ومجده[٤]، يسمع ويُجيب هـذين الـدعائين منّي، فيه وفي مخالفيه، ويجعلهما عَهْدَيْن من عُهوده التي لا تُنقَض، وعَقْدَيْن مـن عُقـوده التي لا تُنكَث، وأمرَيْن من أموره المُبرَمة[٥] التي لا يُحيلُها مُحيل، ولا يزيلها مُزيل، آمـين رَبّ العالمين.

ميلادُ مَوْلانـا - أطـال الله بقـاءه - السَّعيد، وتحويلُـه الجديـد، واقعـان في فصـل الخريف، أصحّ السّنة زماناً، وأسْلمها أوانـاً، مـدخل[٦] الشَّمْس للميـزان، وهـو أحـدُ الاعتدالَيْن المتوسّطَيْن بين الانقلابَـيْن، حـين أبـرزت الأرض ثمرتَهـا، وصرّحـت عـن زبدتها، وأطلعت السّماء حَوافل أنوائهـا، وبـادرت بإسْـكاب[٧] مائهـا، وهبّـت أوائـل الجنائب لتأليف شَمْل السَّحائب، وصارت المواردُ كمُتونِ المبارد، صـفاءً مـن كَـدَرِها،

(١) ط: تفيض.

(٢) هذا ما في ط، وفي ما دونها: العاندين، جمهرة الإسلام، العائدين.

(٣) هذا ما في ط، ر. وفي ما دونهما: أحدهم، وفي جمهرة الإسلام: أحد.

(٤) (وجوده ومجده) ساقط في ط.

(٥) ساقطة في ط.

(٦) ط: تدخل.

(٧) ط: وادرت بانسكاب.

وتَهذُّباً مـن عَكَرِهـا، واطّرادهـا مـع نَفحـات الهـواء، وحركـات الـرّيح السَّـجْواء[١]، واشتملت أحشاء الرّيـاض عـلى أجنّـة كَلَئِهـا ومَرْعاهـا، وغـذت بشـواجم[٢] خِصْـبها وجَناها، واكتست[٣] الماشيةُ وَبَرها القَشيبَ الكثيف، والطّائرةُ ريشَها العمـيمَ الأثيـث، وخلصَت الأزمان[٤] من حَمارّة قَيْظها، ووَقْدة رَمْضـائها، ونفضـت الأبـدانُ[٥] أدْرانَ[٦] أخلاطها، وأدواء أعضائها فحينئذٍ[٧] افترّ جفنُ العالم عن العين البصـيرة، واسـتعرت[٨] مضحكه عن اللمعة الثّاقبة، بحيث طابق مـن شُـهور العَـرَب والعَجَـم مَوْسـماً تجتمـعُ فيه[٩] زُمرة أعيادهم، وتتقاربُ مواسمُ[١٠] مِلَلهم[١١].

أمّا المسلمون فإنّه[١٢] اتّفق لهم في ذي القَعْدة من سنة المَوْلد بعينها التي تدور أهلّتُها بنقائصها ووَضائعها، ثم يردُّها النقل إلى حقائق مَواقعها ومَواضعها[١٣]، وهو شهرٌ من

---

(١) سجى: سكن وهدأ. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٣٧١ (سجا).

(٢) ر، جمهرة الإسلام: بنواجم. الإثجام: سرعة المطر، وأثجمت السماء: دام مطرهـا. ابـن منظـور، لسان العرب، ج١٢، ص٧٦ (ثجم).

(٣) هذا ما في ط، وفي ما دونها: واكتسبت. جمهرة الإسلام، ألبست.

(٤) هذا ما في ط، وفي ما دونها: الأبدان، وكذلك في جمهرة الإسلام.

(٥) من: ط فقط.

(٦) ط: فضول.

(٧) ف: فح.

(٨) ط: استعذب.

(٩) (موسما تجتمع فيه) ساقط في ط.

(١٠) ط: تقارب مناسك.

(١١) ر: مناسك ملكهم.

(١٢) هذا ما في ط، وفي ما دونها: فإنهم.

(١٣) (ثم....... ومواضعها) ساقط في ط.

أشهرهم الحُرُم، حَلّ بين عيدَيْن، وارتدى منهما بمفخَرَيْن، فأيّام شهر رمضان والفطرُ له[١] قائدة، وأيّام العَشر والتشريق له سائقة.

وأمّا النّصارى فإنه وافق من سَنَتِهم الشهر الذي وَجدوا فيه الصَّليب، ولا عيدَ لهم[٢] أعظم من عيده، ولا يومَ عندهم[٣] لهم أجلّ من يوم وُجوده[٤].

وأمّا المجوس فإنّه وافق من سَنَتِهم مهرماه شهر المِهْرَجان، وهو أشرفُ شُهورهم، وأنضرُ عُصورهم.

وأمّا اليهود فإنّه وافق من[٥] سَنَتِهم شهر المظال والتبريك والكبور وغيرها من أعيادهم.

وأمّا الصّابئون فإنّه زادَ خُصوصاً بهم، وعظماً عندهم لأنّه نصّ على يومٍ بعينه من الشهر والسنة، وهو يومُ عيدهم المعروف بعيد الشمع، ولا انتقالَ له عنه إذ كان عيداً شمسياً لا يزول عن إبّانه، ولا يستبدل بمكانه[٦]، ولهم في تَفْضيله والتبرّك به أخبارٌ وآثار، حتى إذا اتّفق أنْ يولدَ فيه ولدٌ لأحدِ الرّعايا توسّموا خيرَه ورُشدَه، ورشحوا يومَه وغدَه.

فما ظنّ مَوْلانا الملك السَّيِّد - أطال الله بقاءه - بهم وقد ظفروا فيه[٧] بميلاد مَن لم يملك الأرض أكرم منه عُنصراً، ولا أنفس جوهراً، ولا أبرك قدَماً، ولا أيمن مقدماً،

(١) (له) هنا وبعد ٤ كلمات ساقطة في ط.

(٢) من: ط فقط.

(٣) من: ط فقط.

(٤) هذا ما في ط، وفي ما دونها: من يومه.

(٥) ساقطة في ط.

(٦) ساقطة في ط.

(٧) ساقطة في ط.

ولا أضخم نسباً، ولا أجلّ أماً ولا[١] أباً[٢]، لا جَرَم أنّه لهم أولاً، ولأهل الشرائع ثانياً، فيه - أدام الله علوّه - آمالاً طوالاً عراضاً، يجمعهم الله في استتمامها، كما جمعهم في استشعارها. وليس من هذه الأمور المذكورة، والآيات المسطورة، إلّا ما هو داعٍ إلى نفسه، ومقرونٌ ببُرهانه ودَليله.

وإذا كان ذلك كذلك، فتحويلُ سنة مَوْلانا - أطال الله بقاءه - هو العيدُ المشهود، والظلُّ الممدود، واليومُ الذي تشترك فيه الأمم، وتصطلح عليه المِلَل. وحقيقٌ على النّاس قاطبةً أنْ يأخذوا له أهبتهم، ويلبسوا فيه زينتهم، ويبرزوا إلى مصلّياتهم الضّاحية، ومساجدهم الجامعة بالصّلاة[٣] والتكبير، والتَّسْبيح والتَّهْليل، والشكر لله على إحيائه إلى هذا الأوان، والابتهال إليه سبحانه إلى[٤] أنْ يحييه إلى مثله من كلّ زمان[٥]، ويتولّاه في سائر أيّامه وأعوامه[٦] بالعَطايا المتّسعة، ويحرسه من الخطوب المرتجعة، ويديم عُلُوّ شأنه، ويزيد في أقطار سُلْطانه، لترتفعَ الأصواتُ على اختلاف الأديان واللّغات، بالدّعاء له والثناء عليه[٧]، ما بلّ ريقٌ فماً، ومدادٌ قلماً، فمَن بذل في ذلك طاقته واستطاعته، فقد سَعى سَعْياً نَجيحاً، وتجر متجراً رَبيحاً[٨]. ومَن قصّر فيه

---

(١) ساقطة في ط.

(٢) هذه مبالغاتٌ من الصابي زائدة عن المألوف والواقع.

(٣) ساقطة في ط.

(٤) ساقطةفي ط.

(٥) (من كل زمان) ساقط في ط.

(٦) (ويتولاه .... وأعوام) ساقط في ط.

(٧) (بالدّعاء .... عليه) من ط فقط.

(٨) هذا ما في ط، وفي ما دونها: مريحاً.

وهو قادر، وقعد عنه وهو مُطلَق، فذلك المذموم الملوم، المردَّى[١] بعَرِّه وعاره، المقنَّع بخزيه وشَناره.

وأسألُ الله ضارعاً لديه، مادّاً يديّ[٢] إليه، أنْ يحيلَ عليه هذه[٣] السنة وما يتلوها من أخواتها، ومتّبعاتها بالصّالحات الباقيات، والزائدات[٤] الغامرات، ليكونَ كلّ[٥] دهرٍ يستقبله، وأمدٍ يستأنفه، موفياً على المتقدّم له، قاصراً عن المتأخّر عنه، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده، ومن العيش أعذبه وأرغده، عزيزاً منصوراً، محمياً موفوراً، باسطاً يده فلا يقبضها إلّا على نَواصي أعداءٍ وحُسّاد، سامياً طرفه فلا يغضّه إلّا على لذّة غَمْضٍ ورقاد، مستريحةً ركابُه فلا يعملها إلّا لاستضافة عِزٍّ ومُلْك، فائزةً قِداحُهُ فلا يُجيلها إلّا بحيازة مالٍ ومِلْك[٦] وأنالَه جميعَ ما تتوجّه إليه أمنيتُه جامحةً، وتسمو إليه[٧] همّتُه طامحةً، فإنّ هذه[٨] دعوةٌ يمكن أنْ تقالَ مجملةً معقودة، ويعجز أنْ يُحاط بها مَحصيّةً[٩] معدودة، إذ كانت الألسنُ تعيا عن تفصيلها، والألبابُ تضلّ دون تحصيلها، وجزاه الله أحسَنَ الجزاء عن نعمةٍ أفاض عليّ أيّام الرّضا سِجالها، ولمظني[١٠] أيّام العَتْب

---

(١) ط: المرتدي.

(٢) ط: يميني.

(٣) من: ط فقط.

(٤) هذا ما في ط، وفي ما دونها: الزيادات.

(٥) هذا ما في ط، وفي ما دونها: على.

(٦) (فائزة .... وملك) ساقط في ط.

(٧) ط: نحوه.

(٨) (فإن هذه) ساقط في ط.

(٩) ط: محصاة.

(١٠) ط: ولم تخطئني.

بلالها[١]، فلم أعرَ من كنفٍ لها أضمّني[٢]، وجَناحٍ أكنّني.

وأختمُ دعائي هذا لـه - أدام الله علـوّه - بـدعاءٍ[٣] لنفسي - أنْ يجبرَ الله كَسْـري، ويرفعَ ما انحطّ من قَدْري، وينبّه ما خمل من ذِكْري، بإيصالي إلى الوَديعة العتيدة لي مـن رعايته، والذّخيرة المأمون عليها من محافظته، ويؤهّلني للنّظر إلى لَألْاء غرّته، والتثـام[٤] تراب حضرته، ويبلغ بقِسْطي من عفوه وإنعامه، إلى مُوازاة قِسْـطي مـن تأميـل أيّامـه، وحَسْبي الله ونِعْم الوكيل[٥].

(١) ط: ملالها.

(٢) ط: ضمني.

(٣) من: ف.

(٤) هذا ما في ط، وفي ما دونها: التزام.

(٥) بدل (وحسبي .... الوكيل) ف ط: إن شاء الله تعالى.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عَضُد الدَّوْلة
يُهنّئه بمَوْلود[١]

وَصَل كتابُ سَيِّدي الأمير عضد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - بالخبر السّار المبهج، والنبأ المؤنس المغبط، في الولد الأثير، والسَّيِّد المقتبل الخطير، الذي زاد الله به في عَدَدنا، وعدّد نِعَمه عندنا، وحقّق فيه آمالنا والآمال لنا؛ فأخذ ذلك مني أفضل مآخذ السّرور والأفراح، ونزل لديّ أعلى منازل الحبور والارتياح، وسألتُ الله تعالى أنْ يختصّه بالبقاء الطويل، والعمر المديد، وأنْ يجعل مَواهبه لسَيِّدي ناميةً بنموِّه، وناشئةً بنشوئه، ليكون كلّ يومٍ من أيّامه ممدّاً له من فضله عادة، وواعداً له من غده بزيادة، ومحدثاً لديه منحةً تنضاف إلى ما سبق من أمثالها، ومجدّداً له عارفةً تتلو ما سَلَف من أشكالها، وأنْ يريه إيّاه غرةً في وَجْه دَوْلته، ووارثاً مكانه، ويهب له بعد الأكابر النّجباء السّابقين أتراباً من إخوةٍ لاحقين، لا يخليه[٢] تابع منهم من مُباراة مَتْبوعه، وشافع من مُجاراة مَشْفوعه، في فائدةٍ تقدم من مَقْدمه، وعائدةٍ تَرِد بمَوْرده، ويحرس هذه السَّعادة من خللٍ يعترض اتّصالها، وفترةٍ يخترم زمانها، أو نائبةٍ تشوبها أو تنغّصها، أو رزيّةٍ تثلمها، إلى انتهاء الأمد الأبعد، والعمر الأطول. ثم يفضي من غضارة هذه الدّار الدّنيا إلى قرارةٍ في الدّار الأخرى، مُبوّأً أوفى مراتبها، مبلّغاً أقصى مبالغها، حالًّا في أرفع درجاتها، مختصّاً بأنعم مبهجاتها، مستثمراً ما قدّمه له سَعْيُه الصّالح، مستوفياً ما أفاءه عليه مَتجرُه الرّابح.

---

(١) طهران.

(٢) وربما تقرأ: لأنحائه.

وهو – تعالى – يُجيب هذا الدّعاء، ويُبارك في هذه الزّيادة الفاخرة له، ويُنيله فيها أتمّ الأمنية، ويُمتّعه بها أحسن المتعة، ويتوحّده في أموره أجمع بدُرور الأخلاف عليه، واتّصال مَوادّها لديه، بمَنّه وطَوْله، وقُدْرته وحَوْله.

وأنا أتوقّع الكتاب بما اختير له من الأسماء الشّريفة، والكُنى النّبيهة؛ لأذكره بهما، وأوفيه الحقّ معهما، فقد عظّم الله قدر مَن هو له سُلالة، ومنه بَضْعة، وأوجب له منازل الكبار في صغره، ومراتب ...... [1] في حداثته بالسّيادة المحتوم بها له، والنّفاسة المولودة معه، إنْ شاء الله تعالى.

(١) فراغ بمقدار كلمة.

وكَتَب عن عز الدَّوْلة إلى عَضُد الدَّوْلة جواباً عن كتابٍ وَصَل إليه منه يخبره بمولودٍ وُلد له[١]

وَصَل كتابُ سَيِّدي الأمير عضد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - بالخبر السّار للأولياء،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٣١٥.

هذه نسخةٌ أخرى من الرسالة السابقة، أوردها القلقشندي مع اختلاف بسيط في العنوان، وكبير في المتن. ولا يُفسّر هذا الاختلاف الكبير إلا باحتمالية أن الصابي كتب الرسالة، ثم عدل عليها وغير فيها، ووقعت تلك المسوّدة بيد أحد النُّسّاخ، فضمّها إلى ديوان رسائله. ثم وقعت هذه النسخة من الدِّيوان بيد القلقشندي. أو أن الصابي كتب – لسبب ما – رسالتين في الحدث ذاته، كرّر في إحداهما من الأخرى.

وقد أثنى القلقشندي على بعض الكُتّاب، وبيّن فضل مقاصدهم في التصرّف برسائل غيرهم بالألفاظ والحفاظ على المعنى، وقال: لا ينهض بمثل ذلك إلا من رسخت في صنعة الكتابة قدمه، وامتزج بأجزاء الفصاحة والبلاغة لحمه ودمه؛ وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز في القرآن الكريم، فإن القصة الواحدة تتكرر فيه مراراً في سور متعددة ، ترد في كل سورة بلفظ وتركيب غير الذي وردت به في الأخرى ، مع استيفاء حد البلاغة ونهاية أمد الفصاحة ؛ ولذلك قل من سلك هذا المنهج ، أو ارتقى هذه الذروة ، وقد أتى علي بن حمزة بن طلحة في كتابه (الاقتداء بالأفاضل) من ذلك بالعجب العجاب ، فإنه قد استحسن كلام الخطيب ابن نباتة الفارقي، والأمير قابوس الخراساني، والوزير أبي القاسم المقري، والصاحب بن عباد، وأبي إسحاق الصابي، الذين هم رؤساء الكتابة ، وأئمة الخطابة ، من الرسائل والعهود البديعة ، والخطب الموجزة الرائقة ، فجرد معانيها من ألفاظها ، واخترع لها ألفاظا غير ألفاظها ، مع زيادة تنميق ، ومراعاة ترصيف ، على أتم نظام ، وأحسن التئام.

الكابت للأعداء، في الولد الحبيب الأثير، والسَّيِّد المقتبل[١] الخطير، الذي زاد الله به في عَدَدنا، وجدّد نِعَمه عندنا، وحقّق فيه آمالنا والآمال لنا؛ فأخذ ذلك منّي مأخذ الاغتباط، ونزل عندي أعلى منازل الابتهاج، وسألتُ الله تعالى أنْ يختصّه بالبقاء الطّويل، والعمر المديد، وأنْ يجعل مَواهبه لسَيِّدي الأمير ناميةً بنموِّه، ناشئةً بنشوئه، ليكون كلّ يومٍ من أيّامه ممدّاً له من فضله عادة، وواعداً له من غده بزيادة، ومحدثاً لديه منحةً تنضاف[٢] إلى ما سبق من أمثالها، ومجدّداً له عارفةً[٣] تتلو ما سَلَف من أشكالها، وأنْ يريه إيّاه غرةً في وَجْه دَوْلته، ووارثاً بعد سالفه، البقاء لمنزلته قائماً للملك قيامه، وسادّاً منه مكانه، ويهب له بعد الأكابر النجباء السّابقين أتراباً من الإخوة لاحقين تابع منهم من مُباراة المتبوع، وشافع من مُجاراة المشفوع، في فائدةٍ تقدم بمَقْدمه، وعائدةٍ تَرِد بمَوْرده، ويحرس هذه السَّعادة من خللٍ يعترض اتّصالها، أو فترةٍ يخترم زمانها، أو نائبةٍ تشوبها أو تنغّصها، أو رزيّةٍ تثلمها أو تنقصها، إلى انتهاء[٤] الأمد الأبعد، والعمر الأطول. ثم تفضي به غضارة هذه الدّار الدّنيا إلى قرارة الدّار الأخرى، مُبوّأً أوفى مراتبها، مبلَّغاً أقصى مبالغها، حالًّا أرفع درجاتها، مختصّاً بأنعمها، مبتهجاً بها، مستثمراً ما قدّمه لصالح سَعْيه، ومستوفياً ما أفاءه عليه مَتْجره الرّابح، وآثاره البادية لإنفاقه في

وضرب مثالاً لذلك رسالة أبي إسحاق الصابي هذه حيث عارضها علي بن حمزة برسالة من إنشائه بألفاظٍ مختلفة مع اتحاد المعنى على حد قوله. وقد أثبت القلقشندي رسالة علي بن حمزة بعد رسالة الصابي.

(١) في الأصل: المقيل، والتصحيح من الرسالة السابقة.

(٢) في الأصل: تتضاعف، والتصحيح من الرسالة السابقة.

(٣) في الأصل: عازمة، والتصحيح من الرسالة السابقة.

(٤) في الأصل: إلا أنها، والتصحيح من الرسالة السابقة.

أيّام نَظري التي استشعرتُ نوراً من سَنائه، وآنستُ جمالاً من بَهائه، وثابَتْ مصالحها ببركته، وتوافَتْ خيراتُها بيُمْنه.

واعتقدتُ أنّ السّعادات طالعةٌ عليَّ بمَطْلعه، وأسبابها ناجمةٌ إليّ بمَنْجمه، فلو استطعتُ أنْ أكون مكان كتابي هذا مُشافهاً بالتهنئة لسَيِّدي الأمير عضد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - ومقبِّلاً لبساطه، لكنتُ أولى عَبيده بالمسارعة إلى بابه، وأحقّهم بالمبادرة إلى فنائه، لأنني معوقٌ عن تلك الخدمة بخدمةٍ أنا فيها من قِبَله، ومقيمٌ بهذه الحضرة إقامة المتصرّفين تحت أمره. وقد وفيتُ نعمة الله تعالى الواهب منه - أيّده الله تعالى - ما يقرّ عين الوليّ، ويقذي عين العدوّ، ويطرفها حقّها من الشكر الممتري للمقام، والمزيد بدَوام العزّ والتأييد.

وأسأل الله تعالى أنْ يجعل ذلك مقبولاً عنه، ونافعاً له، وعائداً عليه وعلينا بطول العمر، وبباهي النشوء والنَّماء، وأنْ يعرف سَيِّدي الأمير عضد الدَّوْلة - أيّده الله - بركة مَوْلده، ويُمْن مَوْرده، ويُبقيه حتى يراه والأمراء السّابقين - أيّدهم الله تعالى - آباء أمثالهم، وأشياخ ذريّتهم، مبلَّغاً في كلٍّ منهم أفضل ما رشّحته له أمانيه، وأعلى ما انبسطت آماله فيه، بقُدْرته.

وأنا أتوقّع الكتاب بما يُقرّر عليه اسم الأمير السَّيِّد وكُنيته - أعلاها الله تعالى - لأستأنف إقامة الرَّسْم في مُكاتبته، وتأدية الفرض في خدمته، وسَيِّدي عضد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - أعلى عيناً فيما يراه بمُطالعتي بذلك، وبكلّ ما يوليه الله من مستأنف نِعَمه، ويجدّده له في حادث مَواهبه له، لآخذ بحظّي منهما، فأضربَ بسَهْمي فيهما، وتَصْريفي بين أمره ونَهْيه، وتَشْريفي بعَوارض خِدْمته، إنْ شاء الله تعالى.

وكَتَب إلى عِزّ الدَّوْلة
عن الوزير أبي الفضل العَبّاس بن الحسين الشّيرازي
يُهنّئه بمَوْلودَيْن رُزقهما[1]

كتابي والنِّعَمُ على السّادة الأمراء مُتظاهرة، والمواهبُ إليهم - أيّدهم الله - مُتواترة، والأمورُ بحضرتهم الجليلة مُلتئمة، وأسبابُ الإقبال لجماعتهم مُنتظمة، والحمدُ لله ربِّ العالمين، حَمْداً يكون جزاءً لنعمائه، وداعياً إلى مَزيد آلائه.

ووَصَل كتابه - أدام الله عزه - بالبشرى التي ملأت قُلوبَ الأولياء ارتياحاً، وصُدورهم انشراحاً، بخبر الأميرَيْن السَّيِّدَيْن القادمَيْن: أبي القاسم وأبي كاليجار، أطال الله بقاءهما ؛ فزاد في موقع الابتهاج لها ما أبانه الله من دَلائل البركة المقترنة بها، إذ كانت نعمة أضعف وقوعُها على متوقِّعها، وأوفى واردُها على المرجوِّ منها، ووجبت لله تعالى نُذور، ووفيت بها، وقمت بفرضها لا يزال محلّ مثلها عندنا ما يتجدّد لمَوْلانا - أدام الله علوه - من لطائف الصُّنْع التي تعزّ الأولياء، وتذلّ الأعداء، وليس سائر خدم الدَّوْلة - ثبتها الله - والمتقلّبين في إحسان الأمراء السّادة - أيّدهم الله - من الجذل بهذه العطيّة السّنية، والموهبة الهنيّة، التي يسرّ يومها، ويؤمّل غدها، فضربت فيه بالسَّهْم الأوفر، وأخذت منه بالقسط الأكبر، وانفردت من ذلك بما اختصتني من مِنَن مَوْلانا الأمير - أدام الله تمكينه - التي لا يساهمني فيها غيري من حاملي نِعَمه، ولا يخاصمني فيها سِواي من عَبيده وخَدَمه.

---

(١) طهران، والعنوان فيها: وله للوزير أبي الفضل إليه يهنئه بمولودين رزقهما.

وحمدتُ الله على ما تفضّل به من الزيادة في عَدَد مَوالينا الأمراء السّادة – أطال الله بقاءهم – التي تجمع للخاصّة عموم الكرم، وسُبوغ النِّعَم، وللعامّة مادة العدل، وقوام الأمن، وتلبس البلاد كمال العزّ، وبهاء الملك، حَمْد عارفٍ بقدر إحسانه، مُستزيدٍ لإنعامه وامتنانه، ورغبت إليه – تبارك اسمه – في إدامة الدَّوْلة، وبسط القُدرة، وإطالة بقاء مَوْلانا الأمير في عزٍّ تقصر دونه أيدي الغير، وتُصرف عنه طَوارقُ القدر، ويتراخى به الأمد، وتفنى قبله المدد، رغبة مستمدٍّ له من مألوف العادة، مُتنجِّزٍ فيه وعد الزّيادة، وسألته بأحبّ الوسائل إليه، وأقربها من النّجاح لديه، أنْ يجعل ما خاره له من البلاء الصّالح، وظاهر عنده من جسيم المنائح، مشفوعاً من تَباشير اليُمْن، وفَواتح الإقبال، بما يزيده على الأيّام نماءً، وتفنى عنه الدّهور بقاءً، وأنْ يوفي بمَوْلَيَي الأميرَيْن أبي القاسم وأبي كاليجار في علوّ القدر، وسموّ المنزلة والذكر، أبعد الغايات، وينيلهما من عظم الشأن، وسطوة السلطان أقصى النهايات، ويرى مَوْلانا الأمير فيهما من ارتقاء المنازل الشريفة، وامتطاء الرتب المنيفة ما يفوت الآمال القَواصي، ويجاوز مشتطّ الأماني، ولا يخليه من نِعَمٍ تتجدّد، وعوارفَ تتوكّد، حتى يكون كلّ وقتٍ نقتبله، وأوانٍ نستأنفه زائدين في تمام السّعادة على ما سَلَف، مقصّرين في بلوغ الإرادة عما يؤتنف.

ولما انتهى إليّ – أطال الله بقاء مَوْلانا – هذا النبأ السّار، الذي جلّ قدره، ووجب شكره، قمتُ فيه بما أمر الله – عز وجل – من التحدُّث بالنِّعْمة، والإعراف بالمِنّة، ووفيته حقّه من الشهر والإشادة، والنشر والإذاعة، حتى استفاض في الخاصّة والعامّة خبره، وظهر في الدّاني والقاصي أثره، وأخذ كلٌّ من الوَليّ والعدوّ حظّه من المسرّة والحسرة، ونال قسطه من العزّ والكَبْت، وأجرى الله تعالى فيه على السُّنّة التي يتفضّل

بها على مَوالينا – أيّدهم الله – في مثله، والحمد لله ربِّ العالمين.

وقد أهّلني مَوْلانا الجليل عَضُد الدَّوْلة من الاطّلاع على حادث النعماء، والإشراك في متجدّد الآراء، لصنيعةٍ مستأنفة، وضاعف عندي ما سبق من الأيادي المترادفة، ما أعجز عن شكره إلّا عن محض الثناء الذي تصدقه آثار نعمته وعارفته، وخالص الدّعاء الذي أثق من الله تعالى بقبوله وإجابته، وأسأله – أطال الله بقاءه – إجراء عَبْده على هذه الشاكلة التي ترفع ناظره، وتفسح أمله، وتلبسه ثوب الجمال والفخر، وتكسوه زينة الصِّيت والذكر، ومَوْلانا أعلى عَيْناً، وما يراه في ذلك وفي تكملة النِّعْمة بتَصْريفي بين عَوارض الخدمة، إنْ شاء الله تعالى.

وكَتَب إلى قاضي القُضاة
أبي مُحمّد عُبيدالله بن أحمد بن مَعْروف
يُهنّئه بعَوْده إلى قضاء القُضاة بعد انصرافه - كان - عنه[١]

منزلةُ قاضي القُضاة - أطال الله بقاءه - تجلّ عن التَّهْنئة بالوِلاية لأن ما تكتسبه[٢] الوُلاة بها من الصِّيت والذِّكْر، ويَدّرعونه فيها من الجمال والفَخْر سابقٌ لها عنده، وحاصلٌ قَبلها له. وإذا مدّ أحدُهم إليها يداً[٣] يجذبها إلى سفالٍ، جذبتها يدهُ إلى المحل العالي، فكأن أبا الطَّيِّب[٤] المتنبيّ إيّاه أراد بأنْ قال[٥]:

فوق السّماء وفوق ما طَلَبُوا فإذا أرادوا غايةً نزلوا[٦]

وكفاه - أيّده الله - مجداً وفَضْلاً، وحَسْبه خطراً ونُبْلاً، أنّه فارَق العمل مُسْتعفياً مترفّعاً[٧]، واستعاده مَسؤولاً مجشماً، وأنّه باجتماع أدواته له، وحُسن ما قدّم من الآثار يستحقّه استحقاقَ المستبدّ بلا شريك، ويستوجبُه استيجاب المتفرّد بلا قَرين، فمتى اعتزَله فقد رفع يَده عن حقّه، ومتى تقلّده فقد استردّ ظُلامةً له.

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (العنوان في: ف، ط: بعوده إلى القضاء...) وهذه الرسالة تنقطع في ط بسبب سوء الترتيب والتجليد في الأصل.

(٢) ف: تكسبه.

(٣) ف: أبداً.

(٤) (أبا الطيب) من: ط.

(٥) هذا ما في ط، وفي ما دونها: عناه أو حكاه بقوله.

(٦) ابن الإفليلي، شرح معاني شعر المتنبي، ج٢، ص١٤٣.

(٧) ط: متبرماً.

وكيف أُهنّئه - أيّده الله - بأمرٍ فائدةُ رعيّته منه الأكثر، وعائدتُه عليهم الأوفر، إذ كانوا يستريحون بتَعَبه ونَصَبه، ويطمئنّون بكلأته وذَبّه، ويأمنون في إنْصافه وعَدْله، ويأوون إلى كَنَفه وظلّه. وإنْ جاز أنْ نُهنّئه مع عظيم[1] الحظّ الذي أحرزه فغايتي أطولُ[2] من غاياتهم، ونهايتي أبعدُ من نهاياتهم. وكلُّ قولٍ أقوله مقصّرٌ عن الواجب عليّ وإن اجتهدت، وواقفٌ دون اللّازم لي وإنْ أغرقت؛ لازديادي عليهم، بعدما ساويتُهم فيه السكنى في حماه، والاستكنان في ذراه، وأنّه - أدام الله عِزّه - اليومَ بحمد الله جُنّتي من السُّوء[3]، وغداً بإذن الله ذريعتي إلى المرجُوّ. فلو عكس - أطال الله بقاءه - التَّهْنئة إلينا، ورأى أنْ يتكلّفها لنا، وإفرادي فيها بخصوصٍ على غيري، وتمييزِ عمّن سواي، لكان ذلك من أعْدَل ما حكم به وقضاه، وأوْضَح ما أنفذه وأمضاه.

والآن أعدِلُ إلى تهنئته - أدام الله نعماءه - بأنْ جعَله الله من الفَضْل في هذه الغاية التي ليس وَراءها مذهبٌ للمستبقين، ولا فوقها مرقىً للمرتقين، بعد أنْ هنّأتُ نَفْسي بما لبستُه في تقلُّده من سَرابيل النِّعْمة المتجدّدة المبهجة، ونضوتهُ[4] من أطمار[5] المحنة المؤذية المنهجة[6]، وما قيّض الله لي به من سَعادةٍ وإقبال[7]، وساقه إليّ من صَلاحٍ وحُسن حال[8].

---

(١) ط: جزيل، ر: جسيم.

(٢) هنا تنقطع ط.

(٣) ف: الشر.

(٤) نضا ثوبه نضواً: خلعه. ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٣٢٩ (نضا).

(٥) ر: أظهار (مجودة).

(٦) نَهَجَ الثوب ونَهُجَ فهو نَهِج: بَلي ولم يتشقّق. لسان العرب، ج٢، ص٣٨٣ (نهج).

(٧) ر : السَّعادة والإقبال

(٨) ر: الصلاح وحسن الحال.

وأشفعُ ذاك بالدّعاء بأنْ يمدّ الله في عمره، ويوفّقهُ في جميع أمره، ويفتح له في عاجلته أبواب السَّداد والصّواب، ويُعلقه في آجلته بأسباب الخير والثواب، ويُديم نِعْمته[1] عليه التي لا أسأل الله إليها نُعمى سوى أنْ تدوم، والله فاعل ذلك بجُوده وفَضْله، وإحسانه وطَوْله.

وما أشدّ اهتمامي واغتمامي - أطال الله بقاء قاضي القُضاة - بالعذر الدّاعي إلى أنْ نابت في متضمّن هذه الرّقعة يَدي عن قَدَمي، وخَطّي عن خُطاي، وإنْ لم أكن في الماثلين بين يديه، والشّاهدين صَبّ الخِلَع عليه، والمتشرّفين بمُسايرته، والمكتحلين بغُبار مَوكبه الذي ينفعُ عَيني ويجلو قَذاها، ويروي جَوانحي وينقع صَداها.

وإلى أنْ يتسهّل لي خَلَفٌ ممّا فات أستخلفه، وعوضٌ منه اعتاضُه واستأنفه، فقاضي القُضاة - أطال الله بقاءه - وليّ ما يراه في إجابتي، بما أسكنُ إليه إنْ شاء الله.

---

(١) ف: نعمة الله.

وكَتَب إلى قاضي القُضاة أبي الحسن مُحمّد بن صالح الهاشمي يُهنّئه بتقلّد قضاء القُضاة[١]

إذا وَرَدت النِّعْمة - أطال الله بقاء قاضي القُضاة - مَوْرِدَ العموم، واشترك النّاس فيها اشتراكَ الشمول، لزمَهُم أنْ يُجمعُوا على شكرها ونشرها، كما جمعهم الله تعالى في نَفْعها وخَيْرها. وتلك حالي وأحوالُ الجمهور فيما جدّده الله لنا من وِلاية قاضي القُضاة علينا، وأسبغه من إحسانه فيها إلينا.

وإنْ شرعتُ في تهنئته - أدام الله عزه - في أمرٍ عليه تعبُه وكَلُّه، ولغيره الحظُّ فيه كُلُّه، كنتُ بعيداً من وَضْع الشيء في موضعه، وإيقاعه في موقعه، لكنني أهنّئه - أطال الله بقاءه - بالنِّعْمة التي هي أخصّ به جداً، وأقدم عنده عهداً، في أنْ جَعَله الله ممّن يتّفق المتضادّون في تَفْضيله وتَعْظيمه، ويصطلح المختلفون على تَبْجيله وتَكْريمه، ويتهادى الخاصّة والعامّة التهاني بنظره، ويتراجعون البشائر بتقلُّده، إجماعاً عليه قلّ ما وقع مثله على أحدٍ من الأعيان الأفراد، والمبرزين الآحاد؛ لأنّ مَن كان من رعيّته محباً للحقّ وقيام سُوقه، ومُؤثراً للعَدْل ونَفاذ حُكمه[٢]، فهو ينطق بلسان الاختيار والاستبشار، ومَن كان معروفاً بمُقارفة الرَّيْب، ودنس الجيب، وخبث المطعم[٣]، ووُعورة المسلك، فهو

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (وتنقطع هذه الرسالة في ط بسبب سوء الترتيب والتجليد في الأصل). (الحسن) من: ط فقط.

عن أبي الحسن الهاشمي، انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السّلام، ج٣، ص٣٢٨.

(٢) ط: وركوب طريقه.

(٣) ط: الطعوم.

ينطق بلسان الاضطرار والصَّغار. ولو زالت عن هذه الطّائفة المطامع المردية والجواذب المضلّة المغوية، للحقت بالأولى في تساوي ما أظهرت وأضمرت، وتوازي ما أعلنت وأبطَنت، إذ كان مَن كره الخير، وآثر الشر يعلمُ صَلاحَ ما كره وإنْ عدل به الهوى عنه، وفَسادَ ما آثر وإنْ مال به الغرور إليه، فهذا هو الأمر الذي قاضي القُضاة مهنّأٌ به خُصوصاً. ثم يتلوه الاعتداد بالعائدة فيه علينا عُموماً. فأنا أحمد الله على أنْ أعاذنا من[1] البلوى في الحكم، وناوَبَ[2] بين أهل الستر والعلم، وصانه عن تَسلُّط صُروف الزّمان على تغييره، وتبسُّط حَوادثه في تكديره، وأقرّه من قاضي القُضاة في النّصاب الذي هو درجته العُلوى، وغايته القُصوى. وإيّاه أسأل أنْ يمدّه فيه بأحسن ما عوّده من التّوفيق، والرأي الزّنيق، والقول السَّديد، والفعل الرَّشيد، حتى تكون مَراميه مُصمية لأغراضها، ومضاربُه مُطبقةً لمفاصلها، وأحاديثُه حَسنةً كلّها، وأخبارهُ طيبةً بأسرها، بمَنّه وقُدْرته.

ولولا أني رَهينُ نكبتي، وحِلْسُ مَحبِسي، لما نابت في هذه التَّهْنئة يدي عن قَدمي، ولا خَطّي عن خُطاي، لكنني محصورٌ بالمكان الذي كتبتُ عنه، معذورٌ بالحظْر الواقع عليّ فيه. واثقٌ بأنّ قاضي القُضاة ما أخلاني من رقّةٍ وشفقة، ومُراعاةٍ ومُشاركة، وإجمالِ محضرٍ يَحْلَوْلي ثمره، وإن انطوى عنّي خبرُه. وتتحصّل لي العائدة في أُخراه، وإنْ تأخّرت[3] عنّي المطالعة بأُولاه، وحَسْبي الله وحده وكفى.

(١) تنقطع هنا ط.

(٢) ف: نادب.

(٣) ف: تحصنت.

....................[1]

.... غاياتهم، ونهايتي أبعد من نهاياتهم، وكلّ قولٍ أقوله مقصّرٌ......[2]
وواقفٌ دون اللّازم لي، وإنْ أغرقت لازديادي عليهم بعدما ساويتهم فيه بالسكنى في حِماه، والاستكنان في ذراه، وأنه - أدام الله عزه - اليوم جُنَّتي من السّوء، وغداً - بإذن الله - ذَريعتي إلى المرجوّ. فلو عكس - أطال الله بقاءه - التهنئة إلينا، ورأى أنْ يتكلّفها لنا، وأفردني فيها بخصوصٍ على غَيْري، وتَمييزٍ عن سِواي، لكان ذلك من أعْدل ما حَكم وقَضاه، وأوْضح ما أنْفذه وأمْضاه.

والآن فأنا أعدل إلى تهنئته - أدام الله عزه - بأنْ جعله الله - تعالى - من الفضل في هذه الغاية التي ليس وراءها مذهبٌ للمستقين، ولا فوقها مُرتقىً للمرتقين، بعد أنْ هنّأتُ نفسي بها لبستُه في تقلُّده من سَرابيل النعمة المنهجة، وما قيّض الله - تعالى - لي من السّعادة والإقبال، وساقه إليّ من الصَّلاح وحُسْن الحال. وأشفعُ ذلك بالدّعاء بأنْ يمدّ الله في عمره، ويوفّقه في جميع أمره، ويفتح له في عاجلته أبواب السَّداد والصَّواب، ويعلقه في آجلته بأسباب الخير والثَّواب، ويديم نعمته عليه التي لا أسأل الله - تعالى - إليها نُعْمى سواء أنْ تدوم. والله فاعلٌ ذلك بجُوده ومجده، وإحسانه وطَوْله.

وما أشدّ اغتمامي واهتمامي - أطال الله بقاء قاضي القضاة - بالعذر الدّاعي إلى أنْ نابت في متضمَّن هذه الرّقعة يدي عن قدمي، وخطّي عن خُطاي. وأنْ لم أكن من الماثلين بين يديه، والشاهدين صَبّ الخِلَع عليه، والمتشرّفين بمُسايرته، والاكتحال بغبار

---

(١) طهران، وهي مبتورة البداية.
يبدو أن هذه الرسالة موجهة إلى قاضٍ يهنئه بتقليده قضاء القضاة.
(٢) مكانها ممحي.

موكبه الذي ينفع عيني ويجلو أقذاءها، ويروي جَوانحي وينقع صداها. وإلى أنْ يتسهّل لي حلف مما فات استخلفه، وعوض اعتاضه، و...... [١] وقاضي القُضاة - أطال الله بقاءه - وليّ ما يراه في إجابتي بما سكن إليه، إنْ شاء الله تعالى.

(١) كلمة ضَبَّبها الحبر.

وكَتَب عن بعض القُضاة
إلى أبي الفَتْح ابن العَميد الملقَّب ذا الكفايتَيْن[١]

وَصَل كتابُ مَوْلانا السَّيِّد الجليل ذي الكفايتين مشتملاً على التَّهْنئة لي بالحال التي أصارَني إليها تفَضُّله وتمهيده، وأقرّني بها تأسيسُه وتَوْطيده، وأنا فيه خادمٌ من خَدَمه، وتابعٌ من أتباعه، وفهمتهُ. ووَجَدتُه - أدام الله عزه - مجرياً في القول المشرف لي، والتطوّل الرّافع مني إلى غايةٍ لا يدركها شكري، ولا يتعلّق بعَفْوه فيها جهدي، فلا غَرْو أنْ أقف دونها بَعيداً، وانقطعَ عنها حَسيراً، لكني أعْدِلُ عن تَعاطي ذلك إلى الدّعاء الذي لا أسلّم فيه لمساوٍ لي، فضلاً عن زائدٍ عليّ، بأنْ يطيلَ الله عمره، ويُعلي أمرَهُ، وينتهي به في سُبوغ النِّعْمة، وكمال الموهبة، واتّصال الرّفعة، وانبساط القُدْرة، وسُمُوّ السُّلْطان، وفَخامة الأمر والشان، إلى أقصى مبالغ السُّعَداء في الدّنيا والآخرة، والمحظوظين في العاجلةِ والآجلة، وأنْ لا يُعدم أولياءه عموماً، وإيّاي من بينهم خصوصاً ما يشملنا من كريم تفقُّده، وجميل تعهُّده، وشريف فِعله وقوله، وغامر إنعامه وطَوْله، بقُوّته وحَوْله، وجُوده ومجده.

وهذه الحال - أطال الله بقاء سَيِّدنا الأُستاذ - وإنْ كان لها شعارٌ جميل، ومِيسَم نَبيل[٢] أحمد الله عليهما، وأستوزعه شكر النِّعْمة فيهما، فإنها تهدّ الجسم، وتكدّ القلب، وتقسم الفكر، ولا يخلو المتلبّس[٣] بها من مُعاناة طوائف من النّاس يختلفون في إيثار

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) ط: نبيه، ر: بنيه، ف: نبيل نبيه.

(٣) ر: الملتبس.

الحقّ، والقناعة بـه، والصّـبر عليـه، والانقيـاد لـه، وهـي مسـتغرقةٌ لصـدر كثـيرٍ مـن رجائي[١] له تركته[٢]، واختياري لو فرقتهُ[٣] عـلى مـا هـو أنفـعُ لي، وأولى بمـثلي، لكنـي دُعيتُ إليها مأموراً، والتزمتها مكلَّفاً، ورجـوتُ أنْ يُجـري الله عـليّ سـالف العـادة لـه عندي في الإنهاض بها، والتوفيق فيها.

وإذا كانت سَعادةُ سَيِّدنا الأُستاذ ذي الكفايتين ملقيةً نحوي شعاعها، وعنايته مادّةً عليّ ظلالها، فخليقٌ أنْ أُوقّى محذور الزَّلَل، وأنْ أُهدى إلي محمود العمل، وبالله أستعين، وعليه أتوكّل وهو حَسْبي وإليه تفويضي.

وقد بَدَأني سَيِّدنا الأُستاذ - أدام الله تأييدَه - من كتابه بعارفة كرمٍ يقتضيه رَبُّها[٤] بأخواتٍ يشفعنها، وأترابٍ يتبَعُنها، وأمرٍ ونهيٍ يتلوانها، واستخدامٍ واستنهاضٍ يقفوانها[٥]، وهو - أطال الله بقاءه - وليّ ما يراه، ويأمر به في ذلك إنْ شاء الله.

---

(١) ط: وقتي، والعبارة (لصدر .... تركته) مضطربة أشد الاضطراب في الأصول الخطيـة، أثبتُّ ما أحسبه الأرجح.

(٢) ر: لو تركت.

(٣) ر: فرقة.

(٤) من: ر.

(٥) ف: يفغونها.

وكَتَب إلى وزير يهنئه في عيد الأضحى[1]

أطال الله بقاء سَيِّدنا الوزير، وأدام عزه وتأييده، وتمّم عُلوّه وسُموّه، وكَبَت حاسِدَه وعدوّه، وأسعده بهذا العيد سعادةً تجمع حُظوظ الدّنيا والآخرة، ومَصالح العاجلة والآجلة، ووفّقه لصالح الأعمال الزكيّة، والأفعال المرضيّة، مشكوراً سَعْيُه، مبروراً نُسْكُه، مقبولاً كلّ ذلك منه. وجعل أعاديه كأضاحيه، وأولياءه المسرورين المحصورين فيه، بمَنّه وطَوْله.

والله - أطال الله بقاء الوزير - ما أترك الدّعاء له في آناء ليلي ونهاري، وعلى تصرُّف ما تنصرف الأحوال بي، ولا يزيلني عن مُوالاته سُبوغ النعمة إذا سبغ منها ما يُلهي ويُبطر، ولا طُروق النِّقْمة إذا طرق منها ما يؤلم ويثلم، بل أنا مُقيمٌ مع تعاقُبهما عليّ، وتداوُلهما إيّاي، على الإخلاص والنَّصيحة، والمشايعة الصَّحيحة، والآمال الطّويلة العَريضة، التي كرمُه وسُؤدده وَكيلاي فيها حتى يبلغنيها الله - تعالى - به وعلى يده، ولا أشكّ في أنه - أدام الله عزه - يجد من قلبه وضميره شاهداً على صِدْق قولي، ووُضوح دَعْواي، وأسأل الله أنْ يهب لي قطراً قريباً إلى عزّته، وعَوْداً سريعاً إلى حضرته، وخروجاً عن ضَغْطة مُفارقته إلى سَعة خدمته ومُلازمته؛ فإنّ السَّعيد مَن أقبل عليه، والشّقيّ مَن أعرض عنه، والمقدورُ مع هذا كلّه كائنٌ محتوم، ووقتُه محدودٌ معلوم، وكثيراً ما تجري بعثرة البريء السَّليم، ونهضة الظَّنين السَّقيم. وهذه جملةٌ تغني عن التّفصيل والتّطويل.

---

(١) طهران. (العنوان فيها: وله).

وقد عرفتُ من تفضُّل سَيِّدنا الوزير المتجدّد في هذا الوقت عليّ، وكلامه في أمري، ونُصحه لي، واهتمامه بي، ورعايته إيّاي، وتذمّمه ممّا لحقني، وتجريده فيما يصلحني ما جلّ موقعُه عندي، وشاكل عادات إحسانه إليّ، واصطناعه لي، وأخذه حالاً بعد حال بيدي؛ فشكرتُ ذلك بغاية وُسْعي وطاقتي، ونهاية حَمْدي واستطاعتي، فقويت به مُنّتي ونفسي، وامتدّت إلى ما يتلوه من الاستتمام والاستكمال عيني. وإلى الله رغبتي في إطالة بقائه، وإدامة علائه، وحراسة[1] الموهوب لي من رأيه،..............[2]، وهو حسبي.

(١) في الأصل: وحراسته.

(٢) كلمتان غير مقروءتين.

وكَتَب
مهنّئاً أحد الكبراء بعيد الأضحى[1]

وَصَل توقيعُ سَيِّدنا - أطال الله بقاءه - وما اقترن به من الإجراء؛ فتلقّيتُ ذلك بانشراح صَدْرٍ وإخلاص[2] في الشّكر، وقوي قلبي بما دلّ عليه من ارتضائه تأليفي، واسْتصوابه تَصْنيفي، ورَجَوتُ أنْ يكون ذلك من علامات إقبالي، وأدلّة صَلاح حالي، بإذن الله.

وأنا أمتثلُ أمره - لا زال عالياً - في الاستتمام، وأستمدُّ من أبي الحسن الكاتب المعونة فيما يعرضه منه، ويستطلعه من الرّأي فيه، وأرغبُ إلى الله في أنْ يَجْعَل ذلك مفضياً إلى تمام التّوفيق، ومؤدّياً إلى زيادة القُربى[3]، إنْ شاء الله، وبه الثقة.

وعبدُ سَيِّدنا - أطال الله بقاءه - يقولُ مهنّئاً بالأضحى ما حضر عند كَتْب هذا

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (مهنئاً أحد الكبراء بعيد الأضحى) إضافةٌ منّا للتوضيح.

ربّما تكون هذه الرسالة قد كتبها إلى سَيّده عَضُد الدَّوْلة، لأنه سيشير إلى سعادته برضا سَيِّده عن تأليفه لكتابٍ يصنّفه. وهذا الأمر يخصّ على الأرجح كتابه (التاجي في الدَّوْلة الدَّيْلمية)، حيث كان كلما «عمل منه جزءاً حمله إلى عَضُد الدّوْلة حتى يقرأه ويصلحه ويزيد فيه وينقص منه. فلما تكامل ما أراده، حُرّر وحُمل كاملاً إلى خزانته». الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ص٣٣.

(٢) ر: الصدر والإخلاص.

(٣) ر: القربة.

الجواب على عجلة البديهة :

مُرجّيـــك وصـــابيكا[١] بـــذا الأضـــحى يهنّيكـــا

ويـــدعو لـــك والله مُجيـــبٌ مـــا دعـــا فيكـــا

وقـــد أوجـــز إذ قـــال مَقـــالاً هـــو يكفيكـــا

أرانـــي الله أعـــداءك في حـــالِ أضـــاحيكا[٢]

---

(١) يقصد نفسه.

(٢) ف: أعاديكا.

وكَتَب إلى أبي القاسم المطَهَّر بن عبدالله في اليوم الأجود وأهدى إليه خاتماً[١]

عَرَّف الله سَيِّدنا الأُستاذ بركة هذا اليوم الأجود، وأحَلَّهُ عليه بالطّالع الأسعَد، أطال الله بقاءه، وكَبَت أعداءه، ولا أخلاه فيه ولا[٢] في أيّامه كلّها من الطّائر السّانح، والمتجر الرّابح، والنِّعَم المترادفات، والبركات المتوافيات، وجَعَل كلَّ آتٍ منها زائداً على ما قبله، وواعداً بما هو أفضل منه، حتى تكون مَواهب الله له جاريةً بلا وقوف، ونامية لا إلى حدٍّ معروف، وسالكةً به في أطوَل عمر وأبعَدَه، وإلى أنعَم مُنقلبٍ وأرغده، بمَنِّه وطوله.

ولئن كنتُ - أيّد الله مَوْلانا الأُستاذ - غير مُواظب على توفية الخدمة حقّها في أمثال هذا اليَوم - عظّم الله عليه يُمْنها - بالعَوائق التي هو - أيّده الله - عالِمٌ[٣] بها، ومأمولٌ لحسْمها[٤]، وإعادَة الحال إلى أفضَل عَهْدها، إني لأبذل في ذلك الوُسْع، وأعمل فيه بالممكن والجهد.

وقد أنفذتُ مع رُقْعتي هذه خاتم فضّة غَرَويّ الفَصّ[٥]، مرسومة عليه

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) ساقطة في ر.

(٣) ر: عارف.

(٤) ر: بحسمها.

(٥) الغرويات مادة مثل الصمغ أو الجيلاتين، تتكون في الطبيعة كيميائياً وجيولوجياً، وتُتخذ منها أحجارٌ كريمة ملونة. وساق ابن القطاع الصقلي (ت٥١٥هـ/ ١١٢١م) قول مُحمّد بن الحسن ابن الطوبي، مقدماً له بقوله: «ممّا تكتبه الشيعة على فصٍّ أسود غروي»:

رُخامة[١] تبرّكاً له به من جهاتٍ أذكرها.

فأمّا الفضّة فهي الجوهرُ الذي يستنجح المطالب والمآرب، والذائد[٢] الذي لا يُذاد عن مُراد، والعِلْق الذي لا يوازي جميع الأعلاق، والمالُ الذي يأمن به صاحبُه من الإمْلاق، والشّافعُ للنّفوس إلى أمانيها، والموصلُ للعُيون إلى غاية مطامحها ومراميها[٣]. وجيهٌ أين وجّهتَه، مصيبٌ حيث سَدّدتَه. واعتمدتُ أنْ يكسب الله سَيِّدنا الأُستاذ ما كسَبَه من المحبّة في كلّ قَلْب، و[٤]الفَلاح في كلّ خَطْب، والبُلوُغ إلى كلّ أرب، والظَّفَر بكلّ وَطَر.

وأمّا الفَصّ الغروي[٥] فمأخوذٌ من مَقرّ الصّلوات، ومَعدن الخيرات، والتربة التي تُعفَّر بها الجباهُ والخدود، ويتكرّر عليها الرّكوعُ والسّجود، وتترشّفها أفواهُ المتهجّدين، وتباشرها أنفاسُ الصّالحين، وتعبَق بها رياحُ الجنّة، وتهطل عليها سَحائبُ الرّحمة. وقد شرّفها أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - بجواره، وأعبقها من ريح نِجاره؛ ففيها الشفاءُ من كلّ مرض، والأمانُ من كلّ عرض، والدّفاعُ للمهمّ إذا طَرَق، والمخوف إذا أرهق، فأردتُ لسَيِّدنا - أطال الله بقاءه - أنْ يكون حاملَ هذه السَّعادة بيده، ومحتقبها

أنا غروي شديد السواد ... وقد كنت أبيض مثل اللجين
وما كنت أسود لكنني ... صُبغت سواداً لقتل الحسين

الدرة الخطيرة، ص١٧٩.

(١) هي المزولة، من أنواع الساعات الشمسية. انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٢٥٥؛ دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٥، ص١١٦.

(٢) ر: الزائد، وكذلك (يزاد) اللاحقة.

(٣) ر: مرائيها.

(٤) ف: في.

(٥) ف: الهروي.

في فَصّ خاتمه، فلا يمدّ يده إلى الله داعياً قانتاً، ولا إلى النّاس مشيراً ومعاطياً، إلّا وهو بعُرى الإيمان مُعْتصم، وبوَثائقه مُعْتلق، وبالصّنع من الله حَقيق، وبالطّاعة من عِباده خَليق.

فأمّا الرُّخامة فإنها آلةٌ يُعرف بها مطرحُ الظّل، ومرجعُ الفيء، ومعرفة[1] الماضي من السّاعات، ومَواقيت الصّلوات، قد أخذت من علم الأفلاك بحَظّ، وضربت في علم الأديان بسَهْم، وأغْنت مَن تكون معه عن الفنجان[2] الثقيل محمله، والاصطرلابِ الكثير عمله. خفيفة المؤونة، كثيرة المعونة، حاضرة الفائدة، قريبة الخدمة، مغنية في الحَضَر، جارية[3] في السَّفَر؛ فتفاءلتُ له - أدام الله أيّامه - بها أنْ يستولي بوزارته على كل ما فَتَحه لَمَوْلانا الملك السَّيِّد الأجلّ المنصور وليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة - أطال الله بقاءه - مضاربُ سُيوفه، وخَطّت عليه أطرافُ رماحه، وإنْ تساويا - أدام الله عُلوّهما - في ذلك ما خُطّ في هذه الرُّخامة من مطلع شَمْس ومغربها، ومن دانية أرضها وقاصيها، فإنْ رأى سَيِّدنا الأُستاذ الجليل أنْ يشرّف عبده بقبول ذلك فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ساقطة في ر.

(٢) في الأصول بدون نقط.

الفنجان أو البنكان (بنكام): ساعة مائية. دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج٨، ص١١٨؛ ج١٠، ص١٤٢. وقال الذهبي في ترجمته لأحد العلماء ناقلاً عن السمعاني: «كان يعرف النجوم........ وكان صاحب الفنجان للصلوات والساعات». تاريخ الإسلام، ج١٠، ص٧٩١. وانظر ما ذكره ياقوت عن فنجان أنطاكية. معجم البلدان، ج١، ص٢٦٧؛ والقزويني عن فنجان القسطنطينية. آثار البلاد، ص٦٠٥.

(٣) ف: جازته (مجودة).

وكتب عن عزّ الدَّوْلة
إلى أبي تَغْلب بن حَمْدان
عن مَوْلودٍ رُزِقَه[١]

كتابي يا سَيِّدي ومَوْلاي - أطال الله بقاءك - من تَكْريت، عن سلامةٍ أسألُ الله تعالى أنْ يعمّنا بها يمدّه من ظلّها، ويوطئه من كَنَفها، وأشكرُ الله - جلّ اسمُه - عليها، شكرَ المستديم لها، المستمدّ منها، والأحوالُ بيننا - أدام الله عزك - لما مكّن الله من أسبابها، وثبّت من أطنابها. وأطاب من أُصولها، وأطال من فُروعها موجبةٌ أنْ نتهادى البشائر فيما يوهب لنا من مَزيدٍ في وَلَدٍ وعلاء، ووُصولٍ إلى مطلبٍ وأمل، وألّا تمسّك ماسّةٌ إلّا كانت لي بادية، ولا تخصّني خاصّة إلّا وهي عليك عائدة بوَشائج المودّة، وشَواجر الوُصْلة، وتوافق دَوْلة النّفوس، وتطابقُ حبّات القلوب.

وإذا كان ذلك معتدّاً به في جَليل النِّعْمة بين الرّعايا والأصاغر، فحقيقٌ بتضاعف الاعتداد به بين الرّعاة والأكابر الذين تسكن بتآلفهم الدَّهْماء، وتشمل مصافهم[٢] النَّعْماء. والله تعالى يحرس بيننا صالح ما جمعنا عليه، وجميل ما أفضى بنا إليه، بقُدْرته.

وقد مَنحني الله هذا اليوم مَوْلوداً أمرتُ بأنْ سُمّي شَهْفيروز، ويُكنى أبا نَصْر. خِلْقتُه سَويّةٌ صَحيحة، وصورتُه مقبولةٌ صَبيحة، أسألُ الله أنْ يعرّفنا بركته، ونُجْح مقدمه، وسَعادة مَطالبه، ويُمْن طائره. ولما كنتَ له كالوالد الشَّفيق، ولي كالأخ الشَّقيق، لم يسعني تأخير البُشْرى والاستبشار بالمسرّة دونك.

وأصدرتُ كتابي هذا مع حامله، وأمرتُه بالعَوْد والإسْراع بما تتفضّل به من جَوابه، إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) طهران. (العنوان فيها: وله من عز الدَّوْلة..........).

(٢) في الأصل: مصافيهم، ولعل الأرجح ما أثبتناه.

وكَتَب عن نفسه
إلى الملك صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة
يُهنّئه بمِهْرَجان(١)

عَرَّف الله مَوْلانا الملك السَّيِّد صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلّة بركة هذا اليوم الجديد، والحَوْل السَّعيد، وأطال بقاءه في الحظ الجسيم، والسُّلْطان العظيم، والنصر العزيز، والصَّوْن الحريز، ولا أخلاه من ظُهور الوَلِيّ، وثُبور العَدوّ، وطول اليَد، وعلوّ القدر، ورَغد العيش، وسُكون النفس، وكفاية المهمّ، ودفاع الملمّ، وأحياه أقصى نهايات العُمر، وعلى الغاية من نَفاذ الأمر. وكلّما زادَهُ الله شيباً وجلالاً، زادَ دَوْلته شباباً ونَضارة، وأيّامه حُسْناً وغَضارة(٢)، وسَعادته قوّةً ومتانة، وحَريمه حمىً وصيانة(٣)، حتى تتوافى تتوافى النِّعَم إلى ساحاته، وتَتوالى البركات إلى عَرَصاته، وتَترامى به الحظوظ بتزايدها، إلى حيث لا يبلغه أمل، ولا يقطعهُ أجل، بقُدْرته.

وقد أقمتُ - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك السَّيِّد - رَسْمَ الهدية في هذا المِهْرَجان السَّعيد باصطرلابٍ صحيح الصّنعة، حاذق الصّانع، تفاؤلاً أنْ يُحييه الله ما دارَت الأفلاك، وتعاقبت الأدوار، وفيه أقول:

يعزُّ عليّ أنْ أهدي نُحاساً ... إلى مَن فيضُ راحته نُضارُ
ولكنّ الزّمان اجتاحَ حالي ... وأنت عليه لي إذ جارَ جارُ(٤)

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) ف: نضارة.

(٣) ر: حصانة.

(٤) هذا الشطر في ف: وأنت على عليه إلى إذا...

فيــا كنــزاً مــن المعــروف أضـحى بـــأطراف القَـــوافي يُســـتثارُ
ويــا بَــدْراً تُنــير بــه الــدَّياجي ويــؤمنَ أنْ يكــون لــه سِرارُ
ويــا شَــمْس الشــريعة لا عَــدِمْنا ضــياءً منــك ليلتُــه نَهــارُ
أتــاك الــمِهْرَجان طلــيحَ شــوقٍ إلى لُقيــاك إذ بَعُــدَ المــزارُ
يحــجُّ إليــك عامــاً بعــد عــامٍ لــه أبــداً بســاحتك اعــتِمارُ
تــألّى أنْ يــزورك غــير آلٍ فــما أنْ يســتقرّ لــه[1] قــرارُ
مُعنّــىً بــين تَرْحــالٍ وحِــلٍّ مطيــةُ رَحْلِــه الفَلَــكُ المــدارُ
يــزفُّ إليــك أبكــارَ المعــالي فيجلوهــا وأنعمــك النِّثــارُ
يــزرّ عليــك جَيْبــاً مــن نعــيمٍ مُقــيمٍ لا يُبــاع ولا يُعــارُ
فعــشْ واســلمْ عــلى صَرْف اللَّيــالي مُــوقّىً لا يطُــور بــك العِثــارُ
وجُــدْ جُــودَ السَّــحائب بالعَطايــا كــما جــادت بنائلهــا البحــارُ
ودونكهــا اجتهــاداً مــن مُقــلٍّ لــه بــالنثر لا الــنظم اشــتهارُ
صــناعته[2] هــي الكتــبُ اللّــواتي لهــا مــن عــزٍّ مَوْلانــا شِــعارُ
يُســفّ نــداك عــن قــابٍ رَفيــعٍ لهــا فيــه مطــارٌ وانتشــارُ
بحيــث يجــلُّ عــن ذكــرِ الغــواني دَنَــت أســماءُ أم نزحــت نــوارُ
فــإنْ أزرى بأبيــاتي اختصــارٌ[3] فقــد وضــح احتجــاجٌ واعتــذارُ

---

(١) ر: به.

(٢) ر: بضاعته.

(٣) ر: اقتصار.

وكَتَب
إلى وزيرٍ يهنّئه بالنَّوْروز[١]

أسْعَد الله سَيِّدنا الوزير بالنَّوْروز، وقضى له بالبقاء المديد الطّويل[٢]، وجعل أيّامه بِيضاً زُهْراً، وأعوامه محجّلَة غُرّاً، ولا أخلاه من نِعَمٍ تتتابع[٣] وتترى، وتقصُرُ السّابقة منها على الأخرى، ويكون الجميعُ رهناً بَرَوادف تتبَعُه، وأوانف تشفعُه، واختصّهُ من كلّ دعاءٍ بأصلحه وأنجحه، ومن كلّ ثناءٍ بأحسَنه وأجمَله.

وقد تأكّدت السُّنّة - أيّد الله سَيِّدنا - في مثل هذا اليوم الجديد، والأوان السَّعيد، على العَبد أنْ يهدي ويلاطف، وعلى المَوْلى أنْ يقبل ويُشرِّف. ومع رُقعتي هذه دَواةٌ[٤]

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (إلى وزير يهنئه بالنوروز) إضافةٌ منّا للتوضيح. وأورد بعضها الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٣٠٣.
النَّوروز أو النَّيروز عيدٌ عراقيٌّ قديم، تعود أصوله إلى الحضارات التي نشأت في العراق، السومريين والبابليين، وهو متصلٌ بالتقويم الزراعي، والاعتبارات فلكية، فهو يوم الانقلاب الربيعي (٢١ آذار). تأثرت به الأمم المجاورة، ومنهم الفرس، فتمسكوا به حتى بعد إسلامهم، ولهم فيه طقوسٌ رسمية وشعبية. وكان له حضورٌ حتى في الدولتين العباسية والفاطمية. انظر على سبيل المثال : الغزالي، التبر المسبوك، ص٨٠؛ ابن الطقطقي، الفخري، ص١٥٥ . وعلى شبكة المعلومات العنكبوتية مقالٌ ضافٍ لطلعت ميشو يوثق تاريخه وجذوره وامتداداته وكثيراً مما يتعلق به بتوثيقٍ جيد، وهو بعنوان : أكيتو عيد الربيع البابلي – جذوره، أيّامه، عائديته.

(٢) ساقطة في ط.

(٣) في الأصول: تتابع.

(٤) عند الثعالبي: قد خدمت مجلس سيدنا حرسه الله تعالى وآنسه بدواة يداوي مرض عفاته وتدوي قلوب عداته.

تداوي مَرض عُفاته، وتُدوي قُلوبَ شُناته[1]، على مَرْفعٍ يؤذن بدَوام رفعته، وارتفاع النّوائب على ساحته. وسَيِّدنا - أيّده الله - أعلى عيناً في التقدّم بقبولها، وحملي على شاكلة كَرَمه فيهما، إنْ شاء الله.

(١) هم المبغضون. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص١٠١ (شنأ).

وكَتَب
مهنّئاً أحد الكُبراء بالنَّوْروز[1]

عبدُ سَيِّدنا – أطال الله بقاءه – إبراهيم بن هِلِّيل[2] يُهنّئه بالصَّوْم والنَّيْروز، ويسأل الله أنْ يجمعَ له باجتماعهما خيراتهما وبركاتهما. وقد أنفذ مع رقعته دِرْهَمين ودَفْترين فيهما كتابُ (المسالك والممالك) لابن خُرْداذْبة إقامةً للسُّنّة، ورَسْم الخدمة، ويقول مع ذلك :

أُهدي إليك بحَسْب حالي في الخصاصَة دِرْهَمَيْنِ
وبحَسْب قَدْرك دفترَيْن هما جميعُ الخافقَيْنِ
فإذا فتحتَهما رأيتَ بيانَ ذاك بلَحْظ عَيْنِ

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (مهنئاً أحد الكبراء بالنوروز) إضافةٌ منّا للتوضيح.

(٢) كذا في الأصول، وهو تأكيد لما ذهبنا له في التسمية في دراستنا التي تقدّمت.

وكَتَب إلى أبي الوفاء طاهر بن مُحمّد بن إبراهيم يُهنّئه بالنَّوْروز[١]

أسْعَد الله سَيِّدنا الشّيخ بالنَّوْروز الطّالع عليه ببركاته، وأيْمن طائره في جميع أيّامه ومتصرّفاته[٢]، ولا أخلاه من رَغْدٍ[٣] في عَيْشه، ومزيدٍ في عُمُره ومُدّته، وبلّغه الأملَ في نَفْسه وحَوْزته، وحَرَس النِّعْمة الشّاملة لحاله ومنزلته، بقُدْرته.

الهدايا - أطال الله بقاء سَيِّدنا الشّيخ - تكون من الرؤساء مُكاثرةً بالفصل[٤]، ومن النّظراء مقارضةً بالمثل، ومن الأولياء ملاطفةً بالقُلّ. وقد سلكتُ فيها - أيّده الله - سَبيل أهل طَبقتي من الأتباع، مع أهل طبقته من الأصحاب، في إنْفاذ القليل، وهو رُخامة لطيفة الحجم، خفيفة المحمل، حاذقة الصّانع، تُعرف منها السّاعات، ومَواقيت الصّلوات، وسَمْت القِبْلة[٥]؛ مقيماً بذلك رَسْم الخدمة، ومختلطاً بمَن تضمّه الجملة، وأقول مع[٦] ذلك داعياً ومثنياً:

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (ر: بالنيروز، وكلاهما واحد، وكذلك في السطر الأول من الرسالة).

أبو الوفاء طاهر بن مُحمّد أحد رجال عَضُد الدَّوْلة. انظر بعض أخباره عند: الشيرازي، رسائله، ص٢١، ص١٦٤؛ الصّاحب بن عباد، المختار من رسائله، ص٢٧؛ مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٣٠؛ الروزراوري، ذيل تجارب الأمم، ص١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٦٠.

(٢) ف، ع: مصرفاته.

(٣) ر: الرغد، وبعدها: المزيد.

(٤) ساقطة في ف.

(٥) (وسمت القبلة) من ر.

(٦) ف: في.

يُهدي لك النَّزْرَ عبدٌ ما له كَلِمُهْ ... وجُلُّ أملاكِه ما خَطَّه قَلَمُهْ

فإنْ تكن يدُه ضاقت فما انطلقت ... فقد جرى طلق المدح الوساع فَمُهْ

يا ذا الشبيبة إذ تُحصى سُنوه ويا ... شيخَ الفضيلة أما أحصيت شِيَمُهْ

يا مَن يوافق منه الاسمُ كُنيتَه ... ونعته حيث لم يقعُد به كَرَمُهْ

فطاهرٌ ظهرت منه خلائقُه ... أبو الوفاء الذي تُرعى به ذِمَمُهْ

إسْعَدْ بنَيْروزكَ الميمون طائره ... واستقبل العيشَ مَوصولاً به نِعَمُهْ

وعن عِداك يكون الخيرُ منحرفاً ... وفي عِراصِك تجري دائماً دِيَمُهْ

فصلٌ من كتاب
في تهنئة بالنَّوْروز[١]

أطال الله بقاء سَيِّدنا، وأسعد بنَوْروزه الوارد عليه، وأعاده أعواماً كثيرةً إليه، وجعله فيه ولآماله كلّها .... [٢] محبوّاً موفوراً، محتوماً له ببلوغ الآمال، مطروفة .... [٣] عين الكمال، محظور الأفنية على النوائب، محميّ الشّريعة من الشّوائب، مبلَّغاً غاية ما تسمو إليه همّتُه العالية المشتطّة، وأمانيه المنفسحة المنبسطة، بقُدرته.

---

(١) طهران، والعنوان فيها: فصل.

(٢) كلمتان غير مقروءتين.

(٣) كلمة غير مقروءة.

وكَتَب
مهنّئاً أحد الكُبراء بالنَّوْروز[1]

عرَّف الله سَيِّدنا الأُستاذ بركة هذا النَّوْروز الميمون طائرُه، المسعود طالعُه، الدّالة على الخير شهادتُه، المؤذنة بالنجح إمارتُه، وتولّاه فيه بالتمكين والتأييد، والإعلاء والمزيد، ولا أخلاه من مسرّةٍ تسنح وتتجدّد، ومنزلةٍ تعلو وتتمّهد، و...... يسْديها[2] إلى مستحقٍّ لها، عارفٍ بقدرها، وعارفةٍ بوليِّها، ناهضاً بشكرها، بعيداً من كفرها، وجميع ذلك تحت الظلّ الظّليل، والرأي الجميل، من مَوْلانا الملك – أطال الله بقاءه – في الامتداد من أيّامه، وإعزازٍ لأوليائه، وإذلالٍ لأعدائه. وإذا أتم الله النِّعْمة عليه وعلى سادتنا المتقدّمين ....[3] فجعل الله ملابسَها سابغةً غير قالصة[4]، وسَرابيلها ضافيةً ضافيةً غير ناهضة، حتى يَصلَ إلى مَن دونهم عبيدهم ومَواليهم رذاذٌ من وَبْلها، ورشاشٌ من سَجْلها؛ فلا يلوذُ بغَنائهم لائذُ دَوْخلة إلّا كانت النِّعْمة التي خصّتهم تعمّه، ولا يَعوذ بعقوتهم عائذ ذو شَعَثٍ إلّا كانت للقسم التي خصمهم تكلّمه، إنّ ذلك إلى الله تعالى وبيده.

---

(١) بداية هذه الرسالة من طهران، لكنها تنتهي عند (أحمد المؤلف للكتاب بخطه وأقول) وسقط ما بعدها. وبَقيّة الرسالة من چستربتي، وتبدأ بـ(خلوص شكري) وهي بداية قطعة چستربتي المبتورة البداية، كما أشرت في المقدمة. (مهنئاً أحد الكبراء بالنوروز) إضافةٌ منّا للتوضيح.

(٢) كلمة غير مقروءة.

(٣) كلمة غير مقروءة.

(٤) قلص: انقبض وانضمّ. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٧٩ (قلص).

وقد خدمتُ سَيِّدنا الأُستاذ- أطال الله بقاءه - في هذا اليوم بقليلٍ يوفّره خُلوصُ شكري، ويسيرٍ يكثّره وُضوحُ عذري، وهو كتابُ أحمد بن الطَّيِّب[1] في السِّياسة، بخطّ الأقرع الوَرّاق، وإصلاح أحمد المؤلِّف للكتاب بخطِّه. وأقول مع ذلك:

....لّ[2] نَــــوْرُوزَك الجديــــدا ... واســـتقبل الطّـــالعَ السَّـــعيدا

وســـاير الـــدَّهْرَ في عِنـــانٍ ... رَكْضـــاً وعِـــشْ عَيْشَـــك الرَّغيـــدا

وكـــنْ عـــلى الأوليـــاءِ غَيْثـــاً ... وللأعـــادي ردىً مُبيـــدا

وكلّـــما نِلْـــتَ مـــن عَـــلاءٍ ... حـــدّاً فنَـــل بعـــدَه حُـــدودا

وابســـطْ فِيَ العـــذرَ حـــين أُهـــدي ... لمثلـــك التّافـــهَ الزَّهيـــدا

واجـــبر بـــوُدّي لـــك اقتصـــادي ... مُســـامحاً عَبْـــدَكَ الـــوَدودا

فـــربّما ســـامح المـــوالي ... في زَمـــن العُطلـــة العَبيـــدا

وكـــنْ ضَـــميناً لأنْ تـــراني ... أُهـــدي لـــك الـــوافرَ العَتيـــدا

وافهـــمْ فـــإنّي أردتُ معنـــىً ... لا يعجـــزُ السَّـــيِّدَ السَّـــديدا

---

(١) أبو العَبّاس أحمد بن مُحمّد بن مروان السَّرَخْسي، توفي مقتولاً سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م. عنه، انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٦٨.

(٢) كلمة مطموسة، لم يبق منها سوى (...لّ).

وكَتَب إلى الوزير مُحمّد بن بَقيّة بتجدّد نعمة(١)

حَظُّ سَيِّدي – أطال الله بقاءه – من الحال التي جَدّدها الله لسَيِّدنا الوزير النّاصح(٢) – أطال الله بقاءه – وإنْ كانت كالظلّ الممدود علينا، والشيء العامّ لنا وافر(٣) بحسب وُفور قَدره، وعُلُوّ خَطره، وانحطاط المنازل عن منزلته؛ ولذلك يجب أنْ تكون التّهنئة له بالقول(٤) القاضي حقّه، والاجتهاد المؤدّي غرضَه. وما أبلغُ من ذلك إلى غايةٍ إلّا أوجبتُ على نَفْسي تجاوزها، ومنعتُها الوُقوف عندها. وأسأل الله أنْ يَسرَّه، ويقرّ عينه، ويجزلَ من هذه السَّعادة قِسمه، ولا يُعْدِم سَيِّدنا الوزير الناصح منه – أيّده الله – البركةَ المقرونةَ بنظره، واليُمْنَ المصاحِبَ لطلعته، والنيابة المرخية لباله، والكفاية الحاملة أثقالَه، بقُدْرته(٥).

ولو تفرّغ سَيِّدي – أدام الله عزّه – لاستتمام الصَّنيع الذي ابتدأه، والإحسان الذي أسْداه، واستنقذني(٦) بإقباله من أشراك المحنة وحَبائلها، واستخلصني بلُطفه من مكائدها وغَوائلها، لما أخْلَلْتُ بمجلسه، ولا تأخّرتُ عن حضرته، ولا سبقني سابقٌ إلى

(١) جستربتي، طهران. (إلى الوزير مُحمّد بن بَقيّة بتجدد نعمة) إضافةٌ منّا للتوضيح، ووضعنا اسم الوزير بناءً على لقبه (الناصح)

(٢) هو الوزير مُحمّد بن بَقيّة.

(٣) ط: أوفر.

(٤) ج: والقول.

(٥) ط: بمنه.

(٦) في الأصلين: استقذني.

تهنئته، ولا عدلتُ فيها عن مُشافهته إلى مُكاتبته[1]، وما تركتُ إذكارَه بما وَعَدني، ووَثّق به لي إلّا سُكوناً إلى رأيه، وتحصيلاً لوفائه، وعلماً بأنه لا يسمح بي، ولا يطيب قلباً عني، ولا يرضى أنْ تكونَ مِنّتُه عليّ خصوصاً منقوصة مثلومة، وهي عند أوليائه وأصدقائه عموماً موفورةً ملمومة، ولا يؤخر عني ما أنا متوقعه من الأخذ بيدي، والانتياش لي، وإخراجي إلى مُلازمته ومُؤانسته، والانقطاع إليه، والاعتماد عليه، والكون بحيث يجعلني، والاستقرار بحيث يقرني، إذ كان الله – جلّ وعزّ – يعرف مني في ذلك نيّة العازم عليه، إذا وجد السَّبيل إليه المتجمّل بالظَّفَر به، المتشرف بحلول محلّه الذي لا يلتمس وراءه مطلباً، ولا يحاول عنه مذهباً، ولا يرى أنه فيه إذا علقت يده به إلّا عالي الكعب، رفيع القدر، راجح الوزن، شهير الذكر. وسَيِّدي وليّ ما يراه ويأتيه في ذلك إنْ شاء الله.

وقد كتبتُ إلى سَيِّدنا الوزير – أطال الله بقاءه – رقعةً بالدّعاء أحببتُ أنْ يكون عَرْضُها عليه – أدام الله تأييده – بحضرة سَيِّدي – أيّده الله – وبعد أنْ يلحظها بعَيْن تأمّله، ويعضدها بنافع تشييعه، ويستجرّ بها ما هو حقيقٌ به من جوابٍ يشرّفني، وفعلٍ كريمٍ يجريه الله على يده لي. فإنْ رأى سَيِّدي – أطال الله بقاءه – أنْ يتفضّل بالتقدّم إلى فلان صاحبه بما يعمل عليه في ذلك، وإلى بعض الكُتّاب أيّدهم الله – بإجابتي بما أسكُنُ إليه، وأشكرُ عليه، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ينقطع النص هنا في ط، وتبدأ رسالة أخرى.

وكَتَب إلى أبي مُحمّد علي بن العَبّاس بن فَسانْجِس وهو في اعتقال أخيه أبي الفَرَج مُحمّد بن العَبّاس في يوم مِهْرَجان(١)

تهنّأ بهذا اليوم واحظَ بخَيْره وكُنْ أبداً للعَوْدِ منه على وَعْدِ
ومَهْرِجْ عزيزاً في سُرورٍ ونعمةٍ على عادة الشّيخ المعَظّمِ والجَدِّ
فإنك كالغُصْن الذي طال واعتلى بأصلَيْن يُجنى منهُما ثمرُ الحَمْدِ
أرى النّاس يهدون الهدايا كثيرةً إليك ولم يترك لي الدَّهْرُ ما أُهدي
سوى سُكَّرٍ يحلو لك العيشُ مثله وآسٍ أخي عُمرٍ لعُمْرك(٢) ممتدِّ
وبينهما من ضَرْب قَوْمك دِرْهَمٌ وأبياتُ شعرٍ من ثناءٍ ومن حَمْدِ
فإنْ كنتَ تَرضى ما به انبسطتْ يدي وتقبلُ مَيْسوري فهذا الذي عندي

سَيِّدي - أطال الله بقاءه، وهنأه بكلّ مسرّةٍ ومحبّة، وبلّغه كلّ أملٍ وأمنية - أجلُّ قدراً، وأعظم خطراً من أنْ يتركني في هذه(٣) البئر التي حصّلتني فيها النّكبة وسوء التقدير، والدِّيانة والمروءة والفُتُوّة(٤) تقتضيه لي ما هو حَقيق بإنجازه، والسَّلام.

---

(١) فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.
قال ابن الأثير: في سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م مات الوزير الحسن بن مُحمّد المهلَّبي؛ فنظر في شؤون الإدارة والوزارة بعده أبو الفضل العَبّاس بن الحسين الشيرازي، وأبو الفرج مُحمّد بن العَبّاس بن فَسانْجِس، ولم يُلقّب أيٌّ منهما بالوزارة. الكامل، ج٧، ص٢٤٤.

(٢) ف: كعمرك.

(٣) ف: هذا.

(٤) بعدها في ف: والحنوة.

وكَتَب يهنّئ مُحمّد بن بَقيّة بالمِهْرَجان(١)

عَرَّف الله سَيِّدنا الوزير بركةَ هذا المِهْرَجان، وأحاله عليه أطول الأعوام والأزمان، وأطال بقاءه عزيزاً منصوراً، مغتبطاً مسروراً.

وقد جَرَت عادةُ العَبيد فيه بملاطفة سادتهم. وبالله ما اتّجهت لي في هذا البلد قُدرةٌ على مَن يَصلُح أنْ أخدُمه به، إلّا أنّ عَبْدَه وغَرْسَ أيّامه وغَذِيَّ إنعامه المحسِّن(٢) قد أنفذ إلى الخِزانة تَخْتاً فيه خمسةُ أثواب ديباج. ولولا أنّه في بقايا مُصيبته – أعاذ الله سَيِّدنا الوزير من السُّوء كلّه –لحضر المجلس، وواظَب على الخدمة.

وسَيِّدُنا الوزير – أطال الله بقاءه – وليّ ما يراه في التفضُّل عليه بالقَبول، وعليّ ببَسْط العذر، إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي.

(٢) ابنه، المحسِّن بن إبراهيم الصّابي.

وكَتَب عن نفسه
إلى الأثير أبي الحسن
يهنئه بعيد[١]

أنا - أطال الله بقاء سَيِّدنا الأُستاذ الأثير - أحاول الخدمة له، والقُربة منه منذ وصلتُ إلى العسكر المنصور، فيعترض دون ذلك عَوارض يجري بها المقدور، إلى الحين الموقّت المسطور. وقد عُلم مني، وشُهر عني ....[٢].

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص١٤٢.
(٢) علّق القلقشندي هنا: كذا وكذا إلى آخر الكتاب.

وله[١]

أهنّىء سَيِّدي - أطال الله بقاءه - ونَفْسي بمَقْدمه سالماً مُعافى، وأشكر الله - تعالى - على ذلك شكراً يوجب المزيد.

وبالله أحلف أصدق إليه عن أخلص نيّة أنّ ما أعطتنيه الأيّام جلّ عمّا أخذته منّي، وعلى أنها ما أخذت إلّا ما عادت أنْ تأخذه وتخلفه، وهو موهوبٌ لها مع ما تحامته وتجافت عنه. وكيف ألوم زماناً أقذى عيني في الفرع، وأقرّها في الأصل ! وهل أسيء الظنّ به، وقد أراني ما رأيت من هذه النِّعَم المترادفة، والمواهب المتضاعفة، والخيرات التي لنا في العاجل حصّةٌ من عُمومها، ولا أقنط في الآجل من أنْ يلحظني ببعض خُصوصها.

ولو أمكنني أنْ أقضي حقّ مَوْلاي بأكثر من هذا القدر لفعلتُ وثابرت، وسبقتُ وبادرت، لكنّ العُذرَ واضح، والمانعَ لائح، والقلوبَ متكافئة، والنّياتِ كافية.

وقد فارقتُ أيضاً بهذه الرّقعة ما أنا مستمرٌّ عليه من قصر همّتي، وقبض يدي، وعض لَحْظي، وتقييد لَفْظي إلى أنْ يكشف الله النُّحوس عنّي، ويعيد ظلّ ....[٢] إليّ بتفضُّله ومَنّه، ومشيئته وإذنه. وسَيِّدي وليُّ ما يراه في إعلامي من خبره - أطابه الله - ما أسكن إليه، وأستديم الله إحسانه فيه، إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) طهران.

(٢) كلمة ضَبَّبها الحبر.

فصلٌ في مُكاتبة رَجُلٍ زَوَّج أمّه بين التَّهْنئة والتَّعْزية[1]

قد جعَلك الله - وله الحَمْد - من أهل التّحصيل، والرّأي الأصيل، وصحّة الدِّين، وخُلوص اليقين. وكما أنّك لا تتبع الشّهوة في مَحْظورٍ تُحلّهُ، فكذلك لا تطيعُ الأنفة في مُباحٍ تحظرُه.

وتأدّى إلينا من اتّصال الوالدة - نفّسَ الله لها في مدّتك، وأحسن بالبَقيّة منها[2] إمتاعك - بأبي فلان أعزه الله. ما علمنا أنك فيه بين طاعةٍ للديانة توخّيتَها، ومشقّةٍ فيها تجشّمتَها، وأنك جدعتَ أنف الغيرة لها، وأضرعتَ خدَّ الحميّة فيها، وأسْخطت نفسَك في إرضائها، وعصيتَ هَواك لرأيها، فنحن نُهنّئك بعزيمة صَبْرك، ونُعزّيك عن فائت مُرادك، ونسأل الله الخيرة لك، وأنْ يجعلها أبداً معَك، فيما شئتَ أو أبيت، وتجنّبت وأتيْت، والسَّلام.

---

(١) طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) ساقطة في ط.



رسائل
في التعازي



كَتَب عن مُعِزّ الدَّوْلة أبي الحسين إلى أبي الحسن جعفر بن مُحمّد العَلَويّ يُعزّيه عن ابنه أبي الحسين المتوفّى بالعراق[١]

كتابُنا، والسَّلامة راهنةٌ لدينا، والموهبةُ سابغةٌ علينا لكنّهما منَغَّصتانِ بالفَجيعة الوَجيعة، ومنتَقَصتانِ بالمُلمّة الأليمة في أبي الحسين فَتاك رضي الله عنه وأرضاه، وكرَّم[٢] منقلَبه ومثواه، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، رضاً بقدره[٣]، وتسليماً لأمره، وهو المحمودُ على السَّرّاء والضَّرّاء، والشدّة والرّخاء، وحسبُنا الله ونِعْم الوكيل.

وأنت - أيّدك الله - بصَحيح عزمِك، وصَريح حزمِك، وما وَهَبه الله لك من المعرفة بالدِّين، والبصيرة واليقين، ترتفعُ عن الجَزَع، وتجِلُّ عن الهَلَع، وتستغني بفضلك عن التّعريف، وبأدبك عن التّوقيف، وتعلمُ أنّ الذي ألمَّ بك، ونزل بساحتِك حالٌ لا بدَّ من حُلولها حَتْماً، ووقوعها جزماً، وأنّ الله قد خَفّف الأسى بكثرة الأسا[٤]، وقرن المصائبَ في الدّنيا بمَواهب الدّار الأخرى، وجعل المحنةَ طريقاً إلى المنحة، والصّبرَ سبباً للأجر، والاحتساب مؤدياً إلى الثواب.

ولئن كان رِزؤك هذا عظيماً ممِضّاً، وفظيعاً مُرْمِضاً، إنّ العِوضَ منه لَيزيدُ عليه

---

(١) چستربتي، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. العنوان في ط: (وله عن مُعِزّ الدَّوْلة إلى أبي الحسن العَلَويّ يعزيه عن ابنه).

(٢) ط: أكرم.

(٣) من: ط، وفي سائر الأصول: بقضائه.

(٤) المداواة والعلاج. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٣٤ (أسا).

ويوفّي، ويمحو آثارَه ويُعفّي، وإنك لَحَقيقٌ باستعمال ما يحرسُه ولا يثويه، ويرُبُّه ولا يقدحُ فيه.

وما نعزّيك - أيّدك الله - إلّا عن حاجةٍ إلى التَّعْزية، ولا نسلِّيك إلّا عن فاقةٍ إلى التَّسلية؛ لأننا شاركناك فيما حَدَث، وساهمناك فيما كَرَث، وأخذنا من ذلك بالحظّ الأكثر، والنّصيب الأوفر.

ونحن نسألُ الله تعالى أنْ يرضى عن الماضي ويُرضيَه، ويلحقَه بالطيّبينَ من أسْلافه وذويه صلواتُ الله عليهم ورضوانُه، وتحيّتُه وغفرانُه، ويجعلَ ما نقله إليه خيراً ممّا نقله عنه، ويُبوِّئه جنانَ الخلود التي أعدّها لأمثاله داراً، ولأشكاله قراراً، ويُلهمَك من التَّسلية ما يُنتفعُ بأُولاه وأخراه، وعاجلته وعُقباه، بمَنِّه ورحمته.

وقد شرَّفك - أيّدك الله - أمير المؤمنين أطال الله بقاءه - بالتَّعْزية، وأكرمك بالتَّسلية، وأدَّبك بالإذكار[1]، وبعثك على حسن اليقين والاستبصار. والكتابُ بذلك واصلٌ إليك ووارِدٌ بوُرود هذا الكتاب عليك. ولن نزالَ على مراعاةٍ لخبرك - أيّدك الله - وتطلُّعٍ إلى معرفته، إلى أنْ يردَ علينا كتابُك بما يلهمُك اللهُ إيّاه من الصَّبر، ويشرحُ صدرَك له من الشكر، فنشاركُك في العطيّة مشاركتَنا إيّاك في الرزيَّة، فرأيُك في المبادرة إلينا به فإننا نتوكَّفُه، وتضمّنه[2] من الشرح ما يجبُ أنْ نعرفَه، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

---

(١) ج، ر، ع: بالإكثار.

(٢) ج، ر، ع: وتضمينه.

وكَتَب عن عز الدَّوْلة
إلى أخيه سَنَد الدَّوْلة أبي حَرْب حَبشي بن مُعِزّ الدَّوْلة
ينعي إليه وفاة أبيهما(١)

كتابي، وقد أنفذ الله من قَضائه في الأمير السَّعيد مُعِزّ الدَّوْلة – رضي الله عنه وأرضاه، وكرم منقلبه ومثواه – ما هو الحَتْم المقضيُّ على عِباده أجمعين، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، رضاً بحكمه، وتسليماً لأمره. ونسألُ الله أنْ يرحمَ سَيِّدنا الماضي أتمّ رحمةٍ وأوْسعها، ويُلقّيه أحسن تحيةٍ وأفضلها، ويُبوِّئه جَنّاته النعيم التي أعدّها له داراً، ولأمثاله، وجعله لها مستحقاً، وللفوز بها مستوجباً، ويرزقنا جميعاً من الصبر والاحتساب ما يقتضي لنا جزيل الأجر والثواب، برحمته.

ولستُ أفاوض سَيِّدي سَنَد الدَّوْلة – أدام الله عزه – القولَ في التَّعْزية لتَساوينا في المصيبة، واجتماعنا في الحاجة إلى التَّسلية، وتَماثلنا فيما نزل من حُكْم الله، لكنني أخصّه – أيّده الله – على ما هو الأوْلى بفَضْله، والأشْبه بنعمة الله عنده، من كَظْم الحزن، وكَفّ العَبْرة، وحراسة المثوبة المأمولة ممّا ينتقصها، والمعوضة المرجوّة ممّا يقدح فيها. وهو – أطال الله بقاءه – أعلى عَيْناً وما يراه في ذلك، والتقدّم بإجابتي بما أُراجيه من خبرة في سُكون اللَّوْعة وإثابة السَّلْوة، إنْ شاء الله.

(١) چستربتي. والعنوان فيها: وفي هذا المعنى عن عز الدَّوْلة إلى أخيه سند الدَّوْلة وأبي حَرْب حبشي بن مُعِزّ الدَّوْلة أبي الحسين أحمد. والواو في (وأبي حرب) خطأ كبير.
هذه الرسالة في نعي عز الدَّوْلة لأبيه مُعِزّ الدَّوْلة، الذي توفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م، وإعلام أخيه سند الدَّوْلة أمير البصرة بأنه قد حصل على تفويض الخليفة بما عهد إليه أبوه. في موت مُعِزّ الدَّوْلة وولاية ابنه عِزّ الدَّوْلة، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٧.

وسَيِّدي سَنَد الدَّوْلة – أدام الله عزه – أوْلى النّاس بالمُشاركة والمساهمة، ولا سِيَّما مع عِلْمه بما أنا عليه في إيثاره وإكرامه، والإيجاب له وإعظامه، وأنا مع ثقتي بفَضْله وضَبْطه، وثباته وحَزْمه، أستعملُ الاستظهار فيما أرشده إليه، وأبعثه عليه من إجمال النيابة، وحُسن الخلافة، والقيام بالملمّ، والكفاية في المهمّ، وتَسْكين نُفوس الأولياء، وتعريفهم ما لهم عندنا من إجرائهم على رُسومهم، ورعاية حقوقهم، ومُجازاة المحسن منهم بإحسانه.

وأسألُه – أيّده الله – النظر في أمر مَن بالبصرة من النقباء والغِلْمان حتى يروج المسبَّبُ من أموالهم، والحال من أرزاقهم، ويتعجّل إلى الحضرة انكفاؤهم. فإنْ رأى سَيِّدي سَنَد الدَّوْلة – أدام الله عزه – أنْ يتأمل هذا الأمر بعَيْن الحَزْم والقَصْد للصَّلاح الذي يجمعنا حظُّه، ويعُمُّنا نفعُه، ويأتي فيه ما هو أهله وحقيق به، ويأمر بإجابتي عن هذا الكتاب ممّا أسكنُ إليه، وأشكر المناب فيه، فَعَل إنْ شاء الله.

وقد كاتبتُ جماعةَ القُوّاد والأولياء والغِلْمان المقيمين بالبصرة بما أمرتُ الموصلَ لهذا الكتاب بإيصاله إليهم في مجلس سَيِّدي سَنَد الدَّوْلة – أيّده الله – وهو – أدام الله تأييده – وَليّ ما يراه في التقدّم باستدعائهم ليوصل ذلك إليهم إنْ شاء الله.

ولما اختار الله للأمير مُعِزّ الدَّوْلة نقله إلى دار رِضْوانه، وإحلاله في مَقرّ غُفْرانه، أمرني مَوْلانا أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه، وأدام عزه وعلاءه – من خدمته بالقيام بما كان رحمة الله عليه عَقَده لي، وعَهِد فيه إليّ؛ فامتثلتُ الأمر مُسارعاً، وقمتُ فيه بالحقّ مجتهداً. وأسألُ الله الإنهاضَ بطاعة مَوْلانا أمير المؤمنين، والعَوْن على ما قرب منه، وأحظى عنده بجُوده ومَجده، وحَوْله وطَوْله.

وكَتَبَ عن بَخْتِيار بن مُعِزّ الدَّوْلة إلى أبي منصور صَيغُون لما توفـي مُعِزّ الدَّوْلة[١]

كتابُنا، وقد أنفذ الله من قَضائه في الأمير مُعِزّ الدَّوْلة – رضي الله عنه وأرْضاه، وأحْسَن مُنقلبه ومَثواه – ما جعله مَحْتوماً على عِباده أجمعين، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون. ونسأل الله أنْ يرحمه أتمَّ رحمةٍ وأوْسعها، ويلقّيه أفضلَ مغفرةٍ وأفْسحها، ويُبوِّئه جنّاته النّعيم التي أعدّها لأمثاله داراً، ولأشكاله قراراً، بقُدْرته.

وأنت – أيّدك الله – بخَصيص مَوْقعك، ولَطيف محلّك، ومُتقدّم منزلتك، حقيقٌ بأنْ تشركنا في الأحوالِ أجمعها، وأنْ تأخذَ معنا بالنّصيب الوافر في كلٍّ منها، وسبيلُك – أيّدك الله – أنْ تستشعرَ ما يستشعرُه مثلُك من الصّبر والاحْتساب، والحزم والثَّبات، وتتأهّل أمرك فيما أنت بصَدَده. فإنْ علمتَ أنه يُمكنك المُقام عليه، والنظر على رَسْمك فيه، ثبتَّ وتوقفتَ، وضبطتَ أمرك، وكاتَبْتَنا بما نُراعيه من جِهتك، وإنْ كانت الحال بخلاف ذلك عملتَ على المصير إلى حضرتنا ولم تتأخر عنّا، وأجريتَ الأمرَ في مَسيرك إلينا على نهاية الاحتياط والاستظهار. فرأيك – أيّدك الله – في العمل بذلك، والإجابة عن هذا الكتاب بما نسكنُ إليه، والثقة بأنك عندنا في تضاعُف المحلّ، وتمهّد المنزلة، وتأكّد السّبب على أفضل ما عَهِدته من الماضي – نَضّر الله وَجْهه – وأننا لا نترك المبالغة في اختصاصك وتقديمك، وإيثارك وإكرامك، مُوَفَّقاً إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي.

هذا نعي عز الدَّوْلة لأبيه مُعِزّ الدَّوْلة لأبي منصور صيغون، وهـو – عـلى مـا يبـدو – أحـد عُمّاله.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة بن مُعِزّ الدَّوْلة

إلى كُلٍّ من :

الحاجِب سُبُكْتِكين، وأبي الفَضْل العَبّاس بِن الحسين الشِّيرازي[١]

كتابُنا، وقد أنفذَ اللهُ من قَضائه في الأمير مُعِزّ الدَّوْلة - رضِيَ اللهُ عنه وَأرضاهُ، وكَرَّمَ مُنقَلَبَهُ ومَثواه - ما جَعَلَهُ محتوماً على عِبادِه أجمَعين، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون. ونَسأَلُ اللهَ أنْ يرحمَهُ أتَمَّ رَحمةٍ وأوسَعَها، ويُلقِّيه أفضَلَ مَغفِرةٍ وأفسَحَها، ويُبوّئه جِنان النّعيم التي أعدَّها لأمثالِه داراً، ولأشكالِه قَراراً، ممّن أحسَن السِّيرة في عبادِه، وانتمى إلى رِضاهُ بوسعه واجتِهادِه.

وأنتَ - أدام الله عِزَّكَ - بِوَكيد مَوْقعك مِنّا، ورَفيع مَنزِلتِكَ عندنا، ووَشيج ....[٢] في دَوْلتنا، وواجِب حَقِّكَ علينا، حَقيقٌ بأنْ نبدَأكَ بالتَّعْزية قَبل وُرودِها منك، وأنْ نعاوضَك التَّسلية قَبل صَرْفها عنك، وإنْ كان الرِّزْءُ جَليلاً، والصَّبرُ منّا جَميعاً، لولا عِصْمةُ لله مُتَعَذِّراً، وسَبِيلُك أنْ تَستَشعِرَ ما يَستشعِره مثلك من الثَّباتِ في المُلِمّ، والكِفايَةِ في المُهِمّ، وأنْ تَعلَمَ أنّكَ لدينا في تَمهُّد مَحَلِّكَ، وتَقَدُّم قَدَمِكَ، وإيجابِ حُقُوقكَ على أضعافِ ما كانت الحال عليه في أيّام الماضي - نَضَّرَ الله وَجْهه - وإنّنا مُعتَقِدُونَ زِيادَتكَ من الإكرامِ والإعظام، والتّقريبِ والإيثار، والتفويض[٣]

---

(١) چستربتي.

هذه الرسالة في نعي عِزّ الدَّوْلة لأبيه مُعزّ الدَّوْلة.

(٢) خرم بمقدار كلمة.

(٣) في الأصل: التقويض.

والاختصاصِ حسَبَ الذي تَستحِقّهُ بِفَضلِكَ في نَفسِكَ، وتَستَوجِبُه بوَكيد ما بيننا وبينك، وتُقِيمُ مَكانكَ إلى أنْ يَقَعَ الفَراغُ ممّا كان الماضي - رضِيَ اللهُ عنه - كاتَبَ أبا الفَضْل - أدام الله عِزّه - به ورَسَم له عَوضَهُ عليك. فقد كاتَبنا أبا الفَضْل - أيّده الله - بذلك وأمَرناهُ أنْ يقصِدَ لإنجاز الأمرِ على إحكامٍ له وبُلوغٍ لكُلّ ما كان الماضي - رَحِمَهُ الله - حَدَّهُ وَرسَمَهُ فيه.

ولا تَدَع - أدام الله عزّكَ - حالاً تَعودُ بالمصلَحةِ على دَوْلتِكَ هذِه، وتُؤدِّي إلى استِقامةِ أُمورِها، وانتِظامِ شُؤونِها، إلّا بَلَغتها وأوفَيتَ عليها حَسَب المعهُودِ منك، والمعروفِ من فَضلِك، والمشكورِ من سَعيِكَ، فَرأيُك - أدام الله عِزّكَ - في العَمَلِ بذلك، والإجابة عن هذا الكتاب بما تُحَصِّلهُ وتَسكُن إليه.

نُسْخة كتابٍ عن عِزّ الدَّوْلة أبي منصور إلى الملك عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع يُعزّيه عن أبيه الأمير رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ في سنة ستٍّ وستّين وثلاثمائة[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة - يومَ الخميس لثمانٍ بَقينَ من صفر، عند وُقوفي على كتاب سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - الصّادرِ عن الرَّيّ، بالخبر الذي نَكأ القلوبَ وجرحَها، وأحرَّ الأكبادَ وأقرحَها، وأغصَّ الصّدورَ ببرحائها، وأغضَّ[٢] الجفونَ على أقذائها، بنازلِ قَضاء الله وحُكمِه، ونافذِ أمره وحَتْمِه، في الأمير السَّيِّد السَّعيد رُكْن الدَّوْلة - نقَع اللهُ صداه، وروّى ثراه، ورضي عنه وأرضاه، وكرم منقلبَهُ ومثواه - فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، تسليماً لما قضى، وانقياداً لما أمضى، واعتصاماً بحبلِه، وتأدُّباً بأدبه، واعتماداً للقول المزلِف عنده، المستنزلِ لرحمته، في كلِّ ما

(١) چستربتي، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (ناقصة في ط، تبدأ من الفقرة الثانية. والعنوان فيها: وله فصل من كتاب عن عِزّ الدَّوْلة إلى عضدها يعزيه عن أبيه ركن الدَّوْلة).

في المحرم من سنة ٣٦٦هـ توفي ركن الدَّوْلة، واستخلف على أملاكه ابنُه عَضُد الدَّوْلة. وكان ابتداء مرضه حين سمع عن قبض ابنه عَضُد الدَّوْلة على ابن أخيه عِزّ الدَّوْلة بن مُعِزّ الدَّوْلة، فقد خشي على ملك البويهيين من هذا الصراع. انظر تفصيلات ذلك عند ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٤٣.

(٢) ر: غض.

ساء وسرّ، ونفَع وضرّ، وعند الله نحتسبُه سَيِّداً ماجداً، وعمّاً ووالداً[١]، ومعاذاً وملاذاً، ومعقلاً وموئلاً، وإليه - جلّ وعزّ - الرغبةُ في تولِّيه بعَفْوِه وغُفْرانِه، ورَوْحِه ورِضْوانه، وأنْ يُبوِّئه المنزلةَ التي يستحقّها بدينه القويّ[٢]، ومذهبِه الرَّضي، وخَلائقِه الشريفة، وفَضائلِه المُنيفة، ومَساعيه التي انقطع المُجارونَ عن أدناها، وتأخَّروا عن مَداها، وأحرزَ من دونِهم قَصَب سَبْقِها، وسهامَ فوزِها.

[٣]وعزيزٌ عليّ أنْ يقرعَ سَمْعي نعيُه، أو ينطقَ لساني بندبةٍ له، أو تخُطَّ يدي تعزيةً عنه، أو تشرَقَ عيني بدمعةٍ عليه، أو أنْ يؤخّرَني الأجلُ إلى أنْ أعرى من ظلِّه، وأستوحشَ لفقدِه، وأرتاعَ فيه للفُرقة، وأتململَ للحرقة؛ فصبراً على أمرِ الله الجاري على اختيارِه لنا، الأصلح من اختيارِنا لنفوسنا، الذي لو وُقيَ منه عزيزُ قوم بعزّتِه ومنَعتِه، أو كبيرُ أهلٍ بوَلَده وأسرتِه، أو قويُّ سُلْطان باستطالتِه وقُدْرته، أو زعيمُ دَوْلةٍ بحشدِه وعَددِه، لَكان سَيِّدنا الماضي - نَضّر الله وَجْهه - أولى مَن وُقي[٤]، وأحقَّ من فُدي[٥]، وكنّا أقدرَ العالمينَ على دَفْع ما حَدَث وطَرَق، وذبِّ ما حَفَز وأرهق، لكنه الأمرُ[٦] المسوَّى فيه بين مَن عزّ جانبُه وذلّ، وكثُر مالُه وقلّ، حتى تأسَّى المفضولُ بالفاضل، والمسبوقُ بالسّابق، فأهدى مسالكِ الأبرار إذاً فيما يحُلُّ بساحتهم من هذه الأقدار:

---

(١) (وعما ووالدا) ساقط في ر.

(٢) مكانها فراغ في ر.

(٣) من هنا تبدأ هذه الرسالة في ط.

(٤) ف: ولي.

(٥) ف: ودي.

(٦) ساقطة في ف.

صبرٍ[١] يجتلبُ لهم المثوبة، ويحفظُ عليهم المعوضة، واسترحامٌ للماضي منهم والغابر، والأولِ والآخر. واللهُ يوفِّقُ مَوْلانا من ذلك لما هو المعهودُ من راجح حِلْمِه، وصَحيح عَزْمه[٢] وحَزْمِه، ويقرِنُ له هذه المُلمّةَ الأليمة، والفَجيعةَ الوَجيعة، بصُنعٍ يأسو الكَلْم، ويَجْبُرُ الثَّلْم، ويقيلُ العِثار، ويَريشُ الجناحَ، بقُدْرته.

ولئن كانت من أشدّ المُلمّات وأعظِمها، وأجلِّها وأفخمِها، فقد أحضرَنا اللهُ - وله الشكرُ - جبائرَ كسرِها مع نُزولِها، وأوجدَنا أواسيَ جرحِها عند حلولِها، بالموهبةِ في مَوْلانا أطال الله بقاءه، المُوفيةِ على الأخوات، الزّائدة على الأوقات، الجائزة حدَّ الصفات، إذ هو السَّيِّد السّادُّ لذلك المكان، الفائقُ[٣] للنظراءِ والأقران، الذي نُطيفُ به إطافةَ اللُّيوث بعظيمِها، ونعُدُّه من أمورنا لُمهمِّها وجَسيمها، ونراه على بعد الدّار وقُربها، وتصاريفِ[٤] الأزمان وتقلُّبِها، الأبَ المأمولَ المرجوّ، المشهورَ بالحَدْب والحنُوّ، بحقوقِه، أدام الله تأييدَه الواجِبة، وطاعتِه المفترضة اللّازمة[٥]، والثقةِ به - فيما يزلهُ إلينا من نظره، ويلقيناه من إحسانِه وامتنانِه - المستحكمة.

ونحن نحمدُ اللهَ الذي منحنا[٦] - معشرـ الأهل - أُلفةً يتقبّلها عن التّالد منّا الطّارف، ويأخذُها من السّالفِ الخالف[٧]، ونعودُ على ذاتِ بيننا بنظامٍ والتئامٍ يكون

---

(١) ساقطة في ف.

(٢) ج، ر، ع: علمه، وساقطة في ط.

(٣) ج: المفارق.

(٤) ف: تصريف.

(٥) ر: اللازبة.

(٦) في كل الأصول باستثناء ط: يمنحنا. وما بعدها ساقط فيها إلى: الطارف.

(٧) في الأصول كلها باستثناء ط: والخالف.

بهما الأكبرُ معروفاً قدرُه، مطاعاً أمرُه، نافذاً حكمُه، سابقةً قدمُه. والأصغرُ محميًّا حماه، مَوْفوراً جانبُه، مستدامةً طاعتُه، مستنجزةً[١] مخالصتُه[٢]. ولا يعدمُنا مع ذلك - جلّ ثناؤه - نصرَ الوليِّ الوَدود، وكَبْتَ العدوِّ الحسود، وانحسامَ الأطماع عنّا[٣] من كلِّ كائدٍ يكيدُنا، ومُرصِدٍ يُرصدُ لنا، وناظرٍ إلينا بعين الشّانئ المُناوئ الطّالبِ لفرصةٍ ينتهزُها، قد خيَّب اللهُ تقديرَه فيها، ونزَّهنا عن إمكانِه منها، وقضى لنا أنْ نفوتَه بها حتى يموتَ بحسرتها وغُصّتِها، وتمّم اللهُ لمَوْلانا الملك ولنا ببقائه نعمةَ التآزرِ والتضافر التي النِّعَم بها كلُّها مَنُوطةٌ ومُنطوِيةٌ في أثنائها، وألهمَنا أنْ نقفوَ في الارتباط لها آثارَ آبائنا وكبرائنا، وأعاذَنا من كلِّ شائبةٍ تَشوبُها، وقادحةٍ تقدحُ فيها، إنه على الأمور كلِّها قدير، وبالوقوف بنا على أحسنها وأجلِّها جدير.

ولولا أنّ ما أخلف مَوْلانا - أطال الله بقاءه - عليه من هذه الأعمال يختلُّ[٤] إذا فارقتُه، ويلتاثُ متى بعُدتُ عنه، لَسعيتُ إلى بابِه - عمَرهُ الله بدوام نَعمائه - مُعزِّياً له عن الرَّزيّة، ومهنِّئاً فيه بالعطيّة، وواقفاً بين يديه وقوفَ المتصرِّف على أمرِه ونَهْيِه، المنتهي إلى حَدِّه ورَسْمِه.

ولما كان ما أُوثرُه من ذلك متعذِّراً عليّ أنفذتُ فاذار[٥] بن يَزْد فيروز نائباً عنّي في المشافَهة بالتَّعْزية، وموردا ما اشتملتْ عليه تَذْكِرة أصحبتُه إيّاها. وكتبتُ هذا الكتاب

---

(١) ط، ر: مستجرة، ف، ع: مستحرة.

(٢) تنقطع هنا ط، وتبدأ بعد هذه الكلمة مباشرةً رسالةٌ جديدة.

(٣) ساقطة في ط.

(٤) ف: يختال.

(٥) ر: فاذاد.

- أيّد الله مَوْلانا - من رُستاق باعْقُوبا[١]، وكنتُ متوجّهاً إلى نواحي الرّاذان[٢]، وضواحي أعمال السَّواد قاصداً أحياءَ شَيْبان لأنها نقَضتْ أماناً منّي كانت تعتصمُ به، وتأوي إلى ظلّه، بتجمّعِها على بلتِكين الشَّرابي وقتلِها إيّاهُ[٣] على حين[٤] غِرّةٍ اهتَبلوها منهُ، وقلّةٍ من أصحابه وغِلْمانه اغتنمت اتفاقَها عليه، وتعقبها[٥] ذلك بالوقوع على نفرٍ من الدَّيْلَم الخواصّ، في جملتِهم رجلٌ من الأشراف، ومصادفتِهم إيّاهم سابلةً في طريقهم غيرَ محتسبينَ لما فجَأهم منهم، وإتيانِهم على نفوسهم وأموالهم، وعَيْثِهم فيما استطرقوهُ من السَّواد، وتطرّفوه من البلاد، ولم أتمالكْ أن نهضَتْ نَفْسي لتلافي الجناية، والمبالغة في الإيقاع والنِّكاية. فلمّا وَرَد عليّ الخبرُ بالكتاب المقدَّم ذكرهُ فُلّ حدّي، وفثأ[٦] عزمي، ومنَعني من الانتهاءِ إلى أقصى غَرضي، ووقف بي دونَ الغاية من مقصِدي، وعلمتُ أنّ اللهَ أملى لأولئك الغُواةِ الجناة إملاءً يتضمنُ ازديادَهم من آثامِهم، واستيفاءهم البَقيّة من آجالِهم، إلى أنْ يأتيَهم بأسُه في ميقاتِه على أيدينا، وبمعونتِه عزّ وجلّ لنا، وله في ذلك الإذن ومنه العون.

---

(١) ج، ر، ع: بايعقوبا. عرّفها السمعاني على أنها قرية كبيرة على عشرة فراسخ من بغداد. وأردف: يقول لها العوام: بايعقوبا. الأنساب، ج١، ص٣٧٠. وانظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٣٢٥، ص٤٥٣. وما زالت تحتفظ بالاسم نفسه.

(٢) هناك راذانان، الأسفل والأعلى: كورتان من سَواد بغداد، تشتملان على قرى كثيرة. ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص١٢.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) في الأصول الخطية كلها: عين!

(٥) ف: تعقيبها.

(٦) في الأصول باستثناء ف: فشا. فثأ: كسر. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص١٢٠ (فثأ).

ولا أزالُ أتشوّفُ إلى وُرود كُتب[١] مَوْلانا - أطال الله بقاءه - مُودَعةً من أخباره في خمود اللَّوْعة، وانجبار آثار الحادثة ما أسكُنُ إليه، ومن عَوارض خِدْمتِه ومُهمّاتِه ما أتشرّفُ بالتصرُّف عليه، مُجرِياً[٢] لي على عادة تفضّلِه فيها، فَعَل إنْ شاء الله.

(١) في الأصول باستثناء ف: كتاب.

(٢) ف: هجربا.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة أبي منصور إلى مؤيِّد الدَّوْلة أبي منصور يُعزّيه عن الأمير رُكْن الدَّوْلة[1]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - يومَ الخميس لثمانٍ ليالٍ بقِين من صَفَر، عند وُصول كتابِه الصّادر عن الدّار بالرَّيّ - لا زالت معمورةً ببقائه، محروسةً بتمام عزّه وعلائه - مشتملاً عن ذكر الحادث بالأمير السَّيِّد السَّعيد رُكْن الدَّوْلة - وفّر اللهُ الرحمةَ عليه، وخار له فيما نقَلَه إليه - الذي ملأ الصّدورَ ارتياعاً، وقسَم الألبابَ شَعاعاً، وترك القلوبَ مجروحةً، والأكبادَ مقروحةً، والدّموعَ مَسْفوحةً، والقُوى مَهْدودةً، وسُبلَ العزاءِ مَسْدودةً، فإلى الله المرجِع، وهو الملاذُ والمفزَع، وإيّاه نسألُ أنْ يتولّاه بعَفوِه وغُفرانِه، ويحييَه برَوْحِه ورَيحانِه، ويُبوِّئه من جنّات عَدْنِه، ومَقارِّ أمنِه أعلى منزلةٍ رَفَع إليها عبداً مخلصاً هداه، ومسلماً مؤمناً اجتباه، ووَليًّا أمكنَ اللهُ في أرضِه، فقام فيها بفرضِه، وأصلحها بعدلِه، وغمر أهلَها بطَوْلِه، وكان محموداً في حياتِه ووفاتِه، مشهوداً له بالرَّشاد في عاجلتِه وآجلتِه، مستحقاً من الله أنْ يَجزيَه بالحُسنى، ولا يَلِتَه حظَّه من الزُّلفى، وأنْ يرزقَنا بعدَه صبراً جميلاً، وأجراً جزيلاً، وعصمةً من فَرَطاتِ القول والفعل، وعثرات الحَوْب والإثم، ويجعلَنا ممّن لا تَستزلُّ الأحزانُ حَزْمَه، ولا تستقلُّ الأفراحُ حِلْمَه، ولا يفارقُ الثقةَ بالله في نوازل قدَرِه كلِّها، واهبةً وسالبةً، ومعيرةً ومرتجعةً، بمَنِّه.

---

(١) چستربتي، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب.

وما أهمُّ - أدام الله تأييدَ سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - بقولٍ أقولُه في الحضِّ على التَّسليم والتَّسلية عن هذا الرُّزءِ العظيم، إلّا رأيتُ أنني إليه أحوجُ منه، وأنني عنه أغنى مني به؛ لأنّه لم يتجاوزْني في المضض بالفَجيعة، ولا قاربتُه في الإحاطة بالفضيلة، ولولا أنّ التَّعْزية سُنّةٌ يُستحبُّ إقامتُها وأنّ المكاتَبة بها وتراجُعَ القول فيها يُقرّب مسافةَ طالبها، ويسهّلُ أسبابَ وُجودِها، لألغيْتُ ما أوردتُه، وحذفتُ ما سطّرتُه، وكان لي فيما هُدَّ من جَلَدي، وفُتّ فيه من عضُدي شُغلٌ مانع، وعائقٌ قاطع، لكنّي أتكلّفُ ذاك في مخاطبتِه لأذودَ الهمومَ عن ساحتِه، وأعكسَها عن جهتِه، مرشداً من السُّكون إلى ما لا أهتدي إليه، وناهياً من الجَزَع عمّا لا أنتهي عنه.

وإذا كان اللهُ تعالى قد تفرَّد بالبقاء، وتنزَّه فيه عن الشُّركاء، وميّز نفسَه عمّن يُدركُه الفَناء، ويجري عليه القَضاء، فقد علمنا أنّ سَيِّدنا الماضي - برَّد اللهُ مضجعَه - سالكٌ السَّبيل التي سَلكها قبلَه الأنبياءُ المرسَلون، والصُّلَحاءُ الصِّدِّيقون، والخلائقُ أجمعون، التي لم يكنْ عنها معدِل لملَكٍ مقرَّب، ولا نبيٍّ مرسَل، ولا مختارٍ من الإنس منتخب، ولا متعلِّقٍ من الحدث بسبب، وأنّ اللهَ قد وَفّاه الحظَّ في دنياه بالعمُر الطَّويل والمحلِّ الجليل، والإسعافِ بالأوطار والإمتاع بالمسارّ، ووعده بتوفيةِ الحظِّ في آخرتِه بما قدّم من الأعمال الصّالحة، والتّجارة الرّابحة، ومَساعي الخير التي لا يُضيعُ أجرَ مَن سَعَى لها، وأحسَن عَملاً فيها.

فرحمةُ الله عليه في اللَّيْل والنّهار، ما اطّرد مَلَواهما، وتعاقَبَ عصراهُما، وأمتعَنا اللهُ بالنِّعم علينا في خليفتِه القائم مقامَه لنا، مَوْلانا الملك السَّعيد الجليل عَضُد الدَّوْلة أطال الله بقاءه وكَبَت أعداءه، وبارك له فيما أعطاهُ، وأنهضَه بحَمْل ما ولّاهُ؛ فقد أصبح أمرُنا به مجموعاً، وخرقُنا مرقوعاً، وشعَثُنا ملموماً، ونشرُنا مضموماً، وأصبحنا له بحمد الله ومنِّه خيرَ إخوةٍ وأسرة عرَفَت حقَّه وعرف حقَّها، وأعطته ما له وأعطاها ما لها، فما

تلحظُ مِرَّتَنا عينُ شانىءٍ لنا حاسد، ولا منحرفٍ عنّا معاند، إلّا غضَّها تظافرُنا وتعاضدُنا، وطرفَها تآزُرُنا وتَرافدُنا، ولا تحدِّثُه أمانيُّه الكاذبة، وآمالُه الضّالّةُ الخائبة، بصدعٍ في صفاتنا، ولا مغمَزٍ في قناتنا، إلّا رددْناهُ بالحسرة على عَقِبه، وثنَيْناهُ إلى سوءِ مآلِه ومنقلبِه، بالألُفة التي هي تراثُ الآباءِ منّا لأبنائهم، ووَصيّةُ الأسلاف في أعقابِهم، وبصُنوف نِعَم الله المتتابعة فينا، المتداوَلة بيننا، لا زال مَوْلاي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - آخذاً بأوفرِ أقسامها، ضارباً بمُعلَّى سهامِها، وأعاذنا اللهُ بعضَنا في بعض من العيوبِ الصّوائب والغِيَر والنوائب، بفَضْلِه وطَوْلِه، وقوّتِه وحَوْلِه.

وكتابي هذا - أيّد الله سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - نافذٌ[1] مع خادمِه أبي الفَوارس لشكر[2] بن المَرْزُبان كاتب الفارسيّة - أيّده الله - وقد أخرجتُه إلى حضرته - أجَلَّها الله - وللمشافهة عنّي بالتَّعْزية، ولتأديةِ وسائلَ وتَذْكِرة تحمّلها في سائرِ ما بيننا من المهمّ، وكتبتُه من رُستاقِ باعْقُوبا[3] وكنتُ متوجِّهاً إلى نواحي الرّاذانين[4] وضواحي أعمال السَّواد، متتبِّعاً أحياءَ شَيْبان، لأنّها[5] نقَضت أماناً مني كانت تعتصمُ به، وتأوي إلى ظلِّه، بتجمُّعها على بلتِكين الشَّرابيِّ مَوْلاي، وقتلِها إيّاه على حين[6] غرّةٍ صادفتْه عليها، وقلةٍ من أصحابه وغِلْمانه انتهزتِ الفرصةَ فيها، وتعقيبِها ذاك بالوقوع على نفرٍ من الدَّيْلَم

(١) ج، ر: نافع.

(٢) ر، ف: شكر.

(٣) في الأصول الخطية: بايعقوبا. وقد تقدّم التعليق عليها في الرسالة السابقة.

(٤) تقدم التعليق عليها في الرسالة السابقة.

(٥) من هنا إلى نهاية الفقرة اللاحقة من الرسالة (لنا) ساقط في ف، وكتب ناسخها في الهامش: إلى آخر ما تقدم، إشارةً إلى الكلام نفسه المذكور في الرسالة السابقة.

(٦) في الأصول: عين.

الخواصّ، في جُملتِهم رجلٌ من الأشراف، وهم سابلونَ في طريقهم غيرَ محتسِبينَ لما فجأهم منهم، وإتيانِهم على نفوسِهم وأموالِهم، والعيث مع ذلك فيما استطرفوهُ من البلاد، وتطرَّفوه من السَّواد.

ولم أتمالكْ أنْ نهضتُ لتلافي الجناية، والمبالغةِ في الإيقاع والنِّكاية، فلمّا وَرَد عليّ كتابُ سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة الذي هذا جوابُه، فلّ حدّي، وثبَّط عزمي، ومنَعني من الانتهاء إلى أقصى غَرضي، ووقف بي دون تلك الغاية من مقصِدي، وعلمي بأنّ اللهَ قد أملى لأولئك الغُواة إملاءً ضامناً لازديادِهم من آثامِهم مدّةَ البَقيّة من آجالِهم، إلى أنْ يأتيَهم بأسُه في ميقاتِه وعلى أيدينا، وبمعونتِه - جلّ وعزّ - لنا.

وأنا - أدام الله عزَّ سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - راجعٌ بعد أيّام إلى دارِه التي أسكُنُها بمدينة السَّلام، ومُواصلُه - أيّده الله - منها بكتُبي، متعرِّفاً أخبارَه وأحوالَه أطابَها الله، ومستطلعاً أمرَه ونهيَه أعلاهما الله، وما أزيدُه - أيّده الله - علماً بتضاعف الحاجة في هذا الوقت إلى أن تُردَّد المكاتَبة بيننا صادرةً وواردة، وباديةً ومجيبة، وشدّةِ تطلُّعي إلى عَوْد أبي الفَوارس لشكر[1] بن المَرْزُبان - أعزّه الله - بالجواب عمّا تحمّلَه. فإنْ رأى سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - أنْ يتقدَّم في ذلك بما أشكرُه وأعتدُّه وهو أهلُه ووليُّه، ويأمرَ بإطلاعي على ما وهبَه اللهُ له ولي فيه من جمود اللَّوْعة وانحسارِها، وتعفّي المؤلم من جُروحِها وآثارِها، واستتبابِ الأمور له على إدلالِها وأحسنِ وأجمل ما عوّد اللهُ فيها، فَعَل إنْ شاء الله.

---

(١) ف: شكر.

نُسْخة تَذْكِرة
إلى مؤيِّد الدَّوْلة[1]

صِرْ -أطال الله بقاءكَ- إلى حَضْرة سَيِّدي الأمير مؤيِّد الدَّوْلة أبي منصور، حتى توصِلَ إليه هذه التَّذْكِرة، وتَعرِضَ نُسختَها بالفارسيَّة، وتُوصِلَ الكتابَ بالتَّعْزية عن الأمير السَّيِّد السَّعيد رُكْن الدَّوْلة -نَضَّر الله وَجْهه- وتُشافِهَهُ بما شاهَدْتَهُ من حالِنا في الارتماضِ والهَلَع، والانزعاجِ والجزَعِ، لهذا الخَطْبِ الذي جَلَّ قَدرُه، وعَظُمَ خَطَرُه، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، تسليماً لأمرِه، وإيماناً به، ورضىً بقضائهِ وقَدَرِه، ورَحِمَ الله ذلك السَّيِّد الماضي رحمةً يُوسِعُ أكنافَها، وبوَّأَهُ المنزِلةَ التي يَستحِقُّها ويَستوجِبُها، وجعَلَهُ سعيداً في الدّنيا والآخِرة، محظوظاً في العاجِلةِ والآجِلة، ووَهَب الله لنا في مَوْلانا الملِكِ طُولَ البقاءِ ودَوامِ النَّعْماء، ولا سَلَبنا ظِلَّ سياسَتِهِ ورِياسَتِه، ووَفَّقَنا لخدمتِه وطاعتِه، إذ هو -أيّده الله- السّادُّ لمكانِه، والقائمُ لنا مَقامَهُ، والوارثُ محَلَّهُ ومنزِلَته.

وقد جَعَل الله الموهِبةَ لنا منه زائدةً على المواهبِ، جابِرةً لكُسورِ النوائبِ، مُعَفِّيةً لآثارِ المصائِب، بما يمتَدُّ علينا من ظلِّه، ويشمَلُنا من طَوْلِهِ، ونَتيَقَّنُهُ من إسبالِهِ علينا، وإحسانِهِ إلينا، واستشعارِهِ الصّلاحَ لشُؤُونِنا، والاهتمامِ بأمورِنا، وجَمْعَ كَلِمتِنا على سُنَّةِ أسلافِنا - رَحمَةُ الله عليهم - التي نتَوارثُها، ووَصيَّةِ الأمير السَّيِّد السَّعيد القريبِ عَهْدُنا بها، في توقِير الأصْغرِ الأكبرَ، وحنُوِّ الأكبرِ على الأصغرِ، وتَوْفِيةِ كُلٍّ منّا صاحبَهُ الحقّ

---

(١) ليدن. (مؤيِّد الدَّوْلة) إضافةٌ منّا.

هذه الرسالة تعزية للأمير مُؤيِّد الدَّوْلة بوفاة أبيه الأمير ركن الدَّوْلة، وفيها خَطْبٌ لوُدّه، واستمرارٌ على الولاء له. وهي إمّا من أخيه عَضُد الدَّوْلة، وأمّا من ابن عمه عِزّ الدَّوْلة.

الذي هو لهُ، ورجوعِنا إلى حقيقةِ التخالُصِ بيننا في سِرِّنا وجَهرِنا، وقولِنا وفعلِنا، ووُقوفِنا على الحُدودِ المحدودَةِ لنا، والأمثِلةِ الموضوعةِ لجَماعةِ أهلِنا - أدام الله عزَّنا فيهم - وصَفَحَ وكفَّرَ عن ماضيهِم، حتى تكونَ آراؤُنا مُتَوافقةً، وأهواؤُنا متطابقَةً، وذاتُ بيننا صافيةً ممّا يُشعِّثُها ويَشُوبُها، ودَخائلُ قلوبِنا نقيَّةً ممّا يُدَنِّسُها ويَعيبُها، فيُعِزُّ الله بذلكَ أولياءَنا، ويَكبِتُ أعداءَنا، ويمنَعُ جَانبَنا، ويُحمي حِمانا، ويَحسِمُ الأطماعَ عنّا من كلِّ عدوٍّ يُناوئنا، وحَسُودٍ يُنافِسُنا، ومُعاندٍ يُراصِدُ ما لا يُبَلِّغهُ الله إيّاه، ولا يُوجِدُهُ سبيلاً إليه.

وإذا قرَّرْتَ هذا -أيّدك الله- عند سَيِّدي الأمير، ومَكَّنْتَ عَنّا في نفْسِهِ - صانَها الله - أنّا مُقيمون عليه ومُتمسِّكونَ بالواجب اللّازمِ منه، بذَلْتَ له عنّي ما تَحويهِ يدي، وتشتمِلُ عليه المملَكةُ المَنُوطةُ بي من المالِ والرِّجالِ، والعُدَدِ والذخائرِ، وأعْلَمتَهُ أنّ حُكمَهُ النّافِذَ فيه، وأنّ سَريرتي وطَوِيّتي يَزيدانِ على ما ينطِقُ به لساني من اعتقادِ المُضافرةِ والمؤازَرة، واستشعارِ المُعاضَدةِ والمُرافَدة، وتسألُهُ -أيّده الله- أنْ لا ينقبِضَ عنّي، ولا يطويَ وَطَراً ولا أرَباً، وأنْ يُصَرِّفَني في أمورِهِ تصريفَ الواثقِ منّي، والاعتناقِ لها، وحُسنِ الطّاعة فيها، وأنْ تكونَ هذه الأحْوال كُلُّها شائعةً ذائعةً عنه حسبَ ما هي عندي في الانتشارِ والاشتهارِ، ووُضوحِ الدَّلائلِ والآثارِ، فإنّنا مع تقابُلِنا بالثقةِ، وتساوينا في اليقينِ والبصيرةِ، نحتاجُ بعد الحادِثةِ إلى إقامةِ أحكامِ الأصلِ الذي[1] يُصْدِرُ ويُورِدُ عنهُ، وإبانةِ أعلامِهِ، وتحديدِ رُسومِهِ، لتشتدَّ نفوسُ الأولياءِ، وتنقمِعَ نَزواتُ الأعداءِ، ويَنحسِمَ كلُّ ظنٍّ فاسد، وتقديرٍ خائب، من كلِّ مُعاندٍ لنا، ومُجانبٍ بإذنِ الله.

---

(١) في الأصل: التي.

وتَقصِدُ -أيّدك الله- أخانا الأُستاذ ذا الكِفايتَيْنِ أبا الفَتْح[١]، وتنزِلُ حيث يُنزِلُكَ، وتَتدبَّرُ بها رَسَمهُ لكَ، وتُعْلِمَهُ ما أمَرْناكَ به من السّكنَى في ظِلِّهِ، والتَّصرُّفِ على أمرِه، وتُقِرُّ في نفْسِه أنّه عندنا بصورةِ الأخِ الشقيق، والشريكِ الخليطِ، ضَرْباً بأوْفَرِ السِّهامِ في دولتِنا، وكَوناً في كُلِّ حالٍ تتصرَّفُ بها معَنا، وأنّ ما مَهَّدَه الله تعالى من سالِف أواخيه، ووَكيدِ وصايا الأمير السَّعيد فيه، يقتضِينا له حسنَ الرّعاية، وخالِصَ الإيجابِ والعناية، ويقتضيهِ لنا المؤازرَةَ والمظاهَرة، وأنْ يكون هو الحافِظَ لأُلفَتِنا، والحارسَ لذاتِ بيننا، والوسِيطَ والزعيمَ في جميعِ أُمورِنا، والأحقَّ بحُجَّةِ الغائبِ والحاضِر مِنّا، ويُحصِّلَ من الأجوبَةِ -رسالةً أو كِتاباً- ما يُعجِلُ الانكفاءَ به، فإنّنا على تطلُّعٍ إليه إنْ شاء الله.

---

(١) ابن العَميد، وزير رُكْن الدَّوْلة ثم ابنه مؤيّد الدَّوْلة.

وكَتَب عن عِزِّ الدَّوْلة إلى أبي تَغْلِب بن ناصر الدَّوْلة ينعي إليه رُكْن الدَّوْلة[1]

كتبتُ، واللهُ بتفضله مُجْرٍ لي على أجمل ما عوّد من التوفيق لشُكره إذا أعطى ومنع، والتسليم لأمره إذا ابتلى وارتجع. وأنا في الحالَينِ أُحدِّثُ بنِعَمِه، وأتمَسَّكُ بعِصَمِه، وأحمَدهُ على السَّرّاء حمدَ المُثني بآلائه، وعلى الضَّرّاء حَمدَ الرّاضي بقَضائه.

وقد حدَث بالأمير رُكْن الدَّوْلة - رَحمة الله عليه وغُفرانهُ وتحيَّته ورضوانهُ - حَدَثُ الموت المحتومِ على العالَمين، والبَرِيَّةِ أجمَعين، ووَرَد عليَّ من ذلك ما أقلَق وأرَّق، وأقضَّ وأرمَض. وإنْ كان اللهُ - وله الحَمْد - قد عَمَّرَهُ العُمرَ الطَّويلَ، وأحَلَّهُ المَحلّ الجليل، وأصحَبهُ أطيبَ الثَّناء، وأصلحَ الدّعاء، وجَعَلهُ من الأبرار السُّعَداء، ولم يَنقَلب إلى جوارِه إلّا بعد أنْ غمَر الرّعيّة بعَدلِه، وشَملهُم بِطَوْلِه، وبَلَغ من العَلياءِ غايةً لا يَنالُها الطّالِبون، ولا يُدرِكُها الرّائمون، وقَمَع أعداءَ الدين وأذلَّهُم، ونَصَر أولياءَهُ وأعَزَّهُم، وخَلّفَ من وَلَدِهِ وأُسرَتِهِ أُمَراءَ سادَةً ذادَةً، أقرُّوا عَينهُ في حَياتِه، وسَدُّوا مَكانَهُ بعد وَفاتِهِ، وصاروا بحيث لا يَشكونَ من فَقْدِه إلّا الوَحْشَةَ واللَّوْعة، دُونَ الوَهن والضّيعَة؛ فإلى الله المرجعُ في هذا الخطْب الفادِح، والمُلمّ المالىء للجَوانح، وإليه الرَّغبَةُ في تَوَلّي عَميدنا الماضي أجزلَ ما تَولّى به أمثالهُ من رَحمةٍ يُوفِّرُها، ومَغفِرةٍ يُوَسّع أكنافَها، وجَنَّة يُبوِّئه أعلَى دَرَجاتِها، ويُخوّله أنفَسَ مُبهجاتِها، ويَتَولّانا بعده بالصَّبْرِ والكَظْم، والإرشادِ

---

(١) چستربتي، القاهرة. (ينعي إليه رُكْن الدَّوْلة) إضافةٌ منّا.

إلى الحَزْم، والقَولِ والفِعْلِ المُقربين منه، المستنزِلينَ لرَحمَتِهِ، بِمَنِّه وقُدْرته.

ولما كان هذا الرّزءُ عامّاً لنا، وواقِعاً مَوقِعاً واحِداً مِنّا، وكان - أيّده الله - حَرِّياً بأنْ يأخُذُ منه بِمثلِ حَظِّي، ويضرِب في الارتِياع له بِمثلِ سَهْمي، وكان ما بيننا من خَصائصِ الأسباب، وجَوامِع الأحوالِ، مقتضِياً ألّا يَعدوهُ ما يَنالَني، ولا يَعدُوني ما يَنالهُ، أوجَبتُ أنْ أبتَدِئهُ بِذِكرِهِ، وأُبادِرَ إليه بخَبرِه، وأُناصِفهُ التَّعْزية عنه مُناصَفةَ مَن لم يَزِد قَسمُه على قَسمِه، ولا أوفَى قِسطُه على قِسْطِه، بل اسْتَوت بي وبه مَنزِلَة التَّكافؤ في كُلِّ ما حَزَن وأزعَج، وسَرَّ وَأبهَج. وسَيِّدي وَليّ ما يرَاهُ في استِعمالِ الأخْلَق به، والأحَقّ عليه، تَوفِيَةً للأمرِ الذي[1] واجبُه من الإكبارِ، ورُجوعاً فيه إلى مَراجِعَ أهل النُّهى والأخطار، إنْ شاء الله.

---

(١) ساقطة في ج.

وكَتَبَ تَذْكِرةً[1]

ليقصد فلان حضرة مَوْلانا أطال الله بقاءه، وليوصل ما تحمّل إليه من كِتابنا، وليُشافِههُ بما سَمِعَهُ من لَفظِنا في معنى التَّعْزية بالأمير - رَضِيَ اللهُ عنه، وكَرَّمَ مُنقَلَبه - وما شاهدَه من حالِنا في الارتِماضِ والهلَع، والانزعاجِ والجزع لهذا الخَطْب الذي جَلَّ قَدرُه، وعَظُمَ خَطَره، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، تَسليماً لأمرِهِ، وإيماناً به، ورِضاً بِقَضائه وقَدَرِه، ورَحِمَ اللهُ ذلك السَّيِّد رَحمَةً يوسِّعُ أكنافِهَا، وَبَوّأهُ المنزِلَة من نَعِيمِهِ التي يَستَحِقّها ويَستَوجِبها، وجَعَلهُ سَعِيداً في الدّنيا والآخِرَة، محظُوظاً في العاجِلَة والآجِلَة.

ثم يَخرجُ فلانٌ - أعزَّهُ الله - إلى تَهنِئته بالموهِبةِ لنا منه الزّائدة على المواهِب، الجابِرة لكُسور النَّوائِب، إذ كان القائم مَقامَ الماضي - نَضَّر الله وَجْهه - في الرّئاسةِ علينا، والسِّياسة لنا. وكُنّا له - أيّده الله - عَبيداً وخَدَماً، نتصرّفُ على طاعتِهِ، وننتهي إلى أوامره، ونَقفُ نُفوسَنا على كُلّ ما أزلفَ عنده، وقَرّب منه، ونُوفِيهِ الحقّ الواجب له، ونَعرفُ له ما يُعرَفُ للسَّيِّد الذي أمرهُ المستَمَع، ومِثالُهُ المتَّبَع، الموثُوقُ منه بالإشبال علينا، والإحسانِ إلينا، والإصلاح لِشؤُونِنا، والاهتِمامِ بأُمُورنا، ونُقرّرُ في نَفسِهِ أنّ كُلّ ما تَحويه قُدرتنا، وتَشتَمِلُ عليه مملكتنا من العُدَد والرِّجال والذَّخائر والأموال له وبين يَدَيهِ، ومبذُول في طاعَتِهِ وخِدمَتهِ، وإننا مُقِيمون على شاكِلَةِ أسلافِنا - رَحمَةُ الله عليهم - التي نَتَوارَثُها، ووَصِيَّةِ الأمير السَّيِّد - رَضِيَ اللهُ عنه - القَريب عَهدُنا بها من تعظيم عظمنا، وتَوقيرِ كَبيرنا، والإخلاصِ في قَولنا وفِعلنا، والمساواة[2] بين سِرِّنا وجَهْرنا،

---

(١) چستربتي، القاهرة.

(٢) ق: المساوات.

والوُقوفِ على الحدودِ المحدودَة لنا، والأمثِلَة الموضوعَة لجماعَةِ أهلنا، أدام الله عَزَّ باقيهم، وصَفَح وكفَّرَ عن ماضِيهم، حتى تكونَ كَلِمتُنا مُتّفِقَة أبداً، وأمرُنا أمراً واحِداً، وذاتُ بيننا[1] صافِيةً ممّا يَشُوبها ويَعيبُها، ودَخائلُ قُلوبنا نَقيَّةً ممّا يُدَنّسُها ويُهَجِّنُها، فَيُعِزُّ اللهُ بذلك أولِياءَنا، ويَكبِتَ أعداءنا، ويَمنع جانِبنا، ويَحمي حِمانا، ويحسِمُ الأطماعَ عَنّا من كُلّ عدوٍّ يناوئنا، وحَسودٍ يُنافِسُنا، ومُعانِدٍ يُراصد مِنّا ما لا يَبلِّغُهُ اللهُ إيّاه، ولا يُوجِدُه سَبيلاً إليه.

وليَستَدعِ الشَّريفُ - أيّده الله - من جَوابِهِ ما تَزيدُه الثِّقَةُ، وتَستَحكِمُ معه البَصيرَةُ، ويَعلَمُ كُلُّ دانٍ وقاصٍ، وعامٍّ وخاصٍّ أنّ ما بيننا مُتهذِّب من الدَّرَنِ، مُتَنزِّه عن الرَّنَق، مُستَقِرٌ على أصلِه، مُستَمِرٌّ على أحسَنِه وأجمَلِه، إنْ شاء الله.

---

(١) ق: يميننا.

وكَتَب عن مُحمّد بن بَقيّة
إلى الأمير عضد الدَّوْلة أبي شُجاع
يُعزّيه عن أبيه رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ[١]

كتابي - أطال الله بقاء مَوْلانا الملك[٢] - عند وُرود الكتاب بالحادث في الأمير السَّعيد ركن الدَّوْلة - رضي الله عنه، وكرّم منقلبه - الذي جلّ خطرُه، وعظم قدرُه، وشملت المصيبة فيه؛ وأوْجعت الفَجيعة به، واختصصت منها بنصيبٍ وفّره توفّر حظّي - كان[٣] - من رأيه وعنايته، وتقدّم قدمي في أوليائه، وصَنائع دَوْلته. ولم يكن لنا مع أليم ما حلّ بنا، وغَليظ ما وَرَد علينا مذهبٌ عن الاسترجاع والتّسليم لأمر الله عزّ وجلّ، والرضا بقدره، والصّبر على نافذ حُكْمه، وماضي حَتْمه، والاسترحام له، محص الله عنه، ورفع درجته، وأحسن مجاورته، وخار له فيما صار إليه، وقدم عليه.

ولو قُبلت الفديةُ عن مثل هذا الملمّ إذاً لبُذلت الأموالُ الدّثرة عنه، وتهافتت النُّفوس المنفوس بها دونه، وكانت السَّعادة عامّةً لمن تقدم من خَدَمِه قبله، وانصرف عنه عن الدّنيا أمامه، لكنّ كتاب الله - جلّ ذكره - قد نطق بأنْ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾[٤]، وحظر أنْ يبقى إلّا وجهه[٥]، أو أنْ يخلد شيءٌ معه.

---

(١) چستربتي، طهران. العنوان في ط: وله إليه عن مُحمّد بن بَقيّة في المعنى.

(٢) ج: مولانا، ط: الملك. جمعتهما.

(٣) ساقطة في ط.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ١٨٥.

(٥) بعدها في ط: الكريم، وهي تخلّ بالسجع الذي سار عليه الصابي.

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد سَدَّ بمَوْلانا الملك عضد الدَّوْلة[١] - أطال الله بقاءه - مكانه، وأحلّه محلّه، وأقرّه مقرّه، وأجرى الأمور[٢] في ذلك على ما كان - رحمه الله - يؤثره ويهواه، ويرغب فيه ويتمنّاه، فقد أحسن الله[٣] علينا الخلافة، وجَبَر منّا ما ثلمت المصيبة، وأوجب علينا؛ بجزيل الشكر على أنْ قَرَن تلك الرَّزِيّة بهذه العَطِيّة، وعقب ذلك الفَتْق بهذا الرَّتْق، فلم يجهش الحزين منّا باكياً عليه، حتى استهلّ مستبشراً للعوض عنه، ولا أحسّ بمَضاضة التعرّي من ظلّه حتى التحف بآخر هو أظلّ وأكنّ منه.

وأنا أسأل الله أنْ يرحمه ويرضى عنه، ويُعلي في الجنّة درجته ورُتبته، ويجعل في مَواطن نعيمها مسكنه. وأنْ يتولّى مَوْلانا الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة بعده بمعونةٍ على ما استَرْعِيَه، وإنهاضٍ بما استُكْفِيَه، وتمكينٍ في هذه الدّار يتعجّله، وتمهيدٍ للأخرى يدّخره، ولا يسلبه التّوفيق والتَّسديد، والعزّ والتأييد، ويعيذه من أنْ تلمّ به المصائب إلّا مؤخّرةً له عمّن يتقدّمه، ومثبتةً وطأته وقدمه، وضامنةً أنْ تؤولَ نقائصُها إلى المزيد، وثوالمها إلى التّشييد، بمَنِّه وقُدْرته، وإذنه ومشيئته.

وبودّي أنْ أكون مكان كتابي هذا ماثلاً لمولانا - أطال الله بقاءه - ومُقبِّلاً بساطه، ومُوفّياً بحضرته[٤] هذا الأمر حقّه، وطالعاً في أول الدّاخلين من خَدَمِه عليه، ومتشرّفاً بالوقوف بين يديه، ومؤدّياً لفَريضتيْ: التَّعْزية عن المأخوذ، والتّهنئة بالموهوب، والتصرّف في ذلك على ما يتصرّف عليه العبد النقيّ جَيْبُه، السَّليم غَيْبُه، الصّادق

---

(١) (عضد الدَّوْلة) ساقطة في ط.

(٢) ج: الأمير.

(٣) ج: لله.

(٤) ساقطة في ط.

إخلاصُه، الصّحيح وَلاؤه، ولكني مَنوطٌ بها مُقامي عليه أولى بالخدمة له، وأخلق بالقُربة منه.

ولما أنفذ مَوْلاي الأمير عز الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – أبا القاسم فاذار[١] بن يَزْد فيروز لتأدية ما حَمَّله إيّاه من كُتبه ورَسائله، أضفتُ هذا الكتاب إليه وحمّلتُه الاعتذار عن الاقتصار عليه، وأملتُ أنْ يرد من جوابه ما أتجمّلُ به، ولا أتحمّلُ المِنّة فيه. فإنْ رأى مَوْلانا الملك الجليل[٢] عضد الدَّوْلة – أطال الله بقاءه[٣] – أن يتطوّل في ذلك بما هو أهله ووليّه ويشرّفني بأمره ونَهْيه، ويوفّر حظّي من تكاليف خِدمته كوُفوره من الإخلاص في طاعته، فَعَل إنْ شاء الله.

(١) ج: ماذار، وسقط الاسم كله في ط.

(٢) ساقطة في ط.

(٣) تنقطع هنا الرسالة في ط.

وكَتَب إلى أمير المؤمنين الطّائع لله
عن عِزّ الدَّوْلة أبي منصور
جواباً عن كتابِه بالتَّعْزية عن رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ[١]

كتبتُ - أطال الله بقاء مَوْلاي أمير المؤمنين، وأدام عزَّهُ وتأييدَه وعلوَّهُ وتمكينَه - من المعسكر بحليثيا[٢]، يومَ الأحد لليلتيْنِ خَلَتا من شهر ربيع الأول، عن عُمومٍ من السَّلامة، وتمامٍ من الاستقامة، ونظامٍ شاملٍ لجميع ما يُراعيه - أدام الله قدرتَه - من جهتي، ويتطلَّعُه من مجاري الأمور قِبَلي، وذلك بما يمتدُّ عليّ من ظلِّ طاعتِه، وعزِّ مشايعتِه، وبركةِ أيّامه، ويُمْنِ دَوْلته، والحمْدُ لله ربِّ العالمين حمداً يبلغُ الحقّ ويقضيه[٣].

ووَصَل كتابُ مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - متضمِّناً تشريفي بالتَّعْزية عن عَبْده رُكْن الدَّوْلة، الذي أسعدتْه الطّاعة حيّاً بالتصرّف معها، وميّتاً بالانصرافِ عليها، وفهِمتُه. وتقلَّدتُ[٤] من جليل المخاطبة فخراً لا أزالُ أدَّرِعُ جمالَه، وأسحَبُ أذيالَه، مُهنَّأً بالمواهبِ التي بإنعامِه تسبّبتْ أسبابُها، ومُعزّىً عن المصائبِ التي يبوخُ لهبُها، وشاكلَ ذلك أمثالاً كثيرةً قد استساغَها، وتضاعفتِ المِنّةُ عليّ بها، وقابلتُه بالشكر مُبلِّغاً نَفْسي فيه عذرَها[٥] وإنْ قصّرتْ عن المحقوقِ عليها، وسألتُ اللهَ أنْ ينفعَ عَبْدَه

---

(١) چستربتي، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي.

(٢) ف: بحليثا. ولم أهتدِ إليها.

(٣) ف: يقتضيه.

(٤) ف: تدرعت.

(٥) ساقطة في: ج، ع. ومكانها فراغ في ر.

الماضي بدُعاءِ مَوْلانا مُسترحِماً مُستغفِراً، وعَبْدَه الباقيَ بإرشاده إيّاه مُوَفَّقاً مؤيَّداً[1]، ولا يُخلينا - معشرَ صنائعِه - من أيادٍ تشتملُ[2] الذّاهبَ منها والغابر، وعوارفَ تعُمُّ الأولَ والآخر، ويوفّقَنا لأداءِ المفترَض علينا من خدمتِه، واللّازمَ لنا من حقِّ ولايتِه.

ولئن كان هذا الجرحُ - أيّد الله مَوْلانا - مُمضّاً لي مُرْمضاً، وعظيماً عندي جسيماً، فقد سهَّله أنْ تخطّاهُ أدام الله عِزّه مقدورُه، وتعدَّى ساحتَه محذورُه، فنزل علينا بمَن[3] لا بدَّ منه، وصفَح لنا عمّن لا عوضَ عنه، وحُملنا على حكومةِ إيثارِه، وحقيقةِ اقتراحِنا في تقدُّمنا إلى المنيّة أمامَه[4]، وشُربِنا بكأسِها قبلَه، ووقايتِنا إيّاه بالنفوس التي لا نريدُ بقاءها إلّا له ولا نعتدُّ بسَلامتها إلّا معه، فحقاً أقول: إنّ مَن توفِّي من أوليائه - أطال الله بقاءه - متمسِّكاً بعُروةٍ من[5] عِصْمتِه لا تنفصِم، وعلاقةٍ من عهدِه لا تنصرم، وبالغاً سؤلَه بالسَّبق له، وآمناً مَخُوفَه في التأخّر عنه، أسْعَد من باقٍ منهم لا يعلمُ هل يصلُ إلى ما وَصَل الأولُ إليه، ويُختمُ له بما خُتم له به، أم يُنسَأُ له في الأجَل إلى مشاهدةِ ما يتعوَّذُ منه ويوَدُّ أنّ عمُرَه قصُر دونَه.

وقد جبَر مصيبتي هذه بقاءُ مَوْلانا أمير المؤمنين الذي لا أعتِبُ على دهرٍ أطالَه، ولا أذُمُّ تصاريفَه وأفعالَه، وتفضُّلَه عليّ بالتَّسلية المُبِينة عن توفُّر حظّي منه، وتقدُّم قدَمي عنده، وتجاوُزِ العطيّة في ذلك حدَّ الرَّزيّة، حتى فاقت قدرَها وأضعَفَت عليها، واللهُ يُعينُني على ذلك وعلى أداءِ الحقّ من خدمته، والفَرْض من طاعته، ويهديني إلى استدامةِ

---

(١) ف: مودباً.

(٢) ف: تشمل.

(٣) في الأصول باستثناء ف: من.

(٤) ف: قبله.

(٥) من ف فقط.

الجميل من رأيه، والسَّنِيِّ من اصطفائه واجتبائه، بمَنِّه وقُدْرته، وحَوْلِه وقوّتِه.

وتقديري - أيّد الله مَوْلانا أمير المؤمنين والله المقدِّر - أنْ أُخفِّفَ أيّام الغَيبة عن حضرته، وأنْ أثنيَ عِناني إلى المحلِّ الشريف من فِنائه، تاركاً بعض ما كان في نَفْسي بلوغَه ممّا شخَصتُ له، ومنتهياً فيه إلى حدٍّ من الصَّلاح لا يجوزُ الاقتصارُ دونه، وإلى ذلك فكتُبي تتّصلُ بما يعرضُ عليه ممّا يحتاجُ - أدام الله عِزّه - إلى معرفتِه. فإنْ رأى مَوْلانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وكَبَت أعداءه - أنْ يأمُرَ بالإجابة عنها بما يشرحُ صَدْري، ويقوِّي مُنّتي، ويزيدُ في ضُروب تفضُّلِه، وصنوف تطولِه عليّ، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن الوزير مُحَمّد بن بَقيّة إليه فـي جَواب كتابه بمثلِ ذلك[1]

وَصَل كِتابُ مَوْلانا أمير المؤمنين، المصاحِبُ لِلكِتاب إلى عِزّ الدَّوْلة أبي منصور - أدام الله إمتاعَهُ به - مُستودعَين من التَّعْزية عن شَيخ أوليائِه ورُكْن دَوْلته أبي عليّ - نَفَعَهُ اللهُ - بالحالِ التي نَقَلَهُ عليها من عِزِّ الطّاعة، وظلّ المُشايعَة، ما وَجَدتُ المِنَّة فيه على مَوْلاهُ وعزّة وَليّه أبي منصور أجلّ قَدراً، وأعظَم خطَراً من أنْ يُوازيها شُكرُه وشُكرُ الشّاكِرينَ معه على الاحتِفالِ والاحتِشادِ، فكيف المِنَّةُ على التي أنا حاصبكَ في شُكرِها مع ثُقلِ مَحمَلِها على التَوَحُّدِ والانفِراد. وفَهمتُ الجميعَ، وأوصَلتُهُ إلى عِزّ الدَّوْلة أبي منصور لا سَلَبَهُ اللهُ ولا سَلَبَني الجمالَ به وبِأمثاله، وتقَلَّدَ النِّعْمة فيه، وأحرزَ الفائدَةَ منه وانتهى إلى مُوجِباتِ مَواعِظِهِ وآدابِهِ، وعَفَّت مَسَرَّتهُ ومَسَرَّتي به على مَساءتِنا بهذه النّائبة، وتَجاوَزتَها حتى استَحالَت الحال عمّا تَحسُنُ فيه التَّعْزية إلى ما تَحسُنُ فيه التَّهْنئة، ووَهَبنا ذَنبَ الزّمان إلينا في أخذِه مَن أخَذَ مِنّا لإحسانِه بِنا في تَرك مَن تَرَكَ علينا، ورَغِبتُ إلى الله رَغبةً قد عَرَف - جلّ وعزّ - خُلُوص مَصدَرِها، وهو الحقيقُ بالإجابة لها، في تَوَلّي مَوْلانا أمير المؤمنين بالبقاءِ الطَّويلِ، والعُمرِ المديدِ، والجدِّ السَّعيد، والعَيشِ الرَّغِيد، حتى يكون هو الباقي بعدئذٍ وَليٍّ له، والمتأَخِّر عَمَّن جَمعهُ العُمر وإيّاه، والوارث لأعمار الماضين، والمُستَغرِقُ لِأعمارِ النّاس، والمُستوفي لأجزَلِ حُظوظِ الدّنيا والدِّين، آمين ربّ العالمين.

---

(١) چستربتي، طهران.

وقد أجابَ عَبدُ مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - عِزّ الدَّوْلة عن الكتاب بما أضَفتُ إليه هذا الجواب واعتَقَد من تَحقيقِ الأمر فيما قَصَد هذه الأعمال له والاجتِهاد في سُرعةِ الانقلاب عنه ما أنا مُتّبعٌ رَأيهُ فيه، ومُتوصَلٌ إلى التمكّن منه وله، ادعُ مع القُربِ والبُعد مُكاتبَةَ مَوْلانا - أطال الله بقاءهُ - بكُلّ ما يتَطَلَّعُ عِلْمُه، وتُراعى مَعرِفَتُه، مُؤديًّا حَقّ الخدمة، ولازِماً ما فيها لِلعادَةِ والسنَّة، ومُستَدعِيّاً من الجواب بالأمرِ والنَّهي، وذِكرِ السَّلامة والكِفايةِ ما أحمَدُ اللهَ عليه، وأكُون عامِلاً بحَسَبه، ومُنتَهِياً إليه. فإنْ رأى مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءهُ، وكَبَت أعداءَهُ - أنْ يَزيدَ عَبدَهُ من تَشْريفه وإكرامه، وإحسانِه وإنعامِه بما يَخرُجُ من أمرِهِ العالي بإجابتِه عن كُتبِهِ، فَعَل إنْ شاء الله تعالى.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى ظَهير الدَّوْلة أبي منصور بَهِسْتون بن وَشْمَكير بن زِيار
جواباً عن كِتابه بالتَّعْزية عن الأمير رُكْن الدَّوْلة أبي عليّ[1]

كتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي ومَوْلاي ظَهير الدَّوْلة، وأدَامَ عِزّه وتأييدَهُ، وجَعَلَني من كُلّ شَيءٍ فداءه، وقدّمني قبله - يوم الإثنين لإحدَى عَشرَةَ ليلَةً خلَت من رَجَب، ومَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءهُ، وأدام نَعماءه - جارٍ على أفضلَ ما أجرَى اللهُ عليه الأئِمّة المُستَخلَفِين على الأمّة، الممكَّن لهم في الأرضِ، المؤدّين للفَرْض، الذّابّين عن حَريم الدِّين، ودَهْماء المسلمين؛ بَسطاً ليَدِه، ومَدّاً لظِلِّه، وإعذاراً لنَصْره، وإعلاءً لأمرِه. وأنا نازِلٌ منه - أدام الله سُلْطانه - مَنزِلَةً وَقفَت المنازِل دُونها، وتقاصَرَت الغاياتُ عن بُلوغِها، مُستديمٌ لها بالطّاعة التي هي أصلُها وقَوامُها، وبها اتِّصالُها وتَمامُها، والسَّلامة مع هذا شامِلَة، والاستِقامة مُتكامِلَة، والحمدُ لله أهل الحَمْد ووَليّه، ومُستَحقّه ومُستَوجِبه.

ووَصَل كِتابُ سَيِّدي ظَهير الدَّوْلة - أدام الله تأييدَه - مع أبي تَميم مُحمّد بن عُمر صاحِبه بالتَّعْزية عن الأمير السَّعيد رُكْن الدَّوْلة أبي عَليّ، رَضِيَ اللهُ عنه، وأحسَنَ مُنقَلَبَهُ. وفَهِمتُه، وجَلّ عندي مَورِدُه، ولَطُفَ مِنّي مَوقِعُه، وتَلَقَّيْتُه من التّحفّي به، والإقبال

---

(١) چستربتي، طهران.

بهستون (أو بيستون) من أمراء جُرْجان الزِّياريين، توفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م. عنه وعن الزِّياريين، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٩، ص٣٥٦؛ فون زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص٣١٩.

عليه، والابتهاج له، والإصغاء إليه، بما يَقتَضيه مَكانُ مَن صَدَر عنه وأدَّى لَفظَهُ - أيّده الله - ووجدتُه، مُشتمِلاً على كُلّ أدَبٍ جَزْل، ومَنطِق فَصْل، ومَوعِظَةٍ تَشْرَحُ صَدرَ مَن سَمِعَها، وتَنفَعُ مَن اقتبَسَها وعَمِلَ بها، والجميعُ لائقٌ بفَضلِه، ومُشاكِلٌ لنِعَم الله المتظاهرة عنده.

فأمّا ما أبانَ عنه - أدام الله عِزّه - من ارتياعِه وقَلَقِه وانزِعاجِه، وتحرُّقِه لهذا الخَطْب العَظيم، والرّزء الجَسِيم، فما يخالجني[1] شَكٌّ فيه، ولا ارتيابٌ به، ولا كان مُحتاجاً عندي إلى إقامَة الدَّلالة، واستِعمالِ الإطالة، لأنّ العِصَم بيننا، والأواصِرَ الجامِعَة لنا تُوجِبُ ألّا يَعدُّ واحدُنا ما مَسّ أخاهُ ولا يَتَجاوَزَهُ فيما سَرّهُ أو ساءَهُ، ولا سِيَّما المُصابُ بمَن كان - نَضّر الله وَجْهه - يُحِلهُ محَلّ الوَلَد محبّةً له، وسُكُوناً إليه، واستِظهاراً به، واعتماداً عليه، وإيثاراً على تَصرّف الحالات، ومُرور الأوقات، لما عَظُمَ قَدره، وشرف خَطرَهُ، وفَخمَ شَأنه، وقَدّمَ قَدَمَهُ، فلولا ما أتفرّد به منه - رِضوان الله عليه - من مَزيَّةِ القَرابة، وخِصّيصاء اللُّحمة، لأوجَبتُ أنْ أبتَدِىء سَيِّدي ظَهير الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - بالتَّعْزية عنه قبلَ وُرُودها عَليَّ منهُ، ولَسَبقتُ إليها سَبق المُراعِي لِحقّه، المُؤدّي لِفَرضِه.

وأنا أسألُ اللهَ مُخلصاً في السُّؤال، مُجتَهِداً في الابتِهال، أنْ يُزلِفَ الماضي بما أصارَهُ إليه، ويُغبطَهُ بما أورَدَهُ عليه، ويُبوِّئه من جنانه أعلَى مَنزِلَةٍ أهّلَ لها أمثالَهُ، ورَفَع، إليها أشكالَهُ ممّن زكّى أعمالَهُ، ورَضِيَ أفعالَهُ، وهَذّب خَلائقَهُ، وسدّد طَرائقَهُ، وحَباهُ بكُلّ فَضيلةٍ، ونَزَّهَهُ عن كُلّ رَذيلةٍ، حتى تكون السَّعادة التي اتّصلَت في دُنياهُ له إلى أنْ قَطَعَها حُلول ما لا بُدّ منه مَنوطَةً في الآخِرةِ بأُخرَى لا يَنقَطِعُ مَداها، ولا يُدرَكُ مُنتَهاها، ولا تَشُوبها الشَّوائب، ولا تَعترِضُها النَّوائب، وأنْ يَختَصّ مَوْلاي ظَهير الدَّوْلة بالبقاءِ

(١) ج: يتخالجني.

المديد، والجَدّ السَّعيد، والعَيش الرَّغيد، والبُلوغ لأقاصي الأوطار، والمسالَمَةِ من نَوازِل الأقدار ويَتوَحّدَهُ في نَفسهِ ووَلدِه بالإعاذةِ من السُّوء على الإطلاقِ والاستِمرارِ وفي خاصّتِه وأهل حُزانته[1] بإطالَةِ المُدَد والأعمارِ. فإذا قَضَى عَنكَ وعَزّ ما لا بُدَّ من أنْ يَقضِيه، وأقضَى من حُكمِهِ ما العَدلِ أنْ يُمضيهُ قَدم منهم أمامَهُ مَن يكون تَقَدّمَهُ للدّفعِ عنه، والخِيرَةِ له فلا يُعزَّى إلّا عمّن طالَت مُتعَتُه، وأحَبَّ البقاء بَعدَهُ، ولا يَخلُو في أثناء الرَّزايا ممّا يَقترنُ بها من العَطايا، بقُدْرته.

وأمّا ما استَعملَهُ مَوْلاي ظَهير الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - من حالي في تجَلّي الغَمرَة، وانحِسار اللَّوْعة، وتَعَفّي آثار هذه الملمَّة الفاجِعَة، والخُطّةِ الفادِحَةِ، فقد كُنتُ - أيّد الله سَيِّدي - كالمسلُوب لُبُّه من فَجأتِها، والممنوع حَزمَهُ عند صَدمتِها، ذَهاباً مع جاذِب الكآبةِ، وغالب العبرَة بحسَب جَلالة ما حَدَث ومضَاضَة ما كَرَث. ثم تَماسَكتُ تَماسُك العالِمِ بأنّ الصَّبْر أولَى، والثَّبات أحجَى، والتّسليم لأمرِ الله أحرَى، والاحتِفال بمثوبَتِه ومَعوضَتِهِ أجدى. وكيف لا أجزَعُ لِمصرَعِ عَمٍّ كَسبني مثلهُ - أيّده الله - أخاً، وخلَفَ مودّتَهُ لي تُراثاً، غيرَ أنّي بَلَغتُ من الجَزَع إلى حَدٍّ لو تجشّمتُ كَظمَهُ لَنُسِبتُ إلى الغِلظَةِ والفَظاظَةِ، ولو زِدتُ عليه لَضارَعتُ أهلَ الوَهَن والرَّكاكة، ورَجَعتُ من السَّلْوَةِ بالاختيارِ إلى ما كُنتُ راجِعاً إليه بالاضطِرار وكان من أقوَى دَواعيها، وأوكَد الأسبابِ فيها أنْ وَهَبَ اللهُ بَعدَهُ - رَحِمَهُ اللهُ - اندِمال الجُرْح، وانسِدَاد الثَّلْم، واجتِماعَ الشَّمل، واتّفاقَ الأهل، والمُقامَ على الأُلفَة، والتجَنُّبَ للفُرقَة، فله الحَمْد كثيراً، والشُّكرُ دائماً.

وأمّا ما انضاف إلى كتابِ سَيِّدي ومَوْلاي - أدام الله عِزّه - من الرِّسالة في مَعناه

---

(١) حُزانة الرجل: مَن يتحزّن بأمرهم، أي: عياله والذين يهتمّ بأمرهم. ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص١١٢ (حزن).

وما أدّاهُ أبو تَميم - أعَزّهُ اللهُ - ممّا جَرَى مجَراهُ، فقد سَمِعتُه ووَعَيتُه، واعتدَدتُ به وشَكَرتُه، وأجَبتُ عنه بما عندي أكثَر منه، وفي نَفْسي أضعافَهُ، إمساكاً على حَبل مَودّتِه بيَدي، وعداً له في أكابِرِ الأعضاد بخُنْصري. وصار ما تقابلنا من ذلك مُلزِماً لنا أنْ نتَواصَلَ ونَتَعاطَف، ونَتَوانَسَ ونَتلاطَف، وألّا يَقَع أخلّاؤك منّا بمُكاتبةٍ قد فَتحَ اللهُ بابها، ونَهَجَ سَبيلَها، وطابَقَ بيننا في الإيثارِ لها، والاغتِباطِ بها. فإنْ رأى سَيِّدي ومَوْلاي ظَهير الدَّوْلة - أدام الله تأييدَه - أنْ يَتَفضّل من ذلك ما يَجري على مِثلِه عالياً، وبالمِنّة فيه عارِفاً، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى ألفتِكين التُّرْكي المعزّي
وهو بالشام
جَواباً عن كتابه إلى عِزّ الدَّوْلة بالتَّعْزية عن رُكْن الدَّوْلة[1]

وَصَل كتابك الذي أفردتَهُ بالتَّعْزية لنا عن سَيِّدنا وشَيخنا الأمير السَّعيد رُكْن الدَّوْلة - نَضّر الله وَجْهه، وأحسَنَ مُنقَلَبه - وفهمناهُ، ووثِقنا منك - أيّدك الله - بما ذَكَرت أنّه فجَعَك من الارتِياع لِفَقدِهِ، والالتِياعِ لِمصرَعِه، وتَأدّى إلينا جُلوسُك للعَزاءِ عنه، وإكبارُكَ قدر الرَّزيَّةِ فيه، ووَجدناكَ أحَقَّ أوليائهِ بذلك، لمحَلِّكَ من الدَّوْلة، ومَوقِعُكَ في الجُملَة، ولما كُنتَ حَظِيتَ به من زيَارَة حَضَرته، والتَّشرُّف بخدمَتِه. ونحن نسألُ اللهَ أنْ يُبوِّئه نَعِيمَهُ وجَنَّتِه، ويُوسِعهُ رَحمَتهُ ومَغفِرتُه، ويَتولّاهُ وإيّاك بَعدَهُ بالصَّبر الجميل، والأجرِ الجزيل، ولا يُخلينا عند كُلّ نازِلَةٍ يُنزِلُها، ومحنَةٍ يَبتلي بها من تَسليمٍ لأمره، ورِضاً بِحُكمِهِ، وقَولٍ يُقَرِّبُ مِنهُ، وعَمَلٍ يُزلِفُ لَديه، بمَنّه وطَوْلِهِ، وجُودِهِ وفَضلِه.

وقد كانت - أدام الله عِزّك - المُلمَّةُ من ذلك ألَمّت، والفَجِيعَةُ فيه أوجَعَت، ثم رَجَعنا إلى الضِّنِّ بِمُتاحِ المثوبَةِ، والشُّحِّ على حاصِلِ المعوضَةِ والتَّرفُّعِ عمّا يَدعو إليه الحُزن، والتَّنزُّه عمّا يَعُودُ بالوَهن، وذَهبنا في طُرق الحزْم، واستَعمَلنا صَوابَ الرَّأيِ في الكَظْم. وإذا كانت غاية أهل الجَزَع والتَّهالُك، وأهلَ الثَّباتِ والتَّماسُك، واحِدةً في السَّلْوةِ لِلمَفقُود، واليأسِ من أنْ يَعُود، والثِّقَةِ بِفَوْتِ الماضي، واتِّباع

---

(١) چستربتي.

الباقي، فالرَّشيدُ مَن وَطَنَّ نَفسَهُ على ما هي حاصِلَة عليه، وشَغَلَها بالاستِعدادِ لما هي صائرَة إليه.

ونسأل اللهَ أنْ يَهَبَ لنا ذلك تَوفيقاً لذلك، وهِدَايةً إلى سُبُلِه، وعِصْمَةً من مُفارَقَتِه، ويُمَتّعنا بالبقاءِ ما كان في المساعي الصّالحة، ومقرُوناً به الخِيرَةُ، ويَنقُلَنا من هذه الدّار إلى حيث المنقَلَبُ إليه أسْعَد، والعِيشَةُ فيه أرغَد. وأحسَن اللهُ جزاءك من أخٍ نَفيس، وأثيرٍ نَجيب، ومُوالٍ عَرَفَ الحقّ وراعاهُ، ونهض به وقَضاهُ، واختصَّ بنا، واجتمَعَ معنا، فيما سَرَّ وحَزَن، وجَبَر وأوهَنَ، وأعانَنا على تأدِية ما نُوجِبُه لك، ونَرعاهُ من الحُرماتِ الوَكِيدَة الوَشيجَة فيك، وهو حَسبُنا ونِعْم الوكيل.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى عُدّة الدَّوْلة أبي تَغْلِب ابن ناصِر الدَّوْلة أبي مُحمّد
جَواباً عن كتابه بمثلِ هذه التَّعْزية[1]

كِتابي - أطال الله بقاء سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة - عن سَلامةٍ ونعمَة، لا زِلنا مُتّفِقين في لِباسِها، مُوَفّقين لارتِباطها واحتباسها، والحَمدُ لله حَمداً خالِصاً، سرنا فيه مؤذِناً بترادُف مِنَنِه وأياديه.

ووَصَل كِتابُ سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - من يد الشّريفِ أبي الحسن عَليّ بن الحسن - أعزَّهُ اللهُ - مَشْحوناً بضُروبِ مَبارّه، وصُنوفِ عَوارفه، ومَقصُوراً به التَّعْزية عن الأمير السَّعيد رُكْن الدَّوْلة - تَولّاه اللهُ بعَفوِه وغُفرانِه، ووَفَّر حَظَّهُ من رَحمتِهِ ورِضوانِه - التي قد كانت المكاتَبة المُتَرَدَّدة بيننا فيها أغنَتهُ عن إنْفاذ المُتَفَرِّد بها لولا ما يُراعِيهِ من الحقّ، أو يَتَوخَّاهُ لنَفسِهِ فيه من حِيازَةِ الفَضْل والسَّبق. وفَهمتُ ذلك، وسَمِعتُ من أبي الحسن - أعَزّهُ اللهُ - ما أدّاه، وأجَبتُ عنه بما اقتضاه، وجَدَّدتُ من شُكرِ سَيِّدي - أدام الله عِزّه - ما لا يزال تَجدُّد آلائه له مُوجِباً، وبه مُطالِباً. وعَرَفتُ الذي كان منه. لا أعدَمنيه اللهُ -في طَيّ المصيبة لما طَويتهُ، وإظهاره لما أظهَرتهُ، وتَصرُّفه في الحالَينِ مع إيثاري وذهابه مع مُرادي، وجُلوسِه للتّعزية كجُلوسي، وأخذِهِ من الفَجيعَةِ بِمثل نَصيبي، ولم يكن ذاك بِدعاً منه مع ما اعتَدلَهُ به من بَوادِي التَطوّل وسَوالِفه، وتَواليه ورَوادِفِهِ، ومع وَشيج الأسباب السَّنويَّة بيننا في كُلّ مُهمٍّ لنا، ومُلِمٍّ بنا.

(١) چستربتي، وبعضها في طهران.

وأسأل اللهَ أنْ يقيني الأسوأ فيه، ويَحْرُسَ عَليَّ الموهوبَ منه، ويَصِلَ ما أحكمَهُ بيننا من وُدٍّ ، وأحصَفَهُ من عَهْدٍ وعَقْدٍ، بأحسَنِ ما اتَّصَلت به ذات بَيْن، وتَأَلّفَ عليه شَمْلُ فريقَيْن، بمَنّهِ وقُدْرته.

وقد كان هذا الحادث الجَليلُ - أيّد الله سَيِّدي - أزعجني برَوْعَتِه، وحَرَقني بلَوعَتِه، ودَلَهني[1] بفَجأتِه، وأثخنني بصَدمَتِه. ثم رَجَعتُ إلى ما يَرجِعُ إليه البَشَرُ من التّسَلّي والتَّأسّي، والتَّداوي والتَّناسِي. ولو لم نَفعَل ذاك أدَباً ورَويةً، لفَعَلناهُ دَيدَناً وعادةً؛ فإنّ في طِباع الحَيَوانِ كلِّه أنْ يَجزعَ على المفقود مع قُربِ العَهد، ويتعزّى عنه مع التَّمادي والبُعد. وإذا كانت البَهيمَةُ العجماءُ ترأمُ عند المُفارقَةِ وتَحنّ، وتهدأ عند اليأسِ وتَطمئنّ، وليس لها رادِعٌ من نُهى، ولا دَلِيلٌ من حِجى، وإنّما هي ذاهبةٌ مع جَواذب الطّبيعة، ودَواعي الغَريزة، فالإنسان الزّائدُ عليها بِعَقْلٍ قد دَلَّهُ على أنّ الجَزَع لا يُغْني، والهَلَع لا يُجدِي، وأنّ له عن الرَّزيّة مَعوضَةً، وعلى الصَّبْر مَثوبَةً، أولَى بأنْ يَسبِقَها إلى تلك الغاية بادئاً، ويصيرَ إليها مُحتَسِباً سالياً، ولكنه مع التَّعَزّي عَمّن يُصابُ به حَقيقٌ بالاستِعدادِ لمثل مصرَعِهِ، وأنْ يكون حُزنهُ الشَّديد وقَلَقهُ، وفِكره الطَّويل وأرَقهُ، مَصروفاً إلى الازدجارِ عن مَوارِدِ غيِّه، والاستِمرارِ عن مناهج رُشدِه.

وقد استشعَرتُ من جميع ذلك ما أشعَرنيه كِتابُ سَيِّدي - أيّده الله - الذي يَفتَقِرُ اللَّبيبُ إلى فِقَره، ويحتاجُ الأديبُ إلى مَواعظِه وأدَبِه، ومما ذَلّل إلى طَريق هذه السَّلْوَة بعد التّوجُّد، وسَهَّلَ مَرامَها بعد التّعذُّرِ، استِقامة الأحوال غِبِّ وفاةِ الماضي - رحمَهُ الله عليه - بِكُلِّ مقرٍّ من[2] مَقارّ سُلْطانِنا، ووَسَطٍ وطَرَفٍ من أعمالنا، وأنّ جَماهِيرَ العَساكِرِ سامِعَةٌ

(١) الدَّلْه والدَّلَه: ذهاب الفؤاد من همٍّ ونحوه. ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٤٨٨ (دله).

(٢) إضافة مقتضاة.

طائعَةٌ، ودَهْمائها ساكِنةً وادِعَةً، والأخبارُ مُتَواتِرَةٌ بأنّ الأمرَ مَضبُوطٌ، والفَتْق مَرتُوقٌ، والحَزْمَ مأخُوذٌ به، والهَيْج مَعدُولٌ عنه.

وقد كنتُ ذَكرتُ لسَيِّدي - أدام الله عِزّه - من ذلك طَرَفاً كافياً وأعَدتُه الآنَ ليكونَ له مُتَحَقِّقاً متيقِّناً، واللهُ يَعمُر ساحتَهُ بالمواهِب، ويَحميها من النَّوائب، ويجعَلَ لِكُلّ مَسَّرةٍ إليه هادياً يُوصِلُها ويُرشِدُها، ولكلّ مَساءةٍ عنه حاجباً يَصُدّها ويُبعدُها، بحَوْلِه وطَوْلِه، وجُودِه وفَضلِه.

ولكُتُبِ سَيِّدي عُدّة الدَّوْلة - أدام الله عِزّه - مِنِّي المنزِلَةُ اللَّطيفُ مَوقعُها، الرَّفِيعُ مَحَلّها ومَوقعُها. فإنْ رأى - أطال الله بقاءهُ - أنْ يَبرّني باتّصالها مُضمَّنةً مؤُنسَ أخبارِه وأحوالِه؛ لأكونَ بها مُغتَبِطاً مُبتَهِجاً، وعارض حاجاتِه ومُهمّاتِه؛ لأكونَ إليها مُسارِعاً مُبادِراً، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن الوزير أبي الفَضْل العَبّاس بن الحسين الشِّيرازي إلى الأمير رُكْن الدَّوْلة أبي عليٍّ يُعزِّيه عن وزيره أبي الفَضْل مُحمّد بن الحسين بن العَميد[1]

كتبتُ - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - والسَّلامة عند مَوْلاي الأمير عِزِّ الدَّوْلة راهنة، والنِّعْمة عليه مُتَظاهِرَة، وما أخدمهما[2] - أيّدهُما اللهُ - فيه جارٍ على أحسن ما عَوَّدَ اللهُ - عزّ وجلّ - سَداداً وانتِظاماً، واستِقامةً والتِئاماً، والحَمْدُ لله ربِّ العالمين.

ووَرَد عَلَيّ - أطال الله بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد - من خَبَر الحادث بأبي الفَضْل مُحمّد بن الحسين - رضي اللهُ عنه - ما آلَمَني وساءني، وأقلَقني وأرْمَضَني، انزِعاجاً لِرَداه، واستيحاشاً لمثواه، وإجلالاً لقَدر المصاب به، وإعظاماً للحَقّ الذي محلّهُ من مَوْلانا يُوجِبهُ، وإنْ كان مَسكُوناً له إلى رَحمَة الله - جلّ وعزّ - التي وَسَعَ أكنافَها، ومَغفِرَتِه التي مَدّ عليه ظلالَها مَغبُوطاً بطاعَةِ مَوْلانا التي قُبِضَ عليها، ومُوالاتِه التي

(١) چستربتي، طهران. العنوان في ج: وكتب عن الوزير إلى الأمير رُكْن الدَّوْلة....، وفي ط: وله عن الوزير أبي الفضل إلى ركن الدَّوْلة يعزيه بأبي الفضل بن العَميد وزيره. (وزيره) من ط فقط. (العَبّاس بن الحسين الشيرازي) إضافةٌ منّا، فهو وزير عز الدَّوْلة وقت وفاة أبي الفضل بن العَميد نحو ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م. فقد كان كاتباً لعز الدَّوْلة، ثم وزر له سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م، وعزل سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م. عنه، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص٢٢٢؛ وأخباره مبثوثة عند: مسكويه، تجارب الأمم؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري؛ ابن الجوزي، المنتظم؛ ابن الأثير، الكامل.

(٢) ط: أحدهما.

ذخر له جَزيل الجزاء عنها، وأنّه مَضى في أيّامه - أدامَها اللهُ - عَزيزاً، وانصَرَف في دَوْلته - ثَبَّتها اللهُ - سَعيداً، وخُتِمَ له من ذلك بما كان النِّهاية من سُؤلِهِ، والغاية من مَأمُوله.

وإذا كانت هذه الحالُ - أدام الله تأييدَ مَوْلانا - مَعلُومة الحلول، مَحتُومَة النُّزول، حاكِمةً على النّاس بالفُرقِة، مُسويّةً بينهم في النُّقلةِ، فأحسَنُها وُقوعاً، وأجملُها طُروقاً، ما تَقَدَّمَ فيه التّابعُ المَتبُوعَ، والصّاحبُ المَصحوبَ، لأنَّ ذلك أصلحُ لكِلَيهما، وأولَى بمَحَلّيهما.

وأسأل الله أنْ يُطيلَ بقاء مَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة، إطالَةً تستَغرِقُ أعمار عَبيده وخَدَمِه، حتى يكون وارِثاً لجميعَها، ومَزيداً بالمشقص منها، ولا يُخليه من المُتعَة بهم أحياءً، والاستِخلاف منهم أمواتاً، ويجعلَ ساحَتهُ مَحميَّةً من جليل المصائب، وأيّامَه مَحفُوفَةً بهَنيِّ المواهِب، بقُدْرته.

ومَوْلانا - أدام الله عُلُوّهُ - بما تَوَحدَه اللهُ به من الأدبِ البارع، والمحلّ الفارِع، والفَضل الظّاهِر، والعِلم الباهِر[1]، يَستَغني في أحواله كُلِّها عن قَول القائلينَ[2]، إلّا إنّ للتّعزية حَظّاً من الخِدمَةِ لا يَسَعُ العَبيدَ الإخلال بأدائه[3]، وحَقّاً لا عُذرَ لهم[4] في الإغفالِ له. ومَوْلانا الأمير السَّيِّد رُكْن الدَّوْلة - أطال الله بقاءهُ - أعلَى عَيناً وما يراهُ في التَّقدُّمِ بإجابة عَبدِه وصَنيعَته بما يَسكُن إليه من جَميلِ وَلاية الله إيّاه في أموره، ويتَشَرّف به من عَوارض خِدمَتِه إنْ شاء الله.

---

(١) (والمحل..... الباهر) ساقط في ط.

(٢) ط: القائل.

(٣) ط: بآدابه.

(٤) ساقطة في ط.

نُسْخة كتابٍ إلى أبي الفَتْح عليِّ بن مُحمّد بن الحسين بن العَميد الملقَّب ذا الكِفايتَيْن يُعزّيه عن أبيه أبي الفَضْل[١]

قد سَبَقَ في العِلْم، وثبَت في العَقْل - أطال الله بقاء سَيِّدنا - أنّ اللهَ - تقدَّسَتْ أسماؤه - القديمَ بلا ابتداء، الباقيَ بلا انتهاء، لا يشرَكُه في ذلك غيرُه، ولا يختصُّ به سِواه، وأنّه - عزّ وجلّ - أبدع المخلوقاتِ على اختلاف ذواتِها، وتبايُن مَوْجوداتها[٢]، فأعطى كلاًّ منها[٣] ما أوجبتِ الحكمةُ أنْ يُعطاه، فلا سَبيل إلى مزيدٍ لها على حُدودها التي وقفت عندَها، ولا نقصانَ من غاياتِها التي انتهتْ إليها.

ولهذه المخلوقات منازلُ في الأعمار لا تتعدّاها، ومواقيتُ في الآجال لا تتخطّاها، فلو أمكَنَ فيها البقاءُ لارتفع عنها الحدَث، ولَساوى المفعولُ فاعلَه، والمجبولُ جابلَه، وسقط التفاضُل بين الأدنى والأشرف، والأقوى والأضعف، فوجودُ شخصِ الإنسان كأن لم يزلْ مؤدٍّ[٤] إلى عَدَمه كأن لم يكن، ولله - جلّ وعزّ - في ذلك مِنّةٌ على[٥] البريّة لا

---

(١) چستربتي، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. العنوان في ط: (وكتب إلى أبي الفتح بن العَميد يعزيه عن والده أبي الفضل رحمه الله). وفي ر: (كتاب من من أبي إسحاقَ إبراهيم بن هِلّيل الصّابي). وفي ف: (بن هليل) ساقطة، وكذلك (الملقب) وبعدها: ذي .... وأورد نص هذه الرسالة الشيزري، جمهرة الإسلام، ص٢٧٧

(٢) من: ط، جمهرة الإسلام، وفي ما دونها: حوادثها.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) ف: يؤول.

(٥) من: ط، وفي ما دونها: في.

يعرفُها منهم[1] إلّا الفذُّ الفريد، والشاذُّ الوحيد، لأضعاف عَدَد عَوامِّهم على خَواصِّهم، وجُهّالهم على عُلمائهم.

وكلُّهم مركّبٌ من نَفْسٍ تسمو إلى الأرفع والأسنى، ومن جَسَدٍ يُسِفُّ إلى الأدون والأدنى، فمَن غَلَب أخسُّ ما فيه أشرفَه قَنَط من الموت قُنوطَ الصّبيّ[2]، وكَرِهه كراهةَ الغِرّ، وظنّ أنّ الله قد قطع عِصْمتَه، وأزال معه نعمتَه. ومَن غَلَب أشرفُ ما فيه أخسَّه أيقن أنّ الله - جلّ اسمُه - لا يعبثُ في خَلْقه، ولا يلغو في نُطْقه، ولا يُخلف ما وعد، ولا ينكُلُ عمّا ضمن. وأنّه - عزّ وجلّ - قد جبر مصابَ الميّت جبرَيْنِ ظاهرَيْن يشهد بأحدهما العيانُ عاجلاً، وبالآخرِ[3] العقلُ آجلاً، فالعاجل: النّسل، والآجل: النّشر. فإنْ أخطأه الأولُ على عادة الدّنيا في تلوُّن أحداثها، وتفاضل أرزاقها، فهو حاصلٌ على الثّاني الذي لا شكّ فيه ولا شُبهةَ عند كلّ ذي لُبٍّ وديانة، ولم يعدمْ مزيداً من حظوظه بقدر الفائت من غيره.

وإذا تدبّر الإنسانُ أمرَه وجدَهُ مبنيّاً[4] على تدريجٍ في الزيادة قد لزم نظاماً لا يقطعُه، وسياجاً[5] لا يزولُ عنه، وصادف كلَّ منزلة من منازله فوق التي أمامَها ودون التي وراءها، إذ[6] كان معدوماً، ثم صار موجوداً على صُوَرٍ يخرُجُ فيها من واحدةٍ إلى

---

(١) من ط.

(٢) ط، ر، ع: الغبي.

(٣) ط، ج، ر، ع: الآخر.

(٤) ج: مهيئاً.

(٥) ف: مساحا، ر: سناحا.

(٦) ط: دان.

أخرى قدرَ ما[١] في ظهور الذكور، وارتكض[٢] في أرحام الإناث. وظهر بعد إلى الهواء فنَسَمَه، ووَقع على الثدي فارتضعه، ونمى على الأرض فحبا، ونهض فسعى، وسمع ووَعى، وعقل ورأى، وأخذ وأعطى، واستمرّ به النشوءُ مترقّياً من كلّ حالٍ إلى ما هو أعلى، ومن كلّ غايةٍ[٣] إلى ما هو أوفى، وهو مع ذاك لا ينتقل إلى الرتبة الفاضلة إلّا بمُفارقة المفضولة، ولا يصل إلى المستأنفة إلّا بانفصالٍ[٤] عن السّالفة. حتى إذا نال الكمال، أطلعه اللهُ على ضُروب مَواهبه لديه، وصُنوف إحسانه إليه، وأمره بأوامره، وزَجَره بزَواجره، ووَعْده[٥] وخيَّره وقدَّره[٦]، ووفاه ما رزقه من أكله، وتوفّاه عند المحتوم من أجله[٧]. ثم بعثه إلى مقرٍّ بناه على إمكان البقاء والخلود، وسقوط التكاليف والحدود، وهناك تتناهى النِّعْمة عليه التي هو في هذا العالم مجتازٌ إليها، ومتوجّهٌ نحوها في طريقٍ قد أُمر بلزوم جَوادِّها، ونُهي عن التعسّف في عَوادلها.

لكنه ينتقلُ في هذه المراتبِ مُكرَهاً لا طائعاً، ومجبَراً لا مختاراً، فمِن ذلك أنْ يستقرَّ في الرَّحِم استقرارَ الموافقة، ويستوطنَ استيطان الملاءمة[٨]، فلو كان له هناك عقلٌ مع الحسِّ لَكرِه[٩] النقلة عن موضعه لِظَنّه أنه أوطأُ مواضعه، ولجهله بالأمر الذي هو فوقَه.

---

(١) بدل (قدر ما) في ف: مار، ط: قد صار.

(٢) ط: وإن نكص.

(٣) ف: فاته.

(٤) ط: بالانفصال.

(٥) ط، ف: أوعده.

(٦) ط: أقدره.

(٧) (وتوفاه....... أجله) من ط فقط.

(٨) ط: المزايلة، ولا يصح.

(٩) ج، ر: لكثرة.

وهذه صورتُه في دُنياه تُريه البشريّة أنها خيرُ مَواطنه، فيفارقها ضَنيناً بها، متأسّفاً عليها، وهو[١] إذا حصل في التي بعدها حمِد اللهَ على ما صار إليه، ولم يحبَّ العوْدَ إلى ما كان فيه.

ولما أزاح اللهُ علّتَه في العقل الآمِر بالخير، النّاهي عن الشرّ، لم يُعوِّل به في كلّ أمرٍ[٢] عليه، ولم يكِلْه في جميعه إليه[٣]، بل بعث إليه[٤] أنبياءَ بآياتٍ واضحة، وبيّناتٍ لائحة، فأقاموا له الدّليل، ووقفوه على سَواءِ السَّبيل، وأرشدوه إلى الشرائع المنجية، وحذّروه من[٥] الموارد المردية، كلّ ذلك عنايةً من خالقه، ورأفةً منه عليه، وإرادةً للأصلح فيه.

ولا يجوزُ أنْ يكون الموتُ مُبيداً له إبادةً لا رجعةَ فيها، ولا إنابةَ[٦] منها؛ لأنّ الحكيمَ يصيرُ حينئذٍ[٧] منبوذَ الحكمة، منبتَّ العِصْمة، وتعود البريّةُ إلى العَدَم عند انقراضها كما كانت قبل ابتدائها، فينتقضَ الغرضُ في خَلْقها، وتفسد العلّةُ في إيجادها[٨]، وهو سبحانه أعظمُ من ذلك[٩] شأناً، وأتمُّ[١٠] سُلْطاناً، وأكملُ صنعاً،

---

(١) ساقط في ف.

(٢) ط: كل أمر أمره.

(٣) ط: (في جميعه إليه) ساقط في ر.

(٤) ساقطة في ف.

(٥) ساقطة في ط.

(٦) ف: إثابة.

(٧) ف: حرف حاء فقط.

(٨) ط: لإظهارها.

(٩) (من ذلك) ساقط في ط.

(١٠) ف: أجل.

وأتقنُ[١] عملاً، فالمصيرُ إذاً من هذه الدّار إنّما هو إلى أخرى هي أرغدُ وأفسح، وأفضلُ وأصلح، وحقيقٌ على الإنسان أنْ يُشاقَّها[٢] وينازعَ إليها، ويستحبَّها ويثابرَ عليها. إلّا أنّ[٣] من خالَف المأمورَ[٤] به[٥]، وقارَف المنهيَّ عنه، وحَطَب على نفسه، وحمَل على ظهره، وأسخط خالقَه استحقّ[٦] عذابه، فلا بدَّ أنْ يتقاعسَ عن سُوء المآل، ويأبى تعجُّلَ النكال، ومن وراء ذلك رَبٌّ يحمله على العدل، ويقضي له[٧] بالفضل، وينالُه من القِصاص الذي يظهره بقدر ما احتقب من الآثام التي تدنّسُه، فتكون عقوبتُه بكسب[٨] يديه، وعافيته بالتفضّل عليه، وقد نزَّه الله عن هذا[٩] المورد مَن أحسن العمل، العمل، وسَلَك الجُدَد، وقدّم في أُولاه لآخرته[١٠]، وتزوّد من عاجلته لآجلته، وأخذ من ممرِّه لمقرِّه، واحتشد لمقدَّمه في سَفَره.

وتلك حال الأُستاذ الرئيس أبي الفَضْل - نَضّر الله وَجْهه - فيما أرجَح اللهُ من دينه، وصحَّح من يَقينه[١١]، وأجزل من أدبه، وأكرم[١٢] من مُنقلبه، فإنّه - تعالى ذكرُه -

(١) (سلطاناً .... وأتقن) ساقط في ط.

(٢) ف: يشتاقها.

(٣) ساقطة في ف.

(٤) ف: الأمور.

(٥) من ط.

(٦) في الأصول الخطية: واستحق.

(٧) ط: فيه.

(٨) من: ق، وفي ما دونها: بكسر.

(٩) من: ط، ف.

(١٠) ط: لآخرته.

(١١) (وصحح من يقينه) ساقط في ف.

(١٢) من ط، وفي سائر الأصول: كرم.

جعله في هذه الدّنيا سَيِّداً عالياً قدرُه، سامياً خطرُه، بعيداً صِيتُه، وافياً حلمُه، ثاقباً[١] فهمُه، عزيزاً علمُه، زاخراً بحرُه، فائضاً برُّه. وأخرجه عنها عارفاً بديّانها، عازفاً عن زخارفها، صادًّا عن سُرورها، صادفاً عن غرورها، منافساً في التي بعدَها، واثقاً بجزيل حظّه منها، مغتبطاً بتأثُّل محله، مَشُوقاً إلى ما قدّم وجهّز إليها. وأعطاه من سَيِّدنا - أدام الله عِزّه - خَلْقاً يسُدُّ مكانَه ويُشيد بنيانَه، ويحفظ مَعاليَه، ويحرس مَساعيَه، وهو حريٌّ بأنْ يجري على تلك الشّاكلة ويوفي ويحلي[٢].

وكان انصرافُه - رضي الله عنه - بعد أنْ رأى فيه سؤلَه، وبلغ مأمولَه، وقرَّت عينُه باستقلاله ووفائه، واضطلاعه[٣] وغَنائه، وشاهد فيه المنظرَ[٤] السّارّ، وسكَن منه إلى الولد البارّ، وقضى اللهُ فيهما بما هو الأولى بهما من تقدُّم الأصل، وتأخّر الفرع، ومضيِّ السَّلَف وبقاء الخلَف، ووثقنا لذلك بالفوز العظيم فيما صار إليه، ولهذا بالمِنْح الجسيم فيما حَصَل[٥] عليه، وتظاهرت مَواهب الله في ذلك تظاهراً تُحوِّلُ به المحنةُ منحةً، والرَّزيةُ غبطةً، وإلى الله تعالى الرغبةُ في أنْ يتغمّد السَّيِّد الثّاويَ بأتمِّ الرّحمة والغفران، وأطيب التّحيّة والرّضوان، ويَخيرَ له فيما أقدَمه عليه، ويسعدَه فيما أسرع به[٦] إليه، ويبلِّغَه مراتبَ الأعيان الأخيار، ويُبوِّئه منازلَ الصِّديقينَ الأبرار[٧]، ويُعليَ شأنه في دار

(١) ساقطة في ط.

(٢) ط: ويوفي عليها. ف: ويوفي ويستوفيها، وكتب ناسخ ر: يستوفيها ثم شطبها.

(٣) ف: واطلاعه.

(٤) ف: النظر.

(٥) ط: حمل.

(٦) ساقطة في ط.

(٧) من: ط. وفي سائر الأصول: الأخيار.

القرار كما أعلاه في هذه الدّار. ويتولى السَّيِّد الباقيَ الذي يملأُ العينَ قرةً، والقلبَ مسرّةً، بامتداد البقاء، ودوام النَّعْماء، ويرعاه بعينه اليَقْظى، ويدافعَ عنه بيده الطُّولى، ولا يُخليَه من الصُّنْع والتأييد، والإنافة والمزيد، ويلهمَه الصَّبْر المؤدّي إلى الأجْر، والاحتسابَ العائد بالثواب، بجوده ومَجْده، وحَوْلِه وطَوْلِه.

لم أُطلْ هذه الإطالةَ - أيّد الله سَيِّدنا - بالتَّعْزية[١]، إغراباً عليه بها، ولا لأنه[٢] من النَّفر المحتاجينَ إليها، وكيف ذاك وعلمُه يُوفي عليها، وصدرُه يَجيشُ بأضعافها؟ لكنني اتّبعتُ الأمرَ في الذكرى[٣]، وتوخَّيتُ من إيناسه الغاية القُصوى، وسلكتُ طريقَ المجتهد في تعزيته، وذهبتُ مذهبَ المبالِغ في تسليته، وكرهتُ أنْ أكونَ في شيءٍ من ذلك واقفاً دون قدرتي، وتاركاً شيئاً من استطاعتي. وسيّدُنا - أدام الله عِزّه - وليُّ ما يراه في التقدّم بإجابتي[٤] بذكرِ خبرِهِ وحاله، وأمرِه ونهيه، وما وليَه الله به في هذا الحادث الكارث، والملمّ المؤلم، من العمل بما يرضاه، والتجنّب لما يأباه، إنْ شاء الله.

---

(١) من: ط.

(٢) ط: ولأنّه.

(٣) من: ط، ف. وفي سائر الأصول: الذكر.

(٤) ج: بإجابة.

وكَتَب عن الأمير عِزّ الدَّوْلة بَخْتِيار بن مُعِزّ الدَّوْلة إلى الملك عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع عن رُكْن الدَّوْلة أبي عَليّ يُعزّيه عن وَلَد[١]

وَصَل كتابُ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءهُ - مُتَضَمِّناً من ذكر الحادث في الوَلَد الأثير، والسَّيِّد الخطير أبي دُلَف - نَضّر الله وَجْهه، وأسْعَد منقلبَهُ - ما هَدَّ جَلَدي، وفَتّ في عَضُدي، وأقَضَّ مَضْجَعي، وأطال تَفَجُّعي[٢]، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، وعندَهُ - جلّ وعزّ - نَحتَسبُ ذلك الغُصْنَ النّاضِر، والنَّجم الزّاهِر، وإيّاه نسألُ أنْ يتولّاهُ بعفْوه وغُفْرانه، ورَوْحه ورَيحانه، ويُبَوَّأهُ الجَنَّة[٣] التي أعَدَّها لأمثالِه، ووَطّأها لأشكالِه، ممّن طابَ مَخبَرُه، وزَكا عرفُه، وكَرُمَ عُودُه، وتَهذَّبَ نِجارُه. ويُعَوّضَ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة بالمزيد في عُمرِه، وأعمار النُّجباء الغُرَر من أولاده[٤] ويحرسَ عليه الثّوابَ، ويَجبُرُ منه المصابَ، ويُوَفّقُهُ في كُلّ ما ساءَ وسَرَّ، ونَفَع وَضَرّ، للقَول المقَرِّب منه، والفِعل المحظي لديه، بمَنّه.

وما أَخُصُّ سَيِّدي الأمير عَضُد الدَّوْلة على ادّراع الصَّبْر، لِسَبقِهِ إلى مَعرِفَةِ الرُّشدِ فيه، ولا أكُفُّه عن إفراطِ الجزَع لارتِفاعِ طَبَقَتِه عنه. وإنْ فَعَلتُ ذلك[٥] صِرتُ هادِياً إلى

---

(١) چستربتي، طهران. العنوان في ط: (وله عن عز الدَّوْلة إلى عضد الدَّوْلة يعزيه عن ولد). والولد المقصود في هذه التَّعْزية: أبو دلف، كما سيصرّح الصابي.

(٢) (وأقض .... تفجعي) ساقط في ط.

(٣) تأثرٌ بأسلوب القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ سورة الواقعة، الآيتين ٨٨-٨٩.

(٤) ط: ولده، و(الغرر من) ساقط فيها.

(٥) ساقطة في ط، وبعدها: كنت.

ما لا أهتَدِي إليه، وناهِياً عمّا لا أنتَهي[١] عنه، إذ كان الحزن قد أخذ منّي مآخذه، والسُّلُوُّ قد حَماني من وُرود شرائعه. وكانت حالي في الارتماض حال المحتاج إلى أنْ يُقال له، ويُعزّى بما أُعزّي به.

ولو استطعتُ أنْ أفدي هذا السَّيِّد الكريم - كرّم الله مَصْرعه، وبرّد مَضْجعه - بنفسي، وأنْ أنحله عمري، لكان أحقّ مَن فُدي، وكنتُ أحقّ مَن فدى، لكنه الأمر الذي لا يملك المخلوقون فيه إلّا التَّسليم مُنقادين طائعين، أو مُعتاضين كارهين.

ولسَيِّدي عَضُد الدَّوْلة من بَصيرة الدِّين، وخُلوص اليقين ما يقتضيه الانصراف عن توجّه النقيصة إلى فرحه المعوضة، وعن مَضض الرَّزيّة إلى جذل العَطيّة. وقد أعلى الله - تعالى - مكانه، وفخّم شأنه عن مُضارعة مَن يخونه حِلْمُه، أو يقعد به كَظْمُه، أو يجاوز الحدّ الوسط بين غِلَظ القاسين، ورِقَّة المضعوفين، حسب ما ....[٢] الله - تعالى - أهّله من الإحاطة بالفضل، والاشتمال على الحزم، والمجانبة للوهن، والتباعد عن ....[٣].

وأنا أكره الإطالة في التَّعْزية على تَراخٍ من عهدها، وبعد مُضيّ الأيّام عليها؛ لأنها ربّما جدّدت ما خَفا، وأضرمت ما خَبا. وتطلُّعي شديدٌ إلى معرفة حال سَيِّدي عَضُد الدَّوْلة - أطال الله بقاءه - في ....[٤] لَوْعته، وانفراج كُرْبته، وتكامل سَلْوته، وعَوْده إلى عادته. وهو - أدام الله عزه - وليّ ما يراه، والتقدّم بإعْلامي من ذلك ما أسكنُ إليه، وأشكرُ الله الكريم عليه، إنْ شاء الله.

---

(١) تنقطع هنا الرسالة في ج بسبب اضطرابها والتكملة من ط وحدها.

(٢) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: حصلته.

(٣) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: الأفن.

(٤) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: نقضي.

وكَتَب عن نفسه
إلى الملك عَضُد الدَّوْلة أبي شُجاع
يُعزّيه عن ولده أبي دُلَف[١]

وقفتُ – أطال الله بقاء الملك الجليل عَضُد الدَّوْلة – على ما اختاره الله تعالى لمَوْلاي الأمير أبي دُلَف – قدّس الله روحه، وروض ضريحه – من النُّقْلة إلى دار القرار، ومثوى الأبرار؛ فأكبرتُ قدر المصيبة به، وأعظمتُ خطر الرّزيّة فيه، وأخذتُ من التأسُّف والتفجُّع، والالتياع والنزوع بأوفر أقسام العبد الأليم بحرقه، الشَّديد بخفقه، النقي جيبه، الأمين غَيْبه، المطوية خَفايا سِرِّه، وحَوايا صَدْره، على أعلى منازل الإخلاص، وأقصى مبالغ الاختصاص، إذ قد فقدنا – معشر الخدم – من هذا السَّيِّد – تغمّده الله بغفرانه، وأهلّه لرضوانه – سماءَ جودٍ صادقة، ومخيلة مجدٍ ناطقة، وعريشة كرمٍ من مَوْلانا – أطال الله بقاءه – منصبها، وعنه مركبها، ومن نِجاره منزعها، وإلى فَخاره مرجعها؛ لأن مَوالينا وأولاده – أدام الله تأييده وعزّهم – كالخطّي الذي نبتُه وَشيجُه، والأغصانِ التي يقوّمها تخريجُه، فليس للمفقود منهم خَلَفٌ[٢] إذا لم يكن منشؤه فيه، ولا عِوَضٌ إذا لم يكن مطلعُه[٣] عنه لتفرُّده بالفضل، وارتفاع طبقته عن المثل؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، ولأمره مُنقادون مُسلّمون. وإليه أرغبُ في إحلال سَيِّدي الماضي مَحَلّ مثلِه ممّن لم تَطُل في الدّنيا مُدَّتُه، ولا تَدَنَّسَت بِجَرائِرها صَحيفَتُه، ولا

---

(١) طهران (العنوان فيها: وله عن نفسه إليه في ذلك) أضفنا عليه ما يزيل اللبس.

(٢) في الأصل: خلفاً.

(٣) من هنا تبدأ ج.

عَلقَت به أدرانُها، ولا جَذَبَتهُ أشطانُها، لكنّه وَرَدها نَجيباً رَشيداً، وانصَرَفَ عنها مُهَذّباً سَعِيداً، قد صَانَهُ الاحتِضارُ عن مُلابَسَة الأوزار، وحاطَهُ الاخْتِرامُ عن مُقارَفةِ الآثام، وانقَلَبَ إلى خيرٍ ممّا تَرَكَ واحتَفَظَ بأجدَى ممّا استملَكَ[1].

وإيّاه أسألُ - جَلَّ من مَسؤُول، وعَزَّ من مَأمُول - أنْ يختصّ مَوْلانا المَلِكَ الأجلّ عَضُد الدَّوْلة بالعُمرِ المترامي، والأمد المتَمادي، مُوَفَّقاً فيه لاستِتْمام ما هو عليه من عِمارة هذه الدّار المَمدُود عليها ظِلّه، المَبسُوطُ لِأهلِها عَدلَهُ، والاستِعداد لِتلكَ الدّار المُقدّمَ إليها زادُهُ، المُعَدّ فيها عَتادُه، المَوثُوق بأنّ مثلَهُ ممّن أحسَنَ السِّياسة، وحَمَل أعباءَ الرّئاسة، وسَعَى في الأرضِ صَلاحاً، ومَلأها رِفْدَاً مُباحاً، لا يَقنَعُ اللهُ له بقُصُور رُتبةٍ فيها كما لم يَقنَع له بذلك في التي قَبلَها، وأنْ يُديم إمتاعهُ بمَواليَّ الأمراء الباقينَ - لا زالُوا سالمين مَوْفورين - ويَجعَلهُم منه خَلَفَاً لمن يَأتي بعَدنا من عَبيدهم وأولادنا، وينتهي به وبهم من البقاء إلى الحدّ الذي يَسأمُونهُ ولا يُسأمُ منهم، ويَأبونهُ ولا يُؤبى لهم، ويَغبُط من يمنهم بهذا الماضي يومَ يكون أنفعَ البَنين، وأعْوَدهم عليه بأجر المأجُورين، ويَرحَمهُ رَحمةً يَفسحُ فيها، ويُوسّعُ أكنافَها، ويلَقِّيهِ جَنَّةً يفتَحُ أبوابَها، ويُجزِلَ ثَوابَها.

وإذا كان للمتكلّمينَ - أيّد الله مَوْلانا - في التَّعْزية عن الأولاد طريقاً يسلكونها ويَقفُوا بَعضُهُم أثر بعضٍ فيها، فحكمي أنْ أجتنبها فيما أخاطبُه به، وأفترعُ بِكْراً سِواها فيما أورده عليه، ذهاباً به عن مُضارَعةِ غيره وبنَفسي عن الجَهلِ بقَدرِهِ؛ فأقُول:

إنّ حكمة الله - عزّ وجلّ - بَنَت أمرَ الدّنيا على أنْ يُفدَى الوَلَد بالوالد، ويُعتاضُ بالطّارف من التّالد، ويُستَخلَف من أنواع الحَيَوان بذَراريها، ومن أصنافِ النَّباتِ بثَمَراتِها. ومَوْلانا - أطال الله بقاءه - خارجٌ عن ذلك العُمومِ بفَضلِه، ومُتفَرّدٌ

---

(١) ج: استهلك.

بالخُصوص لنُبلِه، والأحسَنُ فيه - أيّده الله - أنْ يفديـهُ مـن قَبلَـهُ وبَعَـدهُ ليتّصـلَ لَبثـهُ ومَكثُهُ، ويتكامَلُ غَناؤهُ ومَلاؤهُ، فما العتَبُ على حِمـامٍ تَحامـاهُ وتَوَقّـاهُ، وحـادِثٍ تَعَـدّاه وتَخطّاهُ، وزمانٍ نقّاه مُتَحَيّفهُ، ومقدورٍ[1] أعفاهُ مُتَطرِّفهُ. ولم لا نعتدّ في أثناء الفَجيعةِ بـأنْ كانت أسبابُ العَزاء نازلَةً معها، ودَواعي السُّلو مَقرونةً بها .

إنّ هذا الواجب ومهما خَرَج عنه من حَضٍّ على الصَّبْر والكَظْم، وبَعْثٍ على الحِلْم والحَزْم، ونَهْيٍ عن الغمّ والحُزنِ، وصدٍّ عن العَجز والوَهن، وتنبيهٍ على شكر الله عند الرّزيَّة، والشُّكر له عند العَطِيّة، فهو - أطال الله بقاءه - أصلَبُ عُوداً ومَعجماً، وأفخرُ يَنبُوعاً ومَنجماً، من أنْ يستَعمَل ذلك في مُخاطبة أحدٍ من غاشية أبوابه، ومُقتبسي[2] آدابِه، فَضلاً عنه وكلّ جَليلٍ من النّاس يَدقُّ عن إدراك غايته، ويتضاءل عن بُلوغ نِهايته، والسَّلام.

---

(١) ج: مقدار.

(٢) ط: منتسبي.

وكَتَب عن عِزّ الدَّوْلة
إلى أبي تَغْلِب بن ناصر الدَّوْلة
يُعزّيه عن أخيه هبة الله بن ناصر الدَّوْلة[١]

كتابي عن سَلامةٍ أحمَدُ اللهَ عليها، وأسْألُهُ أنْ يَجمعَنا فيها، وعن حُزنٍ مُكمِدٍ، وقَلَقٍ مُزعِجٍ، بما بَلَغني من الحادث بأبي القاسم هبة الله بن ناصِر الدَّوْلة رضي الله عنه، ونَضّرَ وجهَهُ، وأقولُ: حَسبُنا الله ونِعْم الوكيل، تأدُّباً بأدَبه، وتَسْليماً لأمرِه، وانقياداً لِحكمِه، وصبراً على قَضائه وقَدَرِه.

وما أحتاجُ إلى أنْ أدُلّه على وُفور قِسْطِي من هذا الجُرح الممضّ، والخَطْبِ المرْمِض، إذ كان يَعلَمُ مِنّي صَدقَ المشاركة له فيما ساء وسَرّ، وأكونَ معه فيما أزعَجَ وأبْهَج. ولو كانت سِهامُ الزّمان تأتِي من حيث تُتّقى، وفَجائِعُه ممّا يُمكِنُ أنْ تُفتَدى، لبَذَلتُ القُدْرة كُلّها في الذَّبِّ عن ساحة سَيِّدي - أدام الله عِزّه - والحِياطَة لِفنائه، والصِّيانةِ له عن كُلِّ مُلِمٍّ يُؤلِم، وحادِثٍ يَثلِم، ولفَدينا ذلك الأخَ الكريم، والعلْقَ النَّفِيس بما مَلَكَت أيمانُنا، واتَّسعَت له ذات أيدينا، لكنَّ الأمرَ واقِعٌ وقُوعَ الحتْمِ الذي لا بُدَّ منه، ولا مَعدِلَ عنه.

ولئن كانت الرَّزِيّةُ به - رَحِمَه الله - فَتَّت في العَضُدِ، وقَدَحت في الجَلَد، ونكأت القَلْب، ودَلهت اللُّبّ، فلقد طَيَّبَ النّفس له، وسَهَّل مَرامَ العَزاء عنه، أنْ مَضَى شَهيداً سعِيداً، حاجّاً مُعتمِراً، مُتَهجِّداً مُتَنسِّكاً، ساعِياً في سُبُل الخير، سالِكاً لطُرقِ البرِّ، فالحَمدُ لله على أنْ أحسَنَ له الاختيار، وقَبَضهُ قَبض الخيار الأبرار.

---

(١) چستربتي.

وإيّاه أسألُ أنْ يُوسِعُهُ من رَحمَتِهِ، ويُبوّئه أعلَى مَنازِل جَنَّتِه، ويَتولّى سَيِّدي بعَدَهُ بأجزَل الموهِبة، وأفضَل المعوضة، ويكفيه المُهمِّ في نفسِه التي كُلّ المثُوبةِ ما سواها جَلَل، وكُلّ ما تَعَدّاها مُحتَمَل.

ولما كانت الشُّقّةُ بيننا عَرِيضةً، وأسبابُ المُلاقاةِ مُتعذِّرةً، اقتَصَرتُ في التَّعْزيـة عـلى المكاتَبة، وأضَفتُ إليها ما يُؤَدِّيه أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف النَّقيـبُ مُشـافَهَةً، واللهُ العـالم، وقَلـبُ سَـيِّدي - أيّـده الله - الشّـاهِدُ عـلى شِـدّة قَلَقِـي وتحَرُّقِـي، وارتمـاضي وارتِياعِي. ولا أزال على هذا إلى أنْ أعرِفَ خَبرهُ في سُـكُون اللَّوْعـة، وأُنـسِ الوَحْشَـة، والإفاقَة من السَّكْرة، والعَوْدِ إلى العادة. فإنْ رأى سَيِّدي - أدام الله عِـزّه - أنْ يتفضّـل بإعْلامي من ذلك ما أطمئنّ إليه، وأشْكُر اللهَ عليه، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن بَخْتِيار بن مُعِزّ الدَّوْلة
إلى كبيرٍ يُعزّيه بولد[١]

كتابُنا، يا سَيِّدي وعُدّتي – أطال الله بقاءك – من واسِط يوم الجُمُعة للنّصف من رَجَب، والسَّلامةُ لنا شاملة، ونِعَمُ الله لدينا راهنة، والحمد لله حَمْداً لا ينقطع مَداه، حتى يبلغ حقّه ورِضاه.

وبَلَغنا خبرُ مُصابك بالفَتى – رضي الله عنه، وبَرّد مضجعه – الذي اختار الله لك المثوبة عنه على المتعة به؛ فساءَنا ذلك وآلمنا، ونَقَص منّا وثَلَمنا، وأخذت منّا الفجيعةُ به أوفر مآخذها، ونزلت لدينا أجلّ منازلها، وشركناك – أيّدك الله – وساوَيْناك أو قارَبناك في مَضَضها.

ونحن نسأل الله أنْ يتولّاك فيه بالمغفرة والرّحمة، وفي نفسك بالصَّبْر والعِصْمة، ويُعيذك من الرّزايا والمصائب، ويحمي ساحتك من سهام الصُّروف والنَّوائب، ويجعل هذا الماضي فَرَطاً لك صالحاً، وذُخْراً نافعاً، ويمتّعك بما بقي عندك من نِعَمه، وأقرّ عليك من قِسَمه، بمَنّه وقُدْرته.

ونحن – أدام الله عزك – على تطلُّعٍ إلى معرفة خبرك في سُكون لَوْعتك، وبَرْد غُلّتك، وانحسار آثارهما عنك، وتيسّر العزاء والسَّلْوة لك، وأنت – أيّدك الله – وليٌّ بإعْلامنا من ذلك ما نحمد الله على أنْ وفقك له، وأرشدك إليه، إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي. (إلى كبير يعزيه بولد) إضافةٌ منّا للتوضيح.

وكَتَبَ إلى صاحب الجيش في تَعْزية(١)

كتبتُ - أطال الله بقاء سَيِّدنا صاحب الجيش - والعينُ عَبْرى، والكبدُ حَرّى والصبرُ مَسْلوب، والعزاءُ مَغْلوب؛ بالفجيعة في سَيِّدي فلان - نَضّر الله وَجْهه، وكرّم مُنقلبه - التي هدّت الجلَد، وفتّت في العَضُد، وبَسَطت عذر الجزوع، وهَجنت حِلْم الحليم، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، وإلى أمره صائرون، وعند الله نحتسبه غُصْناً ذوى، وشهاباً خَبا، وعِلْقَ مضنّةٍ علقت به أيدي النّوائب، وتخيّرته سهامُ المصائب، وقارنت بين قلوب الأباعد والأقارب، والخواصّ والعوام في التألم لفَقْده، والاستيحاش لمصرعه، والكآبة لوقوع المحذور به. وعزّ عليَّ أنْ يجرى لساني بهذا القَوْل، ويدي بهذا الخطّ(٢).

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص١٤١.

(٢) قال القلقشندي بعد ذلك: إلى آخر المكاتَبة.

وكَتَب إلى الوزير
أبي طاهر مُحمّد بن بَقيّة
يُعزّيه عن أخيه أبي الحسن[١]

وَرَد عَليَّ الخبرُ - أطال الله بقاء سَيِّدنا الوزير - بالحادِث في سَيِّدي أبي الحسن، نَضّر الله وَجْهه، وبَرَّدَ مَضجَعَهُ؛ فبَلَغ مِنّي المبلَغ الذي يَقتَضيه مكاني في جُملَتِه، ومَوضِعي من إنعامِه وصَنيعَتِه، وأعظَمتُ قَدرَ المصاب به، واسترجَعتُ إلى الله تَسليماً لأمرِه، وسَألتُه - جَلّ وَعَلا - أنْ يتَولّاه بأوسَع الرَّحمة، ويَتولَّى سَيِّدنا الوزير بَعدَهُ بأحسَن التَّوفيق والعِصْمة، ويُوَرّثَهُ أعمالَ اللّائذِينَ من كُلِّ قَريبٍ وغَريب، ودانٍ وقاصٍ، ويَجعَل ذلك حُكماً له نافِذاً، وشَرطاً ماضِياً، إذ كان طُولُ بقائهِ، ودَوامُ عَلائه، وتَقَدُّمُ الأكابِر والأصاغِر قَبلَهُ أمراً يَعُمّ نَفعُه مَن مَضَى وغَبَر.

أمّا الماضي فبانصِرافِه في حالِ عِزِّه، وأمّا الغابِرُ فبسُكُونِهِ في ظِلِّه، ويُعيذُهُ من كُلِّ نَقصٍ وثَلْمٍ، ويَقيهِ من كُلِّ جُرحٍ وكَلْم، ويُسَهّل عليه سَبيل السَّلْوَة، ويَعْصمَهُ من لَوائع الفتنة، ويُعَوّضَهُ بالثّواب الذي هو أفضَلُ مَعُوضَةً، وأنفَعُ ذَخِيرَةً، بقُدْرته.

ولو استَطَعتُ - أيّد الله سَيِّدنا الوزير - أنْ أحمِلَ هذه الرَزيَّة عَنهُ، وألقى خَطْبها دونَهُ، أو أنْ أكون في مَوضِعِ كتابي هذا مُشافِهاً بِمُتَضَمّنه ومُؤدّياً للفَرْضِ الواجب له لَفَعَلتُ.

(١) چستربتي.

ولا أزال مُتَطلِّعاً إلى عِلمِ خَبَرِه - أطابهُ اللهُ - حتى يَرد عَلَيَّ من استشعارِه بِشعار حِلْمه، وجَرْيِهِ على عادة حَزْمه، ما أسكُنُ إليه، وأشكُرُ اللهَ عليه، وسَيّدنا الوزير أعلَى عَيناً وما يراهُ في ذلك إنْ شاء الله.

وكَتَب عن الوزير مُحمّد بن بَقيّة إلى أميرٍ يُعزّيه بولد[١]

كتابي – أطال الله بقاء سَيِّدي الأمير – عن سَلامةِ مَوْلانا الأمير عز الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – وسَلامتي، وصَلاح أحوالي في ذراه، والحمد لله ربِّ العالمين، حَمْد الشاكرين المخلصين.

ولما وَرَد – أدام الله عز سَيِّدي الأمير – أبو الفَوارس لشكر بن المَرْزُبان كاتبُ الفارسية – أيّده الله – ذكر خبر الحادث بالفَتى، نَضّر الله وَجْهه، وكرّم مصرعه. ولم يكن تأدّى إلى مَوْلانا الأمير عز الدَّوْلة – أطال الله بقاءه – ولا إليّ قبل مَوْرده؛ فساءني ذلك، وبَلَغ منّي، وأقلقني وأزعجني، وشاركتُ سَيِّدي الأمير فيه بالنيّة الخالصة، والطّوية الصّادقة، وسألتُ الله للماضي العام من عَفْوه وغُفْرانه، والفائض من رَحْمته ورِضْوانه، ولسَيِّدي الأمير التوفيق للصَّبر، والتَّعويض بالأجر، وأنْ يُعيذه من الأرْزاء، ويسهّل سَبيله إلى العزاء، ويحمي فناءه من الأسواء، ويحصّنه عن الشدّة واللّأواء، بجُوده ومَجْده.

ولو كان هذا الأمر ممّا يتّسع لدَفْعه قدر المخلوقين، لسبقتُ النّاس إلى افتدائه[٢] منه، وصيانته عنه. أو ممّا يمكن أنْ يتحمّله أحدٌ عن أحد، لتقدّمتُهم جميعاً إلى احتماله دونه، والوقوف بينه وبينه، ولكنه أمر الله الذي لا دَواء له إلّا التسليم والكَظْم، والتّماسك والحَزْم.

---

(١) چستربتي. (العنوان فيها: وعن مُحمّد بن بَقيّة).

(٢) في الأصل: اقتدائه (مجودة).

ومثله – أدام الله عزه – مَن اهتدى إلى ذلك بادِياً، وصار إليه طائعاً. وقلبي مُعلّقٌ بمعرفة خبره – أطابه الله – فيما بَرّد اللهُ من غُلّته، وسَهل من مَرام سَلْوته. فإنْ رأى سَيِّدي الأمير – أدام الله عزه – أنْ يتقدّم بإعْلامي من ذلك ما أغتبطُ له به، وأسكنُ فيه إليه. فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد
إلى أبي منصور نَصْر بن هارون
يُعزّيه عن بعض حَرَمه[١]

كتابي – أطال الله بقاء سَيِّدنا الأُستاذ الجليل – عن سلامةٍ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين.

وبَلَغني خبرُ المصيبة بشقيقة سَيِّدي أبي الحسن هارون بن سَعيد[٢] – أدام الله عزّه، وألحقها بالصّالح من سَلَفها[٣] – فانزعجتُ لها انزعاجاً ضاعَفَه تَضاعُف حقوق سَيِّدنا الأُستاذ الجليل – أطال الله بقاءه – عليّ، وتظاهُر أياديه لديّ، ودخولي تحت كلّ ما أظلّه، وتحقُّقي بجميع ما خصّه ومسّه. ولو كان ذلك ممّا يُفتدى له أو يُتَّقى، أو يُوجدُ عنه إذا حلّ مَحاد، أو دونه إذا نزل مَحاص، لوقيتُه – أدام الله تمكينه – منه وِقايةَ الناظر المصون بجُفونه، والقلب المكنون بين حُجبه، ولم أستكثر أنْ أبتاع مَسَرّته بمَساءتي، وحمايته بمَرْزئتي، ولكنه الأمر المعْلوم، والقَدَر المحْتوم، والسَّبيل التي آسى الله بين عباده فيها، وأدخلهم جميعاً في عُمومها وشُمولها.

---

(١) چستربتي، طهران. (يعزيه عن بعض حرمه) من: ج فقط.

في عام ٣٦٩هـ / ٩٧٩م انفرد أبو منصور نصر بن هارون النصراني بوزارة عَضُد الدَّوْلة، لأن أصل الوزارة كانت له، ثم شورك بينه وبين المطهر بن عبد الله، فلما مات المطهر تفرد نصر بالوزارة، وكان مقيماً بفارس، فاستخلف له عَضُد الدَّوْلة بحضرته أبا الريان حمد بن مُحمّد. مسكويه، تجارب الأمم، ج٦، ص٤٦١؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٦٨.

(٢) ط: بشقيقة فلان.

(٣) ط: والحقها بسلفها.

ومحلُّ سَيِّدنا – أطال الله بقاءه – يجلّ عن أنْ أغربَ عليه في التَّعْزية، أو أنْ أتجاوز فيها حدَّ الخدْمة، إلّا أنني أقتصرُ من ضُروب القول في ذلك على إذكارِه – أيّده الله – بالنِّعْمة علينا في مَوْلانا الملك شاهَنْشاه السَّيِّد الأجلّ المنصور وليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة، أطال الله بقاءه؛ فإنّها نعمةٌ شريفٌ قدرُها، نفيسٌ خطرُها، مغفورةٌ ذنوبُ الزّمان معها. ومن سَعادة كلّ عَبْدٍ وأمَةٍ له أنْ ينحلوه أعمارهم، ويورّثوه ما وراءهم، وينصرفوا عن الدّنيا في ظلّه، ويُفارقوها في عزّه، وقد وَهَب الله لنا فيه – أطال الله بقاءه – ما هو العِوَض من كلّ فائت، والعزاء عن كلّ هالك.

فإنْ رأى سَيِّدنا الأُستاذ الجليل – أطال الله بقاءه – أنْ يتأمّل ذلك، وما في أثنائه من الفَوائد التّوابع له، ويلهى عمّن فَقَده لا مُسْتَصْغِراً للمُصاب به، ولكن مستكبِراً للنّعمة بعده، ويأمرُ – لا زال أمره عالياً – بإجابتي بما أسكنُ إليه من سُكونه، وأتبعُ فيه سَبيله، فإنني مَوْقوفٌ على طاعته ومساعدته، وكائنٌ معه في كلّ حالٍ يتقلّب به، وتصريفي في عَوارض خِدْمته، وسَوانح أمره ونَهْيه، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب عن أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد في هذا المعنى إلى أبي الحسن هارون بن سَعيد النَّصْراني الكاتب[١]

كتابي – أطال الله بقاء سَيِّدي – وتأدّى إليّ من خبر المصيبة بالشّقيقة الماضية، ورّث الله مَوْلاي عمرَها، وأحسن عزاءه عنها، وأصارها من جِواره إلى أفضل ما أعدّه لأمثالها، وتولّاها بأحسن ما تولّى به أشكالها؛ فنكأ ذلك قلبي، وبَلغ المبلغ الشَّديد مني؛ مُشاركةً لمَوْلاي – أدام الله عزه – ووَحْشةً لما أوحشه، وارتماضاً ممّا أرْمضه، وأخذاً بالنصيب الوافر من كلّ ما ألمّ بساحته، وحلّ بفِنائه، ولا سِيَّما هذا الرّزْء بعينه الذي أنا قريبُ عهدٍ بمثله، وَقيذ من مَسِّ قَرْحه، وإيلام جُرْحِه. وما أعزّيه – أيّده الله – إلّا بما عزّيتُ نَفْسي به من النِّعْمة في مَوْلانا الملك شاهَنْشاه السَّيِّد الأجلّ المنصور وليّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة – أطال الله بقاءه – التي إذا سالَمَتنا الأيّام فيها، وتجاوزت لنا عنها، فجليلُ خطوبها جَلَل، وصائبُ سهامها شوىً، كفانا الله المحذور فيه، وأسعدنا بالتقدُّم قبله.

ومثلُ مَوْلاي – أطال الله بقاءه – عَرَف هذا وراعاه، وشَكَر الله على ما أخذ منه وأعطاه، فما من نَوازل قضائه، ونَوافذ أحكامه إلّا ما يلزمنا أنْ نُسَلّمَ له، ونصبرَ عنده،

---

(١) چستربتي. في الأصل: (وعنه في هذا ....).

(في هذا المعنى) أي في الموضوع السابق ذاته، وهو التعزية بوفاة شقيقة هارون بن سعيد.

وبحَمْده – جلّ وعلا – عليه، ساء أم سَرّ، وأزعج أم أبهج.

ولولا علمي بأنّ له من دِينه وعقله واعِظيْن يُغنيانه عن عِظة غيره، ويقفان به على سَبيل رُشده، لأطلتُ في هذه التَّعْزية، لكني أقتصر منها على الحدّ الذي يقضي الحقّ، ويقيم السُّنّة ، وتقتضيه بيننا الأحوالُ والمُشاركة.

فإنْ رأى مَوْلاي أنْ يتطوّل بإجابة عن هذا الكتاب، أعرفُ منها خبره في السُّكون والسَّلْوة، والإفاقة من اللَّوْعة، والرّجوع إلى ما هو المظنون به، والمحقوق عليه، فَعَل إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى أبي الرَّيّان حَمْد بن مُحمّد يُعزّيه عن أخته وهو يومئذٍ في الحَبْس[1]

جعل الله لسَيِّدنا الأُستاذ الرئيس العمر الطويل، والثواب الجزيل، ورضي عن الماضية رِضاهُ عن الأبرار الأخيار[2]، وأقَرّها من جِواره في أعزّ دار، وأسعد قَرار، وتولّاه بعدها بالعِصْمة والصّبر، ووَفّقه للتّسليم والشّكر.

والله – أطال الله بقاء سَيِّدنا الأُستاذ الرئيس – لو فدى حيٌّ ميتاً، ومؤجَّلٌ معجَّلاً لفديتُ له مَن فَقَده، ووقيتُه ممّا وَجَدِه، ورأيتُ ذاك أقلّ وأيسر ما أستحقّه عليّ وأستوجبه، ولكنه الأمر الذي لا مدفعَ له، والدّاء الذي لا علاجَ منه، إلّا ما جعل الله فيه من التأسّي والتّساوي، ووَعَد عنه من المعوضة والمثوبة.

وفي بقاء مَوْلانا الملك شاهانْشاه السَّيِّد الأجلّ المنصور وَليّ النِّعَم عضد الدَّوْلة وتاج المِلّة – مَدّ الله فيه وأطاله لخَدَمِه ومُؤمِّليه – عزاءٌ عن كلّ هالكٍ، وخَلَفٌ من كلّ فائت.

وما يحلّ لمن نزل منزلة سَيِّدنا الأُستاذ الرئيس – أطال الله بقاءه – منه، وترتّب في رُتبته عنده، أنْ يجزعَ على مأخوذٍ وإنْ جلّ قدرُه، أو أنْ يحزن على مفقودٍ وإنْ مَسَّ سببُه. والله يوفّقه من صالح القول والعمل لما يزيد به إليه قُربى، ولديه زُلفى، ويُمتّعه

---

(١) چستربتي.

(٢) كرر الناسخ هذه العبارة سهواً.

بالأحباب، ويُعيذه فيهم من المصاب، إلّا بمَن استوفى عمرَه، وأحَبَّ أنْ يكون متقدّماً له، وماضياً قبله، بمَنّه.

وكذاك فَعَل الله بمَوْلاي ورئيسي الشيخ أبي عليّ، وأطال بقاءه، وصان هذه السّاحة الشريفة، والعَرَصة الكريمة عن كلّ سوءٍ ومحذور، وحَجَب عنها سِهام المقدور، وعبدُه يقول:

أعيذك أنْ تُراعَ وأنْ تُصابا ... وأنْ تنهلّ عَبْرتُك انسكابا

ووُقِّيتَ الرَّزايا في بَقاءٍ ... طويلٍ لا ترى فيه اكتئابا

وإنْ غالَت شقيقَتك اللّيالي ... فلا عَدِمَتْ صَحيفتُك الثوابا

أسَيِّدَنا تعزَّ وقلْ إذا ما ... عَداك الخَطْبُ صَبْراً واحتسابا

فمثلُك لا يُدَلُّ على صَوابٍ ... ومنك تَعَلّم النّاسُ الصَّوابا

وقد وعَظتْك أُسْوَةُ مَن تولّى ... وقُدْوَةُ مَن ستتبعهُ ذَهابا

أرى الإنسانَ بالدّنيا مُلِمّاً ... يكونُ مُقامهُ فيها اغترابا

يَحُلّ بها حُلول الضَّيْف حتى ... إذا أَلِفَ المنازلَ واستطابا

تناعَبَ حولهُ غِرْبانُ بَيْنٍ ... فأسرع نحو مَبْدئه الإيابا

فما بالُ الغريبِ الدّار إمّا ... ثنى جِيداً إلى الأوْطان يابا

ومُذ حين الوِلادة فالمنايا ... تُنَشِّب مِخْلباً فيه ونابا

تُؤخّره إلى مِيقاتِ يومٍ ... إذا نادى مُناديهِ أجابا

وهل أجلٌ من الآجالِ إلّا ... وقد جَعَل الإلهُ لهُ كتابا

وأدْناها هو المحمودُ منها ... وذاك لأنّه أدْنى حِسابا

ألم تَرَ أنّ أسعدنا وَليدٌ ... صَغيرٌ كان أسْرَعنا انقلابا

على أنّ الـذي فَجَعَتْـك كانـت — مـن الحسـناتِ تـزدادُ احتقابـا
رأتـك بعمرهـا أوْلى فخلّـت — عليـك الشّـيْب منـه والشـبابا
فـزِدْه فـوق عمـرك واستضـفْهُ — تُراثـاً حَـلّ مكسـبُه وطابـا
ولا تجـزَعْ لثاويـةٍ تولّـت — لِتـدخلَ مـن جِنـان الخُلْـدِ بابـا
وحَسْـبُكَ مـن بكـاءٍ أنـتَ منـه — أجـلُّ محلّـةً وأمـدُّ قابـا
وكيـف يجيـز أنْ تَبْكـي بعـيْنٍ — بناظرهـا تـرى الملـكَ اللّبابـا
فلـو يعقـوب أبصـره حَزينـاً — ليوسُـفَ مـا اسْـتجاز الانتحابـا
بـوُدّي أنْ أراهُ وأنّ أهـلي — بـأجمعهم يحُلّـون التُّرابـا
إذاً لَـحَلَتْ كـؤوسُ المـوتِ فـيهم — وإنْ هـي ضُـمِّنت بالثَّكْـلِ صـابا
إذا مـا الـرّأسُ عـاش لنـا سَـلياً — فـما قَـدرُ المصـيبة بالـذُّنابا

وكَتَب إلى أبي القاسم المطَهَّر بن عبدالله وزير عضد الدَّوْلة وتاج المِلّة يُعزّيه عن خالةٍ له[١]

أعاذ الله سَيِّدي الأُستاذ من النّوائب، وأطال بقاءه محفوفاً بالمواهب، وأسعد هذه الكريمة المتوفّاة بمَقْدَمِها عليه، وبارك لها من جِواره، فيما انقلبت إليه، ورحمها ورضي عنها، وكرّم مصرعها، وبرّد مضجعها، ووَرَّث الأُستاذ عُمرها، وأجزل له المعوضة عنها، وسَمِع فيه دعائها، وأدام إمتاعه بأعزّته حتى يسأمهم، ويسهّل عليه مَرام السَّلْوة لهم، ويكون هو المعزَّى عنهم، والباقي بعدهم، بقُدْرته.

وخادِمُه يقول:

سُؤالنا الله أنْ يبقي الوزير لنا ... في أرْغد العَيْش بعد السَّيِّد العَضُدِ

فما تخطّتهما الأحداثُ عادلةً ... فما يحلّ لنا حزنٌ على أحدِ

(١) چستربتي.

وكَتَب إلى أبي الفَرَج مُحمّد بن العَبّاس بن فَسانْجِس يُعزّيه عن ولدٍ وُلدَ له وهو في بعض أسْفاره ومات قبلَ أنْ يراه[١]

لله - أطال الله بقاء سَيِّدنا - أقدارٌ تَرِدُ في أوقاتِها، وقَضايا تجري إلى غاياتِها، لا يُـرَدُّ شيءٌ منها عن شأوِه ومَداه، ولا يُصدُّ دون مطلبِه ومَنْحاه، فهي كالسّهام التـي تثبُـت في الأغراض، ولا ترجع بالاعتراض[٢] والناسُ فيهـا بـين عطيّـةٍ[٣] يجـبُ الشـكرُ عليهـا، ورَزيّةٍ يوثَقُ بالعِوَض عنها، يمضيهما[٤] عليهم الدّهر[٥] إلّا خرج من لَوْنَيْه[٦]، المتعاقَـب في مَلَوَيْه، عن تدبيرٍ من الله الكريم وحكمة[٧]، ورأفةٍ بالعباد ورحمة[٨].

ومَن[٩] عرف ذاك معرفةَ سَيِّدنا لم يغمِطْ مع الزيادة، ولم يقنِطْ من[١٠] النَّقيصة،

---

(١) چستربتي، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. العنـوان في ط: (ولـه إلى مُحمّد بن العَبّاس يعزيه عن ولد مات قبل أن يراه). وأورد بعضها الثعـالبي، يتيمـة الـدهر، ج٢، ص٢٩٨.

(٢) (ولا ترجع بالاعتراض) من: ط.

(٣) من ط، وفي سائر الأصول الخطية: غبطة.

(٤) ج، ر، ع: بمضيهما، ف: يمضيه.

(٥) من: ط.

(٦) ر، ج: لوثته.

(٧) ساقطة في ط.

(٨) ر: ورأفة (مكررة).

(٩) ر: وقد.

(١٠) ف: مع.

وأمنَ أنْ يستخفّ[١] أحدُ الطرفَيْنِ حِلْمَه، ويستزلُّ أحدُ الأمرَيْن حزمَه، ولم يدعْ أنْ يوطّنَ نفسَه على النّازلة قبلَ نزولها[٢]، ويأخذَ الأُهبةَ للحادثة قبلَ حُلولِها، وأنْ يجاوزَ المنحةَ بالشكر، ويساورَ المحنةَ بالصبر، ليتنجَّزَ[٣] فائدةَ الأولى عاجلاً، ويستثمرَ عائدةَ الأخرى آجلًا.

وقد نَفَذ من قضاء الله تعالى في المولود الجليل قدْراً، الحديث سنّاً، ما أرْمَضَ وأمضّ، وأقلقَ وأقضّ، ومَسَّني من التألُّم له ما يحِقُّ على مثلي ممّن توافت أيادي سَيِّدنا إليه، ووَجَبت مشاركتُه في الملمِّ عليه، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، وعند الله نحتسبُه غصناً ذَوى، وشهاباً خَبا، وفرعاً دلَّ عليه أصلُه، وخطِّيًّا أنبتَه وَشيجُه. وإيّاه نسألُ أنْ يجعلَه لسَيِّدنا فَرَطاً صالحاً، وذُخراً عتيداً، وأنْ ينفعَه به يومَ الدِّين، وحيث لا ينفعُ إلّا مثلُه من البنين، بجُوده ومجده، وحَوْلِه وطَوْله[٤].

ولئن[٥] كان المصابُ به عظيماً، والحادثُ فيه أليماً، لقد أحسن اللهُ إليه وإلى سَيِّدنا فيه، أمّا إليه فبأنْ نزّهَه بالاخترام عن مقارفة الآثام، وصانه بالاحتضار عن مُلابسة الأوزار؛ فورَد دُنياهُ رَشيداً، وانصرف عنها سَعيداً، نقِيَّ الصّحيفة من سَوادِ الذّنوب، بريءَ السّاحة من دَرَن العُيوب، لم تُدنِّسْه الجرائمُ والجرائر، ولم تَعلَقْ به الصّغائرُ والكبائر، قد رفع اللهُ عنه دقيقَ الحساب، وأسهَمَ له مع أهل الثواب، وألْحَقه بالفاضلين الصِّديقين في المعاد، وبوَّأهُ منازلَهم من غير سَعْيٍ ولا اجتهاد.

---

(١) ف: (أمن من أن يكون يستخف). وفي كل الأصول باستثناء ط: وأمن أن يكون يستخف.

(٢) ط: حلولها.

(٣) ف: فيتنجز.

(٤) (ولا ينفع .... طوله) ساقط في ف.

(٥) ف: وقد.

وأمّا إلى سَيِّدنا – أيّده الله – فيه، فبأنّه – جلّ وعزّ – لما اختار له ذلك، قبضَهُ قبلَ رؤيته إيّاه، التي تكونُ معها الرقّة، ومُعاينته التي تتضاعفُ بها الحُرقة، وحماهُ من فتنة مُقاربته، ليرفعَه عن جَزَع مُفارقته، حتى خفَّ عنه ثِقلُ اللَّوْعة، وسهُل عليه مرامُ السَّلْوة، واجتمع له بالأولاد السّادة الباقينَ المتعةُ لدُنياه، ومن هذا الواحد الماضي الذخيرةُ لأُخراه، وقد قيل – أيّد الله سَيِّدنا –:

إنْ تسلم الجِلّة فالسَّخلُ هدر[1]

وعزيزٌ عليّ أنْ أقولَ قول المُهوِّن للخَطْبِ في فَقْدِه، وألّا أوفيَ التفجُّعَ عليه واجبَ حقّه، وهو له سُلالةٌ، ومنه بَضْعة، ولكنْ تلك طريقُ التَّسلية، وسبيلُ التَّعْزية، والمنهجُ المسلوكُ في مخاطبة مثلِه ممّن لا يدفعُ منفعةَ الذكرى وإنْ أغناه الاستبصار، ولا يأبى وُرودَ الموعظةِ وإنْ كفاهُ الاعتبار، واللهُ يقي سَيِّدنا المصائب، ويُعيذُه من النوائب، ويرعاه بعينِه التي لا تنام، ويجعلُه في حِماه الذي لا يُرام، ويُبقيه موفوراً غير منتقَص، ومهنَّأً غيرَ منغَّص[2]، ويقدِّمُنا معشرَ أوليائه إلى السُّوء أمامَه، وإلى المحذورِ قبلَه، ويبدأني من بينهم في هذه الدّعوة، إذ كنتُ أراها من أسْعَد أحوالي، وأعتدُّها من أكبر آمالي[3]، وحسبُنا الله وحدَه.

---

(١) مثلٌ يُضرب في التَّسلية ببقاء الكبير عن فناء الصغير. الزمخشري، المستقصى، ج٢، ص٣٢٤.

(٢) (ومهنأ غير منغص) ساقط في ط.

(٣) ف، ر، ع: أحوالي (مكررة).

وكَتَب إلى أبي الفَرَج مُحمّد بن العَبّاس بن فَسانْجِس وهو وَزير يُعزّيه عن ابنةٍ كُبرى[١]

مَصائبُ الدّنيا - أطال الله بقاء الوزير - أبوابٌ تُوصِلُ إلى الثّواب، كُلّما طرق منها حادِثٌ جَليل حَصَلَ بإزائه صُنْعٌ جَميل[٢] وإذا كان الله - سُبحانه - قد تَوَلّى الوزير بإنافة المحَلّ، وإشادَة الذكر، وإسْباغ النِّعَم، وتوفّر القِسَم، ولم يخلِه من اعتراض ذلك بحَوادِثَ تتطرّف ولا تُوغل، ونَوائب تَتحيّف ولا تجحف، فمَعلومٌ أنّه - جلّ ثناؤه - إنّما يريدُ له اتّصالَ السَّعادة في دار القَرار بالسَّعادة في هذه الدّار؛ ليجتَمع له حَظّا[٣] الدِّين والدّنيا، وفائدَة الآخِرَة والأولى، وهذه حالٌ تَقتضِي منه[٤] شُكرَ الله تعالى على ما يَقضيه، والصّبر لما يُمضيه، والقَول بما[٥] يُرضيه، والثقة بالخيرَة المُستَنِيرة[٦] من وَرائه، والمصلَحَة المنطَويَة[٧] في أثنائه.

---

(١) چستربتي، طهران. العنوان في ج: وكتب إليه وهو وزير ....، وفي ط: وله يعزيه عن بنت. وقد أورد البلوي نص هذه الرسالة تحت عنوان: ومن إنشاء أبي إسحاق الصابي عن نفسه إلى مُحمّد بن العَبّاس بن فجانجس (كذا خطأ) في وزارته يعزيه عن ابنة كانت أكبر ولده. العطاء الجزيل.

(٢) ج: جزيل.

(٣) ساقطة في ط.

(٤) ط: تقتضيه.

(٥) (يمضيه والقول بها) ساقط في ط.

(٦) ط: المستقسرة.

(٧) ط: المطوية.

وبَلَغني من وَفاة المَتوفّاة من الوَلَد - بَرِّد الله مَضجعَها، وكَرَّمَ مَصْرَعَها، وبلَّ ثَراها، ونَقَع صداها - ما أخذتُ فيه بأوفَر أنصباء العَبيد والخَدَم، وأوفى سِهام الأتباع والحَشَم، تألماً لما ثَلَمَهُ، وانزعاجاً لما طَرقه، واختصاصاً به في كُلِّ أمره، وكوناً تحت ظلِّه على كُلّ حال.

والوزير - أطال الله بقاءهُ - أحَقُّ مَن تَعَزَّى عمّا أُخِذَ منهُ، وسَلمَ لقَضاء الله - عزّ وجلّ - فيه، واغتَبط بما بَقِيَ عليه، واعتدّ بالموهوب منه؛ فإنّ الأيّام وإنْ كانت فجَعَتهُ من هذه الماضية - رحِمَها الله - بمَن يُوحِشُ الخدورَ، فقد تجافَت له من ذُكُور الوَلَد - أيّدهم اللهُ - عمَّن يُونِسُ الصُّدُور، وأعطتهُ السُّلْطان القاهِر، والعزّ الظّاهِر[١] في عاجلتِه، ووَعَدَتهُ بالفَوز العَظيم، والمنح الجسيم[٢] في آجلَتِه. وفي تأمُّل ذلك ما خفَّضَ مَحملَ الحادِثَة، وسَهّل سَبيل الإفاقة.

وأسألُ اللهَ أنْ يُسعدَ تلك الرّاحِلَة بما تَقدمُ عليه، ويبهجَها بما تُفضي إليه، ويُوَّفيها ما أعَدّهُ لأمثالِها من إمائه الصّالحات الطّاهِرات، اللّاتي نَشَأنَ على النَّزاهَة، ودَرَجْنَ على الدِّيانة، فلم تَعْلَق بِهِنَّ الأدْناس، ولم تَمَسْهُنّ الأدران، ولم يَستَمِعْنَ ويَعين، ويَقُلْنَ ويَفْعَلْن إلّا ما يُوجب عند الله لهنَّ زُلفَى، ويَزيدهُنّ من رضاهُ قُربَى. وأنْ يُعيذَ الوزير من الرّزايا، ويُمَتّعَهُ بالعَطايا، ويجعَلَهُ مَمنُوحاً غيرَ مُمتَحَن، ومَلْمُوماً غَير مُشعَثٍ، ومَزِيداً غَيرَ مُنتقص، ومُهنّأً غَيرَ مُنغّص، بقُدْرته.

---

(١) ط: المتظاهر.

(٢) (والمنح الجسيم) ساقط في ط.

وكَتَب من الحبسِ
عند وَفاةِ أبي الفَرَج مُحمّد بن العَبّاس بن فَسانْجِس
إلى وَلَدِه وأخيه أيّدهم الله يُعَزِّيهم عَنهُ[1]

يَعُزّ عَلَيّ أنْ يُصيب الدَّهْرُ سادَتي - أطال اللهُ بَقائِهِم - بالجَلَل من نَوائبه، فكيف بالجُلّى وبالصّغرَى من حَوادِثه، فَضلاً عن الكُبرى، وبالله ما يَزِيدُ عَليَّ زائدٌ في الفَجيعة بسَيِّدنا الماضي، نَضّر الله وَجْهه، وَأحسنَ مُنقَلَبَهُ. ولقد ساوَيتُ أو قارَبتُ سادَتي - أيّدهم الله - في الحَسرَةِ عليه، والوَحشَة له، لأنّ الزّمان سَلَبنا منه بَقيّةً ليس مثلها، وذَخِيرةً لا عِوَضَ عنها، خَيراً فائضاً، وبِرّاً غامِراً، ودِيناً قَوِيماً، وباطِناً سَليماً، وسَعْياً في جَميلٍ، ومَعونةً على مُلِمٍّ، ورِعايَةً لِحَقٍّ، ومُحافَظَةً على ذِمامٍ، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، تَسليماً لما قَدَّرَ وقَضَى، ورِضاً بما حَتم وأمضَى، وأسأل اللهَ له الرَّحمَة والمغفِرَة، ولكم يا سادَتي التّوفيق والعِصْمَة.

ولئن كُنتُ على حالٍ يَنفسِحُ عُذرُ مَن كان على مِثلِها في الإخلالِ بالحُقوق، كما تَنفَسِح المعاذِيرُ في الإخلال بحَقّه، إنّي لأرَى هذا الحقّ خاصاً لي، وبادياً بي وبما لا يَسَعُ القعُودُ في قضائه عن أقصَى ما تَبلغُهُ القُدْرة، وتَنتَهي إليه الاستِطاعَةُ. ولو كانت لي قَدمٌ ساعِيةٌ لما كانت عنها يَدٌ كاتِبةٌ، ولكنَّ المكاتَبة جُهدُ مَن

(١) چستربتي، طهران والعنوان فيها: (وله وهو محبوس). وضبط ناسخ ج الفاء في: فُسَانجس بالضم.

قَصُـرَت خُطوتُـه، وقَلصَـت بَسـطتَهُ. ورُبَّ حـاضرٍ لم تحضُـرُ نيّتـه، وغائـبٍ لم تغِـب مُشاركتَهُ.

والله الشّاهِد أنّي كتبتُ والعَينُ عَـبرَى، والكَبِـدُ حَـرَّى، والـنَّفسُ حَزينـةٌ، والهِمَّـةُ مُستكينةٌ. وفي ثِقَة سادَتي - أيّدهم اللهُ - منّـي بـذلك مـا أغنـاني عـن الإطالَـة بـذِكرِهِ، والإكثارِ بِالدَّلالةِ عليه، واللهُ يَجبُر مُصابَهُم، ويوَفِّرُ ثَـوابَهُم، ويُحسِـنُ عَـزائهم، والخَلَـف عليهم بمَنِّه، وهو حَسْبي ونِعْم الوكيل.

وكَتَب إلى أبي مُحمّد عليّ بن العَبّاس بن فَسانْجِس يُعزّيه عن والدته[١]

بَلَغني خبرُ الحادث بالكبيرة رضي الله عنها؛ فشركتُ سَيِّدي – أطال الله بقاءه – في التألّم به، والارتياع له، وجريتُ مجرى خَواصّه في الأخذ بأوفر حظّ، وأوفى قسم منه، وسألتُ الله أنْ يتولّاها بأفضل ما أعدّه لأمثالها من عَفْوٍ وغُفْران، ورَحْمةٍ ورِضْوان، ويتولّاه بعدها بإيناس الوَحْشة، وتَسْكين اللَّوْعة، وإشعار الصَّبْر، وتوفير الأَجْر.

وهذه فُرقةٌ، سَيِّدي – أدام الله عزه – يعلم أنها محفوظةٌ على كلّ شملٍ منتظم، ومكتوبةٌ على كل حبلٍ متّصل.

وقديماً نعبتْ على النّاس غربانُها، وحدت ....[٢] بهم. وإذا تأمل – أيّده الله – موردها عليه وعلى الماضية – نَضّر الله وَجْهها – عرف أنه أجمل الموارد، وأنّ الله قد أحسن فيه الصَّنيع. وخار للجميع آمالها، فبأن وقاها – جلّ وعزّ – فيه محذورها، وأنالها من التقدُّم قبله سؤلها ومأمولها، وأمّا له فبالثواب الذي يُلقيه غداً بهجته، ويُحمده عاقبته، ويُجزل به معوضته، وأُشهدُ الله أنني لو قدرتُ أنْ أقيه من رُزْئه هذا، ومن كلّ سُوءٍ يُلِمُّ بساحته، ومكروهٍ يطور بفنائه بجميع الذي بقّته عليّ يدُ الزّمان السّالبة، وسهامه الصّائبة، لبذلتُ ذاك بَذْلَ الطَّيِّب النفس، المنشرح الصّدْر، الكائن معه فيما ساء

(١) چستربتي. (في الأصل: فُسَانجش).

(٢) خرم بمقدار كلمة.

وسَرّ، المتحقِّق به فيما نفع وضرّ، ولكنه الأمر الذي لا بُدّ منه، ولا معْدِل عنه، ولا فدية تردُّه، ولا قدرة تصدُّه، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون.

ولما تعذّرتْ عليّ التعزيةُ مُشافهةً، اقتصرتُ على هذه المكاتَبة، ووثقتُ بأنّ سَيِّدي – أيّده الله – يعرف صورتي، وينعم ببَسْط عُذري، ويسكن إلى ما عندي من خالص مُوالاته، وصادق مُصافاته. والله يُجيب فيه صالح ما قدّمتُ من دعائي، ويُبلّغني له أقصى أملي ورجائي، ويرينيه ونَفْسي تحت ظلّ السَّلامة والعافية، وفي ضمن الحراسة والوقاية، ويُصلح لنا الآراء المتشعّثة، ويعطف علينا القلوب النابية، حتى يعفو ما نحن مجتمعان فيه من هذه القُروح التي ينكأ بعضُها بعضاً، والكُلوم التي يتلو لاحقٌ منها سابقاً، ويجعل ما مضى منها تهذيباً وتمحيصاً، والعُقبى بعده استنقاذاً وتخليصاً، بقُدْرته.

وإلى أنْ أملك التصرّف، وأقدر على الحضور، فسَيِّدي – أدام الله عزه – وليّ ما يراه في التقدُّم بإعْلامي أخبارَه أطابها الله، وأحواله حسّنها الله، وما وفّقه الله له من التّسليم لأمره، والانقياد لحكمه، والصّبر لما يُمضيه، والقول بما يُرضيه، إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى قاضي القُضاة
أبي مُحمّد عُبيدالله بن أحمد بن مَعْروف
يُعزّيه عن خليفته بالجانبِ الشرقيّ
أبي سَعيد الحسن بن عبدالله بن المرْزُبان السِّيرافيّ (١)

تعزيةُ المصطنعينَ عن صَنائعِهم - أطال الله بقاء قاضي القُضاة - وإنْ تباعدت بهم المناسب، وفرَّقت بينهم المناصب، واجبةٌ كوُجوبها فيمَن جمعتْهمُ الأواصر، وأطَّت بهم الأرحامُ الشَّواجر. بل لو قلتُ: إنها في أولئك ألزمُ منها في هؤلاء لم أُبعِد من الحقّ، إذ كانت باللُّحمة ربّما شابَها التبايُن في العِصْمة، والتنافسُ عند تقارُب المنازل، والتحاسدُ على تراجُح الحظوظ، أو غيرُها من الأمور التي تُحيل المصائبَ نِعَماً، والرّزايا قِسَماً. فأمّا فَقْدُ الغارس غريستَه، والمصطفي عقيلتَه، فشديدُ الوقْع، أليمُ المسّ.

وبلَغَني من خبر المصاب بأبي سَعيد الحسن بن عبدالله ما نَكأ قلبي، وأحرَّ صَدْري، واستنزلَ دَمْعي، وغلَبَ صَبْري؛ لمكانِه من قاضي القُضاة - أطال الله بقاءه - أولاً، ثم لفضلِه في نفسه ثانياً، ثم لحقوقِه عليّ وعلى وَلَدي ثالثاً، فيا له من عِلْقٍ مَضَنّةٍ فقَدْناه، وإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، ثباتاً على ما قضى، وتَسليماً لما أمضى.

---

(١) چستربتي، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (بالجانب ساقطة في ك) (بعدها في الأصول: رضي الله عنه).

القاضي السيرافي توفي سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م. وكان فقيهاً نحوياً مهندساً منطقياً. له كتاب (أخبار النحويين البصريين) وكتاب (شرح كتاب سيبويه). القفطي، إنباه الرواة، ج١، ص٣٤٨؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج١، ص٥٠٧.

ولئن كنتُ خاصّةً ممّن لم يسعدْ كلَّ السَّعادة بالاستكثارِ منه والأخذِ عنه، فقد كنتُ مشتملاً على الأُنس ببقائه، وإخلادِ النّفس إلى أنّه معي في زمانٍ ومكان، ومنّـي بمَسْـمَعٍ وعِيان، وعنـدَ الله نحتسـبُه، وإيّـاه نسـألُ تحقيـقَ رجائنـا في الرحْمـةِ لـه، فـما أعـرفُ في استحقاقِه إيّاها مخالفاً، ولا عن ثِقل ميزانِه في الخير دافعاً.

وقيل لي: إنّ قاضيَ القُضاة - أدام الله عِزّه - شرَّفه ميّتاً بالفَجيعةِ به، كما شرَّفه حيّاً بالصَّنيعة له، وجلس للعزاء عنه كجُلوسِه عمّن قرُب نسبُه منه، فاستكرمتُ ذلك ولم أستغربْه، واستحسنتُه ولم أستبدعْه، وكتبتُ هذه الرُّقعةَ قاضياً بها هذا الحقّ، وداخلاً مع مَن مسَّه القَرْح، وأمضَّه الجَرْح.

وأسألُ اللهَ أنْ يرحمَ ذلك الشّيخ الأوحد، والعَلَمَ المفرَد، ويوجبَ لقاضي القُضاة عن فعلِه الجميل الذي فَعَله ومجلسِه النبيل الذي جلسَه، أفضلَ ما أوجبَه لأئمة المناقب، وشارعي سُبُل المحاسن، ويُبلغَه أبعدَ الآمال، ويعيذَه من أنْ تُلمَّ به المصائبُ، إلّا بمَن طالت متعتُه به، وأحبَّ وأحببْنا أنْ يكون الباقيَ بعدَه والمُعزَّى[1] عنه، بقُدْرته.

(١) ساقطة في ف.

وكَتَب إلى قاضي القُضاة
أبي مُحمّد عُبيدالله بن أحمد بن مَعْروف
يُعزّيه عن زوجته ابنة أبي الحسين بن أبي عُمر[١]

انصرفتُ عن تعزية قاضي القُضاة - أطال الله بقاءه - وأنا وَقيذٌ ممّا خلَّفتُه عليه، من الارتياع الذي رأيتُه عند كلِّ غايةٍ منه، أسترجعُه عنها، وأستوقفُه عندها، منازعاً إلى أنْ يتجاوزَها، ويوفيَ عليها، ذهاباً مع جَواذبِ اللَّوْعة، وإباءً على عواطف السَّلْوة، واستكانةً لهذه الرَّزيّة التي لا أهوِّنُ خطبَها، ولا أستلينُ صعبَها، إلّا إذا قستُها بحزمِه الوافي، وحِلْمِه الرّاسي، فإنّها وإنْ كانت عظيمةً فما نزلتْ إلّا بعظيم، ولا حلَّتْ إلّا بعِقْوةِ كريم، حقيقٍ بأنْ يُصابرَ المُلمّات، ويدافعَ[٢] الحادثات، ويتنزَّهَ عن موقف أهل الضّعف والخلَل، ومقام ذوي الخَوَر والفشل. وزاد في غمّي وتقسُّمي، وارتماضي وتألّمي، السّرُّ الذي استودَعنِيه، والأمرُ الذي شاوَرني فيه، ممّا هم به من اعتزال الدّنيا والاستعفاء من العمل، والإفراج عن كلِّ ما زاد على الزّاد المُبلِغ، والقُوتِ المُقنع، وحذفِ ما سواهما من فُضول المعيشة، وشُعب النِّعْمة.

وقد كنتُ عند خروجِه - أيّده الله - إليّ بذلك، أجيبُه مُجمِلاً منبئاً على الترجُّح

---

(١) چستربتي، طهران، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. العنوان في ط: وله إليه يعزيه عن زوجته. العنوان في ف: وكتب إليه أيضاً يعزيه عن زوجته. واعتماداً على كلمة (أيضاً) أضفنا اسم القاضي كاملاً الذي لم يرد في الأصول إلا بالكنية فقط. وقد تقدّم ذكره في ص١٦٨.

(٢) ف: يصابر (مكررة).

والتوقّف، والوَعْد بالتأمّل والتصفُّح، لا أنّ الرأيَ في الوقت عزَبَ عنّي، ولا تعذّر صحيحُه وصريحُه عليّ، لكنني وجدتُ الخطبَ الذي تفاوضْناهُ كبيراً خطيراً، والمجلسَ الذي جمَعْناهُ غاصًّا حافلاً، فأحببتُ أنْ يكون ما أستوفيهِ من الجواب مكاتبةً لا مخاطبةً، ورَويّةً لا بديهة، طيًّا لذلك عمّن عسى أنْ يُحسَّ به من الحاضرين، واحتياطاً له ولنفسي فيما أصدَعُ به من القول المبين.

فأولُ ما أُوردُه على قاضي القُضاة طُرَفٌ من التَّسلية له عن هذه المصيبة التي هي علّةُ الخاطر الذي خطر، وسببُ الفِكْر الذي اعتُبر، ولستُ أقدرُ في ذلك على أنْ أُطرقَه بعجيبةٍ لم يعرفْها، ولا أنْ أُفيدَه فائدةً لم يحفظْها؛ لأنّ إحاطتَه بالفضائل مُغنيةٌ له عن قولِ كلِّ قائل، بل المغزى مذاكرتُه ومناقشتُه، وتجديدُ الإفاضة معه فيما يُكسبُه الأُنسة ويذهبُ عنه الوَحشة، فإنه - أدام الله عِزّه - إلى ذلك أحوجُ منه إلى استماع تلك النُّدب والمناجاةِ التي كانت قريبةً من سمعِه، وزائدةً في إيلام قلبِه، ومثَلُ النّادب المؤبِّن أيّد الله قاضيَ القُضاة - مثَلُ مَن ينكَأُ الجرحَ ويقرفُه، ومثَلُ المعزِّي المسلِّي مثَلُ مَن يأسُوهُ ويدملُه.

فإنْ عارضَني مُعارضٌ فقال: إنّ في إسبالِ العَبْرة، وإطلاق الزّفرة، والإجهاشِ بالبكاء والنَّشيج، والإعلال[1] للصّياح والضَّجيج، تَنْفيساً من بُرَحاء القلوب، وتخفيفاً من غلّة الصدور، فهنا غلطٌ واضح، وخطأٌ فاحش، إذ كان بمنزلة حكِّ الجَرَب الذي تَشفى عاجلتُه وتستشري آجلتُه، هذا إلى ما فيه من إحباطِ الأجر، وتسخُّط قضاءِ

(١) ف: الإعلان.

الربّ، ومضارعة النساء، والمصادفينَ من الرِّجال[1]. ونحن بحَمْد الله عن ذاك بأبعدِ منزلة، وأعلى محَلّة، معرفةً بالأخبار ودروساً للآثار، وتجربةً للأمور، وانقياداً للمقدور، وذهاباً عن أنْ يستخفَّنا الطربُ المجزِع، والطربُ المُفرِح.

ومعلومٌ - أيّد الله قاضيَ القُضاة - أنّ الدّنيا تجمعُ لتُفرِّق، وتؤلِّف لتُشتِّت، وتعطي لتأخذ، وتُعيرُ لترتجع، وإنّا فيها على أوفازٍ ومجاز، وحذارٍ وانتظار، فإذا كان ذلك عَقْداً لا نفسَخُه، وشَرْعاً لا ننسَخُه، وعَزْماً لا ننثني عنه، وحتماً لا بدَّ منه، ففي تقدُّم الزوجة بعلَها خِيَرةٌ لها ونعمةٌ عليها. ألا يرضى قاضي القُضاة - أدام الله عِزّه - أنّه وإيّاها عبدانِ من عبيد الله اجتمعا بأمرِه، وافترقا بإذنِه، وأنّها قد سَعِدتْ بأنِ انصَرَفتْ مُلتحِفةً بظلِّه، ومشتملةً بعزِّه، وأنّ الحظَّ لها في أنْ لم تكن الباقيةَ بعدَه والشاكيةَ فقْدَه؛ فكانت حينئذٍ مصيبتُها في تأخُّرها عنه أعظمَ من مصيبتها هذه في تقدُّمها إيّاه، ولا سِيَّما وهي أضعفُ عن حملِ الرَّزايا منه، وهو أثبتُ لها وأخصَفُ مِرّة، وأنها - رضي اللهُ عنها - لوِ كانت الباقيةَ بعدَه، واللهُ يعيذُه ويعيذُنا من ذلك فيه، لما كان لها قرينٌ إلّا الوَحدة، ولا منزلٌ إلّا التُّربة، وهو بحَمْد الله راجعٌ بعدَها إلى خلاف ذلك كلِّه.

فليتأمَّلْ قاضي القُضاة أيّده الله هذا الأمرَ تأمُّلَ الرَّجل الجَزْل والبازلِ الفَحْل، وليذكرْ قولَ البُحتري لبعض بني حُميد الطُّوسيِّ في تعزيةٍ بأنثى[2]:

ولَعمري ما العجزُ عندي إلّا ... أنْ تبيتَ الرِّجال تبكي النساءَ[3]

(١) (والمصادفين من الرِّجال) ساقط في ف.

(٢) يقصد أبا نهشل بن حُميد، وقد عزّاه عن ابنةٍ له.

(٣) ديوانه، ج١، ص٦.

وليجعلْ بينه وبين هذه اللَّوْعةِ الغالية، والدَّمْعةِ السّاكبة حائلاً من فَضْلِه، وحاجزاً من عقلِه، ودافعاً من دِينه، ومانعاً من نَفْسِه ويَقينه[1]، ولْيعلمْ غيرَ مُعلَّمٍ أنّه لم يجدْ مندوحةً عن هذه القرينة المفقودة غفر اللهُ لها وأحسن عَزاءه عنها، فسيجمعُهما[2] - بعد أنْ يتملّأ العمُرَ الطَّويل ويُحرزَ الأجرَ الجزيل - مقرٌّ هما به أسعد، وعَيْشُهما به أرغد، وليس من الصّواب استعمالُ ما ينغِّصُ هذه الحياةَ الأخرى.

وأما بعد - أيّد الله قاضيَ القُضاة - فإنّي وجدتُ التبرِّيَ من أعمالِه لا يمكنُه ولا يَسُوغُ له، من جهات، أولُها: أنّ موضعَه - لا خلا منه - محتاجٌ إليه، والخاصّة والعامّة ضَنينةٌ به، شَحيحةٌ عليه، والدّنيا بمَن فيها فقراءُ منه إلى خِلال كثيرة، وهي لأهلها كالأقواتِ التي لا بدَّ منها، ولا حياةَ إلّا بها، فمنها: العلمُ الجمّ، والغنى الفَخْم، والحُكمُ العَدْل، والمنطقُ الفَصْل. ثم ما يختصُّ به في نَفْسِه من صُحبة مَوْلانا أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - التي قد تمكَّنت شُعَبُها، وثبتت أواخيها، وصارت كالإرثِ الموروث، والفرض المفروض، والسّببِ اللّازم، والعَرَض غير المُفارق. ومن خدمة سَيِّدنا الملك السَّيِّد الأجلّ المنصور وليِّ النِّعَم عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلّة - أطال الله بقاءه - فإنها الخدمةُ الشريفة، والمرتبةُ المُنيفة، والمنالُ الذي ليس بعدَه مصعَدٌ لصاعد، ولا مرقًى لماجد. وقد أظلَّنا منه - أدام الله تأييدَه - ظلُّ ما رأينا خيراً أيّام عَرِينا منه، ولا يجوزُ لنا إذ أعادَه اللهُ إلينا أنْ نتخلّى منه، وتجدَّدت له علينا أيادٍ عظام، ومِننٌ جِسام، وصنائعُ نَواصع، وأنوارٌ سَواطع، أفمِن من أجْل رزيّةٍ رُزئناها قد ضَمِنَ اللهُ لنا ثوابَها، وجبَرَ مُصابَها، نُغاضب

(١) من: ف.

(٢) ف: فيستجمعها.

الدّنيا ونُهاجرُها في أحسن دُهورِها، وأنضرِ عُصورِها، وقد أضْللناها قديماً في أسوإ حالاتِها، وأقطع مُنكراتِها؟ ! أعوذُ بالله من أنْ يقعَ لقاضي القُضاة ذاك، وأنْ أحتاجَ في كشف الرأي من لُبسِه وتجريدِه من غِشِّه إلى أكثرَ من هذا القدر، فإنْ كان يظنُّ أنه إذا فعل ما هم به على أفعال الخير أشدُّ قدرة، ومنها أشدُّ تمكُّناً، فليس الأمرُ عندي كذلك؛ لأنّ هذا القولَ إنّما يطَّردُ لمن أحسَّ من دينِه بوَهْي، ومن أمانته بنُقصان، ومن مَساعيه بفَساد، ومن مَكاسبه بخَبَث، ومن مَطاعمِه بوَخَم.

ولَعمري، إنّ مَن تلك طرائقُه وخلائقُه، حرِيٌّ بأنْ يتركَ العملَ ترْكَ التّائب الرّاجع، المُقلع النّازع، فأمّا مَن كان بمثابتِه - أطال الله بقاءه - في إحياءِ الحقّ ومَعُونة الخَلق، وإنصاف المظلوم ونُصرة المهضوم، وإنهاض المَهيض وجَبْر الكَسير، واستنقاذ مَن مسَّه الزّمان ببُوس، ورماه بيوم عَبُوس، وبذَلَ جاهَه ورأيه لمن استشارَ به، وسفارتَه لمن استسْفَر به، وشفاعتَه لمن استشفَع به، فلا أقول: إنه إذا ترَكَ ذلك بمنزلة مَن فاتَه الأجر، بل بمنزلةِ مَن تعرَّض للإثم، واللهُ يُحاشيهِ من أنْ يُلقَى بهذا الجواب إلّا على سَبيل المبالغةِ والإفصاح، والتّناهي في الإيضاح، وما عندي أنّه يبقى بعدَما كتبتُ به موضعُ معارضةٍ فأجيبَ عنها، ولا زيادةٍ أنفصلُ منها، والسَّلام.

وكَتَب إلى أبي الفَتْح عبد الملك بن مُحمّد الرّازي يُعزّيه عن الشيخ أبي عبدالله البصري[١]

مُصيبتنا – أطال الله بقاء الشيخ – بالشيخ الفاضل المرشد – رضي الله عنه – عامّة لأهل النَّظر والعُقول جميعاً، فما أعلمُ مُوافقاً ولا مُخالفاً إلّا مفجوعاً به، محزوناً عليه، فاقداً منه ما تفقده العينُ من نُورها، والسّاعدُ من بَنانها، تولّاه الله بعَفْوه وغُفرانه، وجنّته ورضوانه، وأجناه ثمرات مَساعيه، وبوّأه درجات مَعاليه، بقُدْرته.

ولئن كانت الخلّة بمَصْرعه – رحمه الله – عظيمةً، لقد سَدَّها الله من الشيخ – أيّده الله – بأصْلح خَلَفٍ لأصْلح سَلَف، وأنْجب فرعٍ لأكرم أصْل، حرس الله النِّعْمة عليه وعلى إخوانه فيه.

ولو ملكتُ اختياري لما قنعتُ بأنْ تنوبَ في التَّعْزية بهذا الخَطْب الجليل يَدي عن قَدَمي، ولا خَطّي عن خُطاي. لكنه – أدام الله عزه – يعرف العذر، ويُنعم ببسطه، ويحسب لي بتفضّله ما يحسبه للحاضر عنده، والجالس معه.

وللشيخ – أدام الله تأييده – عُلُوّ الرأي في ذلك، وفي تعريفي خبره في السُّكون بعد الرَّوْعة، والتَّسليم لحادِث الرَّزية، والرّجوع إلى ما يوجبه الدِّين والعقل دون ما يدعو إليه الجَزَع والحزن، إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي، طهران والعنوان فيها: وله.

نسخة جوابٍ على تعزية الشّريف الرَّضيّ له بوفاة أكبر أبنائه سنان بن إبراهيم الصّابي سنة ثمانين وثلاثمائة[1]

وَصَلت الرقعة – أطال الله بقاء سَيِّدي الشريف الجليل، وأدام عزَّهُ وتأييدَه ونعمتَه وكفايتَه، وحِراستَه ووِقايته – بالتفضُّل الذي زاد وأوفى، والقَوْلِ الذي نَفَع وشَفَى، والتَّعْزية التي غمرني إحسانُها، وبَهَرني استحسانُها، فصادفَتْ مني قلباً عَليلاً، وخاطراً كليلاً، ونَفْساً قد أثخنتها الرزيَّة، وولتها المصيبة، وأحالتها المحنَةُ عمّا كانت عليه من جَلَدٍ وقُوَّةٍ وتماسُك ومعرفة، ومَيَّلْتُ بين أنْ أُسَلِّم لها ولا أُجاريها، وبينَ أنْ أطلبَ ما يُشاكِلُها ويُوازيها؛ فوجدتُ التسليمَ أخْصَرَ وأقْصر، والاعترافَ أوْلى وأجْدر. ولو جريتُ في مَيْدانِها وطالبتُ نَفْسي بجَوابِ مثلها، لما شَقَقْتُ غُبارَها، ولا قاربتُ بجُهدي عَفْوَها.

وأنا أعيذُ سَيِّدي الشريفَ الجليلَ بالله من عينِ الكمال، وأسألُهُ أنْ يحفظَ على زَمانِنا ما له فيه من الجمال، ويُنْهِضَني خاصةً بما طَوَّقَنيه من مِنَنِه، ووالاه عندي من نِعَمِه، وأودعنيه من ضُروبِ بِرِّه وتَطَوُّلِه. وأنْ يرزقني فُسْحةً في المدّة، وزيادةً في القُوّة والنَّجْدة، حتى أبلغَ ما يستحقُّه عليّ من الشكر قَوْلاً، ووُسْعاً وسَعْياً، والله يفعلُ ذلك بجُودِهِ ومَجْده وفَضْله وطَوْلِه.

وإذا أفقتُ من السَّكْرة، وخرجتُ من الغَمْرة، بدأتُ بقَصْد حضرَتِه الجليلة، ومُشاهدَةِ غُرّته الشريفةِ النَّبيلة، ثم واظبتُ على قَضاءِ حَقّه الذي قد لَزمني، وتأدية فَرْضه الذي قد استرقَّني وارْتهنني، إنْ شاء الله، وهو حَسبُنا ونِعْم الوكيل.

---

(١) رسائل الصابي والشريف الرضي، ص٧١.

وكَتَب من واسِط
إلى عَمِّه أبي الحسن ثابِت بن إبراهيم بن زَهْرون
يُعزّيه عن ابنه أبي الخطّاب المفَضّل بن ثابِت
كَتبها له في دار عِزّ الدَّوْلة بواسِط[1]

عَزِيزٌ عليَّ يا سَيِّدي أنْ مُدَّ لك ولي في العُمْرِ حتى نَتكاتبَ بالتَّعْزية عَمَّن أمّلْنا أنْ يكون وارِثَ أعمارنا، والباقي بعدنا أبي الخطّاب، نَضّر الله وَجْهه، وأحسَنَ مُنقَلَبهُ، وصَفَحَ ورَضِيَ عنه، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون.

فما أعظمها من مُصِيبةٍ، وأمَضّها من نائبةٍ، والله الشّاهِدُ أنّني منذ ثَلاثٍ لا أطعَمُ غِذاء ولا غَمْضاً، ولا أعرِفُ قَراراً ولا هُدوءاً. ولقد دَخَل إليّ العُزوفُ فما خاطَبتُ أكثَرَهُم، ولا عَقَلتُ بطَوائفَ منهم، لاستيلاء ما استَولَى عَليَّ ممّا أبكَى عَيني، وأنكَأَ قَلبي، ونَغَّصَ عَيشي، ودَلَه عَقلي. وأقُولُ: حَسْبي اللهُ وَحدَهُ.

وممّا يُضاعِفُ هذه الرَّزِيَّة، ويَزيدُ فيها ما أتصَوّرَه من حالِكَ، وأتخيّله من ارتماضِكَ، إلّا أنْ يكون اللهُ قد عَصَمك وأرشَدَك، وهَداكَ وبَصَّرَك. ويا لَيتَني حَضَرتُ فكنتُ أجعَل جُلوسي معك، وأقرنُ وِسادي إلى وِسادِك، وأقضي الحقّ بتَسْلِيتك وتعْزيتكَ، وإنْ كُنت إلى ذلك أحوَج. ولكنَّ الأيّام تُصَرَّفُنا في القُربِ والبُعْدِ، والتَّقدِيم والتَّأخير على حُكْمٍ لا نَملِكُ تَغييرَهُ، ولا نَقدِرُ على الهرَبِ منه، ولا نَجِدُ بُدّاً عن الصَّبْر له، والانقياد معه.

وكان من مَوْلانا الأمير - أطال الله بقاءهُ - عند مَعرِفَتِه بالحالِ في إنْفاذ الرُّسلِ

(١) چستربتي. (وفيها: المفضل بن إبراهيم).

تِباعاً إليّ، وبالتّفضُّلِ بالتّعْزية عَليّ، وفي ذِكْرِكَ بالتّحَنُّنِ عليك، والتّوَجُّع لك ما يُشبِه كَرَمُه، ونِعَمةَ الله عنده وعِندنا فيه. ولولا أنّ خِدمَتَهُ كُلَّها مَنوطَةٌ بي، أنّه لا يَسَعُني القُعُود عنها، ولا يُمكنُني التخلُّص منها، لما فارقتُ تَعزيتي، والانقِطاعَ إلى حَسرَتي وعَوِيلي وحُزني وجَزعي، ولَتَركتُ كُلّ شيءٍ وأصعَدتُ إليك، وتَوفَّرتُ عليك. وفي عِلمك بِالعُذرِ ما كَفانِي أنْ أوُضِّحَهُ وأشْرَحَهُ، وبالله ما لي يَدٌ تَخُطُّ إلّا بِكُلفَةٍ، ولا نَفَسٌ يَترَدَّدُ إلّا على غُصَّةٍ،، ولا عَينٌ تَنظُرُ إلّا من وَراءِ قَذىً وَأذىً، وكآبةٍ وشجىً، ولا أُفَرِّقُ بين هذه الحال التي لَحِقَتنِي فيه - رَحِمَهُ اللهُ - وبينها، لَو لَحِقَتنِي في أخَوَيه وعَبدَيْكَ: أبي سَعيد وأبي عَليٍّ[1] أبقاهُما الله.

وقد عَلِمتَ يا مَوْلاي أنّ لِلعَدَمِ وُجِدنا، وللفَناءِ خُلِقنا، وأنّ الموتَ مَحتُومٌ علينا، والانقِراضَ عامٌ لنا، وأنّ أولادنا لا يَبقونَ بَعدَنا، ولا يتأخَّر لَحاقَهُم بنا. وقد وَهَبَ اللهُ من ثَوابِه، وطِيب ذِكرِهِ، ونَجابةِ وَلَدِهِ، ومَحاسِن جَميع أمرِهِ، ما فيه لله نِعَمٌ مَشْكورة، وآلاءٌ مَنْشورَة. وغَيْرُ ذَاهِبٍ عليك أنّ القَلَقَ لا ينفع، والهلَع لا يُنجع، وأنّا بأجمَعِنا سائرون على إثْرِهِ، وجارُونَ إلى غايتِه. فإنْ رَأيتَ يا سَيِّدي أنْ تَصبِرَ صَبرَ الشُّيُوخِ الأجلاد الأنجاد، الحُكَماء العُلَماء، الموقِنينَ المؤمنين، وتُعرّفَني خَبَرَكَ وخَبر تلك البَقيّة النَّفيسة أعني أبا الحسن أستَودِعُهُ الله، وتجمَعَ شَملَ مخلفيه، وتَعتاض بي وبعَبيدك التّابِعين لي، فما منّا إلّا مَن هو وَلَدُك وعَبدُكَ وطَوعُكَ، وتَحتَسب هذا الواحِد الذي استَأثَرَ اللهُ به عند مَن هو خَلَقَهُ، وقَسَمَ رِزْقَهُ وعُمرَهُ، وتُكلّفَنِي أمرَكَ ونَهيك، وتَنُوطَ بِي كُلَّ مُهمٍّ لك، وتُحمّلَني أثقالَكَ كُلَّها، وتستَروح إلى أنْ تُلقي عَليَّ جَميعَها، فَعَلتَ إنْ شاء الله.

---

(١) يقصد الصابي ولديه: أبي سعيد سنان، وأبي عليّ المحسّن.

وكَتَبَ إلى أبي العَلاء صاعد بن ثابت النَّصْرانيّ الكاتب يُعزّيه عن ابنه أبي الفَرَج العَلاء بن صاعد بن ثابت[١]

قد رَفَعك اللهُ – عزّ وجلّ – عن أنْ تَستزلَّ الأحداثُ حِلْمَك واهِبةً وسالِبةً، أو تَستقلّ حَزمَكَ رائشةً وهائضةً، وأغناك راجحُ العلم والدِّين، وخالصُ البَصيرة واليقين، عن التَّسلية في النَّوائب، والتَّعْزية في المصائب؛ لأنّ المخاطِبَ لك بهما إنّما يُوردُ عليك ما يُستَفادُ منك، ويَرُدّ إليك ما يُؤخَذ عَنك. ولولا إقامةُ السُّنّة، والذَّهابُ مع العادَة، لأجَرَيتُ ذلك مجَرى ما يُستَغنَى عنه خاصّة، وحالي مثل حالكَ في الوَحْشَة للعِلْق الخَطير، والوَلد الأثير أبي الفَرَج[٢]، تولّاه اللهُ بأفضَلِ ما أعَدَّهُ لأمثالِه من رَأفَةٍ ورَحْمة، وزُلْفى وغِبْطة[٣]. وعَزيزٌ عَليّ أنْ أنعاهُ إليك، وأُجَدّدَ الفَجيعَة بذكرِه عليك، لكنّهُ أمرُ الله سُبحانه الذي لا بُدّ من الصَّبْر له، والشكر[٤] عليه، والرِّضا به، والانتهاءِ إليه. وأسألُ اللهَ أنْ يُروّيَ صَداهُ، ويُزكّي ثَراه، ويُبَرّدَ مَضجَعَهُ، ويُكرِّمَ مَصرَعهُ[٥]، ويجعَلَ لَوْعَة مُفارَقتِهِ أنفعَ لك من فتنَةِ مُقارَبته[٦]، وحَسْرَةَ الرّزيّةِ فيه أجدَى عليك من حَيرة الإمتاع به، حتى تَلقاهُ وهو لعَينكَ قُرَّةٌ باقيةٌ لا فانية، ولقَلبكَ مَسَرّةٌ خالِدةٌ لا

(١) چستربتي، طهران. العنوان في ط: (وله إلى أبي العلاء صاعد بن ثابت يعزيه عن ابنه).
(٢) ط: فلان.
(٣) (من رأفة........ وغبطة) ساقط في ط.
(٤) (له، والشكر) ساقط في ط.
(٥) (يروي........ مصرعه) ساقط في ط.
(٦) ج: مقاسَرَتنه.

بائدَةٌ، ويُبارِكَ لك في الغُصْن النّاضر، والنّجم الزّاهر، أبي منصور فَتاه، ويُحييكَ حتى تَراهُ، سادّاً مكانَه، وجابراً مُصابهُ، ومغنياً غَناءه، وقائماً مقامَهُ، بقُدْرته[1].

وأقولُ بعد ذلك إنّهُ إذا حَسُنَ أنْ يمضي السَّلَف، ويخلفُه الخَلَف في كُلّ ما خَلَق اللهُ وبرأ، وأنشأ وذَرأ، فالأحسَنُ فيك أنْ يَفديَكَ مَن جاء بعْدكَ، كما فَداكَ مَن مَضَى قَبْلَك، وأنْ يُدافعَ اللهُ عَنكَ ما أمكَنَ الدّفاع، ويُمتِّعُكَ بالبَقاءِ الطويل[2] ما اتّصَلَ الإمتاع، ويصرفَ النَّوائب عَنكَ ما كان لها منصرفٌ[3] إلى غَيركَ، إخراجاً لك عن ذلك العُموم، وإفراداً بما تَستَحقّهُ من هذا الخصوص.

وتَطَلُّعي شديدٌ إلى مَعرفَةِ خَبَركَ - أطابهُ الله - فيما ثابَ إليك من لُبّكَ، وادّرعته من شِعار صَبرِكَ، وأطَعتَهُ من دَواعي الرَّشادِ والصَّواب، وعَصَيتهُ من بَواعِثِ الجَزَع والاكتئاب. فإنْ رأيتَ أنْ تُعَرّفَني من ذلك ما أسكُنُ إليه، وأشرُكَكَ في النِّعْمة الموهوبة فيه، فَعَلتَ إنْ شاء الله.

---

(١) ساقطة في ط.

(٢) من: ط.

(٣) ط: مصرفاً.

وكَتَب إلى يحيى وهِلِّيل ابنَيْ قُرَّة الصّابئيْن تعزيةً عن وَلَدٍ ليحيى وكان إذ ذاك في إثر المصاب بأبي الخطّاب[1]

كتابي عن سَلامة نَفْسٍ مَشُوبةٍ بنوائبَ ما تغِبُّ ولا تنقضي، وشدائدَ ما تكُفُّ ولا تنثني، ونحمدُ اللهَ حمدَ الشّاكرين، ونتنجَّزُه ثواب الصّابرين.

ومن أمسِّ ذلك وأوجعِه، وأفضِّه وأقطعِه: ما بلَغَني نزولُه بكما، وحلولُه بساحتِكما، من المصابِ بأبي عليّ فتاكُما، نوَّر اللهُ ضريحَه، وقدَّس روحَه، وجعل إلى الصّالحينَ الأخيار منتقله. فبالله لقد آلَمَني ذلك وثلَمَني، وأزْعجَني ورَوَّعني، وساويتُكما في الوَحْشة والحسْرة، وكدتُ أتجاوزُكما في التَّمَلْمُل والحُرقة ونقول: حسبُنا الله ونِعْم الوكيل، صابرينَ لما أنفَذَ وأمضى، راضينَ بما حَكَم وقضى، وعندَه - عزّ وجلّ - نحتسبُ منّا الماضي والغابر، والأولَ والآخر، وإيّاه نسألُ أنْ يعُمَّنا برحمته أحياءً وأمواتاً، ويتولّانا بعصمتِه جماعةً وأشتاتاً.

وأجدُ الزّمان قد والَى بين اخترام الشُّبان، وجعل ذلك كالسُّنّة المؤكَّدة، والمحجّة المنتهَجة، فما ندري أيَّ جُروحِه أمضّ، ولا أدري[2] أيَّ قُروحِه أرْمض، ولا نراهُ يسمحُ لنا بعطيّةٍ إلّا ارتهنَنا فيها برَزيّة، ولا يُولِينا يداً مشكورةً إلّا أردفَها بأخرى محذورةً، فإنِ استَهدف الإنسانُ الولدَ تعرَّض فيه للثّكْل، وإنِ استأخَر في طلبِه عرّضَه

---

(١) چستربتي، فيض الله، راغب باشا، رئيس الكتّاب، عاشر أفندي. (هِلِّيل) واضحة في الأصول الخطية.

(٢) من: ج.

لليُتْم[١]، وإنْ قصُر عُمُره انصَرفَ عن الدّنيا أحوجَ ما كان إليه أهلُه، وإنْ طال بقاؤه تغصَّص بالمتقدِّمين إلى الآخرة قبلَه، وما أحسَنَ وأسدَّ ما نظَم هذا المعنى أبو فراس الحارثُ بن سَعيد بن حَمْدان إذ يقول :

المرءُ رَهْنُ مصائبٍ ما تنقضي ... حتى يُوارَى جسمُه في رَمْسِهِ

فمؤجَّلٌ يلقى الرّدى في أهلِهِ ... ومعجَّلٌ يلقى الرّدى في نَفْسِهِ[٢]

ولو كان هذا الحِمامُ يبدأُ في إدارة كأسِه بالأسلاف، ويتجافى[٣] عن الأخلاف، لَخَفَّت أعباؤه، بل طاب لقاؤه، لكنّه قد يُوافينا ويبعد، ويهتصرُ منّا ويحتصب[٤]، فالحازمُ مَن لم يفرَحْ بمواهبه، ولم يتضاءلْ لنوائبه.

ولم نرَ شيئاً من ذلك كلِّه إلّا كالخيال المُلمّ، والفيءِ المنتقل، والعارية المرتجَعة، والسّحابةِ المُقشِعة. ومعلومٌ - أدام الله عزَّكما - أنّ الموردَ واحد، وسيّانِ فيه الولدُ والوالد، وقد جعَلَنا اللهُ - معشرَ أهل الإيمان به - على ثقةٍ من عِوضٍ وثوابٍ إليهما مصيرُنا، ونعيمٍ خالدٍ فيه ملتقانا ومجتمعُنا، والأوْلى بكما - أيّدكما الله - ألّا تتسخَّطا ما حدَث بكما، ولا تتّهِما مُحدثه فيكما، ولا تنزِعا شعارَ الربّانيين[٥] ولا تُفارقا سِيما الصّالحين؛ فإنّكما بحمد الله ومَن يَليكُما من أهل بيتِكما الأُسوةُ الحَسَنة، والقدوةُ المتَّبعة، والأُسرةُ الجليلة، والزُّمرةُ الكريمة.

---

(١) من: ج.

(٢) ديوان أبي فراس، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) ك: يجتاز.

(٤) ج: يحتطب، ف: يحصب.

(٥) ج: الديانين.

وما أُعزِّيكما يشهدُ الله إلّا والعزاءُ لي مُعجز، ولا أُسلِّيكُما إلّا والسُّلوُّ عندي مُعوِز، لاشتراكنا في الأفراح والأحزان، وتعادُل أقساطِنا من الزّيادة والنقصان، ولأننا أهلُ شريعةٍ قد ضاقت حلقتُها، وخَمَدت[1]، جمرتُها، فليس تسهُلُ علينا الفجائعُ سهولتَها على ذوي الكثرة، ولا تندملُ نُدوبُها فينا اندمالَهَا من أُولي القوة. وعلى أنّ

أُمَّ الصّقْر مِقلاةٌ نَزُورُ[2]

وما قلّ عددٌ أنتما منه، ولا ضعُف فَضْلٌ فيكما معدِنُه. فإنْ رأيتُما أنْ تُعرِّفاني خبرَكما فيما وهَبَ اللهُ لكما من خَفِّ اللَّوْعة، وسُكونِ الرَّوعة، والإفاقةِ من السَّكْرة، والرّجوع إلى العادة، فعلتُما إنْ شاء الله.

---

(١) ج: خمردت.

(٢) عجزُ بيتٍ للعباس بن مرداس أو لكثير عَزّة، صدرُه: بغاث الطير أكثرها فراخاً.
ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٧٢ (قلت)، ص١١٩ (بغث).

وكَتَب يُعَزِّي أبا عَليٍّ الحسن بن سِنانٍ الصّابي عن أخيه أبي سَعيد جابر[١]

كتابي عن سَلامةٍ أحمدُ اللهَ عليها، وعن مُشاركةٍ لك - أيّدك الله - في المصيبة بأبي سَعيد جابر، رضي الله عَنه، وأخْذِ بأوفَرِ قِسْطٍ منها معك، فلقد فُجِعتُ به كما فُجِعتَ، وارتمَضْتُ لمصرَعِهِ كما ارتمَضْتَ، وأوحَشَني فَقْدُ مِثلِه مع ما جَمَع فيه من الدِّين والخير والحريّة والفَضل، والتوفّر على إخوانِه وعليَّ خاصَّة من بينهم، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، وعند الله نَحتَسِبُ نُفوسَنا التي لم تُخلَق إلّا للفَناءِ، وإيّاه نَسألُ التَّوفِيق لما أرضاهُ وأسعَدَ بالمنقَلَبِ إليه، وأزلَفَ يومَ العَرض عليه، وأنْ يَرحَمَ هذا الأخَ أتمَّ رَحْمة، ويُبوِّئه من مَقارِ الأبرارِ الأخيارِ أعلَى رُتبةٍ، ويَتولّاكَ بعَدَهُ بالعِصْمَة والصّبر، وتَوْفية المثُوبَةِ والأجر.

وكذاك فَعَل اللهُ بأبي الحسين فَتاة وأيّده وعَضَد بَعضَكُما ببَعضٍ، فإنّ كتابي هذا يَجمَعُكما. ولو قَدرتُ على أنْ أقضِيَ الحقّ بالمشافَهة لما اقتَصَرت فيه على المكاتَبة، ولا شَكَّ في أنّك - أيّدك الله - قد عُدتَ إلى السُّكون، وعَملتَ ما يَعملُهُ اللَّبيبُ الحصيف، وذَهبتَ بِنفسِكَ عن مُخالَفَةِ الجزَع، والإفراط في الهلَع، وقَلبي مُعَلَّقٌ بمَعرِفَةِ خَبَرِكَ وخَبَرَ أبي الحسين أعزَّهُ الله وسلّم عليه. وأنتَ - أيّدك الله - وَليّ ما تراهُ في إعْلامي من ذلك ما أسكُنُ إليه، والانبسَاط إليَّ في عَوارض حاجاتِكَ، وإيناسِي بدُرورِ مُكاتَباتِكَ إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي.

وكَتَب عن ابنه
أبي سَعيد سنان[1]

كتابي عن سَلامةٍ، والحمْدُ لله ربِّ العالمين.

ووَصَل كِتابُكَ - أيّدك الله - بالتَّعْزية عن القَرينةِ رَضِيَ اللهُ عنها، وفَهِمتُه وجلَّ عندي مَوقِعُه، وعزَّ أني مُستَودِعُه، وأرشَدَتني آدابُه، وبَصّرتنِي مَواعِظَهُ، وجَدّدتُ شُكراً لله على الرَّزيَّة، كما أُجَدِّدُ شُكرَهُ على العَطيَّة، ورَضِيتُ قَضاءهُ فيما ساءَني كما أرضاهُ فيما أرضاهُ فيما سَرَّني، واعتَدَّدتُ بمِنَنكَ ومَبَرّتك، ومُراعاتِكَ ومُشارَكَتك، وسَألتُ اللهَ أنْ يُعيذُكَ من أنْ تُصابَ إلّا بمَن الخِيَرة لك في البقاءِ بَعدَهُ وله في التَّقدُّم قَبلكَ، وأنْ يُمتِّعُكَ بِنفسِكَ وأعِزَّتَكَ، ويَحرُسَكَ في حَوزَتكَ، وضُرُوبِ النِّعَم الموهُوبة لك، بقُدْرته.

ولو شَرَحتُ لك - أدام الله عزّكَ - ما مَسّني من هذه اللَّوْعة، وبَرَح بي من هذه اللّذعة، خاصّة مع مُشاهَدَةِ مَن كانت الماضيةُ - رَضِيَ اللهُ عنها - تَحضُنهُم وترأمُهُم، من وَلَدي في الوحدَةِ بعدَها، والوحشَة لها، والحنين إليها، والحسرَةِ عَلَيها، لأطنَبتُ وأورَدتُ عليك ما المشاركة تَقتضيك التّألُمُ له، والارتماض مِنهُ، لكنني أُرفهُّكَ عن طُولِ الشّكوَى، وأعزك بجَنبِي هذه البلوَى، وأرغَبُ إلى الله في رَحمةِ مَوتانا، وعِصمَة أحيائنا، وأنْ يخصّكَ بالعمُر المدِيد، في الجَدِّ السَّعيد، والعَيش الرَّغيد، بقُدْرته.

وتلا هذه المصيبة ما لَعلَّكَ يا سَيِّدي قد عَرَفتَهُ آنِفاً من مُصيبتنا بأبي زَكريّا يحيى بن سِنان صِهرنا رَحِمَهُ اللهُ، فإنّه مَضَى وخَلّفَ حُرمَةً هي منّا بَضْعةٌ هو لها ولنا بِوساطتها سلالَةٌ، فَشَفعَ الجُرحُ جُرحاً، ونكأ القَرحُ قَرحاً، هذا في أضعافِ نَكبة أخيكَ وسَيِّدي

---

(١) چستربتي.

الشّيخ - أدام الله تأييدَه - التي لو انفرَدت عن هذه الحواشي والإضافاتِ لكانت مِنّا بالِغةً مُمضّةً، ولنا مُوجعَةً مُرمِضَةً. وأقُولُ: حَسْبي اللهُ تَوكُّلاً عليه، وتَفويضاً إليه، وتسليماً لأمرِهِ، وصَبراً لما قَضاهُ وأمضاهُ.

فأمّا كتابكَ - أدام الله عِزّك - الذي ذَكَرتَ أنّكَ أنفذْتَهُ على يَدِ أبي الحسن أسَدِ بن كُلَيبٍ الحَرّاني - أعَزَّه الله - فقد كان وَصَل من يَدهِ، وامتَثَلتُ فيه مُتَضَمَّنَهُ، وقَضيتُ حاجَتهُ، وأوجَبتُ حَقَّهُ، وحَقّ شَفاعَتِكَ له.

وأمّا أخبارُ سَيِّدي الشّيخ - أدام الله عِزّه - فواقِعَةٌ على ما قد ذَكَرَهُ - أيّده الله - لك في كِتابٍ كان ابتَدَأك به، ثم في جَوابٍ له عن جَوابه، ونحن على ظَنٍّ حَسَنٍ، وأملٍ يُنتَظَر، وثقَةٍ بالله، وبكرم الكَنَف الجليل الذي يَضُمُّنا، والرّأي الجميل الذي يُظلّنا. ومهما حَقّقَهُ اللهُ من ذلك طالعتُكَ به مُخبِراً بل مُبشِّراً إنْ شاء الله.

وإنْ رأيتَ - أدام الله عِزّك - أنْ تَتَفضَّلَ بمُكاتبتي عند نَشاطِكَ بأخبارِكَ وأحْوالك، وأمرِكَ ونَهْيك، وحاجاتِكَ ومُهمّاتِكَ، فقد وَجَدنا إلى المواصَلة فِعلاً ما لم نكُن نَستطيعُه إلّا اعتقاداً إنْ شاء الله.

نُسْخة رُقعةٍ

إلى أبي الحسين عليّ بن زُرَيق النَّصْراني الكاتِب[١]

بلَغَني من خَبَرِ وَفاةِ الإبنة التي يَخُصُّ أمرُها فُلاناً - أيّده الله، وَرَحِمَها - ما نكأ قَلبِي، وأقذَى عَيني، وبَلغَ كُل مَبلَغٍ مِنّي، مُشاركة لك، وكوناً معك ومعه، إذ كان ما يَمسّكُما يَمُسّني، ويكادُ يكون بادياً بي، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون، وبه لائذون، وأحسَنَ اللهُ عَزاءكَ، وجَبرَ مُصابك، ووَفّر ثوابكَ، وألهَمَكَ التّسليمَ والسَّلْوَة، وصَرَفَكَ عن الحُزنِ واللَّوْعة، وأطالَ عُمرَك وأعمارِ الجماعةِ، وأيّدها وكَفاها، وصانها ووَقاها.

ولو مَلَكتُ اختياري، ما تَأَخَّرتُ عنكَ، ولئن تَاخَّرتُ بقَدَمِي إنِّي لَحَاضِرٌ بنيَّتي ومُشارَكَتي. فإنْ رَأيتَ أنْ تُعَرِّفَني خَبَرَكَ - أطَابهُ الله - في السُّكون، وإنْ كان يَحتاجُ إلى مدىً طَويلٍ، ومُعالجة كَظمٍ شَدِيدٍ، يَصعُبُ إلّا على مِثلكَ من أهلِ الدِّينِ والفَضل، فَعَلتَ إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي.

وَكَتَب إلى أبي الحسين عليّ بن زُرَيق النَّصْراني الكاتب[١]

بلَغَني من الحادث بأبي الحسن عَليّ بن الحسن بن البُهلول[٢] - رَحِمَهُ الله - ما آلم قَلبي، وفتَّ في عَضُدِي، وكدَّرَ عَيشي، وأضعَفَ نَفْسي، وضاعفَ اسْتيحاشي من دَهْري، وزاد في نَوائبه عندي، فَلله دَرّهُ من عِلْق مضَنّةٍ مَضَى، وشِهاب صناعةٍ خَبا، وقَريع دَهْرٍ لم يُخلِّف - حاشاكَ - مِثلَهُ، ولا يُعتاضُ، لولاك - منه. وكُنت أُحبُّ ألّا أسمَعَ ذلك ولا أراهُ، أو أنْ أحضُرَ مَعَكُم الحقّ إذ حَكَمَ اللهُ به وقَضاهُ، وعُذرِي في التّأخُّرِ واضِحٌ، ويقيني في المُشاركة صادِقٌ.

ورُقعتي هذه تجمَعُكَ يا سَيِّدي وجَماعَة سادتي أبي الفَضْل وأبي الفَرَج والفتيان - أدام الله عزّكُم، وجَبَرَ مُصابكم، وأحسَنَ عزاءكم، والخلَفَ عَلَيكُم - وكَتَبتُها يَشهَدُ اللهُ بيَدٍ لا تَكادُ تَجري، وخاطِرٍ لا يَستَقِلُّ بأنْ يُملي، تَفَجُّعاً وتَوجُّعاً، وَأسىً وتَأسّفاً، وارتماضاً وتحرُّقاً، وَبُلوغاً إلى مثل غايَتكُم من الحُزنِ عليه رَضِيَ الله عنه، والاستيحاشِ له بَرَّدَ اللهُ مَضجِعَهُ؛ فَلئن كان قَريبكُم باللُّحمَة، فلقد كان قَرِيبي بالمَوَدّة والأُخوَّة، والمشاكَلة والمشارَكة.

وما في أيدينا - أَيّدكُم اللهُ - من نُفوسِنا، ولا من أحيائنا شيءٌ، والأمر لله الواحِد العَدل. وأصلحُ ما عَمِلناهُ عند الشَّدائد والمصائب هو الاستِرجاعُ والتّماسُكُ، وتَركُ السّرَفِ في الجزَع والهلَع، والاستِرحام لموتانا، وتزويدهم الصّلاة والصَّدَقة، والقول

---

(١) چستربتي والعنوان فيها: (وكتب إليه أيضاً)، طهران والعنوان فيها: (وله).

(٢) أرجّح أن يكون صاحب كتاب (الدلائل)، انظر قائمة المصادر والمراجع، كتاب رقم (٢٤). وهو المذكور في ج٢، ص٦١٨.

والفِعل الواقِعَين من الله بالرِّضا، العائدين برَحمَتِهِ لمن بَقيَ ومَضَى. وأنتُم أهدَى إلى ذلك من أنْ أُرشدَكُم، وأوثَقُ في أديانِكُم وأحلامِكُم من أنْ أعِظَكُم؛ ولذلك اقتَصَرتُ على هذا القَدرِ من التَّعْزية التي ذَهَبتُ فيها إلى إقامة السُّنَّة، وقَضاء الحقوقِ الواجِبة، وأنا على تَطلُّعٍ شَدِيدٍ إلى مَعرِفةِ خَبَرِك وأخبارِ إخوَتي - أدام الله عِزَّكُم - في هذه المُلمَّةِ المُؤلِمَة، حتى أعرِفَ جُملَة رُجوعِكُم إلى السَّلْوَة التي لا بُدَّ منها ولو إلى مُدّة. وأنتَ - أدام الله عِزّك - وَليُّ ما تُراهُ في الإجابة بما أسكُن إليه، وأكون مُتَّبِعاً لك، ومُقْتدِياً بك فيه، إنْ شاء الله.

وكَتَب إلى أبي منصور
ابن أخيه[١]

بَلَغني من وفاة الوالدة، رضي الله عنها، ووَرَّثك عمرَها، ما شاركتُكَ فيه، وأخذتُ معك بأوفرِ نَصيبٍ مِنه، وأحْلِفُ بالله لقد نكأتْ قَلبي، وأحَرَّتْ صَدرِي، وأقذَتْ عَينيّ، خاصّة وقد مَضَتْ وهي مُنزَعِجَةٌ لِمحنَتي[٢]، ومُتَألِّمَةٌ لِطُولِ محَبسي، ومُعَلَّقَةُ القَلْب بأمري وأمرك المنوطَةِ بي، وما نَملِكُ يا بُنيّ - أكرَمَكَ اللهُ - لأنفُسنا ضَرّاً ولا نَفعاً، ولا لآجالِنا تَقدِيماً ولا تأخِيراً، والأمرُ الله وَحدَهُ، إليه نَرجِعُ وعليه نعول.

وأسأل الله أنْ يَرحَمَها، ويَرضَى عنها، ويُبقيكَ طَوِيلاً بعدَها، وأحمَدَهُ - جَلَّ وعلا - إذ قَدّمها قَبلَكَ، وأخرَجَها عن الدّنيا قَرِيرَة العَينِ ببقائكَ، آمِنةً من المخوف فيك. وأنا مُتطلِّعٌ إلى مَعرِفَةِ خَبَركَ في السَّلْوَةِ والسُّكونِ، فأُحِبُّ - فَدَيتُكَ - أنْ تُعَرِّفَني من ذلك ما أسكُن إليه إنْ شاء الله.

ولا تُفارِق الثِّقَةَ بالله، والتّسليمَ لأمرِهِ، والرِّضا بقَضائِهِ وقَدَرِه، والدّعاء لنا بالفَرَجِ واجتماعِ الشَّملِ على المحَبَّةِ، إنّ الله يَسمعُ مَن دَعاهُ، ويُجيبُ مَن ناداهُ، ويَرحَمُ مَن ناجاهُ، ويتَعَطَّف على عِبادِهِ الممتَحَنين المضطهَدين، جَلَّ وعلا، وتبارك وتعالى، وهو حَسبُنا وعليه تَوكَّلنا.

---

(١) چستربتي، القاهرة.

من ثنايا الرسالة يبدو أنه كتبها من محبسه وهو في الاعتقال.

(٢) ق: بمحنتي.

وكَتَب عن جماعة[١]

كتابُنا عن سَلامةٍ، والحمْدُ لله ربِّ العالمين، وعن أشَدِّ جزَعٍ وحَزَن، وأتمّ غَمٍّ وقَلَقٍ؛ بما بَلَغنا من خَبَرِ وَفاةِ أبي عَليٍّ، نَضّر الله وَجْهه، وَأحسَنَ مُنقَلَبه؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجِعون.

وعَزيزٌ أنْ نَفقِدهُ، وينقُصَ عَدَدُنا[٢] بمِثلِه، ولقد جَلّت المصيبة عندنا فيه، وتَساوَت بنا وبكُم الفَجيعَةُ به. وهذه حالٌ لا بُدَّ منها، ولا مَعْدِلَ عنها، ولا يَملِكُ الإنسانُ دَفعاً لها، ولا حيلَةَ فيها. ولو استطَعنا أنْ نَفدِيَهُ - رَحِمَهُ اللهُ - بالنُّفوسِ فَضلاً عَمّا دُونها، لَبَذَلنا ذلك ضَنّاً به، وشُحّاً عليه، ووِقايةً لكُما من وَحشَةِ فِراقِهِ، ومَرارَةِ ثكلِهِ.

ومِثلُكُما - أيّدكما اللهُ - مَن وَعَظَه دينُه، ....[٣] يَقينُه، وسَلّاهُ عَقلُه، وأرشَدَهُ فَضلُه، ونرجوا أنْ يكون اللهُ قد عَصَمَكُما ووَفّقكُما، ووَفَّرَ عَلَيكُما ثَوابَ الرَّزِيّة فيمَن مَضَى، وألهمكُما شُكرَ العَطِيَّة فيمَن بَقِى، وأنْ يَجعَلَ الجماعَةَ في حِماه لا يُرامُ، وذِمامِهِ الذي لا يُضامُ بقُدْرته.

وكَتَبنا هذا الكِتاب لُزوماً لسُنَّةِ التَّعْزية، ولو استطَعنا أنْ نَكُونَ مَكانَهُ لما تَأَخّرنا مُبالَغَةً في قَضاءِ الحقّ الذي هو لنا، وخاصٌ بنا، وقُلُوبُنا مُعَلَّقَةٌ بمَعرِفة أخباركما - أدام الله عِزّكُما - في رُجُوعكما إلى ما لا بُدَّ من الرُّجُوعِ إليه، وفي صُنعِ الله لكما، وجَبْره وَهْيَكما، وإسبالِهِ سِتْر رَحْمَتِه وعِصْمتِه عليكما. فإنْ رَأيتما - أدام الله عِزّكُما - أنْ تَعرّفانا من ذلك ما نَسكُنُ إليه، ونتَأسّى بكما فيه، فَعَلتُما إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي.

(٢) من هذا نعرف أن المتوفّى من طائفة الصّابئة.

(٣) كلمة غير مقروءة، أقرب قراءة لها: حَذّاه.

وكَتَب[١]

بَلَغني من خبر المصيبة بالشيخ – رضي الله عنه – ما غمّني وساءني، وأوْحشني وأزعجني، وسألتُ الله له الرّحمة والمغفرة، ولك من بعده المثوبة والعِصْمة.

ولو تمكّنتُ من إيثاري لكنتُ بدلاً من رُقعتي هذه، لكنّك تعرفُ من العذر ما يغني عن الشّرح. ولئن تأخّرتُ عنك بقدمي، إنّي لحاضرٌ عندك بنيّتي واعتقادي، ومُشاركتي وإخلاصي.

وعزيزٌ عليّ بفَقْده، وعليّ أنّه ما مات مَن أنت خَلَفُه ووارثه، وقلبي عندك، ومتطلّعٌ إلى علم خبرك في السُّكون والسَّلْوة والتَّسليم لأمر الله.

وأنت – أيّدك الله – وَلِيُّ ما تراه في تعريفي من ذلك ما أشركك فيه، وأحمد الله على توفيقه إيّاك له، إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي.

وكَتَب[١]

بَلَغني من المصيبة الملمّة بنا في الماضية – رحمها الله – ما شاركتُ سَيِّدي فيه، وأخذتُ بأوْفر القِسْط منه. وتصرّفتْ بي في ذلك ضروبٌ من الهموم والأفكار، لم أخرج فيها عن جُملة مُساهمته، وذوي لُحمته، ومَن ضمّ كنفه. وأسألُ الله أنْ يتولّاه بالعِصْمة والمثوبة، ويتولّى مَوْتانا جميعاً بالمغفرة والرحمة، ويمدّ في عمرك وأعمار سادَتي الفتيان، ويطيل بقاءهم، ويحمي هذه السّاحة الكريمة عندي، العزيزة عليّ، من كلّ نائبةٍ ومُصيبة، بقُدْرته.

ونيّتي نيّةُ الحاضر وإنْ غبتُ. وسَيِّدي – أيّده الله – يعلم من ذلك ما يعلمه، ولا أحتاج إلى الإطالة معه. ومثله – أيّده الله – مَن تسلّى وتعزّى، ورجع إلى الأحزم والأولى. وله – أدام الله عزه – عُلُوّ الرأي في إعْلامي من خبره في هذا الحادث وفي الأسباب الأخرى المعْتَورة له – صبّره الله عليها، وأنهضه بها – ما أكون فيه كالمشاهد له، الآخذ بأوفر الحظّ معه، إنْ شاء الله، وبه الثقة، وإليه الرغبة في إصْلاح أحوالنا، وإسْبال سِتْره علينا، وحسبي الله وحده.

---

(١) چستربتي.

وكَتَب[١]

بَلَغني من خبر المصيبة بالكبيرة الماضية – رضي الله عنها، وأحسن لكما العزاء بعدها – ما شَرِكتكما في الانزعاج له، والارتياع منه. وساءني وآلمني أنْ يلحقكما ما يوجب التَّعْزية، وأنْ أنقطعَ بالعائق المشهور عن أنْ أتولّاها بالمشافَهة، وأوفيكما أقصى غايات المُشاركة والتَّسلية. وما أحسبني أحتاج إلى الدّلالة على نيّتي مع ثقتكما بها.

ولو كان ذلك ممّا يُتحمّل، لَسبقتُ النّاس إلى وِقايتكما منه بالنفس، وذات اليد والوُسْع، ولكنه أمر الله الذي لا بدّ من التَّسليم له، ومَوْرد قضائه الذي إليه نذهب، وفيه نشرع، والله يُوفّر ثَوابكما، ويَجبر مُصابكما، ويعيذكما من النّوائب والمصائب، والأسواء والمكاره، بقُدْرته.

وقلبي معلّقٌ بمعرفة خبركما – أطابه الله – في السُّكون بعد الرَّوْعة. وأنتما – أيّدكما الله – وَلِيّان ما تَريانه في إعْلامي من ذلك ما أساويكما فيه كمساواتي إيّاكما في الأحوال كلِّها، إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي.

يبدو أنها رسالة تعزية لأخوين عن والدتهما.

وكَتَب إلى كبيرٍ
يُعزّيه بوالدته[1]

بَلَغني ما أمضاه اللهُ من قَضائهِ العَدْل في الوالِدَة رحمَها الله، ونَقْلِه إيّاها إلى جِواره الذي إليه المصير، وعليه المحصول لِكُلِّ مَن رَفَع اللهُ دَرَجته، وخَتَم بالسَّعادة له؛ فآلَمَني - يَشهَدُ الله - تَألُّـمك، وأخلَصتُ في هذا الملِّم بمشارَكَتِك، وسَألتُ الله أنْ يُجزِلَ ثَوابك، ويَجبُرُ مُصابَك، ويُحسن عَزاءك، ويُطيلَ بَقاءَك، ويقضي بالماضية إلى أفضَل ما أعَدَّ لأمثالها من رحمَةٍ تشملُها، ورضوانٍ يَغمرها، ومَغفِرَةٍ تَحُطُّ وزرَها، وتُوّقر أجرَها.

ولو أمكنَ أنْ أبْلغَ الغاية التي في نَفْسي من قَضاء الحقّ لجَئتُك، وأطَلتُ الجلوسَ عِندَك، وعَمِلتُ في ذلك ما أعملُه مع النَّفيس الأثير من الأهلِ والوَلَد، لكنّكَ عارِفٌ بالعُذرِ مَعرفَةً تُغني عن ذِكْره، وعالمٌ بالنِّية عِلْماً يُمكنُ الثِّقَة، وحَسبُنا الله ونِعْم الوكيل، وإليه المآلُ والمفزَع، وهو المعاذُ والمَلْجأ.

وقَلبي مُتَطلِّعٌ إلى مَعرِفَة خَبَرِكَ في السُّكون والاستقرار، والتَّسليم والاحتِساب، فَتُعرّفُني - أيّدك الله - ما وَفّقَكَ اللهُ له من ذلك إنْ شاء الله.

---

(١) چستربتي. (إلى كبير يعزيه بوالدته) إضافةٌ منّا للتوضيح.

نُسْخة فَصلٍ من كتاب[١]

لما كان بيني وبينه - بَرّد اللهُ مَضْجَعَه - من تَقارُب القُلوب مع تَباعُدِ الدِّيار، وتَفاوُضِ الأحوالِ مع تَنازُح الأوطان، والانتصابِ في الخدمة التي تَجمَعُنا، والاتّفاق في الحال التي تَضُمنّا فما أحَدٌ من إخوانِه الفاقِدين له - نَضّر الله وَجْهه - أولى مِنّي بالاستيحاش والارتياع، وحرارَة الصَّدْر، وتعَذُّر الصَّبْر.

وإنْ كان اللهُ - عزّ وجلّ - قد أسعَدَهُ بعزِّ الانصِراف في أيّام الأمير، أطال الله بقاءَهُ، وبَلَّغَه من ذلك مَحبوبَهُ ومَأمولَهُ، وجَعَل له منك العِوَض الخطير، والخلَف الأثير، ومَن يَسُدُّ مَكانَهُ سَدَّ الكافي، ويُغني بَعدَهُ غَناء الوافي، ويَسلُكَ في الفضائل سَبيله، غَير عادِلٍ عنها، ويَجري فيها إلى غايتِهِ غَيرَ واقِعٍ دُونها.

---

(١) چستربتي.

Edited Text Series

DIWĀN RASĀʾIL AL-ṢĀBIʾ

THE REGISTRY OF AL-ṢĀBIʾ LETTERS

By ABŪ ISḤĀQ IBRĀHĪM AL-ṢĀBIʾ (384 AH/ 994 CE)

VOLUME 1

Compiled, Edited and Studied by:

IHSAN DHANOUN AL-THAMIRI



Al-Furqān Islamic Heritage Foundation

Centre for the Study of Islamic Manuscripts



AL-FURQĀN

ISLAMIC HERITAGE FOUNDATION

Centre for the Study of Islamic Manuscripts

22A Old Court Place

London W8 4PL, UK

Tel: + 44 (0) 203 130 1530

Fax: + 44 (0) 207 937 2540

Email: info@al-furqan.com

Url: www.al-furqan.com

First Edition: 2017 CE / 1439 A.H.

ISBN: Set number: 978-1-78814-719-4

Volume number: 978-1-78814-718-7

DIWĀN RASĀ'IL AL-ṢĀBI'

THE REGISTRY OF AL-ṢĀBI' LETTERS

By ABŪ ISḤĀQ IBRĀHĪM AL-ṢĀBI' (384 AH/ 994 CE)

VOLUME 1

Edited Text Series



AL-FURQĀN
ISLAMIC HERITAGE FOUNDATION
Centre for the Study of Islamic Manuscripts

DIWĀN RASĀ'IL AL-ṢĀBI'

THE REGISTRY OF AL-ṢĀBI' LETTERS

By ABŪ ISḤĀQ IBRĀHĪM AL-ṢĀBI' (384 AH/ 994 CE)



نسخة كتاب انشاه ابو اسحق ابرهيم بن هلال
الصابي عند فتح بغداد وانهزام الاتراك عنها في جمادى
الاولى سنة اربع وستين وثلثمئة بشرح الحال
ووصف الخلاف الى الامير ركن الدولة
فان لله قضايا نافذه • واقدارا ماضيه • فيهن النعم
السوابغ • والنقم الدوامغ • فاما النعم فيؤتيها عباده
اجمعين باذنه • ثم يجزي بها الشاكرين منهم عاجلا • واما
النقم فلا تقع سلفا وابتداء • لكن قصاصا وجزا
بعد امهال وانظار • وتحذير وانذار • فاذا حلت بالقوم

VOLUME 1

COMPLILED EDITED AND STUDIED BY

IHSAN DHANOUN AL-THAMIRI